مهد البشرية

الحياة في شرق كردستان

تأليف
دبليو. أي. ويگرام
ادگار. تى. أي. ويگرام

ترجمة
جرجيس فتح الله




منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

مهد البشرية

الحياة في شرق كردستان

تأليف
دبليو. أيْ. ويگرام "دكتور في اللاهوت"
ادگار. تي. أيْ. ويگرام "مؤلف كتاب شمال أسبانيا"

نقله الى العربية
جرجيس فتح الله

دار ئاراس للطباعة والنشر



السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

***

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر - شارع گولان - اربيل- كُردستان العراق

اسم الكتاب: مهد البشرية - الحياة في شرق كردستان

تأليف: دبليو. أي. ويگرام وإدگار. تي. ويگرام

نقله الى العربية: جرجيس فتح الله

من منشورات ئاراس رقم: ٩٥٧

الغلاف: مريم المتقيّان

الطبعة الرابعة، أربيل - ٢٠١٠

رقم الإيداع في المديرية العامة للمكتبات العامة في إقليم كردستان: ١٥٣/٢٠١٠

المقدمة

هذا هو كتاب «التآخي» الثاني الذي وعدت به قراءها في اوائل يوم صدورها عقب بيان الحادي عشر من اذار ووقف حرب الاخوة. تآخر صدوره للمصاعب التي يعانيها الناشرون من المطابع والطباعة.

هذا الكتاب وامثاله هي كتب سياحات ورحلات ودراسات وانطباعات سجلها باحثون وكتاب اجانب مروا ببلادنا لسبب ما او آخر وبعضهم استقر فيها سنينا فأموا كردستان العراقية في مختلف الفترات سائحين او فضوليين او موظفين عاملين او ساسة مكلفين بمهام خاصة رسمية أكانت ام سرية. ولنشر امثال هذه الكتب باللغة العربية فوائد جمة تتضاعف اهميتها في هذا الظرف بالذات ظرف السلام والاستقرار واعادة البناء والتصافي. فهناك مثلا فائدة في تعريف العالم العربي بالشعب الكردي واغناء المكتبة العربية الفقيرة من هذه الناحية تطلعا الي المزيد من التفهم. فها هوذا شعب كبير في شماله يتصل به باكثر من صلة لايعرف عنه قدر معرفته بالشعوب الاخرى. ان ادراكه له منبتا وتاريخا وحضارة وخلقا وفكرا يعينه على فهم وتقدير تطلعاته الوطنية والقومية فلا تعود مطالبة الشعب الكردي بحقوقه المشروعة ومدافعته عنها تثير العجب والاستنكار من جانب غير منصف يجهل الحقيقة.

ان الاوضاع السياسية التي سادت الشرق الاوسط في النصف الاول من القرن العشرين جعلت بلاده ولا سيما العالم العربي خاضعة للنفوذ الاجنبي باقدار متفاوتة. ومن بين الوسائل التي كان يلجأ اليها هذا النفوذ لضمان بقائه، نزع الثقة وبذر الشك المتبادل بين العناصر القومية والمذهبية في البلد الواحد وتشجيع الضغائن بين الطوائف بعد اختراعها. معتمدا بذلك على عقدة الجهل الذي تعاني منه تلك الشعوب. لان الوحدة الفكرية والتعايش الودي والتلاحم بين مواطني البلد الواحد هو الخطر الاعظم على هذا النفوذ ولذلك ظل يحرص على تعلية الجدار الذي بناه بين القوميتين الرئيستين في بلادنا وحبس الافكار في نطاق الحقد والثأر والتوجس والحذر. وليس مثل الكتب وثمار القرائح معولا يهدم هذا الجدار. قد تكون محتويات بعض الكتب او بكلمة اخرى بعض محتويات هذه الكتب مغلوطة او مضللة عمدا ام بحسن نية او قد تكون حماسية او متحيزة او مما لايرتاح اليه المترجم او القارئ لاسباب تتعلق بأرائه الشخصية. وقد تنكأ جراحا او تُذكرّ بماض معتم -.. مع ذلك كله فهي ضرورية. ان اشد ما يعيبه علينا الاوربيون نحن الشرقيين ولاسيما سكان هذه المنطقة هو اننا نهرب من الحقائق الاليمة ونحاول اسقاطها من الحساب كأنها لم تحدث اطلاقا وهذا مايسم حلولنا للمشاكل التي تجابهنا بميسم النقص والنظر اليها «بعين الديك» كما يقول المثل اي من جهة واحدة وكل هذا لاننا لانريد ان نتألم او اننا نكره ان نذكر بخطأ اقدمنا عليه نحن ام اسلافنا. ان التاريخ طاحونة صماء لاترحم احدا

ولاتتحيز لاحد ولا تحابي احدا والجراح قاتلة ان هي التأمت على قيح والحري بالكتاب العراقيين عربا كانوا ام اكرادا ان لا يتهيبوا الماضي لكونه مؤلما طالما كان في هذا الماضي ثم فائدة للحاضر والمستقبل وبذلك فحسب يظهرون صدقهم واخلاصهم لعملهم ورسالتهم وبالتالي لشعبهم.

لذلك كان من الغباء والحمق ان نتصور بان نقل امثال هذه الكتب الى العربية ونشرها يرمي الي تأريث الاحقاد او ايقاظ الفتنة او اجراء محاكمة عامة لالقاء تبعات الاحداث الماضية على هذا الفريق دون ذلك. لاسيما اذا ادركنا الحقيقة الأتية وهي ان العناصر العربية والكردية في زمن النفوذ الاجنبي وتحت ظل الحكومات الاوليغارشية لم تكن تملك زمام امورها فلا تعود موضع اتهام في هذه المحاكمة مطلقا. بهذا الشكل علينا ان ننظر الى كتابنا المترجمَ. وبهذه الروح المتفهمة تم السماح بنشره ونشر امثاله من قبل وزارة الاعلام.

ان استخلاص الدروس والعبر وتفهم تاريخنا القريب هو الغرض الثالث لنقل هذه السلسلة من الكتب.

كانت الدول المسيطرة على هذه المنطقة ايام تأليف الكتاب غير الدول التي تحكمها اليوم. لقد دالت الدولة العثمانية بسلاطينها ودالت الدولة الايرانية بقاجارييها وامبراطورية روسيا بقياصرتها وتخلص العراق من النفوذ الانكليزي واحتلاله وهذا الكتاب اصلا يروي قصة مأسي الشعوب والطوائف التي كانت تعاني من نفوذ هذه الدول في الشرق الاوسط وفي مقدمتها الكرد والعرب والارمن والاثوريون. كيف كانت اطماع تلك الدول تعبث بمقدرات هذا الشعب الامي يرويها لاهوتي اسكتلندي مثقف للغاية واديب وسياسي قدم مع الاول في زيارة. مكث الاخير زهاء عشر سنوات في شرق كردستان مبعوثا دينيا من لدن رئيس اساقفة كانتربري لاستصلاح احوال الاثوريين الدينية في موطنهم بكردستان. و وظيفته التي تلون الكتاب بلون صارخ لاتحجب مطلقا تلك الاحكام السياسية والاجتماعية والملاحظات العميقة الطريفة التي يبديها. ونكتتهما اللاذعة احيانا واستخدامهما الفاظا قوية لنعت بعض الاحداث والشخصيات لا تخفي مطلقا عطفهما البالغ على شعوب منطقة شرق كردستان والبلاد العربية التي وصفاها وتخوفهما من المصير الاليم الذي ينتظرها بعد الحرب الاولى الكبرى ثم اعتذارهما وتحيزهما الظاهر لحكم الاحتلال الانكليزي. وبهذه الروح المطلقة تراهما يظهران تحمسا للاكراد مع شجب قاس احيانا لعادات المجتمع القبلي وما يشوبه من نقائض ونقائص وعيوب ولهذا لايمكن ان نحمل ما كتباه عن الاكراد والاثوريين محمل تحيز او محمل شجب في الوقت ذاته. لقد وجد المؤلفان في الشعب الكردي واثوريي حكاري مَشابَه كثيرة جدا بشعبهم الاسكتلندي القبائلي في القرون الوسطي الى ماقبل ثلاثة قرون فحسب ولذلك كان كتابهما مليئا بالمقايسات الظريفة الملذة والاقاصيص والحكايات والنوادر. فكانت مهمتنا صعبة في تقريب هذه المقايسات الي ذهن القارىء العربي بالهوامش والتعليقات والشروح فاقتصرنا على التعريف باهم ما ورد من تلك المعجمات والاسماء والحوادث لمساعدة القارىء في تفهم المقصود حيثما خيل لنا بان الموضوع سيغمض عليه. واختصرنا في شروحنا لتجنيبه عناء قطع الاسترسال والنظر الى الحاشية باستمرار.

واذا كان لمترجم الكتاب ان يقول شيئا خلاف ذلك فهو نصيحة يزجيها للقاريء.

ان هذا الكتاب هو مجموعة احداث تاريخية واجتماعية بعيدة عن زمننا بعض الشيء فضلا عن كونها مسحا جغرافيا وخلقيا وحضاريا كتبها اجنبي مستطرق قد نتفق معه وقد لانتفق في آراء له وان هذا الكتاب بالاصل صدر في طبعتين وقد قرأه الاف الناس فهو والحالة هذه جزء من التاريخ العام للمنطقة قابل للنقاش والاخذ والرد والواجب والحالة هذه ان يقرأه الجميع بسعة فكر واحترام رأي وتسامح ان كتابا يرضى عنه جميع القراء هو كتاب لم يؤلف بعد. اما اذا كان القاريء من اولئك السيىء الظن في كل شيء او ممن يرون تحت كل حجر أفعى ويتخيلون الغرض الاسود تحت البرقع الابيض فخير لامثال هذا القاريء ان يجنبوا لأنفسهم الانفعال، بنبذ الكتاب جانبا بعد الانتهاء من قراءة هذه الكلمة.

بغداد في ١٩٧١/٧/١٠

جرجيس فتح الله

ملاحظة عن الطبعة الأولى

نشرت الفصول الستة عشر الاولى من هذا الكتاب في ربيع العام ١٩١٤ ومنذ ذلك الوقت واهتمام الشعب الانكليزي يزداد بهذه البلاد بعد قبول الحكومة البريطانية مهمة الانتداب عليها. وكذلك بسبب الدور البطولي الرائع الذي تام به جبليوها في الحرب العظمى.

وفي الوقت الذي لم يقم المؤلفان باية محاولة لبسط قصة «انكلترا في العراق» كاملةً. فقد حبذا بمناسبة صدور الطبعة الثانية ان ينتهزا الفرصة للوصول بقصة الاثوريين الى حد كتابة آخر سطر من هذا الكتاب ثمّ وان الحقائق التي تضمنها الفصلان الاخيران قد جمعت وتمت مراجعتها اثناء مقابلات شخصية طويلة مع ابطالها وهم في خضم احداثها.

١٩٢٢

مقدمة الطبعة الأولى

هنالك مثل اسباني يقول «لعمل سَلَطَة توابل كثيرة التعقيد، أنتَ تحتاج الى اربعة اشخاص على الاقل. لان النقائض الخلقية اللازمة لعملها لايمكن ان تجتمع في واحد. فالمسرف يصب الزيت دهاقا. والبخيل يقطر الخل تقطيرا. والحكيم يذر الملح ذرا عادلا والمجنون يقوم بتحريك المزيج». وشبيه بهذا ما قيل «انه يحتاج الى شخصين على الاقل لتاليف كتاب رحلة: قادم جديد لتزويد محتوى الكتاب بالانطباعات الاولى، ومقيم عتيق ليكشف عن بواطن الامور».

ومع ان قيمة الجوهر يجب ان تظل اكثر أهمية من القشور. فالمؤلفان يأملان ان تكون تلك القشور صحيحة وحقيقية على الاقل. ان احد مؤلفي هذا الكتاب اقام في البلاد ثلاثة أشهر فقط. أما الآخر فقد عاش فيها عشر سنين. وكان الاول يجهل الشرق جهلاً تاماً ولايفقه كلمة من لغة شرقية. والثاني بلغت علاقاته بعشائر المنطقة التي عاش فيها حدا من الثقة بحيث صار افرادها يفضون اليه حتى بالخرافات التي يدينون بها وهي اعمق اسرارهم طرا.

ان البلاد نفسها ذات جوانب مهمة مختلفة ومهمة جدا وايم الحق. ففيها مناظر من اروع المناظر

الطبيعية في العالم وطائفة من اهم اثار العالم التاريخية. انها مهدُ واصلُ اسلافنا الهندوربيين. والاساطير الشائعة فيها تصل بها الى جنة عدن وتقرنها بنوح وابراهيم. ويحفظ لنا فولكلورها فكرة مادة الطبيعة التي احتلت دماغ الانسان القرد. وتاريخها يسجل اول فجر أهلّ على المدنية، ومأثرها نشرح قيام وسقوط اول امبراطوريات التاريخ العظيمة. وحياة سكانها اليومية في العصر الحاضر مازالت أشبه بحياة اباء التوراة، بل حياة اوروبا في العصور المظلمة. حياة جبال اسكتلندا في ايام ملوك آل ستيوارت.

انها لبلاد وعرة لا يمكن تقحمها حتى لو قيست بمقياس بلاد نصف متمدنة. وصعوبة التنقل فيها هي صعوبة عامة حتى عند من يحكمها ولو بالاسم. لقد سمح الحظ لمؤلفي الكتاب بفرصة التجوال فيها والاقامة. فقاما بتدوين انطباعاتهما المتخلفة في رأسيهما فكانت هذه الفصول.

كان سبب اقامة احد المؤلفين في هذه الربوع. عضويته في بعثة رئيس اساقفة كانتربري الى الاثوريين. هذه البعثة التي كانت مؤلفة من خمسة قساوسة او ستة من الانكليكان بقيت في المنطقة مدة تناهز خمسة وعشرين عاما بفضل مؤازرة رؤساء الاساقفة المتعاقبين. واوجدت بطلب من بطريرك الاثوريين (النساطرة) وغيره من السلطات الكنسية وكان هدفها تثقيف رجال الدين والعامة دون التدخل في معتقداتهم المذهبية العريقة التي تستدعي الاهتمام والدراسة.

المؤلفان

الحقيقة هي انك عاجز عن معرفة بلادنا الجبلية الوعرة كما نعرفها نحن. انها عالم مترام ومجاهل مغلقة تكتنفها الجبال والوهاد والكهوف والبحيرات والوديان والنجاد والشعاب. انها تصيب اجنحة الشيطان نفسه بالتعب اذا ما خطر بباله ان يحلق فوقها. واما شعبها فشعب حر طليق كالنحل البري. لا محاكم هناك مثل (محاكم بيلي) وليس بينهم حكام يحتقبون السيف عبثا. هؤلاء القوم لا شرعة لديهم غير طول خناجرهم والحسام العريض هو المطارد والهدف هو المدافع واصلب الرؤوس ابعدها عن الاذى.

(سر والتر سكوت)

(من رواية «روب روي»)

1

ماوراء عوارض السكة الحديد
حلب وأورفة

الجني الاسير المنطلق من قمقم سليمان النحاسي. في جو لندن القرن العشرين. يجد هنا مخلوقات من بني جلدته وسط اشياء كثيرة غريبة جداً. هناك قاطرات بخارية هي في الواقع مثله جاءت من عالم الجان. الا انها عوملت اقسى معاملة فقد شدها سحر السلطان القوى الى عمل اشق واضنى مما يحلم به الملك سليمان.

والحق يقال ان محنة سليمان مفهومة. إذ لو ان معشر الجن انقرض اليوم (والمرء يخالجه الشك في هذا بعد زيارته آسيا)، فلا ريب وان (سلندرات) القطار ومراجله تحركها قوى الجان. انها الان تعمل بانتظام بعد ان كان عملها نادرا متقطعا. ومع ان الضجيج الذي تثيره حالياً هو اقل من الماضي. الا ان ما تنجزه من عمل هو اكثر بكثير. ان خدام المصباح والخاتم السحريين ينتجون طاقة عظيمة ذات قوى انفجارية. الا ان دائرة نشاطهم محدودة. فهم يستطيعون تشييد «قصر علاءالدين» في ليلة واحدة ونقله الى افريقية بومضة عين. الا ان هاته المرَدَة الاليفة المدجنة قادرة على اجراء تغيير سحري في احوال مجتمعات برمتها وتقديم عقارب ساعة التطور الحضاري بوثبة واحدة.

والان راح غربيو هذا العصر، هؤلاء السحرة. يطلقون تلكم العفاريت الجبارة على عاصمة (هرون الرشيد) نفسها. وان سلالة هذا الخليفة ستهب من رقادها في صبيحة يوم جميل بعد قرون لتجد نفسها في سماء وارض جديدتين لا عهد لها بمثلها.

بدأ العمل بسكة حديد بغداد ووصل القطار حتى مدينة حلب. و «ذاك النهر نهر الفرات».. علته قسيسات وجسور السكة وتقاطعت فوقه. حتى لم يبق للقطار الا وثبة واحدة ليصل الموصل قاطعا اراضي سهلة وبادية قفراء لاتحتاج الى اكثر من مد العوارض ورصفها دون تمهيد او تعبيد. وستعود الرحلة التي تستنفذ منك الان اسبوعين - فهي نزهة لاتزيد عن عشر ساعات من السفر. وما هو الان مستنقع من الماء الراكد سيجرفه خط من خطوط التجارة الرئيسة في العالم. ثم من ذا الذي يستطيع ان يتكهن بالتغيير الذي سيتلو هذا؟ ان الاصلاحات الغربية لايمكن ان تهدي الشرق سواء السبيل او ان تصلحه. شأنها في هذا شأن فتوحات الاسكندر المقدوني. الا انها قد تُخرِج من غير قصد صنفا من اصناف الانسان «الفرانكشتايني»[1]

---

[1] غول في القصص الغربي (شللي: فرانكشتاين) أثر عنه صفة الفتك بمن خلقه واوجده وقد نسجت حوله حكايات بوليسية وعملت منها أفلام سينما (المترجم)

على ان الشرق في هذه الاثناء كان يتجمل بالانتظار غير شاعر بما يجري لانه لايفكر في غده فمع ان اشباح الاحداث المقبلة واضحة لعينيه الا انها غير مفهومة. فالحياة مازالت هي هي منذ ايام ابينا نوح، وسائح هذا الجيل يجد تلك العادات والاخلاق في شرق ولاية حلب لم يطرأ عليها اي تغيير بينما يجد سائح الجيل التالي انها قد كنست كنسا وعفي عنها لذلك فمن المحتمل ان يُعلّق بعض الاهمية على وصف غير مترابط الحلقات للحياة التي تتمتع بها تلكم البقاع او تعانيها. حياة قد تجدها المجتمعات الاخرى الاكثر تنظيماً امراً شاذاً غير مألوف.

حلب مدينة شرقية كبيرة تجثم في منخفض متطامن حول قلعة عظيمة مشرفة على كل ما في المدينة من ابنية. وهي الان رأس السكة الحديد الحالية وقد بدأت تباشير معالم الحضارة الغربية تظهر فيها. فغدا الحي القريب من محطة سكة الحديد زاخراً بالشوارع العريضة والفنادق. لكن السائح العائد (لا السائح القادم) هو الذي سيندهش لهذه المعالم فالاخير لن يدركه غير العجب من تقليد ساذج بدائي يراد به ان يخلف تأثيراً للشيء الحقيقي الاصيل. ترى الموضع يصقل وتعاد هندمته من الخارج. فترتفع المنازل الجديدة على الطرز «الافرنجي» وتُتلِع جيدها فخورة كأخوة لها تنتشر حول حي (السوق) في طنجة. اما في الداخل فتجد فيها القذارة الشرقية وتتبين فقرها في وسائل الراحة. فالتركي يرتاح لماّ تكسو جسمه اية قشرة. وترى اغلب دروب المدينة ضيقة ملتوية سيئة التعبيد تعلوها من الجانبين البواكي والشرفات الخشبية التي يكاد بعضها يلتحم بالاخر فوق الزقاق مثل اضراس الفك. وفي وسط هذا التيه من المنعطفات المنفرة تشرئب المساجد باعناقها. وهي البنايات الوحيدة التي تستلفت النظر بمنائرها البارزة من بعيد. على انها لاتصلح ان تكون نقاط هداية الى سبيل او موضع.

وتقوم قلعة حلب المشرفة على المدينة فوق تل ترابي هائل الجرم وهي ليست اصغر بكثير من قلعة كورف (Corfe). ان هذا التل ارتفع على نشز خفيف من الارض داخل اسوار المدينة بتكديس المزيد من التراب. وربما كان وسط التل طبيعيا الا ان القشرة هي من عمل الانسان. لانه كان بالاصل احد المواضع المرتفعة العظمى التي خصصت لعبادة (بعل) تلك العبادة التي ازدهرت وانتشرت في شمال سورية وتركت أثاراً مشابهة لاثار ممارستها في التلال المجاورة كتل ّ(حمص) وتل (بعلبك). ويحيط بقاعدة التل خندق جاف. وجوانبه الشديدة الانحدار تكاد تغص بالابنية وقمته تتوجها الابراج والاسوار وهي الجزء الاعتق من الحصن، وليس له غير مدخل واحد وهو باب ضخم. وبناء الحصن القائم الان هو من عمل (صلاح الدين) الذي قيل انه استخدم لذلك، اسرى الحرب الصليبيين ممن وقع في يده بنتيجة معركة (طبرية) وفي القلعة بعض الاساليب العمارية الغربية مما يعزز هذا الزعم. على انها كانت قلعة مشهورة جداً قبل صلاح الدين بزمن بعيد.

كانت حلب احدى القلاع القليلة التي صمدت صموداً مشرفاً امام اول اندفاع للمسلمين. اذ

لم يصمد للحصار الشديد اية مدينة من مدن الحدود الشرقية العظيمة كأديسا (أورفه) وآميده (آمد) ودارا (ديار بكر). لقد وصل النزاع الطائفي في الامبراطورية البيزنطية حداً من العنف والشدة في تلكم الفترة حتى جعل الفاتحين العرب يدخلون البلاد ضيوفاً مكرمين اكثر منهم غزاة.

كان يتولى الدفاع عن قلعة حلب قائد بيزنطي يدعى يوكنّا (Youkinna) ابلى في دفاعه بلاء حسنا واستمات حتى كاد القائد الجبار (خالد) الملقب «بسيف الله المسلول» يقنط من النجاح. ولم يستمر في حصاره الا بأمر مباشر خاص صدر له من الخليفة (عمر). وتطوع عبد اسود شجاع يدعى (دامس) لمحاولة اتسمت بالبسالة الخارقة ولم يعترض (خالد) على الخطة التي اعتمدها ولاجل التمويه وافق على سحب قواته المحاصرة الى مسافة. فظن (يوكنّا) ان الحصار قد رفع عن المدينة وابتلع الطعم بسهولة فتراخى حرس القلعة وراح رجال الحصن يعربدون ويسكرون. في حين تسلل دامس مع ثلاثين من رفاقه في دجنة الليل حتى بلغوا الاسوار وبنوا من جسومهم سلماً بشرياً قاعدته العبد الجبار وعلا كل واحد منهم كتف الاخر حتى بلغ سابعهم حافة السور فاعتلاه ثم حل عمامته واتخذ منها حبلا اخذ يسحب به رفاقه الى الاعلى واحدا فواحدا. وبعد ان قضوا على فئة قليلة من الحرس وهم في طريقهم الى باب القلعة. نجحوا في الاستيلاء على المدخل قبل ان يفطن رجال الحامية وظلوا يدافعون عن هذا المدخل في وجه الحرس المستيقظ حتى اصبح الصباح ووصل خالد لنجدتهم. فاستسلم (يوكنّا) حين وجد المقاومة لاتجدي.

ورضيت (حلب) بمصيرها وبقيت منذ ذلك الحين مسلمة. الحق يقال ان البيزنطيين استعادوها بصورة مؤقتة بعد ثلاثة قرون ونيف عندما ساعد اضمحلال قوى الخلافة العباسية، كلا من نقفوروس (Nicephorus) وزيمسقس (Zimisces) على الاندفاع حتى مشارف بغداد. الا انها كانت فتوحات وقتية اشبه بغارات سلب ونهب منها باحتلال عسكري. لقد كان اليونانيون والرومان دوما غزاة اغراباً وها هي الان اقاليمهم الاسيوية تعود لاسيا الى الابد.

هناك غزوة وقتية اخرى كانت آثارها اسوء من السالفة ولم تكن (حلب) هدفا خاصا من اهدافها. لانها شملت رقعة مابين النهرين. ففي العام ١٤٠٠ زار هذه المدينة أشد فاتحي التاريخ وحشية وبربرية وهو (تيمور) التتري المرعب. وكالعادة خلد احتلاله حلب باقامة هرم من الرؤوس البشرية المقطوعة. وفي اثناء تكديسه تلك الرؤوس راح يسلي نفسه (ولم يكن ذلك بالامر غير المألوف منه) بالبحث في مسائل فقهية مع علماء المدينة. ولابد وان هؤلاء المساكين التاعسين كانوا اشبه بطائفة من الفلاسفة تواجه ابا هول (ثيبه)[2] لاسيما عندما افتتح السائل المرعب بحثه بالسؤال المهذب التالي «ايهما احق بالشهادة؟ اولئك الذين يموتون

[2] ثيبه عاصمة (بويوثا)الاولى وهي من الدول اليونانية الغابرة (المترجم)

في صفوف جيشي ام اولئك الذين يموتون في صفوف جيش عدوي؟ »

ومن حسن حظهم انه كان يوجد بينهم من اوتى لباقة (اوديب)[3] وذكاؤه فادّرى الطعنة باقتباس حديث نبوي بهذا المعنى «ان اولئك الذين يموتون في سبيل دينهم هم من اهل الجنة ولا يهم تحت اي لواء كانوا او حاربوا ».

ويمكن ان ينظر الى غزوات (تيمورلنگ) بمثابة نهاية لتاريخ ما بين النهرين الزاهر وختام اول فصل من فصول تأريخ الحضارة في العالم واعظمه شأناً. فهنا خرجت البشرية ولاول مرة من عصر الهمجية وشيدتْ مدينة (بابل) وهنا نشأت امبراطوريات عظيمة متعاقبة اتخذت عواصمها مدنا مثل (كركميش ونينوى وبرسبوليس وسلوقية قطيسفون وانطاكية)[4] وهنا بعد أدْهار من الفتوح والكر والفر برزت امجاد بغداد. تلك هي البلاد التي استظهرت خصوبتها وكثافة سكانها على كل الآفاق والكوارث ولم تزايلها قابلية الحياة والانتعاش بعد كل نائبة تمنى بها او خراب يداهمها على انها بالأخير استنفذت كل طاقة فيها على الابلال والشفاء ولم يعد ثم. مايذكر عنها بعد غزوة (تيمور). لقد كان الفاتحون غيره يعمرون ويخربون اما التتر فقد خربوا ولم يعمروا شيئاً. انهم دكوا المدن دكا ومسحوها مسحا من وجه الارض ودمروا قنوات الري التي كانت تمد الحقول بالماء والخصوبة. وما الصحراء القفر التي تمتد سهول الشرق في ايامنا هذه إلاّ شاهد رئيس على وجود (تيمورلنگ)[5] ثاويا تحت قبة مزاره في سمرقند.

على ان وجود حلب قريبة من البحر ساعدها على الشفاء من جراحها القتالة. فعادت بعد مائة وخمسين عاما من غزوة (تيمور) لتكون سوقا تجارية من اسواق الشرق الكبرى. فأمها التجار اللندنيون وفي مقدمتهم سـيد النمر Master of the Tiger كما جاءها (عطيل)[6] مع البنادقة ليشتبك في حربه الشهيرة مع «الاتراك الكفرة» وفيها صرف جون ڤيرني John

---

[3] ان جزء من اسطورة (اوديب) المشهورة يتعلق بكيفية قتله ابا الهول الذي اجتاح مدينة ثيبة واخذ يقضي على سكانها تحقيقا للنبوءة التي قضت على هذا الملك بان يقتل اباه ويتزوج امه، اعلن(كريون) ملك ثيبة انه سيعطي يد جوكاست (ام اوديب) لمن يقتل هذا الغول فتصدى له اوديب واحتال عليه حتى قتله (المترجم).

[4] كركميش من عواصم الحثيين الاولين جنوب تركية وما تزال اثار لها باقية. ونينوى هي آخر عاصمة اشورية آثارها وموقعها قريبان من الموصل. وبرسپوليس عاصمة الفرس بناها داريوس ودمرها الاسكندر وآثارها شاخصة اليوم قرب شيراز. وسلوقية عاصمة السلوقيين في العراق بناها سلوقوس قرب بغداد الحالية واثارها تُرى الان عند (طاق كسرى). وانطاكية هي عاصمة انطيوخوس وما زالت الان قائمة وهي في جنوب تركيا (المترجم).

[5] تيمورلنك (١٣٣٦-١٤٠٥) مؤسس الامبراطورية المغولية الثانية عرف بانتصاره الساحق على الملك العثماني بايزيد في معركة (انقرا ١٤٠٢) توفي اثناء عملياته الحربية ضد الصين (المترجم).

[6] جنرال مراكشي كان بخدمة البنادقة. وهو بطل تمثيلية شهيرة لشكسبير اتخذ اسمه لها عنواناً (المترجم).

Verney بضائعه في متنصّف القرن السابع عشر ووصفها بانها «اشهر مدينة من مدن السلطان الاعظم ومحل التقاء التجار من شتى انحاء المعمورة» ومما احصاه هذا التاجر بين البضائع المعروضة، العفص الذي يستخدمه الصباغون. وما زالت هذه المادة من محاصيل جبال كردستان الهامة. على انه لم يذكر شيئا عن عرق السوس وهو اهم المحاصيل طرا في الوقت الحاضر.

وتدين (حلب) بشهرتها الى العرب اولا مع انها كانت معروفة جدا عند اليونان والرومان وكانوا يسمونها (بيريا Berea) وباعتبارها موقعا في غاية الاهمية فلاشك في انها استفادت من خمول شأن (انطاكية) التي كانت المدينة الثانية في الامبراطورية البيزنطية. وسيزيد من شأنها خط السكة الحديد الجديد المباشر الى ميناء الاسكندرية. واذا ماربطتها سكة حديد بغداد باسطنبول والهند فقد تبلغ المقام الذي بلغته انطاكية من قبل.

كانت مهمتنا الوحيدة في (حلب) اكتراء عربة تقلنا مع أمتعتنا واموالنا الى الموصل عبر البادية. وهذا الموضوع اشغلنا ثلاثة ايام في الاخذ والرد حتى انتهى بنا الى الاتفاق مع متعهد عرض ان يقلنا بعربته الى الموصل بتسعة پاونات في رحلة تستغرق اربعة عشر يوما[7] على ان يضاف اليها مجيديان (حوالي سبعة شلنات) عن كل يوم استراحة نقرره خلال الرحلة.

وكانت العجلة التي افترضنا انها ستبلغ بنا مطافنا (او هجرتنا)، اشبه بعربة ذات اربعة دواليب وفيها حيوية البرغوث وخفته. ووثباتها تشبه نطات القطة الصغيرة. وهي تتألف من مقعد امامي للسائق مع رف شدت عليه امتعتنا الى الخلف ولكن لا يوجد فيها مقاعد للمسافرين ولهذا فرشنا مطارحنا والحفتنا فوق طبقة من التبن المنشور على ارضيتها. وكان معظم زنبركاتها وبرامقها مكسور وقد ربطت الكسور بلفات كثيرة من الحبال والخيوط. واخيرا كان المشمع الذي يغطي سقف العربة (وهو في الاصل وقاء للمسافرين) ذا فائدة كبيرة في حفظ الامتعة كلما طارت في الفضاء بفعل الهزات والخضات العنيفة. واسطة النقل هذه تعرف باسم (العربانة) وهي مرادف لكلمة يايلي[8] وهي صيغة قريبة الشبه بمصطلح [9] (Onomatopoeia). للتعريف بالشيء المنزلق الذي يسير على عجلات. هذه العربة تجرها اربع خيول هزيلة ضامرة. وليس سبب هذا العدد من حمل العربة اثقالا كثيرة بل لسوء حالة الطرق. فاثنان منهما كانا مشدودين الى المحور والآخران وهما احتياطيان ربطا الى

---

[7] تستغرق السفرة عبر البادية الى الموصل مباشرة. زهاء عشرة ايام وهذا الطريق هو الذي تسلكه بغال الحكومة التي تحمل البريد. الا اننا انحرفنا قليلا الى الشمال لنقوم بزيارة مدن «اورفه وديار بكر وماردين» (المؤلفان).

[8] (يايلي) كلمة تركية على اغلب الاحتمال. ومعناها (العجلة ذات النوابض والزنبركات).

[9] معنى هذه اللفظة الحرفي: تأليف لاسماء او نعوت مشتق من أصوات او حركات تشبه تلك التي تصدر من الشيء. او الحركة نفسها القريب الترجمة الى خاصيته بالطبيعة كاستخدامنا كلمة الفحيح لصوت الافعى والشخير لما يصدر من الانسان من صوت اثناء نومه (المترجم)

جانب منهما مثل زوج من عجلات هوميروس الحربية. وقلما كان الحصانان المشدودان ستجيبان للزجر والحث على السير وكان معدل المسافة التي نقطعها اقل من مستوى الحد الادنى الاعتيادي الذي يتوقعه المرء من «جُرْد آسيا العتاق». اذ لم نكن نقطع اكثر من عشرين ميلا في اليوم الواحد. وكان سائقنا رجلا نحيلاً كأنه غمس في الماء، ذا انف معقوف ذكرنا حالاً بشخصية آيكي موسيس Ikey Moses في صور اللي سلوبر Ally Sloper الكاريكاتورية القديمة. وبدا لنا وكأنه لا يكف عن الخروج من حطام سفينة غارقة الى جزيرة تقع في وسط بحر صحراوي بعين ثيابه دون ما تغيير. كان كثير التذمر من كثرة امتعتنا عظيم الشكوى لانه لم يأخذ معه علفاً كافياً. على اننا نظن انه كان شاكراً لنا عدم تشجيعه في شكواه وان لم يكن هو، فحصاناه على اية حال!

راح الطريق يرتفع تدريجياً من (حلب) ومر بأرض متعادية تكسوها المروج الخضر الشبيهة نوعاً ما بسهول (سالسبوري) وهنا يغدو الطريق فهو مجرد اثر لعجلات اشبه بممر ضيق يقطع اراضي سبخة ملأى بالمستنقعات وكان منظراً موحشاً رتيباً لرحلة ستمتد مسافة مائتي ميل. وكانت مراحل طريقنا تتعين عند كل فرسخين او ثلاثة بقرى هي بصورة عامة مجموعات صغيرة حقيرة من اكواخ حجرية ذات سقوف مستوية وطابق واحد وقد ترى احياناً بيوتاً ذات طابقين ترتفع بأنفة واعتزاز حتى ترغمك على تسمية المجموعة بالبلدة بسبب هذا التفوق. وفي الواقع كانت احقر هذه المجموعات السكنية واصغرها، مدنا وبلدانا عامرة. فبدلاً من (الباب) او (منبج)[10] عرفت هاتان القريتان في التأريخ الغابر بالاسمين الطنانين (بامبيكه Bambyce وهيرابوليس Heirapolis وكانت الاسس والانقاض والتجاويف التي تعين مواقع المعابد القديمة تؤلف حاشية واسعة تطوف بالمدينة وتحيط بضواحيها في دائرة تامة. وترى الارض مكسوة بنثار من بقايا الاعمدة وكسرها فضلا عن القطع الحجرية المنحوتة المكعبة منتشرة فوق بضعة افدنة من الارض البراح. وامكننا ان نقرأ في الموضع الذي توقفنا عنده لنرتاح، بعض عبارات لاتينية منقورة في الصخور مثل Cos, Divi, Caesar وغيرها من الكلمات وكانت محفورة حفرا عميقا للغاية لكنه غير منتظم حتى لكأنما تلهى بنقشها جندي روماني في اجازة. ولمحنا رب البيت نقرأها. فأخذنا الى باب كوخه وعرض كتابة اخرى لنا وكانت هذه المرة كتابة عربية لم يكن بوسعنا ان نقرأ منها غير لفظة (الله -) وهذا ما حز في نفس صاحب الكوخ وارعبه لانه كان قد وضع الحجر عتبةً لباب لبته.

في كل ليلة كنا نبيت في خان القرية التي نصلها. والخان هو لفظ يرادف ما يعرف

---

[10] هيرابوليس الملقبة (بامبيكي او ممبج) كانت المدينة المقدسة المكرسة لعبادة الالهة استارته Astarta ها هنا نجد واحدا من اعظم الاثار التاريخية وهو نفق تحت الارض فيه نقر مستديرة للمراقبة تتدرج في داخله على مسافات متقاربة كثيرة. قالت امرأة ارمنية كانت تتفحص هذه النقر فحصا لايمت الى العلم بصلة «الان ادركت من اين جاءوا بالاساطين!» (الظاهر انها تصورت بأن الاعمدة والاساطين قد قدت قدا من هذه النقر مثلما تنتزع الفلينة من فم الزجاجة).

بالفارسية (كروان سراي) وهو مقيل للانسان المسافر ومرأب لحيوانه. والخان الاعتيادي يتألف من ساحة مربعة الشكل كبيرة في الوسط يعلوها الغبار والتراب القذر في الصيف والوحل الاشد قذارة في الشتاء وايام المطر. وكثيرا ماشكرنا طبقة الجمد الصباحي لانها تتيح لنا السير فوق الوحل الى عربتنا بدلا من الخوض فيه وتحيط بالساحة صفوف من الغرف الحقيرة، شبيهة بالاكواخ الصغيرة التي ربما صلحت لتكون بمثابة سقيفة في حديقة تودع فيها ادوات البستنة. هذه «المقاصير التي هي حقول القثاء» كما يراها (اشعياء) قد بلغت نهاية الغثاثة والحقارة. فقد خصص بعضها للاسطبلات وبعضها للسكنى والنوم. ومقاييس النظافة لاتجد فرقا بين هذين، كذلك مقاييس الراحة فلا تفضيل هناك. الا ان غرف الضيوف قد تكون احيانا في الطابق الاعلى وهنا نجد الفارق بين الانسان والحيوان فحسب. الا فلنطرح حدة المزاج جانبا ولنفترض ان غرفتنا تقع في الطابق الارضي. ولايداخلنا اليأس من حصولنا على غرفة مستقلة - غرفة مثل هذه مساحتها تسع اقدام مربعة تفخر بباب فيه مزلاج او ربما بنافذة ذات درفة خشبية، ارضيتها اوطأ من مستوى صحن الخان بحوالي ستة انجات. اعنى في مستوى الوحل. وهي كحجرة النبي[11] مؤثثة بفراش ومصطبة صغيرة وشمعدان واعني بالفراش مطرحا من القش او لوحا خشبيا هو بمثابة سرير. وقد توجد احيانا مائدة ومسرجة نفطية مثبتة على الحائط. وباضافة مبلغ صغير للخانجي[12]. يؤتي لنا بكانون فحم للتدفئة علينا ان لا ندخله الغرفة الا بعد ان يتم احتراق فحمه في الخارج حتى يتلاشى لهيبه الازرق والامتنا اختناقاً. ويمكننا هنا ان نرتب سرير نومنا كما نشاء ونطبخ طعامنا ونأكل من الزاد الذي تزودنا به. وهذه الغرفة لاتكنس ولاتنظف والمسافر الفطن يبقى يحمل بساطه طوال رحلته احتياطا. والاجر المألوف لهذه الغرفة هو خمسة قروش لليلة الواحدة اي ما يعدل عشرة بنسات.

كان اغلب النزلاء بيننا من الكرد والعرب وبينهم قلة من السوريين والارمن. ويمكن تمييز القوم من لغاتهم او ازيائهم وهذا اصعب التمييزين. لان العرب هم القومية الوحيدة في تلك المنطقة التي تحافظ على زيها الخاص محافظة دقيقة ويتألف لباسهم من زبون مخطط او سادة (ذي لون واحد) مصنوع من نسيج ناعم ملون يصل حتى القدمين ويشد عند الخصر بحزام ملون زاه. وثم فتحة مخروطية في الزبون عند العنق تكشف عن قميص مطرز او مخرم وتأتي العباءة فوق الزبون وهي العباءة العربية المعروفة وتكون صوفية عادة سوداء اللون او قهوائية مخططة خطوطا عريضة او رفيعة بيضاء او سوداء او قهوائية منتظمة بشكل عرضاني متداخل. وكثيرا ما يشتملون شتاء بفروة من جلد الخروف الذي لايجز الصوف منه، يلبسونها

---

[11] يقصد به اشعياء النبي (المترجم).

[12] الخانجي هو صاحب الخان (الفندق) مثلما نقول (عربنجي) لسائق العربة و (القطرجي) (القطر هو بغل الساجق البغال وحرف الصلة (جي) تعني الفاعل او المتولي عملاً ما.

وصوفها الى الداخل ايام القر الجاف، ويقلبونها ليكون صوفها ظاهرا اذا امطرت السماء ويستخدمون كوفية زاهية اللون غطاء للرأس وتكون اما من الحرير أو من القطن وهي تثبت على الهامة بعقال ذي حلقتين (ضبتين) مثل الحبل الغليظ أسود اللون شبيه بالاكليل. وهم عادة يطيلون شعورهم.

وكثيرا ما يشارك الكرد سكان السهول العرب في هذا الزي. أما المكارون وغيرهم من المسافرين فيرتدون ثيابا يتعذر وصفها. على انها مأخوذة بالاصل من الزي التركي العام. ان السروال التركي الاعتيادي يصنع من قطعة قماش طولها يساوي طول صاحبها من الخصر حتى الكاحل وتطوى هذه طيا يحوي مربعين ويخيط من حواشيه الاربع وتحشر قطعة حبل (تكة) ليشد بها على الخصر. ثم تفتح فتحتان للقدمين، او بكلمة اخرى تقص الزاويتان السفليان وبهذا يكمل السروال. وهذا بالطبع يترك مقدارا كبيرا من القماش الفارغ بين الساقين. اما الخياطون الماهرون فهم يتخلصون من مقدار يزيد او يقل، من هذا القماش الفائض تبعا لمهارتهم في التفصيل. الا انه يشترط دائما بقاء مقدار كاف. وفوق السروال صدار يليه حزام ملون، وفوقهما سترة تشبه سترة قبيلة (الزواف)[13] الجزائرية وكثيراً ما ينقش مقدم الصدارة والسترة وحافات جيوب السروال بمختلف اشكال التطريز. وهذا النقش الساذج الذي يستحدث في الكساء يكون اما بالخيط الازرق او الاسود او القهوائي على الاغلب. وكثيرا ما يلبسون ستَراً من جلد الخروف في ايام الشتاء ويغطون رؤوسهم احيانا بالكوفية العربية واحيانا بالطربوش (الفيس التركي) واحيانا بقلنسوة مخروطية من اللباد. وهو غطاء الرأس الكردي والاثوري معا بلف عمامة عليها، والاثوري بدون لف عمامة. وفي المناخ البارد يعصبون نهايتي القلنسوة حول الوجه فيحجبونه حتى مستوى العيون. وبهذا يبدو مظهرهم اشد شقاوة من حقيقة امرهم.

اما الموظفون وافراد الطبقة العليا فهم يرتدون من الثياب ما يعتبرونه الزي الاوروبي وهم دائماً يكملونه بالطربوش. ومن الانطباعات الاولى التي تضايق المسافر في هذه البقاع لعنة بابل والحق يقال! وهي اللعنة الكبرى بالتأكيد، وان وجدها بعض الشواذ من ابناء جلدتنا نعمة. من المستحسن جدا ان يتزود كل المخُرفين الخفيفي العقول من الساسة الذين يحاولون احياء اللغات الارسية Erse والكيايلية Caelic والكيمرية Cymric ببعض[14]. التجارب العملية ليدركوا حقيقة احلامهم. ان السويسري يفخر بثلاث لغات قومية، لكن سكان تركيا الاسيوية يختالون عليه بست لغات. فاللغة العربية هي الغالبة على السهول

---

[13] من قبائل الجزائر الرحل البدوية (المترجم).

[14] الارسية هي لغة القاطنين الاولين شمال اسكتلندا وتعتبر احدى المجموعتين اللغويتين الكبيرتين للغة (الكلتية) وتتخاطب بها الايرلنديون والايقوسيون. اما الكايلية فهي اللغة الايقوسية الكلتية القديمة. والكيمرية هي اسم المجموعة اللغوية الكلتية الكبيرة الثانية اعني لغة اهل ويلز (المترجم).

والسريانية والكردية تسود المناطق الجبلية. والارمنية لغة نَجْد الشمال واليونانية منتشرة في غرب اسيا الصغرى. واللغة الرسمية للجميع (اللغة التركية) هي غير شائعة الا في الاناضول. على اننا نراها تستأهل الدخول في عداد اللغات الخمس الاخريات. وبطبيعة الحال نبطت من هذه اللغات لهجات تعد بالعشرات. فاذا اعتبرنا كل لهجة لغة قائمة بذاتها فلا شك ان الامبراطورية التركية هي بلد متعدد اللغات مثلما كانت امبراطورية (نبوخذ نصر) بالضبط[15]

وليس ثم بقعة واحدة تتكلم كل هذه اللغات. ولكن المرء لايكون مرتاحا الا اذألم بلغتين على الاقل فهذا ما يساعده على ايجاد ترجمان للغات الاربع الباقية في اغلب القرى. والجنسيات متعددة ايضا كاللغات فقد تمازجت فيما بينها وتعقدت اواصرها ليحار فيها العقل. ولم يحصل الامتزاج بشكل مناطق منفصلة اشتبكت واحدتها مع الاخرى مثل اشتباك اللغز المتداخل Jigsaw puzzle وانما على شكل مجموعات قومية صغيرة جدا متناثرة هنا وهناك مثل بذور مختلفة الاصناف هُزت هزا شديد في خرْج. والقرية هي اكبر وحدة بشرية فها هنا قرية سورية تليها قرية كردية تليها ثالثة ارمنية وبعدها قرية يزيدية تعيش فيما بينها بسلام ودعة الا انها تأبى الاختلاط اباء تاما. وقد يوجد هنا وهناك قرية متعددة القوميات فتقوم صنفاً من اصناف البشر لا يمت بأية صلة الى اية قومية مجاورة فمنبج مثلا هي قرية يسكنها (الجراكسة) اللاجئون من بلادهم على اثر الفتح الروسي، منحهم السلطان عبدالحميد حق الاقامة فيها. ولقد كنا نتساءل احيانا: الا يكون هذا الخليط العجيب ثمرة لسياسة اتبعها الاشوريون القدماء لتشتيت شمل الشعوب الجمّوح في طول امبراطوريتهم وعرضها؟ على ان الظاهرة عينها موجودة في تركيا الاوروبية التي لم يبلغها الاشوريون او الفرس وحيث يؤلف الصرب والبلغار واليونان والرومان خليطا معقدا مشابها لما نراه هنا.

يتكلم النقاد الانكليز بحماسة عن تركيا بوصفها دولة اسيوية قادرة على تجديد قواها بتركيز نشاط عملها في اسيا. والظاهر ان هؤلاء الناصحين يحسبون معظم سكان تركيا الاسيوية اتراكا! والواقع هو غير ذلك فقد يعيش المرء في تركيا الاسيوية سنوات طويلة قبل ان يرى تركيا واحدا (عدا الاناضول كما قلنا) حتى ان طبقة الموظفين ورجال الادارة اغلبهم من الجراكسة والارناؤوط. اما سواد الشعب فهو من العرب والاكراد والاثوريين واليونان والسوريين. وكلهم يضيقون ذرعا بالحكم التركي ولايذعنون له الا لانهم يرفضون مساعدة احدهم الاخر في انتزاع الحكم من الترك وتبوء مركزهم.

ان مشكلة تركيا الاسيوية شبيهة بمشكلة (تراقيا ومقدونيا) وهي بكل بساطة: «ليس لاية قومية من القوميات الخاضعة للترك، ثقة بالقومية الاخرى مما يؤهلها الى حكم الباقيات. وان

---

[15] اعظم امبراطورية بابل الثانية (اواخر القرن السادس ق.م) بلغت بابل في ايامه اوج سعتها (المترجم).

هذه القوميات قد تعقد امتزاجها الى الحد الذي صعب معه جمع الواحدة منها في دولة ذات كيان قومي موحد خالص». وعلينا ان ندخر شيئا من العطف للترك ذلك الشعب الفاتح الغابر الذى كان في فترة من الزمن محافظاً على نقاوة دمه. على ان دولتهم دالت ويومهم فات. وفواهم الطبيعية خمدت نارها ومع انهم الان ما زالوا مسيطرين (والفضل في ذلك يعود الى تفرق كلمة ملاحي السفينة) الا انهم ما عادوا يملكون القوة للسيطرة على الدفة. فامبراطوريتهم اوسع جدا من ان يحكمها عددهم المتضائل. كما انهم يجدون انفسهم مختنقين بكثرة القوميات التي لم يفلحوا في استيعابها وتمثيلها.

بلغنا شاطئ الفرات بعد ثلاثة ايام من مغادرتنا (حلب) ووجدنا امامنا نهرا عريضا سريع المجرى مقسما الى ثلاثة مجار او اربعة تفصلها جُزيرات رملية مسطحة. وكانت ضفته اليمنى التي عبرنا اليها، تتألف من سلسلة تلال طباشيرية تنتهي بجرف هنا وهناك. على ان الضفة اليسرى اقل ارتفاعا واكثر انبساطا. ولها حافة من الصخور المكتلة ويفصل بينها وبين الماء شاطئ رملي اربد اللون يطغى عليه الماء ايام الفيضان فيغمره بطبيعة الحال. لاشك ان مياه هذا النهر كانت قليلة عندما عبره (گزينفون) بالقرب من ثباسقوس Thapascus الى الجنوب بمسافة مائة ميل فوجده ضحضاحا لا يبلغ ارتفاع مائه اكثر من الصدر. أما في موضعنا هنا فلا يمكن عبوره خوضا وانما بالقوارب وهذه تشبه العبّارات المعلقة ذات قيدوم رفيع مدبب مرتفع ومؤخرة مربعة عريضة مصنوعة من الواح خشبية خشنة غير مهندمة حتى لتبدو وكأنها لاتلتصق احداها بالاخرى التصاقا شديدا يحول دون تسرب الماء الى الداخل. ولاشك ان الشقوق قد لحمت بالقار تحقيقا للنتيجة المتوخاة. وهي توجه بمجاذيف ضخمة رقيقة مصنوعة من عمودين خشبيين او ثلاثة مشدود بعضها الى بعض ومثبتة فوق الدفة. اما قوة الدفع فتؤمنها حديدة ملوية على شكل حدوة مثبتة في حافة القارب، ويقوم شخصان بتوجيهه: احدهما يمسك بالدفة والثاني يجذف.

وانزلت عربتنا في واحد من هذه القوارب وتحوّطها عدد من الجمال الراغية والحمير الناهقة التي كدست شيئا فوق شئ ثم انسابت العبارة تشق عباب المجرى السريع واخذنا ندور في دوامة مائية متحركة تحت الراسب الرملي لاحد الجزر. اخيرا جنحنا بسلام الى الضفة الاخرى بعيدين عن نقطة ركوبنا باكثر من نصف ميل. ومن الضروري ان تسحب القوارب الى اعلى المجرى بمسافة ميل واحد على الاقل قبل ان تكون مهيأة لقطع النهر ثانية. وقد اسعدنا الحظ إذ وجدناها راسية على الضفة اليمنى لان قَطْرَها الى الجهة الاخرى قد يعني تأخير ساعة.

ولم نجد عند نقطة عبورنا قرية واحدة وانما علمنا بوجود بلدة كبيرة تبعد مسافة ثلاثين ميلا نحو الشمال وتعرف باسم (پيره جك).

كانت مدينة عظيمة الشأن والخطر تهيمن على كل هذه البقاع الخالية. فعلى مبعدة خمسة عشر ميلا تقريبا تقع قرية (جرابلس) الصغيرة تحيط بها تلال ترابية هائلة الجرم تضم تحتها

خرائب (كركميش). ووجدنا عمال الحفر الذين استخدمهم المتحف البريطاني موخراً منصرفين الى كشف دفائن اسرار ملوك الحثيين الغابرين الذين تعاقبت عليهم القرون الطوال. ولقد كانت (كركميش) عاصمة الحثيين. والحثيون شعب من الشعوب التي حكمت سورية وهو اكثرها غموضا واعتقها في التاريخ اذ ما زال كتاب هذا الشعب مغلقا لان طلاسم كتابته لم تفك حتى الان مع اكتشافنا كثيرا من كتاباته[16] وكل ماعرفناه عن القوم في الوقت الحاضر بعض لمحات وردت في الاثار الفرعونية والاشورية ونحن ما زلنا بانتظار اليوم الذي نقع فيه على مثيل لحجر (روزيت = رشيد)[17] ليهتك لنا الستر عن لغز هذا الشعب الذي كانت عاصمته مندثرة عندما دحر نبوخذ نصر خصمه الفرعون (نخو) تحت اسوارها في العام ٦٠ ق.م.

ومع ان الحثيين انقرضوا تماماً منذ الاف السنين، فان باستطاعتنا تَقَصي تأثيرهم في اشغال اليد التي يمارسها السكان الحاليون الى يومنا هذا. فالقرى التي تحاذي نهر الفرات وعدد قليل اخر قريب من حلب يختلف تماماً عن القرى المجاورة في الشكل وفي اسلوب العمارة. فبيوتها ليست مربعة ولامستوية السقوف كما هو الامر في القرى الاخرى، بل هي مستديرة الشكل مخروطية السقف اشبه شئ بخلية نحل او رغيف مدور مبني من الطين المجفف بحرارة الشمس وتجتمع سائر مرافقه بين جدران صماء فتبدو مثل مخزن تبن في ساحة تجميع الدريس بانكلترا تماماً. بيوت بمثل هذه الهندسة وجدت في نقوش بارزة مصرية تخليداً لفتح بلاد (خثي) على يد الفرعون (رمسيس) الثاني. وليس ثم شك كبير في ان هذا الاسلوب من البناء ظل متبعاً حتى ايامنا هذه، بل وفي امكاننا ان نرجع الى حد ما بان الرجال الذين بنوا هذه القرى يمتون الى الدم الحثي برابطة بعيدة..

المعتاد في تركيا الاسيوية، ان القرى هي ملك للاقطاعي. ونظام اجارة الاراضي يستحق هنا بعض الشرح لانه يبدو منحدرا من زمن الحكم الديني. فالحكومة تجبي واحدا من ثمانية من جميع المحصول الزراعي[18]، اما الاثمان السبعة الباقية فتقسم بالتساوي بين صاحب القرية وبين المزارع (الفلاح) وعلى القرويين ان يدفعوا للحكومة ثُمن قيمة العلف الذي تقدر ان قطعانهم وماشيتهم قد استهلكته وان يدفعوا هذا الثُمن خالص مصاريف نقله الى مخازن تحصيل الضريبة الفلاحية. والقانون يحدد المسافة المقتضاة للتسليم بمسيرة ساعة واحدة. اي

---

[16] ان التقنيات الاثارية التي جرت في سوريا ولبنان وتركيا بعد النصف الثاني من القرن العشرين حققت مكتشفات هامة جدا ازاحت الستار عن كثير مما غمض في حياة هذا الشعب ولغته وحضارته (المترجم).

[17] يقصد المؤلفان بحجر «روزيت» حجر الرشيد المشهور نسبة الى مدينة «الرشيد» الواقعة على النيل واللفظ تصحيف فرنسي كما هو واضح، هذه اللوحة اكتشفها الفرنسيون في ١٧٩٩ وعن طريقها قام العالم الاثري (شامبليون) بحل رموز الكتابة الهيروغليفية (المترجم).

[18] قد يقال ان عوائد الحكومة كلها تأتي من الارض. ومن الطريف ان ننوه هنا على الاقل بان المثل الاعلى المحبوب لمتطرفي السياسة عندنا الان قد تحقق عملياً في تركيا من دون بلاد الله كلها!

بفترض وجود مخزن في كل قرية. الا ان مايجري ليس كذلك. وعليهم ان ينقلوه الى مسافة قد تكون على الاكثر ثلاثة او اربعة اضعاف المسافة المقررة قانونا او ازيد. وعليهم ان يدفعوا كذلك ضريبة ارض تبلغ ٥٪ تقريباً. ولهم ايضاً ان يحتفظوا لانفسهم بالتبن اضافة الى حصتهم. ومن واجب الاقطاعي المالك ان يمدهم بالبذار.

يبدو من هذا وكأن الاقطاعي يستولي على حصة الاسد من الغلة وهو كذلك في الواقع ان كان بخيلا ممسكا. على ان كثيرا منهم يفسرون واجباتهم الاقطاعية بروح اكثر سماحة وسخاء. فالمنتظر من الاقطاعي ان يفتح ديوان خانه (دار ضيافة)، في قريته ويوكل شخصا على ادارتها والقيام بشأنها. وفي هذه الدار يتاح لكل قروي او مسافر ان ينال وجبة طعام ومبيتا بالمجان. وقد اشتهر سيد اقطاعي كبير في المنطقة بانه يوزع طعاما يكلفه الف ليرة ذهبية سنوياً. منها اربعمائة ليرة قيمة طحين الخبز. وفضلا عن هذا كله فالسيد الاقطاعي يقوم في اكثر الاحيان بدور مصرف تسليف للفلاح. فهؤلاء يراجعونه عندما يكونون في عسر مالي فلا يتردد في نجدتهم ولايحبس عنهم شيئاً ما دامت مخازنه تحوي شيئا. وهو على الاغلب يعيش ببساطة مثلما يعيشون ولسان حاله يقول (الله يعطي).

والدفع كله يتم بالمقايضة لا بالنقد. فالعملة نادرة في تركيا ونطاق استعمالها ضيق محدود[19] وهي سريعة التقلب وقيمتها ليست مضمونة دائماً وان كثرت في التداول. فالعملة الاكثر تداولا هي العملة الفضية وهذه ليست ثابتة القيمة نسبة الى قيمتها الحقيقية[20]. فالليرة الذهبية التركية تعادل اسميا مائة قرش الا ان سعرها ايام رحلتنا من حلب الى الموصل كان يتراوح بين ١٠٤ في المدينة الاولى وبين ٢ ١ في الثانية. ويختلف سعر المجيدي (قيمته الاسمية ٢ قرشا) وسعر البيشلغ (قطعة النقد ذات القروش الخمسة) على درجات متفاوتة. وليس هذا خطأ من الحكومة وحدها. فبينا تحدق بسبب هذه الظاهرة الشاذة العوائق والمصاعب بالتجارة والصناعة المحلية، نجد المصارف في اسطنبول (وجميعها بادارة مساهمين اوربيين) لاتنفر من هذه الحالة لانها تربح من ورائها لكونها واضعة اليد على معظم العملة فاذا ما وجدت قطعة نقد ما، مفضلة ورائجة في منطقة معينة، اسرعت بافراغ ما تختزنه منها في تلكم المنطقة!

وامتد طريقنا في اراض اقل تطامنا عند عبورنا الى الضفة الشرقية من الفرات. وطالعتنا

---

[19] كثيراً ما ينتقل الصك (الشيك) الانكليزي في تركيا من يد الى يد كورقة مالية ويبقى في التداول اشهرا قبل ان يصل مقصده والحقيقة هي ان الصك اكثر قبولا من الورقة المالية وهو مألوف عند الصيارفة كثيراً واذا سرق من البريد فمن السهولة بمكان استعادة قيمته(المؤلفان).

[20] وفوضى المكاييل والموازين لا تقل عن فوضى النقد. فلكل قرية (حجرتها!) الخاصة التي تزن بها ولاتبيع منتجاتها بغيرها. وتختلف الحجرة حجماً وثقلاً حسب التعامل. ولئلا يختلط الامر على القارئ نبادر فنؤكد له ان المقصود هنا هو الحجرة بالضبط! (المؤلفان).

مراع متعادية فسيحة راحت تختفي تدريجياً في سهل رسوبي تنتشر فوقه بقاع صخرية واسعة هنا وهناك وكلما كان الطريق يحيد بنا عن هذه البقاع كنا نجد عادة عدداً من الاحجار رصت رصا فانتصب ركامها كالاساطين. الحجر يرتفع فوق الحجر فيبلغ ارتفاع الخمس او الست منها حوالي قدمين. وقد يحتوي كل بقعة صخرية على عدد من هذه الاعمدة الصغيرة يتراوح بين العشرين والثلاثين وهي من عمل عابري السبيل، تقوم بمثابة نصب نذري مثل النصب الذي اقامه (يعقوب) في (بيطال)[21].

هذه العادة سائدة في المناطق الجبلية ولكن العرف جرى ان توضع حجرة «نذر» كهذه في غصن ذي شعبتين من اغصان شجرة تمر بها. ويشاهد كثير من الرُجُم على جانبي ممرات الجبال وشعابها على انها تنصب هناك للاشارة عادة الى حادث قتل وقع في تلك البقعة ومن المفروض على عابر السبيل ان يضيف الى الكدس حجرة فان كنت صديقاً للقتيل وضعت تقدمتك بلطف وان كنت عدواً له قذفتها الى الكدس بغضب وتشف. وتكبر الكومة بكلتا الطريقتين. وهم يزعمون ان روح الميت تهدأ بهذا.

وعند قرية (سروج) بلغنا حدود سهل بلاد ما بين النهرين وهو يمتد جنوبا الى ابعد ما يمكن ان يبلغه النظر الا ان طريقا كان يتبعه الى اليسار ليفضي بنا فورا الى المناطق الجبلية وهي اول واوطأ ارض رسوبية لسلسلة الجبال الشاهقة الممتدة شمالاً

ولابد وان فلول جيش (كراسوس) الروماني قد وجدت لها ملجأ في تلك الاكام بعد ان اوقع به البارثيون الهزيمة في (وقعة حران) نسبة الى المدينة التي كانت قريبة من ميدان القتال (اذ تقع في السهل على بعد خمسة وعشرين ميلا نحو الجنوب) اما ساحة القتال الحقيقية فهي ابعد من ذلك الى الجنوب ايضا. على ان شراذم الجيش الروماني المندحرة لاذت بالجبال بوصفها الملجأ الوحيد لها من مطارديها. وهنا طوقت اخر الفرق الرومانية وارغمت على القاء السلاح والاستسلام. كانت (حران) شؤما على الرومان حقا. فقد اصيبوا بكارثة مماثلة في الموضع بالذات بعد ثلاثمائة عام. ففي السنة ٢٦٠م هُزم الامبراطور (ڤاليريان) ووقع في اسار (شاپور الاول) ملك الساسانيين الفرس الذي كان في ذلك الزمن قد ورث ملك البارثيين والارشاقيين. وتؤكد المصادر الرومانية ان الامبراطور المنكود الحظ سلخ حيا. اما الفرس فيؤكدون -وقولهم ارجح- انه ظل اسير حرب واستخدم في اقامة جسر عظيم على نهر (الكارون) في (شوشتر)[22] ولكن المصدرين يتفقان على انه سلخ بعد وفاته وحشي جلده واحتفظ به في قصر الملك في (سلوقية - قطيسفون) كذكرى شنيعة.

بعد مسافة قصيرة قطعناها بين المرتفعات اتصل طريقنا بالشارع المرصوف الذي يربط پيره

---

[21] المقصود هنا طبعاً هو (يعقوب) من اباء التوراة الاولين (المترجم).

[22] ان هذا الجسر. هو الان متهدم على ان ما بقى منه يفصح عن براعة بانيه الفذة. اكان الامبراطور (فاليريان) قد صممه ام غيره.

حك بأورفـه وهو شارع لايمكن ان يوصف بالجـودة في اي بلد. الا ان النصف الذي يخـرج من اورفـه هو المبلط فحسب. وقد انتـهى بنا فجأة بعد مسافـة قصيـره من اندماجنا به. وتقدر المسافة بثلث الطريق الى پيره جك، الا ان الجزء الباقي كان ممهدا مريحا زادت سرعتنا فيـه واستغرقنا خلاله دون عائق الساعات الثلاث الباقية لنا من الرحلة ندور ونتلوي في تلافيف واد صخري شديد الانحدار يقع في ظاهر البلدة.

المدن الشرقيـة كقاعدة عامة. مصدر خيبة لعشاق المناظر الطبيعية. انها لاشك جميلة المنظر طريفتـه ولكن القذارة التي تسودها تضيـع اكثر سحرها وطرافتـها. انها مجرد اكداس من الزرانب تطرزها بنايات لطيفة قليلة العدد هنا وهناك وقد سمعنا قائلا يقول عن القسطنطينية نفسها انه لخير للرحالة ان يرحل عنها بعد مشاهدته عن بعد (قرنها الذهبي) اذ لو تأملها من مسافة اقرب لما طالعه غير الخيبة بأمله الكاذب. على ان (اورفـه) قد تعتبر احدى الاستثناءات عن هذه القاعدة فهي لاشك اجمل مدن ما بين النهرين طرا لان بناءها الحجري يكسبها مهابة ويخفف من اثر خرائبها. ويكسو رداءها المهلهل الرث مظهرا ارستوقراطيا.

تمتد اورفه على سفوح المرتفعات ويحيط بنصفها جبلان صخريان اجردان والجزء الاعلى منها بجثم في واد بينهما. اما القسم الادنى والاكبر فهو ارض متطامنة سهلة. وتكاد المدينة كلها تكون محاطة باسوارها القديمة ومعظمها من صنع الرومان. ومساجدها ومنائرها بنيت غالبيتها بالحجر الذهبي اللون والقهوائي الفاتح. اما ازقتها فمتعرجة ضيقة مزعجة الا انها ما زالت تفصح في مواضع متباعدة منها، عن زخرفة معمارية. وتنمو اشجار السرو وغيرها داخل البيوت وحواليها. والجامع الكبير الذي كان فيما مضى بيعة مسيحية هو بيعة بيزنطية قديمة يرتفع فوقها برج فخم شاهق مثمن الاضلاع. ولاشك ان البيعة الارمنية الحالية هناك ذات قيمة اثرية عظيمة وان لم تكن من اثار القرن الاول الميلادي كما يدعي ارمن المدينة[23].

ويتوج المرتفع الغربي من المدينة حصن اثري هو مجرد قشرة وجدران منتصبة الا ان منظره مهيب في موقعه اذ يكتنف الجدران اسطونان رومانيان مرتفعان جدا كانا فيما سلف جزءً من اروقة الهيكل الروماني هناك[24]. والهضبة المجاورة للبلدة شديدة الانحدار لكنها متطامنة من

---

[23] كانت هذه البيعة مسرحاً لاهول حادث من حوادث مذابح الارمن الشنعاء في السنة ١٨٩٥ فقد لاذ بها اكثر من الفي لاجئ من كل سن ذكورا واناثا دخلوا الهيكل فرارا من مطارديهم فاقتحم الترك ابواب البيعة ونوافذها وحشروا في داخلها اثاثاً خشبية وابسطة مبللة بالنفط واشعلوا بها النار فمات فريق حرقا ومات الاخرون اختناقا.

[24] ان الاسطورة المرتبطة بهذه الاعمدة تجتذب كل شخص محب للمغامرة بطبعه وتستهوي ناحية الخيال فيه. تقول الاسطورة ان احد هذين العمودين قد حشى ذهبا وفضة اما الاخر فوظيفته ايقاف طغيان ماء العين المتدفق الذي يمكن ان يغدو طوفانا كطوفان نوح. فمن يهدم الاول ينال الثروة التي تفوق حلم اي طماع بخيل الا انه سيبيد البشرية كلها ان مس العمود الثاني بضرر. ولا يدري احد ايهما عمود الشر وايهما عمود الثروة لانهما متشابهان تماما ولهذا لم يجد احد في نفسه الجرأة للمجازفة بمثل هذه المحاولة.

الجانب الاخر ولهذا فان واجهة المدينة من هذا الجانب مع نهايتها محصنة تمام التحصين باعظم خندق جاف تملكه مدينة في العالم. فقد نقر نقرا في الصخر الاصم وحدّاه كادا يكونان عمودين وعمقه اليوم يبلغ زهاء ثلاثين قدما وعرضه لا يقل عن ذلك. وكان عبوره في غابر الزمن يتم من موضعين او ثلاثة بمد جسور خشبية متحركة. وان الفتحات التي كانت تؤدي الى داخل المدينة من مواضع العبور هذه، ما زالت تشاهد في الاسوار الى يومنا هذا، ونحن لاندري بالضبط متى كمل حفر هذه الخنادق كما لانشعر بقابلية او قدرة على التخمين. على ان بعض اجزاء السور اسلامي وبعضها روماني وبعضها ساساني وهي الان خرائب وانقاض ليست ذات ارتفاع كبير[25].

عرفت اورفه في الازمنة القديمة باسم اديسا Edessa وهي عاصمة الملك المعروف باسم (ابجر الاسروني) Abgarus Osroene الذي ورد ذكر لرسالته الى السيد المسيح في سفر «اعمال الرسل» وهذه الحكاية هي اكثر من اسطورة، لان اصلها يعود الى بداية القرن الثالث الميلادي وقد اوردها المؤرخان (يوسيبيوس) Eusebius[26] و (موسى الخوريني) وكلاهما يذكر انهما نقلاها عن وثائق خطية معاصرة كانا قد درساها من بين المخطوطات الملكية الخاصة في مدينة (اديسا) وهما يقصان علينا كيف ان الملك (ابجر) ابتلي بالبرص وكيف عجز اطباء مملكته وسحرتها عن تحقيق الشفاء له. وكيف سمع فيما بعد بانباء المعجزات التي يحققها (يسوع) في الجليل في بلاد اليهودية فارسل اليه سفراءه طالبا منه القدوم ليشفيه من دائه ويهدي شعبه وعرض عليه في الوقت نفسه الملجأ الامين من حقد اليهود الكفرة هؤلاء السفراء هم «بعض اليونان»[27] الذين ورد ذكرهم في انجيل (يوحنا) وقد قدمهم (فيلبس الرسول) الى السيد المسيح يوم دخوله الظافر الى اورشليم. ثم عادوا الى ابجر برسالة شفوية من المسيح (ويقول بعض المؤرخين، بل هي رسالة خطية املاها السيد المسيح على توما الرسول وفيها يعد الملك بارسال احد تلاميذه الى اديسا في وقت مناسب).

وعلى هذا الاساس ارسل (ثداوؤس Thaddeus الرسول) بُعَيْد يوم القيامة رأساً ليبشر

---

[25] هنالك اضرحة كثيرة وصوامع رهبانية في الجبل الذي يواجه القلعة. شبيهة بالصوامع والمناسك المنقورة في (دارا - دياربكر) مما سنأتي الى وصفه في الفصل الثالث. ولاحد الاضرحة القريبة من الخندق باب يتألف من لوح حجري رقيق يدخل في حز ونقرة وكل الاحتمالات تشير الى ان قبر السيد المسيح كان من هذا الطراز.

[26] الارجع ان المقصود هنا هو (يوسيبيوس بامفيلي اسقف (قيسارية) فلسطين وهو مؤرخ كنسي ولد في حدود ٦٠ وتوفي في ٣٤٠م عرف بكتابه الشهير جدا «تأريخ الكنيسة المسيحية» الذي كتبه في ٣٢٤ - ٣٢٥ (المترجم).

[27] من الصواب جدا ان يسمى سكان (اوسرونه) باليونان فالكلمة كثيرا ما تستعمل في العهد الجديد مرادفا للفظة شرفاء.

(بالكلمة) في (اوسرونه) فبلغها وشفى (ابجر) من برصه فما عتم الملك ورعيته ان اقتبلوا الايمان[28]. ورحل (ثداووس) الى ارمينيا وشرق بلاد مابين النهرين حيث اسس المذهب (الاثوري او الپارثي) الذي يُدعى اليوم «بالبيعة النسطورية».

ولنا ان نقوّم مبلغ ما في هذه الاسطورة من الصحة، على الاقل بمستوى صحة ما عزي من تأسيس كنيسة روما الى (الرسول بطرس) وهي اقرب الى الصحة واوثق خبرا من الادعاء بفضل نشر المسيحية في اسبانيا لـ «يعقوب الكبير» او نشرها في بريطانيا لـ «يوسف الاريماثي» Arimathea ان لهذه القصص ما يدعمها من الواقع بحيث لا يمكن اعتبارها متناقضة بعضها مع بعض مهما كانت الاحوال. لقد ارسل (بطرس) و (يعقوب) الى الغرب، في حين تزعم المصادر الشرقية ان (توما وثداووس وبرثلماووس) كانوا مبعوثي الشرق. والمرء يتوقع دائما ان تكون هذه الاسماء الجليلة محورا لحكايات مخترعة منسوجة بخيوط الخيال.

وعلى اقل تقدير فان الثابت تأريخيا ان البشارة بالانجيل جاءت الى (اورفه) على عهد بولس الرسول وانها كانت مركز انتشار المبشرين بالانجيل في اصقاع الشرق.

وكانت (اوسرن)[29]. في ايام ابجر اشبه بدويلة توازن بين امبراطوريتي الرومان والبارثيين وقد لقيت بعد زمن قليل المصير المدخر المألوف لامثالها من الدويلات المحاجزة التي ابتلعتها الامبراطورية الرومانية. واصبحت (اورفه) تحت حكم الاسياد الجدد، قلعة حدود مهمة. وقاومت هجمات عديدة في الحروب المتواصلة الطويلة الامد بين ملوك الساسانيين الفرس، وبين اباطرة روما البيزنطيين. فضلا عن صيرورتها مركزا علميا عظيما. وحاضرة لجامعة علمية شهيرة اغلق ابوابها الامبراطور البيزنطي (زينو) العام ٤٨٩ لان تعاليمها اصطبغت بالهرطقة النسطورية.

الا ان (اورفه) ظلت محور اهتمام عجيب في عين المؤرخين الغربيين. لانها كانت اخر مابلغه الفتح الغربي زمن الصليبيين. فعندما بلغ (گودفري البويوني Godfrey de Bouillon[30] انطاكية في السنة ١٠٩٧م كان (بلدوين Baldwin) اخوه قائدا للقسم الثاني من الجيش الذي رسم له ان يغزو البلاد المجاورة ويحتلها جميعا. وقد فاز عدد كبير من الزعماء الصليبيين بدويلات صغيرة اثناء حملاتهم الغازية هذه. الا ان (بلدوين) كان

---

[28] «وظلوا مسيحيين الى يومنا هذا» كما ورد حرفيا في تاريخ (يوسيبيوس). وهذا غير صحيح لان الوثنية عادت اليها مرة اخرى. على انه كان يوجد عدد كبير من المسيحيين (في عصر يوسيبيوس) من اهالي اوديسا.

[29] (اوسرونه) هي المنطقة التي كانت اورفه عاصمة لها. اسسها (سلوقوس الاول) في العام ١٣٠ ق.م تقريبا وقطنها فيها بعد العرب الرحل واسسوا فيها دويلة واتخذ شيوخهم لقب الملك ولذا تجد اسماءهم عربية (بكر. أبجر. معن.. الخ) وجاء في التاريخ ان الملك ابجر التاسع العربي (١٧٩ - ٢١٤) تنصر والغى عبادة الاصنام في دولته (المترجم).

[30] دوق اللورين السفلى، وقائد الحرب الصليبية الاولى واول ملك لبيت المقدس (١٠٦١ - ١١٠٠) (المترجم).

اسعدهم حظا وان لم يكن احق بذلك من غيره. فقد اندفع نحو الشرق حتى (اورفه) فوجد المدينة تحت حكم ملك مسيحي صغير الشأن رحب بالصليبيين ترحيبا حارا ونصب (بلدوين وليا لعهده) ونحن لا ندري مقدار التلقائية او الاختيار في هذا الترحيب بالصليبيين ونصب رئيسهم خلفا للملك المسيحي. ولعل هذا المسكين كان مجبرا لا مختارا. وعلى اية حال فانه قتل بعد زمن قصير في ثورة داخلية (لا يستبعد ان يكون بلدوين مصممها) وجلس هذا الصليبي على عرشه. وبوفاة (گودفري) في السنة ١١ تربع بلدوين هذا على عرش اورشليم واعطى محمية اورفه ابنَ اخته (بلدوين دي بورك) وهذا بدوره (ارتقى عرش مملكة اورشليم في السنة ١١١٨م). وكان (كونت اورفه الثالث) الفارس (جوسلان) الذي طارت شهرته وجعلته بطولاته ومغامراته شخصاً مخيفاً لكل مسلم في البلاد. ولم يكن حظ بلدوين الثاني وجوسلان حسنا فكلاهما وقع اسيرا بالقرب من اورفه في قبضة (بولاق) امير حلب وسجنا معا في قلعة (خرطبرت) المنيعة. الا ان جوسلان افلح في الفرار وما طال به الزمن حتى نال ثأره من آسره فصرعه في معركة وقضى على حياته بيده لكن بلدوين بقى في الاسر سبع سنين.

توفي (جوسلان) في ١١٣٢ تاركا ابنا خائر العزم خلفا له في الحكم[31]. ومنذ ذلك الحين اخذ نجم الصليبيين يخبو بسرعة. كانت حملتهم الاولى حسنة التوقيت لان (ملكشاه) اخر ملوك السلاجقة كان قد توفي قبل سنتين او ثلاث من نزول الحملة. وترك امبراطوريته يتنازعها ابناؤه الاربعة. وهكذا مضت فترة لم يقم فيها حاكم واحد قوي البأس يوحد المسلمين ضد الصليبيين الا ان (زنگي) اتابك الموصل اخذ يبني الآن القوة الجديدة. وفي عهده وعهد خلفائه (نورالدين) و (صلاح الدين) راحت تتعاظم عاما بعد عام. والقى زنگي الدموي (كما لقبه الصليبيون) الحصار على اورفه في ١١٤٤ وعجزت الملكة (ميليكانت Milicant) الوصية على عرش اورشليم عن ارسال نجدة. وافلح عمادالدين زنگي في ثغر السور بتقويض احد الابراج واندفع المهاجمون واطبقوا على الحامية قبل ان تتحصن في القلعة. وختمت مذبحةٌ عامةٌ على سلطان المسيحيين في المدينة الى الابد.

ما زال يوجد عدد كبير من المسيحيين الارمن والسريان في أورفه. وبقي الدير السرياني المعروف بدير (الربان افرام) شامخا في اعلى الوادي بين الجبلين. كان الربان افرام ناسكا شابا جميل الصورة غادر نصيبين عندما دخلت تلك المدينة في حكم الفرس وجاء اورفه بحثاً عن دير صالح يتهجَّد فيه. وهنا التقى (كما تقول الاسطورة) بعذراء ذات عينين ماكرتين فسألها المتنسك الزاهد مستنكراً.

---

[31] اتخذ عدد كبير من الصليبيين زوجات اسيويات، وكانت أنسالهم ضعيفة جداً. ويمكن ان يكون هذا من بين اسباب عديدة وجيهة ادت الى سقوط المملكة اللاتينية في اورشليم.

- ايتها الفتاة. لماذا تحدقين بي؟ ينبغي للرجل ان يغض من طرفه ويبقى محدقاً بالارض لانه مكتوب عليه ان يسقط في الخطيئة عن هذا السبيل.

فأجابت الفتاة متظاهرة بالخفر والحشمة

- ألحق هو ما تقول ولذلك فالمرأة حرة في ان تنظر الى الرجل، لانه مكتوب بأنها خلقت له.

فهتف الناسك منذهلاً

- مرحى مرحى! ها هنا وجدت الحكمة. اذا كانت نساء اورفه بهذا العقل والرجاحة فكيف برجالها؟ سأقيم هنا واجمع اطراف الحكمة من رأس العين.

وبهذا استقر الربان افرام هنا متخذاً على الاغلب صومعة من تلكم الصوامع المنقورة في الجبل المواجه للقلعة ولكنه لما كان بدرجة من قصر النظر بحيث لم يمنع كل النساء من دخول الدير فنحن نخشى انه لم يحصل على كل الحكمة التي كان يؤملها.

الا ان الشفيع الحقيقي لاورفه لم يكن غير (ابراهيم الخليل) نفسه. ذلك لان كل المسلمين يعتقدون اعتقادا راسخا بأن (اورفه) انما هي (اور الكلدانيين)[32] وفيها «مهد ابراهيم وضريحه» ولايسمحون للمسيحيين برعايته والعناية به. وهنالك ايضاً «بِركة ابراهيم» وهي اهم واجمل منظر في المدينة طرا. انها اشبه بحوض صخري كبير يستمد ماءه من عين ثرة غزيرة. والى جانب الحوض يقوم مسجد ابراهيم بقبابه ومآذنه (وهو الاخر محرم على النصارى) كذلك الدرج الذي يهبط به المسلمون الصلحاء الى البركة للاستحمام. وهذه البركة تعج عجيجا بشبوط ابراهيم ولايسمح لاحد ان يصطاد منه واحدة ما دامت في حمى البركة المقدسة. على انها قد تخرج مخاطرة بنفسها من المجرى الذي يندفع خارجا من البركة بساقية. وما تخرج حتى ترتفع الحصانة عنها. واطعامها يعتبر عملا من اعمال البر والتقوى وكانت هذه المخلوقات الكبيرة السمينة تلاحقنا ونحن نسير بمحاذاة البركة ورؤوسها تعلو سطح الماء مستوكفة حفنات الذرة المشوية، فما نقذف بما في راحاتنا دفعة واحدة حتى تقوم قيامتهن فيتدافعن ويتزاحمن وتنقلب احداهن فوق الاخرى متكالبات بجنون. ولا مفر لنا من القول آسفين بأنهن ما أن يتخمن الى حد يخرج عن كل اعتدال، حتى تراهن يسبحن مبتعدات

---

[32] اور الكلدانيين الحقيقية هي اما (ارخ) واما (تل المقير) في بابل. لكن (حران) مسكن ابراهيم في زمن متأخر تقع على مسافة بعيدة جدا الى شمالها. والاساطير المحلية تثبتها في حران الواقعة على بعد (٢٥) ميلاً جنوب اورفه. واعظم مايفخر به الاهلون هناك. هو وجود بئر (رفقة) والاساطير الاخرى تعزز هذا. كان ابراهيم الخليل قد فقد كثيرا من الماشية عند عبوره الفرات قرب (بيره جك)، واسم (حلب) العربي المأخوذ عن (حليب) انما جاء هنا عن بقرة تمت سلالتها الى قطيعه. ومما لاشك فيه ان (يعقوب) كان يتجه الى الشمال بعد هروبه من بئر سبع وبيطال. لكن هذه الواقعة لاتؤيد بالضرورة اسطورة اورفه لان خط سير ابراهيم المباشر الى بابل كان يحتم عليه اجتياز الصحراء المتعذر قطعها. ولعل (ابراهيم اورفه) بطل محلي نال الشهرة من مآثره ووقائعه الشخصية. ومما تجدر الاشارة اليه ايضا وجود اساطير اخرى تؤكد بأن اورفه كانت بيتا ليعقوب موطناً له.

لاهثات متقلبات على بطونهم كأنهن يعانين نوبة صرع.

واهتمام ابراهيم بالبركة تكشف عنه اسطورة فيها طرافة عظيمة فقد رفض ان يعبد النار عندما امره بذلك (نمرود الجبار). فعيل صبر الفاتح العظيم وزهقت انفاسه منه فرفعه وقذف به من اعلى صخرة في الحصن الى اتون تضطرم فيه النار التي كان هو قد اوقدها بنفسه في الهاوية فسقط ابراهيم دون ان يصاب بأذى. مع انها كانت سقطة عالية حتى بالنسبة الى الجبار نمرود نفسه. ونبط ماء تلك العين عندما لامست قدماه القاع، فأطفأت نار الاتون.

ان بدا هذا التفسير غير واضح تماما فما علينا الا ان نسلم بأن الوثنية البدائية تروي لنا حكاية اكثر وضوحاً. فصاحب البركة الأقدم هو دركيتو: داكون Dagon او اتركاتيس Ater-gatis وهي الآلهة السمكة السورية. وهذا الشبوط هو السلالة المباشرة لنسلها السمكي الذي ظل يعيش في مياهها حتى يومنا هذا.

2

بلاد الغبار والرَماد

دياربكر وماردين

من خليج الاسكندرونه غربا ، الى عقب بحر قزوين شرقا تقريبا ، تمتد سلسلة جبال شاهقة اشبه شيء بجدار طبيعي هائل يرتفع ليكون حدا فاصلا بين هضبة اسيا الصغرى الشمالية الوعرة وبين سهل ما بين النهرين الجنوبي العظيم الانخفاض. وتعرف هذه السلسلة في اقصى الغرب باسم (جبال طوروس) وبابتعادها نحو الشرق لاتجد لها اسما عاما تعرف به مع انها تستحق التمييز كل الاستحقاق. فذرى السلسلة هنا تبلغ اقصى ارتفاع لها ، ومنفرجاتها تضم جانبا من اروع مناظر الطبيعة في الدنيا.

كانت المرتفعات التي ولجناها في اورفه الطلائع الاولى لهذه الجبال. على انها وهي في مواقعها الحالية طلائع متقدمة جدا. وكان من المحتم علينا ان نمضي في طريقنا قَدماً زهاء يومين او ثلاثة في ارض مرتفعة منبسطة رسوبية. وكانت سفرة مملة رتيبة على العموم اذ مع ان الذرى المتوجة بالثلوج بدت امامنا في خط الافق ذات مهابة وجلال فان الارض المتعادية فيما حولنا كانت قاحلة جرداء بكل معنى الكلمة. وكان ثم قرى كردية قليلة العدد ذات مظهر مزر بائس نمر بواحدة منها بين كل فترة اربع اوخمس ساعات. ولا تجد العين خلا هذا ماترسل انظارها اليه وتتملى فيه. وبدا لنا وكأن جماعتنا الضئيلة العدد التي تدب ببطء فوق هذه الارض الفسيحة، هي المخلوقات الحية الوحيدة خلا اسراب الغربان ذوات الاعراف.

على اننا في اليوم التالي اكتشفنا ظاهرة اخرى ان لم تضف الى المنظر جمالا فلعلها على الاقل اكسبته بعض الاهمية. واقصد بها طبقة أرضية اكثر ارتفاعا تنبسط فوق الهضبة وتلمع لعانا اخاذا بآلسن طويلة تخرج منها مستوية وتنتشر فوق السفوح الشديدة الانحدار، وهي صخور سوداء سقطت هناك بالاطنان من الاطناف المشمخرة على طول الحافة العليا. هذه الصخور يغطيها طحلب اخضر مربد. وهي كذلك مرقطة ببقع من الاشنة اشد اخضرارا. ويبدو ان لا نبات أخر ينمو فيها. واللون السائد في تلكم البقاع هو اللون الرمادي المصفر الكامد. هذا وان الذين شاهدوا هذه الصورة من قبل ليسوا بحاجة الى التعليق عليها. ففيما مضى سالت فوق كل هذه البقاع حمم متدفقة من البراكين الثائرة فغطتها.

وكلما امعنا السير في طريقنا اخذت الدلائل تزداد وضوحا. فاكروپوليس بليدة (سيڤريك Severik) يقوم على قاعدة من الصخر البركاني الاسود (البازلت) مثل قلعة بامبورو -Bam borough. وعلى مسافة ليست بالطويلة من قرية (قايناق) تجد مخروطاً منفرداً لاشك انه كان فوهة بركان فيما غبر من الزمن. وعلينا ان نتذكر هنا ان (ديار بكر) بنيت فوق الصخور البركانية ايضاً. وهي تبعد مسيرة يومين عنا ولا احد يدري من اين جاءت هذه السيول الهائلة

من الحمم التي تشغل مايبلغ طول قطره ستين ميلا وما مساحته اربعة الاف ميل مربع من الارض اعني بقدر مساحة مقاطعة (يورك).

وعلى مسيرة يوم كامل نحو الافق الشرقي تماماً يقوم جبل هائل الجرم شبيه بالفطيرة المستقرة على قاعدة مستوية يزيد ارتفاعه عن ستة الاف قدم. ذلك هو (قره چو) البركان الخامد العظيم وطليعة مجموعة البراكين التي تقع شمال بلاد مابين النهرين في أرمينيا وشرقي كردستان ولاشك ان هذه البقعة كانت مرسحاً لواحدة من اعظم الثورات البركانية في الكرة الارضية خلال عصر جيولوجي سحيق. ان البراكين الضخمة الخمسة التي احدثها ذلك الثوران (ولا نذكر العدد الكبير من الفوهات الصغرى [1] تمتد منحرفة بخط مستعرض في جبهة طولها ثلاثمائة ميل. وفي النهاية الشمالية الشرقية، يقع (العجوز) Alageuz على مسافة مائة وخمسين ميلا جنوب القفقاس. ثم تأتي جبال آرارات ثم (سيپان) Sipan ونمرود. ويقع قره چو في النهاية الجنوبية الغربية وربما كان نمرود اعظمها طرا وهو جبل اقل ارتفاعا من قره چو بعض الشئ الا انه يحتوي على ثالث اعظم فوهة بركانية معروفة في العالم. ويبدو ان جبل (قره چو) يحوي مجموعة متقاربة من البراكين اقرب شبها بجبال (باي دي دوم) Puy De Dome على ان قره چو اضخم من هذه بما لايقاس.

ويزعم كثير من الباحثين ان موقع جنة عدن هو قرب (وان وبتليس) الحاليتين. في البقعة التي تبدأ منها مصادر انهار دجلة والفرات والزاب وأراس. واذا كان الامر كما قالوا فان جنة عدن مطمورة الان تحت حمم هذه البراكين الخامدة الجامدة. واين يمكن ان نجد رمزاً اكثر انطباقاً من هذا المنظر الطبيعي على (الكاروبيم = الملائكة) وهم ممتشقون سيوفهم النارية.

ويخرج جبل قره چو من السهل كأنه قلنسوة هائلة الجرم منعزلاً عن سائر الجبال الاخرى. وكان طريقنا يرتفع بنا شيئاً فشيئاً ليجد له منفذاً الى ذيله فيغدو بنا مسلكاً وعرا عسير المرتقى الى درجة لا يمكن وصفها. حتى لايرى هو نفسه مندوحة من المرور بين الصخور البركانية. ولم تبذل اية محاولة لجعل سطحه ممهدا بعض الشيء[2]. والى يسارنا تمتد حقول مترامية من بقايا الحمم البركانية المتكسرة المفتتة والى يميننا ترتفع اطنافاً فوق اطناف باتجاه الجبل الذي انحدرت منه سيولها في الازمان الغابرة السحيقة. ،كانت طبيعة الارض تأخذ بالتبدل قليلاً كلما تركنا الجبل خلفنا مواصلين السفر نحو الشرق. الا ان الحمم البركانية ظلت تكتنفنا من كل جانب.

---

1 الكمية الهائلة من هذه الصخور البركانية التي تغطي منطقة جد واسعة هي في وسط ارض رسوبية الى شرق نصيبين قليلاً. وانها بركانية لا شك فيها على ان مايحير العقل حقا هو كفية وصولها الى الموضع. لان (قره چو) و (نمرود) وهما اقرب فوهتي بركان منهما، يبعدان عنها بحوالي مائة ميل.

2 قيل ان محاولة لرفع هذه الصخور قد وقعت مرة. وان الاهلين اسرعوا باعادتها الى مواضعها لئلا تضيع عليهم الاجور التي يحصلون عليها باستمرار لقاء مساعدة سواق العربات في اخراجهم من مآزقهم اثناء اجتيازها

وبعد يومين من مغادرتنا (سقريك) لاحت لنا اخيراً مدينة من بعيد لفتت انظارنا بسعتها واسترعت اهتماماً خاصاً منا لمنظرها المخيف. فقد لاح لنا منها صف من الابراج والاسوار السوداء الكئيبة المقبضة وبينها بضع عشرة مئذنة تلوح من وراء تلكم الاسوار مُطاولةً اجواز السماء مثل نبات القصب المنتصب خلف جدار صخري. وكانت قمم الجبال المتموجة بالثلوج تمتد خلف المنظر وتتلاشى تدريجا امام العين لبعد المسافة. ولما دنونا وجدنا وادي نهر دجلة بحد المدينة من الجهة التي هي عن يميننا. تلك هي (ديار بكر = آمد) السوداء التي لم يسقط اسمها العتيق من التداول تماماً. وهي ما زالت تحافظ على صفتها بفضل الصخور البركانية السوداء التي ظلت مادة بنائها الاساسية الى يومنا هذا.

المدينة تتوجها هضبة صخرية جرداء تطل على وادي دجلة الذي يجري تحتها بمسافة ثلاثمائة قدم في مجرى رملي واسع. وهو هنا عريض عميق الغور واسمه الذي يعرف به هنا (الشط اي السهم) كناية عن سرعة مجراه الا ان هذا المجرى الدفاق يحد من اندفاعه جسر يقع على مسافة من المدينة. وفي شتاء العامين ١٩١٠-١٩١١ جمد النهر تماماً وتصلبت صفحته حتى ان قوافل الجمال راحت تسير فوق جليده وهو يغطي الوجه الشرقي للمدينة والارض تميل الى الانحدار الشديد من الجهة الجنوبية كذلك. أما ظاهر المدينة من الجهتين الباقيتين فهما منبسطتان.

في اوربا عندنا عدد كبير من المدن التي ظلت تحيط بها اسوارها الرومانية وقلاعها المشيدة في القرون الوسطى حتى يومنا هذا مثل ايگومورت Aigues mortes وآڤيلا Avila ولوگو Lugo وروثنبرغ Rothenburg[3]. وبامكاننا ان نضيف اسم القسطنطينية الى هذه القائمة وان كانت دائرة تسويرها غير كاملة. ونحن - بعد ان شاهدناها كلها وتأملنا فيها - نشعر بان علينا الاقرار بان الاسوار البازلتية التي تحيط بديار بكر هي افخم من كل الاسوار واجملها مطلقاً. فارتفاع الجدار فيها يناهز اربعين قدماً محيطها يبلغ خمسة اميال. وتحكيمها يتم بثمانين برجا ضخما. هذه الابراج تقوم على مسافات متقاربة بامتداد السور واغلبها مدور وبعضها نصف مثمن وواحدها بعيد عن الثاني بمقدار ثلاثة اقطار ونصف قطر تقريباً ثم تبرز فجأة من السور الاصلي التي هي جزء منه. وخط بناء السور متعرج غير منتظم يتبع حافة الوادي والمنخفضات. وفي كل زاوية ناتئة برج دائري ضخم اما المداخل فهي اعتيادية على العموم. كأنها مجرد ثغرات وثقوب في السور يقوم على طرفيها برج. وهذا اسلوب التسوير الروماني. فمداخل مدينة (لوگو) مثلا تشبهها تماماً[4]

يبلغ سمك السور ما بين عشر اقدام و خمس عشرة قدماً. وسمكه من جهة النهر اقل حيث

---

[3] أيكو مورت في فرنسا واڤيلا ولوكو في اسبانيا وروثنبرغ في المانيا (المترجم).

[4] ان الفسح بين الابراج تساوي في الطول تقريباً مثيلاتها في سور (لوگو) و (استورجه) لكن خط السور غير المنتظم ليس كما يرى هنا وان الرومانيين استخدموا تصميمها اكثر اصالة ودقة على العموم.

الجرف البركاني الشديد الانحدار يجعل اي هجوم من هذه الناحية امراً ينطوي على الجنون. اما الجهات الثلاث الاخرى فأكثر سمكاً ويزيد في مناعتها خندق منقور في الصخر الاصم لكنه ليس بعرض خندق اورفه العظيم ولا بعمقه. وعلى امتداد ضفة الخندق من جهة المدينة اقيمت جدران ارتفاعها يبلغ الصدر على بعد خطوات قليلة من قاعدة السور على غرار ما في اسطنبول وكاركاسون Carcassonne وثم ممشى مراقبة معقود السقف مثقب بكوى فوق السور وتقوم فوقه مسننات وبهذا يتوفر للمدافعين ممشى مزدوج معقود[5]. والبروج معقودة من الداخل وذات جدار مضاعف ايضا تتمكن حامية السور من الوصول الى مراكزها بمرقاتين مدرجتين في كل برج من الابراج. اما القلعة فتقع في الزاوية الشمالية الشرقية مطلة على مجري النهر ويقوم في وسطها بناء هائل متهدم كان بالاصل تل برج المدخل المنهدم.

ولا مجال للشك في ان الاسوار هي رومانية بصورة رئيسة مع بعض الاضافات الاسلامية. وقد استخدم في تشييدها صخور مكعبة من البازلت الاسود الذي حال لونه الى الاصفر الباهت لطول تعرض سطحه الى كساء الطحلب الذي انتشر عليه وغطّاه. وربما ساعد على ايلولته الى هذا اللون لما ارتؤي قبل عشرين سنة ان تطلى الاسوار باللون الابيض زيادة في اكرام (الباشا) العظيم الذي زار المدينة يوما.

ولحسن الحظ لم يعد ثم اثر لهذا التشويه في الوقت الحاضر.

واغلب بيوت المدينة هي مجموعات من الزرائب القذرة تتقاطع فيها ازقة ملتوية ضيقة لا اول لها ولا اخر. وقد انحصرت عجلتنا في احد هذه الازقة ونحن نمر فيه. وبدا لنا لبضع دقائق ان استخلاصها من هذه الزنقة هو مشكلة المشاكل. على ان البيوت لم تكن كلها بهذا المستوى من الحقارة. ففي الحي القريب من القلعة وهو حي الموظفين الكبار، عدد من المنازل الجيدة البناء بالحجر وفيها قليل من المنازل عتيق البناء يثير في النفس كثيراً من الاهتمام. وعلى الاغلب يستخدم الاهالي البازلت الاسود والمرمر الاصفر على شكل حلقات افقية متباينة تشبه كثيراً ابنية (پستويا Pistoia)[6] بمرمرها الابيض والاسود. ومن العجيب حقا أن يكون الذوق الخاص في استعمال اللونين على سبيل الزخرفة، موروثاً عند اهالي المناطق البركانية حيث مواد الانشاء ذات الالوان المتعددة متوفرة دوماً. فهذا الميل ظاهر جدا في المناطق البركانية بـ (اوڤيرن)[7] Auvergne. واهم ما يجتذب النظر ويقوم

---

[5] كاركاسون مدينة تاريخية محصنة تقع جنوب فرنسا. (المترجم). في اسوار اسطنبول ممرات مزدوجة متشابهة وهنا الجدران مضاعفة. وهي ككل امنع دفاعاً من الجدار الواحد في (آمد). الا انه ليس منيعاً بحد ذاته لو اخذنا كل جدار على حدة

[6] مدينة من مدن ايطاليا (المترجم).

[7] مقاطعة فرنسية مشهورة بمناطقها البركانية (المترجم).

مثالا على هذا، هو قصر كبير بديار بكر يقع على الشارع الرئيس، شبيه جدا بالقصور القديمة الاسبانية. مربع الشكل اشبه بالسجن من خارجه لا زخرفة فيه، وليس له الا مدخل واحد كبير. اما من داخله فممراته تحيط بها اروقة معقودة مستندة الى اعمدة مرمرية. لابد وان هذا المسكن كان في زمن ما قصراً لرجل خطير الشأن أو قطب سياسي كبير. أما الان فهو (خان) لا غير. خان شديد القذارة حتى ان عربجينا ادركه القرف والاشمئزاز من كثرة ذبابه.

والمسجد الجامع يسترعي الانتباه لغرابته. فهو يعرض معضلة من معضلات الهندسة المعمارية لم تحل الى يومنا هذا حلا حاسماً. فجناحان من اجنحته الاربعة يؤلفان واجهتي قصر عتيق ذي سعة كبيرة مبني باسلوب لا يسعنا القول الا انه فريد في بابه. وواحدة من هاتين الواجهتين تتألف من طبقتين تستقران على عقادة حادة وشبابيك مربعة الرؤوس فوقها.

أما الواجهة الاخرى فذات طابق واحد تحتوي على عقاده حادة[8]. وكل هذا لايمت الى اسلوب العمارة الرومانسكي Romamesque بصلة وثيقة[9]. على انها رومانسكية اكثر منها شرقية بل هي اشبه بنسخة ساذجة من قصر (اوتوهاينريخ باو) Otto Heinrch Bau في (هايدلبرغ شلوس) Heidelberg Schloss [10] لكنها اقرب شبها الى قصر (ديوكليتيان Deiocletian الشهير في سپالاتو Spalato وان كانت اصغر جرما فهي اكثر زخرفة وتزويقا الى حد كبير. النظرية التي يمكن قبولها بصورة عامة. هو ان هذا الجناح وحده كان جزء من قصر (تيريدات) الارمني، ومما يدعم نظريتنا هذه دعماً قوياً، الشبه الكبير بين هذه البناية وبين قصر (سپالاتو) (فديوكليتيان وثيريدات)[11]. كانا متعاصرين وصديقين حليفين.

كانت (آمد) Amida احدى القلاع العظيمة التي تحمي حدود الامبراطورية من الجنوب. كانت اسيا الصغرى الشمالية قد استقرت طويلا تحت الحكم الروماني. الا ان (بارثيا) و (فارس) في الجنوب لم تخضعا في اي وقت خضوعاً تاماً. وكان خضوع بلاد مابين النهرين للرومان اشبه والحق يقال بخضوع ايطاليا قبل العام ١٨٦٠ تقريباً. حيث كانت لدى المحتلين لا اكثر من منطقة تقع ضمن (مجال نفوذهم) واحياناً كانوا يستحسنون غزوها «تثبيتاً

---

[8] الكل مبني بالبازلت الاسود مع اساطين مرمر اصغر حجما وحلقات مرمر اقل بين مسافة واخرى.

[9] الرومانسك. اسلوب من اساليب العمارة كان يسود اوربا الرومانية الاتجاه ما بين الفترتين الغوطية والكلاسية (المترجم).

[10] هايدلبرغ مدينة مشهورة بقصرها الشبيه بالحصن في المانيا (المترجم).

[11] ديوكليتيان: امبراطور روماني (٢٤٥ - ٣١٣م) اعتزل الحكم في ٣٠٣ وبنى في سبالاتو قصره الشهير جدا الذي لا تزال اجزاء منه قائمة في دلماتيا من اعمال يوغوسلافيا الى الان (سبالاتو تعرف اليوم بسبليت) وثيريدات المقصود هو الثالث احد مشاهير ملوك الارمن فهو اول ملك نصراني اقتبل الدين على يد القديس غريغور المنور حوالي ٣م (المترجم).

لمصالحهم». على انهم كانوا يجدون غالبا مشروع غزوهم هذا اصعب من ان تقوى عليه طاقاتهم. هذا مع العلم ان حدودهم «العملية» الحقيقية كانت تمتد على طول الجبال الشمالية. وهنا ايضا بقوا يحافظون على قلاعهم العظيمة الاربع. ولم يكن موقعها تربيعيا على الاسلوب النمساوي وانما كانت القلعة خلف القلعة على طول السفوح الجنوبية من سلسلة الجبال. وتقع (نصيبين) و (دارا = دياربكر) في الخط الامامي. تليها في الخط الخلفي كل من (آمد) و (اديسا = الرّها). ومع ان (آمد) هذه كانت في الخط الثاني فقد نالت حصتها من الحروب كاملة عندما بدأ ملوك فارس الذين تعاظمت قوتهم بعد خمول يهاجمون بدورهم.

وبلغ (قسطنطيوس Constantius)[12]. بآمد اوج القوة والمناعة واسس مصنع سلاحها. وكان شابور الثاني خصم (قسطنطيوس) العنيد اول من القى الحصار عليها. هذا الشاه الساساني العظيم غزا التخوم الرومانية بجيش لجب قوامه مائة الف مقاتل في العام (٣٦٠م) وكانت نيته في مبدأ الامر ان يتجاهل القلعة ويندفع الى قلب البلاد يعبث فيها سلباً ونهباً. الا ان سهما فُوّقَ من سورها اثناء مروره راكباً فأصاب خوذته. فاستدار على عقبيه كالثور الهائج واستقبلت عودته بوابل من السهام من اعلى السور ادت الى مقتل الابن الوحيد لنائب القائد العام في جيشه وهو (كرومبات) Crumbates ملك الخيونين Chionites وحلف (شاپور) يمينا للاب الثاكل بانه لن يصيب راحة الا بعد استيلائه على المدينة عنوة.

وشد عليها حصارا محكماً ثلاثة وسبعين يوماً استعمل فيه كل عنف ومهارة. فجلب كباش الحصار وابراجاً خشبية ضخمة بناها له مقاتلون خبراء هربوا من الجيش الروماني. وحانت له فرصة ففاجأ احد الابراج الواقعة على جبهة النهر. الا ان الرماة السبعين المختارين الذين استولوا عليه طوقتهم الحامية الرومانية وأبادتهم. وأخيراً نجح في ثغر السور ومع أن بعض افراد الحامية افلحوا في شق طريق النجاة خلال خطوط الغازي من الجانب الاخر وفروا وبضمنهم المؤرخ اميانوس Ammianus [13] فإن الباقين ذبحوا جميعاً مع اهالي المدينة بحد السيف في اثناء الاعصار الدموي الذي عقب ذلك.

على ان (آمد) ادت على الاقل واجبها المنتظر منها بوصفها قلعة حربية فقد صدت اسوارها اضخم هجوم للعدو خلال فترة حرب كاملة. وفقد شاپور جراءها ثلث جيشه وتقدم موسم الشتاء به ولم يعد قادرا على مواصلة عملياته العسكرية فتراجع الى بلاده فارس وترك المدينة التي كلفه الاستيلاء عليها كثيراً.

أما أشهُر حصارٍ للمدينة فقد كان في العام (٥٠٢) اذ هاجمها خريف تلك السنة الملك

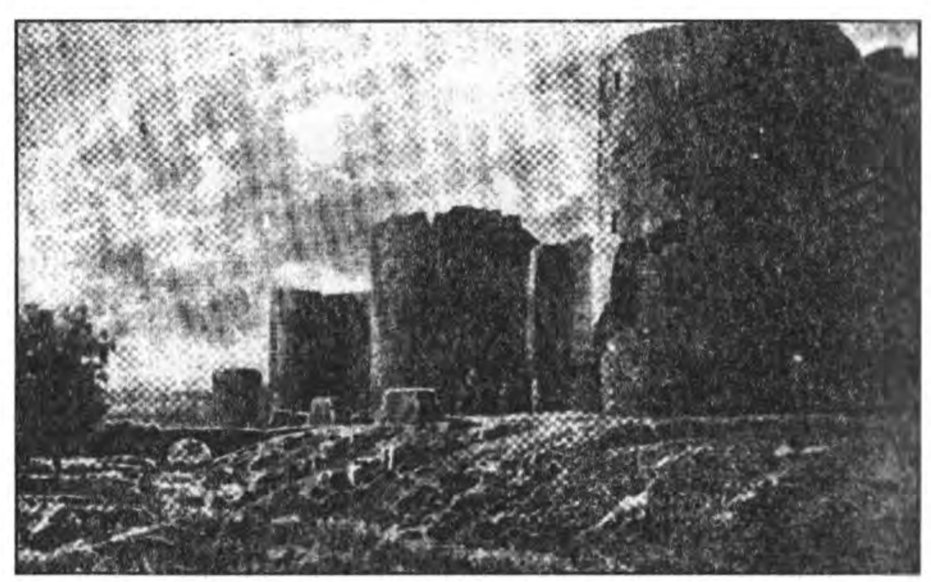
---

[12] يقصد به قسطنطيوس الثاني امبراطور كل الرومان منذ عام ٣٣٧م حتى ٣٦٠م وهو ابن قسطنطين الاكبر (المترجم).

[13] لعله يقصد اميانوس مارچللينوس المؤرخ الروماني المعروف من القرن الرابع الذي عرف بكثرة معلوماته وحياده في سرد الوقائع الا انه كان كثير الاضطراب (المترجم).

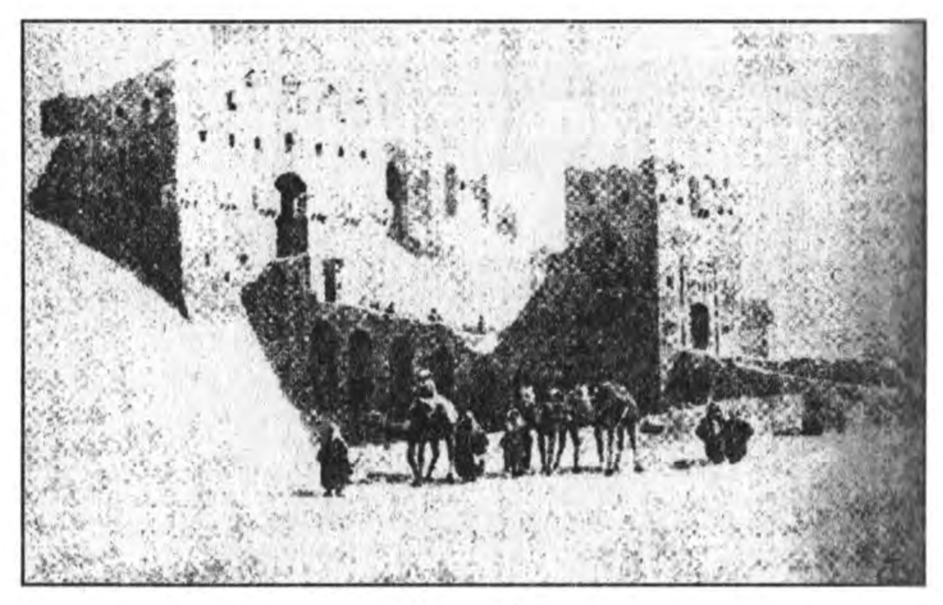


الشيخ عبدالسلام البارزاني في الوسط وعن يمينه سليمان بك الرواندوزي وعن يساره كاتبه ملا احمد بن عبدالخالق العقراوي. الواقفون من اليمين الى اليسار: ميرخان سم، مصطو هفليري، سعيد فقي عبدالرحمن، علي محو، عبدالله گور، ملا جوج، ملا ابو زيد، شرو خزيران، شيخ ملا بله يي (تحقيق الاصل بمساعدة كاك صالح محمود البارزاني). (انظر الفصل ٧ ص ١١٣).

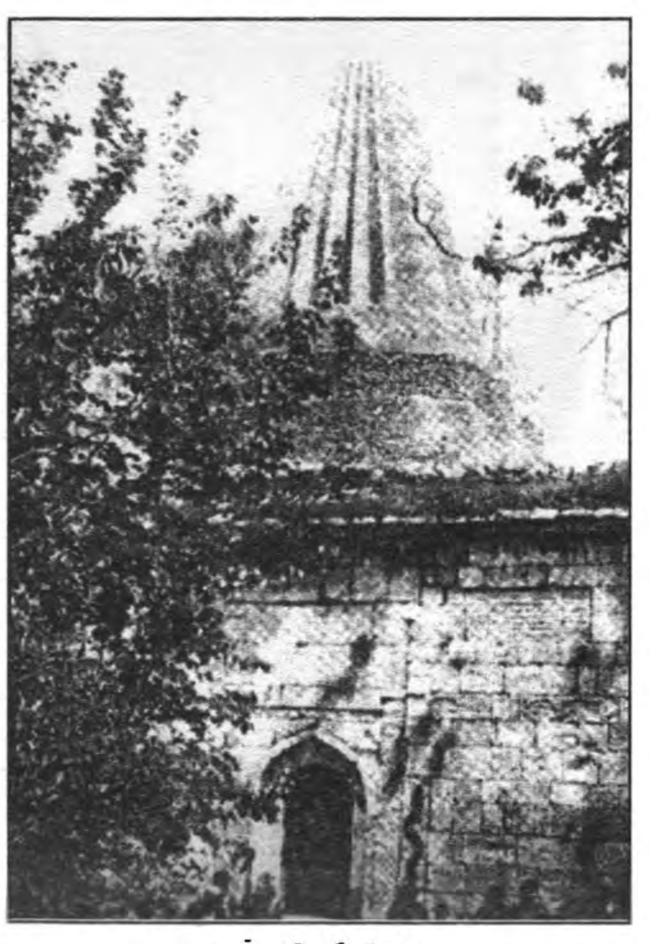


اسوار ديار بكر

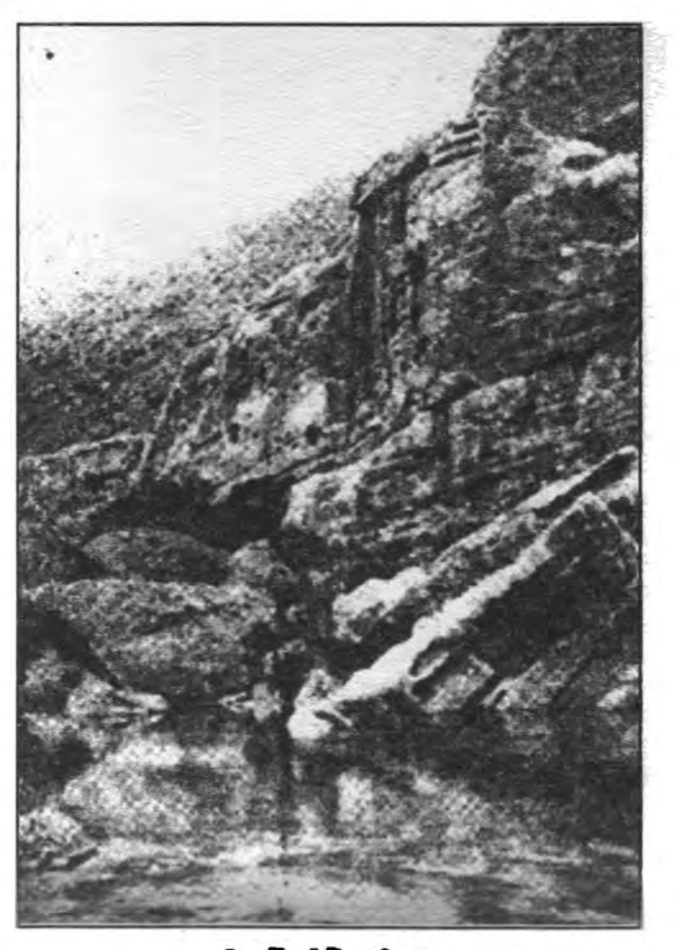
منظر بالقرب من الزاوية الشمالية الشرقية. البرج الاخير يطل على نهر دجلة



باب القلعة في حلب

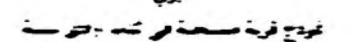


ساحة الهيكل الشيخ قدم

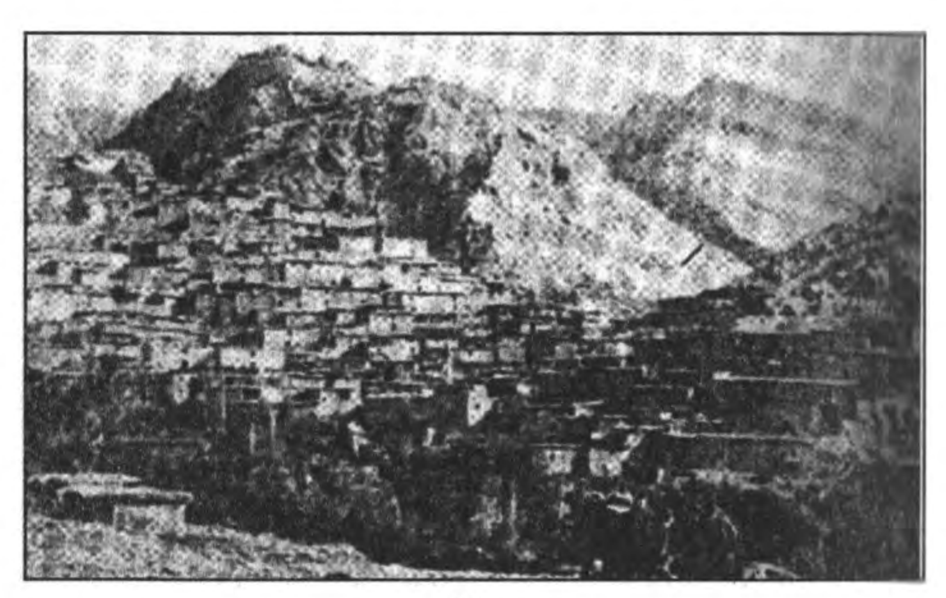


منحوتات في الواجهة الصخرية



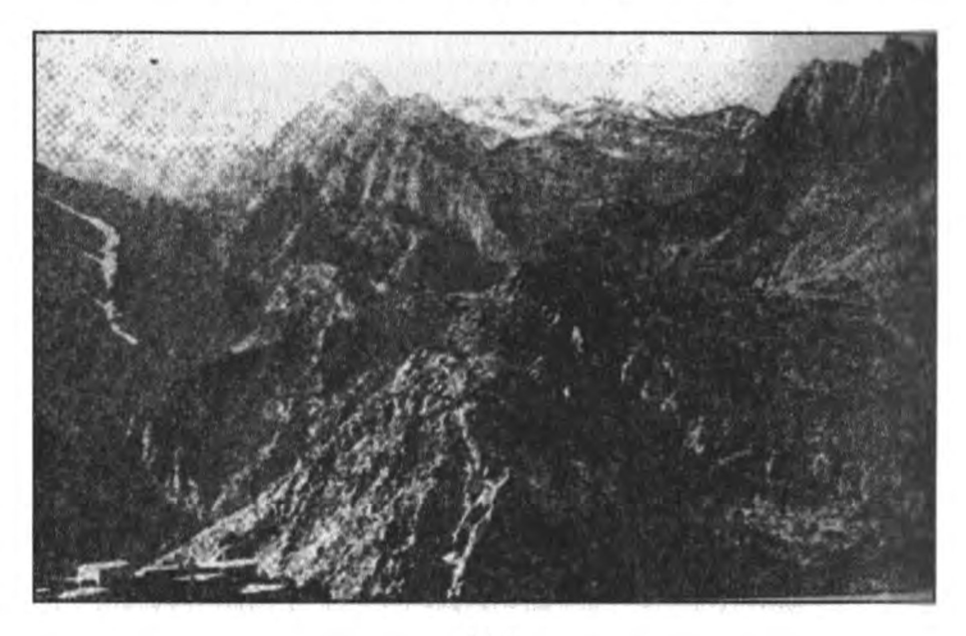


ديري



عقرة

من الجنوب الغربي، الاشخاص في الصورة هم ربان وردة وبعض اتباعنا



اورامار

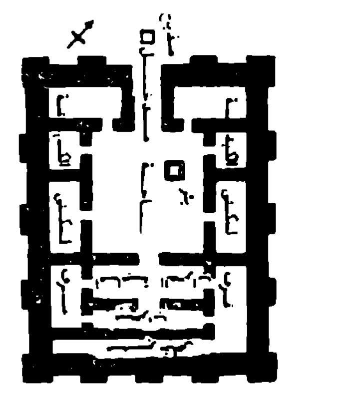
من الناحية الشمالية عبر المضيق نحو قمم سپادوريك بين الجيلو والباز

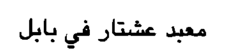


نهر عين الذهب يدخل مضيق الجبل

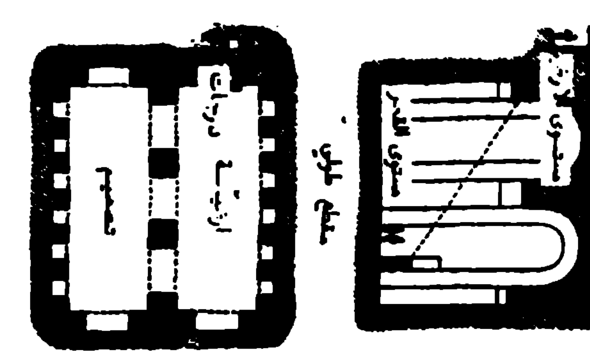
بركة ابراهيم في اورفة

بيعة القديس يعقوب في نصيبين





معبد عشتار في بابل



ضريح ـ ز ص العضد

(قباذ) والد (خسرو الاول) الذي فاقه عظمة ومقاماً. وشد عليها من الناحية الغربية - كما فعل شاپور من قبله - مستخدماً الات حصار مشابهة لما استعمل سلفه قبلا[14] فصدت حامية المدينة ضربات كباش حصاره وآلات ثغره بمطارح مصنوعة من القصب كانوا يدلونها من فوق مسننات السور وينشرونها على جدرانها. كما كانوا يصبون الدهون والزيوت فوق جسوره المتحركة التي يمدّها من ابراجه الخشبية بحيث استحال على المهاجمين العبور. كذلك استعملوا «كلمات مجنحة!» غير مسبوقة قط بقذارتها وسوقيتها اخجلت حتى مؤرخهم نفسه[15]. فوجد نفسه مضطراً الى ان «لايبتعد اكثر من بيت الحجر». مع ان الزيت المغلي وقنابر النفط الملتهب كانا سلاحين لا غبار عليهما.. ويقول مسترسلاً «لو كان الاسقف حياً لما سمح بهذه الاقوال» ولاشك في ان الاسقف كان سيستنكر من نساء المدينة وقوفهن فوق الاسوار وهن عاريات عما يستر عوراتهن، يعيرن المهاجمين بضعفهم وعجزهم عن فتح المدينة.

بعد هذا الاخفاق، قام (قباذ) ببناء تل من التراب امام الاسوار على اساليب (سرجون وسنحاريب) في الحصار - وكان عبارة عن كدس هائل من الخشب ونبات الطرفاء والتراب دكت دكا وعلاها رجاله للوصول الى اعالي السور. فقامت الحامية المدافعة بثغر سور المدينة من الداخل في الجهة الملاصقة للتل الصناعي الخشبي حتى وصلوا الى قاعه فجوفوه وحشوه خشباً واشعلوا النار سراً في قلبه من الباطن فاحترق الخشب وهوى التل كله تحت اقدام المهاجمين بعد ساعة من الزمن او اثنتين من بدء هجومهم وسقط المساكين في الاتون الملتهب تحتهم[16].

وظل (قباذ) ثلاثة اشهر يعاود هجماته فيخفق ولم يصب غير الخسائر. واناخ الشتاء القاسي بكلكله على رجاله ولم يتحملوا برده القارس وهم بالثياب الفارسية الخفيفة. فازدرد الملك العظيم كرامته وتغاضى عن هيبته وعرض على المدينة ان يرفع عنها الحصار اذا وافقت على دفع «نصف دينار» فقط له! لكن النجاح الذي حققه المدافعون ادار رؤوسهم وجعلهم اكثر وقاحة من اي وقت مضى واجرأ على احتمال اي حصار. فترفعوا حتى عن اظهار هذه الطاعة الرمزية واجابوا على عروضه هذه بارسال قائمة حساب بثمن الخضراوات التي استهلكها جيشه

[14] لم يتقدم فن الحرب تقدماً يذكر في هذه البقاع منذ ايام الاشوريين ونحن نجد الى يومنا هذا احد الزعماء الاكراد يستخدم في حصار قلعة خصمه المعاول والات الهدم محاولا عمل ثغرة فيها لينفذ منها

[15] هو المؤرخ زكريا الميتيليني Zachariah Of Mitylene (المترجم).

[16] استخدم (كسرى: خسرو) الآلات نفسها في حصار (اديسا)، بعد ذلك بزمن يسير. وهنا اشعل اللغم قبل اوانه (وخوفا من ان يفضح الدخان العملية) بدأ المدافعون يقذفون التل بكرات من النار حتى لايشك المهاجمون في ان الخطر الحقيقي انما هو كامن تحتهم. وسرعان ما اتسعت رقعة النار وآض من المحال اخمادها وانهدم التل تماماً وكان دخانه يشاهد عن بعد خمسين ميلا كما قيل. ان ضربة معاكسة كهذه،خطرة للغاية فقد كانت اجزاء السور نفسها تنفجر بفعل حرارة النار احيانا. الا ان (آمد) باسوارها البركانية كانت امنع من ان تنالها النار بسوء.

من بساتينهم. فكان هذا فوق طاقة (قباذ) ولم يتحمله وصمم على مواصلة القتال الى النهاية. ولم تمر ثلاثة ايام حتى كان هو الطرف الشامت الساخر.

تفصيل الامر هو أنه: في ليلة ما، كانت ثلة من المقاتلين الفرس تَجدُّ في إثْر رجل اسمه (كوتريكو) كان قد تسلل من منفذ سري ليقوم بغارة على معسكرهم. ولما دنوا من الاسوار لم يواجهوا اي تحد من المدافعين ولم يطلق عليهم سهم واحد. وهذا البرج الذي كانوا قربه يحميه رهبان (الانزيتيني) Anzeteni الذين «لاينامون». لكن الصدف تشاء ان «واحداً من الناس» (بروح اخوة كريمة جدا) ادب لهم في تلك الليلة مأدبة عشاء فاخرة سال الخمر فيها دهاقاً فكانوا في تلك الساعة من الليل يغطون في نوم عميق. فاهتبل الفرس فرصتهم واستولوا على ذلك البرج. فاستنفرت الحامية واسرعت تبغي طردهم وحاولت ان تهدم تحت اقدامهم السطح المعقود. الا ان الفرس ثبتوا سلالمهم على الاسوار وتدفقوا لمساعدة رفاقهم. واستمر لهب المعركة ستا وثلاثين ساعة فوق الاسوار. ووقف (بطرس الامخوري) وهو محارب جبار عظيم الخلقة متقلداً شكة سلاحه ودروعه كاملة يسد باب الممشى المزدوج في وجه المهاجمين وهو وحيد ويصد اعنف كرات الفرس. الا انهم كانوا من الجانب المقابل الاخر يستولون على البرج تلو البرج حتى تمكنوا بالاخير من السيطرة على احد مداخل المدينة ففتحوه وتدفق الجيش الفارسي الى الداخل لايقف في طريقه شيء وبدأت المذبحة.

سمح قباذ لجيشه باستباحة المدينة ونهبها مدة ثلاثة ايام متواصلة. وبنهاية هذه الفترة حملت الى الخارج ثمانون الف جثة، اخرجت من الباب الشمالي، حتى يظل الباب الجنوبي مستعداً لدخول الملك الى المدينة. مع هذا كله لم ترو روح الانتقام عند الفرس ولم ينطفئ لها سعير. وطلبوا من ملكهم ان يسمح لهم بقتل نفس واحدة من كل عشرة انفس من الاهالي الناجين لتهدأ بها ارواح رفاق السلاح الذين قتلوا في ساحة الوغى[17] فأجيب طلبهم وسيق هؤلاء الضحايا البائسون خارج المدينة وتم ذبحهم «بمختلف الاشكال».

ونهب (قباذ) المدينة. وبعث بالاسلاب والغنائم الى (قطيسفون) بأكلاك سيرها على مجرى دجلة النازل. وعندما غادر المدينة ترك فيها حامية من ثلاثة الاف جندي على رأسهم رجل يدعى (كلون) وبدا انها قوة ضئيلة لا تكفي للمحافظة على هذا السور الطويل. على انها كانت في مبدأ الامر قوة كافية اذ سببت للجنرال الروماني (باتريشيوس) Patricius اندحارا فظيعا تاما عندما حاول استعادتها مع ان الرومان كانوا ابرع من الفرس في فنون الحصار. على ان (آمد) لم تنته آلامها. وما فشل في تحقيقه فرسان الامبراطور ورجاله انجزه دأب عنيد متواصل من مواطن مغامر وجندي غير محترف.

كان (فرزمان) شيخاً كردياً من الشيوخ المحليين مقداماً واسع الحيلة تبنى قضية الرومان

---

17 بلغت خسائر (قباذ) خمسين الفاً. ولاشك ان تهدئة هذا العدد الكبير من الارواح يحتاج الى كثير من الضحايا.

واصبح اسمه فهو مصدر رعب الفرس بعد خوضه وقائع بطولية لا تحصى. ولم يكن تحت امرته غير خمسمائة فارس. ولاشك ان اية محاولة لحصار قلعة من الطراز الاول (كدياربكر) بهذه القوة الصغيرة ستكون موضع تندر وسخرية على ان قوة من الخيالة تستخدم بمهارة وبراعة قد تنجز عملاً عظيماً في اكتساح مدينة شرقية. فمثلاً في شتاء العام ١٩١١ كاد (شجاع الدولة) اغا (مراغه) يستحوذ على (تبريز) بقوة ضئيلة. وهي مدينة يبلغ عدد سكانها ثلاثمائة الف نفس.

كان (فرزمان) يدرك جيداً ان الحامية الفارسية في (آمد) لايتسع لها الوقت لسد النقص في مخازنها ومؤونها فراح بكل هدوء يقطع عنها خطوط المواصلات التي تربطها بالقرى المحيطة بها وسيطر على السوق اليومي الذي يعقد خارج اسوار المدينة. فاستبد القلق بـ (كلون) طبعاً وهاج هائجه. واسلم سمعه وقياده الى شخص من قناصي المدينة المعدودين ووجهائها المقدمين يدعى (كادونو). فأخبره كذباً انه عرف موقع معسكر (فرزمان) في اثناء رحلة صيد وانه سيساعده على مداهمتهم. وبناء على ذلك خرج (كلون) بكل ماتيسر لديه من الفرسان لكن (كادونو) الماكر كان على اتصال (بفرزمان) وكانت المفاجأة مدبرة من قبل، فأبيد رجال (كلون) جميعاً وقتل هو معهم.

هذا الفشل المبدئي في «الاندفاع الهجومي» اوقع الفرس في حيرة شديدة وراح ابن (كلون) الذي خلف اباه في القيادة يطلق عبارات التهديد والوعيد بالقتل وحز الرؤوس. الا انه لم يكن يملك خيالة. ومشاته يكادون لا يكفون لملء الاسوار والسيطرة على الاهالي في الداخل. فعمد الى زج كل القادرين من سكان المدينة في الملعب وكان عددهم عشرة آلاف. وحسب انه سيتفرغ للدفاع عن المدينة آمناً بعد حبس هؤلاء. الا ان الخبط واللبط هو كل ما كان يستطيَع عمله لان (فرزمان) ضمن صيد سمكة (السالمون) بشص سمكة (البُني). فقد لعب لعبته بمهارة الاستاذ المتمرس.

ومرت بالمعتقلين ايام تجل عن الوصف. فقد تركوا في الملعب بدون طعام، فأكلوا احذيتهم واحزمتهم ثم راح واحدهم ينهش لحم الاخر، وعندما اطلق سراح الباقين الذين كانوا يعانون سكرات الموت جوعاً اذ لم يعد يخشى منهم، زحفوا خارج سجنهم «كأناس خرجوا من القبور». وفي اثناء هذا كانت المدينة تعاني المجاعة مثلهم. ولما فزع عدد كبير من هذه الهياكل العظمية الى البيوت بعد تركها الملعب وثبت عليها النسوة الجائعات وقتلتها ونهشت لحمها، واضر الجوع بالحامية حتى اعجز افرادها عن حمل سلاحهم. وارسل قائدهم رسالة الى (فرزمان) يبلغه عن استعداده للتسليم.

وفرض (فرزمان) شروطاً كريمة بسيطة. عرض ان تخرج الحامية من المدينة وترحل الى بلادها عن طريق النهر وخيرهم في اخذ كل مقتنياتهم مثلما خيرهم بالبقاء أيضاً. وبعد ان اختارو الجلاء وخرجوا وتسلم (فرزمان) ادارة المدينة بدت فهي اشبه بمقبرة مخيفة. وكان

يساعده في الحكم الاسقف الجديد (توما) وهو الاسقف الذي قام ببناء مدينة (داراس) بعينه واخذ هذان الحاكمان يستوردان لها سكاناً جداً وينفخان فيها نسمة الحياة.

وكانت ديار بكر في السنة ١٨٩٥ واحدة من مراكز المذابح الارمنية. وفيها وحدها هلك ماينهاز الفين وخمسمائة نسمة منهم. لم يسمع عنها في انكلترا ايامها الا النزر اليسير، لان الاهتمام كان متجهاً الى (محرقات) اشد من هذه هولا وفظاعة. على ان ما بدا لنا نحن الانگليز في ذلك الحين مجرد حادث محلي، وجدناه يختلف جداً عما توهمناه عندما شاهدناه في مواضعه. شاهدنا الابواب المحطمة المرقعة، تلك الابواب التي اقتحمها الاوباش على ساكنيها. وتأملنا الصور التي مازال يحتفظ بها اصدقاء الضحايا البائسين في الالبومات. وذهبنا الى البقعة الجرداء الخالية من البناء في وسط المدينة حيث كان يقوم حي الارمن فدك دكا ومسح عن وجه الارض، وبقي قاعاً صفصفاً حتى يومنا، ولم يشيد عليه بناء.

ولم يعد ثم شك الان في ان المذبحة كانت قد تمت بتدبير وايعاز من حكومة اسطنبول. الا ان الاداة المسخرة البريئة التي استخدمتها للتنفيذ كان الاكراد المتعصبون الذين اندفعوا الى احياء المدينة من القرى المجاورة للمشاركة في المذبحة المدبرة والاسهام في النهب الذي عقب ذلك. كانت المذبحة سياسية لا علاقة لها بالدين والدليل على ذلك ان المسيحيين السريان وعددهم في دياربكر كبير - لم يصبهم شيء مما حل بالارمن اخوانهم في الدين - كما ان من لجأ الى بيعة اليعاقبة لم يلحقهم أي اذى خلا الافراد الذين وقعوا ضحية هياج الغوغاء. تتقنع البداية بقناع التعصب الديني وهو لا مفر منه في الشرق. وكان الدهماء الاكراد الاداة المسخرة. والشيء بالشيء يذكر ان كل المسلمين هم سواسية هنا اينما كانوا في العالم فالحمية الدينية هي الوحيدة الكفيلة باخراجهم عن طورهم واثارة هياجهم الى حد الخطر. فأذا بلغت مشاعرهم هذا الحد فأنهم يجدون تعبيرها في الغيرة والدفاع عن الدين دائماً[18] لكن واقع التفريق بين الارمن والسريان المسيحيين كان كافيا وحده للدلالة على ان الغوغاء في هذه الحادثة كانت موجهة تعمل تحت سيطرة واشراف سياسي معين[19]

يعود كره الاتراك للارمن الى ان الارمن هو الشعب الوحيد الذي يخشاه الترك بين سائر

---

[18] نورد هنا حادث حصلت في الهند بعد العصيان المعروف بزمن وجيز كان فلاح عجوز تؤخذ اقواله كشاهد بخصوص الفتنة في بلدته. فقال انه سمع لغطا وضجة عظيمة لكنه لم يأبه لها في اول الامر وظن ان «الراجا ينهب السوق» لكن ضجيج الغوغاء ما عتم ان اقترب منه والتقطت اذانه صيحة (الله!!) وعند هذه الكلمة ادركه الرعب وايقن بالخطر. لابدّ ان تكون المسالة جدية والاضطراب خطيراً عندما تخرج من افواه الغوغاء صحية الله.

[19] كان الحكم العثماني قد اكتشف هذه الطريقة منذ زمن بعيد واختبر نجاحها. فلم يبدل فيها مطلقاً حتى حان اجله ولم يكن من المتوقع مطلقاً ان تزول آثاره المتوارثة في نفوس تلك الشعوب التي خضعت لهم قروناً بسرعة خاطفة، وان كانت قد خفت الى حد مدهش، وكان يتوقع لها الزوال الحتمي لو ان السلطات التي ورثت الحكم عنهم كانت سلطات تعمل بصدق واخلاص لمصلحة شعوبها، وفي تأريخ العراق الملكي وقائع تثبت ان اولئك الحكام الذين ادالتهم ثورة الرابع عشر من تموز كانوا قد لجأوا اكثر من مرة الى هذه الطريقة طريقة اثارة النعرات الدينية، وهي اخطر اثارة للشعب الجاهل (المترجم).

الشعوب الاخرى الخاضعة لهم فالعرب والكرد هم اخوان لهم في الدين ليس بينهم التحام قومي او وطني والسريان اليعاقبة والنساطرة اما قليلو العدد لا يكونون مصدر خطر، واما ان طول خضوعهم قد عمل على كسر شكيمتهم وطيعهم بحيث لم يعد لهم رغبة في ثورة. لكن الارمن شعب كثير العدد، ذو روح وطنية جياشة واغلبهم مزارعون مسالمون الا ان فيهم عددا كبيرا من المثقفين ومن صناديد الرجال واكفائهم. ودعاة الوطنية النشطون عندهم نسبة مئوية ضئيلة. الا انهم كانوا دؤبين على العمل بكل اصرار وعناد لقلب نظام الحكم الحالي. وباحوال سياسية متساوية لن يطول الزمن بالارمن حتى يضمنوا النصر لانفسهم وتلك نكبة لايستطيع الترك احتمالها. لهذا عندما ذر قرن الخطر قرر الترك «اتخاذ الاحتياطات» وهم لم يكونوا قادرين اصلاً على معالجة الامر بالعقل والحكمة، بل عن طريق القوة الغاشمة.

ترى استقوم مذابح اخرى؟ ان الخطر حالُ ولا مناص منه. فالترك لايريدونها لانها تثير عليهم السفارات الاجنبية فضلاً عن ان قتلهم الارمن معناه قتل الوزة التي تبيض لهم ذهباً. والزعماء الكرد لايرغبون في ذلك ابداً لان ذلك يعرضهم الى خسارة مالية فادحة. لكن هناك في الاعماق تكمن فورة الدهماء المتعصبين. هؤلاء الذين يسهل على المشاغبين من ذوي الرؤوس الحارة اثارتهم والهاب مشاعرهم مثل إشعال النار في مخزن بارود ازيح عنه الغطاء لتفجره اية شرارة نار طائشة. قال الوالي الطيب لشخص من معارفي «سانذرك مقدماً ان استطعت سبيلاً الى ذلك. وكل ما يمكنني قوله الان هو اني لا ارى خطراً في الوقت الحاضر. هنالك لغط بطبيعة الحال، واللغط موجود دائماً، وما دام الكلام يصل الى آذاننا فلا اراه يتعدى هذا الحد. اما اذا وجدت جماعات صغيرة يتهامس افرادها فيما بينهم، ما يمر نصراني على قيد سمع منهم حتى يتفرقوا. فتلك هي علامة الخطر الحقيقي، ويمكنك ان تلحظها مثلما الحظها انا».

وكان في (ديار بكر) كثير من اللغط آنذاك. وكثيراً ما اسمعنا الصبيان الشتائم اثناء مرورنا بالازقة (يقلدون بها كبارهم ولاشك) ومن المؤكد ان التوتر قد تصاعد كثيراً بعدها لازدياد الحقد بسبب حرب البلقان. فصاروا يميلون الى الثأر لهزيمتهم من اي مسيحي تحت متناول اليد. زد على هذا ان (الدستور) لم يصلح الامور اصلاحاً كلياً. فقد افتتح عهده باعلان العفو العام وبمقتضى ذلك اطلق سراح كل المبعدين والمنفيين والسجناء السياسيين ولاشك ان فريقاً كبيراً منهم كان مظلوماً بريئاً الا ان ابقاء بعض منهم بعيداً عن مكامن الفتنة كان اجدى وافضل كثيراً. وفي ذلك الزمن كانت ديار بكر في غاية من القلق بسبب (عبدالرزاق آغا) حفيد (بدرخان) وولي عهده وهو الذي يقترن اسمه بذكرى المذبحة[20] وكان قد اعيد الى حصن اسلافه الحصين في (بوتان). لقد عرف عن هذا الامير طموحه الى الاستقلال

---

[20] انظر ما بعده ان مذابح «بدرخان بك» في الجبليين النصارى بايعاز من العثمانيين حصلت في العام ١٨٤٣ ووصفها لايارد في كتابه «نينوى وآثارها» وبضغط من السفير البريطاني نفي بدرخان واسرته على اثرها الى (كنديا) وكان عقابا غير زاجر بالمرة على ما يقوله لايارد.

بحكم بلاده تحت حماية الروس واتخاذ لقب (ملك كردستان الموحدة) ومع ان مشروع «كردستان متحدة» هو في المبدأ مفهوم ايثوبي، فان تشجيع مذبحة كهذه المذبحة قد يستدعي تدخلا روسيا في اعقابها.

كان نظام الحكم التركي الغابر قد تعود معالجة هذه الاخطار باللجوء الى المكر والخديعة ان لم يكن بالحكمة والتأني الحصيف كما نحكم نحن بحسب آرائنا الضيقة المحدودة. ويمكن تقريب الامر الى الذهن بشرح واقعة لبدرخان، بدرخان بك هذا، قطب من اقطاب تلك الاسرة الشهيرة. تروي عنه حكاية لا معدى لنا من ايرادها ان لم تكن بالحرف، فعلى وجه التقريب، وكما تواتر امرها. في هذه الحكاية يتجلى شكل الاساليب التي تعودت الحكومة التركية استخدامها لخضد شوكة (السادة) الذين يشقون عصا الطاعة عليها.

استدعى السلطان في ساعة من ساعات صفاء النفس - بدرخان بك من منفاه وفاتحه في امر الانعام عليه بجزء من مملكة اسلافه فانتفخت اوداج (الشيخ) المنعم عليه، واسكرته هذه الالتفاتات السنية فراح يطالب بمختلف الامتيازات والسلطات. وعادت الحياة الى كل المطاليب السالفة التي اثقل جفنيها السبات الطويل. فبدأ القلق يساور الحكومة التركية. الا انها لم تظهر استياء او عدم رضا وسلمت للامير البوتاني بكل مطلب عرضه ثم ودع توديعاً رسمياً حافلاً حتى اعتلى ظهر البارجة الحربية التي كانت ستقله الى (طرابزون) ومنها الى دويلته. وبعد التوديع بيومين عادت البارجة الى المرفأ الذي اقلعت منه. ربما نسيت شيئاً وعادت لاخذه؟ ربما كانت محركاتها بحاجة الى اصلاح؟ لكنها لم تكن مستعجلة لاستئناف رحلتها. وسرعان ما شاع ان بدرخان بك لم يعد من ركابها. انه لم ير في اليابسة. والبارجة؟ انها لم تُرسِ في اي ميناء منذ اقلاعها (في اغلب الاحيان لاتعلق اهمية الظاهرة على تنقلات قطع اسطول الحكومة). والسؤال هو عن لحم البقر المشوي الهريس!! ترى ماذا حل ببدرخان بك؟ لا احد يدري.

لقد اتخذ جماعة (جون ترك) موقف انكار الذات ديدنا لهم وشريعة في مثل هذه المناسبات الخطيرة. الا انهم لم يحاولوا جس هذا السرطان الخبيث في جسم الحكم العثماني - سرطان فساد الادارة المزمن. في تركيا مجموعة من القوانين تثير اعجاب المرء حقاً. ولها نظام ضرائب يجب ان يكون مصدر حسد ساستنا الماليين المتطرفين في نظراتهم الاصلاحية. لكن، مع هذه القوانين خرج ذلك الدواء الحديث الصالح لمعالجة كل داء وهو تعدد الوظائف. فكل موظف فيها اكان من الاتراك الشيوخ ام من الاتراك الشبان (جون ترك)، ارناؤطيا أم أرمنياً فهو بصريح العبارة في «طريقه الى التكوين» لان وظيفته تفرض له مبدئيا راتبا زهيدا لايشبع بطنه. ومع هذا فهو يدفع رشوة لضمان بقائه فيها وهو مدرك تماماً انها تستأهل الرشوة لان «اللقطات» العفوية ستساعده على جمع «كومته» الخاصة.

ولا يستهجن الموظفون الحاليون سلوك اسلافهم هذا السبيل. بل يحسدونهم على الفرص التي عنت لهم فانتهزوها. ولو ان هؤلاء اعطوا الفرصة ليخدموا انفسهم وينتفعوا لظلوا مانعين جدا بالوضع الحالي الذي يعيشونه لكن عصابة الحكم القديمة كانت قد شدت الحكومة اليها شدا فنياً متيناً لا مجال معه لفصمها الا بثورة. وهكذا وقعت الثورة المحتومة في وقتها المعين. لكن اساليب الادارة بقيت في جوهرها كما كانت.

ولم يشرع في القيام بمحاولة تذكر لاصلاح الامبراطورية من الداخل والتعليمات والاوامر الحالية هي «لاتفعل شيئاً على الاطلاق» والحكومة المركزية لا يهمها الاّ اجتثاث ثورة صريحة وجمع الضرائب بانتظام حتى تستطيع دفع رواتب الموظفين والانفاق على الجيش. لقد حاول السلطان عبدالحميد الخلاص من فرض دفع رواتب افراد الجيش فكانت هذه المحاولة الصغيرة الفاشلة في الاقتصاد من اهم الاسباب التي ادت الى خلعه. فالجيش مؤسسة لايمكن تجويعها بعملية خداع قطعاً.

وبطبيعة الحال فان كل هذا الفساد الحكومي المنظم ينكب الحكومة بخسائر مالية فادحة. فالموظفون يتسامحون دائماً وعلى طريقة رد الجميل لاصدقائهم «ان يكسبوا شيئاً قليلاً». وهم دائما يقدرون ثرواتهم بعشرة بالمائة من قيمتها الحقيقية تهربا من دفع الضرائب. وتتم محاباة الكرد على حساب غيرهم والعكس بالعكس، لان معونتهم يجب ان يحسب حسابها، وان كانت مساهمتهم في تطوير البلاد اقل بكثير. مع هذا، فان الكرد انفسهم يضيقون ذرعاً بهذه الاساليب التي تتبع في دفع ضرائبهم لا لانها ثقيلة بل لانها لاتعود عليهم باية فائدة. انهم لايجدون تعويضاً عن اموالهم المدفوعة فلا طرق تشق في بلادهم ولاثقافة تعم ولا اعمال ري تنشأ. انهم يدفعون جزية لا غير مثلما كان ملوكهم المحليون يدفعون الاتاوة للاشوريين القدماء. ولذلك كانوا دائماً على استعداد للثورة. لو وجدوا اي امل في الحصول على مساعدة خارجية لانجاح ثورتهم، فهم كملوكهم الذين خضعوا للاشوريين كانوا يعرفون جيداً انهم سيسلخون احياء لو فشلوا في مسعاهم.

وخير ما يمكن ان يقوله المرء عن تطبيق العدالة هو ان جهازها ليس كما يبدو في ظاهره. فالقاضي يأخذ رشوة من الطرفين المتخاصمين وهو عازم من البداية ان يكون عادلا فاذا كان قوي الخلق حريصاً على سمعته اعاد الرشوة التي اخذها من الطرف الخاسر. واما في القضايا الجنائية فعلى المرء ان يدخل في حسابه مبدأ اخر. الجنايات عندنا تعتبر جرائم ضد الدولة (يتعلق بها الحق العام) فلا محيص للحكومة فيها عن فرض العقوبة الا ان الاتراك يميلون الى اعتبار هذه الجرائم ممايقترف ضد الاشخاص لا غير. ولا يكون من واجب الحكومة الا المحافظة على حقوق المعتدى عليه (او من يقوم مقامه قانوناً) والانتقام له ان كان المجنى عليه قادرا

على ذلك متمكناً من خصمه [21]. ولا توافق الحكومة ان تقوم مقام المجني عليه في الثأر له الا اذا اتفق ووجدت شخصية ذات نفوذ خارجة عن موضوع النزاع. ولنقل القنصل البريطاني مثلاً. او شخص مهاب الجانب هو طرف في اصل النزاع. ان وجهة النظر هذه الساذجة جدا تؤدي حتماً الى ظلم. وليس في امكاننا ان نؤمل صلاح الحال الى ان يهضم الاتراك مبادئنا الغربية. هذا وان ابتلاع تلكم المبادئ دفعة واحدة ستصيب معدة الاتراك بعسر هضم شديد.

واما بصدد الكرد[22] فنحن نريد ان ننصفهم ونفيهم حقهم جهد الامكان، وقد نجد لنا عونا في هذا من كلمات لمار افرام اسقف الاثوريين في اورمية كتبها عنهم الى رئيس اساقفة كانتربري. فلم يسعه ان يخلع عليهم من الصفات غير صفة (وحشي) او (امة وحشية). هذا مع العلم ان لفظة (وحشي) تعني غير مثقف او غير متعلم ولا اكثر من ذلك على انه من العدالة ان نضيف قائلين انها لفظة فيها من القسوة والتجني ما يمكن اعتباره بعيداً عن الاعتدال في بلاد كانت نسبة متعلميها الى امييها واحدا الى مائة.

ان فقر الثقافة الذي يشكو منه اسقفنا لهو اشبه «بالضعف في علم الحساب ذلك الضعف الذي تسبب في شنق «الايرلندي». فهؤلاء الكرد يميلون الى جمع اغنام في قراهم تزيد عما يملكونه شرعا. وهم قوم رعاة تركوا الزراعة لاخوانهم اليزيدية والاثوريين تركا تاماً. على اننا نخشى ان لا تختلف مثلهم العليا في الرعي عن مُثُل (كرايدون وميليبوس Crydon, Meliboeus) او هم بالاحرى الممثلون العصريون لعصبة اليوت Elliots وماكسويل Mox well وجونستن Johnstones الذين كانوا يمارسون على حدودنا «فن الرعي النزيه» ولعله كان حريا بنا ان نقول لهم ما قيل لرئيس عشيرة اخرى بلغت كبائرها حداً لا مزيد عليه ساعة ان منح هذا الرئيس لقب الدوق.

لو كان لكل رجل بقرته الخاصة،

فماذا ترى ستكون حال العشيرة الامينة

اعمال كهذه لا يمكن قط ان تعتبر اعتداء او جرماً بحسب شريعتهم واعرافهم السائدة وعلينا ان نحكم عليهم باكثر ما يمكن من العطف ان اقتصروا على سلب قطعان الغنم او وقفوا عند حد ارتكاب جريمة قتل بمحض الصدفة. على اننا نخشى ان تسجل ضدهم اعمال اشدّ سواداً من هذه في بعض الاحيان. اعمال شبيهة بتلك التي اتاها (ايدوم اوكوردن Edom O Gordon او بلاك آدم الجيفيوتي Blak Adam Of Cheviot او العمل الذي صب

---

[21] على ان الدولة الان اخذت من (مجموعة قوانين نابليون) قوانين وضعتها الى جنب انظمة العدل المحلية السابقة وتركت السلطة القضائية تختارفيما بينها على ان يجري تطبيق القانون الاخف في كل قضية على حدة.

[22] الكرد امة موغلة في القدم وهي بلا شك «شعب الكردوجي» الذي دوخ خمسة العشرة الاف كما ورد في الاناباسيس. واسمهم الحالي في اللغة الروسية Kurdischi انما هو ترجمة اغريقية له.

انتقام هيپورن Hepburn على رأس برترام Bertram صاحب برج «متفورد». ومما هو جدير بالاهتمام حقا هو ان نجد دونالد بين لين Donald Bean Lean بلحمه ودمه في اسيا الصغرى يجوب جبالها. ولو وجد ثم ساحة اعدام كساحة گريف Crieffe الشديدة العطف! لما ترددنا في الحكم بأن دولتنا هنا ستكون اعظم مهابة [23].

في (ديار بكر) يوجد نائب قنصل بريطاني. ولايشغل هذا المنصب احد اليوم ولاعجب فهو من المراكز التي تستطيع حكومتنا تجميدها كلما وجدت ذلك اسلم لها. ولاشك ان نائب القنصل هنا يحيا حياة مملة رتيبة. هذا وان التجارة البريطانية التي كانت السبب الصوري الظاهري لاستحداث هذا المنصب هي تجارة مبهمة لا كيان لها. على ان مجرد وجود اوروبي هناك معناه الحماية الحقيقية لابناء الاقليات والطوائف. والفضل يعود على الاقل الى الواجبات التي تفرضها علينا مواد المعاهدة المعقودة بيننا وبين حكومتهم[24].

والفضل لمكانتنا القومية في الشرق يعود بدرجة رئيسة الى سيطرتنا على الهند. وهذا ينعكس في حقيقة واضحة هي ان قناصل الهند في الجنوب هم اعلى مقاماً واحسن حالاً من قناصلنا في الشمال اي الذين يرتبطون بالجزء الاوروپي من الامبراطورية. وسمعتنا هي الاخرى في تناقص كما لا كيفا. فنحن نعيش كما هو معروف على رأس مال جمعه لنا رجال من امثال (ستراتفوردكاننگ Stratford Canning [25]. ويجب علينا الاقرار بان سياستنا في الايام الاخيرة لم تكن سياسة بلاد ذات قوة عظيمة. ويبدو اننا قنعنا بالابقاء على البربرية في بلاد مابين النهرين، حتى يكون وضعنا في الهند مريحاً. واصررنا على ان لانشجع مد سكة حديد (بغداد) لانها تجعل دفاعنا عن حدودنا اصعب من دفاعنا عنه الان. ولو ان قادتنا العسكريين هم الذين يتبنون وجهة النظر هذه وحدهم لكان الامر مما يغتفر لنا. فهم يعلمون جيداً قلة استعدادنا حاليا. وقد يجدون من واجبهم ان يدمروا هذه السكة لان القوات التي يملكونها لا تكفي للدفاع، دون القيام بهذه العملية. اما من وجهة النظر القومية فان سياسة (الكلب المحبوس في القن) هذه، لابد وان تأتي لاصحابها بعقوبتها المقدرة. وخير سياسة

---

[23] كريف: بليدة في اسكتلندا عرفت في القرن الثامن عشر بساحة لتنفيذ حكم الموت بكل سراق المواشي الجبليين ولاشك ان القارئ ادرك من السياق انهما يقارنان حالة اسكتلندا آنذاك بحالة بلاد الكرد ايام زيارتهما لها. (المترجم).

[24] ان القوميات المضطهدة تعلق آمالا خائبة على التدخل البريطاني لمصلحتها وهي بذلك تدرك ادراكاً صائباً ان انكلترا هي القوة الوحيدة التي لا يحتمل ان تتدخل ولا تهتم بما يجري بعكس روسيا القيصرية فتدخلها اكيد وفعال. مع ان الذين جربوا الحكم القيصري ذاقوا مرارة الخيبة. فعلينا الاقرار بان الروس هم خير من الترك في حفظ النظام. وما تحتاج بلاد الترك الان هو مجموعة كموظفينا الاداريين المضحين (لاقأس خاصة لديهم يسنونها!) ومن اولئك الذين وقفوا انفسهم لخدمة الشعب ومصلحته لا غير. وليس ثم بلاد يمكن ان تفخر بامثال هؤلاء الموظفين غير انكلترا وليس غيرها من ينكر بشدة قيمتهم وليس مثلها من يرفض ان يدرك مدى نفعهم.

[25] اسرة (كاننگ) الانكليزية انجبت كثيرا من الساسة والدبلوماسيين وفي مقدمتهم السير ستراتفورد كاننغ اشهر سفير بريطاني للباب العالي (منتصف القرن التاسع عشر) ورئيس وزراء فيما بعد (المترجم).

صريحة مستقيمة (وهي اخيراً أحكم السياسات وأعقلها) ، ان نحثث كل تقدم وان نمد يد الرجال للنهوض بالمسؤوليات التي تتطلب ذلك.

استأنفنا رحلتنا من (دياربكر) في اصقاع تغطيها حمم البراكين سالكين ما قد يكون اشق جزء من الطريق بين حلب والموصل وظلت امتعتنا تقفز وتنط في العربة مثل كمية من الفاصولياء اليابسة في قدر ماء فائر. وانكسرت (لوالب) العربة الثانية التي رافقتنا وتحتم ان تربط بالخيوط والحبال. ثم انكسر محور عربتنا الخشبي بالقرب من الثقب الذي يدخله فأضطررنا الى شده ايضاً وبمعجزة خارقة ظلت الاجزاء محكمة الوثاق حتى بلوغنا (ماردين).

هذه العوارض والاصلاحات عطلتنا.. فوجدنا انفسنا ليلاً ونحن في ارض سبخة، وظل السائق سبيله وطرق ممراً غامض المعالم. وبعد مدة اضطر الى البحث عنه على ضوء اعواد الثقاب. وبحثنا بين امتعتنا عن مصباح يزيد ضوءه على ضوء الثقاب. الا انه لم يكن بذي أثر في انجادنا على الحادث الذي كان ينتظرنا وهو عبور نهير ذي مجرى واسع بعض الشيء يصل ماؤه الى محور العربة. على ان حسن الحظ كان الى جانبنا ووصلنا الخان اخيراً.

وفي صباح اليوم التالي نفضنا اقدامنا من المنطقة البركانية ودخلنا واديا خصبا متعاديا ومن العجيب اننا تلمسنا طريقنا فيه بسهولة الا اننا لم نجد له اثراً في قمة المرتفع ووجب على خيلنا ان تزحف زحفاً في هبوطها فوق السفح المتلئ بالاحجار والصخور المخشوشنة وجذور الاشجار النافرة. وكان هذا آخر العوائق التي لقيناها. وبعدها عاد الطريق واضحاً ممهداً كما كان فقطعناه من دون حادث وان كان فيه صعود ونزول وتعبيده غير كامل. وعند العصر توقلنا جبلاً ارتفاعه ثلاثة الاف قدم في ممر ملتو طويل ثم عبرنا اخدوداً ودخلنا حالاً شوارع مدينة (ماردين).

تحتل (ماردين) موقعاً فخماً على قمة من قمم الجبال التي تؤلف سلسلتها جداراً يحد شمال بلاد ما بين النهرين وغاب عن انظارنا كل اثر للهضبة المتوسطة. ومن اسفل المنحدر امتدت الارض الى الجنوب سهلة مستوية الى ما لا نهاية دون عائق يعترض العين ولم يكن يبدو في الافق اشارة ارضية الا تل هائل يرتفع شامخاً من بعيد. قيل لنا انه يدعى (تل قوقاب) ويبعد بمسافة ثمانين ميلاً تقريباً.

الجبل هنا هو جبل (الطور: آثوس) ويقع في اقصى الشرق ومنطقته جرداء خالية فيها قرى قليلة جداً لكنها مكتظة بالاديرة المسيحية المندثرة. منها مايعود تاريخه الى القرن السابع والثامن والتاسع واغلب المسكون الان تشغله جماعات قليلة من الرهبان[26] (وماردين) تقع في اقصى الغرب من هذا الصقع. اما الحدود الشرقية. والشمالية فتتألف من روافد دجلة الذي يجري فيما وراء الارض المرتفعة من ديار بكر الى (جزيرة ابن عمر) ثم ينحدر من هناك الى

---

[26] هذه الديارات زارها ووصفها كل من القس (و. هـ باري O.H. Parry والانسة (كروترود لوتيان بل).

سهل الموصل.

ان الجبيل الذي تربض فوقه المدينة. ليس منظرا غريبا غير مألوف في هضبة كردستان. فهو يرتفع فجأة من الارض السهلة بسفوح شديدة الانحدار مرة واحدة لاتعترضها وهدة او واد من القاعدة الى القمة ولكنها تنتهي بذروة فوقها صخرة هائلة ملساء عمودية كأنها جدار صناعي. وفيما يلي المدينة مباشرة تصبح هذه الذروة رابية منفردة منفصلة من الخلف ومنتهية فجأة مثلما كانت من امام. وبهذا تغدو هضبة مستوية تماماً كسطح المنضدة. وثم تلول مجاورة ترى نسخة منها مطابقة للاصل في الجبال الشرقية هي قلعة بلدة العمادية.

كل العمادية بني فوق قمة الهضبة المستوية فصارت المنحدرات الحادة التي تحيط بها بمثابة سور لها. الا ان الجزء المنفصل من هذه القمة هنا لا يكفي (ماردين) الا لقلعة. اما مساكن المدينة فتربض على قدمتي سفح القلعة ممتدة حتى المنحدر الجنوبي من الجبيل وتطل تلك المساكن على السهل كل مسكن فوق سقف جاره. واوطأ صف منها قد يكون فوق مستوى السهل بالف وخمسمائة قدم. وهي تعرض للقادم منظراً ساحراً واضحاً من مسافة اميال عديدة.

وطول البلدة يبلغ ميلين وربما ناهز عرضها نصف ميل. وقيل ان سكانها يبلغون ثمانين الفاً. ومنازلها مبنية بالحجر الحامي اللون الشبيه بما يستعمل في اورفه. وفيها منازل جيدة قد تتحمل مقدارا معيناً من الخراب دون ان تتهدم وتهجر كما هي الحال في اورفه. والشوارع ضيقة متعرجة تمتد على الاغلب طولياً ولهذا كان واضحاً ان الجرف الذي يعلوها (كما في العمادية) لا يقذف صخوراً مفتتة الى المنحدر تحتها والا جعلت الازقة عرضانية واكثر اتساعاً مما هي الان. وفي بعض المساجد سمات هندسية تستحق الذكر وتثير الاهتمام. انك تجد ثم زخارف على اسلوب الارابسك في الكوى التي تعلو الابواب ومقداراً معيناً من النحت الزخرفي على المرمر فوق واجهات الابنية هنا وهناك. والبيوت على العموم مغطاة بقباب مضلعة وهي ظاهرة غير مألوفة الا انها تنسجم تماماً مع الاثر العام الذي يخلفه التصميم في النفس.

(وماردين) مدينة مسورة. الا ان اسوارها ليست قوية واغلبها منهدم لم يبق منه الان غير اجزاء متباعدة تقف على صخرة القلعة. وهي ليست محصنة تحصيناً رومانياً كما هو الحال في اورفه وديار بكر ولم يكن لها في التاريخ دور يذكر. لقد ظلت فترة من الزمن عاصمة لسلالة صغيرة من السلاطين المستقلين. وان ضريح احد هؤلاء السلاطين الاقوياء يؤلف جزء جميلاً ملحقاً باحد المساجد الكبرى. هناك ميزة فريدة ومأثرة جليلة للقلعة التي تجثم فوق الصخرة فقد قيل انها امتنعت عن (تيمورلنگ) نفسه وقاومت هجماته وصدتها.

يوجد فيها اليوم مقر لبطريرك اليعاقبة (مار اغناطيوس) الوارث الحالي لكرسي انطاكية

اقدم كرسي متروبوليتاني في العالم. فهو يسكن في دير الزعفران الذي يقع على مسافة خمسة اميال شرقاً على سفح جبل وبوضع اشبه بوضع المدينة ولكن على جبل آخر وهو دير موغل في القدم يعود تأريخ تأسيسه الى القرن الخامس او السادس وما زالت بعض اجزاء من بنايته الاولى قائمة الى الان وهي متصلة بالبناء الحالي تكشف عن اصل عربي وتظهر وجه شبه قوي بالبناء الروماني الاصيل المتمثل في بيعة مار يعقوب في نصيبين. ولكن الجانب الاعظم منه هو بناء احدث كثيراً. ذلك لان الديركان مسكوناً باستمرار منذ تأسيسه وقد صُبّتْ عليه مختلف المصائب والكوارث فلطالما هدم واعيد بناؤه.

ان «السريان اليعاقبة» في يومنا هذا، بقية بائسة في حين جاءهم حين من الدهر كانوا فيه المذهب الاكبر والاوسع انتشارا في هذه الاقاليم الرومانية التي ندخلها تجاوزا تحت اسم (سورية وفلسطين) والتي كان الرومان يسمونها (القيادة الشرقية Praefactura Orientalis).

والسريانية (الارامية)، هي لغة التخاطب في هذه البلاد التي كانت انطاكية عاصمتها الدينية السياسية. واستعمال لغة اخرى كان يعني اتخاذ نصرانيتهم صبغة قومية. وهم كانوا يكرهون الاتحاد بالبيعة اليونانية الامر الذي حاول فرضه عليهم امبراطور القسطنطينية لاسباب سياسية فخاضوا غمار هذه المعركة العقائدية ورفضوا ان يتقبلوا السلطان الديني البيزنطي (كونستانتينوبوليتان Constantinopolitan للمجمع) الخلقيدوني حيثما وجدوا في هذا الرفض نقطة تجّمع تعكس رغبتهم في الاستقلال.

وعلى مايبدو كان الامبراطور يحاول مصالحة الاقاليم التي لم تقبل بالمجمع واحتجت عليه لفترة من الزمن الا ان الامبراطور يوستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥) نبذ السياسة وكانت النتيجة ان استحدث هؤلاء المونوفيزيين Monophysite [27] الثائرين لانفسهم تنظيماً منفصلاً عن البيعة اليونانية الا انهم ظلوا متآخين مع بيعتي الاحباش والارمن. ووقف معظم سكان البلاد الى صفهم.

وهكذا فَعندما بدأت الفتوحات الاسلامية في القرن السابع وجد العرب كل سكان الريف عاقدي العزم على استقبالهم استقبال المنقذ لا الخصم فكافأ الفاتحون هؤلاء المونوفيزيت بجعلهم الملة الشرعية الوحيدة من الملل النصرانية المنتشرة في هذه الاقاليم. وظلوا هكذا قروناً.

ولقب «اليعاقبة» لا علاقة له قط بجمعية «الوردة البيضاء» فقد لصق الاسم بهم في القرن السادس، عندما حاول يوستنيان ارغامهم على قبول المذهب الارثودوكسي بالقاء

---

[27] اي اصحاب الطبيعة الواحدة. ولقبوا بذلك لانهم رفضوا التعريف الفلسفي الذي جا به المجمع الخلقيدوني. ومو٠داه ان المسيح كائن في طبيعة الالهية الانسية معاً.

اساقفتهم في السجن ليمنعهم من رسامة أي قَس لهم الا من يوافق هو عليه. فعمد الاساقفة المحبوسون الى رسامة راهب يدعى «يعقوب البَرادعّي» بمنصب الاسقف وخولوه صلاحية التبشير والوعظ فراح يتجول مدة خمس وثلاثين سنة متنقلا من محل الى آخر وهو لابس بردعة، واعاد تنظيم الجماعات المنفصلة.

ويدعي بطريركهم انه الممثل الحقيقي للكرسي الانطاكي البطريركي. وبطبيعة الحال لم يكن بستطيع السكنى فيها ايام الاضطهاد لمنعه من ذلك رسمياً فاضطر الى نقل كرسيه من دير الى دير حتى استقر اخيراً في دير الزعفران وكان هناك بطريرك رسولي يوناني طبعاً وان كانوا يقرون بوجود ثغرة في خط التعاقب كما انه كان قد نصب دعي لاتيني للكرسي الانطاكي ايام حكم الصليبيين حينا. وبطاركتهم في الوقت الحاضر يسكنون دمشق حينا وبيروت حينا واتباع هذه البيعة في تركيا الاسيوية يبلغون حوالي ربع مليون يقوم على رأسهم اثنا عشر اسقفاً. وهناك عدد مماثل تحت الحكم البريطاني في (ملبار) بالهند ولست ترى لا الآن ولا في الماضي، عندهم او عند جيرانهم النساطرة تلك الهرطقات الغريبة التي قد توهمك بها اسماؤهم مما يدعى خصومهم انها تتخلل تعاليمهم. فكلا الطائفتين تؤمنان الان وربما من الاول، بالعقيدة التي تمسك بها خصومهم الارثودكس منذ ايام المجمع. ذلك المجمع الذي ظل هؤلاء الانفصاليون يرفضون قراراته حتى يومنا هذا. ان الانفصال القديم موجود الا انه كان ادعى الى الراحة من الانفصال المبدئي والاساقفة الاذكياء من الطائفتين يقرون ان الخلافات الحقيقية لم يعد لاي واحد منها اثر.

ومع هذا فلا يلوح ثم امل بالاتفاق في الوقت الحاضر لان الجمهور غير مستعد للمصالحة ويعززون شكوكهم المتبادلة بمختلف انواع الافكار التي لا اساس لها. وقد سأل راهب طاعن السن من جبل (الطور) بكل سذاجة:

- اصحيح ان النساطرة يغسلون المذبح بدم الحمير قبل ان يقيموا الاوخارستيا[28]؟

وكان في رفقتنا شماس نسطوري لم يتمالك نفسه عند سماعه بهذه القرية العجيبة من الوثوب على السائل الوجل الا بصعوبة.

---

[28] الاوخارستيا هي الذبيحة الالهية عند المسيحيين (المترجم).

3

مسيرات روما الغابرة

دارا ونصيبين

يتواصل الطريق من باب (ماردين) الشرقي الى السهل، ويمر بمنعرجات والتواءات حادة. وقد انحدرنا انحدارا شبه عمودي الى مسافة ٢ قدم لفا ودورانا بما بلغ طوله زهاء خمسة اميال او ستة. وهو ليس بالطريق السيء مطلقاً والمرء يستطيع قطعه على دراجة هوائية من القمة الى الاسفل وربما أمكنه الصعود بها اذا كان صلب العود له قابلية خارقة على احتمال المشاق. على انه بدا اليوم أشبه باخر عمل هندسي من اعمال المهندس تلفوردر[1] في بلاد العثمانيين. فما ان يبلغ منطقة السهل حتى يتشعب الى حزمة من المسالك التي لاتصلح للسير، ومن هنا الى نهاية رحلتنا ما عدنا نرى أثراً للطرق المرصوفة.

علينا ان نذكر شيئاً آخر وهو اننا الان نترك الحضارة وراءنا. فقد لازمنا اثنان من «الضبطية» اثناء رحلتنا الى (نصيبين). كانت هذه الرفقة الى هنا غير ضرورية الا ان الحكومة تفضل اتخاذ احتياطات ملموسة لسلامة المسافر الاوروبي في هذه الاصقاع النائية لانها ستكون مسؤولة عنه اذا قضى سوء حظه ان تنزل به نكبة. لذلك ترى المسافر المتواضع الخجول يدخل مدينة إثر مدينة بتلك الابهة والفخفخة التي يخلعها عليه حرس الخيالة الشاكو السلاح فتجده يلازمه في كل مرحلة من سفرته شعور ظهوره بمظهر يزيد كثيراً عن حقيقته وبان قيمته تزيد بما لا يقاس عَمّا يستحق.

والضبطية هم نوع من الشرطة العسكرية يشبه (الحرس المدني الاسباني) او (الشرطة الايرلندية الملكية). ويغلب على ظننا ان هاتين الوحدتين الراقيتين لا تشعران بالامتنان منا اذا اقترحنا ان يضم اليهما هؤلاء البائسون المهلهلو الثياب ليقوم الجميع باستعراض مختلط في (كوفنتري). اما انا شخصيا فقد وجدتهم اناسا طيبي القلب مؤدبين لا يتقاعسون عن خدمة ويجابهون أقسى طقس واخشن السكن باستسلام ورضا فلسفي وكذلك فانهم يرحبون على الاغلب بفرصة تكليفهم بمثل مهمتنا هذه في مسافة قصيرة فهي تبدل من رتابة حياة المقر المملة. كما وان هذه السفرات من شأنها ان تخْتَم ببقشيش. على ان يتم دفعه من «تحت العباءة» كما جاء في المثل. قال واحد من حرسنا بسذاجة محببة عندما طلبنا منه ان يحمل لنا رسالة في طريق عودته:

- هذا اذا لم تكتبوا بأننا قبلنا منكم هدية.

لان البقشيش ممنوع. لكن، مع ان المدنية الاوروبية تقف هنا ولا تتعدى الخط. فلسنا بحاجة الى دليل يؤكد لنا انها لم تصل الى هنا فيما غبر من الزمن. ففي وسط احدى قرى السهل وجدنا ركنا من برج مراقبة روماني قائماً كالقمة الصخرية النافرة من الجبل. كان من الغرابة بمكان ان تبقى هذه البناية

---

[1] لعل المؤلفين يقصدان مهندس الطرق الانكليزي المعروف (توماس تلفوردر ١٧٥٧ - ١٨٣٤) الذي شق عدة طرق في اسكتلندا وويلز وغيرها (المترجم).

الهرلة قائمة تتحدى الرياح وتقلبات المناخ. واما بقاؤها وقتاً مديداً فهو من قبيل المستحيلات ومع ذلك فها هي ذي الصخور المكعبة ثابتة في مواضعها بينما هوى من فوقها مابني عليها. وفي قرية اخرى تجد بيعة رومانية (على الارجح بيت روماني حُوِلَ الى بيعة). وفي نهاية سفرة يوم انحرفنا عن طريقنا لزيارة آثار اكثر اهمية.

الجبال في هذه البقاع تأخذ بالاضمحلال حتى تندغم نهايتاها في السهل عند خط انحدار لساني متماوج خفيف التدرج. ومن بين اثنين من هذه الالسن النافذة. يخرج نهر واسع المجرى ضحضاح لا يجف ماؤه. اما الالسن الغربية فتتداخل فجأة في خنادق واخاديد عميقة عرضانية. ولما دنونا وجدنا الاخدودين على جانبي النهر تعلوهما أسوار مهندمة. والتجويف بينهما مثل وعاء السكر منتظم الحواف مبني باحجار متخلعة متفككة. وترتفع هنا وهناك اجزاء من بين الانقاض المبعثرة، وبقايا اجزاء من برج هائل. او هيكل رواق معقود بعقادات قومية. وامكننا اكتشاف اكواخ قليلة حقيرة لبعض الاكراد تكاد تكون مختفية بين انقاض المدينة العظيمة المهجورة.

هذا ما آلت اليه الان قلعة (دارا) التي كانت في وقت ما (متز) او (بلفور) عصرها واوانها[2].

في العام ٥٠٣م بعد الحروب المدمرة التي شهدت سقوط (آمد) والاخفاق الذي مني به (الامبراطور اناستاسيوس) في استرجاع (نصيبين) راح هذا العاهل يعنف قواد جيشه تعنيفاً قاسياً «لانهم لم يتفوقوا على عدوهم ولم ينتصروا حسب ارادته التي يسيرها الله» فاحتج القواد العاثرو الحظ بانهم لا يستطيعون ان يقهروا ملكا ارسلته العناية الالهية للاقتصاص من الرومان الخائري العزم. خصوصاً عندما وجدوا تحت امرته جيشا لجبا. على أنهم ختموا مرثيتهم هذه باقتراح عملي ايجابي وهو «من العبث مهاجمة نصيبين الا اذا كان يوجد قاعدة قوية للعمليات العسكرية قريبة منها». هذا الاقتراح صادف هوى في نفس اناستاسيوس الشديد الثقة بفائدة التحصينات، والباني لتلك «الاسوار الطويلة» المشهورة - الخطوط البيزنطية الذائعة الصيت المعروفة باسم (چطالچه) وبعد مداولة قر رأيه على موقع (دارا) لانشاء قلعة جديدة. ولما كانت البقعة المختارة من ضمن اوقاف البيعة فقد تم شراؤها بكل امانة واوكل بناؤها لتوما مطران (آمد). ووصف قائد الجيش المرابط المدعو (فيليچيسيموس Felicissimus في المآثر التاريخية «بالرجل النزيه الذي تجردت نفسه من الطمع». لكن يبدو ان كل الاعمال الهندسية والمعمارية كانت تحت اشراف (المطران). وقد أمده الامبراطور بكل ما احتاج من مال ولم يعترض على اي طلب له. وأمر الا يقدم لا هو ولا خلفاؤه حسابا عما انفق، الامر الذي يبدو امتحانا جد صعب لمتانة خلق المطران. واشترط بصورة خاصة ان لا يغمط حق اي عامل، بعد ان تأكد حين تطبيقه نظام التجربة والخطأ أن «المدن التي هي على الحدود يكون بناؤها

---

[2] متز حصن عسكري فرنسي تأريخي على نهر الموزيل يبعد شمال باريس بمقدار ٣١٦ كيلو مترا وقد ذاع صيته في ابان الحرب العالمية الاولى. مثل شقيقه حصن بلفور الذي يبعد عن باريس زهاء ٤٤٣ كيلو متراً شرقاً (المترجم).

بزمن اسرع فنهج هذا السبيل» بلا ريب. ومن المفيد هنا ان نذكر ان اجر عامل ذلك الزمان كان اربعة قروش (كيراتين) أي ما يعادل عشرة افلس[3]. وان اجرة الجحش اليومية تعدل اجرة العامل تماماً. وبتأثير هذه الشروط السمحاء والمبادئ الكريمة تقدمت الاعمال تقدماً سريعاً وتم بناء المدينة في ثلاث سنوات. وكان (قباذ منصرفا الى حدوده الشرقية فلم يدر قط بما جرى).

صاح (ريشارد قلب الاسد) صيحة فخر واعجاب وهو يتطلع الى قلعة (گيار[4] Chateau Guillard
- أليست جميلة ابنتي هذه التي لا تزيد سنها على العام الواحد؟

والحق يقال ان بناء قلعة (گيار) بسنة واحدة هو عمل جليل. الا انه لا يعتبر شيئاً اذا قيس ببناء مدينة (داراس) في ثلاث سنوات. ان ذلك يعطينا فكرة دقيقة شاملة عن قوى الامبراطورية البيزنطية ومواردها حتى ان (انستاسيوس) وهو ليس من الاباطرة النابهي الذكر (مع انه صاحب وعي ودراية)، تمكن من اتحافنا بأثر عظيم يخلد اسمه.

وتشاء الصدف ان تشبه (دارا) من ناحية الموقع والاسم، مدينة اخرى أقامها الرومان من العدم وهي مدينة (داروكا) في مقاطعة (اراغون Aragon) الاسبانية والشبه كثير وليس بالقليل.

تقع دارا في منخفض اشبه بالطاسة بين حافتين من ارض مرتفعة تعلوهما اسوارها المنيعة، ويمر من وسطها نهير لايمكن قط تحويل مجراه الى اي مكان وبهذا يؤمن لها الماء باستمرار. وتنزل الاسوار من نهايتي المنخفض ابتداء من نقطة الاتصال المرتفعة ويتصل شق بشق عبر النهر بحيث يدخل الماء ويخرج من فتحات نصبت واقيمت بحيلة واختراع طريف. هذه الفتحات هي مجموعة من اقواس صغيرة تحميها مشبكات معدنية وكوى مازالت بادية للعيان. ولست اشك في ان الفتحات المعقودة هذه كان يمكن سدها في الماضي بابواب متحركة وبهذا يمكن استحداث فيضان مائي خارجي عند مدخل المدينة الاعلى بحبس الماء عن المرور وفي هذا التدبير زيادة لمنعتها. وكان بالامكان الاحتفاظ بخزان مشابه داخل المدينة عند المدخل الاسفل يطلق ما احتبس فيه من ماء فجأة لاغراق كل آلات الحصار والهدم التي قد يوجهها المهاجم نحو اسوار المدينة من جهة السهل.

اما الاسوار التي تعلو المرتفعين على جانبي المدينة فهي هائلة الجرم يحميها خندق واسع عميق منقور في الصخر الاصم وكما هو الحال في (دياربكر) و (اورفه) و (لوكو) و (استورجا) باسبانيا فقد عززت صناعتها وتحكيماتها بابراج دائرية خارجة من السور على مسافات متقاربة بامتداده ومن ضمنه.

وفي داخل المدينة آثار ادعى الى الاهتمام من السور. لم يعتمد معمارو المدينة على ماء النهر وحده

---

[3] الدليل الدامغ على بقاء الاوضاع في الشرق كما كانت سابقاً الى نهاية القرن الحالي هو ان القرش الواحد الذي يعدل عشرة افلس مازال اجر العامل اليومي المتعارف عليه.

[4] هي الان قلعة خربة تقع على نهر السين في انديليه - فرنسا. شيدها ١١٩٧ الملك الانكليزي ريشارد قلب الاسد احد ملوك الحرب الصليبية الثانية (المترجم).

لـسد ما تحتـاج بل عمدوا الى بناء صـهريج هائل تحت الارض يتلقى ميـاهه من باطن الارض المنحوت في الصخر. هذا الصهريج يتسـع لخزن ما يقارب خمسـة ملايين غالون عند الحاجة، ويتألف من عـشرة دهاليز معقودة متوازية طول الدهليز منها، حوالي مائة وخمسين قدماً وعـرضه يتراوح بين ثلاث عشرة قدماً واربع عـشرة. وارتفاعه اربعـون من الداخل اعتبـارا من القاع حتى قـوس العـقـادة، والجدران الفاصلة بين الدهاليز مبلطة تبليطاً سميكاً بطبقة من الجص. وبهذا يحقق تماماً غرضه.

على مسافة قصيرة منه كان ثم منصة مربعة مبنية ترتفع بضع اقدام عن مستوى القـاع. نفذنا الى داخلها بممر مظلم ضيق متلمسين سبيلنا بصعوبة ومعنا شمعتان وكان الانحدار شديداً. حتى وجدنا انفسنا في سرداب جبار طوله ستون قدماً وعرضه خمسون، مقسم الى حجرتين باقواس ضخمة، وبعقادتين مزدوجتين بيضَيتين ترتفعان زهاء خمسين قدماً عن مستوى القاع. لاشك في انه مخزن المؤن العظيم الذي ذكره (زكريا الميتلاني). لكن لما كان موقعه تحت الارض. فان الشك يذهب بنا طبعاً الى انه كان سجناً. وهو الان يعرف محلياً باسم (الديماس الكبير).

ان ضخامة الاحجار المستخدمة في بناية ومناعة البناء القصوى تجعلنا نفكر في ان صهاريج القسطنطينية الشهيرة هي في الواقع اقل من هذه الصهاريج شأنا الى درجة كبيرة[5].

واستخدام حجارة بهذا الحجم في بناء مدينة (دارا) لهو امر يسترعي النظر ويشيع في الخرائب جوا من الفخامة والعظمة مهيباً. فهناك صخرتان مهندمتان متوسطتا الحجم ما زالتا ثابتتين في خط السور في الموضع الذي اختاره البنّاء لهما. انهما تتسعان ليفرش فوقهما فراشي السفري. ولو تناولنا كل واحدة منهما ووزناها منفردة لما قلت زنتها عن طن واحد. ويبدو ان المنازل الخاصة بنيت هي الاخرى بحجارة لا تقل احجامها عن تلك التي استخدمت في التحكيمات. حتى ليستنتج المرء انها ما استخدمت الا في معرض الفخر والتباهي كما كان الامر بالاحجار التي تفوقها ضخامة مما استعمل في بناء صروح (بعلبك). ان هذه الاحجار مبعثرة في سائر منطقة مدينة (دارا) بشكل اعتباطي لا تعليل له. وازدادت حيرتنا عندما جئنا الى تحري الاسباب التي جعلت هذه الابنية الحجرية الضخمة تنهدم وتتناثر قطعها لتغدو اثرا بعد عين. الزلازل وآلات الثغر والحصار قد تكون من عوامل خرابها. على ان المرء يتوقع ان يجد انقاضاً واتربة مكدسة في مستقرات البنايات المهدمة. او لربما رفعت الاحجار لبناء بيوت واسوار جديدة. لكن كان يجب والحالة هذه ان توضع بعضاً مع بعض في خطوط منتظمة نوعاً ما. ترى هل اصدر احد الغزاة كتيمورلنگ اوامر خاصة تقضي بألا يبقى في المدينة حجر على حجر قائماً؟ حتى انجاز امر مثل هذا يبدو قريباً من المتعذر ومثبطاً للهمة لان رفع كمية من هذه الاحجار يقتضي عمل فرقة من الرجال العتاة يومياً.

---

[٩] هذا المؤرخ يشير ايضاً الى الحمامات بوصفها اثراً يصح اعتباره بمستوى المخزن والصهريج في الاهمية. الا ان الوقت المحدد الذي سمحت به ظروفنا لم يتسع لفحص تلك الاثار. وعلى كل حال فان الجسر الحجري ورصيف النهر اثران رائعان بارزان للعيان.

ليس في الامكان دعم امبراطورية متداعية بعمل عقيم كاقامة تحكيمات دفاعية ضخمة. الا ان (دارا) سدت على الاقل الثغرة ردحاً من الزمن الامر الذي اهلها لرؤية فجر يوم من اسعد ايامها ففي العام ٥٢٩ أي بعد ربع قرن من بنائها. واجه (بليساريوس Belisarius) الجيش الفارسي في السهل خارج المدينة بالقرب من باب الماء الادنى. وكان (پيروز) القائد الفارسي قد حشد جيشاً جراراً قوامه اربعون الفاً ولم يكن لخصمه القائد الروماني غير خمسة وعشرين الفاً وهم خليط متنافر من الغوطيين والهونيين والهيروليين. ففي هذه الحقبة من الزمن اعتاد الرومان تجنيد اسراهم من الغوط للحرب ضد الفرس. واسراهم من الفرس ضد الغوط. وكان (بليساريوس) قليل الثقة بجيشه وهو في هذا محق جداً لان درجة الانحلال التي بلغها الرومان كانت عظيمة ومعنوياتهم منهارة وقد مضى عليهم جيل كامل دون ان يحرزوا نصراً ما في ساحة القتال؛ لذلك سحب جيشه الى ما وراء خط الخنادق المنيع القريب جداً من الاسوار بحيث اصبح جنوده وكأنهم جزء لا يتجزأ من التحصينات الخارجية الثابتة، لا كجيش اعتيادي معبأ للمعركة في ساحة قتال تقليدية. على انه كان قد احتاط فأمن لجيشه فسحة كافية من الارض للكر والفر والهجوم المقابل. ومع هذا كله فقد ظهر كأنه متأهب لحصار لا لمعركة جبهية. وكانت تعبئته هذه تنطوي على حذر شديد من قائد سرعان ما طارت شهرته وعد اجرأ قائد عسكري في عصره.

لابد وان الفرس كانوا واثقين من نجاحهم والا ما غامروا بهجوم على موضع شديد التحصين مثله. ولم يكن يساور (پيروز) اي شك في النتيجة. لذلك استعجل فأرسل الى المدينة رسالة فيها تحد شديد اذ امر اهلها بان يعدوا له الحمامات ليستحم بها ليلا. ثم هجمت فرقه على ميسرة الرومان هجمة عنيفة واقتحمت عليهم المتاريس فعلاً. الا ان الفوضى التي عمت صفوفهم في اعقاب نجاحهم هذا منحت فرصة لخيالة الرومان الهيرولية. فكرت عليهم كرة شديدة صادقة ودحرت الفرق الفارسية واصابتها باشنع هزيمة ومزقت صفوفهم تمزيقاً. وما ان زال قلق (بليساريوس) على ميسرته حتى استخدم كل احتياطه في هجوم عام فاصل على جناح الفرس الايسر الذي كان يريد الاطباق على ميمنته فانعزل هذا الجناح وهو زهرة الجيش الفارسي وابيد على بكرة ابيه. على ان (بليساريوس) الامين على خططه الحذرة لم يكن كبير الثقة بجنوده المستجدين في قدرتهم على مواصلة مطاردة العدو. وهذا ما اتاح (لپيروز) الفرصة لنقل معظم جرحاه. فقد كان عظيم الحيلة بلغ من مكره انه دعا اهالي نصيبين الى السلب والاغتنام فاستخدم عجلاتهم التي جاءوا بها لنقل جنوده المطعونين.

عسكر كروانا للمبيت في موقع خنادق (بليساريوس) بالذات خارج باب الماء الأدنى. فالانقاض كانت مكدسة داخل حدود المدينة مع الخرائب بحيث تعذر معه ادخال مركبتينا الى المدينة وكان بالوسع ادخال امتعتنا، كما عرض علينا القس الارمني في القرية النزول في بيته (يوجد حوالي خمس عشرة اسرة ارمنية هناك). والح في دعوته قائلا ان تشريفنا له «سيرفع من رأسه» بين الكرد لكننا استحسنا البقاء حيث نحن مع امتعتنا والسهر عليها بعين يقظة. ففرش كل منا فراشه على اسس السور كما اسلفنا على ارتفاع يمنع عنا الضباب الذي كان متوقعاً ان يرتفع من النهر. وكان الموضع

الذي اخترناه كثير الرطوبة الا انه لم يزعجنا ونمنا نوما هادئاً حتى ارتفعت نجمة الصبح تنذرنا بشروق الشمس.

هنالك موضع جانبي يستحق المشاهدة بالقرب من (دارا) قد يوازيها اهمية. لقد وجدنا الفطور ومنسا ء النهار امامنا في آن واحد فعلا. فما كان منا الا وقررنا ان نقفل عائدين مسافة ميل او نحوه غرباً لزيارة القبور والكهوف، وهي النقط الظاهرة التي لفتت انظارنا عند اقترابنا من خرائب المدينة. اخاديد عرضانية متراكمة فوق جوانب الجبيل المجاور، ومن بعد زيارتها نستأنف رحلتنا.

ان نقر خندق المدينة في الصخر لايمكن ان يكون سببا في مصدر كل هذا الحجر المستخدم لاشادتها. وقد يمكن أن يكون احد المصادر اذ رحنا نمر بمقلع بعد مقلع في التلال الغربية وهي مصادر الحجر اللازم. واستنتجنا انه بعد ان ينتهي النقارون من عملهم في المقلع يسرع الرهبان والنساك الى المقلع المهجور ليجعلوا منه مستعمرة زاهرة [6]

فأخذوا ينقرون لهم فوق الاوجه الناتئة منه ولاسيما الاوجه العمودية مئات الصوامع والاضرحة. والطرز الغالب لهذه الصوامع هو فسحة للاستراحة ذات قوس مدور. وفيها مصطبتان حجريتان على كل جانب، يليهما باب مربع الشكل في الوسط يفضي الى الصومعة نفسها التي لا تتجاوز مساحتها ثماني اقدام مربعة. وكثيراً ماترى احد مصاطب فسحة الاستراحة قد جوف ليكون ضريحاً لساكن الصومعة. وفي بعض الاحيان تنقر مشكاة اما في الجدار او في الارضية. وهنالك اضرحة اخرى فوق المقالع الحجرية كأنها غرست غرساً عمودياً في السفوح الافقية ولها فتحة مستطيلة. وهي تشق وتنقر من الداخل مثل خلية نحل تتسع لقبرين اخرين او اكثر. والفتحات مغطاة بغطاء ناووسي على شكل جمَلوَن. وكان كثير من الاغطية ملقى هنا وهناك ولم نشاهد واحداً منها يستقر فوق ضريحه. انها لاشك قد رفعت عن مواضعها في سبيل البحث عن الكنوز المدفونة.

واوسع الصوامع ربما كان يستخدم بمثابة بيعة للنساك. وقد وجدنا بابها مزدانا بزخارف ناتئة تمثل كما تبين لنا مشاهد لميلاد المسيح والهبوط الى جهنم. وهي من الداخل على شكل مربع غير منتظم وربما بلغ طول ضلعها خمساً وثلاثين قدماً وسقفها مستو ويحيط ببعض جهاتها شئ يشبه المقصورة عرضه حوالي ثماني اقدام وبينها وبين السقف ثماني اقدام ايضاً يدعمها صف من الاقواس النافرة من الصخر نحتاً. وليس هناك ما يشير الى موقع المذبح. والمدخل يقوم في الجهة الشرقية. وربما كان موضع المذبح في الوسط. ومستوى الارضية هو الاخر موضع تخمين لانها في الوقت الحاضر مغطاة بطبقة سميكة جدا من الانقاض. والصومعة الان تستخدم بمثابة زريبة للاغنام وتعرف باسم (الخان)

---

[6] لابد ان تأسيس هذا الدير تلا انشاء المدينة فوراً. فقد ورد في الاخبار التاريخية ان امرأة (قباذ) الملك الفارسي ركبها في العام ٥٢٦ روح شرير عجز عن طرده السحرة والعرافون والمنجمون «الذين لم ينجحوا الا في ادخال ارواح شريرة اخرى في جوفها!» فارسلت الى هذا الموضع اطلاباً للشفاء على يد ناسك عجائبي يدعى (موسى) فشفاها حالاً بصلواته وكان قباذ بطبيعة الحال زردشتياً (واشتراكيا في السر وهذا من العجب العجاب). نجد حتى يومنا هذا كثيراً من السكان الجبليين المسلمين يؤمون مزارات النصارى ومعابدهم للنذور والاستشفاء.

ويدخلها النور من نافذة واحدة صغيرة تعلو الباب مباشرة.

هنالك مشوقات كثيرة في (دارا) تشغل عالم الآثار اسابيع بطولها لا بل اشهرا اذا ما شاء التنقيب تحت الارض. الا اننا مضطرون الى مواصلة رحلتنا مع علمنا اليقين بان امامنا كثيراً من الفرص السهلة لبذل مجهوداتنا الآثارية ونحن في سبيلنا ماضيان.

على مسافة ثلاث ساعات من (دارا) شرقا التقينا بقُليعة رومانية اخرى بنيت على شكل حصن ضخم مربع يرتفع شامخ الرأس وسط سهل قفر. جدرانها متهدمة عبثت بها يد البلى خلا برجا مدورا في ركن من اركانها. وفي داخلها المتهدم كان يعيش عشرات من الاكراد البائسين الفقراء وهم انصاف عرأة. انها لاشك القلعة المتوسطة مابين (دارا) و (نصيبين) التي امر (يوستنيان) ببنائها في اوائل حكمه. ولم يقرن بناؤها باليُمن فقد صعد مقاتلة (قباذ) على بَنّائيها قبل انهاء العمل فيها، وهُزِم الرومان على اثرها هزيمة ساحقة وتركوا معظم قادتهم صرعى في ميدان القتال[7] وقد انقلب مجرى الحرب فاصبح الى جانب الرومان عندما تمكن احد القادة الصغار من الفرار واسم هذا القائد (بليساريوس).

بعد ثلاث ساعات اخرى من السفر البطئ طالعتنا بلدة ثانية، كان اول علامة من ضواحيها ظهور طريق مبلط مرتفع يزداد وضوحاً للعين وبزوغاً من غبار الصحراء في استمراره الى الامام باستقامة ليس فيها أي انحراف، لعله هو الاخر طريق روماني، وان كان كذلك فان الرومان هم اخر من تعنّى اصلاحه لانه كان مملوءً بالحفر حتى تعذر علينا السير فوقه واضطر السائق الى تحاشيه والسير فوق ارض غير معبدة لكثرة ما كان يعترضه من سواقي الري. وبلغ بنا الطريق اخيرا الى قرية اكبر نوعاً ما من (دارا) الا انها كانت تفتقر الى عظمة المدينة الغابرة وثروتها. هذه القرية تفخر بخان وسوق وهي كذلك مركز اداري يقطنه موظف حكومي. وان لم يكن حالها مثل حال جاراتها فما ذلك الا لأنها كانت اكثر انحطاطاً منهن بكثير. هذه القرية البائسة ليست الا (نصيبين) الحصن المنيع الذي كان في ما مضى يحد اقصى تخوم دولة روما المعظمة.

فوز الرومان بنصيبين كان قد ساعد (لوكولّوس)[8] الفاتح كثيراً في فتوحاته. وكانت معروفة في ذلك الحين باسم «انطاكية مگدونيا Mygdonia) لان حقولها الخصبة وبساتينها الظليلة كانت ترغم المستعمرين اليونانيين على ان يتذكروا بها «انطاكية دافني» الجميلة. فأي نقد لاذع لوصف پلوطارخ[9] توجهه هذه الخرائب الكئيبة والارض الجرداء التي تحيط بالمدينة؟ أي هجاء تعرضه التلال

---

[7] من الجدير بالملاحظة ان جستنيان زود جيشه هذا بعدد كبير من القادة. فليس بعجيب والحالة هذه ان يصاب بهزيمة.

[8] Lucullus (حوالي ١١٠- ٥٧ ق.م) قائد روماني شهير وقنصل وأحد خصوم پومپي المعروف وكاتب تاريخ الحروب المارسية. وكان قد فتح هذه الانحاء اثناء حملته في اسيا الصغرى (المترجم).

[9] Plutark (حوالي ٤٦ - وما بعد ١٢٠م) واحد من رجال الفكر الكبار، واحد اشهر المؤرخين في العالم كتابه سير العظماء يعتبر احد المراجع الرئيسة العشرة في التاريخ القديم. (المترجم).

الرملية المتحركة التي طمّت على خرائبها مثلما يلف الكفن جثة الميت؟ لقد حصن الرومان (نصيبين) بثلاث دوائر من الاسوار المتتالية يليها كلها خندق عميق. واشتهرت بلقبها التاريخي «جدار الشرق الاساس». (كما برهنت على اهليتها للقبها هذا بالافعال في كثير من الاحيان). ووضعوا فيها حامية قوية. ، وكان الاهالي يعيشون في حالة حرب مستديمة مع (الفرثيين) و (الساسانيين) حتى اصبحوا جنود اشداء لا يشق لهم غبار كجنود الفيالق (الليجون) الرومانية سواء بسواء.

عندما شن (شاپور الثاني) الحرب على (قسطنطيوس) فان نصيبين هي التي صدت هجومه. وعانت مابين السنوات ٣٣٨ و ٣٥٠ ما لايقل عن ثلاثة حصارات في كل حصار كانت تخرج منتصرة وقد ردت محاصريها على اعقابهم. وكان آخرها اعظمها. حمل شاپور عليها بجيش جرار جنده من كل انحاء بلاد فارس والهند. وشد شداً محكما وضيق الخناق عليها مدة ثلاثة أشهر وكانت حاميتها بقيادة القائد الكفوء (الكونت لوچيليانوس Count Lucilianus) الا ان روح الدفاع عنها كان الاسقف القديس (يعقوب النصيبي). ولما وجد (شاپور) نفسه عاجزاً عن تحقيق اي نصر بالوسائل العسكرية المألوفة، تبنى فكرة أقامة سد كبير لحصر مياه (جغجغ) المعروف آنذاك باسم (ميگدونيوس Mygdonius) ثم يطلقه ويغمر الموضع بالماء. ولما كانت المدينة في وهدة من الارض فان هذه الخطة الگارگنتونية[10] كانت ممكنة. وافلح (شاپور) فعلا في اقامة حوض ماء هائل الجرم دفع فوق سطحه اسطولاً من المراكب اخذ يهاجم به المدافعين عن الاسوار الذين اصبح في مستواهم الان. وتعاونت آثار الفيضان وآلات الحصار الطافية على فتح ثغرة في السور سعتها مائة وخمسون قدماً. وامر الملك العظيم بهجوم جبهي الا ان الارتال الزاحفة غاصت ارجلها في الطين العميق واختفت في حفر ووهاد غير مرئية. ومما زاد في الطين بلة ان الفيلة راحت تتعثر وترمح راكبيها وتطأ الجنود بالعشرات. وما جنّ الليل حتى بدأ انسحاب الفرس. وتم اصلاح الثغرة قبل ان ينبلج الصبح. وفقد (شاپور) عشرين الفاً ورفع الحصار بعد ان ادركه اليأس. وتؤكد الروايات ان من اسباب اسراعه في الانسحاب، هجوم اسراب هائلة من الذباب على المعسكر الفارسي استجابة لدعوات الاسقف المقدسة. لكن الشاك قد يجادلك في الامر قائلاً ان الجيش الشرقي باهماله المألوف لقواعد الصحة اثناء عسكرته وعدم اخذه الاحتياطات المتعلقة بالنظافة وبقائه ثلاثة اشهر بين المستنقعات في عز الصيف ببلاد ما بين النهرين وحرها اللاهب، لا يكون بحاجة الى تدخل عجائبي رباني يدفع اليه شيئاً طبيعياً لازماً لهذه الظروف الصحية كالذباب.

على ان هذه المجهودات الحربية الممتازة ضاعت هباء مع الاسف الشديد. فبعد ثلاثة عشر عاماً من هذا النصر، قتل الامبراطور (يوليان Julian في حملته الشهيرة على (قطيسفون) ولكي ينقذ خلفه (يوڤيان) Jovian الجيش الروماني، اضطر الى وضع توقيعه على معاهدة مجحفة، من شروطها

---

[10] گارگنتوا هو بطل قصة رابليه الكاتب الفرنسي الشهير في اواسط القرن السادس عشر. صوره جبارا ماردا ذا شهية ونهم لايوصفان. (المترجم).

الاساسية التي اصر (شاپور) على ادخالها تسليم نصيبين اليه، فراح اهاليها يستعطفون الامبراطور وقالوا انهم لا يريدون منه الا السماح لهم بالدفاع عن انفسهم ولن يطلبوا منه اية مساعدة. الا ان الهزيمة اشاعت روح الخور والجبن في نفس (يوڤيان) وجعلته يخشى غضب الفاتح. اما اهل المدينة بادراكهم التام ما ينتظرهم على يد الملك الذي هزموه ثلاث مرات، فقد حملوا ممتلكاتهم وتركوا مدينة خاوية خالية للفاتحين الفرس.

وظلت (نصيبين) قلعة حصينة منيعة تحت سيطرة اسيادها الجدد. الا انها نالت شهرة وصيتا جديدين اثناء حكم الساسانيين. ففي العام ٤٨٩ اغلق الامبراطور زينو - وهو من أنصار ذوي «الطبيعة الواحدة». جامعة الرها زاعماً ان في تعاليمها شائبة من الهرطقة النسطورية. وكان اسقف نصيبين آنذاك وهو المدعو (برصوما) حبرا من طراز اولئك الاحبار الذين نبغ اسمهم وطار صيتهم في العصور الوسيطة من امثال «هنري دي سپنسر» اسقف (نورويج) العسكري. او من صنف كاريللو اسقف طليطلة المتحمس. كان المطران برصوما يتمتع بمكانة رفيعة في بلاط ملك الفرس وكان كما يبدو، في منصب شبيه بمنصب «مدير الرحلات الملكية». وهو نفسه احد اساتذة جامعة الرها (اديسا). وقد ظلت علاقته طيبة مع اغلب زملائه الاساتذة وتبنى فكرة اعادة تأسيس الجامعة في بلدته مقر كرسيه الطائفي.

وهكذا اعيد تأسيس الجامعة وازدهرت ازدهاراً عظيماً وبقيت اجيالاً عديدة وهي اهم مركز ثقافي في الشرق وفخرت بألف من طلاب العلم (ان الطلاب الشرقيين لا يحتاجون الى فسحة كبيرة للحياة الجامعية) ومع ان الدراسة فيها لاهوتية اساسا الا انها عملت كثيراً في الحقل الدنيوي فكانت حلقة مهمة تصل بين الثقافتين القديمة والحديثة. فالحكمة اليونانية التي تسلمتها (نصيبين) من الرها سلمتها بدورها الى بغداد ومنها انتقلت الى قرطبة ثم الى سلامنكا وربما حتى اكسفورد وكمبردج وباريس وپادوا فاصبحن مدينات الى مدينة (نصيبين) دون ان يَدرينْ.

قد يجد عالم الآثار في (نصيبين) لقطة نادرة ان كان من المنصرفين الى التنقيب في بواطن الارض. لان التلال الترابية والآكام التي تحيط بالمدينة انما تغطي اسوارا تاريخية لا يبدو منها فوق الارض الا القليل. وهناك الجسر الذي آض شبه انقاض بحيث كانت العربة تفضل خوض النهر على المرور فوقه. وهناك بقايا مهدمة من جدارين في غاية القدم. مجموعة تتألف من خمسة اساطين من ذوات القطعة الواحدة طُمر خُمسا كل اسطون في الانقاض وبدا للعين ثلاثة أخماس. وتعرف هذه الاساطين باساطين الميزان وربمَا كانت حلقة الاعمدة التي تؤلف واجهة الفورم الروماني او اي ضريح. وهناك بناء آثاري خصوصي يهم علماء الآثار المتتبعين امور المعابد والبيع اكثر مما يهم علماء الاثار القديمة عامة. ونقصد به (بيعة مار يعقوب النصيبي) وهي من اقدم هياكل العبادة المسيحية في الدنيا.

قليل من الكنائس في العالم ما يرقى الى ما قبل المائة الخامسة للميلاد. فحتى بيعتي (رافنّا وپارينزو)[11] الشهيرتان فقد انشئتا في القرن السادس. وباستثناء مشكوك فيه لبيعة القديسة

[11] مدينتان في ايطاليا مشهورتان جداً بآثارهما البيزنطية الرومانية وفيهما اقدم البيع الاوروبية على ما يقال (بيعة القديس فيتال مثلا). (المترجم).

(بودنتيانا) في رومه لايوجد بيعة واحدة في اوروبا كلها يرقى تاريخ بنائها الى القرن الرابع. حتى في افريقيا واسيا فما يوجد من هذه البيع لا يتعدى اصابع اليد الواحدة عدا. الا ان بيعة مار يعقوب في نصيبين لا يمكن ان تكون احدث عمرا من العام ٣٦٣ عندما ضمت المدينة الى المملكة الفارسية. ولما كان السبب في بنائها هو لاجل دفن جثمان القديس الشهير الذي كان قد توفي بُعَيْد العام ٣٥٠، فلا يستبعد ابدا انها اقيمت اعترافا من الاهالي بفضل العناية الالهية التي انقذتهم من الحصار الاعظم.

والبيعة باصل بنائها ثلاثية الهندسة. كرست للاقانيم الثلاثة وتحوي ثلاث صوامع مربعة تقع الواحدة لصق الاخرى بعرض خمس وعشرين قدما تقريباً. وفي كل صومعة باحة نصف دائرية تقوم في وسط الجدار الشرقي وهناك زوج من الفتحات مقوسة سعة الفتحة الواحدة اربع اقدام تصل بين صومعة وصومعة، وممر مقوس اوسع منها في كل جدار غربي مفض الى مصلى للنساء Narthex ثلاثي فيه ثلاثة مجازات مزدوجة تؤدي الى الساحة الخارجية:

الصومعة الوسطى تكاد تكون كاملة الى حد الزخرف الاعلى مما يلي السقف. على ان قبتها حديثة كذلك مشربياتها. وليس ثم مايشير بشكل جازم الى الشكل الذي كان عليه السقف بالاصل. اما الصومعة الوسطى فقد كان ما اصابها من الخراب يفوق الباقيتين وقد رممت لكنها مازالت محافظة على مصليات النساء وان كانت الان مسدودة. اما مصليات الصومعة الوسطى فمفقودة وقد وادرك الخراب التام المصلى الخاص في الصومعة الجنوبية.

والفتحات الجانبية ذات اركان حجرية ضخمة. كذلك ابواب المصليات. لكن الاقواس التي تقع في الجهة الغربية والتي تعلو الفسحة شبه الدائرية المقببة فهي مفتوحة وحولها من الداخل زخارف هندسية بارزة كثيفة تمتد على رسلها كخط يدور بالجدران كافة. والزخرف ذو اصول عتيقة جدا والعمل تام ما به نقصان.

ويقع ضريح مار يعقوب في قبو صغير تحت المذبح في مركز الصومعة الوسطى وتعلوه رخامة ثقيلة وهو على شكل ناووس حجري ومن المحتمل جداً ان عظام ساكن الضريح لم تعبث بها ايدي العابثين.

ما زالت الصومعة الوسطى تستعمل محلا للعبادة ومن المحتمل انها استخدمت بصورة متواصلة منذ بناء البيعة. اما الجناح الشمالي فلا يستخدم في الوقت الحاضر. والنصارى الذين يعيشون في المدينة هم من طائفة اليعاقبة وقسهم يسكن غرفة صغيرة بنيت لصق الجدار الشمالي.

كان علينا اجراء تغيير في القسم التالي من الرحلة. فالضبطية الاثنان اللذان رافقانا من ماردين وصلا خاتمة منطقتهما الادارية. وكان يترتب علينا مراجعة السلطة المحلية لتزويدنا باثنين من الحرس الجديد ليصلا بنا الى الموصل. وكان احد حارسينا الجديدين قد رافق (رابي مستر ويگرام) من قبل. وهو يعرفه وعهده به «كريماً مبسوط اليد» لذلك كانت الدلائل تشير الى ان علاقاتنا ستكون منسجمة وعلى خير ما يرام. وبلغناهما ان يجيئا الى الخان في فجر اليوم التالي... ما ان يبين الخيط الابيض

من الخطّ الأسود، فوصلا في الوقت المحدد لهما تماماً. لكن اتضح لنا ان حيوانين من حيواناتنا كانا بحاجة الى نعال وان سائق العربة لم يجد بطبيعة الحال ضرورة لمعالجة الامر الا عندما ازف وقت الرحيل. وهكذا ضاعت ساعتان من يومنا قبل ان يتم لنا عبور نهر (جغجغ) ومضينا في الطريق الوعر الذي يبدأ من نهاية الجسر الثانية.

المسافة بين نصيبين والموصل شرقاً تبلغ مائة وعشرين ميلاً يقطعها المسافر في يباب قفر وصحراء مترامية الاطراف يعرفها الناس هناك باسم (الچول). وانت لا تمر بموضع مأهول ثابت طوال رحلتك التي قد تمتد اربعة ايام او خمسة حسب أحوال الطريق وعوارض السفر. وتظل الارض منبسطة امامك في سعة لا حد لها دون ان يطرأ على منظرها اي تغيير. وعليك ان تتزود بالطعام والخيم والفراش وبموقد خاص بك لغلي الماء ان كنت حريصاً على نفسك، فالماء نادر وان وجدته فهو آسن يركد في مستنقعات موحلة او في مجار متقطعة ناضبة.

وليس (الچول) صحراء رملية مثل صحراء (اوبي) او الصحراء الافريقية، بل هو اقرب الى ما يطلق عليه الاسبان اسم Despoblada اي القفر او Dehesa اي البادية، وهي ارض قاحلة يمكن ان تعاد اليها خصوبتها وتصير قابلة للزراعة ببذل مجهود يسير، يغطيها عشب خفيف ودغل قصير ضعيف النمو وحسك مهيب الارتفاع. ان الزراعات اليسيرة المتباعدة التي كان الناس يمارسونها في اطراف منها تؤيد ان اعادة تنظيم ري المنطقة سيجعلها من اعظم مصادر الغلة في الدنيا. كانت هذه المنطقة تكفي غلتها عددا كبيراً من السكان في الماضي لانها كانت موطن الاشوريين. ومع ان نواة هذا الشعب كانت مركزة في نينوى والمدن المجاورة لها الا انه كان يوجد آلاف من القرى المحيطة بها تمد المدن المحتشدة بالسكان بما تحتاجه من قوت ومن متطوعين في جيوشها الجرارة التي سيطرت على كل العالم الشرقي.

ولقد تركوا آثاراً من صنع ايديهم. ففي طول هذه البادية وعرضها تجد تلالا ضخمة بين الواحد والاخر مسافة ستة اميال او سبعة تلال ترابية شماء يبلغ حجم الواحد منها حجم تل (سلسبوري). اما الغرض من استحداثها فما زال موضع اخذ ورد طويلين. ربما جعلوها اضرحة للملوك وعظماء القوم فيهم، او ربما كان يقوم فوقها حصن القرية. او لعلها من قبيل المواضع المرتفعة التي تستحدث لاقامة مراسيم التقريب الدينية. ومهما كانت اسباب اقامتها فمن الواضح ان جهداً خارقاً بذل في سبيل انجاز هذا العمل. ومن المؤكد ان كل سكان هذه البادية اليوم لا يكفون لاستحداث تل واحد منها. وهي الآن بمثابة علائم الطريق تعين المسافر على تتبع خط سيره الصعب الاستهداء في خط الافق. والان يستعمل بعضها مقابر، ولعل مبعث هذا الشعور الغامض بانها لابد كانت مواضع دينية في سالف الزمن.

ان طريقاً جنوبياً اكثر استقامة من معبر الفرات الى الموصل قد يقطع هذه المنطقة الجرداء في رحلة امدها عشرة ايام كاملة لكن الايام الثلاثة او الاربعة الاضافية التي تصرمت بسبب انحرافنا عن الطريق لزيارة ديار بكر. كان فيها تعويض حسن لما شاهدناه في الطريق هذا فضلا عن ان (الچول) له

مخاطره فهو في الصيف حار مثل أتون، والزوابع الرملية الطويلة الشيطانية تنتصب قائمةً متحولةً هناك وهناك مثل الجن الهائم على وجهه، على ان اخوف ما يخافه المسافر هو «ريح السموم» او ما يدعى هنا بـ«الصام»[12] وهو هواء خفيف اعصاري الصفة محرق قد يصمي رجلاً او حيواناً وهو في وسط الكروان موجهاً اليه ضربة قتالة فيفقده وعيه واحياناً قد يرديه قتيلاً في الحال. اما الزوابع الثلجية فتأتي في النهاية الثانية من قائمة المخاطر الناجمة عن المناخ. فشتاء ١٩١٠ - ١٩١١ القاسي غير المألوف جاء مصحوباً بعاصفة ثلجية شديدة وهي ظاهرة نادرة جداً وقد دفن جماعات كثيرة من العربان تحت خيامهم فهلكوا برداً وجوعاً قبل ان تتاح لهم فرصة النجاة [13]

وحدثنا كردي متجول كيف انه وقع على خيمة منكوبة بهذه الصورة بعد مرور العاصفة بها. وكان مبعث شكه الاول في حصول امر غير اعتيادي لاهلها انه لم يتعرض لهجوم كلب او انسان ولما دنا من تلك الخيمة واخواتها وجدها ملأى بالموتى الا مهرة وعجوزاً. فأخذ المهرة وترك العجوز لانها كانت تعالج سكرات الموت. ثم اردف يقول حزيناً «الا ان المهرة نفقت ايضاً قبل ان اصل بها الى قريتي».

وقضي على اكثر من عربة ركاب واحدة في الطريق بسبب هذه الجائحة. الا ان اشدّ انزعاجنا في رحلتنا كان متأتياً من هطول المطر المتواصل. وقيل لنا يجب ان نحمد حسن الصدف لان هذا سيكفينا حاجتنا من الماء على الاقل. لكن اين هو الذي يشعر بالامتنان او يحمد الاقدار على خمسة ايام من المطر المتواصل؟ ضاقت صدور الضبطية بعض الشئ لانهم كانوا مستعدين لثلاثة ايام فقط اما خمسة فكانت كثيرة عليهم. لقد انصب اكبر العذاب على خيلنا لان العجلات الاربع كانت تنفذ في الطين حتى تغوص لتخرج حاملة كتلا مكتلةِ منه تَلْصق فوق حلقات العجلات. فنزلنا واخذنا نسير لاراحة العربة وقطعنا عدة اميال الا ان سيرنا كان يشبه السير فوق ارض محروثة في انكلترا. واضطررنا الى التوقف بين آن وآخر للتخلص مما علق باقدامنا من طين. ان الاحذية الاوروبية القوية ليست بذات فائدة هنا كالنعال اللينة التي يلبسها الاهلون، واخفاف الجمال الاسفنجية هي بلا شك خير الاثنين».
وانكشف بعض مظاهر الصحراء وحياتها بشكل سرب من الغزلان شاهدناه يَطْردَ امامنا ويعبر الطريق على نحو ميل منا وسببت قافلتنا ايضا في نفار سرب من اللقالق وبعض القطا واووزة بحرية او اثنتين، واسراب من القبرات بين الفينة والفينة. وبعد حلول الظلام انتهينا الى وجود الثعالب فقد بدأت تحوم حول معسكرنا مستجدية طعاماً. وتجرأ واحد منها فقفز فوق فراش لنا، ولمحنا ذئباً ايضاً. ان معشر بني الانسان في هذه البقاع هو من النوادر مع اننا نجتاز طريقاً عاماً مطروقاً. ومر علينا

---

[12] وهي كلمة محرفة عن (السام) كما هو واضح بتغليظ حرف السين وقلبه الى صاد. (المترجم).

[13] كانت كميات الثلوج التي سقطت في مناطق الجبال في هذا الموسم اكثر بكثير. فقد دفن وادي العمادية تحت عمق معدله اربع عشرة قدماً من الثلج. ولم يكن احد يستطيع الخروج من قريته لمدة اربعة اسابيع. ولحسن الحظ كان القرويون قد اختزنوا مؤنتهم الشتوية وخشب وقودهم فلم يعانوا ما عاناه البدو العرب. لكن الارانب والقطا اختفت تماماً ولم تبدأ طلائع لها الأفي هذه الايام.

يومان كاملان متواليان لم نر فيهما انسياً او اثراً لبشر حتى على مبعدة منا. غير خيمة عربية سوداء لاحت لنا على بعد اربعة اميال نحو اليمين. على اننا صادفنا قافلتي جمال اولاهما تتألف من سبعين جملاً وثانيتهما تتألف من ثلاثين. والجمل يفضل البغل في السهول لكونه يحمل اثقالاً اكثر من البغل بما لا يقاس. زد على ذلك فان رجلاً واحداً مع حماره يسهل عليه قياد سبعة جمال او ثمانية في حين تحتاج قافلة بغال الى رجل واحد لكل حيوان منها.

وكان اختيار موضع مبيت يمليه علينا الاقتراب من الماء. فمع سيول المطر الدافقة المستمرة تراه لا يبقى منه على سطح الارض غير القليل لان الطبقة الارضية العليا تسارع بامتصاص الماء حال سقوطه. كمرتفعات اوڤيرن الكلسية Causses Auvergne. والماء نفسه يكاد يكون موحلا مر المذاق في بعض الاحيان. لكن من المرجح اننا لم نبتلع معه شيئاً اسوء من الطين المعقم لكوننا نغليه دائماً ونبعد عنه الحيوانات الى ان نملأ قدورنا واوعيتنا. كنا نفرش مطارحنا على جانب واحد من قطعة المشمع الذي لا ينفذ اليه الماء ثم نغطي رؤوسنا بالجزء الاخر من المشمع ليكون لنا وقاء اضافياً. من المؤكد ان النوم في العراء هو من المتع الجميلة اذا كان الزمن صيفاً والليالي قصيرة لان الليالي الخلوية مسئمة جداً فبعد ان يفرض عليك النوم في السابعة والدقيقة الثلاثين مساء تنتبه من نومك وكل ظنك ان الفجر قد آذن بالانبلاج لتجد الساعة تناهز الحادية عشرة ليلاً. ثم انك تستيقظ ثانية في حوالي الثانية بعد متنصّف الليل. ثم تستيقظ في فترات متقاربة متوالية حتى يدركك الارتياح اخيراً لان ساعتك صارت تشير الى الخامسة والدقيقة الثلاثين اي وقت الفطور. ومرة في متنصّف الليل هبنا من رقادنا لنجد واحداً من الخيل قد خلع وتره وشرد فلحق به صاحبه وهو لا يفتأ يردد:

- ماشاءالله. ماشاءالله!

وهو تعليق لا يمكنك ان تتوقعه من خَيّال بريطاني اذا شرد منه حصانه.

راح الضبطية بعد عصر اليوم يمنّوننا بالمبيت تحت سقف اذ كانا شديدي الامل في ان نجد مخيماً عربياً كبيراً في تلك الانحاء. وقد وجدنا والحق يقال بعد فترة وجيزة مجموعة تتألف من ثماني او تسع خيم كبيرة سوداء حول خرائب قرية مهجورة مع تل قلعة منهدمة قريب وشاهدنا عددا كبيراً من القرى الخربة المتباعدة في البادية بعد ان هجرها اهلها منذ زمن طويل هربا من وجوه محصلي الضرائب الاتراك والغزاة العرب ومع ان هؤلاء العربان مضيافون وذوو مظهر روائي لطيف جداً في تلك المنطقة الا انهم جيران مكروهون. لانهم لايخضعون لأي نظام مهما كان. وقبل شهر واحد لا غير سلبوا قافلة حكومية كانت تحمل مضخة الى الموصل وسرقوا كل البيرينات المعدنية التي تحتويها ظانين انها من الذهب الخالص[14]!

أرسلنا أحد الضبطية قبلنا الى المضرب ليعلن عن وصولنا ويطلب الضيافة لنا، ونحن لم نصل الا

---

[14] وكان الحزام (القايش) من جملة ما سلبوه من المضخة. وهو قطعة جلدية مفيدة للسراق لذلك كانت الغنيمة تسوي التعب على كل حال.

عند الغسق وكانت «الاكداس» التي تجرها العربة قد عانت جهداً عظيماً وكنا نسير في المقدمة حتى وصولنا ظاهر المخيم وأمامنا مسافة لا بأس بها حين جاءنا أحد الضبطية قادماً من المخيم وامرنا بحزمٍ الا نتقدم خطوة واحدة على اقدامنا قائلا وهو يشير الي «ان الشيخ برادر افندي! (يقصدني) قد فضحه وسود وجهه مرة قبل هذه عندما سار على قدميه دونما ضرورة بينما كان مستأجراً مركبة له». وامر على ان مكانتنا ستهبط الى الحضيض ان لم ندخل باب خيمة المضيف كما يدخل السادة الاماجد من ذوي المقام أي راكبين.

وقطعنا الياردات المائتين الاخيرتين كما رسم لنا حارسنا. وهبطنا أمام خيمة من أوسع الخيم حيث استقبلنا الشيخ العربي (احمد آغا) بكل حفاوة وهو شيخ وسيم كبير السن متوسط القامة مفتول العضل ذو لحية مدببة سنجابية وانف أقنى مثل منقار النسر. وصافحنا عالفرنكة!! (أي على الطريقة الافرنجية) وقادنا الى داخل الخيمة واجلسنا قبالته على مطرح فرش لنا فوق الارض. ويبلغ طول الخيمة حوالي أربعين ياردأ وعرضها نحو اثني عشر وارتفاعها يناهز عرضها من أعلى سقفها ثم يتناقص تدريجياً حتى يبلغ أربع ياردات. وتشدها الى الارض أوتاد مركزية سبعة وحبال الشد طويلة جداً قد تمتد ثلاثين ياردأ من الحافة المفتوحة الى الاوتاد وقد غطي الوجه بين الحافات الارضية ببعض الاغطية وباكوام من الشوك الجاف الذي يستخدم في الوقود. والخيمة من نسيج شعر الماعز الاسود وهو راخي الحياكة الى درجة كبيرة كاكياس الجنفاص الانكليزية الغليظة يمكننا ان نرى من خصاصها ضياء النهار واضحاً لا سيما من السدى الافقي اذ يبدو النسيج كأنه مظلة عتيقة ينفذ منها الدخان بكل سهولة فتجد في صباح اليوم التالي كل خيمة مقنعة بهالة من الغشاء الازرق وهو الاثر المزدوج للدخان والبخار. ان نسيجاً كهذا لا يحمي الساكنين من المطر كما يجب. الا ان هذا النوع من الخيم انما جعل لاتقاء اشعة الشمس اساساً.

في النهاية القصوى من الخيمة كان حوالي أثني عشر جملا معقورا كدنا لانَتَبّينها في الظلام الحالك لكننا كنا نسمع رغاءها وحمحمتها طوال الليل. وثم أيضاً اربع او خمس افراس مربوطة الى معالفها. والخيول البيض او الفاتحة اللون هي المرغوبة في البلاد لانها تعتبر أكثر تحملا للحرارة من البني أو الكُمَيْت أما الاسود فيعد شؤماً على صاحبها ولذلك كان زهيد القيمة.

في وسط الخيمة جلس الشيخ وظهره متكيء على عماد من أعمدة الخيمة والنار امامه مستعرة. وجلسنا قبالته وظهرنا متكئ على العماد الاخر وخلفنا حاجز من القصب يحجب جناح النساء والدجاج والضأن اذا حكمنا من الاصوات، وهي شئ اشبه بالحضيرة المسورة بأكداس من الشوك الجاف رتب خارج مسكنهن في آخر الخيمة.

لم يكن ثم نور غير اللهب الذي يصدر من النار ومن شمعتنا الخاصة وعندما كان الساكنون يريدون لهباً فهم يقذفون الى النار بحزمة من الشوك. الا ان مادة الوقود الرئيسة هي(الجَلّة) اي روث الجمال المجفف تبنى منها كومةُ وَقيدٍ على شكل هرم اجوف. وجلس معنا ضبطيتنا وبعض رجال عشيرة الشيخ وصبيان هما حفيداه وقد كورا جسميهما عند ركبتيه واستكنا وبطبيعة الحال لم يكن الشيخ

يتكلم بغير العربية فتبادلنا الحديث بمساعدة مترجم الا ان احد الضبطية كان ثرثاراً بالفطرة لم يقف لسانه في حلقه. ولم يبد أثر ما للنسوة طبعاً. لكنهن مثل سارة زوجة ابينا ابراهيم الخليل كن يرهفن آذانهن ويسمعن. وكان يقاطع الشيخ بين الفينة والفينة صوت رفيع صادر من وراء الحاجز آمراً.

- سله عن كذا وكذا!!

وقدمت لنا بين آن وآخر اقداح صغيرة من القهوة السوداء في عقب كل قدح ملء ملعقة صغيرة منها. وكان عشاؤنا بيضاً مقلياً وتمراً. ولقد قال لنا احد المسافرين الاثوريين (لم نجده ثقة فيما زعم) ان الضيف غير المدعو يجب ان يكون حذراً عندما يقدم له شيخ عربي قهوة. في امكانه على كل أن يقبل أول قدحين فهما من آداب السلوك المتعارف عليها. على أن القدح الثالث هو اشارة له بان من الخير أن ينصرف. واذا كان بطيء الفهم الى هذا الحد فالاشارة الثانية هي فوهة بندقية! على اننا شربنا عدة اقداح ولم نجد بادرة ضيق بنا وكانت ليلتنا في خيم (قادر) السود من امتع ليالي رحلتنا.

وبدأنا السير في ضحى اليوم التالي اذ لم يكن من اللائق ان تستعجل الرحيل والظاهر ان العرب البدو لا يبكرون في الاستيقاظ.

وودعنا مضيفنا عند باب الخيمة وقبل منا بكل لطف وبشاشة - الهدية الصغيرة التي قدمناها له لقاء اريحيته وكرمه لان كل محاولة لعرض مال منا هو اهانة له بطبيعة الحال. لكن الهدية خلاف هذا. فهي متوقعة مثلما هي مقبولة على الدوام.

كان الصبح يفوق سالفه رونقاً وبهاء وسارع الضبطية الى القول «الله كريم». ولاحت لنا عن بعد جبال كردستان مرة اخرى وبدت ذراها المتوجة بالثلوج ترسل الى العين بريقاً وهاجاً من اشعة الشمس الضاربة عليها. وبدأ لنا جبل سنجار الاجرد الطويل اقرب منها الينا. الا ان تمنياتنا بصفاء اليوم لم تتحقق ولم تدم آمالنا الا برهة قصيرة فما ان تنصّف النهار بنا حتى بدأت السماء تصب علينا وابلا من المطر.

وما ان حل الليل حتى كنا قد بلغنا اخر مرحلة مبيت. وهي بقعة مشرفة على نهر دجلة. وهنا عانينا اشد واطول زخة مطر. تمددنا تحت فراشينا اللذين لا ينفذ منهما المطر نحاول النوم مصغين الى قطرات المطر متمنين ان يقف عن النزول صباح غد لمدة خمس دقائق فحسب ليتيح لنا مجال حزم امتعتنا في جو صحو.. لكننا نهضنا اخيراً وحزمنا الفراشين ووضعناهما في العربتين واستأنفنا رحلتنا قدماً والمطر يبللنا ونحن خمص البطون. كنا نعلم ان اثنى عشر ميلا فقط تقوم بيننا وبين الارض المزروعة، وان ساعتين فحسب تحجب عنا معالم الموصل. اجتزنا باب سور الموصل بالراحة التي يشعر بها الحلزون او السلحفاة عند دخولهما «فلك نوح» في آخر قافلة الحيوانات، وترجلنا فرحين من تلك العربة المزعجة التي حشرنا بها سبعة عشر يوماً بطولها.

4

أعباء نينوى اليوم

الموصل

هنالك اماكن في الدنيا ابهج كثيرا من (الموصل) انها مدينة قائضة رمداء غبراء جدا. تقع على أرض محدودبة من الضفة اليمنى (الغربية) لنهر دجلة ومنها يمكن ان يشاهد المرء على الضفة المقابلة التلين المعروفين (نبي يونس وقوينجق) فيعين بهما موقع (نينوى).

الموصل تفخر بحوالي ثمانين الف نفس ربعهم نصارى وحوالي خمسة الاف من اليهود والباقي مسلمون. ويحيط بها من سائر جهاتها سور وخندق وتبلغ مساحتها من الداخل حوالي ميل مربع واحد اي مايعدل تقريبا مساحة (لندن) القديمة.

وربما كان السور الحالي مقاما على خط اثري عتيق. الا ان عمر السور القائم لا يزيد عن مائة عام. وقد اسرع اليه الخراب وتكسرت اجزاؤه لسوء بنائه وساعد في خرابه استخدام الحكومة والاهالي حجارته وانقاضه للبناء. ولعل سرعة سقوطه متاتية من رخاوة الارض وعجزها عن تحمل ثقل البناء وبنايات المدينة كلها تعاني من هذه الظاهرة المعمارية وكل مئذنة ترى فيها اعوجاجا ظاهرا. اما المئذنة الكبرى ففيها اعوجاجان.

وعمران المدينة لا يملأ الفسح مما يلي لاسوار حتى البيوت. فهنالك مثلا حي كبير في نهايتها الشمالية عضه الوباء بنابه قبل ثلاثمائة عام فهجر تماما وبقى خاليا حتى تهدم حجرا على حجر. كما ان المدينة امتدت جنوبا وتعدت السور حيث اقيم سراي الحكومة وثكنات الجيش لصق السور الجنوبي.

الموصل ليست ميناء بحريا وان كانت حكومة «صاحب الجلالة البريطانية» تجهل هذه النقطة جهلا تماما على ما يظهر. فعندما اعيد فتح القنصلية البريطانية فيها قبل بضع سنوات طلب السيد الفاضل المعين للمنصب بعض المصاريف لتأثيث غرفة الاستقبال الرسمية في قنصليته فرفض طلبه «لان زواره لن يكونوا غير قباطنة سفن بلغوا من العمر عتيًا».. كما كان من واجبات خلفائه القناصل ان يذكروا في تقاريرهم السنوية عدد السفن الانكليزية الراسية والمفرغة حمولتها فيها.. وان كان (الكلك!) هو الطوف الوحيد الذي يصل المدينة من جهات لايبعد اقصاها اكثر من ثلاثمائة ميل (ستزداد معلوماتك عن هذا الطوف فيما بعد).

الموصل ليست ميناء بحريا!

تفخر الموصل بنقيصة هي على الاقل غير مألوفة في هذه الاصقاع. فهي مدينة كثيرة الدخان وثم كساء منه يغطي معظم فضائها إذ يخرج كثيفا منُ كور الجص حيث المرمر المحلي ليعُمل منه ملاط (نورة) وبه يُبنى كل ابنية المدينة تقريبا ويسمى (جصا) وهو مادة بناء

بدائية. وتشاد جدران البيوت من هذا الجص برصع الحجارة الصغيرة فيه، وتعقد السقوف على النمط ذاته ولاجل الاقتصاد في المواد الانشائية فانهم يملأون كل الفراغات حول القبة من الداخل بجرار كبيرة من الفخار قد تتحمل او لا تتحمل الثقل فوقها. وهو كأسلوب بناء يخدع العين. اذ يبدو قويا متماسكا يتحمل عاديات الزمن وتقلبات المناخ. الا انه خال من اية صفة من هذه الصفات الثلاث. فمن النادر ان يبقى منزل منها ثمانين سنة لان ضغط القبة من الاعلى يهدم الجدار عادة في نهاية هذه من الزمن.

هذا البناء الكثير التشقق، فيه خاصة امتصاص معظم المطر الذي يسقط عليه لذلك ندر ان خلا منزل من الرطوبة في فصل الشتاء وللجص حيلة لطيفة جدا يأتيها اثناء الصيف. فهو يختزن الحرارة اثناء النهار ليطلقها تدريجاً في الليل!

والمدينة كسائر مدن الشرق تتألف من طرق وازقة متشابكة معقدة كثيرة الالتواءات والمنعرجات كئيبة المنظر ليس فيها ما يستوقف النظر وكلها يمر بين جدران الجص الابيض وعرضها نادرا ما يمنع الهرة من القفز عبرها من سطح بيت الى اخر وليس فيها مصابيح. او انها بالاحرى كانت خالية من اسباب الاضاءة حتى زارها (ناظم باشا) المتوفى حديثا (كان آنذاك واليا على بغداد وواليا على الموصل بالوكالة) واذ ذاك وضعت مصابيح نفطية على شرف مقدمه وهي الآن في مواضعها ثابتة الا انها لا تنار قط. اما تبليطها فهو بالحجر الذي غدا املس بوطء الاجيال المتعاقبة من النعال والاقدام الحافية عليه. لا يوجد بطبيعة الحال مجار لتصريف المياه القذرة في المدينة ولذلك يتحتم عليك ان تمد في موسم الامطار جسرا متحركا عبر الشارع بينك وبين جارك المقابل ان شئت زيارته، او ان تضع قدميك في قبقاب خشبي ارتفاعه ستة انجات. وليس ثم ما يقطع رتابة الجدران الصماء في واجهات الطرق غير الابواب. الا ان باحات المنازل من الداخل لطيفة المنظر واقل مايقال عن طرز هندستها انه اثري الطابع فهو مطابق تماما لما وجد في المنازل الاشورية التي ازاح عنها المنّقب الالماني طبقات التراب واخرجها لنور النهار. ومدخل المنازل الموصلية مبنى بشكل يحول دون رؤية ما بداخل المنزل بالنسبة الى المارة في الشارع او عند فتح الباب. وهو يُفضي الى صحن الدار الذي يحيط به رواق من طابقين مدعم بالاساطين المدورة من المرمر الازرق المحلي. وصحن الدار مبلط بالمرمر. وغالبا ما تبلط واجهة الدار بالمواد نفسها. وثم (ايوان) في جانب من البناء يستخدم للقيلولة زمن الصيف. وقناة الماء القذر (البالوعة) تكون عادة في باحة الدار. وفي وسط الصحن قد تجد حديقة صغيرة.

ويضم الغني الى مشتملات بيته (سردابا) وهو المقيل الصيفي تحت الارض تجد فيه اقصى ما يمكنك الحصول عليه من البرودة في قيض الصيف اللافح. فالمحرار في هذا الفصل يصعد عادة ليشير الى (١٢) درجة فهرنهايت ونادرا ما يهبط الى (٩٥) درجة ليلا او نهارا. هذه حقيقة تأكد منها احد قناصل الانكليز الذي حاول تفريخ بيض ملقح فتركه دون غطاء في

غرفة مهجورة (لربما كانت اشد حرارة من غيرها في دار القنصلية).

والبريطانيون المقيمون هنا، يقولون ان هذا (السرداب) يمكن ان يكون باردا. اما اذا كان حدبث البناء فعلى الارجح يدفع شاغله ثمن استعماله له (جرعة) من حمى البلاد المشهورة.

تهب الرياح الحارة من البادية حتى تصطدم بأسوار المدينة وتتطاير سحب الغبار من مواضع سحق الجص ومن افرانها (حيث يربط بالبغال اسطوانات حجرية خشنة تمرر فوق الكلس المشوي لدقه جصا) وترتفع على اجنحة تلكم الرياح الساخنة لتسفيه على المدينة سفيا. من هذا الغبار ومن بياض الجدار الذي يبهر العيون تجد داء الرمد هنا اكثر انتشارا منه في معظم مدن الشرق. وامراض الصدر بمختلف اشكالها كثيرة هنا. وهنالك مرض معد محلي اشتهر بأسم (الحبة) تجده منتشرا في بقعة تمتد من (حلب) حتى (بغداد). ويعتقد انها عدوى عتيقة تعود الى زمن ابينا (يعقوب) وتسمى احيانا بالتمرة لشكلها الشبيه بهده الثمرة. والاصابة بهذه القرحة غير مؤلمة لكنها كريهة المنظر طويلة العلاج لاتندمل الا بعد اثنى عشر شهرا وتخلف ندبة دائمة ويعتقد ان عدواها تنتقل من الذباب. والقرحة تظهر دائما في الايدي والوجوه والذين يحلقون ذقونهم معرضون لها بصورة خاصة. والناس يتناقلون حكاية عن قنصل الماني سخر من جميع الاحتياطات ونام في السطح دون (كلة) تقيه الهوام ودون بجامة ايضا لحرارة الليل. فكان هذا تسرعا منه عوقب عليه بثلاثين (حبة) انتشرت على جسمه القنصلي!

ووسائل التبريد وغيرها من ترف الحياة الانكليزية في الهند، غير معروفة في الموصل. على ان احد الموصليين النصارى المقامرين جلب ماكنة ثلج. ورحب الوالي دون شك بهذه البادرة بوصفها الدليل القاطع على جدوى النظام الجديد الذي استحدثه في الموصل. (حصل ذلك بعد الانقلاب العثماني بقليل) كبرهان على اي تقدم بعد انقضاء خمسين عاما على مجيئه الى المدينة موظفا صغيرا!

وظهرت معارضة قوية من الجهة المحافظة في المدينة على ادخال حتى مثل هذا النوع البسيط من مظاهر التقدم. ولو ان هذا الرائد الطليعي كان على شيء من السخاء في توزيع البقشيش لهدأت المعارضة ولان جانب الطبقة المحافظة. الا انه لم يكن كذلك وانطلقت التهم العديدة العجيبة بين الناس تلصق بالماكنة الجديدة. فقالوا ان رائحتها خبيثة جدا حتى انه ابتلى بالمرض كل من سكن الى جوارها. (كأن رائحة كريهة من جهة واحدة تزيد او تنقص ما يعانيه الموصل من شتى المكاره) وقالوا انها تخرج ثلجا مُحَمَّراً من فرط الحرارة فتزيد من حرارة الجو بدلا من تخفيفها! وقيل انها تحد وقح لاوامر الله وشرائعه. ومهما كان الامر فأن صاحب المعمل ليس موصليا وانما ربي في امريكا ولم يتلق (تدريبا محليا) فعمد ببعد نظر منه الى وضع اسم آمر حامية المعسكر في رأس قائمة المشاركين في ثلجه مجانا، متوقعا من القائد بعد اسبوع او نحوه ان لايتسامح في اي تدخل او تعرض لبرودة شرابه الخاص وهو الرجل الذي لا يطبق القانون تطبيقا صارما!. فنجحت محاولة صاحب المشروع نجاحا باهرا

وسحقت المعارضة فورا طوال اشتغال الماكينة وانتاجها ولكن لم تمر اسابيع كثيرة عليها فقد ادركها العطب، اذ لا يوجد ثم آلة غير قابلة للتوقف او مضمونة الى الابد، كما لا توجد ماكنة تتحمل جور يد العربي غير المدربة في ادارتها. وابسط اصلاح لآلة في الموصل يقتضي اشهراً من التأخير ثم انه لا يوجد هنا سوق للادوات الاحتياطية والآلات لتنشأ الى جنبها معامل تصليح.

ان عاصمة ولاية الموصل هي مقر والٍ الا ان شؤون المدينة الداخلية يديرها مجلس ادارة بلدي مؤلف من مواطنين حسني السمعة يعمل تحت اشراف الوالي. وقد اثر عن اعضاء المجلس هؤلاء بانهم شر عصابة من نوعها في كل السلطنة التركية! واننا لنأمل من صميم قلبنا ان يكون هذا الاتهام صحيحا لان جهاز ادارة اكثر فسادا من هؤلاء يجب ان يكون جهازا اسود النقيبة بلا شك. وزعيمهم (أ.ص) اقطاعي يملك اراضي ذات مساحات شاسعة جمع اراضيه بطريقة بسيطة. هي ان يأمر كل فلاح مسكين شاء سوء حظه ان يكون جارا لاملاكه، بأن يبيع منه ارضه الصغيرة بالسعر الذي يحدده هو. فان رضي الرجل الصغير فنعم ولا بأس، وان أبى قدمت عنه شكوى مع شيء من البخشيش الى المستنطق (حاكم التحقيق) ليضمن بقاء الفلاح المسكين ذي الملكية المهدورة، في غياهب السجن دون محاكمة حتى يصحو ويعود الى الرشد.

ان هذه الشخصية الجليلة ذاقت حلو احياة ومرها وتقلبت امورها بين ارتفاع وانخفاض. فقد حل بها سخط احد الولاة الذين صدقت نيتهم في وضع حد لنهب الخزينة العامة. وعندما وجده قد اختلس بعض المبالغ التي يريد هو ان يضع يده عليها ويستأثر بها لنفسه! حكم على الرجل الكبير المقام عضو مجلس الادارة بعقوبة التشهير. فأركب حمارا بالمقلوب ووجهه ملوث بالسخام وطيف به وهو على هذه الحال في كل شوارع المدينة ثم حبس في كنيف سراي الحكومة طول الليل. ان الفضيحة (او العيب في لغة القوم) التي تصيب المرء جراها قد تقضي على مستقبل معظم الرجال الا ان (ص) كان ذا مواهب خارقة اذ سرعان ما اعادته الرشاوى والدسائس الى مركزه القوي السابق.

هنالك شاهد واحد يوضح ما تعنيه «المضاربة» بالقانون في ميدان التجارة. فقد بنى موظف عدلي صغير الشأن بيتا من اجمل بيوت الموصل واضخمها، زاعما للملأ ان ما انفقه كان بقية مدخرات رواتبه الشهرية الخمسة عشر في حين ان راتبه السنوي الذي دفعته له الحكومة لم يتجاوز الستين ليرة. وستتكلم عن نفسها حادثة وقعت في العام ١٩١٠ في حياة واحد من اشهر مواطني المدينة وارفعهم قدرا، وايرادها هنا سيغني عن اي تبسيط وشرح.

«سعدالله»[1] حرامي الموصل الاكبر. ورث الصنعة والممارسة عن ابيه كما جرى العرف

[1] لم نبذل جهدا كبيرا لمعرفة صاحب الاسم. او من كان مشهورا بأعمال كهذه في تلك الازمان فهو سعدالله توحله. وقد ادركه مترجم هذا الكتاب وعرفه شيخاً يديم الجلوس في الشرفة التي تعلو باب ومجاز منزله في ظاهر المدينه الشمالي (المترجم).

المتبع عندنا في انكلترا ان يرث الابن صنعة الاب الطبيب. والسطو على البيوت هو ما تخصص فيه «سعدالله» وطريقة العمل المألوفة هو ان يفتح في جدار البيت ثغرة بفأس من الشارع، فقد وجد بالتجربة ان هذا اسهل واقل جهداً مما يضيعه في كسر مزلاج الباب الحديدي. وبطبيعة الحال يجب ان تتخذ تدابير سابقة. كأن تكون الشرطة بعيدة عن المنزل، او في النهاية الاخرى من المدينة (هذا اذا لم يكن من واجبهم مسك نهايات الطرق له خوفا من المفاجآت) لكن يندر ان يقوم الدرك عائقا. فالمفهوم بصورة عامة انه لا يحق لك التدخل في قطع رزق المرء بالقضاء على عمله الذي يكسب منه خبز يومه. (وسعدالله) لم يتهم يوما بأنه تعدى قواعد المهنة وخرق اصولها، الا عندما قطع يدي امرأة. حتى هذه الحادثة اغتفرت له لانه لم يكن ثم وسيلة اخرى لسلبها اسورتها الذهبية غير هذه الوسيلة.

وبعد ان بلغ بصنعته هذه حد المهارة القصوى، تقاعد عنها عندما تقدمت به السن. لكنه اسوة بالسادة النُجُب النشطين وجد انه بحاجة الى التلهي بعمل لقضاء اوقات فراغه. ولهذا السبب انصرف الى صناعة تهريب التبغ وهي مهنة كثيرة الربح غير انها ادت به الى الاصطدام مع الحكومة اصطداما لم تكن تؤدي السرقة الى مثله. لان التبغ احتكار حكومي (ريجي). في احدى الليالي هوجمت قافلة من البغال كانت تقصد بيته من قبل «جندرمة الريجي». فقدت بالات التبغ وتخلف في ساحة المعركة جثة قتيل من افراد الجندرمة اردته رصاصة خرجت من بندقية (مانليشر) وليس في الموصل كلها بندقية من هذا النوع الا عند «سعدالله» ولم يكن مالكها يسمح لاحد باستعمالها اعتزازا بها وتباهيا. زد على ذلك كله ان الرصاصة انطلقت من سطح بيت رجلنا المسكين الذي كان يعلوه في تلك الساعة!

هذه الادلة الظرفية والقرائن وضعها احد الجسورين امام سلطات الحكومة فأودع (سعدالله) الموقيف. بل وصدر امر حجزه حجزا انفراديا داخل السجن. وهذا لايعني انه دخل السجن حقا. لان السجن لم يخلق لامثاله. فقد جلس في مقهى خارجه، ولما مر به خصمه المخبر عنه، وهو في طريقه الى السوق، هجم عليه اتباعه واشبعوه ضربا وركلا حتى انه قدمت شكوى رسمية الى الوالي يرجو اصحابها الموقعون ان يودع (سعدالله) السجن بصورة صحيحة. وبطبيعة الحال وضعوه في احسن غرف السجن وفيها شباك يطل على الشارع. وكان مدير السجن يتناول الطعام معه ويلاعبه النرد (الطاولة) ودأب هو على الشكوى من ضرر الرطوبة بصحته وزيادة آلام الروماتزم بسببها.

واخيرا قدم هذا السيد الجليل القدر الى المحاكمة، ليُبَرأ تماما من جميع التهم التي الصقت به وعللت المحكمة قرار البراءة الذي صدرته في القضية (على قدر ما فهمه المقيمون الاجانب آنذاك) ان مسؤولية الاهمال وعدم اخذ الاحتياط تقع على عاتق الجندرمة القتيل لانه تصدى للرصاصة ووقف في طريقها الشرعي. اما الوقائع الاخرى المتعلقة بنوع البندقية وغير ذلك من الادلة الظرفية فهي امور لا تمت الى اصل القضية بصلة.

خرج (سعدالله) من السجن حرا طليقا بكل معنى الكلمة وزار القنصل البريطاني حالا وقال له: انه فهم من مصدر موثوق بأن الفضل لنجاته من احابيل اعدائه يعود الى «سعادة البك» القنصل. وانه على اتم استعداد ليقوم له بكل عمل يكلفه به كأن يزيح من طريقه اي شخص يقوم عقبة امامه، لأن عليه ان يربح شيئا من المال لسد الثغرة التي فتحتها في ثروته مصاريف التوقيف والمحاكمة.

قبل ذلك بزمن ارتفعت شكوى تجار الموصل من قيام عصابة سرقات باعمالها في سلب المواطنين الامنين من دون رادع رغم ان افراد العصابة كافة معروفون في دائرة الشرطة.

فاضطرت السلطات مرغمة الى مباشرة شيء من الاجراءات وقبض على جميع افراد العصابة وزجوا في السجن، الا ان السرقات ظلت كما كانت ولم ينخفض عددها. وبعد فترة من الزمن وضع مدير السجن هذه الحقيقة امام الوالي قائلا يبدو ان هؤلاء المساكين قد اوقفوا ظلما وان العدل يقضي باطلاق سراحهم لا سيما وانهم لم يقدموا حتى الان الى المحاكمة. وبدا ما قاله معقولا، لكن كان لابد من التأخيرات والعقبات المعتادة في اجراءات خروجهم. وفي غضون الايام القليلة من الاجراءات اتضح للملأ حقيقة الامر. كان مدير السجن المحترم جدا، يطلق سراح الموقوفين من افراد العصابة كل ليلة (ليذهبوا وليناموا في بيوتهم) ويعودوا الى السجن قبل انبلاج الفجر وبذلك يحرزون اقوى دليل اثبات يطمح اليه متهم. بينما ينال مدير السجن نصف غنائمهم الليلية مقابل هذه الخدمة! حقا ان مدير السجن طرد من منصبه على اثر انكشاف الامر لكنه لم ينل عقوبة اخرى من اي نوع كان على ما يبدو.

وقد يجد المرء في هذه الحادثة اكذوبة يصعب تصديقها على اننا نجد حادثة مماثلة لها في انكلترا وقعت قبل زمن ليس بالطويل. ففي مذكرات (وليم هيكي William Hickey) ذكر لفضيحة اشنع من هذه، تخصّ محافظي سجون لندن في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. ان تفوقنا الذي يدعو الى الفخر بهذا النوع من المسائل ذو تاريخ قريب بعض الشيء وان لم تكن فترة دوامه بالطويلة على ما نرجح.

ان الوالي الذي يحكم مدينة الفساد والفوضى هذه، ربما يكون انسانا طيبا تؤهله طيبته ونزاهته لعمل لا يفلح في احداث اي تبديل حقيقي. فيثبط ذلك همة اقوى الاشخاص ويقتل فيه بقية من الحماسة والوهم.

وطاهر باشا والي الموصل الحالي. ذو اصل ألبانّي ابيضّ فوداه في خدمة السلطان ولم تكتحل عيناه بالتأكيد بجبال بلاده منذ نعومة اظفاره، ومع هذا «فالارناؤطي هو ارناؤطي ابدا». وخذها قاعدة عامة وهي ان الرجال الذين يمتون الى هذه القومية الغريبة هم خير موظفي العثمانيين لاسيما في المناطق التي يكون من ضمن واجباتهم (او هكذا يكون المفروض في واجباتهم) المحافظة على التوازن التام بين مختلف القوميات مسلمةً ومسيحيةً.

يتعذر على الارناؤطي احتقار المسيحيين بسبب ديانتهم لان جانبا كبيرا من بني قومه هكذا. وكل ارناؤوطي كقاعدة عامة متفوق بحكم الطبيعة على كل قومية من القوميات. فله والحالة هذه ان يحتقر كل المحكومين احتقارا متساويا، (وهو على اغلب الاحتمال يفعل ذلك) لكنه لا يحتقر اية طائفة بشكل خاص على الاقل. فكانت هناك دائما فرصة لتوزيع شيء من العدالة فيما بينهم، وهو طبق ما فعله الوالي طاهر باشا باقصى ما ساعفته امكاناته المحدودة، ولهذا السبب تراه لا يؤمن كثيرا بالاصلاح او بأي شيء اخر (باستثناء صدق وامانة بعض الانكليز الذين يعرفهم معرفة شخصية. وكذلك بصدق عبقرية بطله المفضل الاميرال نلسن!) وهو يقول قولا لايخلو من حكمة. «انك لاتستطيع ان ترتفع كثيرا ببنائك ان كانت احرأتك من الطين الندي» فكيف الحال بطين الموصل؟ وهذه العبارة الخارجة عن القوسين لا يجري بها لسانه قولا وانما يجري بها لسان حاله بصورة غير مباشرة. ومع ذلك فكما انه لم يكن يحكم اناسا بلغوا حدا عظيما من الشقاء كذلك كان من المستحيل ان تجد من هو مرتاح لحالته بصورة عامة. وهو لم يكن بحاجة الى من يعلمه كيف لا يبقى الاقليم يئز ازيزا تحت درجة الغليان ابدا عندما لا يكون لدى الدولة قوة تدعم بها اوامره وهو غير راغب في حدوث انفجار. كان طاعن السن طويل القامة مهيبا. ذا وجه قصير يحف به شعر قصير ولحية بيضاء. وكان ذكي الملامح ضاحك الثغر بشوشا، وهبته الطبيعة خلقا جذابا لايسمو اليه خلق، لكن بفضله من الخروج سليما إثر ثورتين وقعتا في بلاده. ولقد كان (الرجل الاوحد) عندما يبلغ السيل الزبى وتحزب الامور، فتراه «يجلس على الشفرة المسنونة ولا ينفك يبتسم». وانه ليجد دائماً بان هذه الطريقة تلين قلب اشد الثيران شراسة وهياجا.

زد على هذا فانه عف اليد الى ابعد حد (بمقياس الموظفين العثمانيين) فحتى اولئك الذين يذكرون عن اخذه الرشاوى في شبابه يقرون اليوم انه صار يرفضها وهو شيخ ويزيدون مستدركين «الا اذا كانت الرشوة كبيرة جدا». هذا حسن جدا بخصوص الرشاوى! لكن ما حيلة الموظف الصغير الراتب اولا؟ ما حيلته عندما لا يدفع له راتبه ثانيةً؟ انه يمتنع عن الرشوة عندما لا يحتاج اليها.

يقول شاعرنا براونينگ[2] عن رجل يشبه الى حد كبير شيخنا الالباني (واسمه يرمز للنقاء) «كيف يمكنني ان لا احبه؟». ولقد عرفه كل سكان الولاية بانه لا يرد سائلا او صاحب مظلمة الا وهو راض. ومع هذا فانه لايَعدُ بشيء يشق عليه تحقيقه.

اضف الى هذا مناسبات يصر فيها طاهر باشا على اجراء العدالة وهذا من النادر في تركيا. ففي العام ١٩١٠ وقعت جناية قتل شنعاء جدا في الموصل والقاتل نصراني من طائفة الكلدان (وهي طائفة نسطورية الاصل تحولت الى المذهب الكاثوليكي)، والقتيل من المذهب الكلداني

---

[1] يقصد روبرت براونينگ (١٨١٢-١٨٨٩) (المترجم).

القديم اي من النساطرة المستقلين[3]. فحكم على القاتل بعقوبة الموت وهو جزاء عادل لما ارتكبه الا ان ذلك في تركيا لا يستتبع حتما تنفيذ هذه العقوبة. ولنبدأ في شرح الموضوع فنقول ان القانون التركي فيما يمت الى جناية القتل - يضع حق الاختيار في يد اقرب فرد من اسرة القتيل اليه، ان شاء التنازل عن ايقاع عقوبة الموت بالقاتل وان شاء عفا عنه. وهذا بلا ريب تاكيد للعادة القديمة حيث كان لكل امرء الحق في اخذ ثأره او التجاوز عنه. لكن تطبيق هذه العادة يورث متاعب مضنية كثيرة لقريب القتيل، اذ ستأتيه التوسطات والشفاعات من كل مكان ولن يرتاح لحظة واحدة من عروض التنازل والمصالحة الى ان يقرر اتجاهه الاخير. وفي هذه القضية بالذات وقف قريب الضحية موقفا صلبا وطلب اجراء الحد الشرعي.

وهنا اظهر القاتل عمق مسيحيته الحقيقي حين ارسل طلبا الى الوالي (طاهر باشا) معلنا رغبته في اعتناق الدين الاسلامي شريطة ان ينقذ له رقبته من سيف الجلاد. ولسنا ندري كم كانت لهفة علماء الدين الى كسب هذا المؤمن المشكوك في نيته الا ان (طاهر باشا) لم يكن على الاقل شديد الشوق الى ذلك وقال بكل جد:

- طبعا يجب ان افرح لابدائه الاستعداد التام لدخول دين الاسلام فهو اصلح له في العالم الثاني على ما ارجح. مع هذا فيجب ان يفصل راسه ولا مناص من ذلك.

وظهرت صعوبة ثالثة وهي ان الجلاد الرسمي ابى ان يقوم بالعمل مثل (كوكو) في رواية (الميكادو). مسيو دي ستراسبورگ Monsieur de Strasbourg هذا، صرح يقول: انه لم يجلد رأس رجل واحد في حياته كلها وهو لا يدري اصلا كيف يقوم بالعمل. فلم يكن مفر والحالة هذه من البحث عن متطوع. فتقدم قريب صديق اخر للقتيل مدفوعا بمرؤة منه لبذل جهده في هذا الامر شريطة ان يسلفه احد سيفا. وحذره احد الموظفين بقوله - يجب عليك ان تبذل قصارى جهدك. فلو امكنك فصل الرأس عن الجسد بضربة واحدة فستعطى ثلاثين ليرة ذهبية. لكن لو اضطررت الى تكرار الضربة فستودع السجن خمس سنين!

وبتأثير هذين الحافزين قام الجلاد الهاوي بعمله خير قيام وفصل الرأس فصلا متقنا.

ان القضية لم تنته عند هذا الحد اذ ظهر لها ذيول. فقد اتخذ اناس كثيرون من تصرفات القاتل حجة لهجوم عنيف ظالم على بطريرك البيعة الكلدانية وقالوا:

- ذلك ما تحويه رعية مار عمانوئيل من اشكال المسيحيين.

وكان جواب غبطته ليس دقيقا غاية الدقة الا انه بدا ذا وقع شديد. تجاهل طلب اهتداء القاتل الى الدين الاسلامي وصرح يقول:

- يقولون انه احد تلاميذي. انه بالتأكيد تلميذ لي وانا فخور به فهو شهيد مسيحي ولم

---

[3] سنأتي الى شرح هذه المصطلحات المذهبية والطائفية في الفصل نفسه بعد بضع صحائف.

يكن سيموت لولا تدخل ذلك النسطوري الهرطوقي الشرير!

واستدل قداسته على كرامة المجلود الرأس وشهادته بالنور ألعجائبي الذي ظهر فوق قبره!

بالتأكيد كان قد ظهر فوق قبره نور. وهو في الحقيقة نوع من الاشعاع الفوسفوري يرى في مرات فوق القبور الجديدة في الهواء الجاف. ويعزى عادة الى قداسة صاحب القبر ولا شك اننا سنكون شاكرين ان لم يعتبر هذا الشخص المشكوك في اخلاقه من بين الصديقين والاولياء.

وقد يستدل من هذه الحادثة ان الدين في الموصل ذو طابع جهادي حماسي نوعا ما. والحق يقال ان هذه المدينة من اشد مدن الامبراطورية العثمانية تعصبا وهي بالتاكيد البقعة الوحيدة فيها التي كان الرجال يبكون في الشوارع عند سماعهم نبأ خلع عبدالحميد الثاني ويندبونه بحرقة قلب بقولهم:

الان هوى ركن من اركان الاسلام!!

كان تأسيس القنصلية البريطانية هنا (وذلك بعد اخذ ورد طويلين) سببا او حجة لانفجار حوادث شغب. فقد تمسك بعض الدراويش واصحاب الطرق بظاهرة معينة وهي ان سارية العلم في القنصلية اكثر ارتفاعا من الهلال الذي يعلو قبة ضريح معين وهو «مزار محمد القاسم» يثوي فيه احد الائمة الذين انحدروا من سلالة النبي (ص) ولاشك ان خفق العلم الذي هو في مستوى اعلى مستوى من الهلال، مما لا يمكن التسامح فيه قط لهذا تجمهرت غوغاء على باب القنصلية تصرخ وتهتف:

يا فاطمة يا بنت النبي (ص) صبي نقمتك على رؤوس اولئك الذين اهانوا احد ابنائك!!

على ان القنصلية كانت في الواقع ديرا خاليا استؤجر من متولي اوقاف بيعة اليعاقبة. ولست اشك في ان الموظف البريطاني يحترم بيعة الدير هذه. ويوجد منهما اثنتان يجري فيهما بعض المراسيم في اعياد معينة.

ونعود الى المزار الذي اثار هذه الفتنة الشعبية. كان يجب اتخاذ تدابير عاجلة والا سوف يختفي المزار في اعماق دجلة. فهو يقوم على احدى ضفتي النهر ومجراه يأكل الضفة باستمرار فينفذ الماء الى الاسس. لهذا بدا ميلانه ظاهرا للعيان منذرا بالخطر. ولا شك ان انهياره سيكون خسارة فادحة جدا لانه اثر جليل ونموذج بديع لفن الهندسة المعمارية العربية. ويبدو ان سبب الكارثة هو رغبة (صاحب المزار) في التخلص من صحبة سيئة.

في الموصل اسقفيات كثيرة لا توجد بهذا العدد في اية مدينة اخرى. فهنا ما لايقل عن ثمانية اساقفة للرومان الكاثوليك يمارسون سلطانهم على رعاياهم. وهناك على اقل تقدير، اسقف واحد لليعاقبة، واسقف واحد نسطوري (في وقت الحاضر منفي لان وجوده يسبب اقلاقا لراحة الناس). وثم طوائف اخرى من الارمن والاثودوكس والانكليكان ممن لا يدين بالولاء لاي واحد من المذكورين. والمسألة في الحقيقة تحتاج الى شيء من الايضاح ولا سيما حول وجود

ثلاثة اساقفة تابعين للكرسي الپاپاوي في ابرشية واحدة الامر الذي يبدو غريبا ومناقضا للنظام المتبع في غيرها.

في ايام الامبراطورية البيزنطية اولدت محاولة فرض مذهب واحد هو مذهب الكنيسة اليونانية على كل الامم الخاضعة، انشقاقا مذهبيا قوميا (ارمنيا او اثوريا او مصريا مثلا) فاعتنقوا اى هرطقة وقعوا عليها بمحض الصدفة بمثابة احتجاج على ما وصفوه بـ «الارغام اليوناني». وبينما كان النزاع العقائدي والقومي محتدما، بدأ الفتح الاسلامي الاعظم وقبلت هذه القوميات حكم الدين الجديد بكل سرور وتمتعت في ظله بحرية دينية انكرها عليهم اخوانهم في الدين حكام الامبراطورية البيزنطية. وكان العرب وخلفاؤهم الاتراك يودون كثيرا ان يروا رعاياهم المسيحيين منقسمين على انفسهم ما شاء لهم الانقسام. واعترفوا بالارمن والسريان (السوريين) والكلدان والقبط شعوبا او (مللا) في امبراطوريتهم على التوالي. وان لفظة «ملت» التركية. هي المصطلح الرسمي لاي شعب مسيحي خاضع للسلطنة منظم في بيعة مستقلة وخاضع لرئاسة دينية متمايزة كما كانوا عليه دوما (من اساقفة وبطارقة وقسس) وهكذا كانت البيع القومية في نظر البيعتين اللاتينية واليونانية لا اكثر من هرطقات. الا انها ظلت حية طوال الحكم التركي.

في الايام الاخيرة من هذا الحكم قدمت بعثات تبشير كاثوليكية تحمل لهؤلاء المسيحيين العلم والثقافة. وافسحت البيعة اللاتينية السبل لاقسام من هذه الطوائف القومية القديمة وعملت على جذبها الى المذهب الكاثوليكي واخضاعها للسلطان الپاپوي على ان لا يطرأ تغيير في طقوسها القديمة (بعد تحويرها وتنقيتها الى حد ما) ولا يجري اي تبديل في رؤسائها الروحانيين. وكل هذه الطوائف المتحدة Uniat او (المتصالحة) هي بطبيعة الحال خاضعة للكرسي البابوي لكن رعاياها لا يتمازجون فيما بينهم عادة. ان المرء ليدركه السرور من وجهة النظر التأريخية لبقاء هذا العدد الكبير من الطوائف وطقوسها المذهبية الى يومنا هذا. لقد كانت طرق هداية بعثات التبشير الرومانية لها طريقة سليمة وسياستها حكيمة لان كلا من النساطرة واليعاقبة امكن جرهم للاعتراف بسلطة الپاپا البعيد عنهم عندما تخلى رسله عن امور الثقافة والتعليم والاشراف الى حد ما. ولكن ليس في الامكان قط ان يحاولوا دمج هذه الطائفة بتلك في حين انه لم توجد «تلك الطائفة» الا لتنكر معتقدات (هذه). وهكذا تجنبت تلكم البعثات بحذر حكيم وبعد نظر سليم المباديء الخاصة بالسلطة الابرشية التي تسود جهات العالم الكاثوليكي الاخرى ولم تعمل بها في الشرق الاوسط. وهكذا فخرت الموصل بثلاثة اساقفة باپويين على الاقل. فالكلدان (النساطرة المتحدون) لهم بطريركهم الذي يترأس عددا من اساقفتهم. واسقف السريان الكاثوليك (اليعاقبة المتحدون)[4] وهو يخضع لبطريرك هذه البيعة في (بيروت). والقاصد الرسولي او المبعوث البابوي الذي يمارس اشرافا عاما على كل الاساقفة الكاثوليك في كل ما بين النهرين الا انه يمارس سلطانا مباشرا على

[4] هذه التعابير التي استعملناها ليست دقيقة من الناحية العلمية الا اننا استخدمناها للتبسيط.

مفه من الفرنسيين المقيمين فعلا في الموصل وكل مسيحي يتبع الطقس اللاتيني قد يصادف ، مو د ، هناك.

هنالك ايضا مستعمرة يهودية كبيرة ظلت تعيش في حيها التاريخي منذ ان استاق (سرحون) الاشوري اسلافهم من بلاد السامرة المحتلة في القرن الثامن قبل الميلاد حتى يومنا هذا وهم يقولون هذا بكل مظاهر الجد والاخلاص. وتراهم كلهم باعة وتجارا صغاراً مثل سائر ابنا ، جنسهم. لان المدينة هي مركز تجاري محلي. واغلب السلع في السوق ما عدا المواد الا ، لية كالعفص والصوف -تيستورد من (مانجستر) و(ريدنگ) وان المرء ليشك كثيرا في امكان حصوله على ذلك (الموسلين) الشفاف الذي نشر اسم المدينة في ارجاء العالم.

ومن السلع الاخرى التي تصدرها التجارة المحلية الى الخارج عرق السوس الذي يستخرج .فثرة لانه ينمو في السهل من تلقاء نفسه. وكان تهافت التجار الاوربيين على شرائه يثير عجبا شديدا. الا ان السبب الحقيقي لهذا الاقبال اصبح معروفا من الناس ومقبولا وهو «ان الملك جورج البريطاني لا يحب شيئاً قدر مايحب امتصاص عرق السوس ولذلك ارسل خمسة ، عشرين مليون ليرة انكليزية ليؤمن كمية منه تكفيه طول عمره!».

وتقع (نينوى) مقابل الموصل على ضفة دجلة اليمنى ويتم العبور اليها بجسر لا تختلف صفته عن سائر جسور بلاد تركيا فهو لا يمتد الى اكثر من ثلثي عرض النهر. اذ بعد قطع مسافة جافة من المجرى في اغلب ايام السنة تبلغ الجسر الحقيقي الذي هو مجموعة من الزوارق مصفوفة على التوالي. وهذا الجسر يزال في اوقات الفيضان وتبقى الزوارق الوسيلة الوحيدة للعبور، حيث يتم الوصول الى الضفة الاخرى بساعة من الزمن. هذا وان حقيقة وجود «جسر على ذلك الطريق» ينهض عذرا وجيها للمطالبة باجرة مضاعفة للعربة.

وجسر الموصل الخشبي ملك البلدية. وهو يضمن سنويا بمبلغ كبير جدا لمتعهد. والضامن بمتعهد ان يقوم باصلاح كل خلل يطرأ عليه ويتقاضى مقابل ذلك اجرة معينة عن كلّ شخص او حيوان يعبر فوقه.

المفروض في بدل ايجار الجسر بالطبع ان يصرف على تأمين ما تحتاج المدينة وهو لهذا الغرض يسلم برمته الى مجلس الادارة. وكانت المدينة تفتقر الى الشوارع المبلطة والانارة ومجاري تصريف المياه القذرة او اي شيء من المرافق العامة الضرورية لحياة المدينة مما تعرف ماذا تفعل به، ولذلك فهي لا تحتاج الى شيء!

ويقول اعضاء مجلس الادارة ان المدينة تتألف من مواطنين، وما يصرف على احتياجات المواطنين انما يصرف لمصلحة المدينة نفسها. أيهم احق بهذه الاموال ممن يكدح يوميا في مجلس الادارة لمصلحة اخوانهم الموصليين؟ لذا فأن عائدات الجسر تنفق على هؤلاء المستحقين لها

فقط دون ان يرتفع صوت احتجاج غير ذلك الصوت الذي يطالب بحصة لنفسه من الغنيمة. ان ما تسميه عقلية الغرب الضيقة بـ «الفساد» لن يقف عند حد، الا عندما يسمه الرأي العام بميسم الجريمة. وما هو سائد لدى الرأي العام التركي الان لا مجال معه ليتصور المرء طريقا مجديا لقطع دابر هذه الامور.

وقطعنا الجسر ونحن نقلب وجوه الفكر في مشاكل الاصلاحات البلدية. ثم قطعنا حوالي الميل من ارض سهلة وهي مجرى نهر دجلة القديم الذي يقف بيننا وبين اسوار نينوى. وكان ماء دجلة في الازمان السحيقة يلطم قاعدة تل (قوينجق)، وواجهة قصر (سنحاريب)، ويقوم حاجزا منيعا ضد اي هجوم من تلك الجهة. ولكن اطل فجر ذلك اليوم الذي تحققت فيه تلك النبؤة القديمة، اذ انحاز هذا النهر الى صفوف اعداء نينوى الذين يحاصرونها فخان المدينة وسلمها الى خصومها. فقد حصل فيضان هائل وجرف الاسوار كلها تاركا ثغرات واسعة على طول الجبهة ولما انخفضت مناسيب الماء وجد ان دجلة اتخذ له مجرى ثانيا واصبحت تلك الجبهة المنيعة في الماضي فهي فريسة سهلة لاي هجوم.

وعندئذ قام الملك «ساردنابال» (وهو ليس اشور بانيبال المعروف، بل خلفه «سن شاريشكون») يجمع كل كنوزه وزوجاته واطفاله ليموت معهم كما يموت الملوك - في نيران قصره المحترق.

سقطت «نينوى في العام ٦٠٨ ق. م. قضى عليها كيخسرو (كي اكسار) ملك الماديين وحليفه الاشهر (نبو بولاصر) والد (نبوخذ نصر) ملك البابليين. كان الحصار قد ألقي عليها اكثر من مرة الا انها خرجت من كل حصار منتصرة ولا يمكن تفسير الانهيار التام الأخير الا بالارهاق واستنزاف الحيوية الذي سببته اجيال من الفتوح الغابرة. لقد فني الشعب الاشوري ولم يبق منه الا جنس مولد هو ثمرة تزاوج متعاقب، وعندما تم الاستسلام النهائي لم يعد فيهم قوة على الانتعاش والانبعاث «اصبحت نينوى خرابا بلقعا فمن يبكيها؟» وتفرق شعبها في الجبال فلا احد يستطيع لهم جمعا.

ومن نينوى لا يوجد فوق سطح الارض الان الا النزر اليسير. الاسوار المترامية الطويلة باقية تشبه انقاضا واكداس تراب واقية لخط سكة حديد. والخندق الذي يبلغ عرضه خمسين ياردا وعمقه عشرين قدما والذي يمكن توجيه مياه (الخوصر) اليه عند الحاجة، مازال يحيط بالمدينة احاطة السوار بالمعصم. هذا الخندق المحفور في كتل الصخر الكلسي هو ذكرى الجهد الصابر ومن التلين الكبيرين (حيث قام قصرا سنحارب) استخرج من قوينجق كل الاسرار والكنوز المهمة على اغلب الاحتمال بجهود المتحف البريطاني، حيث قام اكبر القصرين. ومن الجدير بالذكر ان القول نفسه كان قد قيل عن معبد (الكرنك) في مصر الا ان اهم الدفائن والكنوز واثمنها تم اكتشافها فيما بعد ولا يمكنك ان تجزم بان كل محتويات التل من الاثار قد استنزفت، حتى يجري تحر ادق وغربلة اشد وعليك ان تنخل ترابهما نخلاً.

على ان التنقيب كان عاما شاملا الى حد ما وقد ترك المنقبون احد الثيران المجنحة فوق الارض ومن المفيد ان نذكر ان هذا التمثال (ولعله من ممتلكات المتحف البريطاني) قد تنازل عن رأسه بكل طيبة خاطر لاصلاح رحى. ومن بعد ذلك باعه احد الولاة (ليس طاهر باشا الشيخ الجليل بل سلفه) بمبلغ مجيدي واحد (يعادل ثلاثة شلنات وستة بنسات). فاحرقه المشتري وعمل منه جصا.

اما التل الثاني (تل النبي يونس) فمع الاسف الشديد لا يستطيع المرء الا ان يتحسر حين يعلم ان قصر (اسرحدون) المفضل مطمور تحته. ذلك الملك الذي اكتشف في منزل صغير له في موضع آخر، اجمل نماذج للفن الآشوري عرف الى حد الان. وهذا القصر وهو انفس ما عزي للملك من أثر على الاطلاق، لا يمكن التنقيب فيه لان جامع النبي يونس (يونان) القائم في وسط قرية تركمانية تتوج قمته. ويقول المسلمون هناك «ان النبي سيسخط ان اقلقت راحته وسينتقم انتقاما مريعا»[5]

واذا كان الثاوي هو (يونان) حقا فلا شك ان القول لا يخلو من وجاهة. فهذا النبي معروف بحدة مزاجه.. الا ان صاحب الجدث ليس هو. فبعد ان وجد نبوءته عن خراب نينوى لم تتحقق تركها ومضى وليس من شك ان قمة التل الذي يستر خرائب المدينة، كانت القبعة الوحيدة من الدنيا التي يتعذر عمليا ان تكون موضعا لقبره! واذا جئنا الى الواقع فالمسجد بالاصل كان بيعة نسطورية قديمة هي البيعة الرئيسة للطائفة التي كان مقرها البطريركي المستقل في الموصل. وصاحب القبر. هو(يوحنا الاعرج) احد البطاركة الاتقياء عاش في القرن الثالث عشر الميلادي، وعوض خيرا عن شظف الحياة التي قاساها بالشرف المؤثل الذي ناله من صيرورته نبيا يهوديا ووليا مسلما فضلا عن قداسته المسيحية!

كان مار(يوحنا الاعرج) أخا معرفة وعلم في حياته لذلك سيقلقه ويضايقه كثيرا ان يجد قبره وقد صار عقبة كؤودا في سبيل المعرفة العلم، ولو استشير او خُيرّ بين بقاء قبره ورفعه للتنقيب تحته لتنازل عن حقه بلا تردد.

مرة واحدة اكتشف شيء من الدفائن تحت ارض النبي يونس. اذ عثر على زوج من الثيران البرونزية اثناء ما كان يجري تنظيف بئر في صحن المسجد، فبادر القوم الى صهر هذه الاصنام في الحال. وهي الان على شكل مشبك فوق شباك يحمي احد بيوت سادة مدينة الموصل من غائله اللصوص.

النظام القديم قابل للتغير في مدينة الموصل كما في غيرها من البلاد. او انه سيتغير عندما

---

[٦] مار ال «يونان» شخصية مهيبة في المنطقة. والصوم الذي قيل انه دعا اليه والمعروف بصيام اهل نينوى «مازال يحيي ذكراه سنويا كل ابناء الطوائف المسيحية في المنطقة. عادة غريبة جدا ظلت سارية المفعول في هذه البلاد الغريبة».

تتصل بسكة حديد بغداد التي ستجلب اليها النور والنظافة فتطردان الفساد العام وتزيلان سيطرة العصابة الحاكمة الحالية وتشيعان في القلوب الامل بتحسّن الاوضاع. هل ان ما سيحدث سيصلح حقاً موضوع الرشاوى المفضوحة التي تعزى الى (ص) و (طاهر باشا)؟ اجل قد يطرأ صلاح على بعض الامور فالتاجر الصغير لا يعود مجبرا على شراء بضاعته من عضو مجلس الادارة المحلية ولا يعود يُنذر ان هو فعل ذلك واستورد من حلب رأسا على حسابه بانَّ كروان بضاعته لن يصل الى ابعد من مضارب شمر! كذلك لن يعود شيوخ العشائر يذكرون لشبانها قائلين «في الايام الطيبة الماضية التي عاشها آباؤنا كان يجب على الفتى ان يقتل اسداً قبل ان يقدم على طلب زوجة. اما الان فعليكم على اقل تقدير ان تنهبوا كروانا».

ومعنى هذا، هو التغيير والتقدم. لكن ما زالت تجارب بعض المدن من امثال (بيروت وازمير) ترى ان شرور الشرق المعروفة قد تفضل على النتيجة المجهولة الناجمة عن اختلاط الشرق بالغرب.

5

هيكل ابليس
الشيخ آدي

لطالما تشوقنا الى الحج. فنحن من جهة مغرمان بكل العادات القديمة التي «درج عليها اباؤنا في غابر من الزمن» ومن جهة اخرى لدينا سبب خاص ثان يختلف عن السبب السالف وهو في نظرنا سبب خطير ووجيه فقد وجدنا بالتجربة ان اوائل مخترعي التسرية وقتل الوقت المختصة بأمور الحج هم اناس عباقرة ذوو اذواق فريدة في بابها لاستغلال الاماكن الخاوية الساحرة. فالمزارات التي كانوا يرسلون اليها خطاتهم هي بقاع حافلة بفتون الطبيعة تستميل عشاق اللهو والطرب الكثيري التجوال. ترى من يستطيع ان يختار لنفسه فردوسا نموذجيا لقضاء اجازته ابدع من مزار (لورد Lourdes) او(مونسيرات Monserrat) او (كوفادونگا Covadonga) او(روك امادورRoc Amadour)[1]؟.

لقد جبنا بلاد المسيحية طولا وعرضا مبتدئين بالضريح الاقدس في الشرق ومنتهين بـ «سانتياگو دي كومپوستيلا Santiago de Compostela» طلبا لسعف النخل وايقونات الحج. ولم نصب قط بخيبة امل في فوزنا بجزائنا الدنيوي. ومع هذا كله فنحن نشعر ان حكمنا سيكون قاسيا لو نقمنا على زهد الفوائد الثانوية حتى ليقال ان فوائدنا الروحية كانت صفرا بعد تجوالنا هكذا دونما غاية.

وعلى كل حال فأن عجزنا عن الوصول الى هذه الفوائد عَوّضْنا عنه بتوسيع مداركنا. واذا كان ربحنا ماديا صرفا لا نرانا فقدنا شيئا من القيم الروحية. ان اقل المزارات احتراما لدينا قد يرتفع الى مستوى المزارات الحقة الصادقة. ونحن لا نتورع عن الحج الى مكة وبنارس بالحصانة التي نحج بها الى روما نفسها. « لنا ننحرف حين نعجز عن بلوغ آخروننا (بلدة في ايطاليا) Flectere si nequeo superos Acheronta movebo» كما يقول الرومان. هذا وان التوجه الى ساحرة «عيندور»[2] قد يثير في انفسنا انفعالا عاطفيا على اقل تقدير. وما يكون

---

[1] هذه مزارات دينية مسيحية شهيرة. فأولها (لورد) ويقع في البرانس العليا - فرنسا، مزار شهير للعذراء مريم وموقعه ساحر للغاية. وثانيها (مونسيرات) قلعة جبلية رائعة الجمال فيها دير للبندكتيين مشهور في قطلونيا. وثالثها دير شهير في اسبانيا. ورابعها دير في بقعة جبلية ساحرة في فرنسا على بعد٣٢ كيلومتر من بلدة غوردون (المترجم).

[2] يرجح ان المؤلفين يقصدان هنا الساحرة العجوز التي ورد ذكرها في التوراة وكانت تسكن في عيندور في جبل طابور وقد قصدها (الملك شاؤل) في آخر ايام حكمه ليستخيرها في حربه مع منافسه داود النبي. (المترجم).

حالة فكرية ملحة لدى عاشق سفرات الحج العتيق، تراه يصير رغبة عنيفة لايستطيع لها دفعا عندما يجد نفسه قريبة جدا من المعبد الوحيد في العالم الذي كرس مبنى ومعنى لعبادة «مصدر كل شر واثم» بالذات!

الظاهر ان كل شكل من اشكال الاديان التي عرفها البشر في هذا العالم، قد مدت جذورا لها في بلاد ما بين النهرين في عصر ما. وهناك قليل منها لم يخلف جذورا (او متحجرات) تذكرنا بايام عز اتباعها وكيف كانت تختال بنفسها تياهة معجبة. بعضها اهدانا هياكله المتهدمة وبعضها اتحفنا باكداس من رماد قرابينه او برقيمه او بنذوره او بصور الهته. وبعضها ترك اجزاء ومقطوعات من الفولكلور العجيب عاشت الى يومنا هذا متسكعة ملتصقة مثل طفيليات في عقائد احدث منها عهدا. الا انّ واحدة من اعتق واشد الديانات تعقيدا ما زالت الي الان حية ترزق وهي الديانة اليزيدية او «عبادة ابليس» التي كانت ولاية الموصل مقرها الرئيسي.

(أعبدة ابليس؟) انهم لكذلك حقا. وهم انفسهم لا يترددون في الاقرار بان (الكائن) الذي كان يطلبون رضاه ويستعطفونه هو فعلا (ابليس) المسلمين والمسيحيين واليهود. ولحسن حظ سلوك جيرانهم ومعتقداتهم فان فروض الولاء لمعبودهم هذا لا تصل حد تقليد اعماله. فدينهم دين ايمان روحي، لا دين ممارسة وعمل، وليس فيه ما يوجب عليهم ان يستبدلوا عمل الخير بعمل الشر كما فخر «ابليس ملتون»[3] وقصاراهم في هذا الباب هو احترام مقام معبودهم السامي. والعمل على احترام «عرشه الملتهب احيانا»!! ومع انهم موضع اتهام في امور كثيرة حيث يعزى اليهم فظائع عديدة[4] فالظاهر انهم ليسوا على نصف شراسة الكثير من معظم جيرانهم ذوي «الايمان الصحيح» والمذهب القويم ولا اسوء منهم فعلا من الناحية النظرية على الاقل. والمسيحيون الصالحون المتمسكون بعرى دينهم قد يغامرون بانفسهم وهم آمنون في «وادي الابالسة» هذا، وليس عندهم من الشك المادي اكثر مما لدى الكلي الاحترام (سرجون ماندفيل Sir John Mandeville) من رجال العهود الغابرة[5].

---

[3] جون ملتون (١٦٠٨-١٦٧٤) من اشهر الشعراء الانكليز صاحب ملحمة «الفردوس المفقود» الشهيرة فيها يصف جهنم وابليس وصفا فريدا اصبح فيه مضرب المثل(المترجم).

[4] حتى انهم يتهمون بتقديم قرابين بشرية. قيل انه عندما يبتلى اليزيدي بمرض ما. يفتش اقرباؤه عن وسائل لشفائه بتحويل قوى الشرعنه عن طريق قتلهم نصرانيا او كرديا والتهمة رائجة جدا وهي في الواقع كذب صراح. وتلك هي تهمة القتل الديني القديمة جدا وكثيرا ما اتهم بها اليهود في اوروبا القرون الوسطى. والسريان هنا يؤمنون بها ايمانا تاما فهم يقولون لي «بالتاكيد يا ابانا انك لاتأكل خبز اليهودي. اذ كيف يمكنك ان تثق بأنه ليس معجونا بدما، اطفال المسيحيين؟!».

[5] ارجح انه احد كتاب القرن الخامس عشر. الف كتاب رحلات طبع في ١٤٩٩ والحقيقة انه وليد خيال لاحتوائه امورا لاتصدق. (المترجم).

البزيدية طائفة من الطوائف المعترف بها اي(ملة) دينية في الامبراطورية التركية. الا ان الاعتراف الرسمي باتباعها لا يتضمن التسامح معهم. فهم عموما مثل (كاگوت Cagot) جبال البرانس[6] او احط من طبقة (الپاريا Pariahs) الهندية.

اعترض يزيدي سبيلنا بعد ان قطعنا خمسة اميال او ستة وتحاشى اللحاق بنا وظل بعيدا ما بمسافة مائة يارد الا ان خط سيره كان باتجاه الريح فرجع اليه مرافقانا ساخطين وهما يلطبان حنقا لانه تجاسر وبلغ من الوقاحة حدا ان اعترض بجسمه الدنس، الريح القادمة الى «اشرافنا النبلاء» (نحن).

وما لبث ان لاح يزيدي آخر فالصق نفسه فعلا بجماعتنا وراح يقفو اثرنا خطوة خطوة لساعتين او ثلاث (على بعد لا بأس به) فما كان من احد «الضبطية» ان همهم قائلا:

خير ما اعمله هو أن اقتل هذا الكلب. لكنّي ساتركه حيا ولن اتعرض له مادام يسير في معى الافندي (يقصدني) وفي ظله.

ومع هذا ففي الاستصغار الذي يستشعره الناس لليزيدية.كان يوجد نكهة من الخوف. فهؤلاء هم كما يقال عنهم اصفياء ابليس واهله وليس من السلامة ان يتعرض لهم احد. وهكذا يبدو انهم عدوا في منزلة السحرة الذين عرفهم اسلافنا في القرن السابع عشر. وانه لمن الفضيلة ان تسيء معاملتهم وتشتمهم. ولك في وضح النهار ومع جمهرة من الغوغاء تعتمد عليها ان تشعر بالامان منهم وتتقي غائلتهم. الا ان الامر يختلف اذا مررت من امام ابواب بيوتهم وانت وحيد بعد حلول الظلام.

البزيدية مجتمع كبير يقدر مجموعه العام بحوالى مائة وخمسين الفا. وهناك حوالى خمسمائة قرية تقريبا تدين بالطاعة والولاء لميرهم[7] وثم مجموعات منفصلة تعيش في بلاد ارمينية. وهذه القرى متباعدة جدا ومعظمها منعزل وحيد بين قرى كردية او مسيحية وبعضها بعد كثيرا حتى يشارف (حلب) غربا وبعضها يصل حتى مدينة (تفليس) شمالا (كل كنّاسي هذه المدينة من اليزيدية) وبعضهم منتشر حتى شرق طهران. ونواة المجتمع اليزيدي هو جبل سنجار الذي يرتفع في بادية الجزيرة جنوب غرب الموصل وهناك كانوا يتحصنون من الغارات بموانع الصخور والصحارى الخالية من المياه. لكن (معبد الشيخ آدي) الدهليزي المتخفي في ثنايا سفوح الجبال الشمالية المشرفة على سهل الموصل العظيم، هو هيكل عبادتهم الاساس واورشليم نذورهم وتقدماتهم.

---

[6] الكاكوت قوم شبه متوحشين يعيشون في مناطق من جبال البرانس متأخرو الثقافة والمدنية. والپاريا هم طبقة المنبوذين في جنوب الهند. (المترجم).

[7] المير هي عين كلمة الامير. وهذا اللقب يطلق ايضا على بعض زعماء الكرد.

في ساعة متأخرة من مساء يوم خريفي، وجدنا انفسنا على مقربة من آخر مرحلة اليه. وكنا قد خلفنا السهل وراءنا منذ منتصف النهار وسرنا عدة اميال في طريق يتتبع واديا قليل الزرع محشورا داخل اراض مرتفعة دفعت بها الجبال الى السهل المنبسط. وعلى اليمين منا يقع اخدود شبيه بالحصن الخارجي لاي قلعة. ويمكنك ان تشاهد من قمته وادي دجلة منبسطا امامك بينما ترتفع النجاد عن يسارنا باطراد وتزداد وعوثة وانحدارا وخلفها سلسلة من الجبال المرتفعة الشامخة لكنها تابعة لسلاسل اخرى.

وكان القفر «الخالي منقوطا بقرى كردية متباعدة فقيرة المظهر يستعمل سكانها الخيام بشكل محدود تخلصا من حرارة الجو صيفا ولتغطية اكداس العلف خوفا من ثلوج الشتاء المتوقعة. واحدى هذه القرى، عين سفني (نبع السفينة) تمتد امتدادا عرضانيا على نجد مرتفع يطل على الوادي. وتقول عنها اساطير اليزيدية انها موضع بناء (الفلك) ويستمر الوادي ممتدا نحو الامام هنا. لكن ما ان نزلنا من القرية حتى استدار دليلنا الى اليسار وهبط وادياً ضيقاً محجوباً عن النظر كان حتى الساعة مختفيا عن الانظار خلف جبهة من المرتفعات.

توقعنا يكون مدخل هيكل (ملك طاؤوس) واسعا وطريقه لاحِباً عريضا لكننا وجدناه واديا خشنا وعرا ضيقا يكتنفه العوسج والطرفاء وتزيد الصخور من صعوبة السير فيه تلك الصخور التي فتتها الماء بعد ان جرفتها اليه فيضانات الشتاء. كانت السماء قد غامت منذ ساعات الظهر الاولى اما الان فقد اخذ رذاذ من المطر خفيف كئيب المنظر يلون كل البقعة بلون اربد موحد. وكانت بغالنا تدب متعثرة مرهقة فوق الصخور الزلقة المبللة.

وسرعان ما بدأ طريقنا يرتفع بنا متجها الى منخفض واسع في الهضبة عن اليمين. وفيه تربض قرية كردية صغيرة كأنها معلقة على سرج. وكان ستار من الغيوم المتكاثفة الطخياء منسدلا على الوادي بأسره. على اننا وجدنا النهاية الحقيقية للوادي تتم وراء عطفة من الجهة المعاكسة وعند رأسها يبدو هرم طويل باهت لبناية منعزلة بعيدة ظاهرة من جانب التل وترتفع فوق قنن الاشجار المنتشرة في الوادي. ذلكم هو «المزگوت العظيم» لطائفة اليزيدية[8].

لقد اعدّ المرسح اروع اعداد لآخر ميل من اميال حجنا الاسود! كان ادق التفاصيل متوفراً في المنظرِ لكي يرفع من رهبته وكآبته. اسرع الغسق باسدال ستاره المظلم واخذت فتحة الوادي

8 (المؤلفان) «ماسكوت». ومعناها (مسجد) او هيكل ويستخدمها اليزيدية للجوامع والبيع فضلا عن معبدهم نفسه وهي لغويا مأخوذة من كلمة (مسجد) العربية كما يبدو للقاريء (انتهى كلام المؤلفين) أقول: اثبت لي احد قراء ترجمتي هذه قبل الطبع ما يفيد ان كلمة «مزكوت» هي كلمة آرية مشتقة من «اهورمزكده» او هي الصيغة الاخيرة منها واليك تطويرها (اهورمزكده - هرمزكده - مزكده - مزكد - مسجد) اي معبد الاله الحكيم (هورامزدا) رأس آلهة الديانة الهندو ايرانية القديمة. (المترجم).

يزداد ضيقا وانحدارا الى الاعماق. وراحت الاغصان المتشابكة المتدلية من جداري الممر الضيق تحيل ضوء الغسق الى ليل مدلهم. وكانت الطبقة التي عملتها على الارض الاوراقُ المتساقطةُ من الشجر تكتم صوت وقع اقدام الخيل فلا يسمع صوت الا رقرقة ماء النهير وخرير قطرات المطر الرتيبة المتتالية النازلة من افنان الشجر. ومن اليمين اطل علينا جدار الدير الباهت الضامر لا يفصح صوت او ومضة نور عن وجود كائن حي مقيم فيه. وفيما نحن نعتلي درجاته الحجرية المتكسرة بين حائطين متهدمين وتحت عقادات متآكلة، كنا نشعر كما شعر (سنترام Sintram) في وادي العفاريت او (شايلد رولاند Childe Roland) وهو يدنو من البرج المظلم.

ولما وصلنا الى آخر ركن من البناية كان صعودنا قد حاذى مستوى شرفاته. وبدخولنا الساحة الخارجية اتخذت المناظر التي تكتنفنا طابعها الجهم الاخير. وجدنا الابواب موصدة ولم نر أثراً لمخلوق حي، لكن ومضات دقيقة جدا من النور كانت تصدر من كل خصاصٍ او مشكاة او شقّ كأنها ومضات مصباح سحري صغير. ان السائح المتجول في مقاطعة ويكلاو (Wicklow County) نال تأنيبا من الاقطاعي لانتهاكه حرمة «وادي ابليس» فالتمس منه العفو معتذرا بأنه «لم يتوقع اللقيا بمالك الوادي وصاحبه» الا ان ظهوره هكذا لنا وفي هذه اللحظة بالذات سيبدو في نظرنا شيئا عاديا لا يلفت النظر.

وبدت بطانتنا اقل تأثرا بالموقف. وربما كان احساسهم غير مرهف، او لعلهم كانوا مؤمنين بقدرتنا السحرية الفائقة في صد الاذى حين قلبوا الامر من شتى وجوهه على الطريقة الاسبانية واستنتجوا باننا «نعرف وسيلة أجدى من وسائل ابليس». وتقدم مرافقنا من الباب بجرأة وطرقه طرقا شديدا متواصلا فلم يوقظ به غير الصدى لفترة من الزمن. ثم اجاب صوت الاحمر، يبدو ان «الملك» لايرغب كثيرا في فتح بابه. ففي هذه البلاد نادرا مايستضاف مَلاكٌ مجهول الهوية بعد حلول الظلام! وعلى اية حال فان الكلمة السحرية «انكليز!!» دلت على انها معادلة لعبارة (افتح ياسمسم)!

«انكليز!» رددها الحارس الخفي بنغمة تنم عن الارتياح والسرور والعجب. وبعد دقيقة واحدة فتح الباب بصرير[9] وظهر اثنان من الكهان يرتديان ثوبا ابيض قذرا من الكبردين مع قلنسوة حمراء وحزام. ويبتسمان ابتسامتين عريضتين ملأتا وجهيهما الملتحيين ودعيانا بكل بشاشة الى الدخول.

انها لسياسة حسنة صائبة مارسها كل فرد من الشعوب الخاضعة للحكم التركي، باسراعهم

---

[9] عند الدنو من احد القرى ليلا فمن الحكمة والصواب ان يسبق دخولك اليها انذار او اخطار إما بارسال رسول سبّاق وإمّا باطلاق عيار ناري اثناء الاقتراب منها ليكون القرويون على استعداد لاستقبال الزائرين، والا فمن المحتمل جدا ان يستقبل الوافدون بوابل من الرصاص.

الى الترحيب بالزائر الاوروبي. فوجوده تحت سقفهم يمنحهم حصانة من السطو في تلك الليلة على اقل تقدير. كما وان قيام شك بين جيرانهم بوجود صلة لهم مع اناس لهم علاقة بأجانب وهم ذوو نفوذ، سيرفع من اسمهم على حد قولهم - بين جيرانهم الاشرار ويكون لهم بمثابة حماية للاسابيع العديدة المقبلة.

وهبطنا درجات حجرية زلقة زائغة بعد اجتيازنا عتبة الباب مباشرة، الا ان حيواناتنا ذات النشأة الجبلية الشاقة اسرعت تهبطها بمهارة الراقص على الحبل. ولاحت منا التفاتة الى باب عن يميننا اثناء مرورنا فلمحنا باطن غرفة جانبية واسعة ذات سقف معقود تَحلّق موقد نارها المشبوبة جماعةٌ من اليزيدية ذكورا واناثا. وكان وهج اللهب الاحمر وسحب الدخان القاتمة يتصاعدان الى فوق فلا يتمالك الرائي نفسه الا وان يتصور خدم (لوسيفور)[10] وهم يهيئون جهنما نموذجية! الا اننا مرقنا من امام نارهم دون ان يلحظونا وقادنا المضيفان الى شرفة اقل انخفاضا وادخلانا الى موضع مبيتنا في برج ملاصق لجدار الهيكل. وهذه الغرفة كما علمنا في ما بعد هي غرفة (علي بك) الكاهن الاعظم للمتهم كلمّا قدم في زيارة من زياراته الدورية لمعبد الطائفة.

كانت غرفة واسعة عالية السقف مقببة مبنية بالحجر لكنها ذات جدران صماء خالية من شباك او فتحة مدخنة كما اتضح لنا عندما جيء لنا بنار نصطلي عليها فقد فوجئنا بدخانها الخانق يملأ كل فضاء الغرفة اعتبارا من الحد الاعلى للباب فما فوق. ونحن الذين انبطحنا على الارض لم يضايقنا الامر لكن لو رفعنا يدا فوق الرأس لبلغت تلك اليد الطبقة الدخانية الساخنة ولو نهضنا لقضاء حاجة لوجب ان نسير بجذع منحن انحناء شديدا خشية الاختناق. ويبدو ان في اليزيدية قابلية لمقاومة الدخان تفوق قابلية الكرد والاثوريين وهؤلاء الاخرون يفتحون كوة في وسط السقف فوق النار مباشرة على الدوام.

وقام بواجب الضيافة متولي شؤون المعبد وهو شاب وابن اخ (علي بك) وقد رشحه لمنصبه هذا عمه الذي فعل ذلك بعد ان قبض منه مبلغا سنويا مقطوعا يعادل مائة وعشرين باونا مقابل امتياز استئثاره بكل الهدايا والتقدمات التي يجلبها الزوار الى الهيكل. وكان الطعام الذي هيأه لنا يتألف من فطائر خبز محلية وصحفة كبيرة من شورباء العدس فأكلنا بكل تأدب بدون (ملاعق طويلة) ثم جيء لنا بقهوة في ابريق نحاسي ذي صنبور هائل الجرم يشبه منقار (التوكان toucan)[11] وبعد ان دخنا سيكارة او اثنتين استأذن مضيفنا بالانصراف بينما تمددنا نحن ومرافقونا من الحرس على الارض ونمنا.

وكانت اول فكرة عنت لنا في الصباح الباكر هي فحص (المعبد). ان اليزيدية بعكس

---

[10] هو رئيس الابالسة (المترجم).

[11] طائر يعيش في امريكا الاستوائية ذو منقار عظيم (المترجم).

جيرانهم المسلمين يُقبلون على عرض محتويات معبدهم بكل طيبة خاطر. وبدت الشمس ساطعة ونحن نخرج من غرفتنا الى نور النهار وبدا الوادي المستيقظ في الوانه الخريفية الاخاذة مختلفا اختلافا بينا عن ذلك الشق القاتم الكئيب الذي كنا نزحف فوقه زحفا ليلة امس.

لاتوجد قرية في (الشيخ آدي) وليس ثم غير المعبد وملحقاته وتؤلف كلها ديرا كاملا من جميع الوجوه الا انه لا يدعى بهذا الاسم. وبناياته تمتد الى حافة السفح الشديد الانحدار الذي هو الضفة اليسرى من النهر. والطبقة العليا منه تدخلُ في السفح كالحز العميق. اما السفلى فتبرز الى امام فوق حد المسيل الصغير. ويقوم المعبد في وسط الطبقة العليا ويهتدي اليه بالقبتين النحيفتين المضلعتين اللتين تؤلفان سقف المحرابين. هاتان القبتان الهرميتان المضلعتان هما الطابع المميز للهندسة المعمارية عند اليزيدية وظهوره في اية بناية هو الدليل المبدئي البديهي على الاصل اليزيدي.

وتنتشر حول الدير وفوقه عشرات من الصوامع الصغيرة والمصليات معظمها آيل الى الخراب. بنى هذه الصوامع احيانا افراد واحيانا زمر وجماعات. وقيل ان مؤسس هذا المعبد كان ذا عبقرية فريدة ويزعمون ان هيكله هذا سينتقل الى الجنة معه ليكون مسكنه السماء والحياة الابدية الاخرى. ويشعل الكاهن في هاتين القبتين سراجا في كل واحدة عند المغرب ويشعل في الوقت نفسه فتائل اخرى في كل ركن من اركان المعبد فتؤلف فيما بينها نورا سحرياً هو النور الذي فوجئنا به يستقبلنا ليلة امس. ولا يدوم هذا النور اكثر من نصف ساعة ثم ينطفيء بعدها. وقد صادف وصولنا في الوقت الذي كان المنظر على احسنه والتأثير على اشده.

وفي داخل الباب الرئيس يوجد باب صغير قوسي بالقرب من الزاوية اليسرى. وفي كثير من احجار بناء الواجهة ترى رموزا ورسوما غريبة حفرت حفرا ساذجا فوق سطوحها حتى تركت اثرا شبيها بالنقش على المرمر. ويصر الكهنة بانها لا تعني اي شيء، وانما هي نقوش اعتباطية خيالية نقشها النحاتون المسيحيون الذين بنوا الهيكل[12] ولكن يرجح ان المعنى الحقيقي لهذه النقوش قد نسي ومع هذا فمن السخف الواضح ايضا الادعاء بانها لا تعني شيئا وانها لا تدل على شيء في الوقت الحاضر. انها خالية من اية رموز مسيحية كما وان

---

[12] يزعم اليزيدية ان النصارى هم الذين بنوا لهم هيكلهم. ويذهب رهبان دير الربان هرمز الى ابعد من هذا فيقولون انه كان في قديم الزمان بيعة مسيحية. الزعم الاول ربما كان صحيحا اما الزعم الثاني فيعتوره شك كبير. لابد وان مزار الشيخ ادى كان من الاماكن المقدسة قبل ظهور اليهودية ثم المسيحية. وان الرهبان المسيحيين قد اشغلوه على الارجح ردحا من الزمن على عهد الرومان وهذا اقرب التفاسير المعقولة كما نراها.

الاشكال التي تتكرر كثيرا تمثل فأسا ومشطا[13] لكن ابرزها وابشعها هي الحية المشهورة المنحوتة نحتا بارزا على طول ركن الباب ويوجه اليها اهتمام غريب اذ تصبغ دائما بالاسود.

كان ثم ثلاثة من اليزيدية او اربعة يطوفون في البناية المربعة وينبطحون امام هذه المشكاة وتلك. وفي امكنة عديدة اخرى كانوا يقبلون اعتاب الابواب بخشوع وبعض حجارة الجدار (ليس شرطا ان تكون منقوشة) على اننا لم نجد احدا يظهر لنقش الحية اي التفات خاص.

تهيأ الكهان لاستقبالنا وكانوا ينتظرون زيارتنا هذه فوقفوا عند باب الهيكل. افسحوا لنا السبيل فورا. فنزعنا احذيتنا اولا، ونزع الحذاء هو مجرد مراعاة للاداب السائدة لا كالانحناء في منزل (ريمون Rimmon) اذ جرت العادة في تركيا ان ينزع الداخل غرفة حذاءه قبل ولوجها[14]

ومجموع ابنية الهيكل يتألف من صحنين مقوسين طوليا باقواس ذات نهايات حادة تعلوهما قبة السقف. ان الاثر الهندسي العام يشبه جدا البيعة ذات التصميم الساذج في الجبال بانكلترا مما يعود تأريخه الى اوائل القرن الثالث عشر. والصحنان هما باتجاه الشرق والغرب وربما كان توجيههما هذا مقصودا اذ ان هناك آثاراً معينة من عبادة الشمس ما زالت ساريه في العقيدة اليزيدية. لكننا نرجح ان طبيعة الموقع وظروفه هي التي املت تصميم البناية لان المحاور الاكثر طولا كان يجب ان تسترسل متوازية مع مجرى النهر والتل واكثر من هذا فأن اية اهمية قد تعلق على هذا التدبير لايبقى لها اساس او قيمة من الحقيقة عندما تكتشف ان المحراب لم يثبت في النهاية الشرقية وانما بني في وسط الناحية الشمالية. وهو تصميم متبع كثيرا في معظم البيع الشرقية. مما يدل على ان البنائين لم يتخذوا (الباسيليكا = البيعة) الرومانية نموذجا لهم وانما احتذوا تصميم قاعة العرش الفارسي.

وارضية الصحن الجنوبي هي اوطأ من الصحن الشمالي بثلاث درجات. ويوجد في نهايته الغربية حوض ماء جار مربع الشكل تحت مستوى الارضية وهذا لازم، لان التطهر الديني جزء هام في العبادة اليزيدية. وثم حوض آخر صغير في البناية المربعة. وحوض ثالث (يستمد ماءه في الظاهر من حوض الصحن) تحت الركن الجنوبي الغربي من الهيكل، بمستوى الشرفة السفلى تماما. ويقوم جدار قليل الارتفاع بين اعمدة العقادة ليحمي الفتحات الوسطى من الصحن الاعلى وبهذا يكون غرفة صغيرة اشبه بغرفة العماد امام فتحة الهيكل.

استدرنا نحو اليسار عند بلوغنا النهاية الشرقية. وولجنا بابا في الجدار الشمالي لنجد انفسنا في قاعة مربعة يعلوها اصغر القبتين الهرميتين واكثرهما ميلانا نحو الشرق. ومن هنا

---

13 الفأس هي جزء من شعار (المير) عندما يتهيأ لانجاز المراسيم الدينية بكامل حلته الحبرية. وفي المشط ايضا قوى سحرية معينة كما جاء شرحه في الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب.

14 يخلع المسيحيون هنا نعالهم دائما عندما يدخلون البيعة هنا فضلا من حسر رؤوسهم.

مدبا ادراجنا الى المعبد نفسه. هناك قاعة مربعة اوسع من هذه تقع تحت اكبر القبتين وبهذا يكون موقعها في متنصف حائط الصحن الشمالي[15] وثم ايضا باب منخفض مغلق بمزلاج يمنع من الصحن ليفضي الى الهيكل. ويقوم خلف الفتحة مباشرة نوع من (الفلك) اصغر قليلا من مزار «سان البان»[16] مغطى تماما بقماش احمر. فاقتادنا ادلاؤنا اليه لكنهم طلبوا منا الا نلمسه ولذلك وقفنا حوله واخذنا نحُدّق اليه بمهابة. وسألنا ترجماننا «الشماس ورده السرياني» وهو رجل ملم ومطلع نوعا ما.

ماذا يوجد بداخله؟

وكان بصورة عامة يستخف بالخرافات التي يؤمن بها قومه لكن سيد السحرة الاعظم هذا زعزع ثقته بنفسه واطار ايمانه من راسه فأجبنا وهو يرتعد ارتعادا ظاهريا.

سأخبركم فيما بعد. لا استطيع ان اقوله في هذا المكان.

ولم يقدم لنا التفسير المنشود الا بعد عودتنا الى الصحن المربع سالمين فدنا منا بحذر ووقار متلبدين واسر لنا خائفا:

كان «ملك طاؤوس في ذلك الصندوق الكبير»!!

«ملك طاؤوس» هو كنية اليزيدية لابليس الذي لايشار اليه بهذا الاسم[17] وصورته التي هي على هيئة طاؤوس تعد حرزا مقدسا عند اليزيدية. وفي هذا الحُقّ المكسو بالقماش توجد الصورة الاصلية له.

يوجد سبع صور او «سناجق»[18] في حيازة كهنة اليزيدية ويتم الاحتفاظ بواحد منها في الشيخ آدي دائما. اما البقية فتدور في القرى لتعرض على المؤمنين وتؤخذ منهم اعشار المعبد خلال ذلك[19] وهذه الدورات تنطوي على بعض المخاطر لان الكرد يودون لو وضعوا ايديهم عليها فبهذا يقرنون اللذة والربح بدافع الحمية الدينية. ولعل احد السناجق المنهوبة هو ذلك

---

[15] هناك غرفة اخرى تستخدم مخزنا لزيت مسرجات الهيكل يودي اليها باب من الهيكل نحو الغرب ويغلب على الظن انها قد تكون هي الصحن الاصلي ان اتبعنا خط القبلة الصحيح. ان الصحنين في الناحية الجنوبية اضيفا فيما بعد عندما ادركت الحاجة الى غرف اخرى.

[16] الارجح انه يقصد دير سان البان على نهر ليمانيول في فرنسا (المترجم).

[17] اليزيدية حذرون جدا من هده الجهة حتى انهم يجتنبون نطق كلمات قريبة الصوت بكلمة الشيطان مثل شط (سهم) وقط.

[18] اي علم او لواء او بيرق (المترجم).

[19] وتصلح كذلك لمعالجة مختلف الامراض. فالماء الذي تغسل به هو اكسير ينفع لمعالجة جميع الاسقام.

المعروض في المتحف البريطاني. وربما لو «شعر مارشمعون بان الملك جورج يود ان يقتني واحدا منها فلا شك انه سيسر بتقديم نسخة» فقد شاع وتردد في العام الماضي او قبله بين (التياري) كما ردد الكرد انفسهم مؤكدين انهم نهبوا النسخة الاصلية من المقر العام، اي لما اقتحموا المعبد في العام ١٨٩٢وعاثوا فيه سلبا بتحريض الترك. على ان كهنة اليزيدية يقولون انهم تمكنوا من اخفائه قبل الغزو وان المغيرين لم يجدوا غير تقليد للاصل. ويصر الكرد على انهم اخذوه ويصر الكهنة على تكذيبهم او على ان الغزاة قد سلبوه فعلا. وكلا الزعمين محتمل جدا لايمكن ترجيح احدهما على الاخر. هذا وان النسخ تحفظ في حرز حريز وفي مكان سري بحيث يصعب جدا التثبت من اصالة النسخة او زيفها ولذلك ليس هناك ما يمنع من تصديق اي زعم تختار منهما. ولكن، مع ان (ملك طاؤوس) هو الحارس الاعظم للشيخ آدي، فنحن نحس بأن من وراء وجوده يرتفع ظل حارس اقدم منه عمرا. اذ عندما تركنا اوسع الهيكلين وعدنا الى الهيكل الاشد ميلا الى الشرق اتجه الرابي (القس) مستر ويكرام حالا الى باب صغير منقور في قلب الصخر الاصم وكان احد الكهنة قد زرع نفسه امام ذلك الباب منتفشا منتفخ الجسم في محاولة باسلة منه لاخفاء ذلك الباب. ولما وجد ذلك متعذرا وان الامر افتضح اشار الينا بكل احترام ان نبتعد عنه. انهم أرونا معبد ملك طاؤوس لكن هنا شيء ليس في وسعهم كشفه لنا. ها هنا سر للشيخ آدي يجب ان يظل مكتوما.

ماذا كانوا سيقولون واعجبا؟ لو علموا ان زائراً من زائريهم كان قد دخل فعلا الى «قدس الاقداس» هذا؟ هل سيعدونه نبيا؟ هل سيبطشون به بسبب تدنيسه مقدساتهم؟ هل سيهونون وقع الكارثة عن انفسهم برفضهم تصديق الامر؟ الا اننا آثرنا الكتمان ولم ننه اليهم بالنبأ لكن الحادث وقع فعلا [20] رغم كل هذا. والقصة المتعلقة بالحادث تحتاج الى تفصيل وتفسير.

في العام ١٨٩٢ قدم الموصل وال جديد، مصلح متحمس للاصلاح كثير الحيوية والنشاط يدعى (عثمان بك) ترك هذا الوالي اسطنبول مزودا ببرنامج اصلاحي متطرف، وهذا البرنامج لايختلف عن سائر برامج الاصلاح عادة، وضع بمخطط واسع جدا يدور حول ثلاثة امور: اولها شفاء الاعراب من داء البداوة والتنقل. وثانيها ارغام الكرد على دفع الضرائب المستحقة. ثالثها حمل اليزيدية على نبذ خرافاتهم الجهنمية الكافرة الملحدة. وسمّرته المشكلة الاولى حالا بالارض، فان البدو العرب اسرعوا فورا بالرحيل عنه الى البادية. ونظر اليه الكرد نظرة وعيد حادة لما شرع في تنفيذ المادة الثانية من المنهاج. اما عندما تصدى للمشكلة الثالثة وطلب من

---

[20] عندما زارت السيدة (بادجر) الشيخ آدي اراها الكاهن اليزيدي ما زعم لها انه صورة لملك طاؤوس وكانت بالتاكيد مصباحا برونزيا على هيئة طير اظهروه لها تهدئة للهفتها الشديدة اليه. وعلمنا ان زائراً اخر بعدها رآى فعلا سنجقا من السناجق وصوره فوتوغرافياً.

الكرد التعاون فقد لباه السادة الاغوات بكل سرور وبسرعة البرق ووجدوا الامور محتملة بعد هذا واصبحت الضرائب اخف اعباء على كواهلهم اذا مانظر اليها من جهة علاقتها بحسن الخاتمه لان «الاقناع» بطريقة سليمة بعيدة عن عامل القوة سيجعل لليزيدية القانعين حصة رابحه في الصفقة. ولذلك هوجم اليزيدية المساكين في سائر انحاء الولاية ونهبت اموالهم وسبيت نساؤهم واغتصبن وعذب رجالهم تعذيبا وحشيا وذبحوا ذبح النعاج. وفيما كان جنود الحكومة يعبثون فسادا في قرى السهول. هتكت حرمة الشيخ آدي (وكان حتى ذلك الوقت يتمتع بحصانة من امثال هذه الزيارات العنيفة) ونهبه اغوات الكرد نهبا ثم مرت ست عشرة سنة قبل ان يعود اليزيدية التاعسون الى ديارهم من دار النفي والغربة بعد صدور قانون العفو العام بمناسبة الثورة ورجعوا الى هيكلهم. لذا عندما زار «رابي مستر ويكرام» الموضع ١٩٠٧ وجد ملا مسلما يشغله ويشرف على شؤونه فتركه يلج اي باب شاء هازئا بكل اساطير اليزيدية غير هياب «ولا وجلٍ». فولج هذا الباب الكئيب مُنقّبا فاحصا. واقر الملا المرتاب بعقيدة اليزيدية قائلا انه في الواقع لم «ينزل الى الاسفل هناك» كما انه لم يتوقع ان يرى زائره يخرج منه حيا.

ولسوء الحظ لم يدرك المستكشف آنذاك، اهمية الفرصة النادرة التي سنحت له فلم يمض في استكشافه بعيداً ولم يصل به الى الاعماق. كذلك وجد الموضع يسبح في ظلام مطلق ولم يستعن بغير اعواد الثقاب. وقد بدا له في حينه انه نفذ الى اعماق كهف طبيعي تجري في رحابه جداول من الماء الرقراق. لعله مسقط رأس نبع مقدس يمد بالماء احواض الهيكل فضلا عن كونه المصدر الرئيس لماء النهير الذي يجري في الوادي.

وربما عثرنا ها هنا على مفتاح حل قد يهدينا الى مبدأ عهد تقديس الشيخ (آدي). ويغلب على الظن انه كان اولا مركزا لعبادة (النبع) وهي اول عقيدة دينية معروفة عند البشر. اما (طاووس ملك) فهو اضافة متأخرة على هذه العقيدة الاصيلة. وان اغتصب الان الموضع الاول وصار المعبود الاسمي. ومع هذا فأن عباده يدركون نصف ادراك وجود اله آخر كائن وراء إلاههم هذا. يرى المرء في هذه الاصقاع عشرات من العيون وعشرات من الاشجار التي تنزل منزلة الاحترام سواء في القرى المسيحية او المسلمة وترى احترام الناس لها يشوبه شيء من الخجل والاعتراف بالذنب. اما اتباع الديانات السفلى فأن للخرافات العتيقة مكانتها الثابتة.

ليس لليزيدية دين مفصل حاك نسجه معلم عظيم في اطار محكم متقن. بل كان تراثا مخلفا لمآثر متراكمة عجيبة جمعت معا في نسيج ملون متشابك غريب. والحجر الاساس في عقيدتهم هو تقديم الكفارة لعنصر الشر. وهذا اصلا مفهوم مذهب الثنوية الفارسي الا انهم ادمجوا فيه عبادة الطبيعة التي تعود بقدمها الى قدم البشرية نفسها. عبادة الطبيعة هذه تتمثل في عبادة الينابيع والاشجار والنار وكل الظاهرات السماوية. وبعد هذا طعّمها اهلها بما

لا يحصى من العقائد اليهودية ثم المسيحية ثم الاسلامية ويظهر ان غنوصيا[21] تناول كل هذا المزيج بالاخير وسبكه في قالب يقارب شكله الحالي.

ويظهرون تكريمهم للشيخ شمس الدين (الشمس) في تقبيلهم بقعة الارض التي يقع عليها اول شعاع شمس يوميا وانهم يصلون لها عند مشرقها ومغربها وبتضحية ثيران بيضاء اللون في معبدها ويؤدون فروض عبادة مشابهة تقريبا للقمر ايضا. وهم يدفنون موتاهم دائما بمواجهة نجمة الشمال. ويظهرون احترامهم للينابيع في الاغتسال الذي يرافقه عدد من المراسيم والطقوس. ومنها تعميد الاطفال في حوض الشيخ آدي ويتجلي احترامهم للنار في تحريمهم البصاق عليها. وربما وجدنا اثر عبادة الحية في صورة الافعى السوداء الشهيرة [22]

واخذوا من الفرس عقيدة الخير والشر وربما اخذوا ايضا اعتقادهم بتناسخ الارواح وتعلموا من اليهود تمييز اله الشر (اهريمان) بابليس نفسه. وممارسة عملية الختان وقربان الدم وغيرها من الفروض التي تجدها في شريعة موسى[23]. واحترام مدونات التوراة التي يرونها بمستوى الانجيل والقرآن. وهم يشاركون المسيحيين في اعتقادهم بألوهية منشيء دينهم وان كانوا يعدون (طاؤوس ملك) اعظم الوهية من المسيح ويحترمون علامة الصليب لكن ربما لا بوصفه شعارا مسيحيا، لان استخدام هذه الاشاراة كان سائدا قبل ظهور المسيحية. واستمدوا عقائد اخرى من الدين الاسلامي. فهم يسلمون بنبوّة محمد (ص) وبقدسية مدينة مكة. وانك لتجد آيات قرآنية منقوشة على جدران هيكلهم. وزادوا فزعموا ان نبعهم المقدس يستمد ماءه من بئر زمزم فقد تمكن الشيخ (آدي) باعجوبة ان يحرف ماءه الى موضعه الحالي.

اضيفت اجزاء عديدة من العقيدة الاسلامية الى دينهم العجيب قطعة قطعة وبصورة تدريجية املا في الرضا والتسامح من اسيادهم المسلمين. ان كان هذا املهم فهو عقيم لان احترامهم لابليس الذي لايتحولون عنه هو الكفر الاعظم الذي لا يمكن ان يتسامح به لا المسلمون ولا المسيحيون. لذلك كان حظهم في الدنيا الظلم دائما واقسى انواع الاضطهاد في كثير من الاحيان. ترى كيف يمكن لهذه العقائد الغريبة المركبة ان تمدهم بالمناعة الروحية البطولية؟

ان امكن قياس صحة العقيدة بعدد الشهداء وثباتهم عليها فيجب ان يُمنحوا لهم قصب السبق لانهم مع قلة عددهم -ماضيا وحاضرا- يستطيعون ان يحصوا من الشهداء مئات الالوف. وندر ان جحد اي يزيدي عاقل رشيد دينه سواء تحت وطأة التعذيب او خوفا من

---

[21] اي اهل المعرفة ويعرفون باليونانية Gnostic (المترجم).

[22] يقصد نقش الحية على احد اركان باب هيكل الشيخ آدي كما مر ذكره (المترجم).

[23] لم تكن هذه الطقوس بالاصل من مبتدعات شريعة موسى وربما استمدها اليزيدية رأسا من مصدر اخر اقدم منها.

المرب. وكانت مذبحة ١٨٩٢ اخر حلقة من سلسلة طويلة من قائمة المذابح ومن اخفها. فقبل خمسين سنة منها اخرج كل يزيدية الشيخان من قراهم اثر غارة وحشية شنها عليهم امير راندوز فتوجهوا الى الموصل هاربين من بطشه. فقطع عليهم طريق الهزيمة طغيان ماء دجلة فادركهم مطاردوهم وذبحوا منهم عدة الآف في خرائب نينوى فوق تلها الرئيس الذي كان سحاريب قد شيد عليه قصره. فصار التل منذ ذلك اليوم يعرف بالاسم المشؤوم (تل قوينجق) اي تل مجزرة الغنم. حتى سنجار نفسها فأنها لم تكن ملجأ مأمونا لهم وان كان الضغط عليهم فيها اقل من غيرها نوعا ما. وتعود حكايات المذابح الاخرى الى اول مستهل تأريخهم.

على ان هذه الطائفة بقيت حية تجتذب المهتدين اليها بين الفينة والفينة! وهذا اعجب ما في الامر نحن نفهم السبب مثلا في اهتداء المسيحي الى الدين الاسلامي لانه على الاقل يؤمن لنفسه طريق التقدم في الحياة ان لم يكن لرغبة صادقة. لكن اية فائدة ملموسة يجنيها المرء من اعتناقه الدين اليزيدي الا اذا كان قد سئم من الحياة وصبت نفسه الى الانتحار.

في الآونة الاخيرة منح اليزيدية امتيازا عجيبا. فقد اعفوا من الخدمة العسكرية الاجبارية. وهو العفو الذي يصبو اليه بقية الكرد والمسيحيين على السواء. ولم يكن هذا العفو من قبيل العطف عليهم بل اراحة للجيش منهم وحرصا على ضبطه لان المسلم معتاد التعوذ بالله من ابليس عشر مرات على الاقل يوميا واليزيدي الذي يسمع هذا «الكفر» ليس له الا ان يختار احد امرين اما ان يقتل الكافر او يقتل نفسه.

ان (القرآن) يقيم حداً بيناً بين اهل الكتاب الذين لا يعترفون بالدين الاسلامي وبين الآخرين الذين ليسوا من اهل الكتاب، بين المسيحيين واليهود الذين يتبعون وحيا مكتوبا منزلا، وبين المشركين الذين يتبعون عبادة تقليد فقط -فالاولون يخضعون للجزية والآخرون يجب القضاء عليهم واستئصال شأفتهم.

على ان اليزيدية هم في الواقع من «اهل الكتاب» ايضا وان كانت هذه الحقيقة لا تخفف من جريرة عبادتهم لابليس. وقد ظلوا فترة طويلة من الزمن يحرصون على اسرار كتبهم ويتقبلون في سبيل هذا الحرص انواع الاضطهاد والتعذيب على افتراض انهم لايملكون كتابا. في حين ان لديهم كتابين مقدسين هما الكتاب الاسود «مصحف ره ش»[24] الذي يعود تاريخه الى حوالي القرن العاشر. وكتاب «الجلوة» الذي يعود تاريخه الى حوالي القرن الثالث عشر ومن هذين الكتابين يمكننا ان نستخلص بعض المعلومات الاساسية عن معتقداتهم.

يؤمن اليزيدية بالكائن الاعلى «يزدان» الذي يسمو على الكل، لكنهم لايعبدونه. انه رب

---

[24] اطلق عليه هذا الاسم لان لفظة (الشيطان) كانت مذكورة في سطوره. ثم انها رمجت منه فيما بعد.

السمـاء فحسب والارض لاتدخل ضـمن دائره نفوذه او مملكتـه، ومن اسمه اشتقوا اسم طائفتهم اليزيدية على اصوب الاحتمالات وارجحها مع ان المسلمين (او الشيعة على الاقل) يزعمون بان الاسم هو نسبة الى يزيد بن معاوية قاتل الحسين، وهم بهذا يستحدثون سببا اخر ومبررا من مبررات اضطهادهم[25]

ومن (يزدان) انبثقت ارواح سبع. اولها واعظمها شأنا واقواها بلا منازع (ملك طاؤوس) واليه يعزى خلق الارض التي سيدوم حكمه عليها عشرة آلاف سنة والباقي من هذه المدة الان اربعة الاف فقط. و (ملك طاؤوس) هو روح شريرة ساقطة لكن سقوطه ليس نهائيا غير قابل للاصلاح وانما هو اشبه بـ (ابشالوم)[26] سماوي، قاس طاغية جموح لايخضع لحكم. لكنه ضامن رد حقوقه اليه في اخر الامر. «اما سيأتي الزمن الذي سيعود فيه رئيس جميع الملائكة الى مقامه الاول ومركزه من الرفعة والسلطان؟ وعندئذ، سيكون برا باليزيدية البائسين الذين ظلوا وحدهم دون سائر سكان الارض لايلعنونه وهو ملطخ بعاره؟»

في هذه الصورة صورة ابليس العائد الى طريق الخير، شيء من الطرافة لا يخفى على القارىء، تراها ما زالت مشوبة بضغن طفيف ضد اولئك الذين احتقروه ولعنوه في ابان ضلالته!.

و(ملك عيسى) هو ثاني الارواح العظمى، وسيحكم هو الاخر عشرة الاف سنة بعد انتهاء حكم (ملك طاووس). وهم يؤمنون بقصة تجسده وآلامه كما وردت في الاسفار الانجيلية. لكنهم يزعمون ان مجيئه كان سابقا لاوانه وانه فشل في كسر شوكة قوى الشر. وهو على كل حال لم يمت مصلوبا لان (ملك طاؤوس) اختطفه وترك مكانه طيفا[27] من الاطياف.

وينزل اليزيدية (ملك عيسى) المنزلة الثانية بعد (ملك طاووس) في العبادة. ويقولون ان حكمه لم يأت بعد ولما كان روح خير، فهو ليس قويا كالشر. ولذلك يضحون له بنعجة واحدة

---

[25] من المحتمل ان زمانا مر باليزيدية وجدوا فيه من مصلحتهم ان يشجعوا مثل هذا الوهم. فاسم (يزيد) طوال وجود الامويين في الحكم كان حصانة لهم يعينهم على التغاضي عنهم.

[26] هو ابن داود النبي وأخ سليمان الملك الحكيم العبراني وقد جاء في التوراة أنه أحب الاستئثار بالملك فثار على أبيه في شيخوخته يريد انتزاع الملك لنفسه وكان مطمئناً الى أن محبة أبيه له ستنقذ حياته اذا فشلت ثورته (المترجم).

[27] في الاسطورة اليزيدية التالية نجد التفسير الرسمي لتمثيل (ملك طاؤوس) بصورة الطاووس: عندما جاءت المريمات الى قبر المسيح في اليوم التالي ولم يجدن جسده ظهر لهن ملك طاووس بهيئة درويش وابلغهن بما يفعل ولاجل ان يبدد شكوكهن في روايته هذه، اخذ ديكا كان قد ذبحه فطبخه ثم قطع اجزاءه ثم اعاده الى الحياة امامهن وقال انه يريد من الان فصاعدا ان يعبد على اجمل الصور وغاب عن انظارهن. هذا وان تصوير الالهة على شكل طيور هو امر شائع مألوف في بلاد بابل القديمة.

في عـيدهم الاكبـر بينمـا يضحـون بسبع نعـاج (لملك طاؤوس)، وملك عـيسى رحـوم بطيء الغضب عظيم الشفقة بعكس (ملك طاؤوس) فهو اله غيور سريع العقاب.

و(الشيخ آدي) هو شخصية شبه خرافية. يمكن اعتباره نبي اليزيدية وتقترن هويته احيانا بـ(مارأدي). اي القديس (ثداوس) رسول المسيحية الى الشرق لكن هناك شواهد تاريخية تثبت ان هذا الشيخ عاش في القرن العاشر الميلادي. وكان بالاصل صوفيا هرب من حلب عندما اعلنت الحرب على جماعة الصوفية وطوردوا. ومن يدري فلعله مؤلف كتابيهما المقدسين؟ ولقد قيل بانه اول من علم التلاميذ الطريقة. وتنزله واحدة من العقائد اليزيدية منزلة الالوهية ويزعمون انه سيحمل في يوم الحشر كل قومهم من طبق فوق رأسه وبهذه الوسيلة يدخلهم الجنة اذ انهم سيمرون فورا دون سؤال او جواب. على انه بحسب عقيدة اخرى لهم، مجرد انسان من البشر عانى في حياته الانسانية تجربة قاسية من الهه العجيب. ففي اثناء ما كان الشيخ يؤدي فريضة الحج بمكة، تقمصه (ملك طاؤوس)وهو جالس بين تلاميذه فعاش بينهم وعلمهم واخيرا صعد الى السماء امام انظارهم. اما الشيخ (عدي) المسكين فقد قتل حال عودته من الحج باعتباره كاذبا دعيا يخدع الناس. وبعد قتله ظهر (ملك طاؤوس) وكشف الامر لهم والحيلة التي لعبها على شيخهم وامر ان يكرم هذا المظلوم ويتعبد له. فعد منذ ذلك الحين نبيا من الانبياء.

لليزيدية نظام كهنوت منتظم على سبع درجات، وهم يعيدون عيدا كبيرا سنويا في مزار الشيخ (آدي) خلال شهر تشرين الاول ويدوم ثمانية ايام متواصلة. ويحضره كل يزيدي قادر على الحضور. وكان (لايارد) قد حضر عيدين منهما وشارك في اللهو والمرح. لكن لم يسمح لاحد من غير اليزيدية حتى الساعة بمشاهدة المراسيم التي تجرى داخل المعبد نفسه. والحج الى هذا المزار فريضة واجبة على كل يزيدي ولكنه لا يطلب منه الصلاة ويترك هذا الواجب للكاهن الذي ينتسب له. ويجوز الصيام ايضا بالنيابة فيمكن ان يقوم جماعة من اليزيدية باختيار واحد منهم يقضي عنهم كل صيامهم ويعترفون له بكل الافعال التي تجب عليها الكفارة ويدفع له اجر عن كل شخص لقاء حمله كل تبعات الغفران عنه.

واليزيدي يفهم جيدا تبعات اليمين وثقله. لكن حلفه يجب ان يتم بالطريقة الصحيحة. وباحتمال ان يتقدم شاهد يزيدي لاداء اليمين في محاكمنا الانكليزية ارى من المناسب ايراد وصف دقيق لكيفيته: ترسم دائرة في الارض حول حالف اليمين ويقال له «كل ما بداخل هذه الدائرة هو للملك طاووس والآن اعط جوابا كاذبا ان تجاسرت». وقد يفكر المرء ان الكذب عند «ابي الاكاذيب!» ومصدرها، شيء طريف جدا. لكن عندما يجد الجد وتوضع الامور على المحك تجد المسألة مختلفة اختلافا بينا على وجه التأكيد. ولذلك لك ان تستنتج ان امير

الظلام هو «جنتلمان» بحق وحقيق.

وترى الزي الغالب عند الرجال يتألف من رداء ابيض وسروال وسترة وقلنسوة حمراء وحزام. وترتدي النسوة الزي نفسه. خلا ان الثوب اطول وقد يصل الى الكاحل ويرتدين ايضا عباءة حمراء طولانية مشدودة بأعلى الكتف الايسر حتى ما تحت الابط الايمن.

تركنا الشيخ (آدي) واليوم لم يكد يتنصّف ورافقنا رئيسه الشاب القيم عليه حتى بابه لتوديعنا. ولم يقبل منا اجرا على مبيتنا وطعامنا قائلا انها سنة المشرفين على ادارة المعبد ان يبقوا الباب مفتوحا في وجوه الزائرين [28] الا انه اكراما لخاطرنا لا يرفض الهدية التي نقدمها له على «سبيل العوض». وسرنا في ممر شديد الانحدار والوعورة وصعدنا جرفا تاركين المضيق حتى بلغنا قمة النجد المقابل. ومن اعلى نقطة فيه تزودنا بالنظرة الاخيرة من بيت الاشباح هذا Hoodoo House غير المقدس. كتحلت اعيننا للمرة الاخيرة بسهول الموصل الجنوبية الشبية بالبحر المحيط.

بعد ان غصنا في اعماق عالم ابليس قررنا تتويج استهتارنا هذا بزيارة رئيس الاحبار «علي بك» امير اليزيدية الذي يقع منزله على طريقنا وافضى بنا هبوط اشد وعورة من صعودنا، الى نجد من الارض تبتديء الجبال منه بالارتفاع وَهْناً على قمة ناتئة في ارض سهلة منخفضة قليلا. وصلنا الى قلعة (المير) وهي بيت واسع محصن ذو صحن مسور من كل جهاته وكان مجرى ماء غير لطيف يصدر من عين فوقه تماما ويدور بقاعدة التل الذي تقوم فوقه القلعة وعلى ضفتي المجرى تجثم قرية باعذري اليزيدية وهي احدى مرابعهم الرئيسة في منطقة الشيخان.

ويظهر ان القلعة جيدة الحراسة. اذ رأينا عددا كبيرا من الرجال عندما ترجلنا في الباحة. الا انها مبنية بالحجر والجص وكانت الشقوق في جدران غرفة استقبال المير تحتاج الى اصلاح عاجل.

و(الديواخانة) قاعة واسعة معقودة. وجدرانها المطلية بالنورة البيضاء مخدوشة في كل موضع منها برسوم قاتمة ساذجة غليظة لبواخر ومحركات ومكائن قطار كأن زوار الامير كانوا يحاولون ان يفسروا له كنه هذه المخلوقات الجبارة. موفرين عليه عناء سفرة قد تستغرق عشرة ايام. وكانت القاعة عند ولوجنا خالية، الا ان (المير) دخل حالا واستدنانا فجلسنا على متكأ

---

[28] ان واجب الضيافة امر لابد منه على كل الديارات في الشرق. وكثيرا ماكانت هذه الواجبات تورث ميراثا للمواضع المتخلفة مكان تلك الديارات المهجورة فيقوم شاغلوها المتأخّرون بواجب الضيافة وهكذا.

في الصدر. ان الكاهن الاعلى للاله الابليسى شديد التشيع للانكليز[29]. وهي حقيقة ذات دلالة ومغزى عند اصدقائنا سكان القارة الريفيين، وتصله صداقة تقليدية وثيقة بمار شمعون حاثاليق النساطرة المسيحيين. اذ مع ان المسيحيين يشمئزون من (عبدة ابليس) فقد تنامى بين الملتين عطف متبادل شد عراه الاضطهاد المشترك.

يميل جسم (علي بك) الى الضخامة شأن كل سكان الجبال. وربما بلغ طوله ست اقدام. وعمره يناهز خمسة واربعين عاما تقريبا وكان مشتملا بعباءة بنية داكنة مطرزة الحلق بخيوط دهبية. الا اننا لم نتبين من ملامحه الا القليل اذ كان قد لف وجهه بخمار من طيات عمامته اليزيدية الحمراء. وليس هذا مما يمكن رده الى رغبة منه لتقليد النبي الخراساني (المقنّع) بل لانه كان يشكو من برد لا غير. وهي الوعكة التي امسكته عن سفرة نواها الى الموصل. وكان يبدو لنا منقبض النفس سوداوي المزاج وهو مما يناسب زعيم شعب مضطهد. ولعل بعض هذه السويداء تعود الى البرد اذا توخينا سطحية الحكم.

كان يقوم بين يديه شيخ يزيدي وسيم جدا ذو لحية سوداء طويلة وعمامة بيضاء وثوب وعباءة ذات لون رمادي خفيف. ان الشيوخ هم الطبقة الكهنوتية التي تلي المير في النظام الحبري اليزيدي. اما (القوالون) او الكهنة فهم الطبقة الثالثة، يليهم على التوالي طبقات (الپير) و(الكوچك) و(الفقير) و(الملا). وهم مختصون بمراسيم اخرى اقل شأنا.

و (المير) في الواقع هو مثل خليفة المسلمين في ملته. مطلق الحكم في الامور الدينية والدنيوية معا وهو يجمع بين صفتي الپاپا والامبراطور الى حد ما. وليس ثم احد من اليزيدية يحلم في التمرد على امره او الجهر بشكوى ضده الى الحكومة فالمير معصوم من الخطأ وكل مقتنيات رعيته ملك مباح له. فلو اراد امرأة لما حال احد بينه وبينها. واذا فتك بأحد لايجد من يعترضه اذ ان القتل بيد المير يعتبر تقديسا للقتيل واضفاء لصفة الصلاح عليه مما يضمن لروحه دخول الجنة فورا. فأي قتيل يحتج على مثل هذه الشروط السخية؟ ومنصب المير وراثي كسائر المناصب المشابهة له في هذه البلاد. لان فكرة تسلسل صفة القداسة والبركة في افراد الاسرة المعينة الواحدة امر مألوف عند الكرد مسلميهم ومسيحييهم ويقوم (شيخ بارزان وشيخ نهري) مثلا للاولى (والمار شمعون) يقوم مثلا للثانية.. واظن ان التطبيق هو على الاقل لسابقة محتومة. واقصد به «بيت هارون اليهودي»[30].

---

[29] من ايام (ايلچى) الكبير فصاعدا. اعتاد سفراء الانكليز التدخل احيانا وبشيء من النجاح لصالح اليزيدية المضطهدين، وهذا مايفسر امتنانهم للشعب الانكليزي.

[30] الحق الالهي هو مبدأ معترف به في الشرق. اذ سرعان ما اصبحت الخلافة الاسلامية وراثية رغم ان الاوائل حاولوا جهدهم ان تكون بطريقة الانتخاب. والى الان قد يخلع السلطان في اسطنبول او يقتل لكن خلفه يجب ان يكون من آل عثمان.

منذ زيارتنا كان علي بك (ميتا!). ميتا موتا طبيعيا، وهو ما يمكن اطلاقه بالنسبة الى مير اليزيدية هذا. وذلك لانه (قُتل) منذ زمن بعيد بيد خليفته، كأي ملك من ملوك ايرلندا الغابرين. ان مجرد الاشارة الى خروج التعاقب الوراثي من دائرة الاسرة يعتبر كفرا ومروقا من الدين. لكن الوارث الشرعي يجب ان يستعجل في تسنمه المنصب. وهذا هو الجانب العكسي من اللعبة. وهي ايضا لعبة رياضية (سپورت) اذ لو فشل المغامر لقتل شر قتلة لاتيانه بعمل آثم لا يدانى. اما اذا نجح فهو (المير) بكل ما للمير من حصانة. وسلفه يصعد الى الجنة اما هو فيحكم حكما مطلقا بدلا عنه.

لذلك كان (المير) بحاجة دائمة الى الحيطة واليقظة والحذر من خلفائه المحتملين. وكان عليه ان يبقيهم بعيدين عنه بمسافة باع. لكن الوارث هذه المرة هو ابن اخي المير الحالي[31] اتخذ الحيطة من جانبه فهرب الى ما وراء الحدود الروسية متربصا منتظرا فرصته. وفي الصيف الذي عقب زيارتنا تسلل عائدا من منفاه واسعده الحظ في مهمته وسقط المير قتيلا بيده. والآن يوجد مير اخر هو الحاكم الشرعي لسائر اليزيدية لا احد يماري في شرعيته وسلطانه حتى نهاية حكمه.

ودعنا (علي بك) عند باب ديواخانته وليس في ذهننا شيء عن المأساة القادمة التي تنتظره. وقد تذوقنا كرم ضيافته وتبادلنا النيات الطيبة والتمنيات الخالصة ورافقنا احد فرسانه الى نقطة تبعد ميلا واحدا عن القلعة ومن ثم استرسلنا في الطريق الذي عاد بنا الى الموصل.

ختمنا زيارتنا الشنعاء بالمبيت في قرية يزيدية لان الرحلة الى الموصل طويلة لايمكن قطعها في يوم واحد. وقد اتضحت لنا حقيقة العلاقات بين (المؤمنين الحقيقيين) وبين (عبدة ابليس) بشكل عمليّ عندما بدأنا بطلب الخبز. فنفى مضيفنا وجود كسرة منه في القرية نفيا باتا حتى اقنعناه بعد مجهود كبير اننا مستعدون للدفع. ويظهر ان دفع اي مال لليزيدية امر غير مألوف وهو عمل آثم ومن ثم قد يرقى الى مرتبة الخطيئة. واتانا منظر النقود برزق كثير الا ان المنظر نفسه افسد مضيفنا العابس فراح يشعر بالاهانة والحرج لاننا لم ندعه للاكل معنا[32] وهكذا وجدنا اليزيدي بالطبيعة مثل ايتام الملاجىء يحبون المناكدة. ولا شك ان شيئا قليلا من الفظاظة ضروري لكبحهم.

واتضحت لنا ثمرة خطيئتنا خلال ايام ثلاثة تالية بعد فترة قصيرة من الوقت. فقد وجدنا

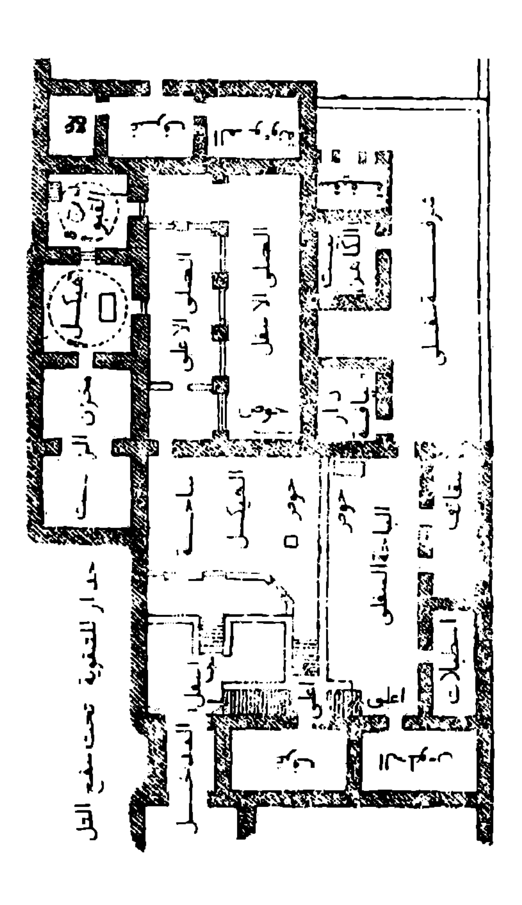
---

31 وهو ليس ابن العم الذي لقيناه في مزار الشيخ عدي.

32 في الواقع هذا مجرد تعال وكنا نظن التعالي مجرد تظاهر عند الكرد وهو في الواقع طبع.

اثنين من حراسنا (المصيبة انهما مسلمان!) عاكفين على شرب العرق[33] احتفاء بعودتهما الى الموصل. وعندما اخذنا نؤنبهما اعتذرا لنفسيهما بالقول:

- هذا كله من خطئكم (يا افندم) فانتم افسدتم روحنا الطاهرة بأخذنا الى مسكن ابليس. وهذه المصيبة حلت بنا جراء ذلك، لقد لمسنا القار الاسود فتلوثنا.



معبد اليزيدية في الشيخ عادي (الدي)

---

١١ ن مراب كحولي محلي يشبه الانيسي.

6

قدمات الجبال

الربان هرمزد باقيان

عقرة

قد يسافر المرء الى حلب بالقطار. ويبلغ الموصل بالمركبة. على ان من يريد المضي في رحلته قدما ان يتخذ وسائل اكثر بساطة من هذه، اذ ليس بالامكان النفوذ الى هضاب كردستان بعجلات وان رحالة الالف التاسعة عشرة بعد الميلاد وارث ماسلف من العصور لن يجد نفسه هنا في حال افضل من حال اسلافه في العام ١١٠ ق.م. اولئك الذين كتبوا بيد ملكهم العظيم على الواح الصوان التي لا يدركها البلى.

«انا تغلات بيلاصر. اضطررت الى السير ماشيا!»

ولهذا فقد طرأ تبديل تام على اشخاص تمثيلتنا في الموصل اذ أُرفِق بنا اثنان جدد من الضبطية. وقمنا بشد امتعتنا على البغال بالحبال واتخذنا لركوبنا خيلا مسرجة او افراسا صغيرة الجرم لا ترتفع عن الارض اكثر من اربعة عشر شبرا.

ويستأهل مرافقا الرحلة فقرة في كتابنا هذا، فهما يمثلان شعبا لم نذكر عنه حتى الان الا القليل في حين اننا ادخرنا له الكثير في الفصول التالية. كان(عزيز ويوحنا) من الاثوريين انحدرا من الجبال انتظارا لوصولنا الموصل وكلاهما في حدود الخامسة والعشرين يرتديان زي الكرد الجبلي وهما متشربان بروح الاستخفاف التي تجدها في طبيعة سكان الجبال ازاء سكان المدن والسهول. وليس ثم ما يفرق بينهما وبين الكرد الذين يشاطرونهم العيش. الا ان لغة تخاطبهم هي من جذر يختلف عن جذر اللغة الكردية فهذه اخت الفارسية اي آرية. لكن السريانية لغة سامية وهي اللهجة الحديثة الاقرب من غيرها الى اللغة الآرامية التي كانت لغة التخاطب في فلسطين اثناء حياة السيد المسيح. وتؤكد اخبارهم المتواترة (وفي احيان كثيرة تعزز اقوالهم هذه سيماء وجوههم تعزيزا قويا)[1] انهم يتصلون بالآشوريين القدماء نسبا. بعضهم يؤكد بذلاقة لسان وبكل بساطة ان اسرته من صلب (نبوخذنصر!). فاذا صح زعم اهل (ويلز) بأن ثأرات الدم القبلية هي من اهم العوامل لبقاء السلالات، فلا شك ان لهؤلاء كل المبررات لبقاء انسابهم واضحة هكذا حتى الوقت الحاضر!

وكلا الرجلين نصراني بل وهما في مرتبة الشمامسة على المذهب السرياني الشرقي القديم المعروف بالبيعة النسطورية. الا ان الشمامسة الاثوريين وان كانوا يُرسمون بشكل اصولي، لا يشترط فيهم ان يتفرغوا الى الواجبات الاكليريكية وإنْ اصابوا شيئا من العلم والتدريب حتما. وربما كانوا يعرفون القراءة والكتابة كما عرفها شماسانا المرافقان.

---

[1] تأمل مثلا الرأس المثبت في اول الكتاب وهو رسم القس الاثوري المرحوم (خوشابا) الذي ربما كان تقمصا لـ (سرجون).

والزي الجبلي المعتاد هو سترة كالصدار تلبس فوق قميص واسع وسروال عريض جدا يخرط بهوة حتى يُزمّ فوق الخصر النحيف. وعند نقطة التقاء السروال بالصدار يشد حزام عريض جدا. والقماش عادة هو نسيج صوفي خشن شبيه بقماش (ايزابللا الملون) عندنا. وهو مخطط بخطوط متباعدة حمراء او زرقاء رفيعة اما الاخضر فأقل الالوان استعمالا لانه اللون الخاص بالنبي الكذاب. لكن عندما يكون اللون العام هو الاحمر فانه قد يخطط احيانا بالاخضر وهي خطوط عمودية في كل من السترة والسروال. وافقية في الاكمام فقط. على ان هذه الحلة كثيرا ما تكون مهلهلة ممتلئة بالرقع بحيث يصعب على الفاحص ان يعرف كم تبقى من القماش الاصلي. اما غطاء الرأس فهو قلنسوة[2] مخروطية من اللباد تشد فوقها عمةٌ في اكثر الاحيان. والنصف الامامي من الرأس يحلق. ورجال قبائل التياري يجدلون شعر قذالهم بجديلتين قصيرتين تنوسان على طرفي الرأس من الخلف. وهم يضعون في احزمتهم عادة خنجرا او مسدسا عندما يكون الفرد منهم في مسكنه بالجبال. وفي احيان كثيرة يعلقون على اكتافهم بندقية عتيقة الطراز اثرية.

وهذا هو الزي الكردي بالذات. الا ان سلاح الكرد اكثر بكثير وهو عادة احدث طرازا. وهذا هو الفرق الوحيد الذي يتميز به الكردي عن المسيحي الجبلي على ان هناك عنجهية ونفرة بطبع نفس الكردي تكشف عن كرديته.

والشخص الثالث الذي رافقنا. هو (الربان ورده) وكان رئيسا لاركاننا. وهو شماس كالاخرين لكنه يكنى بالربان لانه ينتمي الى رهبانية غريبة في نظامها ما زالت سائدة في البلاد المسيحية الشرقية تستغرب من بعض مظاهرها رهبانيات الغرب. فالربان والربانة (هناك عدد قليل من النسوة ايضا) ينذرون التبتل وتحريم استعمال الموس[3] والامتناع البات عن اكل اللحم. الا انهم لا يعيشون جماعات في اديرة ولايتبعون سننا او انظمة معينة. وهم باستثناء المحرمات الثلاثة التي ذكرناها تراهم يعيشون كما يعيش سائر الناس. ومن هؤلاء الرهانين يتم اختيار الكهنة الاثوريين. فهنالك تقليد قديم هو ان (الاباء) اي المطارنة يجب ان يكونوا عزابا متبتلين. على ان (القاشا) اي القس يتزوج دائما.

وملامح (الربان ورده) هي صورة طبق الاصل من (سانشوپانزا Sancho Panza)[4] الخالد الذكر وكان يرتدي فوق سرواله القرمزي الواسع، سترة اوروبية سوداء طويلة الذيل ويعلو رأسه طربوش احمر. لكن ينبغي ان لا تقاس قيمته بمظهره الخارجي الذي لا يدل على مخبره. ومع ان

---

[2] هذه القلانس تشبه تماما اشكال القلانس التي نجدها في المنحوتات الاشورية.

[3] الرجل الحليق الوجه تماما يعتبر في الشرق خنوثةً. ولاجل التخلص من الملام والانتقاد فعلى المرء ان يربي له شاربا على الاقل. هذا والمدنيون كثيرا ما يحلقون شواربهم ولحاهم لكن المطران والقس لا يحلق قط. وحلاقة واحد منهما يعد عملا فاضحا مساويا لنزع الثوب الكهنوتي.

[4] هي الشخصية الفكاهية الثانية في قصة (دون كيخوت) الشهيرة للقصصي الاسپاني سرفانتيس (المترجم).

آرا ءه في القرن العشرين مشوبة بسذاجة وقصر نظر الا انه في بيئتـه (القرون الوسطى) يعد ذكيا ومرافقا اهلا للاعتماد والثقة التامة.

في الواقع ان الرحلة الى الجبال تنقلنا الى القرون الوسطى او على الاقل الى جبال اسكتلندا كما كانت قبل مائتي عام. لهذا فان المشاعر التي اعتملت في نفس (بيلي نيكول جارفيBaily Nicol Jarvie) عند رحلته الى قبائل اللينوكس Lennox[5] هي كالمشاعر التي تصطخب في نفس الجوال في جبال حكاري اليوم.

عبرنا جسر الموصل الخشبي واجتزنا السهول الرسوبية الواسعة التي تكونت من مجاري دجلة القديمة واخذنا نرتقي مرة اخرى النجاد والهضاب وهي تطرد في الارتفاع وتمتد حتى الجبال المتوجة ذراها بالثلوج تلوح على طول خط الافق شمالا، وتركنا على يسارنا البقعة الواسعة التي كانت تحتضن موقع مدينة (سميراميس) والتلال التي تغطي تلك الاسوار المنيعة حيث نشر الفاتحون الاشوريون عليها جلود الملوك المسلوخة بعد اسرهم، وقطعنا عدة اميال قبل ان نترك موقع نينوى القديمة لان الارض التي تقع ضمن الاسوار لا تؤلف الا نواة المدينة الداخلي فالبساتين العظيمة والحدائق الجميلة والقصور والخمائل المماثلة لما تجد في (وان) مدينة البساتين اليوم كانت كلها خارج نينوى. وربما شملت نينوى العظمى قصور (خرصباد:خسروآباد) شمالا ومعابد نمرود جنوبا. وهذا يفسر عبارة «مدينة عظيمة تقع بمسيرة ثلاثة ايام من نهاية الى نهاية» وردت على لسان النبي يونان (اعنى ان قطرها يقارب من ستين ميلا)[6].

كان القضاء على هذه العاصمة الضخمة كارثة من اهول الكوارث في تواريخ الامم. ونحن نملك ادق التفاصيل التي دونت عن حياتها حتى اخر ساعة من ساعات احتضارها. هذه المدونات تكشف لنا عن فتوحاتها المستمرة وبناء قصور ملوكها. وبعد ذلك كله يسود صمت فجائي عميق فلا تسمع شيئا عنها خلال خمسين سنة. ولما واصلت مدونات جديدة تسجل وقائع المدينة فانها كانت مكتوبة بلغة اخرى واحرف اخرى وهي تتحدث عن مدن وشعوب لم يسبق ذكرها من قبل. وهكذا تلاشت نينوى تماما. وبعد مائتي سنة تقريبا من سقوطها، سار جيش (گزينفون) على اديمها بالضبط دون ان يفكر بتسجيل اسم لخرائبها. وزحفت جيوش اخرى غير جيش (گزينفون) واشتبكت بمعارك فوق خرائبها. ففي العام ٣٣١ ق.م واجه

---

[5] اقليم من اقاليم اسكتلندا جبلي الطابع(المترجم).

[6] يرى گيبون ان «الستين الفا الذين لا يميزون بين اذرعتهم اليمنى واليسرى» انما يقصد به الاطفال فقط ولهذا فهو يقدر مجموع السكان العام الالذي كان يسكن نينوى بسبعمائة الف. اما اذا وضعنا الموصل اساسا للتقدير فلنا القول ان نينوى كانت تضم بين اسوارها ما يناهز مائة وخمسين ألفاً.

الاسكندر الكبير جيش (داريوس) اللجب في قرية (گوگميلا Gaugamela)[7] في الزاوية المحصرة بين نهري دجلة والزاب. كانت تلك المعركة الحاسمة التي ستقرر مصير امبراطورية اسيا ان الانتصار الساحق الذي احرزه الاسكندر وضع كل بلاد الفرس تحت قدميه. وكانت (گوگميلا) واقعة في متنصّف الطريق بين (نينوى) و(اربيلا) اي اربيل التي كانت تبعد زهاء ثلاثين ميلا عن ساحة المعركة على الجانب الايسر من الزاب. على ان (داريوس) كان قد كدس كل متاعه وكنوزه واثقاله حوالي (اربيل) ولما راح الجيش المنتصر يطارد فلول الجيش المنكسر مندفقا نحو مواضع الغنائم منحت (اربيل) اسمها لتلك المعركة الفاصلة ولم تسم بمعركة نينوى.

وهنا ايضا فوق ارض نينوى بالذات، جرت في حدود العام ٦٢٧م اخر موقعة من سلسلة الحروب الطويلة بين الساسانيين الفرس والرومان البيزنطيين. فقبل خمس سنوات من هذا التاريخ طورد هرقل امبراطور البيزنطيين حتى اسوار القسطنطينية. ثم تسلل من ملاذه الاخير هذا تسللا، وفي شمال سورية قام ببناء جيش عقد عليه اخر آماله. وظل خمسة ايام بلياليها يزحف ويحارب بين جبال ارمينيا يضرب يمينا ويضرب شمالا - بحساب لا يخطيء وبنجاح متواصل- كل الجيوش التي كانت تناوشه القتال او تتعرض لمسيرته من اي جانب عَنّت. واخيرا وقع (كسرى ابرويزChosroes) نفسه في الفخ بدوره في ارض نينوى. عبأ مقاتليه في نسق المعركة وقيل ان تعدادهم بلغ نصف مليون. وقاتل العاهل البيزنطي الفرس قتال المستميت «وكان اسهل عليه قتلهم من هزمهم». لكن البراعة وحسن حظ الامبراطور اعاناه على خصمه وبطش هو نفسه بـ (رازاطا)[8] القائد العام الفارسي في مبارزة منفردة جرت لكليهما في الارض التي تفصل بين الجيشين قبل خوض المعركة، وتم سحق قوات (كسرى)، الا ان الرومان لم يكونوا بأقل ارهاقا من الفرس جراء هذا النزاع الطويل. وفي غضون بضع سنوات تقوضت أركان الامبراطوريتين بذلك الاندفاع الاسلامي العظيم[9].

لو ان المرء تطلع بعين الطير من فوق الجبال نحو السهل لبدت له الارض على مستوى واحد مطلق باستثناء نجد (جبل مقلوب) الذي يرتفع مثل جزيرة وسط ماء مستو. على انه في الواقع سلسلة من التلال والكهوف ووديان حافلة بالمستنقعات[10] تعترض اراضي مروزعة

---

[7] وهي على ما يثبته المورخون اليوم قرية كرمليس الحالية الواقعة جنوب شرقي الموصل بحوالي ٢٧ كيلو متر الآ ان ساحة المعركة الحقيقية جرت بالقرب من نهر الگومل الى الشمال قليلاً بحسب ما اثبته المؤرخون. لا كما قدره بلوتارك وهو المرجع الذي استند اليه المؤلفان (المترجم).

[8] كان (كسرى) قد ارسله مزودا بأمر واضح «ان لم تتمكن من النصر فبأمكانك ان تموت».

[9] وعلى الاديم نفسه جرت في العام(٧٥٠) المعركة التي نقلت الخلافة من البيت الاموي الى البيت العباسي. هناك قليل من البقاع في العالم كهذه البقعة شاهدت ثلاثة ايام فاصلة من ايام التاريخ.

[10] واحد من هذه الوديان الموحلة يعرف موقعيا باسم (جب سليمان)، وتقول الحكاية المتصلة به ان هذه الملك الحكيم حبس هنا الجن الذي تمرد على طاعته بان دقهم في الطين كما تدقّ الأوتاد.

منسقة كما يبدو للرحّالة الجوال. ومررنا بعدة قرى كبيرة الحجم مثل(تلكيف وتللسقف) وكل واحدة منهما كما يدل عليه اسمهما تتحلق قاعدة تل عتيق. وبعد رحلة يوم طويلة (قطعناها على سير البغال وهو ابطأ من المسير الاعتيادي) بلغنا بليدة (القوش) وتقع عند قاعدة الجبال.

نظرة واحدة الى الخريطة. توضح كم هو صعب تعيين النقطة المضبوطة لنهاية الارض السهلة وبداية الارض الجبلية. والواقع ان مثل هذه الحيرة لا اساس لها. ذلك ان صدر سلسلة الجبال انما تأخذ بالارتفاع المطرد كما ابتعدت عن الرائي حتى تستوي امامه كالجدار فوق نجاد ووهاد في الهضبة الامامية. اما الشوامخ الجبلية فتمتد الى اليمين والى اليسار امتدادا متواصلا وهي ملتحمة كأنما تتعقب خطا لا تحيد منه. وليس في كل اوروبا بلاد غير بلاد اسبانيا قريبة الشبه بتضاريس شرقي كردستان. فالارتفاع الفجائي لجبال (كانتابريان Cantabrian) فوق حوض نهر (دويروDuero) هو نسخة رائعة لارتفاعات سلاسل جبال كردستان فوق سهل الموصل.

وتقع (القوش) في قاعدة السفوح. فهي مصيدة لحر الشمس القاسي. وتبدو فعلا وكأنها تتلظى في أتّون القيظ اللاهب الذي ينصب عليها من الجنوب. انها جحر صغير بائس لكن (كنيسها) يفخر بمزار شهير هو قبر النبي(ناحوم) الذي يتمتع هو ايضا بمنزلة من القداسة لا تقل عن مزار (يونان:يونس) بوصفه وليا من اولياء المسلمين. على ان مفسري التوراة عموما يؤكدون بأن « القوش النبي ناحوم» كانت في فلسطين. لكن الرواية المحلية تصر بأنها القوش الآشورية. ويحج اليهود اليها سنويا ويزورون القبر. وعلى كل حال فان المسألة تحتمل الاخذ والرد كثيرا. فـ (ناحوم) هو من ابناء السبي وهو لاشك يعرف (نينواه) بأفضل مما يعرفها اي ساكن من سكان فلسطين.

شاهدنا ظاهرة سحرٍ عجيبة في صبيحة اليوم التالي، كانت الغيوم منخفضة جدا مسلطة فوق السهل بصورة افقية وتحتنا ايضا. وبدت قطع كثيرة منها وكأنها تحط على الارض مثل بحيرات تحت مستوى الاشعة التي كانت ترسلها الشمس البازغة وكانت الغيوم ترتفع كلما ارتفعت الشمس في فلكها ثم تتقطع في كبد السماء ثم تتلاشى على شكل ابخرة متصاعدة. لكم يصدق هذا المنظر العجيب على كلمات النبي؟ وكم منه يا ترى اوحى اليه بهذه الفكرة عنها حين قال «نينوى القديمة مثل بركة الماء. ومع ذلك فانها ستطير بعيدا»!

وعلى بعد زهاء ثلاثة اميال شرق القوش اخدود عظيم بين جبلين اقرب الى الوادي منه الى جيب عميق الغور في صدر السفوح. وفي نهاية هذا الجيب العليا يستكن اثر من اروع الآثار النصرانية في هذه البقاع. انه الدير العتيق المعروف بدير الربان (هورمزد) اقصى دير من ناحية الشرق. ان هذه الدير ليس ديرا غريباً بل هو مثال المنسك الشرقي ويتألف من مجموعة صوامع صخرية يشغلها نساك متعبدون مستقلون لا جمعية ووحدة القوام من الرهبان. ووصفُنا

اباد بمجموعة صوامع لا يفي بتمام الغرض كقولنا انها نقر محفورة في الرمال على جانب من البحر، ذلك لان صوامع نساكه كلها كهوف، بعضها طبيعي وبعضها صناعي منقور في قلب الصخرة العظمى.

اسس (الربان هرمزد) منسكه هنا في القرن الثامن بمفرده. وما لبثت قداسته ان فاح أريجها فاجتذبت مئات المتعبدين الى موطن عزلته المنفردة حيث كان يعيش متعبدا صائما متقشفا معذبا جسده على طريقة (القديس انطونيوس). يصارع الابالسة الذين يغشون تلك القفار باستمرار وبعزم شديد لا تلين قناته ويظهر انه كان من المؤمنين بوجوب القيام «بعمل محكم» في معالجة الجيب الملاصق له المعروف «بوادي الجن» وبهذه المناسبة نذكر انه كان يوجد ثم قرية صغيرة لليزيدية مازالت مأهولة بهم الى يومنا هذا وهي تقع في فم الوادي.

ولعل الجن انفسهم لم يكونوا في نظر (الربان هرمزد) انجس واخبث من سكنة الدير العظيم المنافس في جبل «مقلوب»[11] الذي يبدو بالعين المجردة من وسط سهل الموصل واضحا بكامل هيئته ويبدو له الربان هرمز ايضا من صومعته. فالربان (هرموزد) نسطوري ورهبان الشيخ (متىّ) يعاقبة وديرهم ما يزال مقرا (لمفريانهم) الذي يلي بطريركهم مقاما في بيعتهم وكلتا الطائفتين تكره المذهب الارثودوكسي المتطفل عليهما، على انهما متباغضان فيما بينهما بغضة تزيد عما يكنانه معا للعدو المشترك. ذلك لانهما يسلكان سبيلين مضادين.

وكان غيظه من رهبان الشيخ (متى) حافزا للقيام باعظم مأثرة في حياته. فقد ترك صومعته فعلا (وكانت المناسبة الوحيدة التي غادرها) وباشر بغزوة رجل واحد على قلعة خصومه. فاستقبله رهبان الشيخ متى بحفاوة وانزلوه ضيفا عليهم، وفي دجنة الليل نهض وتلمس سبيله الى مكتبتهم حيث كانت تعاليم (كيريل Cyril)[12] اللعين محفوظة فيما يشبه «قذائف مدفعية بدون دخان». وبفضل دعائه نبط نبع ماء عجائبي من وسط الارض محا كل سطر من صحائف كتبهم قاطبة، تاركا لهم مجموعة من الاوراق النظيفة الجميلة خالية من اية عبارة هرطقية. وغادر الدير الى صومعته مسرورا جذلا ولم يبرحها قط.

ان هذا العمل الفاضح عد عملا مبرورا ومأثرة حميدة له. والواقع ان النزاعات المذهبية في الشرق استمرت حتى يومنا هذا متخذة هذا الاسلوب الفظ العنيف! وظل دير الربان هورمزد

---

[11] يربض دير الشيخ متى في اعلى السفح الجنوبي لجبل مقلوب وهو مشابه جدا للربان هرمزد من الناحية العامة الجغرافية الا انه مجموعة من البنايات لا الكهوف.

[12] القديس كيريل(ت ٤٤٤م). عاش في الاسكندرية وكان بطريركها. عرف بتعاليمه الدينية الموجهة ضد نسطورس في اثناء الحرب الفكرية التي ادت الى انشقاق وظهور المذهب النسطوري (مذهب الطبيعة الواحدة). وفي المتن: «قذائف المدافع دون دخان يعني ان تعاليمه التي احرقها الربان هورمزد كانت محفوظة كرقوق في اسطوانات تشبه قنابر المدافع» (المترجم).

حيا برهبانه دون انقطاع منذ تاسيسه ولكنه اليوم مجرد ملحق كنسي Succursale للدير الحديث الكبير الذي انشيء في السهل تحته[13] والان لا يوجد فيه اكثر من اربعة او خمسة من الرهبان تركوا وشأنهم في (البيت الام) وهم من النساطرة المتحدين الذين قبلوا الخضوع للكرسي الپاپوي. لذلك تراهم لا يتبادلون مظاهر العطف مع بيعة النساطرة المستقلين التي انفصلوا عنها. ولما سمعوا باننا راحلون الى (التياري) مقر النساطرة المستقلين سألونا بكل سذاجة:

- اتعرفوا شيئا عن شماس هناك؟ شماس يدعى (ورده) وهو رجل في منتهى الشر. طويل القامة احمر اللحية. (شماسنا هنا قصير دحداح ولحيته سوداء).

فاسرع الشماس ورده يجيب وعيناه ترسلان شواظا.

- انا هو شماشة ورده!

فأسرع مضيفونا يعتذرون بشيء من الخوف.

- عفواء لا نعتقد بانك الشخص الذي قصدناه.

لكن الشماس الملتذ بالحديث اصر قائلا:

- بل أنا هو![14]

ومع وقوع هذه الصدفة السيئة فقد بقينا مع مستضيفينا على اتم الصفاء الوفاق. واطعمونا كعكا واسقونا شايا وخمرا من كرومهم وانتهوا منا بجولة في ديرهم ارونا خلالها كل ما يستحق المشاهدة فيه.

لابد وان الدير هو اشبه بالاتون في حر الصيف لان صفوف الصوامع المتراصة المتراكمة تواجه ناحية الجنوب كما ان المنحدرات الربداء الصخرية جرداء تماما لا ينمو عليها اي نبات ولا شك انها تعكس الحرارة بلا رحمة في سائر ارجاء هذه الوهدة الجبلية التي كادت تخلو من نسمة هواء. ربما وجد داخل الصوامع برودة لطيفة لكن قلة الماء تجربة مؤلمة شاقة في قيظ الصيف ومهما يكن من امر فان النساك لديهم ما يكفيهم من الماء واكثر.

والصوامع تقع في اعلى قسم من الطنف الجبلي ويتم الصعود اليها بمر شديد الانزلاق كثير المنعرجات، ونحن لم نحاول ان نحزر عدد تلكم الصوامع على اننا نقدرها بالمئات على الارجح

---

[13] المقصود به (دير السيدة) الذي بني في السهل اواسط القرن التاسع عشر وما زال شاخصا حيا برهبانه في القوش (المترجم).

[14] كان هو المقصود فعلا بطبيعة الحال. لكن دقة الوصف الجسمي(والخلقي كما نأمل) لم تبلغ المستوى المنشود.

لانها تمتد صفوفاً الى مسافة عدة مئات من الامتار على طول حافة التجويف، صف يعلو صفاً مثل فتحات افواه مدافع البوارج الخشبية الحربية القديمة. وهندستها الشبيهة بهندسة صوامع (دارا) القديمة تراها لا تتبع تصميما واحدا. وقليل جدا منها ما امتاز بنوافذ وابواب (ولعل بعض النوافذ والابواب لهذا القليل جاء متأخرا) وتربط المجموعة كلها شبكة من الممرات ضيقة ودرجات خشبية غليظة البناء يسرّت للنساك التجمع للصلاة في بيعتهم.

واعترض الممر الرئيس ابواب معقودة خشنة البناء هنا وهناك. واما البناء الحقيقي الوحيد في الدير فهو البيعة التي شيدت فوق نتوء صخري. وهي حديثة العهد بالنسبة الى عمر الدير فقد شيدت في حدود الالف الخامسة عشرة للميلاد. على انه يوجد خلفها بيعة اقدم عهدا منها بكثير ولعلها اقيمت في القرن التاسع او العاشر وهي متكئة تماما علي وجه الجرف الصخري. تزدان ببعض المنحوتات الجميلة الشبيهة بعض الشبه بالنحت (الروني Runic) [15] في بلادنا. وتوجد خلف البيعة مباشرة صومعة الربان هورمزد الاصلية. وهي حجرة تبلغ مساحتها حوالي ثماني اقدام مربعة ويتم الدخول اليها بنفق ملتو ضيق جدا منقور مثلها، وباب الصومعة وشباكها الاصيلان مسدودان في الوقت الحاضر لان البيعة بنيت من ناحيتهما. اما قبره فهو في بقعة تقع خلف المذبح مباشرة عدا الجدار.

وبيعة الربان هورمزد بيعة طائرة الصيت وشهرتها جاءت لكونها موطن حج ومارستانا لعلاج المجانين بصورة خاصة. ويؤتى بالمجنون (على الاغلب باختياره هو) فيدخل البيعة بكل هد ورزانة! (في هذه البلاد يطلق على المجنون اسم المجذوب: اعني الذي دخلته الشياطين او الجن) وفي البيعة يطوق عنقه بسلسلة حديدية مسمرة الى الجدار فيبقى والطوق الحديدي في رقبته طوال الليل. وعند انبلاج الصبح يعلن المجنون عادة بأنه شفي تماما (ان لم يكن جنونه جنونا مطبقا طبعا) [16] وهناك عدد كبير من البيع في الجبال تفخر بمثل هذه الشهرة الا ان طريقتها العلاجية اعنف من هذه الطريقة كما سنشرح ذلك فيما بعد.

واصلت قافلتنا سيرها من فم المضيق باستقامة نحو الشرق محاذية قاعدة الجبل فمررنا اولا بقرية (باعذري) وقلعة (علي بك) التي تشرف عليها. ثم لحقنا بالطريق الذي كنا قد سلكناه في زيارتنا المعبد اليزيدي وبعد حوالي ساعتين من السير وراء (عين سفني) بلغنا نهر الگومل

---

[15] زخرف او نقش من الطراز الاسكندنافي والانكلوسكسوني (المترجم).

[16] ويستحسن طبعا ان تكون السلسلة قوية. فقد حصل في احدى بيع التخوما انّ مجذوبا كبل بالسلاسل لكنه نجح في خلع الرزة من الحائط. وفي صباح اليوم التالي دخل الكاهن العجوز الى الكنيسة فوجده جالسا القرفصاء قرب المذبح بعد ان اتم تمزيق كل كتب الصلاة واشعل النار بالستائر وهم ايضا بخنق الكاهن الذي لم يفلت منه الا بشق الانفس. الظاهر ان الشيطان الذي ركبه هو ابولليون Appollyon نفسه.

وهو مسيل ماء جبلي واسع نوعا ما. ومنه عرجنا يسارا الى اعاليه تاركين الطريق بمسافة نصف ميل تقريبا لكي نلقي نظرة على صخور باقيان المنحوتة[17]

ينبع (نهر الگومل) من الجبال وينحدر في واد متعرج ذي سطح مستو تقوم على جانبيه جدران من الكتل الصخرية العمودية عليه تقريبا. وعلى السفوح اليمنى من الضفة بمسافة قليلة الى الاعلى اعتبارا من نقطة صدور الماء تقوم مقصورة رائعة لصورة معروفة جدا عند المختصين بالأثار الاشورية. ان المنحوتة البارزة الرئيسة هي لوح هائل الجرم مربع منقور ومصقول في وجه كتلة صخرية تعلو المجرى مباشرة. وتتضمن اربعة رسوم بشرية جبارة الحجم. هي الان مكسرة مشوهة بفعل الطبيعة، لكنها مذهلة مخرسة للسان بعزلتها هنا في هذا الوادي القفر. وتجد فوق هذه اللوحة حوالي عشر منحوتات اصغر منها على صف واحد في اعلى طبقة من الجرف. وتحت المنحوتات وجدنا في قاع النهر لوحين عظيمين غمرهما الماء الى النصف. تحتوي الصورة في اللوح الاكبر على شكلين مكررين كل نصف من الصورة اشبه بالمرآة العاكسة للنصف الاخر هذه الصدفة ساعدت كثيرا على فهم تفاصيل اللوح. اذ بعد حوالي الف سنة تقريبا من نحت الصور قدم تلك الانحاء جماعة من الرهبان التائهين ليتخذوا الوادي مستقرا ونقروا في وجه السفح مجموعة من الصوامع، وآثر اثنان او ثلاثة من مخربي الاثار هؤلاء ان ينقروا صوامعهم على وجه المنحوتة الكبيرة مباشرة. وفتحوا شبابيكها وسط اللوح دون اهتمام ما بالاصنام المنقوشة على سطحها. ويشاء هذا الاهمال العفوي ان لا يلحق الضرر بالنقش. اما الاجزاء التالفة من جانب فان عكسها من الجانب الاخر بقي سليما. ويعرض المنظر (الملك سنحاريب) وهو يقدم القرابين الى الاله (عشتار). وقد دون فيها اخبار تدميره (بابل) التي كانت قد ثارت عليه في مبدأ حكمه فاستولى عليها عنوة ودكها دكا.

والالواح العليا في الجرف يشبه احدها الاخر فرؤوسها نصف دائرية نُقش عليها صورة الملك. اما اللوحان الكبيران الغاطسان في الماء فالاول منهما قد نقش على وجهه ثلاث صور بشرية. هي الآله (بعل) وشخصان يتقدمان اليه بالدعاء. وقد نقش على احد اركانه صورة صغيرة لثور مجنح برأس انسان. على ان اللوح الثاني مشوه ممسوح بحيث يتعذر تحديد شكل الصورة فيه.

والظاهر ان جرف الگومل الصخري كان مقلعا من المقالع الحجرية الكبرى التي تمد (نينوى) بمواد البناء اللازمة لتشييد قصورها. واغلب هذه الكتل الضخمة كانت تقطع من مقالع المرمر العليا ويؤتى بها الى ضفة النهر قرب المنحوتة الكبيرة في الاسفل وهم يسلكون بها طريقا

---

[17] اقرب قرية الى هذه المنحوتات هي (خنس) وتقع على الضفة اليمنى من النهر حيث يمر بها الطريق القديم الا انها سميت باسم القرية الكبرى (باقيان) الواقعة على الضفة اليسرى الى الاسفل قليلا.

واسعا ممهدا مازالت آثاره ظاهرة حتى اليوم، وبعد ذلك يضعون الكتل فوق اسطوانات خشبية ويدحرجونها حتى تستقر بسلام على كومة من الرمل والحصى معدة تحت الضفة قريبا من ماء النهر وهذا العمل يجري كله في فصل الصيف عندما تكون مياه النهر ضحضاحة. ثم يحفر الرمل والحصى تحت الكتل ويزال جزء منها ويوضع في الفراغ طوف من الاطواف المعروفة هناك بـ (الكلك) مصنوع من جذوع الخشب المشدودة بعضها الى بعض وتحتها قِرَبٌ منفوخة. والطوف المزود بعدد كاف من القرب كهذا، يمكن ان يحمل على ظهره اي شيء كان مهما بلغ ثقله. وعندما يرتفع منسوب ماء النهر في الخريف، تؤخذ القطع الحجرية بطريق النهر الى دجلة حيث تنزل مباشرة تحت اسوار نينوى قرب القصر الذي ستستخدم في بنائه.

واللوحان الغائصان الان في الماء كان القصد فهما ان ينقلا بهذه الطريقة على ما يبدو ولسبب لا نستطيع تخمينه بالضبط، تُركا ولم يُحملا على الطوف. ولعلهما تلفا اثناء النقل واصبحا غير صالحين. او ربما توقف بناء القصر باغتيال صاحبه سنحاريب ولم يستأنف البناء فيه بعد ان سحق (اسرحدون) ثورة (شارانسر).

ويتبادر الى الذهن ايضا ان اللوح الاكبر كان سيفُصَل عن الصخرة الجبلية وينزل الى الوادي ثم ينقل الى نينوى بالطريقة التي شرحناها ولكن نرجح ان النية كانت متجهة الى بقاء الصورة كتذكار خالد في موقعها الحالي وكذلك اللوحات الصغرى في اعلى الجرف فلا تبدو كأنما هيئت لقطعها من الصخرة ونقلها كذلك. وربما نحتت تفاخرا ولاعطاء مهابة او اهمية للمقالع الملكية. وربما رغب النحات في اشغال يده بعمل لم يكلف به عندما كان عاطل اليد.

ان طريقة قلع ونقل هذه الكتل الصخرية الجبارة التي جرى عليها الاقدمون عادة، تستلزم حتى من المعمارين العصريين استخدام كل طاقاتهم آلالية، وكل قوى البخار الميسورة. لكن الاشوريين (كالرومان الذين عقبوهم) كانوا يستطيعون تجميع طاقات بشرية لا حد لها بثمن ارخص من التراب. ولقد استخدموا افواج الاسرى الذين وقعوا في ايديهم خلال حروبهم وتجنيدهم للعمل آنذاك ما كان يثير اي احتجاج حتى يعتصر منهم اخر قواهم في العمل السريع. فالرجال ارخص من الحمير والثيران وهم اكثر حذقا ونشاطا وبالامكان تدريبهم على العمل تدريبا نافعا وجعل اساليب السحب والجر فعالة منتظمة مجدية. هذا فضلا عن ان اساتذة العمل الشرقيين كانوا يملكون ميزة فقدناها نحن الا وهي الازدراء التام بالاستعجال الذي لا مبرر له. كان بوسعهم ان ينفقوا جهد جيل كامل من العمل او نحوه على انشاء بنايات قدر لها ان تظل قائمة عدة قرون او قد تبقى الف سنة ان هي تركت على حالها.

لكن لم يترك بناء واحد وشأنه، حتى بناياتهم العامة، فان الامم التي اعقبتهم لم تجنبها غائلة التدمير وكان مصيرها مصير الرقم الطينية التي دونوا عليها علومهم والقصور التي

تفصح عن عزهم ومجدهم. وفي مقالع نهر (الگومل) اثر لمثل هذا العمل ايضا وهو قناة من قنوات الري[18] الرائعة التي كانت تستخدم لتزويد البادية بالماء عماد حياتها. وبالامكان تتبع سير القناة مسافة ما على امتداد ضفاف النهر حيث تم نقر المجرى العريض ياردا ياردا في الصخر الاصم. زعم (ورده) انه شاهد بقايا من القناة في السهول الجنوبية على بعد شاسع من موضعنا وقال ان القرويين كانوا يخلعون احجار الارصفة من القناة لاستخدامها في بناء بيوتهم. ولانها «من عمل الكافرين» فان نهبها حلال لاي شخص. والمهندسون الاوروبيون يجاهدون الان لاعادة ما كان يمكن المحافظة عليه بكل سهولة.

على الاقل فان صور (باڤيان) سلمت من سوء المصير الذي حاق باغلب المنحوتات لانها ثبتت في الصخور ثباتا خالدا وفي الموضع الذي اختاره لها صانعها. انها اشبه شيء (بالسيد القديم) المنسي الذي مايزال معلقا (القصد صورته طبعا!) في موضع معتم قليل الاضاءة وبحالة من الرثاثة والاهمال فوق مذبح الكنيسة الذي اوقفه لاجل خلاص روحه. انها تبدو وهي في موضعها الحالي اكثر مهابة وشرفا مما لو اصلحت وعرضت في اطار جديد مُذهّب في جدار مقصورة تتلألأ بالنور. كذلك الحال في باڤيان، وهناك منحوتات كثيرة اشورية في المتحف البريطاني واللوڤر اجمل من هؤلاء الحراس الحقراء الكئيبين المهشمين الذين يشرفون على وادي الگومل، وهي بالمقارنة مع (مقصورة بلومسبري Corridor Bloomsbury) مجرد صورة منحوتة. لكنها تبدو في جلالها وسط القفر فوق جبالها الجرداء القاحلة وكأنها الالهة نفسها.

هنالك منحوتات مشابهة متفرقة هنا وهناك في شعاب الجبال بعضها بحالة جيدة مثل منحوتات (معلثايا) التي تجدها بين (دهوك والقوش) وبعضها مطموس تماما مثل مدخل العمادية. ويبدو ان الملك العظيم كان يهتم كثيرا بوضع ختمه في اي مكان ظاهر للعين وصلته جيوشه الغازية. والى يومنا هذا ظلت هذه الغريزة تفصح عن نفسها في سلوك الجندي المكلف (آتكنز) الذي لذ له ان ينقش الشعار الخاص بلوائه على السفوح الظاهرة من جبال افغانستان!

القافلة تسير ببطء الا انها تريد مواصلة السير. والمستجد الذي يسافر برفقتها يجد من المناسب ان يسمح له باستراحات طويلة. اما المسافرون الاوائل فهم دائما يفكرون بنقطة ابعد قليلا يفضلون كثيراً ان يجتازوها ويخلفوها وراءهم. ويصدف احيانا ان تزداد وعورة الطريق بحيث يفضل دائما قطعه اثناء النهار واحيانا يغدو النهر صعب العبور بوقوع فيضان غير منتظر. وفي هذه المرحلة كان العامل غير المنتظر مسلك نهر (الخازر) الذي هو اكبر بكثير من (الگومل) ويبتعد عنه حوالي اربع ساعات شرقا. كان سلوك الخازر في هذا الوقت اعقد من

---

[18] هناك ايضا عدة آثار للصهاريج ايضا بنيت في الجهة الجنوبية من الجبال بناها الاشوريون. اما من الجهة الشمالية فالبناء هو للاورارتيين.. وفي (فرق كول) قرب (وان) سد مازال سليما يخزن فيه الماء. الا انه لم يعد بعد محكما تماما.

المألوف. لان الغيوم السوداء من جهة الشمال قد تنفض مطرا غزيرا فوق الجبال.

للرابي مستر ويگرام ذكريات حية عن تجربته الاخيرة مع الخازر. فقد بقي على ضفته ثلاث ايام متعاقبة منتظرا انخفاض ماء فيضانه وقد عبره بالاخير وهو «مرتد بذلة يوم ميلاده[19]»! والماء يكاد يجرف حصانه جرفا، وثيابه فوق كتفيه لئلا يلحقها البلل. اننا بحاجة الى الهزء بذلك القروي الساذج «الذي يتوقع ان يغطس وهو ما يزال يعوم» على ان هزءنا يكشف عن جهلنا فحسب بقدر ما يكشف أمُله عن جهله. ان القروي لعلى معرفة تامة بمسلك انهار جباله وهو يدرك ان لا شيء يمكن عمله عندما تفيض انهارها.

وتناقصت فرصنا بعبور الخازر لانه لم يكن يوجد بيننا من يعرف الطريق الصحيح الذي يتم منه العبور. فرجال الضبطية لم يطأوا هذه المنطقة من قبل وليس بامكانهما معونتنا. (والرابي افندي) جس مواطن العبور من جهة اخرى مند سنوات خلت. فاتخذنا دليلا من احدى القرى وكانت اولى خطواته السؤال عن طريق العبور من القرية التالية التي بلغناها فخالطنا الشك في كفاءته واعدناه الى قريته. قليل من القرويين يبتعدون عن حدود قراهم وهم في اسفار بعيدة، فاذا بهم اشبه بالتائه في وسط البحر.

لذلك وقع علينا ان نتلمّس سبيلنا في خط متعرج دائري عبر ارض مليئة بالمستنقعات مهتدين الى طريقنا بنور الطبيعة وبخريطة تضاريس واسعدنا الحظ اننا وجدنا من النهر اهدأ موضع ولم تكن من نقاط العبور المعروفة فلم نجد صعوبة في الوصول الى الضفة الاخرى.

وبعد بلوغنا الجانب الاخر سالمين بدات مشاكلنا ثانية. كان الغسق يضرب اطنابه بكل سرعة وكنا بحاجة الى موضع مبيت. وكان ينبغي لنا في هذا الوقت ان نبلغ (خه ليلكه)[20] وهي قرية غنية جميلة من املاك السلطان السابق عبدالحميد. ولهذا السبب فهي تتمتع بعفو خاص عن كل ضريبة وبحصانة من الغارات والنهائب واهلها معفوون من الخدمة العسكرية. لكننا بطبيعة الحال فقدنا اثر القرية عندما اضعنا منطقة العبور ولم نعد ندري أهي جنوبنا ام شمالنا، وحرنا لا ندري اي طريق نسلك؟ وعلى اي حال فقد كان واضحا اننا لو حاذينا النهر لبلغنا قرية ما حتما سواء أإتجهنا شمالا او جنوبا بعد وقت قصير. وبعد ان سرنا مسافة قصيرة منجرفين نحو جنوب الضفة طالعتنا قرية بائسة حقيرة هي ليست غير مجموعة رثة من الاكواخ الكردية فترجلنا وقبلنا بها جميعا مثل قبول (هوپسن).

وبطبيعة الحال كان من العبث ان نبحث هنا عن نزل (خان) في اية قرية من هذه القرى

---

[19] يقصد كما خلقته امه أي عاريا (المترجم).

[20] كان السلطان عبدالحميد الثاني مع كل هناته وخطيئاته، ملاكا جيدا كما يبدو. اذ لم يكن قد فرض على (خه ليلكه) غير ثلث غلة الرز وخمس اي محصول اخر وهي حصة اقل بكثير مما جرى عليه التعامل المحلي.

المنعزلة. والمألوف ان يلجأ المسافر عادة الى الريس او مختار القرية فينعم بالدفء مع سقف يظله، وحريته في تناول الزاد الذي جاء به وان اسعده الحظ فقد يستطيع شراء خبزه. خدمات كهذه يمكن الحصول عليها بالمال ان كان المُضيف فقيرا. اما اذا كان ذا جاه ومال واهمية فتؤمن بهدية تافهة. ان الضيافة يندر ان ترفض ولو كان الضيف من ادنى طبقة. والرأي العام هو دائما الى جانب الرجل الذي يفرض نفسه فرضا على المضيف ان لم يستقبله بالحسنى والترحاب.

وكان الملجأ الميسور الوحيد لنا هذه المرة هو شرفة في بيت (الريس). منحتنا هذه الضيافة سقفا الا انها لم تمنحنا حائطا خلا سياجا من اغصان الشجر ارتفاعه خمس اقدام. فأوقدنا نارا وهيأنا افرشتنا بشكل مريح. الا اننا بتنا ليلة ليلاء لفرط نباح كلاب القرية المتواصل. وكان سبب ضجتها وجيها فقد اخبرنا في الصباح اليوم التالي ان زوجا من الضّباع الصغيرة الجوالة قد تعود كنس اطراف القرية طوال الليل وهذا الحيوان صنف من الضباع يغشى ضواحي القرية ويدل عواؤه على وجوده ومن صوته اشتق اسمه ويعرف عموما (بالغول او الشيطان) لانه مغرم بنبش القبور وأكل الرمم المدفونة. وهو كريه الرائحة عظيم الحيلة الا انه غير مفترس او خطر على البشر. لقد سمعنا عواءه طوال الليل يتخلل نباح الكلاب الجماعي فخيل لنا ان قطط القرية تساهم في الضجة العمومية.

ووجدنا الطريق اسهل في اليوم التالي. لا لانه مُعلم باشارات اكثر وضوحا بل لان اتجاهه مقرر بخط من المقابر الاسلامية المنتشرة في سائر انحاء هذا الصقع الكثير الطين على مسافات ثلاثة اميال او اربعة، وهي وسطها عادة. وتركز فوق القبور البارزة شواهد من الحجر طويلة مرتفعة عن الارض.

كانت الارض منفتحة متعادية مغطاة بالحصباء جرداء لا نبت فيها يصعب ان تنعت بالارض الصخرية. لاننا سنحتاج الى هذه الصفة الدقيقة حاجة شديدة فيما بعد. ولقد كنا نصادف هنا وهناك آثار قرى داثرة تركها سكانها فحاق بها الخراب ولم يبق منها غير اسس منازلها، او جزء من حائط متهدم. والقرى المسكونة الوحيدة هي القرى الجبلية الواقعة على المرتفعات المشرفة علينا وتجد قلعة الاغا في كل واحدة منها وهي عموماً مقامة في الوسط.

هناك شيء غير طبيعي في حالة القرى المهجورة هذه. لان الارض لا يوجد اصلح منها للزراعة وقد وجدنا داخل اسوار المقابر عددا من الاشجار التامة النمو لكنّ مفتاح لغز شرود السكان لم يكن لمعاكسة الطبيعة ابدا[21].

---

[21] كثيرا ما تكون هذه الاشجار «اشجارا مقدسة» لا يجرأ احد على احتطابها. ومازال في هذه البلاد اشجار مقدسة مثلما كان موجودا ايام عهد نحت الصور على الحجر في نينوى.

الاقليم موضع بهيج جدا
لو ان بندقيات اللصوص تركته آمنا

وهذا الشرط الجوهري تفتقر اليه الاراضي الممتدة ما بين (باڤيان) و(عقره) كما هو واضح جدا. ولا اذكر لك مناطق اخرى عديدة في الشمال. فمن هذه الاراضي يمر ذلك الجحفل الجرار من الجراد البشري مرتين في العام. واعني به عشيرة الـ (هه ركي). وان سلخ الجلد مرة كل ستة اشهر لهو اكثر مما تتحمله اية قرية!

الهركية، عشيرة كبيرة من العشائر الكردية الرحالة التي لا مستقر لهما ثابت. فهم يخيمون شتاء في سهل الموصل وينتجعون صيفا هضبة اورميه الشامخة الباردة. يهاجرون بكل قطعانهم ومواشيهم وغير ذلك من مقتناهم كل موسم ربيع من الموصل الى اورميه وفي كل خريف من اورميه الى الموصل. ولم يكن بالشيء الذي يسر له ان تقع قرية ما في طريق سير الهركية فكل شيء فيها ليس ساخنا جدا وثقيلا جدا لا بد ان يحزم ويحمل معهم. انهم «ينهبون» الغنم والبقر اولا ثم ينثنون الى البسط والفرش والاوعية والادوات المنزلية القليلة، ويتركون مضيفيهم المنكودي الحظ وليس عليهم الا اسمالهم البالية وجدرانهم العارية.

علمنا شيئا عن دقتهم هذه في الليلة التي بتناها امس على الخازر. فقد وجدنا في مشربيّة بيت (الريس) حيث قضينا الليلة -ثلاث رزم او اربعا كبيرة الحجم مشدودة بالحبال شدا محكما وملفوفة بالابسطة لفا. فسألنا عما تحويه سؤالا عرضيا فأجاب مضيفنا المسكين بقلب كسير. انها امانة وضعها الهركية عنده، وسيمرون عند أوبتهم ويطالبونه بها، كلا انهم لا يدفعون له اجرا عن حفظها لهم، على انه مسؤول عنها امامهم، وعليه ان يعوضهم اربعة اضعافها ان فقد اي شيء من محتوياتها. فسألناه:

- وماذا فيها؟

فظهرت الكآبة على الرجل المسكين بأجلى معانيها واجاب:

- انها ممتلكاتي! انها فراشي وآنيتي واوعية طبخي! (واستدار يقول) اعني ان قسما منها يعود لي والقسم الاخر هي ملك القرويين الاخرين وقد غصبها منا الهركيون عند غارتهم الاخيرة على القرية.

كان سلطان الرعب الذي نشره هؤلاء كاملا، وكانت الحكومة مكتوفة اليدين لا تقوى على وقف سطوهم واعتداءاتهم حتى بلغت بهم الصفاقة انهم اجبروا ضحاياهم على حفظ الاسلاب التي نزعوها منهم لحين طلبها وبعد ذلك يرحلون بعيدا ستة اشهر وهم على اتم الثقة بان اوامرهم ستطاع وتنفذ بالحرف الواحد دون اي احتجاج.

وختمنا مسيرة يومنا في (عقره) وهي بليدة جبلية كبيرة الحجم ومقر قائممقام تركي يخضع مباشرة لوالي الموصل اداريا وتكشف عقره عن جمال منظرها للمسافر القادم اليها من الجنوب

والحق يقال انها مشهد رائع من اي ناحية جئتها. فخلفها مجموعة من القمم الهرمية الشديدة الانحدار تخرج من سلسلة الجبال الرئيسة مثل صف من غرف النوم الجبارة البارزة ثم تنزل الى مستوى السهل في نهايات وعرة مكتلة على مسافة بعيدة من الذرى نفسها. وهذه الذرى محززة ومتقطعة مثل اسنان المنشار تعترضها وديان نصف مختنقة بجرف صخرية منهارة فوق اجنحتها، وتغطي الاجزاء السفلى من هذه الوديان اشجار تنمو في قطع من البساتين المدرجة على طول سواقي المياه. الا ان السفوح العليا جرداء وسوداء مثل كسر من الطوب نصف المشوي. وتنكسر احدى القمم الشامخة فتؤلف شيئا يشبه السرج. ثم ترتفع بعدئذ لتغدو نجدا صخريا قبل اندغامها بالسهل اخيرا. وفوق هذا السهل المائل تنهض بيوت عقرة وبقايا متباعدة من قلعة عتيقة تتوج اعلى نقطة من النجد الصخري الاعلى. وتمتد مساكن البلدة حتى المضيق الذي هو من الجانب الغربي حيث تصطف المنازل صفوفا حول منحدر فتحة المضيق مثل مقاعد الملعب المدرج (امفيثياتر). والانحدار شديد بحيث انك تجد سطح منزل موازيا لباب البيت الذي يليه وعلى مستوى ارضيته فيكون سطح بيت بمثابة صحن دار البيت الذي يعلوه او بكلمة اخرى صحنا للطابق الثاني من البيت. والازقة ضيقة جدا لا يمكن ان يراها المرء عن بعد. وقد وُسِّع احدها ليكون شارع السوق الرئيس.

ليس في عقرة خان، الا ان (ضبطيتنا) كانا قد انتقيا لنا المنزل الذي سنقضي فيه ليلتنا. وهو منزل (المال مديري) اي مدير المال[22] وقد تقدمنا احد المرافقين لابلاغ الرجل بالمأدبة التي تنتظره. وبدا هذا اجراء تعسفيا من جهتنا الا ان مدير المال كان راضيا عنه تمام الرضا. وقابلناه في مدخل البلدة وكان قد خرج للترحيب بنا فوجدناه شابا وسيما، حيانا باللغة الفرنسية تحية حارة وقاد خطانا عبر الشوارع المدرجة الشديدة الانحدار حتى داره التي كانت تقع في اعلى (السرج) الذي اتينا الى ذكره.

ليس بين منازل (عقره) ما يمكن نعته بالفخامة. ولعل منزل (المال مديري) نموذج لبيوت الطبقة المرفهة. فهو يشغل شقة واحدة في الطابق الاول وفيه باحة خارجية تستخدم بمثابة مطبخ وغرفة للخادم. والاثاث في قاعة الجلوس يتألف كما هي العادة من مطارح وسجاجيد. والنوافذ منخفضة حتى ليستطيع المرء ان يتطلع منها الى الخارج وهو جالس على الارض دون ان يبذل اي مجهود. وفوق النوافذ فجوات مربعة لحفظ الكتب. ولا تحتوي الشقة خلاف ذلك الا على قاعة المدخل وغرفة نوم.

---

[22] يشرف مدير مال عقرة على جباية الضرائب من مائة وخمسين قرية وتمر بيده حوالي عشرة الاف ليرة سنويا وراتبه مائة وعشرون ليرة سنويا تقريبا. وراتب القائممقام من خمسمائة حتى ثمانمائة نظرا الى اهمية الوحدة الادارية التي يترأسها. وهي ليست بالرواتب الضخمة حتى اذا دفعت بانتظام لكن بالامكان زيادتها بوسائل معترف بها جدا وان لم تكن شرعية.

وقدم لنا مضيفنا غداء فاخرا مؤلفا من بيض مقلي ودولمة (ارز ملفوف بالكرنب) ومرقة بالمخضرات واللحم جيء بها الينا في صحفة (صينية) كبيرة واحدة وضع عليها عدة اطباق. فتحلقناها ونحن متربعون واخذنا ننقل ملاعقنا الخشبية بين طبق واخر. ولم يكن بيننا نحن الثلاثة غير ابريق ماء واحد استخدمناه كل بدوره وختمت المأدبة عى جاري العادة بأقداح صغيرة من القهوة [23].

وفي تلك الاثناء كان مدير المال يصب شكواه في آذاننا صبا. وهي شكوى لم يسعنا الا ان نشاركه فيها من صميم القلب. وكذلك فانها تلقي ضوء تثقيفيا على «الخطوات التي قطعها الاصلاح التركي في مضمار التقدم». صاحبنا مواطن حلبي من طائفة السريان الكاثوليك دُرِّب على منصبه هذا في اسطنبول وخدم وقتا في دوائر الحكومة هناك وعين في منصبه الحالي تطبيقا لذلك المبدأ العظيم الذي اعلنته الثورة لاول مرة وهو ان تكون فرص المسيحيين والمسلمين في وظائف الدولة على قدم المساواةً وقد نجحت هذه الخطة الرائعة في اسطنبول نجاحا معتدلا وكذلك نجحت في بعض العواصم الاقليمية القريبة من مقر الحكومة المركزية مثل ازمير وحلب. لكنها فشلت فشلا ذريعا للاسف الشديد في اقاليم بعيدة مثل الموصل. انه ليحتاج الى جيل كامل على الاقل لتتشرب هذه البقاع مبادىء الاصلاح. فكل المناصب الادارية هنا استولى عليها «رجال الحكم القدماء» الذين اصبح فسادهم راسخ الاساس منيعا لايقتحم وقد احتكرتها منذ زمن طويل مجموعة من الرجعيين ذوى الرؤوس الخنزيرية لا يمكن ازاحتهم بثقلهم الهائل باية وسيلة. ما الفائدة من افهامهم بأن المسيحيين والمسلمين هم متساوون. في حين ترى القرآن ينص صراحة على المسيحيين هم من اهل الكتاب وان لهم معاملتهم الخاصة. لماذا يستخدمون السلطة التي هي ميراث من حقوقهم لا يمكن نزعه لحمل المؤمنين على اطاعة كلب مسيحي؟

ولهذا وجد (المال مديري) المسكين نفسه منبوذا محتقرا في كل مناسبة من قبل الموظفين اقرانه اسميا كالقاضي والبيمباشي مدير الشرطة. فهم يرفضون بكل اباء واصرار معاونته في انجاز واجباته. ولا سيما اذا شاءت الصدفة ان كان المكلفون بدفع الضريبة من اصدقائهما او ممن يريد القبض عليه من محاسيبهما. وقد سرت عدوى احتقاره هذه الى مرؤوسيه انفسهم الذين صاروا لا يطيعون اوامره الابصعوبة ويتردد وتذمر. الحق بقال ان رئيسه المباشر القائممقام يظهر له الصداقة والبشاشة دائما، لكنه لا يفلح في اداء مهمته حتى بمساندته. ومع انه ما زال مستجدا في المنصب فقد ضاق به ذرعا وكتب طلبين الى الوالي راجيا نقله الى

---

[23] قضينا ليلتنا مع المدير المال في جو اخوي رائق وكانت مطارحنا قد فرشت جنبا الى جنب على ارضية الغرفة وقد رغب منا مضيفنا ان نتداور تدخين النارگيلة التي كان يسلي بها نفسه في اواخر ساعات يقظته فاعتذرنا باننا لم نتعودها.

بيروت او حلب ولم يحصل الى الان على جواب لان (طاهر باشا) لا يجيب احدا وكل موظف في ولايته يرغب في النقل الى بيروت او حلب ان امكنه ذلك.

وبطبيعة الحال ليس من المعقول ان القرون العديدة التي عاشها النصارى في حكم الاتراك جعلتهم لا يصلحون دستوريا او اداريا لملء المناصب ذات السلطان. ورغم ثقافتهم المتفوقة تراهم عاجزين في الوقت الحاضر عن حكم الترك او الكرد او العرب كما يقوم البابو البنغاليون بحكم الپاثان Pathans والسيخ Sikh [24]. لكن حتى وان كانت عوامل القيادة والحكم متوفرة فيهم فالمقدر لها انها ستواجه اولا مقاومة عنيدة، وستبقى هذه الظاهرة عقبة كؤودا امام اي اصلاح دستوري.

ويبدو ان ترحيب (مدير المال) بنا يعود بعضه الى الميزة التي يخلعها الزوار الاوربيون عليه في اعين اولئك المستصغرين شأنه من زملائه. وكان صادقا في دعوته الملحة ببقائنا ضيوفا عليه يوما اخر ليقوم باستعراضه لنا لكننا اعتذرنا بضيق الوقت. وعلى اية حال فقد استحسنا زيارة القائممقام على الاقل فأخذنا مضيفنا اليه بعد فراغنا من تناول القهوة.

ويقيم القائممقام في دار الحكومة وهي بناية متهدمة ذات طابقين تحيط بصحن مهمل بائس اشبه عموما بالخان، وطرافة منظرها جاء من حالتها الحقيرة. وثم افراد من الجندرمة الذين تجمعوا تحت المصابيح في المجاز المعقود المظلم العميق وهؤلاء يستحقون اكثر الذكر والحق يقال. على انه ليس ثم شيء من الفخامة الشرقية التقليدية في جدران البناء البيضاء القذرة. وقاعة استقبال القائممقام تشبه غرفة دراسة في مدرسة مهملة قروية. دار الحديث حول الحرب الطليانية وكان من المواضيع التي يجهلها المتحدثون جهلا تاما لاننا نحن ايضا لم نسمع عنها شيئا منذ ان تركنا اوروبا. ولا يعرف القائممقام شيئا هو الاخر الا ما تسمح سلطات الحكومة بتسريبه من الاخبار عنها. والحكومة لا تشجع الانباء المزعجة، وعملها هذا يتسم بالفطانة فانباء كهذه قد تثير الكرد بسهولة ضد اقرب المسيحيين اليهم وقد عجبنا والحق يقال حين اكتشفنا الدقة التي يتم بها خنق الانباء الصحيحة. فهؤلاء لم يسمعوا الا بالانتصارات التركية. وعساهم لا يسمعون شيئا اخر غيره حتى يومنا هذا[25]!

---

[24] البابو هو السيد الهندي او الهندي المتأنكلز. والباثاني هو فرد من القبيلة الافغانية المعروفة التي كانت استقرت في الهند. والسيخ او السيك هم الطائفة الهندية المعروفة التي وجدت في البنجاب منذ اربعة قرون ونصف قرن وقد عرفوا بلحاهم المحزومة في الشبكات وعمائمهم وشعورهم الطويلة التي يحرم عليهم جزها (المترجم).

[25] الرأي الذي كان يسود الموصل هو ان (طرابلس) التي تدور فيها رحى الحرب انما هي (طرابلس) الاسيوية وان المذنّب السماوي الذي ظهر في ذلك الوقت انما هو نبوءة تشير الى سحق الطليان «اذ لوحظ ان ذنبه كان متجهاً الى ايطاليا». والحقيقة هي ان المذنّب المذكور كان وضعه عموديا وفي المربع الشمالي الشرقي من قبة السماء!

دخل اثنان او ثلاثة من وجهاء البلدة زائرين اثناء ما كنا هناك. الا ان المواطن الذي كنا اشوق الى رؤيته من غيره لم يكن من بينهم. فمن بين سكنة عقره (سيد) كبير السن يجري في عروقه دم من اشد الدماء (ازرقاقا) في كل قارة اسيا، انه اخر نسل للخليفة (هرون الرشيد) العباسي بطل حكايات الف ليلة وليلة. كانت عقره جزء من الدويلة التي حكمها بنو العباس قبل ان يفوزوا بالخلافة. وعندما خلعهم سلاطين السلاجقة (١٠٥٠م) عادوا الى دويلتهم الموروثة. حتى هذه الدويلة فانها خرجت من ايديهم بالاخير. وهذا الشيخ البائس الباقي يعيش الان عيشة شخص عادي في (عقرة) وحالته المعاشية سيئة جداً الا ان مقامه الاجتماعي رفيع.

وكانت انطباعاتنا الاخيرة عن عقره متأتية من السوق فقد حملتنا على الارتفاع به الى مستوى السوق الاعتيادي واعتباره مركزاً للالعاب الرياضية لا للتجارة. إذ اقتضى ان يُجرى على حذاء «رابي مستر ويگرام» اصلاح طفيف فأرسل الى اسكافي ليلا. وعند عودة الحذاء في اليوم التالي صباحا تبين ان الجزء الذي يحتاج الى اصلاح قد ترك على حاله وان الاسكافي عمد الى اظهار بعد نظره لا غير بقلع كل ما وجد فيه من مسامير انكليزية والاحتفاظ بها لنفسه.

وفاقت عقرة الموصل في هذا المجال من الجسارة والاقدام فقد جرب «الشيخ رابي افندي» حظه هناك وكان بعيد النظر فسمح للاسكافي بثلاثة ايام وتبين ان الحذاء لم يفقد مساميره عندما جلبه في اليوم الرابع وفسر هذه الظاهرة بان يوم الجمعة هو عطلة المسلمين والسبت عطلة اليهود والاحد عطلة المسيحيين ولا شك ان عطلة المصارف في يوم الاثنين كانت ستؤخر الحذاء لو لم يسارع في طلبه[26].

والحادثة الثانية هي ابعث من الاولى على الضحك. انحدر كردي من جباله لشراء بغل. وبعد مساومات طويلة استبدل البغل بمسدس. وراح هذا الشاري يجرب البضاعة بطريقة خطرة نوعا ما وذلك باطلاق رصاصة على ساقه وتشاء الصدف ان ينهى الينا الخبر، فوجدنا الواجب يقضي علينا بالتطوع لاجراء الاسعافات الاولية على الجريح وكان قانعا بعلاجه المحلي غير راغب في تجربة علاج جديد «تمّ تحضيره عالفرنگه»! فقد وجدناه يحشو ثقب الرصاصة بمزيج

---

[26] ولنا ان نزيد على هذا ان نهار الثلاثاء يعتبر عند المسيحيين يوم نحس لان «يهوذا الاسخريوطي» عقد فيه اتفاقه على تسليم المسيح لرئيس الكهنة. ويوم الاربعاء هو عطلة اليزيدية. والظاهر ان كل الناس يشتغلون نهار الخميس ولعله سيكون يوم نصف عطلة عندما تعم البلاد الاصلاحات المنشودة.

من دهن السمن وروث البقر وكان يعمل على خلطهما بعود. ومن يدري لعل في هذا الضماد تأثيره المطهر؟ لانه شائع جدا في جبال ولا يمنع الجروح من الاندمال كما يظهر. وربما تم الشفاء لا بسبب مفعوله بل رغم انفه! ان نية الشفاء عند هؤلاء الجبليين العتاة لايمكن نكران تأثيرها.

7

فيك أيان فور الشرق[1]

VICH IAN VOHR

شيخ بارزان

قال أحد المقيمين الاجانب في الموصل في حديث عرضي.

- من المتعب حقا السفر في الجبال.

والرحالة الجديد القادم من أوروبا لا يسمع بهذه العبارة حتى يرتعب على بساطتها لانه عانى الامرين من متاعب العربات والخانات والضرب في آفاق (الچول) ومرافقة الضبطية أسبوعين كاملين. يقال له بعد ذلك أن تجربته المطهرية هذه انما تعتبر ترويحا عن النفس خلال اجازة. لذلك فهو ينفذ الى أحشاء هذه الجبال متوجسا متوقعا أن يزداد علما بماتعنيه «الرحلة الشاقة».

ولاجل أن ندخل الى قلبه الراحة فلنقل له هنا، انه سيتعلم من رحلته الجبلية وفي مطلعها، الاشقَّ من الامثولات، وان لم يتهيب ممايكمن وراء (عقره) فعلينا التسليم بانه نجح في التجربة. أن الصعدة من (عقره) الى قمة الشّعْب وراءها هو عملية تسلق توازي في مشقتها ومتاعبها اية عملية تسلق في جبال حكاري. ومن يخرج من التجربة مستظهراً، يمكن أن يعد خبيراً في التسلق. ومظهر الشّعْب نفسه ليس مخيفا أو موتّرا للاعصاب كتلك التي قطعناها بعده فقد كانت ممرات جبلية زنقَة تدير الرأس كأنها طرق العَنز الجبلي. على أن ذلك يمكن أن يعتبر خلاصة لكل تجربة يمكن أن تقدم أعتياديا بشكل ثابت جامد. هذا الشّعْب شديد الانحدار وعر مهشم تعترضه كتل صخرية ملساء زلقة ذات سطوح مثقبة مثل قرص شمع النحل يبلغ عمق ثقوبها حوالي اثنى عشر انجا ولا يقل قطر أحدها عن ستة انجات. وربما يبلغ ثمانية. ولو أمكن اختراع فخاخ خير من هذه للايقاع بالماشي الارعن القليل الحذر، أو لاجل كسر أرجل حصان، فلا شك أنها ستتوفر حتما هنا لتجعل الارتباك كاملا. واقر القاطرچيّون أن الطريق سيء لكنهم قرروا أن هذا السوء لا يمكن تقويمه: «أن عينيها لتتوضحان السبيل (وهذا شيء واضح جدا). واذا ما كان الجماعة يطلبون رؤية ريد گريگارش Red Gregarach فأي طريق خير من هذا يتوقعون؟[2]»

وهبطنا من أعلى القمة (ثلاثة آلاف قدم فوق مستوى السهل) لنجد انفسنا في واد خصيب

---

[1] بطل اسطوري وزعيم قبيلة اسكاندينافية (المترجم).

[2] لعله من مقتبس من رواية او حكاية اسكتلندية مما اغرم المؤلفان باقتباسه في هذا الكتاب (المترجم).

جيد الارواء يمده بالماء نهير جبلي ويكسوه قصب المستنقعات الطويل. ثم تسلقنا قمة اخرى تعدل الاولى ارتفاعا للوصول الى قمة سلسلة أخرى من الجبال ومنها امكننا القاء نظرة شاملة على الاصقاع المقفرة من اية ناحية أرسلنا الطَرْف.

تحتنا يمتد وادي الزاب وهو مجموعة شعثاء متداخلة من الهضاب والوهاد تجمعت بشكل معقد متشابك مثل تلاطم أمواج البحر. وشريط النهر الواسع البراق الذي يكاد هنا يوازي دجلة في حجمه، يسلك سبيلا ملتويا زائغا خلال منعرجات كثيرة التعقيد لا اول لها ولا آخر. والجانب المقابل من الهوة العميقة يحده نجد أجرد حفرت فيه أمطار الشتاء ندوبا غائرة، واستند الى آكام محزوزة من الصخور الجيرية وفوقه هنا بامتداد الافق تشمخ الذرى الثلجية العظمى لجبال حكاري برؤوسها مثل «نيفانيس» الشاعر هوراس[3] «حيث زرع أبليس قدمه لاول مرة عندما نزل الى العالم المخلوق حديثا» على حد ما يقوله (ملتون).

صقع من الارض غير مروض، حلقة حديد محكمة، جنة مثالية ثمينة للعصابات والشقاة. تلكم هي الارض العروفة ببلاد العشائر. وسكانها اذا انصفناهم على استعداد تام لاستغلال ميزاتها. وهم شبه مستقلين وأن كانوا يخضعون بالاسم الى الترك. أشباه بدو على طراز (جوني آرمسترونگ) Johnny Armstrong أشباه جبليين على طراز «روب روي»[4] هنا فرمانات السلطان واوامره لا تسوي شروى نقير دون مساندة واضحة من الحراب، وكل فرد فيها هو قرصان أصيل. يعمل ما يراد صوابا او بكلمة أدق ما يناسبه. سلطان كهذا تراه شائعا في سائر جهات هذه البلاد. وهو على الاغلب في ايدي شيوخ العشائر، وليس لحكومة أسطنبول سلطان أكثر من سلطان ملوك أسكتلندة القدماء على الجهة الشمالية من (سترلنگ بردج Stirling Bridge».

هنالك ثلاث درجات لسلامة المسافرين في تركيا الاسيوية: فثم مناطق هو فيها آمن مطلقا، وثم مناطق تستطيع الضبطية تأمين سلامته، وثم مناطق لا حول فيها للضبطية ولا قوة. أن فرساننا المغاوير أوصلونا بكل أمانة الى قرية (بيره كپره) الكردية وهي قرية بائسة النظر تربض عند قدمي الشعب. ورافقونا حتى ضفاف النهر صباح اليوم التالي. ولما بلغنا المعبر انتهت مسؤوليتهما لانهما لايستطيعان العبور الى الضفة الاخرى. فالبلاد بلاد (الشيخ بارزان) والحكومة تشعر بحراجة قلق في أرسال موظفيها الى مملكته. لا شك انه سيحسن

[3] هوراس Horace (٥٦-٨ق.م) شاعر لاتيني شهير نبغ في فترة العصر الذهبي للاداب الرومانية. و(نيفانيس) تعني باللاتينية الجبل المغطى بالثلج أو على وجه التخصيص أسم جبل من سلسة (طوروس) يقع في أرمينيا (المترجم).

[4] واسمه الاصلي روبرت ماكريگر (١٦٧١-١٧٣٤) ثائر أسكتلندي شهير على العرش الانكليزي (المترجم).

مقابلتهم ويرحب بهم فضلا منه لا فرضا. لكن لا فائدة قط في الزعم بان الضبطية هناك يستطيعون أن يقدموا لنا الحماية.

أن مُواطِن البلاد يغامر بالسفر الى(بلاد العشائر) لو كان لديه ما يصلح للسطو، فعليه أن يتلمس سبيله بحذر شديد. على أن ضمانات الاوروبيين أكثر فقد وجد رجال العشائر بالتجربة انه تثار ضجة حتما حين يتعرض الاوروبي الى أي اذى. ويظل سفيره ينخس في جنب الحكومة نخسا حتى تقوم بارسال حملة. فيزحف رتل عظيم من الجيش الى داخلية البلاد ليعيش مجانا على القرى. وليعتقل عدداً من الناس الذين لادخل لهم في المسألة على الاغلب. ولذا يكون الجاني الحقيقي آخر المتضررين. الا انه يكسب عداء وكرها عظيمين لتسببه في مثل هذا العمل للمنطقة. وان أعتى الشقاة يفكر مليا قبل أن يضغط زناد بندقيته على قافلة تسير تحت حماية قبعة اوروبية. لهذا يجد لابس القبعة ان كثيرا من ابناء المنطقة ينضمون الى ركبه اي «يسيرون تحت ظله» لغاية ما كون طريقهما واحدا.

ونحن بدورنا لم نجد مبدئياً سببا يبرر لنا الخوف. لان شيخ بارزان فضلا عن كونه واحدا من أعظم زعماء الجبال نفوذا فهو اكثرهم مهابة ومدعاة للاحترام. ويسره في الوقت نفسه ان يعتبر الانكليز اصدقاء شخصيين له.

كان الزاب في الموقع الذي تقربناه. واسع المجرى عميقا سريعا وعبوره سباحة من الامور التي لا يمكن التفكير فيها لا بالنسبة للانسان وحده بل للحيوان كذلك. وللشيخ عادة، عَبّارة (معدية) يجرها حصان. وهي من النوع الذي أستخدمناه على نهر الفرات. لكن معدية الزاب هنا كانت معطلة hors de combat بصورة مؤقتة فقد أثر عنها انها مثقوبة. ووجدناها مشدودة على الضفة الاخرى وبدا لنا والحق يقال ان شيئا قليلا من المهارة وثلاثة غالونات من الزفت تكفيان لاعادة المعدية الى (البحر!) لكن الجميع كانوا كما يظهر قانعين باستخدام الكلك حينا من الوقت. والكلك طوف صغير من الاغصان المحبوكة المنسوجة تطفو فوق اربع قرب منفوخة.

وليس في طاقة هذا الكلك أن ينقل اكثر من مسافرين اثنين كل دفعة، أو ما يوازي ثقلهما من الامتعة. وينبغي انزال الاحمال من ظهور الحيوانات واجبارها على العبور سباحة دون التفات الى شدة ترددها. وهكذا ضيعنا وقتا كثيرا في العبور الا اننا عوضنا عنه بشد امتعتنا حالا وسرنا مقدار ساعة وقطعنا واديا جانبيا حتى وصلنا قرية (بارزان) وتقع تحت سفح جبل والجبل يحتضنها من جهتين. وهي اكبر من القرى الكردية الاعتيادية. لكنها لا تمتاز عنها باية ميزة خاصة للتدليل على اهميتها في المنطقة. ان اغلب الشيوخ حتى الاقل من شيوخ بارزان سطوة يعيشون في قلاع ذات منعة، بينما تجد هذا الشيخ «يعيش بين شعبه» وليس قصره الا مجموعة من الاكواخ العادية مندغمة فيما بينها لتؤلف كوخا واحدا ليس فيه باب خارجي أبدا. (ونحن لم نكتشف بابا ما من هذا القبيل) وانك تدخله بمجرد تخطيك

العتبة لتجد نفسك داخله، سرنا الى غرفة الجلوس الصيفية (الكپره) وهي اشبه بـ«البلڤديري»[5]. الساذج ووجدنا الشيخ غائبا في زيارة الى العمادية ويتوقع ان يعود بعد يوم الغد. ولما كان اتجاهنا الى الغرب فلا شك اننا سنلاقيه يوم غد. على ان نائبه وهو امام كبير[6] رحب بنا ترحيبا حارا وكان صديقا قديما لبعض مرافقينا. وحذا حذوه الملا الشاب او كاهن البيت الخاص، وزمرة من الاتباع ذوي المظهر الخشن الذين يؤلفون جزء من البطانة المعتادة.

وبطبيعة الحال لم يكن في مقدورنا المرور بالنزل دون ان نأكل. الا اننا بسبب عجلتنا ورغبتنا في التقدم رجونا مضيفينا رجاء خاصا أن يزودونا بطعام سهل التهيئة سريعها واعتبرنا تنفيذهم هذه الرغبة لنا برهانا حقيقيا على ودهم فأتونا ببيض وخبز وعسل وشاي. ان رجلا خطير الشأن يريد اكرامك بالشكل المتعارف عليه، المتفق والتقاليد، لا يرضيه ان يقدم لك مثل هذا الطعام المختصر، وربما أبقاك تنتظر لتذبح لك شاة وتطبخ.

عندما قمنا للانصراف خرج معنا الامام والملا حتى شجرة معينة في ظاهر القرية لكي «يضعانا على الطريق» كما يقولون. ولكل بيت من البيوت المعتبرة في هذه الانحاء نقطة معروفة لا يتعداها في الاتصال بالضيوف والزوار، منها يستقبل صاحب البيت ضيفه ومنها يودعه. وفي مناسبة واحدة فقط اثر عن الشيخ البارزاني انه امتطى حصانا وابتعد مسافة طويلة عن هذه الشجرة القانونية وكانت هذه بمناسبة استقبال القنصل البريطاني.

وارفق بنا مضيفونا حارسا مسلحا هو من «الخاصة المشيخية» اي (المريدين) وكان يضع على رأسه عمامة حمراء دليلا على انّه من حرس الشيخ الخاص. وواصلنا السير على هديه يوما ونصف يوم في الوادي وكانت رحلة اشبه بتقدم الخنفساء في حقل محروث مليء بالسواقي والشقوق. ان النجاد الجبلية صخرية جدا لا تصلح للزراعة، على ان مساحات خصبة من الارض تمتد منبسطة متدرجة على طول المرتفعات زرعها سكان القرية بالقمح. ان القرى التي كنا نمر بها بدت لنا مرفهة (اذا حكمنا عليها بالمستوى المحلي) لان الشيخ البارزاني سيد اعلى واسع الرحمة. على ان الطرق حقيرة مزعجة و «الصرخة البعيدة هي مال معتبر في لوچاو!»[7] وفي نظرنا ان اول هذه المظاهر هو الذي سيقرر انعطافاتنا وميولنا. بوسعنا اغتفار الكثير في هذه البلاد للشيخ الذي ينهض كقاعدة - باعباء حفظ الامن والنظام بكل صدق

---

5 البلڤديري Belvedere هو طرز من القصور الرومانية المفتوحة الجوانب التي تحف بها الاروقة (المترجم).

6 الامام هو في الحقيقة مثل راعي الكنيسة المعين رسميا. يشرف على اقامة الصلاة للعموم في المساجد. وصاحبنا هنا يشعر بمقامه واهميته مثل اي راعي كنيسة عندنا في ابرشيات انكلترا.

7 مثل اسكتلندي. ولوچاو Lochow هي مقاطعة اسكتلندية (المترجم)

واخلاص ذلك الشيخ الذي يدرك ان السبيل الانفع له هو حماية رعيته لا التضييق عليها وهو ممن يمكن الثقة به في تطبيق «عدالة جدارت Jeddart»[8] بشكل يؤمن المساواة التامة بين الكردي المسلم والمسيحي على حد سواء لكننا نخشى ان الموظفين الاتراك على العموم لا يستحسنون منه هذا السلوك. والاتراك القدماء يبغضون هذا الشيخ بالدرجة الاولى لانه قدير كفوء والاتراك الحزبيون الجدد (جون ترك) يكرهونه لانه ارستقراطي وليس بوسعنا الانكار انه يثير لهم المتاعب قليلا في بعض الاحيان وانه يستخدم احيانا في ادارته الاساليب «الدراكونية الصرفة»[9].

كان الشيخ حتى العام ١٩٠٩ في حرب معلنة مع الحكومة. ولم يكن هو الملوم في هذه الحرب بالذات. والمذنبون الحقيقيون الاساسيون هم (ص.پاشا) وبعض رجال العصابة المتفسخة الذين كانوا يتولون الادارة في الموصل. فهؤلاء طمعوا في بعض القرى التي تقع ضمن نفوذ الشيخ. وأبى هو ان يفارقها[10] فما كان منهم الا واختلقوا له تهمة وهي انه يتآمر ضد (الحكومت) وانه لا ابالك اتهام يسهل أثباته جدا. اذ ليس ثم شيخ واحد في هذه المنطقة الا وهو مُطلق لسانه في شتم الحكومة بين آن واخر على هواه. وعلى اية حال فان المادة الاصلية لاتهام الشيخ هنا، كانت الجناية الخطيرة الكبرى «طلبه المعونة الروسية» في حين كان الميالون البارزون الى الروس في الانحاء القريبة، من ابغض الناس عند الشيخ!

وعلى اية حال فان هذا الاتهام وقع لدى الحكومة موقعا حسنا فألقي القبض على اصدقاء للشيخ واودعوا السجن وزحف جيش على منطقته واستولى على قراه واحتلها وسبيت نساؤه الى الموصل[11]

والشيخ نفسه ظل اشهرا وهو شريد لا سقف يظله متنقلا بين الجبال. وهنا جنى ثمرة

---

[8] جدارت ناحية صغيرة في اسكتلندا، ومعنى التعبير ان الرجل كان يشنق اولا ثم يحاكم بعدها. وهذا تعميم ليس في محله. لانه بني على حادثة منفردة، فقد نفذ حكم الموت شنقا بعصابة من قطاع الطرق في جدارت بامر من سر جورج هوم، في عهد جمس السادس ملك اسكتلندا (المترجم).

[9] نسبة الى دراكون الاثيني (في حدود ٦٢١ ق.م) وهو مشترع امتازت قوانينه بالقسوة والصرامة المتناهية (المترجم).

[10] حاول الشيخ البارزاني ان يشتري السلام من كل قلبه لكن اعداء الطامعين به اثاروا عليه حتى الرآي العام المحلي. بل انهم قبلوا منه مبالغ كبيرة من المال دفعها لرد اذاهم ثم استمروا في مكائدهم ضده مع هذا. نقول و(ص باشا) هو محمد باشا الصابونچي احد وجهاء الموصل الكبار الذين دأبوا على انتزاع القرى الكردية وتسجيلها باسمائهم بطرق غير مشروعة.

[11] من الجدير بالذكر هنا ان سيادة ملا مصطفى البارزاني رئيس الحزب الديمقراطي الكردستاني ذاق مرارة السجن والتشريد لاول مرة في حياته وهو رضيع على صدر امه بسبب هذه الحملة فجيء به وبوالدته وكثير من اشياعه واقربائه وزجوا في سجن الموصل المدني (المترجم).

معاملته الكريمة للقرويين فلم يخطر ببال احد من رعيته مسيحيين أكانوا ام مسلمين - ان يخونه ويسلمه الى اعدائه. وفي هذا الوقت بالذات لقيناه لاول مرة وهو متنكر في ثياب خلقة وليس معه غير تابع واحد وهو مختف في احدى القرى المسيحية مما يلي امارته.

الا ان تسجيل الاهداف في هذه اللعبة لم يبق لجانب واحد. لقد فخر «ڤيج ايان ڤوهر» بان عشيرة «ايڤور Ivor» قلما دخلت ميدان القتال باقل من خمسمائة سيف ذي حدين. وشيخ بارزان يستطيع ان يجند خمسة آلاف على وجه التاكيد بل قل ضعف هذا العدد لو شاء وهؤلاء الاتباع المخلصون لم يضايقهم مطلقا «تدمير قاعدة عملياتهم» اكثر مما تتضايق أسراب الزنابير الحمر المحلية التي قذف عشها بحجر فأتلفه. وهكذا وجدت ثلاثة افواج نظامية من اصل سبعة زحفت عليه، نفسها في فخ بين الصخور فاستسلمت له بكل اسلحتها وذخائرها ومدافعها ولم يلحق الجبليين خسارة مقابل ذلك. واخليت الموصل من كل قطعات الجيش المرابط فيها وارسلت لمواصلة القتال ودب في قلوب سكانها رعب شديد وخافوا ان يقتحم مدينتهم اولئك الجبليون العتاة بقضهم وقضيضهم. لكن الشيخ آثر ان لا يخطو هذه الخطوة التي قد تجعل الشق كبيرا يتعذر التحامه. ولا شك ان احجامه هذا لم يكن ينطوي على تخوف فارغ ايضا. وقيل انه صرح على سبيل التهديد بأن الامور ان ظلت تسير على هذا النحو فان في نيته احتلال المدينة وتسليمها لنائب القنصل البريطاني. ان السيد نائب القنصل المذكور ليس راغبا بطبيعة الحال في هذه الهدية العظيمة التبعات غير المريحة ابدا!

اخيرا تم الصلح بين الفريقين. وكان من دواعي سرور الشيخ ان يعزو الصلح بصورة رئيسة الى مساعي البريطانيين الطيبة. مع ان العامل الاصلي كان في الواقع تدخل الوالي الذي عرف برجاحة العقل (عين مؤخرا لولاية الموصل)[12] اما مجهودنا نحن فقد اقتصر على الطلب من السلطات المحلية اطلاق سراح نساء الشيخ ومعاملتهن بالاحترام اللائق، وانه لم يعد ثم ما يستوجب بقاء «اولئك المتأمرين» في السجن، بعد ان اثبت التحقيق الرسمي ان المؤامرة التي اتهموا بها لا وجود لها قط. على ان «الشيخ كريم مع من يكون معه كريما» وان اولئك الذين هم على استعداد «للاتفاق مع روب» هم الرابحون في الصفقة عادة!

ومررنا ونحن في سبيلنا، بميدان احدى المعارك. انه تجويف بركاني في قفر يباب تقوم على جانبيه جبال صخرية شديدة الانحدار. فها هنا اصطدم احد افواج الحكومة بالشيخ ومقاتليه اذ كان موجودا بشخصه في هذه الوقعة. على انه ترك مهمة ادارة القتال بصورة فعلية الى

---

[12] هو الوالي (ناظم باشا) الذي كان واليا لبغداد (فيما بعد القائد العام للجيش العثماني في حرب البلقان) اغتاله القوميون جماعة (انور باشا) اثناء مفاوضات الصلح. هذا الوالي عفا عن الشيخ البارزاني وبرأه من كل تهمة بمنحه هبة مالية قدرها الف ليرة على الورق! على ان الشيخ كان قد تضرر كثيرا جراء نهب قراه ولم ينل غير حميد الذكر.

شخص يدعى (عبدالقادر) الذي كان يعمل بمثابة ضابط ركن له، وهي اولى الاشتباكات التي رقيت الى مرتبة المعركة بالمفهوم العسكري. كان رجال العشائر يتهيبون فكرة الالتحام بجيش الحكومة، فلاجل ان يلهب الشيخ حماستهم ويقضى على ترددهم، اطلق الرصاصة الاولى، واطلاق رصاصة واحدة في عرف كردستان يعني الاستنجاد والمعونة. امسك الشيخ بالبندقية واطلق طلقة نحو السماء بملكة درامية رائعة، كأنما يستمد العون من الله نفسه، فكانت معجزة اليوم. اذ تم اسر الفوج كله مع ثلاثة مدافع جبلية. انها اعجوبة عظيمة تحققت على يد قداسته[13]

ورفعت من مقامه فهو لم يسجل نجاحا ثمينا في مجال سلطانه الدنيوي وحده وانما كان دليلا جديدا على قواه الروحية ايضا.

والشيخ في نظر اتباعه ليس مجرد زعيم قبلي كبير، فهم يعتقدون بقداسته الموروثة[14]. ورجال عشيرته هم اتباعه الروحيون (مريدون) وهذه الحقيقة تؤكدها حادثة جرت في وقت سابق على هذا بقليل قصها علينا مار شمعون جاثاليق الاثوريين الذي يتمتع بمكانة مماثلة للشيخ البارزاني بين اتباعه[15] كان أحد الارتال العسكرية يعقب الشيخ وفي اثناء ذلك قبض على صبي تأخر عن الجماعة الفارين. فطلبوا منه مهددين ان يدلهم على الجهة التي سلكها شيخه الا ان الصبي كان أصلب من الحديد وأجابهم. «اقسم باسم الشيخ المبارك اني لن اخبركم!» وكان هذا كل ما استطاعوا انتزاعه منه بعد صنوف الترغيب والتهديد. وتشاء الصدف ان يكون قائد الرتل التركي طيب القلب فلم يسيء معاملة الاسير الصغير. لكنه لم يتردد في استخلاص حكمة من سلوكه بعد ان اخلى سبيله فقد قال لضباطه وهو يبتسم - لن نربح من هذه الحرب شيئا. وبامكانكم ان تحكموا من هذه الواقعة على طبيعة الرجال الذين نقاتلهم. فهذا الطفل كان تحت رحمتي تماما ولن يحاسبني احد عن قتله لو شئت ذلك، ومع معرفته هذه الحقيقة فقد تحداني وحلف باسم شيخه كأنه يحلف باسم الله.

في مساء اليوم التالي من مغادرتنا بارزان وصلنا مشارف قرية «سورايي» وهي تقع عند زاوية الدخول التي تتألف من تلاقي نهر الزاب بنهر اورامار - قرية بائسة صغيرة تضم حوالي

---

13 اللقب الصحيح المستعمل لمخاطبة الشيخ هو «قوربان».

14 كان الجيش الذي جرد عليه خليطا من النظاميين والمرتزقة (الجاش) انصاف المدربين ولم تكن ضمائرهم مرتاحة لحربهم شخصا له هذا المقام الديني المقدس. كذلك كان معظمهم يدري انه لا يدافع عن مصالح الحكومة وانما عن مصالح (ص. باشا) ولم تتعد اجراءات الشيخ الشيخ بعد انتصاره اكثر من نزع سلاح اسراه واطلاق سراحهم بعد أخذ العهد والميثاق منهم بألا يحاربوه ثانية. لما لم يكن لديه سجن يحفظهم فيه فالبديل الوحيد هو ان يقتلهم وهذا معناه حرب ابادة وهو شيء لم يكن يرغب فيه قط.

15 القسم الاعتيادي الذي يتداوله افراد قبيلة التياري الاثورية هو «براس مار شمعون».

عشرين كوخا، انتشرت على سفح الجرف ولا تبعد كثيرا عن النهر. ـنع من الضفة تقوم قلعة آغا القرية وهي بناية ساذجة الهندسة محصنة بالاسوار كأنها برج مراقبة حدود من الدرجة الثانية. وكان متوقعا لنا ملاقاة الشيخ هنا لانها موضع الاستراحة المتفق عليه عموما بين العمادية وبارزان. فقطعنا نهر اورامار وعرجنا الى القلعة.

كانت الساعة تقارب الخامسة مساء عندما بلغنا اول بيوت القرية وكان حشد الرجال والخيول والجياد المجتمع حول القلعة دليلا على وصول الشيخ وحاشيته قادما من العمادية. وسبقتنا انباء وصولنا واستقبلنا وفد من لدن (قداسته) ينقلون لنا دعوة منه او بتعبير اخر «امرا منه» تحت الظروف الراهنة(!) كيما ننعم بضيافته تلك الليلة. فترجلنا عند باب القلعة بين حلقة من الاتباع الغلاظ الشداد. واستقبلنا الشيخ على رأس درج حجري خشن المرتقى محييا مرحبا وقادنا بنفسه الى (بيلايي)[16]:كپره) كان يستخدمها بمثابة قاعة استقبال مؤقتة ورجانا ان نجلس على المطارح التى بسطت لنا حالا قبالته.

وكان تنازلا عظيما من رجل عظيم ان يخرج للقائنا على رأس الدرج، ان اغلب الشيوخ البارزين يتعمدون ان يكونوا خارج الغرفة عندما يدخلها الزوار الاوروبيون كيلا ينهضوا في استقبالهم مؤكدين بذلك تقدمهم عليهم. لكن الشيخ البارزاني كان يدخر لنا تكريما اسمى من هذا بتنازله الى تناول طعامه معنا وهذا ما اصاب اتباعه بتردد واضح. كيف يمكن ان يأكل قداسته مع اثنين من الكفار (الگاور)؟

«عبدالسلام» شيخ بارزان. رجل في مقتبل العمر يناهز الثامنة والعشرين. وهو كمعظم سكان الجبال متوسط القامة ضامر الجسم ممتليء حيوية ونشاطا، ذو وجه مهيب بشوش. كان يضع على راسه عمامة بيضاء فوق قلنسوة، ويرتدي صدارا وسروالا بلون ابيض وعليهما جبة سوداء مطرزة بالاحمر وفوق الجميع عباءة خضراء. وتتألف حاشيته من ثلاثين الى اربعين تابعا مريدا يتميزون بعمائمهم الحمر ذات الاهداب السائبة ، وكان اكثرهم يحمل مائتي اطلاقة او نحوها من الخرطوش الكروي وبندقياتهم التي هي من طراز (شنايدر ومارتيني) كانت قد اسندت واحدة فوق الاخرى على حائط البيلايي. وكان الجميع يظهرون لزعيمهم الشاب اسمى مظاهر الاحترام والطاعة. ولاجل ان نتقدم للقاريء بتفسير دقيق لما نقصده من الاحترام الذي يشعرون به نحوه، وجب علينا ان نذكر انه شخصيا (مزار) أي موطن زيارة بكل ما في هذه الكلمة من معنى، واوامره التي يلقيها على اتباعه الاقربين تطاع فورا وتنفذ دون سؤال. وليس ثم غرابة في امر يصدره بقتلنا بدلا من استضافتنا لتراه ينفذ فوراً بدون تردد وان كنا أوروبيين.

---

[16] البلايي هي الطبقة العليا في عدة بيوت في الجبال مفتوحة تماما من احد الجوانب (الشمالي منها عادة) ويكن مسكن الاسرة الرئيس في قيظ الصيف. وفي الشتاء يستخدم مخزنا للتبن و بهذا يساعد على تدفئة الغرف التحتية.

لقد ضربوا مثلا عمليا لمغالاتهم في طاعته بحادث وقع بعد زيارتنا بزمن قصير، كان يوجد نزاع قبلي طويل الامد بين قبيلة (التخوما) وبين بعض جيرانهم الكرد المسلمين تفجّرتْ براكينه مؤخرا وبات ينذر بشر مستطير. وحاول الطرف المسلم محاولات غير مستحبة لاقناع اخوانه الاخرين في الدين بالانضمام اليه لشن حرب (جهاد). ولقد أصبنا براحة عندما علمنا أن شيخ بارزان تدخل لفض النزاع تدخلا جديا حازما بعد ان رفض الموافقة على (الجهاد) رفضا قاطعا، ومنع اتباعه ومريديه من التدخل. لقد اقحم نفسه في هذه القضية لانه غيور على استتباب الامن واشاعة النظام ليصنع معنا جميلا اذ انه لم يكن مرتبطا باي التزام ادبي مع التخوما لا سيما بعد ان رفضوا أيواءه عندما كان الجيش التركي يتعقبه.

وبحرمان (الجهاد) بركة الشيخ وموافقته تطاير في الفضاء متبددا كغاز فقاعة الصابون المنفجرة. على انه كان دائم الخوف من قيام أحد أتباعه بشق عصا الطاعة عليه رغم أوامره الصريحة المذاعة عليهم. وشعر بشكل ما ان واحدا منهم واسمه (تتو آغا) قد أضمر العصيان. وكان اكبر معارضيه في اجراءاته فعلا. فأرسل اليه احد اتباعه ليكرر عليه أوامره. فدخل الرسول قلعة الاغا واقتيد اليه حالا فابلغه رسالة شيخه الا ان الاغا كان عنيدا فلم يوافق. فأعاد الرسول التحذير لكن «تتو آغا» بقى مصرا ولم يتزحزح عن موقفه فختم الرسول كلامه بقوله:

- كلمة الشيخ يجب ان لا تكسر. الشيخ ارسلني اليك لابلغك بأن تبقى في دارك.

فأجاب الاغا راكبا رأسه:

- انا ما علي من الشيخ، فليرسل امره الى غيري لاني لا اطيعه.

فقفز موفد الشيخ ورمي بنفسه على«العاصى العنيد» وبعد دقيقة واحدة خرج من الغرفة مشهرا خنجرا تقطر منه الدماء. مخلفا «تتوآغا» ميتا في مجلسه وهو يقول:

- كلمة الشيخ يجب ان لا تكسر.

وعدت الحادثة تأديبا صارما فيه بعض الغلو. لكن لم يفكر احد في الاحتجاج، فالمرحوم «تتو» لم يكن محبوبا. وعلى كل، ماذا تتوقع له غير هذه النهاية عندما «ابى ان يصنع كما طلب منه ماكالوم مور M Callum More».

كانت البناية التي نجلس فيها مع قداسته نشرب الشاي وندخن السيكارات، مرسحاً لواقعة قد يصفها الرائد (دوگالد دالگيتي)بـ (كاميسادو Camisado)[17] صغيرة ظريفة جدا!«حدث ذلك في اثناء الحرب الاخيرة وكانت هذه القلعة مهمة نوعا ما لانها في موضع قريب من الجهة المتقدمة وخسارتها كانت كارثة بالنسبة الى الشيخ عندما خانه الاغا المكلف بالدفاع عنها

[17] هجوم ليلي يقوم به الجنود وهم مرتدون قمصانا فوق دروعهم لكي يتعرف به احدهم على الآخر. وهي كلمة أسبانية مأخوذة من Camisa اي القميص (المترجم).

وقام بتسليمها الى الاتراك. وكان الاغا يدرك جيدا بعد عمله هذا حقد سيده عليه فحصنها وزاد من حاميتها ووضع حراساً في ربايا حولها وضاعف النقاط الخارجية على مداخلها ووضع فيها كلابا مدربة. وكان يتعذر مهاجمتها من جهتين بسبب النهرين اللذين لا يمكن عبورهما صيفا وشتاء لبرودتهما و لجليدهما. اما الجهة الثالثة فيحميها جبل شامخ سفحه شديد الانحدار لا يمكن الصعود اليه الا بمشقة حتى ولو كان الوقت نهارا. لكن رجال الشيخ انتهزوا فرصتهم في احدى ليالي الشتاء حيث كانت عاصفة ثلجية شديدة الجأت حتى الكلاب على البحث عن مأوى فبلغوا القلعة وخنقت العاصفة صدى ضربات معاولهم وهي تهدم جدار القلعة وترفع حجرا بعد اخر وبعد فترة تمكنوا من فتح ثغرة تتسع لدخول رجل واحد زحفا. وبانبلاج فجر اليوم التالي وُجِد الاغا الخائن ميتا وحوله كل رجال الحامية أحياء!

وكان السيد الذي استضاف الشيخ و استضافنا فيها خلفا لذلك المسيء العاصي والمعروف عنه انه رجل ثقة.

وكان عشاؤنا يتألف من لبن وأرز مطبوخ بدجاج وشاركنا طعامنا الشيخ مع ثمانية او عشرة من ابرز اتباعه. كلهم مدوا ايديهم الى الاطباق بملاعق خشبية ومغارف ولم ياكلوا الا النزر اليسير، ولعل هذا من آداب السلوك (الاتيكيت). ولقد ضرب الشيخ مثلا بقلة الاكل فقد كان يشعر بوعكة، وفي مناسبة عندما جاء الشيخ لزيارتنا فقد قيل ان اتباعه الاربعة الذين رافقوه أكلوا خروفا كاملا [18].

لا يكلّم الشيخ رجاله الا نادرا واذا تكلم مع احدهم هش له وبش وفي كثير من الاحيان ابتسم. ويبدو انهم لا يبادلونه الحديث قط ولا يتكلمون الا اذا سئلوا اما معنا فقد تحدث بمساعدة ترجمان فهو لا يتكلم غير الكردية وكانت الشؤون السياسية المحلية للريف مدار حديثنا معظم الوقت. وكان ينعى فقدان سيادة القانون في كل مكان، وهو في رايه من سوء حظ المسيحيين والمسلمين (نخشى ان لا يكون سوءه متساويا بين الفريقين!.) واستغرب من عجز بريطانيا وروسيا عن ادخال الاصلاح الى هذه البلاد وتساءل قائلا.

- لقد ذهبتم الى الهند وبقيتم هناك مع انهم لا يريدونكم. لماذا لا تأتون الى هذه البلاد فأهلها يريدون التعلم منكم.

مشاعر كهذه تلمسها بصورة عامة عند كل الشيوخ البارزين ذوي المقام الرفيع. فهم يحترمون اي حكومة صالحة قوية بصرف النظر عن هويتها او مذهب شعبها الديني. ان الناس

---

[18] عدا ظلفا واحدا اذا ما توخينا الدقة. وهذا الخبر نقله الطباخ. والعهدة على الراوي. ويشير (سير والتر سكوت) الى ان سكان الجبال الاسكتلنديين اكولون الى درجة الافراط عندما تسنح لهم الفرصة. اما في الاوقات الاعتيادية فمقدار ما يأكلونه تافه لا يذكر (المؤلفان). يكاد يجمع كل الرحالة والكتاب الذين زاروا كردستان بأن الكردي قليل الاكل (المترجم).

الوحيدين الذين يرضيهم الوضع الراهن في تركيا الاسيوية هم اولئك الذين يستحقون الشنق، ونحن نضمن لك أيضا ان هذه الطبقة من الناس ستفوز في أية انتخابات عامة.

ولما سمع الشيخ اننا عائدون الى انكلترا بعد أشهر قليلة على الاغلب ابدى استعداده لمرافقتنا (بحاشية كبيرة طبعا) لكي يطلب شخصيا من (رئيس اساقفة كانتربري) فتح مدارس في قراه. ثم يقصد الملك جورج بزيارة ويجلس معه للبحث في قضية «كردستان» والبت في امر استقلالها ولم يكن في وسعنا نحن مع الاسف الشديد ان نؤمله بشيء. لكن اقتراحه كان مخلصا نابعا من قلبه بلا شائبة. وكان علينا ان لا نخبر الشيخ بموعد رحيلنا وان نكون على حذر لئلا يتسرب نبأ رحيلنا فيلحق بنا لان علائم الاصرار كانت واضحة في كلامه.

وبالاخير رغب في استشارتنا طبيا. فهناك عارض مرضي يضايقه في عينيه وهو في الحقيقة مرض التراخوما. ورجا منا ان نصف له علاجا يشفيه من هذا المرض، ولم يكن بوسعنا ان نفيده بشيء في تلك الساعة لكننا تمكنا بعد وقت قصير من اصطحاب طبيب انكليزي من مستشفى البعثة التبشيرية .C.M.S [19] بالموصل ليستفيد الشيخ من خدماته ومهارته وكان قد شاع في ذلك الحين ان الشيخ استشار طبيبا محليا (حكيما) يزيديا جوالا قذفت به الريح الى بارزان فشخص هذا الحكيم ماء العين النازل بانه متسبب من زيادة الدمع خلف محجر العين واقترح ثقب رأس الشيخ من صدغ الى صدغ، بسفود محمر يبقى حتى يجف الدمع الزائد عن اللزوم من ينبوع الراس. قدم هذا الاقتراح الرهيب بكل جد وقبل بكل جد. لكن الشيخ البعيد النظر ارتأى ان يستشير الطبيب الانكليزي اولا. ونحن لا نعجب كثيرا لتردد سيادته في تعاطي هذا العلاج. الا اننا نشعر بالاعجاب للتأكيد الجريء الذي قطعه الطبيب اليزيدي! ان ثقب الراس من صدغ الى صدغ بسفود محمر من فرط الحرارة ليس موتا هنيئا. لكنه سيكون كذلك اذا قورن بالميتة التي تنتظر اليزيدي على يد اتباع الشيخ لادخال التعزية الى نفوسهم عندما يموت مريضهم موتا قبل الاوان من جراء هذا العلاج. ونخشى ان يكون فأل الشيخ قد خاب لما وجد الطبيب الانكليزي يرغب هو الاخر في اجراء عملية له. قبل الشيخ بها مشترطا ان يرى العملية تجري على احد رجال حاشيته الذي لم يكن يشكو من شيء قط. وكانت الجثة الزهيدة القيمة راغبة لكن الطبيب أبي. واخيرا قرر ان يصف علاجا ابطأ مفعولا واقل ضمانا، ونحن نأمل ان يكون ناجعا. على اننا شعرنا باغراء لا يقاوم في اجراء العملية الصورية التي اقترحها الشيخ ليتغلب على تردده في تسليم نفسه الى العملية الحقيقية.

لم يكن عندنا غرفة نبيت فيها تلك الليلة. فقبل مجيئنا كانت قلعة الاغا مزدحمة باتباع الشيخ واهل بيت الاغا. لذلك اذن لنا سيادته بالانصراف ورافقنا مودعا حتى رأس الدرج

---

[19] رمد العين مرض منتشر انتشارا هائلا في كل الاقاليم المجاورة وسببه الغبار والقذارة. وتزداد التهاباته كثيرا بالاهمال المتواصل.

وأرسل برفقتنا تابعا مقرباً لارشادنا الى المنزل الذي احتجزه لنا، وجاء لزيارتنا قبل الفجر بقليل ليودعنا (ليقول لنا في أمان الله) وليرد زيارتنا له مساء امس (حسب تعبيره) ولم تستغرق زورته الا بضع دقائق لانها كما ترى زيارة رسمية. فقد كان مستعجلا في سفره اذ رأيناه ما يلبث ان يركب متجها نحو معبر (اوره مار) واتباعه يحفون به في منظر جميل رائع.

لم نبدأ بسيرنا الا بعد ساعة. وكان علينا ان نلتهم الفطور الذي اعده لنا مضيفنا الاغا وبعث به الينا. زد على هذا كان ركب الشيخ سينتقل الى الضفة الثانية من النهر وسيستغرق على اقل تقدير ساعة واحدة قبل ان يخلو المعبر لنا. ومن ناحية ثانية اصر الاغا بألا داعي هناك للعجلة مطلقا ما دمنا نحن نقصد قرية (اردل) الصغيرة التي تبعد مسيرة ثلاث ساعات لا غير، واستحسن ان ننتظر حتى «تبلغ الشمس الوادي» وتدفيء الهواء المثلوج قليلا فتجعل الركوب اريح لنا. ثم راح من الجهة الثانية ينصحنا بألا نمضي في سبيلنا لان الطريق وعر جدا وامتطاء الدابة مستحيل «الخيل لا تقوى على السير. والبغال لا تقوى على السير والرجال الانكليز لا يقوون على السير». الا اننا كنا قد وعدنا بزيارة اهل تلك القرية لذلك لم نصغ الى اعتراضاته زد على هذا اننا رأينا من الغباء السياسي الاقرار بوجود موضع في العالم «لا يمكن للانگليزي السير فيه».

و (اردل) هي قرية مسيحية منبوذة تماما تكاد صلتها بالعالم الخارجي تكون مقطوعة. وهي تقع في وادي(اوره مار) فوق مصبه بنهر الزاب بمسافة قصيرة. والقرى التي تحيط بها يسكنها المسلمون. ولما كانت لا تحظى من عام لعام بزيارة مسيحي من الخارج فقد رجانا (ربان ورده) والح في الرجاء بزيارتها عسانا نكتشف فيها شيئا؟ فقد علم انها تكتنز بعض الكتب (القديمة) ولا يمانع اهلها في عرضها على «الرابي دكتور ويگرام» وبعثت لنا بشخص يدعى (ابراهيم) وهو (اردلي) وعدنا ان يقودنا الى مخبأ«الكنز». ان «الكتب العتيقة» في تسع وتسعين حالة من مائة لا تسوى المعاناة وركوب المشاق، لكن الباحث لن يغفر لنفسه اضاعة فرصة الواحد بالمائة المتبقاة من الامل!

ونهر (اوره مار) واسع لا يقل عن الزاب حجما يتدفق متقدما من مضيق صخري مهيب يحز الجدار الجبلي لنهر الزاب حزا عيقا. وقد اكدوا لنا بانه لم يصل اوروبي واحد قبلنا الى فتحاته. وقد تأيد لنا تأكيدهم هذا بما لا يقبل الشك حين وجدنا ادق الخرائط لهذه البقاع تترك هذا الركن خاليا تماما. ولضيق الطرق شعرنا بميل الى ترك حيواناتنا في(سورابي) والسير ثم العودة اليها، ولكن ترددنا لم يطل، فقد فكرنا بان الاغراء كبير ولا يمكن مقاومته حتى بالنسبة الى اغا من الاصدقاء وعليه قررنا ان نأخذها مضا.

اجتزنا(اوره مار) بالمعبر والتزمنا السير بمحاذاة الضفة اليسرى وما لبثنا ان دخلنا في واد ضيق صخري رائع المنظر تقوم على جانبيه جُرُف شبه عمودية سمراء ترتفع شماء اكثر من الفي

قدم، تعلو اوجهها العليا طبقات صخرية متكسرة على شكل خطوط وتكسوها طبقة خفيفة قرب القاعدة من كعوب شجيرات البلوط القميئة. وهناك نهير سريع عميق المجرى اخضر اللون يملأ الشق الضيق كله وهذه القناة تكاد تغص بمجموعة من اضخم الكتل الصخرية وقع عليها نظرنا. والظاهر ان ثم جيوبا عميقة عديدة خلف اوجه السفوح يتجمع فيها الماء ثم يفلق الجدار الصخري عندما يتجمد ويدحرج قطعا جبارة الى الوادي. ووجدنا عددا ليس بالقليل منها يبلغ حجم الواحدة منها حجم« ماربل آرج ».[20]

ان الشعب الذي طالعنا لم يكذب الوصف الذي سمعناه عنه في (سورابي) فهو يزحف متسلقا الضفة الشديدة الانحدار المشرفة على النهر، ضيقا متقطعا يكاد يختنق في كتل من الصخور التي سقطت عليه. وترتب علينا ان ننزل الاحمال عن ظهور البغال وننقل الامتعة عبر الصخور والعقبات الاخرى ثم نعيد تحميلها في الجانب الاخر. وظل دليلنا البارزاني ذو القلنسوة الحمراء الملازم لنا، يقف بين الفينة والفينة في الشعب ويتطلع اليها بابتسامة ظافرة مرتسمة على وجهه. على اننا لم نتمكن من معرفة قصده من حركاته هذه. أتراه يريد التعبير عن اعجابه بالمنظر الطبيعي الروائي. او عن تقديره للمناعة الدفاعية. او لعله اراد ان يبلغنا بأن قرية (اردل) راكبةٌ على اعلى قمة فيه وهي الحقيقة فعلا.

ولم تمر اشهر قلائل حتى اصبح هذا المضيق مرسحاً لمأثرة باهرة من مآثر شيخ بارزان سجلها ضد اولئك الهركية الكرد « اعداء الناس جميعا hostes humane generis »

كان قطيع البدو، لعنة وآفة المجتمعات المستقرة الآمنة، قد شرع بهجرته الربيعية - الخريفية السنوية من الموصل الى (اورميه) وبالعكس كما اوضحنا. ومع ان مسالك ارتالهم في الرحلة مختلفة، الا انها كانت تؤدي كلها الى نقطة واحدة وهي الجسر الصخري الممتد فوق الزاب بعيدا بمسافة قصيرة عن القمة التي تربض تحتها قرية (سورابي) فهنا ينحصر ماء الزاب عند صدوره من الجبال في شق ضيق بين رفين من الالواح الصخرية شبيه برصيف ميناء (بولتون) وهذه الالواح ثابتة في مكانها منذ الازل، والوادي هاوية عميقة جدا. وبالامكان عبور هذا النهر العظيم بقفزتين واسعتين فقط في نقطة واحدة منه حيث تقوم كتلة حجرية كبيرة في وسط المجرى.

من هنا، يعبر الهركية دائما في مكان يبلغ عرضه خمسا وعشرين قدما بعد ان يبنوا فوقه جسرا كل موسم ربيع ليبقى حتى فيضان الشتاء. وهو العمل الوحيد المفيد الذي يقوم به هؤلاء. ومن هنا خرج عليهم اله انتقام حجري القلب « كسوط يلهب ظهورهم » وفي هذا

---

[20] ماربل ارج او القوس المرمري هو قوس نصر في لندن ضخم حقا صممه جون ناش (١٨٢٨) ليكون مدخلا لقصر بكنهام الا انه نقل اخيرا الى موضعه الحالي بالقرب من هايدبارك (المترجم).

المضيق اعتادت الحكومة ان تضع عسكرها عندما تريد جباية ضرائبها منهم، وان الحقوا ضررا ما باحدى قرى البارزانيين، فالشيخ يعتصر منهم التعويضات هنا. ففي الخريف الماضي نهب الهركية خلال رحلة العودة الفين او ثلاثة آلاف رأس من الغنم تعود الى سكان بعض القرى المسيحية، فاستغاث الاهالي بالانكليز ولجأ الانكليز الى الحكومة. وبطبيعة الحال لم يكن ثم أمل في الانتصاف لهم. وفي الربيع التالي عندما اخذ الهركية يتهيأون لرحلة الصيف شرفنا شيخ بارزان بزيارة وكان يطلب ثأرا عند تلك القبيلة ولو لم يقلها لنا. ويادر الى شرح خطته على النحو التالي قال:

- فكروا مليا يا «افندم». الحكومة عاجزة عن اعادة قطعان الغنم المسلوبة الى اصحابها لانها كما تعلمون لا تملك عسكرا كافيا يؤمن تحصيل ضرائبها الخاصة في هذه السنة. والان، ما قولكم لو اقترحتم على الوالي تعييني لمهمة تحصيل تلك الضرائب؟ فربما استطعت اعادة قسم من هذه الاغنام المسلوبة؟

فهز «الافندم» كتفيه ولم يعلق املا كبيرا على هذا التدبير لكن الوالي العجوز الماكر تبين روح النكتة في هذا الاقتراح فورا. في الواقع انه كان قد فقد الامل نهائيا في جباية تلك الضرائب من شيخ بارزان نفسه. وهذه الخطة من شأنها «تشحيم بيرنات» كلتا الجهتين تشحيما رائعا فاسرع بتعيين الشيخ محصلا للضرائب.

وبلغ الهركية جسرهم المنصوب وهم جذلون لسلامته. فعبروه وتقدموا الى (سورايي) واسرع الشيخ فدمر الجسر خلفهم. ودخل رتلهم وادي (اوره مار) وبعد مسيرة اميال قليلة وجدوا اتباع الشيخ يقطعونه عليهم من امام ومن خلف وقد اتخذوا مواقع حصينة في شقوق الصخر واحاطوا بهم. ثم تلقوا مذكرة صارمة مؤدبة من سيادة الشيخ «المحصل العام للضرائب» يرجو فيها دفع الضرائب المتاخرة واعادة الاغنام المنهوبة مع المصاريف والنفقات فورا».

فوج كامل من الجندرمة لا يستطيع الحصول على هذا كله دون الاشتباك في قتال. الا ان الشيخ ألقى شباكه بمهارة، فلم يستطع اسراه خبط ارجلهم ولم يجدوا مندوحة من الدفع وهم شاكرون. وسلم آغواتهم ما استحق عليهم بطيبة الخاطر التي استطاعوا ان يتظاهروا بها كارهين في تلك المناسبة. ونحن لا ندري كم حصل اصحاب الغنم المنهوبة الشرعيون من حلالهم، الا ان الفرح الطاغي عم الاقليم كله عندما وجدوا العَضّاضين يُعضّون والسلابين يُسلبون.

مضينا في طريقنا عبر الوادي وسرنا ثلاث ساعات ونيفا. وهنا صرح (ابراهيم الاردلي) جَذلاً باننا انجزنا قطع نصف الطريق. ولما كان قد اكد لنا ان سائر الطريق لا يستغرق اكثر من ثلاث ساعات، فقد ثارت اعصابنا و «صببنا عليه كلمات باردة». وفي اللغة السريانية، كل

الاشيـاء «تُصب» فـانت تصب ضيـفك في الفـراش! وتصب خـصمك في الـسـجن[21] وتصب صـراخا على المرء عندما تناديه من بعـيد. وتصب كلمات باردة عليـه عندما تريد تعنيفـه وتأنيبه وعلى اية حال لم يكن في مقدورنا تأنيب (ابراهيم) المسكين بشدة لذنب تشاركه فيـه ملته كلها، وهو العجز التام عن التقدير الصائب للساعات والزمن.

بعد ان انحرفنا يمينا، وجدنا انفسنا في واد فرعـي وهو مضيق اشد ضيـقا من سابقـه، مظلم بارد ما زالت بركه متـجمدة صلبة على طول الجهة التي يغطيها الظل. وزاد الطريق انحدارا وكـثـرت منعـرجاتـه الحادة نحـو اليـمين كأنهـا الالتـواءات الاخيـرة للولب فـاتحة السـدادات الفيلينية. وصرنا نـتوقل قمة السفح الذي كان يلقي بظله على طريقنا طول الصباح. وكان اخر جزء منه، اشده انحدارا. الا ان الارض اقل وعـورة. وكانت بضـعة بروزات من الاطناف الجـبلية تحاول الظهور بمظهر الحقول المزروعة. اخيرا بلغنا هضبـة مستوية صغيرة اشبه بعجلة مسننة في سفح جبل. ووقع نظرنا على بضعة اكواخ حجرية تؤلف بمجموعها قرية (اردل).

ليست (اردل) ابعد بقعة في العـالم، فيـمكنك ان تستشرف من خلفها قـرية اخرى تبعد عنها مسيـرة اربع ساعـات او خـمسـا عـبر الـوادي. على انهـا على اقـل تقـدير - ابعـد نـقطة ننوي الوصـول اليـهـا. ان الموقع هو عش لفراخ العـقـبـان اكـثـر منه مـوطنا لسكنى البشـر. انه قـرية محشورة في لسـان اخضـر صغـير بين هاويتي واديين تشـرف على منظر فـخم للجبـال الشمـالية وهي سلسلة تلي سلسلة بسبعة صفوف من القمم الشـامخة تنتهـي بقمم جبال (سات وجيلو) المتوجة بالثلوج التي لا يقل ارتفاعها عن اربعـة عشـر الف قدم. وفي كل هذا البلقع الـوعر لا تتبين مجتمعا بشريا مهمـا صغـر. ولا عجب ان وجدنا تلك القرى النائية تغلي غليانا كلما قصدها زائر من العالم الاخر.

و«انصب» الاهالي لتحيتنا واخذونا الى منزل رئيس القرية او مختارها واسكنونا في غرفته الوحـيـدة وافـسـحـوا لـنـا مـجلس الصدارة قـرب النار وتحلقـونا رجالا ونسـاء واطفـالا وراحوا يتسـابقون الى تقبـيل ايادينا. ولم يكن الجمع منفرا أبدا فكثـير من الصبـايا جـميـلات حقـا، شعرهن أسود وبشرتهن بيضـاء وهن ممتلئات الجسم لوحتهن الشمس بظلال برونزية عـميقة مثل رجالهن. يرتدين ثوبا أزرق وعمامة ويتمنطقن بحزام ازرق واكمامهن الطويلة معقودة النهايات بعضها ببعض خلف الظهر حتى لا تعرقل حركاتهن. وزي الرجال كغيرهم من الكرد الجبليين[22] هذا وان زي المرأة الجبليـة الاعـتـيـادي يتـألف من ثوب طويل يمتد من العنق حتى ينـتـهي الى نصف المسـافـة بين الركبـة والـكاحل يلي ذلك صـدار فـيـه بعض الطول مسـدود من الاعلى

---

[21] هنا تعطي العبارة معنى حرفياً بشعا. فسجن عقرة مثلا اشبه شيء بالقارورة. انه جب مثل السجون التي تراها في (النويك) و (بركلي) وكثير من القلاع الاوروبية التاريخية.

[22] انظر الفصل السـابق من هذا الكتاب.

ومشقوق من الاسفل عند الخصر ويشد الثوب والصدار على الجسم بنطاق. وتضع المرأة على رأسها منديلاً كبيراً يلم ويشد وراء الظهر عند القذال. وعند (التخوما) يُعتاض عن المنديل بطاقيات كروية تتدلى من أطرافها نقود فضية. وهن يسرحن شعورهن الى الخلف مجدولا ثلاث جدائل او اربعا او خمسا، كلها تنوس خلف الظهر ويكمل تصفيف الشعر بربط نهاية كل جديلة بعذبة من شعر الخيل طولها ستة انجات. ويكون قماش الثوب عادة مزركشا بصور وتهاويل، ويغلب تفضيل القماش المخطط للصدار ويفضلون الاحمر الهندي والازرق النيلي، وهن يسرن حافيات في قراهن لكنهن ينتعلن خفا منسوجا شبيها بخف الرجال عند خروجهن في سفرة [23].

ومنزل (الريس) نموذج للكوخ الجبلي الاعتيادي. فجدرانه مبنية بالحجر غير المنحوت وارضيته مفروشة بتراب مدكوك دكا. اما السقف الواطيء المستوي الكثير السخام بسبب الدخان، فيقوم على جذوع غير منجورة من خشب الزان تفرش فوقها طبقة من القش والاغصان اليابسة[24] تليها طبقة ثخينة من الطين. والطين بطبيعة الحال يتشقق في موسم الصيف فيتسرب الماء من تلك الشقوق فيعمدون الى رأبها بعملية سهلة وهي امرار حجرة اسطوانية فوقه عدة مرات فيتماسك وتلتحم الصدوع يغدو السطح قطعة واحدة لا ينفذ منها المطر عند سقوطه. واما «التنور» او الموقد فهو على شكل ثقب سلة من سلال النحل يحفر وسط ارض الكوخ [25] ويجد الدخان منصرفا سريعا له من ثقب في السقف. وليس في الغرفة نافذة، وبابها منخفض جدا ولهذا يقوم منفذ الدخان بوظيفة الشباك اذ يسمح بدخول نور النهار.

مسكينة قرية (اردل). فهي منسية منعزلة تسبح في ظلام الفقر والجهل وهي اصدق مثل للحياة البشرية السائدة في القرى المسيحية التي يملكها الكرد في الجبال. كانت هذه حالها جميعا قبل مجيء بعثة رئيس الاساقفة. وهي كذلك بصورة عامة في قرى المناطق النائية

---

[23] ويرتدين احيانا ثياب الرجال لاسيما في الشتاء مثلا. لانها ادعى الى الراحة لهن في موسم الثلوج عندما تتساقط بغزارة. ذهبنا مرة لزجر احد العمال تأخر عن عمله صباحا فوجدناه في فراشه ولم تهدأ ثورتنا إلا عندما اوضح لنا عذره بقوله «لقد ذهبت زوجي الى العمل يا ابت وارتدت سروالي الوحيد» فانهت ضحكة من الرابي هذا النقاش فورا.

[24] يعيش في هذه الاغصان الجافة كل انواع الحشرات السامة كالعقارب والافاعي وهذه الاخيرة تترك على رسلها بل تشجع على السكنى هناك لانها تلتهم الحشرات الاخرى. ويتم التخلص من الهوام بايقاد نار عظيمة تلقى فيها كميات كبيرة من قرون الغنم والماعز(قرون البقر والثيران لا تفي بالغرض). ويبدو هذا وكانما يقصد به التخلص مما هو اسوء جدا من الافاعي.

[25] ويستخدم التنور ايضا بمثابة مرن، فعندما يغدو النار فيه جمرا يخبز عليه ارغفة الخبز الرقاق (وهو الشكل الذي يخبز به الدقيق في الجبال عادة) اذ ينشر العجين ويدحى حول جدران الحفرة الساخنة.

كاقليم (بوتان). والحق يقال ان (اردل) تستحق التهنئة من عدة نواح. فاهلها يقرون انهم لا يجدون سببا للشكوى من الناحية السياسية لان صاحب القرية وهو آغا «سورايي» فيكون سيدهم الاعلى والحالة هذه، شيخ بارزان الذي عرف بلقب «شيخ النصارى» لانه يعامل النصارى واتباعه المسلمين على قدم المساواة. وتسامحه هذا جعلهم ينعمون بالامن والحصانة من الاضطهاد والنهب والسلب. وهم يقدمون عنه عين الشهادة التي منحت لـ (بريان بورو Brian Boru) ملك ايرلندا في الازمان الغابرة اذ قيل عنه «بامكانك ان تترك حلية ذهبية في دغل على مقربة من الطريق ضمن املاكه وانت آمن عليها تماما».

الا انهم منقطعون عن اخوانهم دينيا. والظاهر ان جاثاليقهم قد نسيهم. فكل القرى المحيطة بهم يسكنها كرد مسلمون واقرب قرية منها اليهم تبعد عنهم مسيرة يوم كامل. صحيح ان لديهم بيعتهم وكتب صلواتها وقسا يملك كوخه وارضه الموقوفة، لكن اين القس؟ لقد مرت ثلاثون سنة عليهم وليس لديهم كاهن دائم مقيم، لم يزرهم شماس واحد خلال هذه المدة الا في القليل النادر. ثلاثون سنة مرت عليهم وليس من يقيم الصلاة لهم او يزوجهم او يعمد اطفالهم او يدفن موتاهم. فكان من الطبيعي ان الرجاء الاول الذي تقدموا به للرابي «مستر ويگرام» هو ان يتلو على مسامعهم على الاقل صلاة الجناز بالطقس (الانگليكاني) امام قبور الموتى الذين وافاهم الاجل خلال السنوات المنصرمة. والحق يقال ان بقاءهم مسيحيين ولو بالاسم فقط، طوال هذه المدة وفي ظروفهم العصيبة امر لا يمكن الاستهانة به قط. واننا لنشعر الان بالغبطة والارتياح اذ نذكر بان بطريركهم نجح في ارسال كاهن اليهم بعد زيارتنا بفترة وجيزة وهو جل ما كانوا يريدونه.

ظهر ان «الكتب القديمة» التي وعدوا بعرضها علينا هي كتب صلوات كنسية كما خمّنا[26] وكانوا قد بالغوا في اكتنازها، باخفائها في كهف تحت الارض يقع في كرمة، مدركين ادراكا غامضا بانها كتب مقدسة ولا اكثر من ذلك. في الواقع انهم كانوا يجهلون محتوياتها اذ لايوجد في القرية شخص واحد يعرف القراءة والكتابة وكان الكهف جافا لاننا وجدنا الكتب سليمة تماما. ولسنا نشك في انها اعيدت الى «الخزانة» تلك بعد رحيلنا مباشرة.

وبيعة القرية بناء صخري جيد قد يعود تاريخه الى القرن السادس عشر. ومع ان سكان

---

[26] ان معظم الكتب القديمة خرجت الان من مخابئها. والمواضع التي لم تفتش بعد هي قرى اليزيدية في سنجار. هذه القرى كانت فيما غبر من الزمن مسيحية وهناك اعتقاد عام (ينكره اليزيدية بشدة) بان كتبا مسيحية عتيقة ما زالت مخبأة بكل حرص وعناية في كهوف معينة. وقد سمعنا من كاهن سرياني انه رأى بام عينه بعضا منها عرض على الشمس ليجف من بلل لحقه وقت الفيضان فطلب منه الانصراف حالا عندما حاول ان ينظر فيها على انه تمكن من رؤية العنوان فوجده من مؤلفات (ديودوروس) وهو لاهوتي شرقي جليل ضاع كل مؤلفاته.

القرية لا يغشونها منذ مدة طويلة. فقد كان تنظيفها واصلاحها يجري بشكل منتظم. وقد رتلنا فيها مساء ذلك الاحد ترانيم المساء (الانكليكانية) والقرويون يحيطون بنا بكل خشوع ويرددون (آمين) وهي الكلمة الواحدة التي يفهمونها من النصوص. و«الشيخ برادر افندي» يقر هنا ان تلك الصلاة كانت من اروع واهم الصلوات التي ساهم بها.

وتجلت الحياة البدائية الغليظة التي يعيشها هؤلاء في العشاء الذي بسطوه لنا. في أي مكان غير هذا المكان يأكل المرء لحم الوعل الجبلي والخبز المصنوع من دقيق البلوط؟ يتبادر للذهن ان هذا النوع من الخبز تعافه النفس الا انه كان لذيذا، وثمر البلوط العجيب الشكل الذي ينمو في كردستان كبير الحجم قد يساوي كستنة صغيرة وهو ليس كالبلوط الانگليزي مر الطعم بل هو أقرب طعما الى الكستناء ويأكلونه كما نأكله مشويا على انهم على العموم يطحنونه طحنا دقيقا ويخلطونه بمقدار مساو من دقيق الشعير ليعملوا منه خبزهم. وهم يزرعون القمح بكميات قليلة فلا يمكن القول والحالة هذه ان خبز القمح مجهول عندهم، على انهم يأكلونه بنطاق ضيق.

وكشفت لنا (اردل) عن آخر عجائبها اثناء تناولنا الفطور صباح اليوم التالي وكانت على شكل صنف من أصناف الطعام. فقد آب بعض الصيادين ليلا بخنزير بري قطعوه اجزاء ليسهل عليهم حمله، على ان اظلافه الضخمة (كانت بحجم أظلاف البقرة) وجلده الغليظ الرمادي المائل الى لون الحديد أكدت انه كان هَوْلاً من الخنازير. ابتعنا قطعة لحم ضخمة منه بخمسة قروش (ما يعادل عشرة پنسات) وجلده وهو اهم ما فيه كانوا يمنون انفسهم ببيعه بمجيديين (ثمانية شلنات) لان الحذاء الذي يعمل منه حذاء ممتاز. انه لما يقرب من الجريمة ان تترك جلدا نفيسا مثل هذا يضيع منك بهذا الشكل الفاضح. لكننا لم ندر كيف يمكن حمله لو ابتعناه.

لادراكنا مبلغ الصعاب التي لقيناها في الوصول الى (اردل) بحيواناتنا، قررنا التخفيف من حملنا عند نزولنا. فدفعنا باهم حاجاتنا الى عتالين قويين تطوعا لارشادنا الى طريق مختصر لا يصلح لغير الانسان على ان تقوم حيواناتنا بسلوك طريق المجيء الطويل لنلتقى جميعا عند مدخل المضيق.

وجدنا انفسنا بعد بضعة اسابيع على رصيف (فلشينگ) ونظر الخولي الى المتاع الذي حمله العتالان من اردل نظرة حيرة وارتاى ان نستعين بعتالين قويين لحمله الى القطار. فذكرتني عبارته بمنظر آثوريين شائبين وهما يحملان كل هذه الامتعة على كتفيهما ثلاث ساعات كاملة دون وقفة ويسيران بها فوق جرف هار قد يقفّ له شعر رأس هذا الخولي رعبا. في الواقع ان كل حمل لم يكن يزيد وزنه عن الستين باونا وان بدا كبير الجرم، وهو حمل العتال الاعتيادي في جبال الالب.

واخذنا بعد نصف ساعة نتوقل تدريجيا وجه جبل. وعلى حين غرة وجدنا الارض تتلاشى

من امامنا بشكل تقطعت له انفاسنا، فقد انكسر خط السفح انكسارا مفاجئا تحت اقدامنا فلم نجد انفسنا الا والنهر تحتنا تفصله عنا هوة عمودية يناهز ارتفاعها الفين من الاقدام. انه لمنظر مهيب ان لم يكن رهيبا يدير الرأس. لكن دليلينا لم ينكمشا لحظة واحدة بل راحا يقفزان فوق شفة المنحدر بخفة ورشاقة عند الحافة كأنّ الامر عادي للغاية. اذن فتلك هي الحقيقة في الطريق المختصر ذي الساعات الثلاث التي جاءت بنا من (اردل) الى (سورايي) حيث «لا الخيل تستطيع السير ولا البغال ولا الانكليز». اما بخصوص الخيل والبغال، فلا يسعنا الا ان نؤيد الوصف بكل احترام. اما بالنسبة الى مشّاء قدير اعتيادي، فانه طريق وعر جدا على كل حال. صحيح انك تبدو من مسافة غير بعيدة وكأنك تسير فوق نهاية حائط، لكن الحافات وان كانت ضيقة فهي قوية، وهناك مسكات تستعين اليدان بهما على التوازن. زد على هذا، ان الصخور ولو بدت عمودية تماما بنظر الشاخص اليها من تحت كما تصورناها نحن صباح امس، قد وجدناها مائلة، كما انها ليست معرّاة تماما من الشجيرات لذلك كان يمكن للمتسلق ان يجتنب السقوط الى الهاوية بالتشبث بها. واسوء جزء قطعناه من هذا الطريق هو بدايته ونهايته. لقد أبت احذيتنا الاوروبية ذات المسامير البارزة ان تعلق بأديم الارض. واثبت العتالان بحذائيهما المصنوعين من القنب انهما اكثر راحة وانسب. هذه الاحذية القنبية تكاد تكون احذية الجبليين في العالم اجمع. ولست تجد أصلح منها للسير فوق الصخور. الا انها تحتاج يوميا الى ترقيع ليمكنك استخدامها في اليوم التالي. والاحذية الانكليزية هي الاخرى لا تتحمل طويلا مثل هذه المسيرات فانها تتمزق في غضون ثلاثة اشهر مهما كانت قوية الصنع.

استطعنا ونحن في متنصّف الطريق ان نتوضح بنواظيرنا جيادنا مقبلة خلفنا اثناء دقائق استراحة وراقبناها وهي تدخل فم الوادي الكبير منجزة قطع نصف الطريق تقريبا مع انها سبقتنا بمقدار ساعة. وكان علينا ان ننتظرها ساعتين كاملتين في فتحة مضيق (اوره مار).

8

استاذ فن الشغب والفوضى

نهري وجيلو

ان الوادي الذي تقطنه العشيرة البارزانية هو غور عظيم في سطح الارض يمتد شرقا وغربا من الجزيرة حتى دجلة مارا بالعمادية لينتهي بالجبال الواقعة على الحدود الايرانية. وهو بطوله الذي يناهز مائة وعشرين ميلا يبدو وكأنه خندق طبيعي هائل لقلعة حكارى الجبلية. اما سور القلعة المقابل فيتألف من سلسلة جبال موازية لها، أقل منها ارتفاعا تقع وراء (عقره) والشيخ آدي وربان هورموزد وتشرف على سهل الموصل.

ويبدو هذا الخندق العظيم متواصلا، لكنه في الواقع مقطع باربعة انهار مختلفة تنفذ اليه من الجبال الشمالية وتجري فيه مسافة ثم تنحرف جنوبا. ويدخل (الزاب) من وسطه تقريباً ثم يجري زهاء خمسة وثلاثين ميلاً. لذلك فان مقطعه لا يدخل في دائرة نفوذ بارزان تماما لان جزءه الشرقي يقع في مجال نهر (نيرى) الذي ينبع من جبال ايران ويصب في نهر الزاب.

لم يتطامن طريقنا عند دخولنا وادي نيرى، ولم نجد راحة في السير في اي موضع قريب من النهر وظل طريق سيرنا مرتفعا يحاذي ويلازم سفوح سلسلة جبال(سات) ونحن نعبر مضيقا تلو مضيق. وارهقنا صعودنا المتواصل ونزولنا المتواصل فكلاهما يستوي بالوعوثة وشدة الانحدار وكان الطريق نفسه ضيقا جدا والسفح يشرف مباشرة على هاوية سحيقة لا قرار لها حتى لكأن السائر يركب افريز سقف زلق للغاية.

وكنا قد تزودنا بمرافقين. لان (الهركية) في سبيل قيامهم برحلتهم الشتوية من سهل الموصل الى مراعي (ته رگور) الجبلية[1]، فكنا نلتقي بين الفينة والفينة بقطعان اغنامهم الكبيرة، وجماعات شاكية السلاح منهم. مسألة زاد من صعوبتها ضيق الطريق الشديد وكان الامر يحتاج الى كثير من المرونة، كانوا بالنسبة لنا رفاق طريق لا ضرر منهم البتة. فالتابع الذي أرسله شيخ بارزان معنا كان الضمانة الكافية لعدم التعرض بنا. ووجدنا هؤلاء (الهركية) أظرف عصابة لصوص يرغب المرء في لقائها وأخفها روحا. الحق يقال انه وقع بيننا وبين احد رعاتهم سوء تفاهم بسيط، وكان مبعثه سوء تقديرنا لا غير، لكن لم ينجم عنه سوء. كان ذاك الشاب الراعي منظرا يصعب علينا اغفاله وهو يسير في الشعب أمام قطيعه مرتديا عباءة من الصوف المضغوط (كچه) ومعلقا بندقية طويلة وعصا الراعي وغليونه مما يكمل بزته. فلم نتمالك انفسنا من الاشارة عليه بالوقوف دقيقة واحدة لاخذ صورة فوتوغرافية له. وكان

---

[1] قمنا برحلتنا هذه في ١٩٠٩ فتكون بذلك اسبق من الحوادث التي اتينا الى ذكرها في الفصل السالف.

صاحبنا هذا حديث عهد بآلة التصوير، فظنها وله كل العذر- سلاحا فتاكا، فعدا مسرعا كالارنب متواريا خلف صخرة قريبة وتهيأ لاطلاق النار علينا. ولم تفلح ملاطفاتنا في ازالة شكوكه، لان الاحداث الاخيرة جعلته شديد الريبة من كل شيء يرى فيه صبغة حكومية.

اذا كان الهركيون رفقة طريق طيبة لنا. فان كل القرى التي تقع على طريق رحلتهم تنظر اليهم مثلما تنظر الى الذئاب المهاجرة. ولذلك ترى القرويين متأهبين بسلاحهم يقظين لا يغمض لهم جفن حتى يزول الخطر عنهم. تراهم يجمعون اغنامهم في حظائر قريبة منهم ولا يتركون امراة الا واغلقوا دونها الابواب. لا ترتفع ايديهم عن زناد بندقياتهم وقد يصل بهم القلق والتوتر الى حد اطلاق النار على الغريب قبل ان يُسأل عن غرضه. خطر ببالنا ان نبتاع مقدارا من اللبن[2] اثناء مرورنا باحدى القرى فدفع به الينا من الشق الوحيد في الباب، بينما ظل رب البيت مصوبا بندقيته نحونا من خصاص آخر. ولما اسرعنا بتسليم الثمن بعملة الحكومة الرائجة، اغرقنا الرجل الفاضل باعتذاراته وامطرنا بوابل شكره من وراء بابه المغلق والمحصن بالمتاريس.

والحق يقال ان لهذا الاحتياطات ما يبررها. فالهركيّون يسلبون كل ما يصادفونه في طريقهم كما برهنت الحوادث التي أسلفنا ذكرها وهم يسرقون وينهبون «بخفة روح وراحة ضمير مثل قطاع طريق» لدسديل Liddisdail [3] المعروفين في ايام «سرميتلاند Sir R. Maitland العجوز.[4]

ياللمساكين البائسين! لقد ركبتهم الهموم واكتنفتهم المزعجات لان امورهم ليست على ما يرام. كانوا الى هذه الساعة قد افلحوا في التملص من ملاحقة جابي الضريبة بتوقيت رحيلهم أحسن توقيت ودعم ذلك بالبخشيش الذي دفعوه للموظفين. فاذا حزبت الامور وخابت تلك التدابير فما أسهل عليهم دخول الحدود الفارسية فلا تطالهم يد الحكومة. على ان احوالهم قد ساءت اليوم الى درجة كبيرة لان الحدود الايرانية ابتعدت عنهم كثيرا بسبب التغير الذي طرأ على تخطيطها مؤخرا. كما ان موظفي الحكومة العثمانية انتشروا في كل مكان حتى شوهدوا في المراعي الصيفية وهي أرض لم تطأها اقدامهم من قبل. وهكذا كان تصحيح الحدود الذي يقوم به الجانب التركي على حساب ايران[5] يعود بالويل والثبور والمتاعب الكثيرة على الاهالي الامنين.

---

[2] ومرادفها بالكردية(ماست) وهو الحليب الرائب. المشابه لـ «الزبدة في طبق فخم» على وصف جايل.

[3] وادي لدسديل في مقاطعة روكسبوروشاير باسكتلندا.

[4] سير ريشارد ميتلاند(١٤٩٦-١٥٨٦)، ربما كان المقصود هنا وهو الشاعر والقانوني. والجامع لاضخم مقدار من الشعر الاسكتلندي. ورجل السياسة. الذي كان احد وزراء الملك جمس الخامس(المترجم).

[5] كانت تركيا حين وصولنا قد جلت عن الاقليم المتنازع عليه.

بتنا ليلتنا في قرية (سات) التي منحت أسمها لسلسلة الجبال المجاورة. وهي قرية نسطورية ذاعت شهرة اهلها وضرب بهم المثل في حب الخصام وحبك الدسائس والفتن في تلك الانحاء حتى بين جيرانهم الكرد الذين لا يمكن وصفهم بالمسالمين. هذا على الاقل هو الوصف الذي خلعه عليهم بطريركهم وهو والحق يقال اوثق المصادر عنهم. وها نحن اولاء نسرد حكاية خرافية قصها علينا غبطته لتقريب الوصف الى ذهن القاريء وهي حكاية شائعة جدا هناك.

«خرجت امراة من (سات) في رحلة فلقيت وهي في طريقها شخصا كانت تعرفه منذ زمن طويل. جالسا على مقربة من قرية نسطورية. لم يكن هذا الشخص غير الشيطان بالذات (سطانه) وقد وجدته مقتعدا صخرة يذرف الدموع بحرقة قلب. فسألته المرأة مشفقة:

«ماذا يشكيك ايها الاخ؟

فأجاب الشيطان البائس بصوت باك:

«اني كسير القلب خائب الامل. فقد حاولت زرع الخلاف والبغضاء بين سكان هذه القرية طوال سبع سنين فلم اوفق حتى في اثارة شجار واحد. فما علي الا التسليم بالهزيمة.

«فقالت له السيدة:

«ابشر بتحقيق مرادك ودعني اجرب حظي.

«ثم دخل الاثنان القرية فقابلهما موكب عرس يخرج من البيعة توا. لا احد يدري الخطط التي نسجتها المرأة بحيلتها ومكرها، لااحد يدري! لكن ما مر نصف ساعة الا وكان العروس والعريس متلازمين ينتف احدهما شعر الاخر، وانقسم الاصدقاء بينهما كل يناصر طرفا واشتبكوا في شجار دموي عنيف. وهنا التفتت المرأة (الساتية) الى صديقها وقالت:

«والان يمكنك ان تبقى هنا سعيدا.

فاجابها الشيطان قائلا:

«ان وجودي هنا مع بقائك لا اهمية له».

المرء في(نيري) يكون خارج نطاق سلطان الحكومة كما هو الحال في (بارزان). على انه لا يقطع صلته تماما بالموظفين. ففي قرية من اقصى القرى تقع داخل واد عميق ينفذ في احشاء جبال (سات) وتدعى (بي كار) وجدنا (مدير ناحية)، وقد كان والحق يقال مجردا من اية سلطة فكل عملية تحصيل للضرائب في هذه الانحاء تقوم بها وكالات خاصة لا سلطة حكمية لها. الا ان هذا المدير بقي شاهدا على وجود (الحكومت) هناك. وكان كمعظم موظفي العثمانيين مسرورا للغاية بزائر مثلي طوحت المقادير به. ويخيل لنا ان ترحيبه بناكان صميما نابعا عن القلب، لا محض مجاملة وتأدب منه. ان فرحا حقيقيا كان يتملكه للكلام مع رجل مثقف بعد حرمان طويل حين لم يجد خلا الشرطة والكرد يتحدث معهم في هذه الوهدة من

الوادي. وقصته هي قصة كثيرين من طبقة الموظفين العثمانيين الصغار. وكان قد نال تحصيله العلمي في معهد حكومي خاص بالموظفين في استانبول. واجتذبه برنامج (جون ترك) الاصلاحي ودعاواهم وامانيهم في إحياء الامبراطورية العثمانية واصلاحها. وانكشفت ميوله السياسية ووصلت الى علم الحكومة فصدر من السلطان امر عاجل بنقله الى هذا الركن المنسي من الدنيا ووضع الى جانب اسمه شارة سوداء ففقد كل امل بالترقية او اي شكل من اشكال التقدم السلكي. ومر عليه في منفاه هذا ثلاث سنوات. وبمجيء الانقلاب انتعشت اماله في التغيير لكن الاعوام التي عقبت ذلك كانت شاهدا على ان النظام الجديد نسيه تماما كمانسيه النظام الزائل. وها هو الرجل المثقف الكفوء جالس في ركنه القصّي لا يِعمل شيئا، ناقم خائب الرجاء، موظف صغير الشان وهو ما يزال دون الثلاثين انها ماساة واحدة من المآسي الكثيرة التي يحفل بها الحكم العثماني.

وتقدمنا بصعوبة كبيرة في مسيرة ثلاثة ايام نصعد ونهبط ونهبط ونصعد ارتفاعات ومنخفضات قد تبلغ احيانا ثلاثة آلاف قدم. كانت الطريق سالكة دوما بالنسبة للبغال ولو تهولها المرء عن بعد وبدت له صعبة المرتقى. ولقد وجدنا ان الوديان العميقة بين كل زوج من القمم تتمتع بجمال نادر عجيب. وظل وادي (الهركيين) هذا عالقا باذهاننا بوصفه اجمل بقعة من بقاع الدنيا شهدناها، وهبطنا الشقوق وكتل الصخر المستوية المنبسطة على سفح الجبل وقطعنا حوالي الفي قدم نزولا على الاقدام بحوالي نصف ساعة في حين كنا نحتاج الى اربعة اضعاف هذا الزمن ولو استخدمنا البغال. وجئنا واديا هو في الواقع بستان تتحاشد فيه اشجار الجوز والزان وفيما بينها اشجار التين والعنب المتسلق. كلها بدت بكامل بهاء اوراقها النضيرة. والاشجار هنا تنمو وتثمر في التربة والماء الغزير والبستان الذي غشيناه محترم عند الكرد لسبب واحد يفوق كل الاسباب الاخرى. ففي الوادي مقبرة عظيمة يدل اسمها على انها كانت المسكن الاول للعشيرة الهركية التي ترافقنا في رحلتنا الآن. من هذه البقعة انطلق اسلافها الخمسة رؤوس، لتخرج منها البطون الخمس التي تؤلف اليوم كامل العشيرة. واليوم تنقل جثة كل ذي اسمٍ وصيت الى هذه المقبرة ليدفن الى جنب اسلاف بيته العظام. وهناك أساطير واخبار تنسج حول هذه العشيرة البدوية الشرسة لم يقلل من شأنها انها كانت تدين بالنصرانية عندما اتخذ اساقفة البدو من الخيم كنائس لاقامة القداس الالهي كأتباعهم النساطرة الكرد. وكدليل على قدم نصرانية الهركية ما قيل عن حملهم حتى يومنا هذا رأس القديس (جرجيوس) احد شهداء النصرانية الاسطوريين في الشرق على صدورهم، واعتباره حرز عشيرتهم الاقدس ويكون اما عند زعيم العشيرة الاكبر او عند ملا عظيم الكرامة في العشيرة. (ونحن هنا ننقل الاقوال التي سمعناها من كهنة النساطرة الطاعنين في السن لا غير).

الرحلة من (بارزان) - وامدها ثلاثة ايام - تنقل المسافر الى اقليم خصم زعيم تلك القبيلة.

واعني به «شيخ شمزيني»[6] (شمس الدين) الذي يسكن قصره في نهري (نايري). وهو على اقل تقدير بمستوى سطوة جاره البارزاني. حتى ان جده الشيخ «عبيدالله النهري (النايري)» فكر في اقامة دولة كردية مستقلة بين تركيا وبلاد فارس. وقد تمكن من الزحف على الدولة الثانية والنصر في ركابه حتى انه ضرب الحصار على (اورميه) عدة اسابيع. كان ذلك في اوائل السبعينات من القرن الماضي، الا انه فشل (وان كان نجاح شيخ من شيوخ[7] الكويت في عملية مماثلة يدل على ان نجاح الشيخ عبيدالله لم يكن من قبيل المستحيلات لو ان الظروف واتته). وقبض عليه وعلى ابنه (عبدالقادر) ونفيا الى استانبول. في حين ترك ابنه الثاني (صديق) على رأس القبيلة. وكان هذا الابن أشد مكرا من الوالد. فقنع بالسلطان الفعلي على قبيلته وجمع ثروة عظيمة من عملية تهريب التبوغ على نطاق واسع جدا. وكانت قوافله تدخل ايران ببغالها التي تزيد عن المائة، متحدية موظفي انحصار التبغ (الريجي).. ثم وظف جانبا كبيرا من ارباحه في عقد صفقات شراء البندقيات من روسيا وبيعها في اورميه! وان لم يكن الضبط والنظام قويين في معسكرات جنود روسيا التركمانيين فيكون مصدر كثير من البندقيات معسكراتهم لانهم كانوا يقايضونها معه بزجاجات الڤودكا.

في (نايري) يوجد قائممقام تركي مع مفتش انحصار. اسكنهما الشيخ في بيت جميل بناه من ارباح تجارته التي كان واجب وظيفتيهما ايقافها عند حد. الا ان هذين الحيوانين الاليفين تم تدجينهما تماما.

ولا يذهب دخل الشيخ كله الى شراء البندقيات او الى الرشوة (البخشيش) فقد كتب مرة لواحد من مؤلفي هذا الكتاب طالبا رسالة توصية الى بنك انكليزي قائلا ان لديه مبالغ من المال يرغب في ايداعها، فزكينا له بنكا او اثنين ولما كنا نعلم ان سيادته يطلب من البنك فائدة تتراوح بين عشرة بالمائة وخمس عشرة ويشترط سحب الودائع عند الطلب. فقد رجحنا ان القضية لن تؤدي الى نتيجة ما. لكن سرعان ما وجدت بضعة آلاف من الباونات سبيلها فعلا الى شارع لومبارد المالي بلندن Lombard Street. حقا ان امير المهربين هذا كان في سعة من الرزق، زعيم عصابة تهريب كردي ذو رصيد مالي كبير في انكلترا!!! انه ليبدو امرا صعب التصديق. ومع هذا فان «وليم هيكي» يحدثنا كيف ان مهربا بالجملة، اوقف مركبا سريعا قادما من الصين في عرض القنال الانكليزي واشترى منه كل شحنته من الشاي بصك قيمته

---

[6] يقال شمزيني. وشمديناني. وشمس ديني وكلها نسبة للاصل (شمس الدين). اما (نهري) بكسر النون. فهي من الاصل (نايري ونيري) (المترجم).

[7] لعل المؤلفين يقصدان هنا الشيخ «مبارك آل الصباح» اول امير حقيقي لدولة الكويت الذي تولى الحكم في ١٨٩٤ في ظروف عنيفة للغاية وتوفي ١٩١٥ بعد صراع دموي مستمر مع جيرانه في سبيل تثبيت حكمه (المترجم).

ثمانمائة باون وكيف ان هذا الصك قبل في البنك دون تلكوء. امثال هذه الامور كانت تحدث فعلا في انكلترا العام ١٧٧٠

كان (صديق) في ايامه الاولى قاسيا في اضطهاده المسيحيين. وحادثة فتكه عمدا باحد الاساقفة بعد ان دعاه الى بيته هزت ضمائر الكرد قاطبة[8] على ان السنين اكسبته خبرة وحكمة وادرك ان ذبح مزارعين حاذقين او سلبهم هو السفه وسوء التدبير بعينه. فترك الباقين احياء وان جعلهم بحالة اقرب الى العبودية والقنانة. وكان من ضمن املاكه رئيس الاساقفة المتروپوليتان حنانيشوع ثاني شخصية دينية كبيرة في الكنيسة النسطورية. كان رجل الدين هذا يسكن في بلاد الشيخ وفي ديره الخاص ومع انه سمح له باستعمال ما يملكه الا انه في الواقع اسير معتقل عنده كما كان بعض فرسان النورمان المغامرين في ايطاليا يعتقلون بعض الپاپاوات ويجعلونهم ادوات طيعة لهم ويحكمون بواسطتهم ومن خلالهم رعاياهم.

والشيخ صديق، باعتباره خلفا «للشيخ شمس الدين» فهو زعيم ديني وامام كبير المقام يتمتع بمكانة جليلة عند المسلمين بصورة شخصية ورسمية معا. ولهذا كان مرجعا لحل المشاكل المعقدة والنزاعات بين الخصوم. وفي ذات يوم دخل ديوانه كردي حائر وهو يتأبط ديكا ممتازا. وكانت المسألة التي تقلقه «ماذا يصنع بهذا الديك الذي دأب على التبشير بدين النصارى!؟» وسئل الشيخ عن تفسير للامر بعد ان قص الكردي الحائر كيف انه سمع هذا الطير يصيح ثلاث مرات:

-دين دين عيسى!

ولم يكن في القضية اي شك. لان الديك بادر يصيح حالما وُضِع امام الشيخ «دين دين سيدنا عيسى» بأعلى صوته. او هذا على الاقل ما فسر صياحه كل الحاضرين. فهي اذن معجزة لا ريب فيها. لكن اهي من عمل الشيطان ام من عمل الرحمن؟ ان كانت الاولى فالاشكال ينتهي بقطع رأس الديك. واذا كانت الثانية، افلا يتحتم عليه وهو المسلم الآن ان يطيع النداء ويصير نصرانيا؟

فكر الشيخ بهذه المعضلة. ثم نطق بحل هو من جهة فتوى تنم عن حذق وحضور بديهة، وهو من جهة ثانية قول مر الطعم في فم كل مسيحي لما يتضمن من سخرية بكثرة الشيع المسيحية وهذا ماتستحقه تلك المذاهب تماماً. قال الشيخ ان المعجزة هي من الله. وان الديك يجب ان يبقى حيا وينزل منزل الاحترام والتقديس. لكن لما كانت مذاهب النصارى عديدة وكل مذهب يزعم انه الدين الحق وانه يسير على دين سيدنا عيسى الصحيح، وبما ان الديك لم يصرح اي

---

8 انظر كتاب «جبال تركيا الاسيوية» Highlands of Asiatic Turkey بقلم لورد برسي Lord percy اما القتيل فهو «مار كبريبل» اسقف اورميه.

مذهب منها هو الدين الصحيح، لذلك فليس على المؤمن المسلم ان يفعل شيئا حتى يتفق المسيحيون على اختلاف مذاهبهم لاتباع دين واحد، او حتى يهبط على الديك وحي اكثر وضوحا.

هذه حادثة تظهر جوانب عديدة للتفكير الشرقي.

الشيخ (صديق) وغد اصيل لكنه ذو شخصية قوية مصقولة. على ان ابنه وولي عهده (طه) ورث عنه كل سوء طبعه ولم يرث عنه شيئا من فضائله القوية. وكان هو في التاسعة عشرة بدينا غاية البدانة، ان اضطر كارها الى السفر يوما واحدا لا غير، وجب ان يهيأ له بغلان من اضخم البغال توضع عليهما محفة وثيرة بشكل يجعل منها شيئا شبيها بالسرج لحمل هيكله الضخم. وهو يرتدي الزي الاوروبي او ما يخيل اليه انه كذلك. (پنطلون فضفاض وحذاء طويل العنق حتى ليشبه المطالب بالعرش The Claimant [9] شبها عائليا قويا). ومرة تورط اخوه الاصغر (الشيخ موسى) في حادثة مع القنصل البريطاني في (وان) فتلقى درسا ظل مطبوعا في ذاكرته. في ربيع العام ١٩٠٩ حل القنصل العسكري الانكليزي مع المؤلف في هذه المنطقة ضيفا على الشيخ طبعا، وكان غائبا عندما وصلنا ظهرا، فاطلقنا خيولنا للراحة ورعي الكلأ وبعد برهة من الزمن اقبل علينا احد القطرچية مسرعا بانباء تشبه كثيرا الانباء التي حملها خدام (ايوب) وبنفس حالة القلق التي استولت على عقول اولئك المساكين. ان السبئيين[10] المتمثلين بخدم الشيخ قد داهموا الخيل وهي ترعى فأخذوها وانطلقوا دون ان يقيموا وزنا للاحتجاجات.

وثارت عاصفة جائحة بطبيعة الحال، انها اهانة قتالة يصعب تصورها حلت بضيف وبقنصل انكليزي. وطلب من القائمقام المدجن الاليف اتخاذ التدابير لاعادة المنهوبات. فانتابت الحيرة المسكين وبات نهبا موزعا بين خشيته من القنصل ورهبته من سيده الشيخ. وانهارت اعصابه بين هذين وكاد ينفجر بالبكاء وراح يتمتم مرتجفا «ماذا أفعل؟ ورجال الشيخ هم الذين اخذوها» الحق يقال انه ارسل رجلي الضبطية مع حاجب (قواس) القنصل لاستعادة الحيوانات. لكن ما ان اصبح الرجلان خارج القرية حتى اقتعدا الارض وصارحا القواس انهما لن يقوما باي عمل ضد رجال الشيخ، أأمر القائمقام ام لم يأمر.

واعيدت الحيوانات مساء ذلك اليوم بالذات. والقصة هي ان شيخ موسى خطر بباله ان

---

[9] لا ندري بالضبط شخصية اي مطالب او مدع بالعرش الانكليزي قصده المولفان هنا. فقد كان ثم كثيرون من المطالبين بعدة عروش في السنوات التي سبقت الكتاب (المترجم).

[10] يشير المؤلفان الى ما ورد في سفر (ايوب) من التوراة عن قيام اهل سبأ بنهب بقر وأتن ايوب اثناء ما كانت ترعى، واسراع احد الرسل اليه لاخباره بذلك وهو جالس بين بنيه وبناته يأكل ويشرب (المترجم).

يخرج في نزهة مع نسائه فاصدر امره باحضار الخيول اللازمة متوقعا الطاعة والتنفيذ الفوري. فأجاب الخدم:

- مولانا لا يوجد خيول.

- كيف لا يوجد خيول؟ اليست هذه خيول؟

قالها مشيرا الى المرعى حيث كانت جيادنا تسرح.

- هذه خيول القنصل يا مولانا.

- خيول القنصل؟ وانا؟ الست شيخا؟

وهكذا اقتيدت الخيول اليه. ومن المؤمل ان الازعاج الذي لقيه من وراء ذلك، والغرامة التي فرضت عليه لقنت كل شخص درسا بليغا لا ينسى.

ان الخصام العائلي الذي نشب في السنوات الاخيرة قلص كثيرا من نفوذ (الشيخ سيد طه) فقد عاد الشيخ (عبد القادر) عمه من استانبول وادعى بالمشيخة ورئاسة الاسرة وهي من حقه بموجب التسلسل الوراثي. فنشب قتال بين العم وابن اخيه وهو ما لم يكن ليلحق ضررا بليغا بأي احد لو بقي اتباعهما يحتربون فيما بينهم. الا ان البلايا كلها انصبت بطبيعة الحال على رؤوس اقنانهم المسيحيين التاعسين الذين كان كل طرف يدعيهم لنفسه. وهكذا وجدوا انفسهم بين شقي الرحى.

واعتقل الشيخان. ثم تم التوصل الى اتفاق. ورضي (عبد القادر) بمعاش سنوي ضخم من املاك الاسرة على ان يتخذ من استانبول المدينة المألوفة لديه مسكنا ثابتا. مفضلا اياها على منصب شيخ بدوي في كردستان.

وبلغت بنا مسيرة يوم واحد من منزل الشيخ في (نايري) الى ارض العشائر المسيحية (الجيلو) و (الباز).

وكلمة العشيرة تقابل عندنا لفظتي Tribe, Clan وهم من جهة المنزلة الاجتماعية في الدولة العثمانية يختلفون عن (الرعية) او مانسميه بالمواطنين. فالمنتسبون الى هذا الصنف يدفعون خراجا (ان امكن استحصاله منهم) لا ضرائب. وقد بدأت الحكومة التركية الان بمحاولة بسط نفوذها عمليا على بلاد كردستان لو استطاعت الى ذلك سبيلا. وكل سكان المنطقة المسلمين كانوا حتى وقت غير بعيد يعتبرون من صنف (العشائر) مثل سكان الجبال تقريبا. ويعدون ممن هم (وراء الخط) في الايام التي سبقت الخمس والاربعينات من القرن الماضي. وقد اتفق ان عددا لا بأس به من الاهالي المسيحيين الذين يملكون سلاحا هم من (العشائر) ايضا.

والعزّل من المسيحيين هم في وضع لا يحسدون عليه. اذ وجب عليهم ان يخدموا سيدين في آن واحد وكلا السيدين من شر ما خلق الله. فهم (رعية) في نظر الحكومة بقدر ما تفرض

قوتها ذلك. وهم (رعية) عند الشيوخ بقدر ما يستطيع هؤلاء فرض سلطانهم. والوضع كله مفهوم عندما يتاح للمستطلع ان يعيش فيما بينهم. ويرى الاجنبي في كل هذا استهتارا بالنظام والقانون وبكل ما تعنيه عبارة (الحكم الصالح). انها حياة جبلي اسكتلندا القدماء عَقّدها وزادها سوءً وترَحا، التفرقةُ الدينيةُ بين المسيحيين والمسلمين التي كانت تغذيها الحكومة.

واستقرّ وضعٌ لا يمكن احتماله بين هذه العشائر المسلحة مسلمةً ومسيحيةً على السواء في كردستان الجيل الماضي. انه والحق يقال لوضع يستأهل الوصف والتصوير. فقد كانت العشائر تتناحر فيما بينها تناحرا دمويا دون رادع او رقيب. ويتلو ذلك الثأرات والاحقاد بطبيعة الحال. وفي اعقابها يأتي احيانا لا دائما خط التفرقة الدينية.

كان التسليح متساويا، ومع ان العشائر المسيحية اقل عددا من المسلمة فان مواضعها الدفاعية منيعة. وهم أشداء لا يقلون اقداما عن اقرانهم الكرد. وظلت الامور بينهم هكذا متراوحة حتى مجيء (عبدالحميد) الى الحكم والكفة متوازنة وهم يعيشون في هدوء نسبي وبينهم اتفاق ضمني يمكن اجماله هكذا «لأي من الطرفين المتصارعين ان يأخذ ما يريد لكن ما يترك لا يدمر. والنساء لا يتعرض احد لهن بسوء» وعلى هذا الاساس كانت الماشية سلبا قانونيا عادلا كذلك البسط وغيرها من اثاث المنزل، والاسلحة طبعا. لكن حرق البيوت والمزروعات وتخريب السواقي هي من المحرمات. وقد يترك المغير الشريف مخزن القمح. اما عدم التعرض للنساء عند غزو قرى العشائر فقد ظل تقليدا متبعا الى ان قضي عليه في السنوات الاخيرة، وكان الشرط متعارفاً عليه عند الجميع حتى لم تكن هناك ضرورة لحراستهن. ومثل هذه العادة كانت سارية في حدودنا الاسكتلندية خلال القرن الرابع عشر[11] وفي بعض الاحيان يتفق ان فئة كردية تطلب فئة كردية اخرى ثأرا فتغير على قرية مسيحية لهؤلاء الاخيرين. وبما ان سكانها رعية لشيخ عدو، فلا يجد المغيرون بأسا من نهب بنات القرية مع الماشية. وان حصل هذا فان المتزوجات يبقين في حصانة مطلقة.

لكن الامور تغيرت وساءت للغاية، فلم يعد للنساء حرمتهن كما كان الامر قبلا. ثم ان توزيع السلاح على الكرد بكثرة قضى على الموازنة. وحصل هذا عندما قام السلطان السابق عبدالحميد بتأليف ما يدعى «الآلايات الحميدية» لمحافظة عرشه من جهة، وليبقي المسيحيين في طاعته من جهة اخرى. وعليك الان ان تضيف الى عدم التعادل العددي، اهمية الفرق بين بندقية (الماوزر) وبين البندقية ذات الكبسولة التي تحشى من الفم. وهكذا بات الوضع لا

---

[11] انظر كتابات (الينياس سفليوس بيكولوميني) Aeneas Syvlius Piccolomini الذي أخذ عنه (ميليمان) والمسمى «المسيحية اللاتينية» (١٣:١٦). هذا وان المؤلف الايطالي اساء في الواقع فهم هذه العادة النبيلة.

يطاق واختلت الموازنة تماما وتردت الحال باطراد بين العشائر المسلمة والمسيحية.

في الزمن الماضي لم يكن القتال مميتا. كميات كبيرة من البارود المصنوع محليا كانت تحرق. الاّ ان هؤلاء الجبليين جبلوا من معدن صلب بحيث يصعب قتلهم. وقد رأى المؤلف بأم عينه كرديا اخترقت جسمه رصاصة على اثر نزاع قبلي. فسار على قدميه الى منزله وقال لزوجته وهو ينزع قميصه «شيء مزعج حقا! قميص جديد مزقه ثقبان وعلاوة على هذا يجب غسله».

و(جيلو) اقليم جبلي صغير المساحة غريب الملامح. انه مجموعة من الوديان الضيقة تنحدر مجاريها من سلسلة جبال (گله شين) الوعرة التي تنتهي بقمة (سپادوريك) بارتفاع اربعة عشر الف قدم. ومن اتحاد هذه المجاري يتكون نهر (اوره مار) وهو اهم فرع من فروع الزاب كما اشرنا في الفصل السابق. وليس ثم زراعة ممكنة هناك غير زراعة الحافات. فالارض كلها صخرية جرداء، والتراب الذي يؤلف تلك الحقول ينقل بسلال على ظهور الرجال عادة، ثم ينشر على البقعة ليكوّن طبقة من التربة. ومن الضروري ان يكون الحقل المختار بمأمن من الانهيارات الثلجية والا فقد يستيقظ الفلاح المسكين في صباح يوم ربيع ليجد زرعه قد جرفه الثلج مع حقله اثناء الليل.

وحياة رجال (جيلو) أشق من حياة اي جبلي اخر في كردستان. لهذا نما فيهم حب الحِلّ والترحال والتنقل بشكل فاق معظم ابناء جلدتهم، فمنهم من لا يتردد في الرحيل الى اية بقعة من بقاع الارض بحثا عن عمل. على انهم يعودون دائما الى هذا الاقليم الصغير العجيب كآخر مثابةٍ بعد مطافهم. انهم يبدأون بلا شيء خلا الثياب التي تكسو اجسامهم وهي مهلهلة خَلقة، ويظهر انهم لا يعرفون للجوع معنى، وقد يتفق لبعضهم ان يعود بثروة. انك لتجد رجالًا من (جيلو) ساهموا في بناء قلاع مدينة (پورت آرثر) يصححون لمؤلف هذا الكتاب بعض النقاط التي يوردها اثناء حديثه حول تلك المدينة المحصنة حين نوقشت وقائع حصارها في ديواخانة البطريرك. انك لتجد بينهم رجالا عملوا في مدفعية البوارج الامركية في انحاء (كوبا) واناسا وقعوا على رجل خير واحسان بشكل ما، فتكفل بالانفاق على تعليمهم الجامعي في امريكا. وهنا حادثة ذلك الجبلي الذي عاد بثلاثة آلاف باون، وبكلمة ادق وصل بها الى مسافة بضعة ايام من مسقط رأسه، ولكن حظه ادبر عنه في اللحظات الاخيرة وهاجمه جماعة من الكرد وسلبوه ثروة كانت غنيمة العمر لحياة الشر التي اعتادوها. انها والله اقسى لعبة من الاعيب الحظ. فلا بد وان هذا الجبلي جمع ثروته تلك، من اعمال غير مستقيمة لا تختلف كثيرا عن صناعة سارقيه ولا يمكننا ان نطرح جانبا شعورنا بان حق السلاب في الغنيمة لا يقل عن حق سارقها باستعمال الحيلة.

ان الصناعة التي اشرنا اليها فيما سلف هي هذه: اكتشف الجبليون ان الناس في اوروبا وامريكا يعطفون عطفاً شديدا على الكنائس العتيقة المكافحة. وهم لا يترددون في منح مبالغ

كبيرة من المال على سبيل المساعدة. فراح الجبليون يجمعون اكتتابات للمدارس والمياتم. والظاهر ان العشرات يسافرون لجمع المال لهاتين الغايتين. اما الحقيقة فهي انهم ينفقونها على انفسهم. والشرطة الامريكية تعرف هذه اللعبة حق المعرفة. وقد اخترعت تعبير «القس المزيف» لنعت هذا الفرع من فروع الاحتيال الممتازة.

قد يشعر المرء ببعض العطف على اولئك العيارين الذين تُجيب حيلُهُم على السؤال القديم «لماذا خلق الله الحمقى ان لم يكن لمنفعة الاذكياء؟» انهم في الواقع معدمون وهم يعلمون ان رحيلهم الى بلاد الغربة وقيامهم باعمال النصب فيها يُمَكّنُهم من تحصيل ما هو بالنسبة اليهم ثروة العمر.

وهذا هو الاغراء الاعظم، لا سيما وان ابناء جلدتهم لا يعيرون اعمال النصب والاحتيال اهمية ولا يأخذونها عليهم مأخذا جديا. وسيظل هذا الاغراء في النفوس حتى تشد فضيلتا الاحسان وتحكيم العقل في رسن واحد لتركضا معا. والمحسنون في بلادنا يرفضون ان يولوا الاجانب الثقة التي يولونها ابناء جلدتهم. لذلك لا تجدهم يثقون باي واحد من هؤلاء المشارقة.

اضف الى هذا ان هؤلاء المشارقة لا يرتكبون غشا بحسب مقاييسهم الخلقية. لان الشرقي لا يفهم مسؤولية الثقة واحكامها. فما تعطيه، تعطيه والله يعوض وهو ويجزيك خيرا. لكن ما ان تعطي له حتى يكون المال قد خرج من يدك تماما وليس للواهب الحق في الاعتراض على تصرف الموهوب له بالموهوب. ولهذا ان ينفقه في غرض غير الغرض الذي خصص له ولاجناح. هل وهبته في سبيل انشاء مدرسة؟ حسن، انه كان ينوي انفاقه على المدرسة لكنه وجد فيما بعد ان اسرته في حاجة اليه. وهو كسبه وحلاله فما ينتظر؟ وما شأن ذوي العقول الضيقة بهذا؟ ولماذا يستعملون كلمة (السرقة) القبيحة لوصف عمله؟

لذا، وفي الوقت الذي نعطف على هؤلاء النصابين، ننصح المحسنين بألا يدفعوا لهم مالا، ولا يصدقوا الوثائق الفخمة التي يبرزونها مختومة بالاختام البطريركية. فالتزوير عملية سهلة للغاية في بلاد كان التوقيع الوحيد هو الختم واي حفّار اختام يمكن ان يعمل نسخة مطابقة من اي ختم أصيل.

(الجبلي) المتجول يمثل تماما بائع التذكارات المقدسة الذي ركب قاصدا (كانتربري) مع چوسر Chaucer [12]. لقد جمع عضو واحد من هذه الاخوية التجارية، مبلغا كبيرا من المال ببيعه في اربع قرى روسية، الحوافر الاربعة للأتأن الذي ركبه السيد المسيح عند دخوله اورشليم! ولم يقع في متاعب الا عندما تغلب طمعه على حذره فقام بسد حاجة القرية الخامسة

[12] جيوفري چوسر (١٣٤٠-١٤٠٠) شاعر انكليزي شهير عرف بقصائده التي ضمنها ديوانه الشهير «حكايات كنتربري» يقص فيها شعرا حكايات الحجاج الى مدينة كانتربري (المترجم).

الى حافر خامس!. وهناك جيلي اخر عاني في الهند ظروفا اسوء، الا انه استطاع ان يجمع حوالى ثلاثمائة باون من عدة جهات بطريقة رفضه الانصراف رفضا باتا حتى يعطى له شيء. لكن القي القبض عليه في (ملبار) بزعم كونه جاسوسا روسيا. وجيء به الى حاكم تحقيق هندي صارم. ولما كان (الجيلي) يعرف من تجاربه في بلاده مبلغ الخطر الذي ينطوي عليه قول الحقيقة لاي موظف. لا سيما موضوع ملكيته مالا فقد اسرع الى الادعاء بأنه رجل معدم لا يملك شروى نقير، وظل مصرا على اكذوبته في حين كان قول الحقيقة يضمن له السلامة. فما كان من الحاكم الهندي الا واسلمه الى الشرطة لتفتيشه. فعثروا على مدخراته من المال بطبيعة الحال واحتفظوا بها لانفسهم. ثم اخذوه الى المحكمة وقالوا انه يتكلم الحق وان عملية التفتيش ايدت ذلك، فهو معدم لا يملك فلسا واحدا وبهذا اطلق سراحه.

ان كاتدرائية اقليم (جيلو) هي بيعة (مار زيا) الاثرية. وهي بناية شهيرة تستأهل منا بعض الوصف. فطرز عمارتها يختلف تماما عن اية بيعة جبلية، مجرد صندوق حجري مستطيل سقفه مقبب من الداخل ومستوٍ من الخارج. وهندستها على غرار الطراز النسطوري المألوف الذي سنشرحه فيما بعد. الا ان محتوياتها هو فيها موطن العجب والغرابة.

جرى التقليد عدة قرون ان يقدم الجيليون العائدون من «البلاد» (أيْ من ارض الاجانب) هدايا الى بيعتهم. ولسبب سنذكره الان لم يقم عدو او خصم بنهب البيعة بتاتا.

وهكذا اكتظت البناية بمجموعة من التقدمات لا يمكن ان تقارن بها اية مجموعة من النذور في العالم. هدايا يخشى المرء تقدير تاريخ بعضها لئلا يخطأ. واحدثها طرا مجموعة فخمة من الساعات الامريكية المنبهة وغير المنبهة. منتظمة كلها في سلك واحد يمتد في فضاء البيعة من جدار الى جدار احداها الى جانب الاخرى. واجراس نحاسية ذات احجام صغيرة (لان نصف حمل البغل اي ١٢٥ ليبرة هو اقصى حد لحمل الرجل دفعة واحدة) تراها معلقة في كل ناحية. هناك عقْد منها طويل يزين الستارة المرخاة على المذبح. وهناك حلل كهنوتية روسية معلقة على امتداد الجدران، في حين تنطق بيض النعام والمرجان عن العلاقة التي تربط الجيليين بساحل ملبار. واخيراً ترى صفا من جرار الخزف الصيني في اخر البيعة علتها طبقة من الغبار سميكة، ويقال انها جلبت عندما كان يوجد للبيعة النسطورية اساقفة في كل من (پكين) و (سنگان Singan) خلال القرن الثامن الميلادي. ولا شك ان خبراء التحف يسترخصونها اذا ما قيمّوها بوزنها ذهبا.

ولعل اغرب ما في البيعة هو الحْرز الذي صان هذه النفائس كلها من صولة الناهبين، ان كان الحرز حقيقيا. كان معنا احد رجال الضبطبة الذي رافقنا من مقر الحكومة في (نايري) ودخل البيعة معنا بعد ان خلع حذاءه وقلنسوته بكل خشوع عند الباب. الان رأيناه يدنو من الكاهن الشاب الذي كان يعرض علينا نفائس بيعته ويقول له:

- سيدي. اتسمح لي ان القي نظرة على منديل سيدنا محمد؟

فاجابه الكاهن مسرعا:

- بكل سرور

ثم سار الى مشكاة في جدار واخرج منها لفافة قماش حريري واخذ ينضو عنها قطعة نسيج بعد اخرى حتى كشف عن قطعة من الكتان الابيض فيها كتابة عربية. ربما كانت (فرمانا) يتضمن امرا بحصانة هذه البيعة او ما يفترض انه براءة صدرت من الرسول نفسه مدونة على منديله الخاص. ونحن لا نستطيع الجزم باصالته او باحتمال ذلك[13] واقل ما في الامر ان كل كردي يؤمن ايمانا راسخا باصالته. انحنى رجل الضبطية امامه خاشعا متهيبا ووضعه على جبينه ثم على عينيه، ثم اعاده مشفوعا بهبة للبيعة تساوي راتب اسبوع. وسواء في ذلك أكان المنديل حقيقيا ام مزيفا فانه انقذ البيعة ومحتوياتها من النهب والغارات مرارا عديدة وسيبقى الحال كذلك. على ان الشيء بالشيء يذكر، ففي انفجار تعصب ديني دبرته الحكومة العثمانية في العام ١٨٤٧ لم ينقذ احترام اسم النبي وثيقة دينية مشابهة كانت في حيازة الاسرة البطريركية، ولا اعضاء تلك الاسرة من الذبح ولا بيعة اخرى اغنى من هذه البيعة من طائلة النهب.

كانت اقامتنا في جيلو عند (مارسرجيوس) كاهن القرية في (قصره) الكثير السذاجة والبساطة. دخلنا القرية ظهرا فامضينا معظم العصر في (الديوان) متصدرين وعلى تخت واطيء واهل القرية يتقاطرون الى زيارتنا ليتحدثوا في شتى المواضيع. وطلب عدد كبير منهم علاجا. لان (الانكليزي) هو طبيب بحكم الوراثة وحقها وانه يحمل دوما«ملحه الانكليزي» الفعال الذي هو في الواقع مسحوق الكينا مع غيره من العقاقير.

والقاعدة التي يجب على الرحالة ان يتبعها هنا هي «وزع عقاقيرك بسخاء سواء أعرفت شيئا من صناعة الطب ام لم تعرف». الحمى يسهل عليك تشخيصها على كل حال. وان خفيت عنك فمريضك يشخصها عنك. وان لم توهب ملكة التشخيص فاظهر بمظهر الحكمة المضاعفة بوصف دواء مر علقم غير ضار. لان اشد الادوية مرارة يرفع من ايمان مريضك بك ويشد معنوياته وهذا هو السر الاكبر في العلاج الناجع. وعلى العموم انك تنجح عندما تجهل العلة اكثر مما تنجح لو انك وفقت في تشخيصها. وما عليك الا ان تتبع قواعد معينة. اولا:

---

[13] لم يغادر النبي (ص) ارض الجزيرة العربية وكذا (عمر بن الخطاب) وهو بطل اسطوري السيرة في هذه الانحاء، فانه لم يسافر الى ابعد من القدس (انتهت ملحوظة المؤلفين). ان المآثر الكنسية فضلا عن كتب التاريخ العربية مشحونة بامثال هذه الدلائل على قيام خليفة او حاكم مسلم بحماية موضع مسيحي مقدس وقد كان لتلك الحماية فعلا اثرها الفعال في حماية الكثير من غوائل الحرب والغزو. وقد تكون امثال هذه الحجج حقيقة او مزورة الا انها تؤكد من جهة ثقة حُفّاظها بها وبفعاليتها وتطمئنهم الى احترام الطرف المقابل لها وبالمناسبة، اذكر في اثناء اقامتي ببيروت ١٩٧٣- ان السيد هنري الفرعون رحمه الله احد وزراء خارجية لبنان السابقين - دعاني لزيارة منزله الذي جعله متحفاً كبيراً للآثار مع حديقته واسعة في بيروت. وبعد ان طاف بي ارجاءهما مقدار ساعة اراني خلالها من نفائس الآثار القديمة مايكلّ عنه الوصف تركني ذاهلاً وانا اتطلع الى قطعة من الرق في اطار وتحت زجاج سميك محاولاً قراءة عبارات مدوّنة بالخط العربي القديم غير المنقوط قائلاً انها رسالة الرسول الى المقوقس حاكم مصر، مؤكداً انّ خبراء الآثار ايدّوا حجتها. واتفق بعد سنوات ان وقع بيدي كتاب حول الآثار الاستاذ صلاح الدين المنجد احد الخبراء العرب الآثاريين. منوها فيه بالرسالة المذكورة وجازماً بصحتها والله اعلم (المترجم).

ان اعطاءك مُلّينا خفيفا للشرقي هو تبذير للعقار الجيد يرقى الى مرتبة الاجرام. فضلا عن كونه يضعف الايمان بالعقاقير الاجنبية وهو اسوء ما في الامر. ثانيا: اعط المريض (في حالة اتباعك تعاليم الكتاب الطبي) ثلاثة اضعاف الكمية التي قررها الكتاب بالنسبة للاثوري. وخمسة اضعاف بالنسبة للكردي وعندئذ فقط قد يظهر للدواء بعض التاثير.» هذه الحقائق تعلمها المؤلف من ذوي الخبرة والتجارب ايام كان جديدا على البلاد. ولما طرقت سمعه لاول مرة، مادت به الارض وأبى ان يصدق، لكنهم اكدوا له ذلك، وقال له احد الاثوريين:

- اجل انها الحقيقة بعينها، فيصعب جدا ان يتسمم الكردي، وان تم ذلك فهو امر ليس بالخطير.

ومع ذلك، فقد عرفنا شرقيا واحدا على الاقل عانى آلاما نجمت عن زيادة في مقدار الدواء. وخلاصة الحكاية ان مريضا طلب ملينا من احد اصدقائه الاثوريين. فما كان من هذا الصديق (الذي يسمى نفسه حكيما لانه قضى ثلاثة اشهر يشتغل في عيادة بعثة طبية اميريكية بوظيفة غاسل القناني) الا ان اعطاه دواء «قويا» ودهش الآخذ والمعطي للنتيجة. إذ اتفق ان وصل مؤلف هذا الكتاب في اليوم التالي فاستُدعي بصفة طبيب «استشاري» لرؤية المريض فوجده في حال سيئة للغاية بعد قضائه ليلة سوداء يتلوى الما وعذابا فسأل (حكيمه) المعالج.

- ماذا اعطيته؟

فأجاب:

زيت الكروتون Croton

- ما مقدار الجرعة التي سقيته؟

- كمية قليلة. ملعقة شاي فقط.

(ملاحظة هامة. نصف قطرة من هذا السم. هو اعلى حد يسمح به دستور الصيدلة الانكليزي).

وملعقة الشاي الايرانية ليست بسعة ملعقة الشاي الانكليزية. لذلك فربما اعطى المريض ما يزيد قليلا عن ثلاثين ضعفا من المقدار الاقصى المحدد!

وادلى الطبيب المستشار (الذي هو انا) برايه قائلا: ان المريض سيعيش بعد ان بقى حيا اربعا وعشرين. وقد برهن الزمن على صواب رأيه وصدق حكمته وعاش المريض.

ثم عرضت علينا حالة مرضية عصر ذلك اليوم وقفت مهارتنا امامها حائرة. اقبل علينا رجل ليقص حادثة اليمة باللهجة الجبلية التي لم نكن نفهمها فاستنجدنا بالقس للترجمة فأصغى اليه برهة ثم اغرق في نوبة من القهقهة حتى انبهرت انفاسه والتفت الينا يقول لاهثا:

- انه يطلب واء لاسكات زوجته يا رابي افندي.

فقلنا:

- بلغه يا ابانا اننا لا نستطيع عمل المعجزات.

كان اهم موضوع سياسي دار الحديث حوله هو محاولة القائممقام الاصلاحي المحلي التي قام بها لاحصاء رجال جيلو فقد بعث اليهم بموظف حكومي مزودا بحبر واوراق فشرع هذا يدون اسماءهم جميعا. ولما سألوه عن سبب ذلك اجاب مفسرا انه لاجل انتخابات مجلس «المبعوثان» (اي البرلمان التركي). فاذا دونت اسماؤهم بشكل متقن صحيح فسوف ينتخب لهم عضو في المجلس يختص باقليم جيلو وسيسكن استانبول ويقبض راتبا ممتازا لمجرد جلوسه في العاصمة لتمثيل مصالحهم وتقديم مظلماتهم للسلطان.

وبدت لهم الفكرة وجيهة فأعطى الرجال اسماءهم بطيبة خاطر حتى كاد الاحصاء ينتهي. وهنا خطر ببالهم انهم كانوا مستعجلين نوعا ما وان هذه القوائم قد تستخدم لاغراض اخرى لا تمت الى انتخاب عضو المجلس بصلة. ماذا سيكون حالهم لو ان الغرض منها جباية ضريبة جديدة؟ او لعلها قد تستخدم لاسوء من هذا، ربما لتجنيد اولادهم في الجيش؟. وكانت النتيجة ان جيلو ارسلت «بعثة تفويض قوية» لتعقيب مدير الناحية (الذي كان ارمنيا) فادركته وصادرت كل اوراقه واحرقتها، وكان هذا الموظف مسرورا لانهم لم يتُبْعِوه بأوراقه.

لم تكترث الحكومة العثمانية بهذه الحادثة التافهة التي تتعلق على كل حال، بموظف ارمني صغير خامل الشأن[14] ولو كان تركيا لانصبت المتاعب على كل من اسهم بهذه العملية وعلى عدد اخر ممن لا علاقة له بها.

[14] ان حياة الموظف الصغير في تركيا. ليست بالحياة التي يغبط عليها. فقد سمعنا اخيرا عن محنة وقع فيها جابي ضريبة سلخ السنة السابعة من الوظيفة في ظل حكومة دستورية عادلة. انيطت به مهمة خطيرة هي مهمة جمع الضرائب المستحقة من قبيلتي (التياري والتخوما) وكان راتبه الشهري ما يعادل ثلاثة باونات. وبعد شهرين من العمل طلب دفع راتبه. فاجابه مدير الناحية «مهلا يا صاح. وستدفع لك رواتبك كلها ففي ايامنا هذه لم يعد لتاخير الرواتب اثر. انك ستتسلم ما تستحق بعد الخصم الرسمي طبعا» ثم قدم للموظف قائمة بالمخصومات بلغ مجموعها خمسة باونات وعشرة شلنات وتسعة بنسات، من اصل ستة باونات يستحقها. ثم سلمه الباقي وقدره تسعة شلنات وثلاثة بنسات عملة فضية.

9

أرض متنازع عليها

گەور تەرگەور میرگەور

ان اخذت (جيلو) ككل، وجدتها ارضا فطرية تعمها الفوضى، غير متطورة جيولوجيا ولا تشبهها اي منطقة عشائر في كردستان. على ان رحلة قصيرة فيما وراءها بلغت بنا منطقة كان تطورها الجيولوجي متقدما على تطور اختها بكثير، ونقصد بها سهل (گه ودر) العجيب. فقد بدأنا رحلتنا صباحا من واد يقع مباشرة تحت قمم (گلەشين) واغوارها. وقطع كرواننا مضيقا من افخم المضائق واشدها وعورة واضيقها حتى بالنسبة الى الوهاد العظيمة التي اكتنفتنا، ويعرف هذا المضيق باسم (مضيق اشتازين الاعظم) وقطعنا سلسلة جبال تشبه كثيرا ولكن بصورة مكبرة سفوح جبال (ساسكْسْ)وعندما ادركنا المساء وجدنا انفسنا في سهل مستو تماما هو سهل (گەوەر) الواسع جداً فضربنا خيامنا فيه.

والاسم على الشائع، كردي. ويبدو انه يعني السهل المستوي الذي تحيط به الجبال. ويلفظ منفردا او مركبا في تلك الانحاء. على ان مضاربنا كانت في موضع الشرف من (گه ودر) وهو السهل المستوي الذي كان قاعا لبحيرة مندثرة لذا فيكون شَبَهٌ عائلي عام بينها وبين (مورفا تريمادوك Morfa Tremadoc) في شمال (ويلز). الا ان الجبال المحيطة بها اكثر ارتفاعا هنا من جبال (سنودن Snowdon)، والانتقال من الجبل الى السهل فجائي وبدرجة من الوضوح حتى ليمكن القول بكل جزم انه لا يقتضيك غير بضع ياردات لتترك الاولى وتلج الثانية. والنقطة تزداد وضوحا بوجود ضفة نهر قديمة تنتشر فوقها الحصباء.

ويبلغ طول السهل حوالي ستة عشر ميلا وعرضه عشرة. وهو على شكل بيضة ذات نهايتين حادتين. قطرها الطويل يمتد من الشمال الى الجنوب. وهو اجرد خال من الشجر تماما باستثناء بعض اشجار الزان التي تحيط بالقرى المتفرقة. ومع خصوبة الوادي المتناهية فليس هناك الا مساحات قليلة مزروعة. في هذه التربة الرسوبية السوداء يمكن انماء كل نبات يتحمل الشتاء الطويل والثلج الكثيف في هضبة يبلغ ارتفاعها ستة الاف قدم. واشتهر بطيخ (گەوەر) وقمحها في سائر انحاء المنطقة.

وينحدر نهر كثير الماء يدعى (نهله او نيله) ويجري وسط الوادي ليصب فيه عدد اخر من السيول المتحدرة من الجبال الشاهقة على جوانبه ويتجه هذا النهر بعد تركه السهل نحو الشمال ويسلك واديا عميق الغور جميل المنظر ثم يصب في نهر (آلباق) ومنهما يتألف نهر الزاب.

وتبدو (گەوەر) مسطحة تماما في سهل يريح نظر المسافر، وكنا نرى غاية مسيرتنا امامنا تلوح لنا واضحة وبيننا وبينها اثنا عشر ميلا تقريبا. ولم يبد لنا اننا سنتكبد عناء السير في

طريق متعرج بل اسبيلنا مستقيم. والواقع انه ليس ثم اسهل من قطع هذا السهل او ما يماثله سيرا على الاقدام إن كنت خبيرا بالطريق او مزوداً بدليل. وتحف بضفتي النهر مستنقعات كبيرة. ومواضع العبور فيه وهي ليست عديدة لا يمكن الاهتداء اليها وبلوغها الا من نقاط معينة. والاجنبي عن الارض يكثر عثاره (كدوق مونماوث Monmouth التاعس)[1] بين السواقي وقسيسات الري. اما الحفر الموحلة التي يتعذر على الحيوانات عبورها الا من مواضع مخصوصة، فلا يعرفها الا سكان القرى هناك.

ان سهلا عظيم الخصوبة مثل هذا السهل كان يجب ان يكتظ بالقرى وبعدد كبير من السكان. لكن القرى التي كانت هنا سابقا، ومعظمها نسطوري، هُجِر أغلبها واحتل الكرد بقيتها، فقلت كفاءتها الى حد كبير. حدث هذا لا بسبب ترك القرويين دينهم الاول واعتناقهم الاسلام فهذا امر يندر حدوثه الان، وانما كان نتيجة استيطان الاجنبي الذي يمكن تشبيهه بهجرة «السرطان الناسك»[2].

ويمكن اجمال المسألة بما يلي. قرية مسيحية يجاورها كرد، فتنزح اليها فئة منهم (لعل قريتهم ضاقت ذرعا باعمالهم ولم يسعها احتمالهم، او ربما كانوا خصوما لرئيسهم) فينزلونها ضيوفا بدون مقابل. ولا تقوى القرية على طردهم لانها عزلاء والقادمون مسلحون. والنحلة العاملة التي لا تملك شوكة لا تتمكن من طرد اليعسوب ذي الشوكة اللاسعة. واذا طلبوا عون الحكومة في هذا فان الطفيليين القادمين يرشون الموظف فلا يقوم بأي اجراء ضدهم (ثم ان البخشيش يُبتّز من القرويين انفسهم)، ويأتيهم الجواب الرسمي «ان لهؤلاء الحق في السكنى حيث شاءوا» واذا حاول احد طردهم حورب وضويق حتى الموت وارغم على ترك ارضه ومغادرة القرية فيضع الاغوات الكرد ايديهم على ارضه ويجبرون القرويين الاخرين على العمل لهم دون مقابل. وطاحونة القرية اول ما يتم وضع اليد عليه عادة. وتذهب نسبة كبيرة من القمح اجورا لطحن الباقي. وفي الوقت عينه فان كل من له بعض الالمام بالطبيعة البشرية يمكن ان يتوصل بنفسه الى النتيجة المتحصلة من وجود هؤلاء الدخلاء بالنسبة الى (الرعية) على شكل اضطهاد بسيط والاثار المترتبة على فتيات القرية.

واذا نجحت الخطة اقبل آخرون. ثم يقوم زعيم النازحين ببناء قلعة صغيرة مُسخّراً القرويين لبنائها طبعا. وبالاخير يضطر السكان الى النزوح عن القرية. والقلة الباقية تشتغل اقنانا، فتحرث ارض اصحابها الجدد وهي الارض التي كان يملكها آباؤهم من قبل. وبهذه الطريقة تتبدل صفة القرية.

---

[1] جمس سكوت دوق مونماوث (١٦٤٩-١٦٨٥) المطالب بالعرش الانكليزي قاد ثورة ضد الملك جمس الثاني ففشلت على اثر هجوم ليلي له على الجيش الملكي ووقع اسيرا وقطع رأسه (المترجم).

[2] يشير المؤلفات هنا الى الحكاية المشهورة في كتاب «كليلة ودمنة» كما نرجح (المترجم).

دعك من قسوة هذه العملية، فالمسالة بالاصل هي مثل على عجز تركيا التام عن ممارسة اصول الحكم الحديث. الا اذا اخذت باساليب اصلاحية متطرفة. وقد يخيل للمرء ان كل ما تحتاجه الحكومة هو شعب مسالم يدفع الضريبة راضيا بدون تعلل. ومع هذا فها هنا لا قرية واحدة بل عشرات من القرى يقطنها اناس مسالمون يدفعون ضرائبهم ولا يطلبون شيئا الا ان يتركوا وشأنهم في ظل الحكم العثماني. لكن هذا الحكم يتخلى عنهم لتفرغ قراهم وتمتلىء بالغرباء الذين يهملون الارض حتى تموت ولا يدفعون ضرائب قط ولا يحاربون في سبيل الاتراك مطلقا اذا جد الجد.

ومجمل القول ان الموظفين في ايامنا هذه ينتفعون بالبخشيش الذي يعتصرونه من الكرد وهنا نلمس اصل العقدة في الموضوع: التركي لا يهدف عامدا الى استئصال شأفة الرعايا المسيحيين. ولا يخفي في ضميره سياسة اعمق من سياسة الاستمرار في عملية النهب «اسكي گيبي» مثلما كان يجري في السابق. وترك الموظفين يملأون جيوبهم بسلام. التركي كأنسان، شخص ذو خصال حميدة كثيرة لم يتعامل معه انكليزي الا واحبه، لكنه كادراي، رجل كريه ممقوت. انه لاكسل من ان يقوم بتصريف حسن للامور. وهو يترك جهاز ادرته المدني الفاسد في وضع لا يمكن وصفه من التردي، يخرب الارض على هواه ويأبى ان يقدم على العمل الوحيد الكفيل بانقاذه: اعني استخدام الاوربيين في جهاز الادارة كما يجري الآن في مصر. ولعل من المناسب هنا ان أقتبس فقرة مما كتبه اودسيوس Odysseus عن تركيا فهو ادق الاوربيين ملاحظة، وربما وجدنا في تلك الفقرة الجواب، قال «قال لي الوالي: هذه البلاد هي طبق واحد من المرق كبير. واي فائدة من المرق غير شربه؟ واننا لنشربه على الطريقة القديمة اي بمغارف كبيرة. اما انتم فتريدون مشاركتنا باستعمال مثاقب تثقبون بها قعر الطبق فتمتصون المرق من تلك الثقوب. ثم تقترحون: ان الاكل بالمغارف يجب ان يبطل العمل به بوصفه اسلوبا عفا عليه الزمن، لانكم تعلمون اننا لا نملك مثاقب ولا نعرف كيف نمتص»[3] سهل مستو كسهل (گه وه ر) فيه مقر حكومة وحامية عسكرية في مركزه بليدة (ديزه)، كان يجب ان يبدو قائمقامية حسنة الادارة، وهي كذلك في العادة، وان أثار قائمقامها الالباني (حيدر بك) عاصفةً عند معاقبته احد شيوخ الكرد المذنبين باركابه حمارا بالمقلوب وتطويفه شوارع (ديزه) على هذا الشكل، الا انه بقي محافظا على الاستقرار هنا حتى انتشرت عنه عبارة ما زالت تروى الى يومنا هذا «عندما كان حيدر بك قائمقاما لا تجد كلبا ينبح الا باذن منه» وبعد رحيله بزمن باتت المنطقة مرسحاً لاعتداء على القنصل البريطاني من بين اعتداءات قليلة جدا في انحاء البلاد الاخرى، ان المقيم الاجنبي على العموم آمن في هذه البلاد التي لا يحترم القانون فيها. لان المتاعب التي تنجم عن هذا الاعتداء لا يسلم منها كل مساهم فيها. والمؤلف لم يعرف خلال اثنتي عشرة سنة من الاقامة غير خمسة اعتداءات متعمدة، على

---

[3] من كتاب «تركيا في اوروبا» لمؤلفه اودسيوس.

الاوروبيين. وكثير من الاعتداءات لم ير نور الشمس. ومن كلها، واحدة فقط اسفرت عن موت الاوربي. وثلاثة منه استهدفت قناصل بريطانيين والسبب هو كما صوره موظف عثماني من المغضوب عليهم «انهم اعتادوا التجوال في مناطق خطرة جدا، لا هَمَّ لهم الا رسم الخرائط».

وفي القضية التي اشرنا اليها، كان القنصل البريطاني قد وصل الى سهل (گه وه ر) قادما من (نايري) بصحبة المؤلف. وكان شيخ المنطقة قد ارفق بهما احد الضبطية الذي ينتمي الى قبيلته. ولما كانت رحلتنا قد وقعت عقب سرقة الخيول. فان المسافرين البريطانيين لم يكونا على وفاق تام مع مرافقيهما. واصر رجل الضبطية والقاطرچيّان على التوقف للراحة في ساعة مبكرة من وقت العصر في قرية (على خان) الكردية بمجرد دخولنا سهل (گه وه ر) بينما امرناهما بمواصلة السير حتى (ديزه). وتهور الضبطية في الكلام واساء الادب فطردناه من رفقتنا فورا. فاندفع الى القرية هائجا وراح يؤلب رجالها ويحرضهم للخروج وقطع الطريق على (الفرنج) وسلبهم. فاندفع الرجال كالنحل من القفير ونجم عن الاضطراب اغتصاب حمل احد البغال مع حيوانه وتمكنا من استنقاذ الخرائط وسلبيات الصور الشمسية ولوحقنا نحن و (قواسنا) حوالي نصف ساعة واضطررنا الى خوض المستنقعات العميقة باتجاه (ديزه) واستمر الضبطية يطلق الرصاص علينا (الظاهر انه الوحيد الذي يملك سلاحا ناريا بين المهاجمين) الى ان نفدت اطلاقاته ولعل العار الاكبر الذي اصابه هو فشله في اصابة اي واحد منا. على انها كانت بندقية حكومية تركية الطراز وهذا ما جعل الهدف المقصود ابعد منالا من رصاصها عن اي شيء اخر. وراح (القواس) الصربي يتوسل بمخدومه القنصل ويُلحف ليسمح له «بتجربة اطلاقة واحدة لا غير». ردا على النار الموجهة الينا. فلم يقبل لانه كان على علم تام بالنتيجة التي ستسفر عنها تلك الطلقة «الواحدة» ولم يكن راغبا في قتل احد.

وعلينا ان نضيف الى هذا. ان تدابير حازمة فورية اتخذت للانتصاف لنا. فقد جردت قوة عسكرية الى القرية المجرمة (ديزه). استعادت الامتعة والقي القبض على القاطرچيين وسيقا الى القائمقام، الا ان المجرم الاصيل (الضبطية) نجا بجلده.

كان القائمقام من متذوقي التمثيليات الميلودرامية. لذلك امر بجلب المقبوض عليهما امامه فورا. واستدعى القنصل لاخذ افادته. ثم طلب من المعتقلين الادلاء بما لديهما من اقوال.

فاسرع الرجلان يعرضان ذراعا (زعما انها مكسورة) وعينا متورمة (لا شك انها مصابة بكدمة) «وصبا» كلاما كثيرا منه قولهما انهما ظلا يسيران يوما كاملا حتى اصابهما الارهاق الشديد فالتمسا من القنصل ان يسمح للبغال المتعبة بتناول علفها لمدة نصف ساعة فحسب ثم يستأنفان السير. فرفض طلبهما واشفع الرفض بالسب والشتم وباقبح القذف. وضرب احدهما بالعصا حتى كسرت ذراعه وسقط على الارض اعياء بين الحشائش. فسئل عما يقوله بخصوص مهاجمة القنصل؟ «الله شاهد على ما يقول! لم يحصل شيء من هذا

القبيل. اذ كيف يمكن ان يرفعوا ايديهم على سعادته؟» والضبطية؟ ألم يطلق النار على القنصل؟«كلا ابدا». فان الضبطية اخذ يتشفع لهما امام البك بكل خضوع. وان الساقط على الارض رفع رأسه من الحشائش وهو يعاني الالم الشديد فرأى البك (القنصل) يستدير نحو الضبطية. والضبطية يفر من امامه مذعورا والقنصل يتعقبه مطلقا النار عليه من مسدسه.

كانت قصة طريفة محبوكة حسنة الالقاء. الا ان موهبة الشاهد في التمثيل سارت به شوطا بعيدا بحيث نسى ان ذراعه مكسورة واخذ يلوح بها بصورة عنيفة جدا. ونهض القائممقام بالعظمة التي تناسب شخصا يجمع في شخصه وظيفتي القاضي وهيئة المحلفين واصدر حكمه بالشكل الآتي:

- الانكليزي لا يكذب. وانتم كذابون اولاد كذابين. هاتوا السلاسل والقيود واقذفوا بهذين النذلين في المطبق حالا

وجيء حالا بسلاسل حديدية ضخمة. لكن القائممقام شوه جلال المرافعة باقتراحه على القنصل اثناء وضع السلاسل، ان يصفح عن الضبطية لصعوبة القاء القبض عليه لا سيما بعد ان اصبح في قبضته اسيران يمكنه بهما اطفاء جذوة حنقه.

على انه اصيب بشيء من الخيبة عندما وجد ذاك الانكليزي البعيد عن الواقع يرغب في الصفح عن الاثنين المقبوض عليهما ويصر اصرارا لا مرد له على معاقبة الضبطية وحده شر المجرمين الثلاثة. ولقد قبض على الهارب فيما بعد، واودع السجن. اما القاطرچيان فقد تم اطلاق سراحهما بناء على طلبنا. فاقبلا علينا فور اطلاقهما ليقولا انهما يأملان بألا تكون هذه الحادثة السيئة التافهة سببا في حرمانهما البخشيش المعتاد، والله يدري ان الخطأ ليس خطأهما وان الشيطان في تلك الساعة هو الذي لعب برأسيهما. وهذا عذر وجيه لاناس فقراء بسطاء.

ان منصب القائممقام من الدرجة الدنيا هو في تركيا منصب ذل واضطهاد دائما، فالمثل السائر عندنا Jack in the office: صاحب امارة! له شبيهه في بلاد غيرنا. على ان هذا المنصب ليس اسوء من كونه مصدرا للازعاج، ثم انها وظيفة مسلية في بعض الاحيان، وفي تركيا، ولا سيما المناطق النائية منها لا يمارس احد اشرافا اداريا كاملا على السيد«صاحب الامارة» هذا او يهتم بما يُشغله من الصغائر والتوافه.

اضف الى ذلك، ان الموظفين في هذه المراكز هم ابدا من طبقة الموظفين الدنيا والامر في ذلك سواء، اقضوا مدة طويلة ام لم يقضوا، لهذا تجدهم اما فاقدي الشخصية، او يائسين من جمع ثروة. ان قائممقاما كبير السن شهيرا غنيا قد يكون احيانا ذا كفاءة يقدرها له الناس، والامر يختلف اذا كان شابا، وقد يتفق ان يُشيد قناصل بريطانيا المتمرسون بولاة قديرين ومتصرفين نزيهين مخلصين في بعض الاحيان. لكن القائممقام المستقيم ظاهرة نادرة حقا. وقد عرفنا اثنين

فحسب من هذا الطراز كلاهما الباني وكلاهما قويم الخلق الا ان شخصية البربري ظلت كامنة في اغوار نفسيهما كأي انكليزي.. أحيانا!

لهذا نجد الاوروبي الرحالة قد يهان احيانا حتى في مركز اداري صغير ك(ديزه گه وه ر). وتفاقم الامر بعد ان منحت الثورة عذرا مقبولا للموظف الصغير وهو «نحن اناس متمدنون ولنا الان دستور، لذلك لا حاجة بنا الى معاملة وحوش الفرنج هؤلاء باحترام يفوق ما نعامل به ابناء شعبنا».

وقد طرق سمعنا امور اخرى من قبيل مصادرة حيوانات رحالة انكليزي «لاجل استخدامها في اشغال الحكومة» وتهمته انه كان يسافر بها وقد حملها مهمات عسكرية او ما يرقى الى مرتبتها، وسار بها مسافات غير معروفة ووقتا غير محدود. ولم يسترجعها الا بعد ان اجهدت اجهادا اعجزها عن العمل الذي كان مدار عيش صاحبها. ولم تدفع الحكومة له اجرا «لان الحكومة لا تدفع».

هذه القضية تتعلق بمؤلف الكتاب. فبعد ان صودرت حيواناته قدم شكوى الى القائممقام فكان جوابه لا يتعدى جميلَ الاعتذار، مع التأكيد بان الاوامر صدرت للجنود باعادة الحيوانات، الا ان العريف الذي يرأس فصيلة الجنود قال بعد ان تسلم الامر انه يفضل ان يرى ذلك القائمقام مشنوقا على اطاعة اوامره. وهكذا لم يطرأ على الموضوع اي تقدم، وفي صباح اليوم التالي، اقبل خادمي ووراءه الخيول المصادرة وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة المنتصر فابتدرته قائلا:

- احسنت يا يوخنان. ولكن كيف امكنك استرجاعها؟

- بكل سهولة يا (رابي)، فقد اتفق ان لقيت عدوا لي وهو (ره تو) الكردي يجول في البلدة ومعه ثلاثة بغال. فذهبت الى الجنود وقلت لهم يوجد هنا ثلاثة حيوانات اقوى جدا من هذه، ان وضعتم ايديكم عليها فلن يحاسبكم احد اما اذا احتفظتم بحيواناتنا فستقوم ضجة كبيرة.

فكانت ابدع خاتمة مأمولة، وان احس الانكليزي (الذي حسب نفسه اكفأ من يقوم بتصريف امثال هذه المشاكل) بشيء من العار والهون حين سمع خادمه يوخنان يقول للناس:

- ومع هذا فلو كان الرابي مستر ويگرام موجودا هناك لنال هؤلاء الجنود من العصيّ على يده ما يستأهلونه[4] منذ زمن بعيد.

---

4 هؤلاء الوحوش الانذال كانوا يتقبلون عقوبة الجلد بخنوع وادب عندما تفرض عليهم جزاء وفاقا. وقد سمعنا المرحوم الدكتور براون وهو جنتلمان شيخ يمتاز بارق الطبع ذو جسم نحيل للغاية. سمعناه يتأسف ويتأوه بحرقة قلب لانه اضطر الى ضرب قاطرچيّه. ان القناصل لا يقرون هذه العادة، الا ان المعروف عنهم انهم يمارسونها أحيانا.

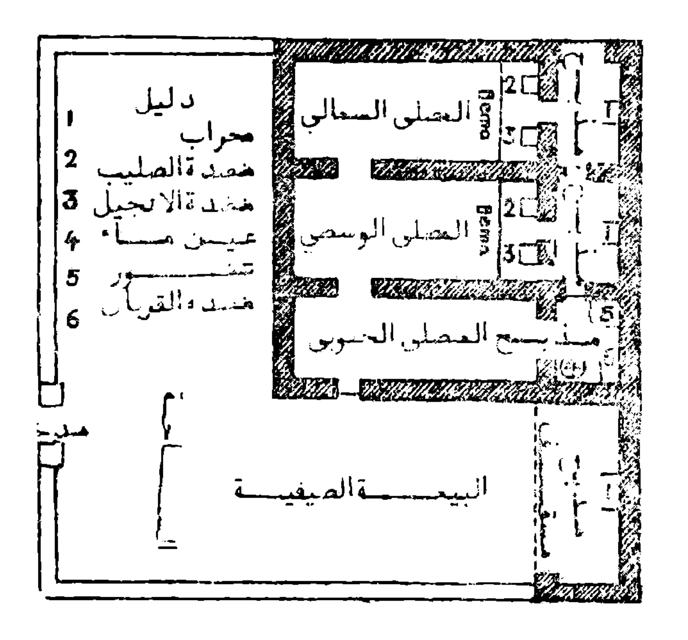
ويظهر ان سهل (گه وه ر) هو البقعة المفضلة «لاولئك المخلوقات» الذين قلما يتحدث الشرقيون عنهم، وان تحدثوا فبلهجة تمازجها الرهبة والخوف. انهم جن الف ليلة وليلة الصلحاء. فهناك كهف في الجبال المجاورة للسهل يعج بهم ومن يدخله يخرج وقد خولط في عقله على الارجح هذا ان خرج حياً. ومرة قبل بضع سنوات قرر رهط من الكرد استكشاف هذا الكهف فدخلوه وهم في كامل سلاحهم. ولم يطعنوا فيه مسافة طويلة فقد خيل لرئيسهم انه رأى شيئا. ولما كانت رهبة الخرافة اسرع الامراض عدوى فقد هرع الجميع الى الخارج فورا وركبهم الخجل من انفسهم ما ان امتلأت رئاتهم بالهواء الطلق. ثم وقعوا على مسيحي مسكين فاجبروه على دخول الكهف للتحقق مما جعلهم يفرون هاربين. ولما امتنع (وهو شيء طبيعي) من القيام بما ارغم ثلاثين رجلا مسلحا على الفرار، خيروه بين اطاعة الامر او القتل. فدخل رغم انفه وغاب عن الانظار عدة ساعات ثم خرج اخيرا وهو يزحف على بطنه وقد اصيب بصدمة رعب كسابقيه. وبعد ان تمالك نفسه قليلا قص عليهم حكاية عجيبة، ونحن لا ندري اكان الفتى المسكين متأكدا مما رواه وهل انه قدم لجلاديه بضاعة تسوى الاجر الذي منّوه به؟ فهذا ما يصعب التكهن به. قص عليهم كيف انه نفذ الى اعماق الكهف حتى اتسعت اجواؤه وانكشفت له عن مرج بديع يجري في وسطه نهر كثير التعرجات ينبع من صدره. وكيف قامت على ضفتي هذا النهر القصور المرمرية الفخمة الباذخة (لعلها انصاب الستالاكمايت) وأمامها جلس كل ملوك الجان فوق عروش ذهبية مكفتة بالجواهر، والحوريات والاتباع يقومون على خدمتهم وكيف انهم اشاروا عليه بالاقتراب من «ديوانهم». واصدروا حكم الموت الفوري عليه لانه هتك حرمة مخدعهم. الا انهم عفوا عنه بعد كثير من التوسلات، واطلقوا سراحه مهددين بالويل و شديد العقاب كلاً من تحدثه نفسه من الكفار بدخول حرمهم المقدس.

هذا ما رواه لنا البطريرك النسطوري. وهو سيد راجح العقل حاز قدرا من الثقافة يكفي ليجعله يضحك ويستخف بأوهام اسلافه (على الاقل في وضح النهار وامام اوروبيين). لا شك ان من يدخل هذا الكهف ومعه شريط من المغنيسيوم سيرتفع الى مرتبة القداسة «قُدس» بين السكان المحليين. ولربما يجد فيها متعة طريفة. سألنا البطريرك بعد ان انهى حكايته:

- ما قولك يا صاحب الغبطة لو رافقتنا الى الكهف للتأكد مما يحويه فعلا؟
- بالتأكيد يا رابي سآتي ان تقدمتني ودخلت اولا[5].

---

[5] هناك خطر حقيقي من القيام باستكشاف امثال هذه الكهوف. ان لم تقع فيها على الجان فمن المحتمل جدا ان يقع عليك ذئب. كنا مرة نستكشف كهف دير بالقرب من (مراغه) وكان ثم ممر طويل منقور في الصخر يفضي الى صوامع منقورة بين مسافة ومسافة كأنها كرات منظومة في خيط. فزحفنا الى الداخل بشوق رجل الاثار المستطلع وافسح دليلنا السبيل لنا الى المقدمة. وبعد ان قطعنا شوطا كبيرا سمعنا صوتا من الخلف يقول «يا رابي. يوجد ذئب اعتاد المأوى هنا ولست ادري أهو الان موجود ام لا؟».



بيعة مار بيشو

هناك سبيلان يفضيان الى سهل (اورمية) من (ديزه گه وه ر). على اننا سلكنا منهما السبيل الاصعب والاحفل بمناظر الطبيعة وهو الذي يمر بوادي (ماربيشو) وفي هذا الوادي تجد معبدا من اشهر المعابد النسطورية، اقيم تخليدا لاسم الزاهد الذي اولدت صومعته ديرا.

دير عفا الزمان عنه منذ عهد بعيد، الا ان مجموعة سكنية تتألف من ثلاث قرى ملأت الوادي في مضيق جانبي صغير يبعد عن الطريق الرئيس مسافة قصيرة. وبقيت البيعة وحدها قائمة هنا شاهدا نفيسا نادرا للهندسة المعمارية النسطورية.

البيعة من الخارج مجرد بناء مربع الشكل ككل بيع الجبال. لكنها اكبر من المعتاد. فابعادها الخارجية هي على وجه التقريب ثمانون قدما لكل ضلع. ولها قبة حجرية يعلوها سقف مستو طيني جعل ليكون وقاء وغطاء كعادة البلاد. والمرء لا يسعه الا ان يعجب للعمل الجليل الذي انجزه البناؤن الجبليون باقامتهم قوسا يبلغ طول فضائه ثمانين قدما. في حين كان اعظم قوس وجدناه لا يزيد عن عشرين طولا وهو اقصى ما يمكن تشييده في تلك الانحاء. وقد قسمت البيعة من الداخل الى ما لا يحصى عده من المذابح المنفصلة والدهاليز والحجرات والمصليات واجران العماد كما هو موضح في المخطط (وهو مخطط غير دقيق الا انه قد يعطي بعض فكرة عن الصرح).

النوافذ تكاد تكون غير معروفة في بيع الجبال. ولذلك كان المذبح الرئيس يسبح في ظلمة حالكة طول ساعات النهر. والباب لا يزيد ارتفاعه عن ثلاثة اقدام حذرا من انتهاك البيعة او تدنيسها. وبالقرب من البيعة تقوم صومعة على سفح الجبل وهي كهف طبيعي صغير كان منسكا للربان الزاهد (ماربيشو). وفيها ترى قطرات الماء المتحدرة من السقف قد انشأت عمود ستالاكمايت فيه ملامح خشنة توهمك بانه تمثال انسان، الامر الذي دعا الى انتشار الخرافة القائلة بانه تمثال للقديس نحتته له الملائكة، ولهذا كان موضع تقديس واكرام. ونحن اذا نظرنا الى هذا «التمثال» بعين الفن المجردة فلن نجد فيه ما يشرف نحاتيه الفنانين ذوي القوى الخارقة للطبيعة. لكن ليس من المألوف قط ان نجد صورة مهما كان اصلها وفصلها، وهي موضع تقديس عند اي نسطوري. وليس ثم اي انجيلي Evangelical الا ويكره كراهة تحريم كل ما يشم منه رائحة الشّرك وعبادة الصنم، حتى الصور، فهي محرمة في بيعهم تحريما مطلقا. ولا يسمح الا باستخدام الستر وما اليه بقدر ما تستدعي اليه الحال. ولا توجد تهاويل او زركشة غير الصليب البسيط، ويكون اما من الخشب او المعدن عاطلا عن تمثال المصلوب. وقد وجدناه موضوعا فوق نضد عند مدخل الهيكل. يقبّله كل مؤمن حين يدخل البيعة، ولم نجد رمزا دينيا اخر غير هذا.

ان كان في مذهب النساطرة بعض مظاهر البروتستانتية التي يرتاح اليها اشد الانجيليين الانكليز تعصبا، فان لديهم مقابل هذا طقوس اخرى قد تصيب اولئك الاتقياء بصدمة عنيفة. واظهر ما عندهم منها، تقدمة الحيوان. وهذه بيعة (ماربيشو) واحدة من ارفع بيع البلاد مقاما ومحجة للمؤمنين من كل صوب. ترى قصادها يجلبون اليها بانتظام ماعزا وضأنا واحيانا ثيرانا ويضحونها بكل ورع وجلال امام باب البيعة.

والمراسيم التي تتلو التقدمة لا تختلف قط عما جاء في سفر اللاويين من التوراة خلا انه لا يحرق اي جزء من الاضحية. يؤتى بالحيوان المضحى ويقوم الشخص الذي جاء به بقطع رقبته. وبعدها يأخذ الكاهن شيئا من دمه «ويرشقه رشقا على عتبة باب البيعة» ثم تعقد وليمة دينية يطعم فيها المجتمعون من لحم الاضحية، وينال الكاهن سهمه المعلوم من الجلد والكراع. ويمكن تعقيب اصول هذه العادة في اسفار التوراة. لكننا نشكّ في انها تتصل بتقليد يسبق (موسى) ولعل التقدمة في هذه البلاد كانت تُجرى منذ سكنى (ابراهيم) في هذه البلاد. وان (موسى) نقل العادة وقننها وجعلها شريعة في ايام التيه بعد قرون عديدة من قيام (ابراهيم) بتلقينها ابناءه.

وعلينا ان نذكر ان القرابين ليست بالامور الغريبة عند النساطرة. فاليزيدية كما ذكرنا يمارسون طقوسا متشابهة. وكل مسلم يفعل هذا مرة واحدة في السنة على الاقل. وفي قربان «بيرام» يضحى دائما بحيوان ما، ذكرى تضحية (ابراهيم) بابنه اسماعيل. لا بابنه اسحق كما يزعم اليهود والمسيحيون خطأ.

الامر بدأ غريبا لاول وهلة. لانه مخالف لكل تعاليم (العهد الجديد: الانجيل) اذ ليس للنصارى ان يقيموا على تعاليم الناموس القديم بخصوص تقديم القرابين. على ان الشرقي لا يعدم عادة سببا في قرارة نفسه وضميره لتبرير ما يفعله. وحبذا لو صبر الغربيون قليلا ليجدوا هذا السبب. وحبذا لو تذكروا دائما ان الاسس الفكرية الاوروبية ليست الاسس الوحيدة التي لا سبيل لعمل العقل الا بها.

وفي هذه المسألة لو سألنا النسطوري لماذا يضحي؟ فسيجيب ولماذا لا اضحي؟ اني وجدت آبائي واجدادي عليها، او يمكنك ان تورد لي نصا يقضي بتحريمها؟.

ان قدمت له نص «التقدمة الواحدة» او اي شيء من هذا القبيل فسيرد عليك بحجة يصعب عليك دحضها. سيقول لك - عفوك. أليس المثل العملي الذي ضربه پولس الرسول خيرا من التعاليم التي بشر بها پولس الرسول؟[6] تلك التعاليم التي لم يفسرها آباؤنا كما فسرتموها انتم. فقد اخذ معه الفتيان الاربعة واصر ان تقدم اضحية له ولكل واحد منهم. أليس مسموحا لنا ان نعمل ما عمله پولس الرسول؟

وهكذا استمروا في تقديم الذبائح جهرا وعلنا في هذه البيعة المنقطعة عن التعاليم وعلى ملأ من الناس في بلاد معروفة كفلسطين بشكل اكثر بكثير مما يتصوره المرء. اذ ليس ثم شيء ثبتت اسسه في الشرق الا وُجِد له أثر في قلوب الناس مهما صغر.

ويزداد الشّعْب ضيقا بعد (مار بيشو) مارا بالبحيرة الحلوة الوحيدة في كردستان. هذه البحيرة تكونَت منذ عصور غير سحيقة جراء انخساف ارضي عظيم. وفي هذا الوادي مجموعة غريبة من العيون ماؤها مثقل بالحديد حتى يبدو بلون الدم حين يخرج من الصخور، وهو يترك بقعا قرمزية غامقة على السفوح وطعمه حامض. ويتناوله الناس بمثابة مقو وهو من هذه الجهة مفيد جدا.

الاساطير المحلية تزعم ان الجيش الفارسي المظفر سلك هذا الطريق عائدا من اورشليم حاملا معه الخشبة الحقيقية التي صلب عليها المسيح. فبعد ان فتح (كسرى ابرويز) تلك المدينة واستولى على هذا الاثر الجليل بادر الى ارسال هدية لـ «شيرين» زوجته المسيحية، وقد انبجس هذا الماء الشافي للامراض من كل موضع مسه هذا الاثر المقدس.

ويتلاشى الشعب في طِيّة من الجبال تعرف بجبال (ميرگه وه ر) وهي في امتدادها. وتقع (ترگه وه ر) في طية اخرى من تلك الجبال. وثم اماكن اخرى لها اسماء اخرى. وهذا الوادي ليس واديا بمعنى الكلمة لان الانهار تعترضه وتنفذ اليه من ثغرات في الجبال التي تحده فتجري في فتحات عميقة. على انه يؤلف من الجانب الشرقي لجبال حكاري خندقا يشبه تماما الخندق الذي يؤلفه تؤامه وادي العمادية من الجهة الجنوبية.

---

[6] ان الشرقيين ينسبون «الرسالة الى العبرانيين» الى بولس الرسول عادة.

وهذا الشّعْب يجعل السفر سهلا من ارمينيا الى كركوك حتى بغداد في عز الشتاء. ولعل حرص الحكومة العثمانية على هذه المنطقة وعدم التفريط بها كان متأتيا من هذه الميزة التي تسهل على الجيش العثماني الانتقال من بغداد الى الحدود الروسية دون ان تلجأ الى دورة طويلة غربا لا سبيل الى تفاديها بسبب عقدة سلاسل جبال كردستان.

كانت (ته رگه وه ر) دوما ساحة حرب حتى عندما لا تكون موضوع نزاع بين تركيا وايران، وهنا يوجد عدد من قرى النساطرة ورجالها كالعادة محاربون اشداء، ومن كان حسن السلاح منهم تجده في خصومة مستمرة مع اخوانه الكرد لا سيما الجيران وهم عشيرة لا تنتسب الى رأس وتعرف باسم (عشيرة البگزاده). كان زعيم المحاربين المسيحيين رجلا يعرف باسم «باجان» وهو بطل صنديد لا يعرف الخوف ومن اولئك الذين نشأوا على الحرب منذ نعومة اظفارهم. ان جهله معنى الخوف واستهتاره بالحياة كان يحقق له الغلبة في أصعب المواقف، حتى اقر له الاعداء بذلك. ومرة اشتد زخم القتال فشق طريقه وحيدا الى منزل تحصن فيه خمسة من الكرد فاستسلموا له جميعا فأخذ رفاقهم يعيرونهم قائلين:

- باجان محارب شديد المراس وهذا امر مفروغ منه، لكنه واحد وانتم خمسة.

- وما حيلتنا فيه؟ اطلقنا النار عليه لكن طلقاتنا لم تنفذ في جسمه بل ارتدت عن صداره.

يذكر المحاربون القدماء الذين خدموا تحت امرة «جون جاكوب John Jacob»[7] في الهند الى يومنا هذا بانه كان ينفض الرصاص من طيات بزته العسكرية بعد كل موقعة.

«باجان» الذي لا يقهر، هو الان في عداد الموتى، مات الميتة اللائقة بامثاله. فقد ذهب لمعونة صديق له كردي في احدى المعارك حبا بالقتال لا غير. فكانت الرصاصة التي دخلت من صماخه و خرجت من جبينه اكثر مما تتحمل مناعة جسمه.

ومسيحيو قرى (ترگه وه ر) مثل اهالي (مريوانه وكرانه وبلولان) وغيرها، محاربون أشداء كما هم مسيحيون صلحاء بعض الشيء. وهم يذكرون بأسف ان (باجان) البطل «لم يكن مسيحيا قَدْرها كان فارسا مغوارا». ولا مجال للانكار في انهم محبون للعراك يحتربون فيما بينهم مثلما يحتربون مع الكرد. واسباب العراك التي يتعللون بها هي حقوق الرعي والنزاع على الحدود طبعا، اسباب تؤدي الى سفك الدم النجس سواء لدى محاربي (داندي ديمونت Dandie Dimmonts) في «لدسديل» او عند رجال الحدود التركية الايرانية.

للمسيحيين رجال دينهم طبعا، الا انهم فلاحون مثلهم يعيشون كما يعيش الاخرون لا يمتازون بثقافة عنهم. وان (القاشا) اي القس قد يستطيع قراءة كتاب الصلاة وليس له ان

---

[7] احد المغامرين الانكليز الذين شاركوا في حروب الفتوح الانكليزية في الهند لا سيما في حرب ١٨٤٨ضد السيخ (المترجم).

يساهم في القتال العشائري. الا ان هذا التحريم لا ينطبق على الشمامسة ولا يشملهم. والشمامسة في المذهب النسطوري درجة من درجات الكهنوت لا شك فيها ولها واجباتها الخاصة، إلاّ ان يكونوا مجرد مرشحين لدرجة الكهنوت. ولهؤلاء الشمامسة الذهاب الى القتال عند الحاجة. ولطالما قادوا الحرب بالمهارة التي تصدروا بها مراسيم الصلاة.

ومما يذكر ان احد اغوات الكرد المشهورين ويدعى (بدرخان) قاد جماعته من الكرد المسلمين والمسيحيين المتشوقين على السواء الى ساحة القتال وكان شماس احدى القرى المسحية يليه مباشرة في القيادة.

وبدرخان هذا، لا يمت بصلة ما الى سميه (بدرخان بك) الشهير امير بوتان الذي نوهنا بذكره في فصل سابق. فهو رئيس عشيرة البگزاده الكردية التي كسبت له صيتا داويا في تلك البقاع بوقائعها المظفرة ومآثرها الحربية. ولم يكن اتباعه بالكثرة التي يفخر بها شيخ بارزان او نايري. وعلينا نحن شخصيا ان نذكر له حسن الصنيع فقد عرض علينا مرة، مدفوعا بشهامة محضة لا مغنم من ورائها، ان يعلن في سائر المنطقة فور صدور شكوى منا او من خدمنا لاعتداء يقع علينا امرا هذا نصه:«انا بدرخان بگ سأشنق كرديين على الاقل كل مرة..» والواقع اننا ترددنا في وضع انفسنا موضع القابلين بهذا المعروف. على ان (بدر خان بگ) كالجنرال (روبرت كروفورد Gen. Robert Crauford) عرف بتنفيذ تهديداته بالحرف الواحد.

وقام بعملية من هذا القبيل بعد عرضه النبيل بفترة وجيزة. فقد كان له بذمة احد اهالي اورميه دين حقيقي وهذا الرجل يماطل به فنفد صبره وهدد معلنا عزمه على قتل «سيد» واحد من سادة اورميه كل شهر حتى يستوفي دينه. وكان معظم السادة في اورميه على المذهب الجعفري في حين كان (بدرخان بگ) سنيا. وربما ظن ان بدرخان شديد الاهتمام بمسألة الفرق بين المذهبين. بطبيعة الحال لم يكن لسادة اورميه المساكين اية علاقة بَديْن الدائن. الا انهم من علية القوم في المدينة واكثرهم نفوذاً. فاضطروا ازاء هذا التهديد الى أن يرغموا المدين على الوفاء وهذا بالضبط ما حسب بدرخان حسابه حين اطلق تهديده[8].

هناك اسقفان يقومان على شؤون البيعة في هذه الاقاليم. احدهما رجل ضعيف البنية طاعن السن (مات مؤخرا) اشتهر ذباب منزله بانه اقسى الذباب لسعا في كل (ميرگه وه ر). اما زميله الاخر فيختلف عنه مشربا وطابعا، ليس ثم من يجرأ على وضعه في عداد الكهنة المثاليين. فهو يتلجلج ويتعثر ويتوقف ليتهجأ الكلمات اثناء الصلاة، ويصعب عليه كتابة

---

[8] نخشى ان تكون حادثة اخرى من حوادث هذا الشقي المو ،دب، اخزى من تلك التي اوردناها. فهو على تقديرنا مسؤول عن مقتل المبشر الامريكي «القس بنجامين لابري» Benjamin Labree في العام ١٩٠٥

اسمه. وعلى اية حال فما دمت اليوم في كردستان فاعتبر نفسك في القرن الرابع عشر لا القرن العشرين. بل في العصور المظلمة الاوروبية ان شئت الدقة. في تلك الايام كنت تستطيع باسهل ما يمكن ان تضع (ماردنخا التر گه وه رى) في عين منصبه الديني بانكلترا. فهذا مثلا اسقف (بومونت Beumont) من اعمال (دورهام Durham) قيل انه قام بخمس محاولات اوستّ لقراءة كلمة (ايبسقوپالس episcopalis) اثناء تلاوته وثيقة رسمية. فعجز واخيرا اطلق من فمه قسما غليظا بعيدا عن الحشمة اذ قال «قبحك الله من كلمة» ثم واصل التلاوة. وكثيرا ما لاحظنا (مار دنخا) يتعثر، لكننا لم نره يشتم مرةً.

زد على هذا ان هناك سوابق في انكلترا لقلة المعرفة هذه. فالقانون الرسولي Apostolical Constitition المقنن في القرن الرابع الميلادي (العصور الوسيطة) ينوه تنويها جليا بوجود اساقفة اميين ويعترف بهذه الظاهرة اعترافا كاملا بقوله «ان كان الاسقف ممن يجهلون الكتابة فمن الضروري ان يكون ذا ذكاء فطري على الاقل». هذا ما ذكره جامع القوانين تلك، ثم: اليس عصر المجمع النيقي Nicaea هو خير العصور في السوابق الدينية. وأطهرها في المسائل المتعلقة بالكنيسة المسيحية؟ ومار دنخا هذا سيجتاز بكل تأكيد الاختبار الذي قرره ذاك المجمع. فانه يسوس الرعية باغلظ الاساليب واشدها صرامة وهذا ما جعله مناسبا لرعيته هنا. فقد اقبل مرة يزور اصدقاءه اعضاء بعثة رئيس الاساقفة وطلب منهم تزويده بعكاز رعاة جديد لان عكازه (وهو عصا غليظة من خشب البلوط) قد «انكسر» فوق ظهر قس احد القرى حين رآه يحرث حقله يوم الاحد

وفي العام ١٩٠٣ شبت فجأة نار ذلك النزاع المزمن بين تلك الجماعات التي لا تخضع الى اي نظام وتصاعد لهيبها. أثارتها خصومات كالعادة، والذمة تقضي علينا هنا ان ننوه بدور ذوي الرؤوس الحارة المسيحيين الذين بذلوا أقصى ما في طوقهم لتأجيج النار. فقد اقدموا على لعبة حقيرة قذرة للسخرية والتندر على المسلمين من الجانب الاخر باستخدامهم النعرات المذهبية بين الشيعة والسنة استخداما شنيعا، فاطلقوا اسم ولي مسلم على كلب، واطلقوا اسم ولي اخر على ثان والبسوا الاول ثياب جندي ووضعوا على ظهر الاخر حلة الملا واطلقوا احدهما على الآخر ليمزقه. لا مراء في ان هذا العمل الدنيء كان كفيلا باثارة مشاعر أناس اكثر وداعة ومسالمة من جيرانهم البگزاده. فلم يكن بالعجيب ان ينشأ حلف ضد قرية (ماوانه) المجرمة التي كانت في نزاع شديد حتى مع حليفتها قرية (بلولان) المسيحية ولهذا بدت (ماوانه) وحدها فريسة سهلة.

اذا كان رجال (ماوانه) قد ظلوا سواء السبيل واقدموا على هذه الفعلة النكرا تحرشاً وطلباً للعراك ليس غير، فانهم على الاقل خاضوا معركتهم ببسالة لما وجدوا الحلف ضدهم قويا وكبيرا. فاجتمعوا في صف واحد وكانوا خمسين مسلحا ودخلوا البيعة كلهم ولثموا الصليب مودعين مصائرهم في يد الله ثم دخلوا المعركة. ومع انهم كانوا واحدا الى سبعة فقد وفقوا الى

دحر اربع هجمات عليهم خلال سبعة ايام، وذكروا عن تلك الموقعة انه «لم يحرق من قريتنا الا بيت واحد، هو بيت رجل بروتستانتي ابى ان يدخل البيعة ويلثم الصليب اسوة بالباقين». على ان امورهم ساءت عندما نفدت ذخيرتهم ولو اطبق الكرد عليهم في تلك الفترة لكان للعدد الاكبر القول الفصل.

في اليوم السابع من الحصار جاءتهم النجدة ليلا من حيث لا ينتظرون. كانت قرية (بلولان) المسيحية التي تربض على قمة الجبل في خصومة حادة مع «ماوانه» لذلك فليس لها علاقة مباشرة بهذه المعركة. لكن ما ان سمع اهلها بحصار القرية الجارة حتى راحت الثورة تعتلج في النفوس وتصاعدت باطراد واخيرا قام شماس القرية ابلحد (عبدالاحد) بجمع الرجال وخطب فيهم قائلا: «علينا اليوم ان نتناسى الثأرات». وطلب متطوعين يخرجون معه لنجدة اخوانهم، فلباه عدد يزيد عما يريده فاختار منهم جماعة حملت معها كل ما وفقت لجمعه من الخراطيش. وصعب على (باجان) الصنديد ان يوعز اليهم بمساندة المحصورين. الا انه ارسل انظاره الى الجهة الاخرى مزهوا طروبا عندما انطلقوا. فتسللوا في تلك الليلة الى القرية المحصورة ليضعوا حياتهم امام الخطر الماحق نصرة لاعدائهم.

كان الشماس يفهم مهمته جيدا، فمنع رجاله من اطلاق عيار واحد، وقادهم مباشرة الى كمين من امنع كمائن الكرد. فاعترضهم خفير فلم يردوا عليه، فاطلق عليهم ناره فأجفل الكامنون الكرد ووثبوا من مكانهم وكانت الفرصة التي يتمناها (ابلحد) فبادر يأمر باطلاق النار دفعة واحدة وباستمرار. وبهذا اعجز ثمانية وعشرين مقاتلا من العدو.

واخترق برتله خط الحصار ليدخلوا (ماوانه) دون ان يخسروا رجلا واحدا او يفقدوا شيئا من الذخيرة. ولم يكن هذا كل ما حققوه من نجاح، فقد دب الخوف في اوصال المهاجمين وظنوا النجدة اكبر بكثير من حقيقتها. فبادروا الى رفع الحصار عن القرية في تلك الليلة وتفرقوا الى بيوتهم. «وعندما أستيقظ الرجال من نومهم صباحا لم يجدوا اثرا للعدو والحمد لله».

لم يعش «الشماشا» عبد الاحد المقدام طويلا بعد هذا النجاح اللامع فما مضت اربعة عشر يوما، حتى وقع هو وجماعة من رجال (ماوانه) تحت رحمة عدد من الكرد فحصروهم في قرية صغيرة. نقول انصافا للكرد انهم عرضوا عليه حرية الخروج من القرية بسلام وشرف عندما علموا بوجوده بين اعدائهم (مع علمهم التام بما فعله بهم في تلك المعركة) وتقدم بدرخان نفسه وكان يقود الحملة لابلاغه الرسالة قبل البدء باطلاق النار وهتف يقول:

- ليس لدينا خصومة معك يا شماشا. ولا مع الاغا باجان الذي تنتسب له. كما لا نريد ان تكون لنا خصومة ايضا، فاخرج الى واسلك بيلك وانت آمن. اما هؤلاء اهل (ماوانه) فبيننا وبينهم دم. وسنصفي حسابنا معهم هنا.

فأجابه الشماس بثبات واصرار:

- انا ممنون منك، لكني هنا الان بين اخواني وسوف اخرج الى طريقي مقاتلا معهم.

وكانت معركة ضارية وحشية، نهايتها معروفة. واشتعلت النار في البيوت واخذ المدافعون يجوسون بين الجدران الملتهبة متنقلين من غرفة الى اخرى آملين بالنجاة تحت ستار الدخان. لكنهم وجدوا انفسهم بين امرين: اما الموت اختناقا واما الخروج الى العراء فاختاروا الثانية وصرعوا واحدا اثر واحد ولم ينج منهم احد. وهكذا خر الشماس ابلحد صريعا ومات خير ميتة يتمناها رجل.

تطوع (بدرخان) نفسه لنقل هذه الانباء الى «الانكليزي» في اورميه. وعقب قائلا انه لم يجد له مفرا من الاقدام على هذا تحت ضغط الظروف، فعليه ان يقف الى جانب دينه في الحرب «لكن عليك ان تكون متأكدا بان قلبي سيظل كما كان دائما. ولن يحدث ما يشوب الصداقة بيني وبينك».

لقد انطوت ايام معارك الرجولة الطريفة، وذهبت الى حيث لا عودة بعد هذه الوقعة بفترة وجيزة، ففي العام ١٩٠٦ عزمت الحكومة الايرانية على ان تبذل بعض الجهود لخضد شوكة الكرد واخضاعهم فجردت قوة عسكرية الى هذه الجبال لتحقيق ذلك. وطلبت الحكومة من المسيحيين مساندتها. فما كان من السلطات التركية الا ان انتهزت هذه الفرصة للتدخل مؤملة بهذا ان يضمنوا لا نفسهم اقليم حدود طالما اشتهته نفسها وارسلت قوة تركية لهذا الغرض ربما استجابة لطلب الكرد. وما ان بدت هذه القوة حتى ولى الجيش الايراني الادبار ولم يقف حتى (اورميه) خوفا وهلعا. اما حلفاؤهم الاثوريون الذين استنفروا من قرى «ترگه وه ر» وكانوا وحدهم قد تصرفوا تصرف الرجال في ذلك اليوم المخجل، فلم يفكر احد في مصيره. ووقعت تلك القرى التي طالما دافعوا عنها ببسالة فريسة السلب والنهب في ايدي اعدائهم ولم يبذل الترك اقل مجهود لايقاف او منع حوادث القتال الاعتيادية جدا كهذه. واضطر القرويون بعد فرار الجيش الايراني الى حماية انسحاب نسائهم واطفالهم تحت قيادة زعمائهم في اشد الظروف حراجة واعظمها خطرا.

وبقي اهل «ترگه وه ر» لاجئين في سهل اورميه فترة من الزمن. واسكن بعضهم قرى بناها لهم اغنياء المدينة الذين سرهم تأمين مورد اقتصادي ثمين ورأس مال عمل جيد لمزارعهم. ولما اصبح الاحتلال التركي لاقليم الحدود من المسلمات لم ير كثير منهم بدا من العودة الى بيوتهم، واستقروا في طائفة من قراهم المتروكة. لكن سرعان ما جلا العثمانيون عن المنطقة المتنازع عليها لحاجتهم الماسة الى الجنود في حربهم البلقانية، فتغير وجه الاحداث مرة اخرى.

ومهما يكن من امر فان اورميه باتت في هذه الفترة منطقة روسية قولا وعملا. وثبت الحكم للروس فعلا وان ظل ايرانيا بالاسم. قد لا يكون الحكم المسقوفي (الروسي) بالذي يتشوف له المرء، الا انه لم يحبذ قط استمرار التناحر والصراع الدموي بين العشائر. واذا ما ساد

الاستقرار اتسع امل العيش بسلام. وان كان سيقل الاهتمام بالسكان فانهم سيكونون اكثر استقرارا من ذي قبل.

10

أغصان امبراطورية ذاوية

أورمية

تتطامن جبال حكاري في جهاتها الشرقية الى سهل اورميه. والرحلة منها الى هذه المدينة عن طريق (ترگه ود ر) هي رحلة لطيفة بالقياس الى معاناتنا الشاقة في (جيلو وباز). ولم يَفْضَل لنا الا قطعُ آخرِ نجدين متطامنين من تلك الجبال لنرى الارض تفاجئنا بتغيير عجيب، فنتحّول بفضل تنظيم الري الى سهل خصيب تغطيه حقول القمح ويطرزه عدد وافر من الاشجار.

كانت (اورميه) قبل عشر سنوات قرية متضخمة لا غير، تحتشد فيها المنازل الحقيرة المبنية باللبن المجفف ويحيط بها سور طيني متداع. ولا تقع انظارك قط على باب واحد شيد بالآجر المفخور الا في القليل النادر. قد يكون في هذا الباب بعض الذوق المعماري وقد يفضي بك الى صحن دار احد علية القوم او الى بستان هندست تماماً على الاصول التي تترجمها المنحوتات الاشورية. ثم تؤدي بك الى بيت في حالة بائسة يحتاج الى ترميم واصلاح قل او كثر.

بقيت البلدة على هذه الحالة قابعة داخل السور حتى يومنا هذا. الا ان المستجدات الحديثة ادت الى نمو ضاحية فيها لها وجه شبه بتفليس «المدينة غير الناضجة» وبهذا يعرض الايرانيون تقليدا سيئا لما نقله الروس عن طرز العمارة الاوروبي.

واهم ما يلفت النظر (ولا نستثني من ذلك صحون المساجد الجميلة) هو السوق الكبير. انه نموذج حسن للسوق الايرانية المألوفة التي هي افخم واكثر أنفة من اخوانها الاسواق التركية. وهو عبارة عن تيه من الدروب والدهاليز المظلمة او السيئة الانارة. مسقوفة بعقادات مقببة من الآجر. تمتد على جانبيها دكاكين الباعة والتجار واصحاب الحرب اليدوية. وتمر بالزائر برهة من الزمن قبل ان تعتاد عيناه الظلام ثمُ برهة اخرى اطول من الاولى قبل ان تتمكن «غريزة التمييز المكاني» من السيطرة على مخطط الدهاليز المتعرجة المتقاطعة. يدخلها المرء مستطلعا بلذة وحبور، وهي تبدو له اشبه بعيد كامل لاجناس الشرق في أبهى الالوان الهادئة المتناسقة. على ان المرء يحتاج الى دليل اذا شاء الخروج. وليس لتلك الدروب مصدر انارة غير طاقات صغيرة في اعلى نقطة من القباب تنفذ منها حزمة شعاع تتجسم اذ تسقط منحرفة بعد اختراقها الظلمة المشبعة بالغبار. فيخيل للمرء انها عارض يقف في طريقه فلا يتمالك نفسه من الوقوف لحظة قبل اجتيازها.

ومعظم سكان (اورميه) ايراني. والزي الشائع عند الطبقات الدنيا يتألف من سروال عريض

مع قميص خارجي فضفاض ينسدل حتى الركبتين ويشد الى الخصر بحزام. وفوق هذا يضعون عادة سترة من القطيفة بدون اكمام بُنيّة اللون. واما غطاء الرأس فهو طاقية من اللباد البني الفاتح على شكل نصف يقطينة وهذا الزي نفسه هو الذي شخصناه في المنحوتات الاغريقية الغابرة بوصفه زي الفرس وقتذاك. اما الاغنياء فيرتدون سترة كاملة تشبه المعطف من القماش الازرق الغامق، ويضعون على رؤوسهم قلنسوة من فرو الاستراخان الاسود. وترتدي النسوة الشغيلات زيا قريب الشبه بزي الرجال سوى ان الجلباب اطول بعض الشيء من قميص الرجال والسروال اضيق، كذلك لون الثياب عند النسوة، فهن يخترن الاحمر الغامق في حين يفضل الرجال الازرق او الرمادي من الالوان. وهن يلففن الجزء الاعلى من اجسامهن بأزار فضفاض من قماش ازرق نيلي، وتعودت القرويات منهن عندما ينهين تسويقهن ان ينضين سراويلهن حال خروجهن من باب المدينة ليعبئن فيها كل مشترياتهن وبضَعْنَها في اعناقهن كالنير ويسرن هكذا غير مباليات او مهتمات بالحشمة.

ويضرب المثل بخصوبة سهل اورميه في كل بلاد ايران، وزراعها ورثوا عن اسلافهم المهارة والحذق في الزراعة. فهم ينتجون حوالي سبعة وعشرين صنفا من الاعناب، ويصدرون الزبيب الى روسيا بنطاق جد واسع. يجمعون العناقيد ويغطسونها في محلول النورة القوى لطرد الزنابير عنها ثم ينشرونها لتجف زهاء اسبوعين فوق ارض ترابية معرضة للشمس. وانك لن تجد ما هو اجمل من اكداس العنب الارجواني والذهبي منشورا فوق الارض المدحاة حتى ليخيل لك انك تتأمل سجادة من سجاجيد البلاد المشهورة بل ما يفوقها روعة.

والصيف الايراني موضع ثقة، والا كان هذا الاسلوب في التجفيف متعذرا. فزخة مطر صغيرة خلال موسم جمع الاعناب كفيلة باتلاف محصول العام برمته.

قد يكون خط الحدود بين تركيا وايران غامض المعالم الا ان الكمرك يقوم بعمله على اقل تقدير. فقد وجدنا موظفي تلك الدائرة ينتظرون مقدمنا ساعة ان وطئت اقدامنا السهل. وكان خادمنا الخاص استاذا في وضع الخطط والحلول الناجعة لامثال هذه المسائل، ولذلك وجدنا «بمحض الصدفة» اثقالنا كلها بعيدة عنا بمسافة طويلة ما عدا الحيوان الذي يحمل صندوق زادنا الضروري. امر موظف الكمرك بانزاله وفتحه فبدت اواني الشاي ومستلزماته اولا، وتلتها حقيبة الادوية. فما ان وقع عليها نظر الموظف حتى تذكر انه اصيب بالحمى قبل ايام فقال «هل يسمح له الانكليزي بقليل من الكينين؟» طبعا وبكل طيبة خاطر. «لعله يرغب بشيء من الشاي» (حسبما اقترح خادمنا)[1] ذلك لان «الصاحب» الانكليزي يحتاج هو الاخر

---

[1] يعتبر الشاي من وسائل الترف العظيمة، ولا ريب في ان ذوي الدخول المتوسطة يجلبون الخراب المالي على انفسهم بادمان تعاطيه، لا لارتفاع ثمن الشاي. بل لغلاء السكر. فهم يضعون فيه اكثر مما يمكن ان يذوب يذُيبه.

الى شيء منه خلال فترة انتظاره الامتعة. وكان ثم جدول ماء قريب. كما كان (البريموس) الثمين في الصندوق ايضا. وهكذا جلس المؤلف وموظف الكمرك يتناولان الشاي معا تحت ظل شجرة بجو المودة والصفاء حتى وصلت البغال، وهنا قال (دنخا) الماكر بلهجة رقيقة:

- هل انزل الصناديق؟

- والله افندم! هذا الصاحب الانكليزي ليس تاجرا، سر في طريقك وفي امان الله.

وهكذا اجتزنا عارضة الكمرك. يندر الا يحدث اللطف والادب اثرهما في الشرقي.

وقد لا تسير الامور على ما يرام احيانا، ونحن بهذا الصدد نذكر حزن عروس امريكية مسكينة وصلت مؤخرا الى هذه البلاد بصحبة زوجها المبشر. وكانت قد ارسلت قبلها هدية زواجها وهي عبارة عن طاقم من اواني الطعام الصيني الفاخر فوصل قبل وصولها ببضعة اسابيع وجدته ينتظرها في منزلها الجديد فراحت تفك صندوقه بشوق ولهفة.

كان الصندوق قد أرسل الى (تبريز) وهو محزوم حزما متقنا بين القش ونشارة الخشب. فداخل الشك بمحتوياته نفوس الموظفين لامر ما. ففحصوه فحصا دقيقا من فوق الى تحت دون ان يجدوا فيه شيئا ممنوعا بطبيعة الحال، ولاجل ان يجتنبوا جهداً اضافياً أعادوا اصحاف الصيني الى الصندوق مترددة دون ان يهتموا بوضع القش. فحصل في الصندوق فراغ عمدوا الى سده بوضع بعض الاواني المعدنية مع مكواة واثقال معدنية وميزان ميكانيكية. وارسلوا الجميع في رحلة طولها ثلاثة اسابيع داخل البلاد.

وبامكانك ان تتصور حالة الصيني في نهاية الرحلة. اغلب الظن ان طبقا واحدا لا غير قد سلم، وانه الآن يزين جدار غرفة جلوس السيدة الامريكية على سبيل الذكرى.

ان بلدة (اورميه) وسهلها هي كعبة احد اسمى العقائد الدينية الفلسفية التي استحدثها البشر لنفسه، فهي مسقط رأس (زردشت) ولذلك بقيت قرونا عديدة وهي قلعة (المجوس)عبدة النار ومعقلا لديانتهم. واقدس هياكلهم بلدة (سرش) وتدعى اليوم «تختي سليمان» تبعد عن اورميه قليلا الى الجنوب. وهناك عدة خرائب لاعظم بيوت النار قائمة اليوم. وعلى قدر معلوماتنا ليس في المنطقة زردشتي واحد الآن، على انه يوجد عدد منهم قليل اجتمعوا حول «برج الصمت» في مدينة ره شت. وهناك طبعا الجالية الكبيرة منهم في مدينة (بومبي). على ان النفوذ الكبير الذي يمارسونه لايناسب عددهم. وعددهم هذا على قلته آخذ بالتناقص. وبالقرب من اورميه البحرة البركانية العجيبة المعروفة ببحيرة «زندان».

في حين من الدهر، كان سهل (اورميه) بقعة الزردشتيين المقدسة الاولى. وتجد الان كل قرية مهمة تربض على تل من التلول التي تكونت برماد نيرانهم العظيمة، او بالقرب منه وهذه التلول تغطي ما مساحته عشرات الفدادين وهي تشير الى المواضع التي كانت النار المقدسة

الخالدة تبقى مضطرمة على الدوام. في الايام الاخيرة اخذت صروف الدهر تنال من هذه الآثار، فقد وجد اصحاب الاراضى ان رماد الخشب الجيد هو من خير الاسمدة، فاغاروا عليه واخذت الاكداس تتناقص باطراد. وكان الرماد ينكشف احيانا عن لقى غريبة تباع من الاجانب بمثابة قطع اثرية وتحف (انتيكات). الا انه يصعب جدا التاكّد من البقعة التي انكشفت عنها هذه الآثار او عن الظروف التي احاطت بالعثور عليها وهي لهذا تفقد كثيرا من قيمتها. من بين اللقى مايفسر بعض المراسيم القاسية التي كانت تمارس كجزء من العبادات الزردشتية في حقبة ما من حقب التاريخ. ومن ذلك انه عثر على عدد من الجماجم قتل أصحابها بدق مسامير نحاسية في قحوف رؤوسهم فنفذت الى ادمغتهم وبقيت الى يومنا هذا مسمرة في الجمجمة.

كان (زرادشت) مصلحا أجتماعيا اكثر من مؤسس ديانة. والمواقع الاثرية التي انقلبت بعده الى بيوت النار (في القرن السابع ق. م) لعلها كانت هياكل يمارس الناس فيها نوعا من العبادة عدة قرون قبل زردشت. فالمنقب الاثري يجد على مقربة من هذه التلال قبور زعماء من العصر البرونزي دفنت معهم رؤوس رماح ونصال سيوف برونزية. الى جانب حلي ذهبية دقيقة الصنع على شكل أصداف وقواقع رقيقة (كثيرا ما كان دفن هؤلاء يتم عند حافات تلك التلال وهي تزداد حجما). وقد يخيل للمرء انهم من تلك القبائل التي اصطدم بها الاشوريون في حدود العام ١ق.م عندما حاولوا توسيع امبراطوريتهم وطي هذه البلاد الخصبة تحت جناحهم فخاضوا معركة في مياه البحيرة التي وصلتنا صورتها المنقوشة على لوح من منحوتاتهم. كان محاربو الآشوريين مجهزين بجلود الغنم المنفوخة. وهو احتياط يكاد يكون لا ضرورة له في ماء كماء بحيرة اورميه لانها ثاني بحيرة بعد (البحر الميت) تمتاز بقابلية التعويم.

والبحيرة واسعة، وربما بلغ طولها ثمانين ميلا وعرضها اربعين. على ان اعمق قاع فيها لا يزيد عن ثلاثين قدما وملوحتها شديدة جدا والسابح يجلس في الماء العميق كأنه يجلس في مقعد ذي مسندين وقد برز راسه وكتفاه من الماء. والسباحة فيها صعبة بها محاذير لان الساقين اثناء عملية الرفس عرضة في كل وقت للخروج الى سطح البحيرة، وعند الانتهاء من السباحة والعودة الى البر يجد السابح على جسده كثيرا من الجراح والخدوش الواضحة لا يعلم كيف أصيب بها. ومرة نزل اليها القنصل الانكليزي المتهور وكان ممن تعود السباحة في المياه المالحة، ولست أظنه نسي تجربته القاسية بوقتٍ قصير.

ولا شك انها «بحرٌ ميت» اذ ليس في مائه كائن حي الا صنف من الروبيان (براغيث البحر) من فصيلة دنيا. اما الاسماك التي يقذفها النهر اليها فتموت حالا ومع كل هذا فهي من انسب المحلات للسباحة. شريطة ان تضمن لنفسك مقدارا من الماء القراح تغسل به جسدك قبل من يجف عليه ملح البحيرة. وتجد على ساحلها قدمات صخرية بين مسافة واخرى الا ان

الماء ضحضاح جدا بالقرب من الساحل عادة، وهي حقيقة رسخت رسوخا قويا في ذهن عضو من اعضاء «الجمعية الجغرافية الملكية» كان يقوم ببعض التحقيقات في تلك الانحاء. اذ غاص مركبه في رمل القاع وتوقف تماما ولم يبتعد عن الساحل اكثر من ثلاثة أرباع الميل. فاضطر الى ان يخوض هذه المسافة عائدا الى الساحل ولم يتعد الماء خصره وقدماه تدبان على قاع موحل فتتكون في كل رفعة قدم فقاعة من (غاز الكبريت) تخرج الى سطح البحيرة وتنفجر تحت انفه.

تزعم اسطورة محلية ان (توما الرسول) قطع هذه البحيرة في طريقه الى بلاد الهند. الا انه فعل ذلك بطريقة اقل جهدا مما عاناه الباحث الجغرافي في عصرنا ولم تزكم انفه رائحة كريهة كما زكمت انف ذاك، فقد سار على سطح الماء ليس الا وهذه اعجوبة أصغر من بعض مثيلاتها في حياة القديسين على انها ليست بعلامة الشؤم الصغيرة بأي حال. وتخليدا لذكرى هذه المعجزة التي توافق الخامس عشر من اب كل عام، يخرج كل اهالي (اورميه) لينالوا حماما دينيا احتفاليا في مياه البحيرة. والناس الاخرون غير توما الرسول يترتب عليهم ان يقطعوها بالمراكب والسفن، وما يستخدم منها هناك لا تضاهيه أية سفينة طفت على صفحة ماء سماجةً وغباءً فقد بنيت على اسلوب النير القديم الطراز الذي يشد اليه الدب، اذا اسعدها الحظ بريح تدفعها من الخلف فانها تجري بمعدل ميلين في الساعة الواحدة فتبلغ الساحل الاخر بيوم وليلة. وان لم تواتها الريح طوي الشراع انتظاراً الهبوب الريح. وبهذا قد يمتد قطع الاميال الاربعين، اسبوعا كاملا او اكثر. وفي الايام الاخيرة درس مشروع انزال باخرة تقوم برحلات منتظمة بين مينائي اورميه وتبريز. ورتب ان يكون خط مسيرها مارا من القناة المتعرجة التي تفصل اكبر جزيرتين في البحيرة: جزيرة «الغنم» وجزيرة «الحمار». ان كان هذا المركب مجدودا فقد يفلح في اجتياز هذا البرزخ في ست ساعات (اعني في اندر الحالات، عندما لا يصيب محركها عطب في الطريق). اما البرنامج الاعتيادي فهو عبارة محزنة تصدر من غرفة المكائن «ماكينة كيزدي! اي طرأ على مزاج الماكينة أنحراف» ويلي هذه الاشارة وقفة تمتد ساعات وقد تكمل يوما. وهاتان الجزيرتان لا يسكنهما بشر، ولا يعلم من اين جاء اسم «الحمار» لاحداهما. اما الاخرى فقد لصق بها الاسم لوجود قطعان من الغنم الوحشى. ظلت منعزلة هناك مدة طويلة حتى نمت قرونها وطالت وامتازت ببعض السمات الغريبة الجميلة.

واورميه هي مركز من اعرق مراكز النصرانية في العالم. ولو كانت الاسطورة المحلية صحيحة فان من بشر بالنصرانية هنا لا يقل مقاما عن اي حكيم من الحكماء الثلاثة الذين جاءوا من المشرق الى «مذود بيت لحم» والواقع هو ان الرواية الشرقية عن هؤلاء الحكماء لا تتطرق بشيء عن هجرتهم الاسطورية الى مدينة (كولون) وان ورد فيها ذكر الاسماء الخرافية الثلاثة

(گسپارGaspar وبلطشاصرBalthaser وملكيور Melchior) من اصل المجوس الاثنى عشر

الذين رحلوا معا الى ارض فلسطين ليشهدوا تحقيق نبوءة طلعة دينهم (بلعام بن يعور). اما عن المجوسي الذي عاد الى مسقط رأسه (اورميه) يحمل «الانباء السارة» (البشارة)، أفلا تنهض عظامه الثاوية في «بيعة مريم» دليلا كافيا؟ ان هذه الاسطورة كغيرها من اساطير الشرق العديدة هي على اقل تقدير ابعد عهدا واقل خيالا من قصة «الملوك الثلاثة» المتعلقة بمدينة الراين.

اجتمعت في الشرق مثلما اجتمعت في الغرب عدة حكايات طريفة حول زيارة «المجوس» فلسطين ايام ميلاد المسيح، ويجمل بنا هنا ايراد واحدة منها. يقول آباؤنا الاولون. عندما طرد ابونا آدم من جنة الفردوس اخذ معه على سبيل الذكرى لفردوسه المفقود شيئين اثنين. نوعا من التوابل كان ينمو من شجرة (المعرفة) وغصنا نزعه من شجرة (الحياة) حفظتهما سلالته في الشرق ذكرى للميراث الضائع الذي سيعود لهم يوما ما. ولما علم المجوس ان ذلك «المنبأ عنه» قد جاء اخيرا وهو الذي قدر ان يعيد اليهم ميراثهم المفقود شدوا الرحال اليه لعرض الولاء واخذوا معهم «المر واللبان» وقدموهما له في «بيت لحم» تذكرة من آدم بما اخذه ايام كان في الجنة من شجرتي المعرفة والحياة، واخذوا معهم ايضا غصن الشجرة وتركوه في اورشليم. واما اولئك الذين «لم يكونوا يدرون ما يفعلون» فقد جعلوا من هذا الغصن خشبتين مصلبتين لشجرة (قلفاري)».

وكنيسة اورميه. اساسا هي سريانية شرقية ككل كنائس الجبال. واعداؤها يسمونها البيعة النسطورية. ومن المسلم به فعلا ان اتباع هذا المذهب لا يدينون بعقيدة (نسطورس) القسطنطيني التي تم اعلان هرطقتها وادين صاحبها في العام ٤٣١م كما يشك ايضا في انه قام هو بنفسه او غيره بنشر تعاليم تلك العقيدة.

ووقعت هذه الكنيسة فريسة في يد البعثات التبشيرية الاجنبية المختلفة مذاهبها، كالروس الارثودكس، والرومان الكاثوليك الفرنسيين. والمعمدانيين الامريكان Presbyterians. وبذل كل منهم وما يزال اقصى الجهود لجر اتباع هذه الكنيسة الى مايراه خير شكل من اشكال المسيحية، لان ضمير هذه البعثات يأبى تركهم على استقلالهم الاول حين لا يرون ضيرا في بقاء نظام حكمهم الكهنوتي العتيق. ولقد حققت هذه البعثات الثلاث نجاحها الاعظم وآضت الكنيسة الشرقية القديمة (قلة ضئيلة) الا ان هذا لا يبدو نجاحا يعتد به ويسوى الجهد المبذول فيه في عين تابع من اتباع المذهب الانكليكاني. هل يطرأ تحسن في حال المسيحي الشرقي بانتزاعه من احضان كنيسة آبائه واقناعه بالانضمام الى مذهب آخر؟ صحيح. هناك اخطاء وأي اخطاء في مذهبه العتيق. صحيح هناك مبرر للاتهامات التي تصب عليه في احيان كثيرة. فهو اشبه بصنف من فصيلة اللافقريات. وجد نفسه مسيحيا لان آباءه كانوا مسيحيين من قبله ولا شك ان دينه لا يعدو درعا خارجيا واقيا نسجته له العادات الموروثة والعقائد الملقنة. (هذا اذا جاز لنا استخدام كلمة «قشري» اكثر من جواز استخدام كلمة «فقري» في

مجال وصف قوام بنائه الروحي) ولنفترض جدلا ان كل اولئك الذين يؤاخذونه على مسلكه المذهبي قد يكونون كلهم مستعدين للاهتداء الى الدين المسيحي لو ولدوا مسلمين مثلا او كفارا. مع هذا كله فلو نجح مصلح متحمس في استخراج (جمبرى) من قوقعته العظيمة (وهو عمل يمكن تحقيقه ان لم تُعِر اي اهتمام بمشاعر الجمبري)، فان عمليته هذه لن تعينه على بناء عمود فقري له، لانه سيعود ليخلق لنفسه قوقعة جديدة فحسب، درعا واقيا من العادات قد يكون خيرا من الاول وقد لا يكون. زد على هذا فان للمسيحي الشرقي قوى عجيبة خاصة بفصيلته فصيلة اللافقريات (التي هي ادنى بكثير من فصيلة البروتستانتي الاوروبي الفقري) وبامكانه ان يتحمل قدرا كبيرا من عمليات القص والبتر دون ان تلحق بايمانه خسارة. في حين قد يدمر هذا القص والبتر حياة المسيحي الروحية تدميرا تاما وان كان اعلى منه درجة في الترتيب. ان موهبة الاحتمال الصامت، قد تبدو من التوافه في نظر اولئك الذين لا يملكونها، على انها بوسعها ان تفخر بموافقتها لتعاليم الانجيل على اقل تقدير.

وفي العادة يقر اولئك الذين لا يعطفون على مجهودات التبشير، بان تلك المجهودات تتطلب تفرغا تاما عجيبا من اولئك الذين اختاروا لانفسهم هذه السبيل مهما كان شكل مسيحيتهم. والواقع ان المثل الروماني «الإفساد لا يأتي بثمرة» يصدق هنا كما يصدق على الامور الاخرى. وفي اورميه والمناطق المجاورة لها ضاع الكثير من مجهودات تلك البعثات التبشيرية هباء.

ان البعثات الاوروبية (ومنها البعثات الامريكية) هي فوق الانتقاد فليس بين اعضائها من يتقاضى رواتب تزيد عن امور معيشته. الا ان هناك بعثات صغيرة يديرها عادة سكان البلاد وتمولها اوروبا، ما وجدت في الواقع الا لتوفير عيشة الترف للقس المواطن الذي يشرف عليها، وهؤلاء المبشرون المحليون يزعمون انهم يبشرون بالانجيل بين المسلمين!! اما الحقيقة فهي انهم يجمعون حولهم عددا ضئيلا من الاتباع المسيحيين اصلا لا تربطهم بالبعثة اكثر من العلاقة الشخصية. ومن الخير جدا ان يعهد الناس الطيبون الذين يسهمون في تمويل هذه البعثات بمجهوداتهم واموالهم الى اشراف بعثات اكبر الى تلك البلاد، لا ان ينصبوا شخصا محليا في وظيفة تمتاز بكثرة الفرص والمجال للنصب والاحتيال التي قد تغري حتى الاوروبي على الوقوع في حبائلها.

اما عن اعمال الهداية والتبشير بين المسلمين فالواقع الثابت انه لا يوجد شيء من هذا القبيل. فامور كهذه تكاد تكون مستحيلة هنا خلا القيام ببعض المجهودات الخيرية والثقافية. فكل مسلم ينظر الى الشريعة الاسلامية نظرة تقديس ويعدها اسمى بما لا يقاس من اي قانون او شريعة مدنية. والموت هو العقاب الذي تفرضه الشريعة الاسلامية على كل مرتد عن الدين[2]

[2] نظراً الى النفوذ الروسي المستفحل. اصبحت هذه الفكرة تحتاج اليوم الى بعض الاهلية لتطبيقها في اورمية على اقل تقدير.

كيف يتوقع المبشر الاوروبي النجاح في مهمته عندما تطلب من متنصريه مواجهة خطر الموت يوميا وهو الخطر الذي تمنعه شخصيته الاوروبية من مشاركتهم فيه!! لانه يتمتع حتما بالحصانة السياسية؟

هناك نقطة اخرى يجب ان لا نغفلها. لا شك ان النصرانية اذا مانظرنا اليها بوصفها دينا شرقيا (وهي كذلك في الواقع، لا دينا اوروبياً كما صنعناها لانفسنا) قد يمكن ان يكون لها تأثير كبير على الشعوب المسيحية. ومن المؤكد ايضا ان تلك الشعوب الاسلامية سيكون لها التأثير نفسه على المسيحية. فهم يجلون «سيدنا عيسى» أجلالا كبيرا لكنهم لا يقبلون قط ان يوضع في مرتبة ارفع من مرتبة نبيهم محمد «حضرتي محمد». ومن الخير ان يتعلموا احترام المواطنين المسيحيين الذين يعيشون بينهم. لهذا يبدو لي ان مجهودات البعثات التبشيرية يجب ان تنصب اولا على رفع مستوى الاهالي المسيحيين ونبذ فكرة تنصير المسلمين السخيفة. ان العالم الاسلامي يوشك ان يواجه مشكلة عظيمة سبق ان واجهناها نحن، هي ملاءمة تعاليم الرسول المسلم للعلم الحديث وانسجامها معه فستأتي مقترنة بالاضطهاد السياسي الذي عاناه ذلك العالم من آخر امبراطوريتين مسلمتين. ان لم يكتب له النجاح في هذه المعركة، فماذا سيحدث؟ ليس هناك من يجرأ على التكهن بحصول رجة إلحادٍ عامة في الشرق.

اورميه. تعتبر نفسها بلدة متمدنة مثقفة. ورجال الطبقة العليا فيها يرتدون اصح الازياء الاوروبية هنداما او ما يسمونه (علفرنكه). لا بل انهم اتقنوا حل لغز العلاقة الصحيحة بين الياقة والرباط وهي مشكلة محيرة حقا. الا ان المرء يتبين مقدارا كبيرا من الوثنية البدائية وراء كل هذا التقليد الفردي لمظاهر المدنية، فيمتلكه سرور لا قبل له بدفعه وان لم يكن هذا صوابا منه. «فعبادة الشجرة» وهو اقدم دين وجد على وجه البسيطة، مازال شائعا في القرى. واهالي البلاد لا يظهرون استخفافهم بالاجلال الذي يحظى به بعض الاشجار الا اذا كانوا على خطوات من احد الاجانب. فمثلا هناك شجرة قرية (كرده مى) المقدسة وهي من باسقات السنديان تحظى بما هو اكثر من الاحترام. فخرقة من ثوب مريض تشد في فرع من فروعها تضمن شفاءه شفاء تاما. وقد جرت مرة واحدة فقط محاولة للازدراء بها، اذ تجاسر احد القرويين من البروتستانت الكفرة على اخذ غصن ميت منها فجعله خشبة عبور فوق احدى السواقي التي شقها في حقله. وسرعان ما لقي جزاء رعونته وندم على تهوره، فقد سقط سقف بيته ثم فطست جاموسة له، ولحقت بها زوجه، وسقط ابنه مريضا فاسرع الى الخشبة وقد طارت نفسه شعاعا من هذه الكوارث المتلاحقة وقدم نذورا لاحدى البيع المجاورة فما لبث ابنه ان شفي. ومنذ هذه الحادثة ولا احد يجرأ على الكلام بالسوء عن الشجرة.

والبيع التي تقدم لها النذور في تلك الانحاء، عديدة منها بيعة (مار سرجيوس)[3] الشهيرة بنوع خاص. فهذا القديس يحفظ المسافرين وينجيهم من اخطار الطريق اذا قدم له تيس اسود قبل البدء بالرحلة. الا انه مختص بصنعة شفاء المجاذيب او «الشداني» وهو ما يوصف به المصروع والمجنون. ويتم العلاج الناجع لهاتين الحالتين على الشكل التالي: بعد الصلاة الحارة ومنح البركة. يوضع المصاب في حجرة منقورة في الصخر تحت مستوى البيعة لعلها كانت فيما مضى صومعة ناسك، وهي شبيهة بقفير نحل او زنزانة سجن قديمة عادية بهندستها فشاغلها لا يستطيع الجلوس او الوقوف او الاضطجاع براحة واسترخاء. والمصاب يودع فيها ليلة كاملة او يوما كاملا احيانا. والنتائج على كل حال تكون غريبة غير متوقعة اذ يخرج قسم لا يستهان به من هذا التأديب اصحاء العقل! وهذه بالطبع قضية ايمان ذاتي يتم الشفاء بقوته، ظاهرة طبيعية عند اولئك الذين لم يدركوا بعد عصر الالحاد الحديث الذي تنم عنه عبارة «ان عصر المعجزات قد ولى». وننتهز هذه الفرصة لنشير هنا الى ان الرأي السائد عند اللادينيين الاوروبيين هو هذا «في الوقت الذي لا يستبعد ان يصاب سليم العقل بالجنون بعد قضائه ليلة انفرادية في ذلك الجب المليء بالحشرات السامة. فمن المعقول ايضا ان ينقلب المجنون الى انسان صحيح العقل».

والكتابات التي تحفل بها جدران البيعة تدل على انه يسمح تحت ظروف معينة ان تتم البيتوتة في «بيث شداني» بالاستنابة. وقد قرأنا على الجدار هناك اقرارا من هذا القبيل وهو الآتي «انا يوحنا بن يعقوب. بت هنا في هذه الصومعة ليلة واحدة نيابة عن اختي خاوه التي تعذر عليها المجيء. فيا ايها الاب القدير فليكن هذا العمل نافعا لها بقوة صلوات عبدك مار سرجيوس». والمسلمون كالمسيحيين يقبلون على التماس الشفاء من هذه البيعة. وقد عرفنا جماعة من الهركيين قدموا نذورا غالية الثمن لها كما حضروا الصلاة التي تقام فيها اظهارا لامتنانهم من شفاء احدى بناتهم من داء الصرع.

والظاهر ان كثيرا من المسلمين يؤمنون بان المسيحية قديمها وحديثها ذات قوة عجيبة في شفاء الاسقام. وقد حظي ايمانهم هذا بدليل يؤيده، فلما تفشت الهيضة في اورميه العام ١٩٠٥ لم يتخذ المسلمون اية حيطة ووقاية من هذا الوباء لانهم لا يستطيعون ان يفهموا كيف تحبط ارادة الله بمجرد غليك الماء! والمعجزة هي ان المحلات التي يشغلونها من المدينة لم تفز منهم بفتكة الوباء اذا ما تأمل المرء سوء الاحوال الصحية التي يعيشونها! فمثلا لم يكن من النادر ان ترى جثث الموتى تغسل في السواقي التي يؤخذ منها ماء الشرب قبل دفنها.

---

[3] في الحقيقة هي بيعة يتقاسمها مارسرجيوس ومار باخوس، وهذان القديسان معروفان في الشرق، واشهر بيعهما العديدة هي بيعة استانبول. وهما من شهداء بلاد فارس في القرن الرابع. وتزعم كنيسة مارسرجيوس في اورمية انها بنيت في موضع استشهاده.

وليس للمرء الا ان يفترض وجود مناعة قوية فيهم بفعل الصفات الوراثية المنتقلة اليهم ازاء هذه الاوبئة الفتاكة وغيرها، وهي ظاهرة جديرة بالدراسة لتقرير ما اذا كانت الميزات المكتسبة تنتقل بالوراثة ايضا؟ والمسيحيون مثلهم لكنهم كقاعدة عامة طبقوا التدابير الوقائية التي نصحهم بها المبشرون الاوربيون، وكانت النتيجة انه لم يهلك منهم غير اربعة انفار خامسهم عَالمٌ أبى ان يغلي ماءه. في حين هلك اربعة آلاف مسلم من سكان المدينة وحدها (اماعدد الموتى من القرى فلا يعرف).

والواقع ان الرعب الاعظم اطار الصواب من الرؤوس، وصار كل الم يصيب المعدة يشخص مبدئيا بالهيضة. وبلغ الهلع حدا قال معه احدهم انه راى الجراثيم الفتاكة تتبع الطبيب الامريكي حيثما سار «كالجِراء الصغيرة»! الا ان الاعتقاد الذي ساد عنه هو انه كان منشغلا في اتخاذ تدابير وقائية شديدة.

والمذهب الجعفري هو مذهب الاغلبية الساحقة لمسلمي (اورميه) والسهل الذي يكتنفها، مَثَلهُم في هذا مَثَل سائر الايرانيين. لذلك كانت الاحتفالات خلال شهر محرم تمتاز بالمهابة والرهبة. اذ تخرج صفوف طويلة من المعزين متظاهرة في الشوارع تلطم الصدور وتندب الشهيدين الحسن والحسين. في حين تعن لك بين الفينة والفينة جماعات صغيرة من الغلاة في اردية بيضاء تندفع وهي تضرب جباهها بسيوف ثقيلة (وهي سيوف قصيرة عريضة شبيهة بسيوف الرومان الغابرين) حتى ينبجس الدم منها ويسيل على وجوههم. وكانت رؤوسهم حليقة تماما لذلك فان اية ضربة خفيفة تخرج دما وهذا ما يقطع بان المراسيم ليست مجرد تظاهر بل اكثر من ذلك. والواقع انه لا تمثيل او زيف في القضية فنادرا ما يمر محرم دون ان يموت احد هؤلاء من الجراح التي احدثها في رأسه. كانت الحالة هكذا قبل الاحتلال الروسي على الاقل.

واورميه الان هي روسية بحكم الامر الواقع. وكل جعفري مخلص يشعر الان بان شهر محرم قد فقد روحه وميزاته ان لم يكن قد تجرد من مظاهره الفخمة بوجود حراب الكفار وهي تقوم على حراسة الشوارع وحفظها هادئة نظيفة. ان (السبايا: مواكب العزاء) مازالت تنتظم بصفوفها في المواعيد المقررة طبعا وقد ازدادت روعة وبهرجة بازدياد الثروة لكن «ايش أبود: ما العمل؟» اين هو المجد المؤثل الغابر؟ لقد زحف الاحتلال الاجنبي شيئا فشيئا ودخل دون ان يشعر بدخوله احد وهو الان كائن وسيستمر. في البدء سمح بدخول بعثة تبشيرية دينية صرفة لحماية وتثقيف من يرغب ان ينضم الى حظيرة الكنيسة الارثوذكسية من المسيحيين. وبعدها وجد من الضروري ارسال قنصل لحماية الرهبان والكهنة الروس المقيمين هناك. ثم وجب ارسال سرية من القوزاق لسلامة القنصل وتحوطا من الاخطار المفاجئة. وترتب على وجوب المحافظة على سلامة الطرق وضمان وصول البريد القيصري ان يقوم القنصل والقنصل العام باخراج دوريات عسكرية الى الطرق في سبيل المصلحة العامة ولقصور الحكومة الايرانية الضعيفة عن

القيام بهذا الواجب. وهكذا اصبح الاحتلال كاملا تاما ناجزا كالاحتلال البريطاني للبلاد المصرية. وفي كلتا القضيتين تبدو النتيجة وكأنما تخفي في اعماقها البعيدة الغور خطة ماكرة مستهترة وضعت منذ البدء. وقد لا يكون في المسألة شيء من هذا القبيل خلا ان الظروف المحضة هي التي دفعت بالرجال الى هذا الوَطِيس وكان على السلطة المحلية صاحبة الحق ان تذعن للامر الواقع شاءت ام ابت. ولم تكن ايٌ القوتين تستطيع ان تتجنب شعور «القضية قضيتي وجدران جاري تحترق mea res agitur, paris cum proximus ardet وعلى اية حال فما حصل كان فيه الخير لمن يهمه الامر بالدرجة الاولى، فقد وجد الآن الامل والراحة والاستقرار والثروة، وقانون يطبق على الجميع بالتساوي. ومع هذا لا يملك المرء الا ان يتحسر على تلك الايام الشائنة القذرة الظريفة التي كانت تسود المنطقة قبل بضع سنوات.

في تلك الايام كان للسيد المنحدر من عترة النبي حقاً أم زيفاً، ان يتمتع بالحقوق الواجبة لكل سليل من هذه الاسرة الكريمة. فهو يعيش مجانا في الموضع الذي يختاره لعيشته (ويكون على الاغلب في قرى المسيحيين) ويسير في الشوارع مزهوا متبخترا في جبته الارجوانية وعمامته الخضراء التي تفصح طريقة شدها بان صاحبها اما ينحدر من صلب الرسول الانثوي، او من اسرة ابيه. وكل المسلمين على اختلاف مذاهبهم يبغضونه، الا انه مرهوب مهاب الجانب، فالمسلمون لا يطيقون رؤيته لما يدعيه من السلطة الروحية الرفيعة. والمسيحيون يتعوذون منه لما يمارس من سلطة دنيوية. والويل كل الويل «للكلب» المسيحي الذي يحاول التملص من واجب الترجل عن مركوبه والوقوف وقفة الاحترام والتحية عندما يمر «السيد» به راكبا. ان مجرد السماح له بالركوب فضل لا يستحقه.

لقد قصوا علينا كيف ان زوج «الخواجه ملا نصرالدين» ارسلت بعلها هذا الى السوق يوما لشراء «الباذنجان» فقال الخواجه لها:

- لا اعرف شكله.

فصاحت به

- يالك من غبي! ان السوق مملوء به، وشكله احمر غامق ورأسه اخضر.

ولما وعى «الخواجه الوصف» اسرع يقول «الآن عرفته». وخرج ليعود بعد برهة ومعه «سيد» بكامل ثيابه. ونادى زوجته قائلا:

- ها قد جئتك بالباذنجان يا امرأة.

فردت عليه وهي في مطبخها:

- شقه من فوق الى تحت نصفين، واقطع رأسه، ثم ضعه في القدر.

وكان الخواجه زوجا طائعا. فقد حاول جهده تنفيذ التعليمات. ولم يفلح «السيد» في النجاة

بجلده الا بمشقة وبعد ان تمزقت ثيابه.

والخواجه[4] نصر الدين هو «جو مللر Joe Miller» الشرق.

ويمكن ان تعزو اليه حكاية او فكاهة شائعة ابتداء من استانبول وانتهاء بقندهار. لكن، الى اي حد بقي جو اقاصيص الف ليلة وليلة يسود اورميه اليوم؟ هذا ما يمكن الحكم عليه من الحكاية التالية التي اكد لنا راويتها انها حقيقية او ان الراوية نفسه يعتقد بانها حصلت فعلا ولنسمعها.

(قصة حاجي "قاز" وكيف قام بانه بشرانه)

قبل زمن ليس ببعيد. كان يعيش في اورميه نقيب للاشراف يدعى «حاجى قاز». وكان غنيا كبير النفوذ. ادى فريضة الحج الى مكة ثلاث مرات، وكان صديقا للوالي والقاضي. وله مكانة جليلة عند الائمة والعلماء.

وكان في المدينة رب اسرة يملك بستانا طمع بها الحاج قاز وطلبها منه فرفض هذا بيعها فراح الحاج يفرط في التنكيل به وايذائه ويبلغ عنه تهما كاذبة للقاضي والمحكمة. وفي احد الايام بعد ان نال المسكين ما ناله من الاذى. عاد الى منزله حزينا كئيبا وجلس في غرفة الحرم وعاف الاكل وظل ساكتا يغطي وجهه بيديه حزنا، وكان له زوجة جميلة عاقلة ماكرة فلما رأت زوجها على هذه الحال من الكآبة ابتدرته متسائلة

- ماذا بك يا سيدي؟ ما بالك حزينا لا تأكل شيئا؟

اجاب الزوج:

- السبب هو «السيد الحاج قاز». انه الان يريد اغتصاب بستاني، وقد رماني بتهم باطلة، ومما زاد في الطين بلة ان القاضي اخذ منه رشوة.

- انك تسيء الى نفسك اذا ما غاليت في الاهتمام بالامر. دع امر «الحاج قاز» لي وسأصيب منه ثأرك.

وفي صباح اليوم التالي استيقظت المراة وارتدت اجمل ثيابها وتجملت وتعطرت بالمسك

---

[4] هذه الكلمة جاءت من الشرق ودخلت اللغة الانكليزية ربما تذكارا من حرب القرم نقله جنودنا من اللهجة الدارجة هناك وربما امكن «لجمعية كودجر العتيقة» Ancient Society of Codger ان تدعى بعضوية الخواجة نصرالدين في ناديها. ومعنى كلمة «خواجه» الحرفي هو (الخصي) او (المربي) لكنها في الكلام الدارج تعنى الصاحب او الصديق. نقول: هنا جَانَب المؤلفين الصوابُ فالكلمة بالاحرى هي لقب تشريف واحترام. تطلق عادة على كبار الصوفيين والعلماء وهي تركية الاصل. (المترجم).

وكحلت عينيها واسدلت برقعها على وجهها وخرجت الى الشارع متجهة نحو منزل الحاج قاز حتى مر بها فكشفت جانبا من خمارها وغمزت له بعينها وابتدرته قائلة:

- ايها المسلم. الا تدلني على منزل الحاج قاز؟

فاجابها:

- انا هو الحاج قاز، فما طلبتك؟

فازاحت الخمار عن جانب كبير من وجهها ورشقته بابتسامة وقالت:

- خادمتك طهرانية[5] تزوجت رجلا من اورميه. ما لبث ان رحل عنها في سفرة طويلة. ثم بعث لها بكتاب طلاق. فحثني الجيران على مراجعتك بقولهم: عليك بالحاج قاز المستقيم العادل ولا تطلبي نصحا من سواه (وهنا اسهب المحدث في وصف الغزل الذي تعاطته اسهابا لذيذا لكننا مرغمون هنا على التغاضي عنه) فترجل الحاج عن حصانه وامسك بيدها قائلا:

- يا سيدتي الجميلة لقد احسن جيرانك صنعا بهذه النصيحة.

الا ان المرأة تباعدت عنه واسدلت برقعها وقالت:

- ليس من اللائق بنا ان نتبادل الحديث في الشارع وفي وقت كهذا.

تعال الى منزلي عند غروب الشمس، ضيفا عزيزا كريما وهناك تقوم باسداء النصيحة وارشادي الى خير وسيلة لعلاج امري.

خرج الحاج قاز من بيته بعد غروب الشمس. وتسلل بغاية التكتم الى المنزل الذي وصفته له المرأة، ففتحت له الباب، واجلسته ووضعت امامه لحما وخمرا وطعاما فاخرا. وفيما كانا يتساقيان الكؤوس ويتضاحكان طرق الباب فجأة وعلى غير انتظار، فخرجت المرأة لتنظر الطارق ثم عادت مسرعة لتقول:

- انه زوجي! الويل لي. لقد عاد من رحلته دون توقع. واخشى ان يصيبنا منه مكروه اذا وجدنا معا في منزله فقال الحاج فاز وقد استبد به الخوف.

- عزمتُ عليك يا سيدتي، ان تجدي لي مخرجا.

فأجابته قائلة:

- ليس في المنزل باب آخر. فقم اختف في هذا الصندوق الكبير الذي ليس لقفله الا مفتاح واحد وهو في حوزتي. وسأقوم باخراجك حالما يترك زوجي الدار.

---

[5] لنساء ايران ذكاء مشهور يضرب به المثل. بدليل شيوع هذا القول «على المسلم ان شاء السعادة، ان يتزوج باربع: فارسية لذكائها، وجركسية لجمالها، وارمنية لاتقانها الطهي وتدبير شؤون البيت، وكردية لضربها امام ثلاثتهن لتقوم مثلا رادعا لهن.

وهكذا ادخلت الحاج قاز الصندوق واحكمت قفله بمفتاحها. ثم فتحت الباب لزوجها وابتدرته قائلة:

- أبشر ولتنعمم بالا انظر كيف اوقعت «الحاج قاز» في شراكي؟

فسألها الزوج:

- اين هو؟

فقالت:

- انه في هذا الصندوق. فهيا اربطه بالحبال ربطا محكما. ولنجلس، نأكل ونشرب، وبعد ذلك نفكر بمصير له.

لاحت تباشير الصبح فاستيقظ الزوج من منامه وسأل زوجه:

- ماذا ترانا فاعلين بالحاج قاز؟ هيا فلنفتح الصندوق وسأتولى ضربه ضربا شديدا ثم اطلقه.

لكن الزوجة هزت رأسها غير موافقة وقالت:

- كلا فأنت غير مصيب وليست طريقتك بالمجدية. اخرج واجلب لنا عتالا يحمل الصندوق الى السوق واطلب من «أحمد» الدلال ان يضعه في المزايدة العلنية ويبيعه ممن يدفع اعلى ثمن به، على ان يبيعه مقفلا لا يعرف الشاري محتوياته الا بعد ان يرسي عليه البيع.

فنفذ الزوج ما رسمته، وانصرف العتال بحمله الى السوق، وفيما هو ماض لقيه السقاء فابتدره محييا.

السلام عليكم، الى اين انت ذاهب؟

- الى السوق احمل هذا الصندوق

فسأله السقاء:

- ماذا بداخله؟

اجاب العتال:

- والله لا ادري. ولن يعرف احد ما بداخله حتى يملكه.

فاستبد الفضول بالسقاء ودنا من الصندوق ومد اذنه يتسمع ثم صاح مشدوها:

- في هذا الصندوق مخلوق حي. كن على حذر فلعله شيطان من الجن قد يصيبك منه اذى عظيم.

فما كان من العتال الا وانزله عن كتفيه وطرحه ارضا وهرب لا يلوى وهو يهتف:

- اعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

فصاح به السقاء مستوقفا:

- انظر الى بركة الماء هذه، من رأيي ان تغرق الصندوق فيها

لما سمع الحاج قاز السجين هذا القول، صاح بأعلى صوته من الداخل:

- اياك ان تفعل! فانا هو الحاج قاز.

فأجاب العتال مستنكرا:

- لا بل انت جني خبيث ماكر.

فصاح الحاج قاز:

- كلا كلا. اقسم بالله اني هو، فان اخليت سبيلي اجزلت لك العطاء.

فأجاب العتال قائلا:

- لا يمكنني تنفيذ ما تطلب. فقد تسلمت اجرتي، وانا مكلف بنقل حملي هذا، وان لم اسلم الصندوق «لاحمد» الدلال، فستزول ثقة الناس بي في السوق ولا يكلفني احد بعمل.

فرد الحاج قاز على السقاء بقوله:

- اذن ارجوك ايها الاخ ان تسرع الى منزل ابني وتطلب منه الذهاب الى السوق لشراء صندوق «احمد» مهما بلغ ثمنه. وقل له ان ينقله مغلقا الى منزله ولا يفتحه في السوق لئلا افتضح هناك.

فاسرع السقاء بالرسالة ورفع العتال الصندوق وجاء به الى السوق فتسلمه الدلال احمد ووضعه على صُفَّة امامه ونادى بصوت جهوري:

- يا معشر المسلمين! عندي هنا صندوق للبيع! الصندوق وما يحويه للبيع! دونكم اياه فزايدوا عليه.

فأجتمع عليه التجار وسألوه عن محتوياته فقال:

- لست ادري، وستظل محتوياته سرا حتى يتم بيعه.

فزاد اهتمام التجار به وقال احدهم متفحصا:

- انه لصندوق جيد، وسأدفع به تومانا واحدا[6].

واردف اخر:

- علي باثنين.

وهنا وصل ابن حاجي قاز وهو يلهث تعبا ونادى الدلال باعلى صوته:

---

[6] في زمننا الحالي التومان يساوي ثلاثة شلنات وستة بنسات من الفضة.

- يا أحمد اني ابتاع هذا الصندوق بخمسة تومانات.

فتدخل تاجر يهودي قائلا:

- علي بستة

فهتف ابن الحاج:

- اني ادفع اثني عشر تومانا.

وهنا اخذ التجار يتهامسون فيما بينهم قائلين:

- حقا اننا نجهل ماذا يوجد في الصندوق، لكن يبدو ان سره ليس بغامض على ابن الحاج. واغلب الظن انه يحتوي على حاجة نفيسة. ربما كان تبغاً مهربا من مخزن الشيخ؟ او حشيشة تسوى ذهبا كثيرا؟

وسرعان ما عاد المستنكفون عن الشراء الى الحلبه وهم متلهفون للفوز بالصندوق، وازداد عدد الراغبين فيه. الا ان ابن الحاج كان في المقدمة بين المتنافسين، حتى رسى عليه بستين تومانا. فمسح العرق عن جبينه ودفع المال واستدعى الحمال وامره بنقله الى منزله.

وكان العتال الذي جاء بالصندوق واقفا يتابع المزايدة. فلما وعى النتيجة راح يضحك ضحكا شديدا حتى لم تعد ساقاه تقويان على حمله فسقط على الارض يتدحرج في نوبة من القهقهة. وفيما كان التجار ينظرون اليه مستغربين تصرفه، التقط انفاسه وجلس وهتف يقول:

- والله يا معشر المسلمين ان هذا لم يحدث مثله من قبل! هذا الرجل اشترى الان اباه بستين تومانا! ان السيد حاج قاز هو في داخل هذا الصندوق.

ولما سمع التجار قوله اسرعوا الى الصندوق فكسروا القفل فخرج حاجي قاز وهو في منتهى الخجل، فأغرق التجار في الضحك حتى ضج السوق بقهقهاتهم وامسكوا بخواصرهم وجرت الدموع من اعينهم على خدودهم من فرط الضحك وتقلبوا على الارض وقد غصوا بالضحك كما جرى للعتال تماما.

خرج حاجي قاز من الصندوق وانسل هو وابنه من السوق وقد ركبهما الخزي والعار. ولم تمض ايام حتى باع بيته وكل ما يملك في المدينة ورحل الى بلد اخر ولم يعد الى اورميه قط.

ان ولاة الايام الماضية لم يحاولوا الوقوف في وجه هؤلاء السادة او تحديهم بشكل فعال. فقد علمت الاخرين تجارب من حاول رفع يده على هذه الطبقة درسا من الحكمة. لقد جرت محاولتان للنيل من هذه العصبة الا ان الفوز كان لها في كلتا المحاولتين بسبب التماسك فيما بين افرادها وبدعم من المشاعر الدينية.

مرة حاول «ولي العهد» ان يواجه هذه المشكلة، وكانت الصعوبة متأتية من جهة، عن عجز

الولاة كافة عن اخضاع الكرد الغزاة للنظام. فاراد ان يضرب عصفورين بحجر واحد، فجاء بأشد المتمردين الكرد عتوا ونصبه واليا على اقليم اورميه، بعين الاسلوب الذي اتبعه احد ملوك انكلترا حين قلد احد افراد اسرة «اونيل O" Nell »[7] منصب نائب الملك في ايرلندا الثائرة.

وكان الوالي الجديد حسن بگ (وهو من اكراد مه رگه وه ر) ممدوح النشاط على أقل تقدير، وهو ككل اكراد تلك المناطق سني المذهب وبدأ مكافحته لهم بحشو عدد منهم في سبطانات المدافع ثم اطلاقهم بتفجير البارود وتمزيقهم في الفضاء اشلاء. على انه احدث بعمله هذا ضجة عظيمة. فاوصال الجسم الصغيرة لا تتمكن طبعا من حمل القدسية الموروثة المتطايرة الى السماء. الا ان واحدا منهم كتبت له النجاة. اذ افسد ضمائر المدفعيين بمبلغ من المال فوضعوه بصورة تمكن معها من احاطة سبطانة المدفع بذراعيه والبقاء خارجها عوضا عن ان يكون ظهره ملتصقا بفوهة المدفع. وجرى تنفيذ الحكم وسط ساحة عرض عسكري واسعة ولذلك لم يفطن احد الى الحيلة. ثم اطلق المدفع وظل الرجل الصالح واقفا لم يصب باذى وصاح صائح المعجزة معجزة! » وضج المتفرجون بالهتاف. وهاجمت الغوغاء فورا قصر الوالي. فوجد من الحكمة ان يترك المدينة تلك الليلة ليعود الى مسقط رأسه. وكانت فترة ولايته قصيرة الا انها ظلت «دائما ذكرى جميلة لطيفة» مثل ذكرى النظام الملكي في رومانيا!

وحاول (مجد السلطنة)[8] وهو وال آخر ان يأخذ بسبيل اصلاحٍ عمومي في ١٩٠٣ فاقترح تنظيف الشوارع وتجهيز المدينة بالماء النقي وهما مشروعان ممتازان بحد ذاتهما، على ان احد المبشرين الامريكان علق على ذلك بقوله «اليس من الافضل لسعادته ان يتولى عمل طرق قبل ان يقوم بتنظيفها؟ » واثر عنه فكرة نيرة اخرى بقيت مجرد قول. فقد ابدى شكه في قيام اي اصلاح حقيقي في ايران «حتى يرى الناس «سيّدا » مشنوقا في كل شجرة نابتة حول اورميه»، الا انه كان لسوء الحظ يفتقر الى العزم والقوة لتنفيذ آرائه العجيبة الممتازة.

وبدأت المعركة بينه وبين السادة بمجيء (محرم). كان ثم تقليد عتيق لا يعرف له تاريخ ينص على ان يقوم وفد «منهم» في تلك المناسبة الدينية على خدمته ويكون لهم الحق كاليهود القدماء في ان يطلبوا منه « اطلاق اسير واحد لهم، اي شخص يقر عليه قرارهم» وكان (مجد السلطنة) يرغب جدا في السير على هذا التقليد. الا انه افهم جماعة السادة مقدما وبصورة غير رسمية ان لا يطلبوا سجينا معينا عانى مشقة كبيرة في القبض عليه وحكم عليه بالموت.

---

[7] اونيل اسم لاشهر واعرق الاسر الايرلندية، وهي اسرتها الملكية التي تتبع تاريخها حتى القرن الخامس الميلادي ولما كان اعضاء الاسرة كثيرين ولم يورد المؤلفان الاسم الاول للمقصود به لذلك تعذر علينا اثباته (المترجم).

[8] هو ولي عهد الشاه الايراني، والاقليم الذي يحكمه بحق الوراثة هو اقليم اذربيجان.

الا انهم انتهزوا الفرصة لتحديه وتجربة قوتهم، فسارعوا بطلب اطلاق هذا الشخص بالذات، فحنق الوالي وما كان منه الا أنه امر بجلدهم جميعا ثم طردهم من قصره، واصدر امرا بتنفيذ حكم الموت بذلك الرجل فورا.

فاستبد الغيظ بالسادة ووفقوا الى سحب خيوط مؤامرتهم عليه وفتلها في طهران. حتى صدر الامر بنفي (مجد السلطنة) لكنه افلح في استخلاص امواله من المصادرة بتنظيم عقد هبة وتنازل صوري معجل عن جميع املاكه لتاجر انكليزي في (تبريز) وثق منه بوعد شفوي وكلمة شرف ان يسلمه ثمرتها وان يعيدها اليه حالما يكون في وضع حسن يمكنه من استعادتها والتصرف بها. كانت لعمري ثقة مطلقة في رجل استحقها بامانته واخلاصه.

لم ير (مجد السلطنة) املا بعدالة او بمحاكمة قانونية حتى بالنسبة الى رجل في مثل مركزه. فالعدالة والقانون كلمتان فارغتان لا معنى لهما عند ملك دعا في مناسبة اخرى زعيما كرديا كبير المقام الى اجتماع. واقسم له بالقرآن انه «سيخرجه من تبريز سالما مكرما مثلما جاء» فوافق الزعيم الكردي واسمه جعفر آغا وسافر لمقابلة الشاه وبعد انتهاء الاجتماع نهض وانصرف مشيعا بحفاوة ومثقلا بالعطايا والانعامات. وما ان اصبح بعيدا عن باب المدينة زهاء مائة يارد حتى ارسل الشاه في طلبه «لينهي اليه بالقول الاخير» فعاد آمنا غير هياب وما ان دخل الديوان حتى اطلق عليه الرصاص من نافذة فيه فخر صريعا يتشخط بدمه. وعلى هذه الصورة بر الشاه بقسم لرجل وثق بشرفه الملكي.

في ظل هذا الحكم، انهارت الدولة انهيارا تاما، فانتهز الترك فرصتهم للاعتداء الذي نوهنا بذكره في الفصل السابق وعمدوا الى احتلال اقليم الحدود الذي طالما تاقت حكومتهم الى الاستيلاء عليه. ولم تقنع بما نالت بل اخذت تشجع سلسلة من الغارات العلنية في سائر انحاء اقليم اورميه. كأنها تريد ان تقول للايرانيين بصراحة «بما انكم عاجزون عن اخضاع الكرد وكبح جماحهم، فخير لكم ان تتركوا الميدان لنا، لاننا اقدر منكم».

وكان مؤلف هذا الكتاب في اورميه آنذاك. يعيش كما يعيش اي انگليزي هناك متمتعا بحصانة خاصة، ان قتل الانكليزي برصاصة هو لعبة خطرة جدا على كل من يحاولها وان كانت في الواقع من اللعبات الطريفة الرائعة. الا اذا كان الاغراء بذلك مما لا يستطيع له القاتل دفعا. والتجربة تنطوي على اهمية عظيمة. فالمرء لا يرى حوله غير فوضى لا تقابلها اية قوة رادعة ظاهرة، كانت الحكومة الايرانية دوما سلطة لا تسهم في الادراة ولما هوت اخيرا تحت عبء من فسادها لم تعد ثم طاقة لاقامة حكومة جديدة. لقد تعود الشعب ان يرى في الحكومة كل شيء فلما ذهبت لم يجد تلك الغريزة السياسية التي تعينه على اقامة جهاز حكم يحل محلها.

وانتشر اعجب الاشاعات واغربها. فقيل ان قافلة من خمسمائة جمل وصلت الى (تبريز)

من روسيا وكلها محملة «بالتنظيمات» (اي الاصلاحات). وقيل ان «انجمن افندي» (اي البرلمان افندي!) قد عين واليا على الاقليم بأمر من الشاه! وان (البرلمان افندي) هذا، رجل عظيم القدر ولديه عدد كثير من الزوجات. على ان انهيار الحكومة المركزية لم يؤثر على حياة القرى تأثيرا يذكر، خلا ان العصابات المغيرة صارت تنزل الى الريف بمزيد من الحرية والجرأة.

وفي مناسبة من المناسبات هاجمت عصابة تتألف من اثنى عشر حرامياً قرية من القرى تقع على بعد ثلاثين ميلا من الحدود ونهبت اغنامها واستاقت المنهوب بكل جرأة وصفاقة خلال الطرق العامة الى مقرها دون ان تحاول الاختفاء عن الانظار او الاستعجال في العودة. واقصى ما يستطيع قطيع الغنم قطعه دون ان يلحقه تعب واذى عشرة اميال في اليوم الواحد، ولهذا امتدت رحلة العودة ثلاثة ايام. والحق يقال ان الحكومة التركية إثْر سماعها بهذا الاعتداء اصرت على اعادة الاغنام رغم احتجاج اللصوص وتذمرهم من هذا الظلم. على انهم لم يخرجوا من الغنيمة صفر اليدين، فقد اسرعوا الى جز صوف تلك الاغنام قبل تسليمها عندما وجدوا ان لا مفر من ذلك.

في ذلك الحين كنا نقوم بتلقين بعض رجال الدين النساطرة ارشادات تتعلق بامور العبادة سياسة الرعية على شكل دورة تعليمية امدها اسبوع واحد، وكان بين التمارين التي تضمنت منهاجنا اننا طلبنا من تلاميذ الدورة كافة ان يكتبوا موعظة مستوحاة من الآية «كأنكم خراف وسط ذئاب»، ولم يسعنا الا ان نشعر بعطف كافر آثم على رأي وجدناه في احدى الاجوبة. فقد جاء فيه «لاشك ان المسيحيين خرفان كما ورد في الكتاب المقدس. لكن المرء في هذه الايام وفي الظروف التي يمر بها هم أحوج الى انياب الذئاب ومخالبها مها الى اي شيء اخر» وقد لقى هذا الرأي تأييدا عمليا من واقعة عنت لنا قبل ان تنتهي الدورة. فقد جاءني اثنان من التلاميذ الشمامسة وقالا لي:

- نرجو منك يا رابي ان تأذن لنا بالعودة.

- وما الذي يدعوكما الى الانصراف يا شماسين قبل ختام الدورة؟

- ان اعداءنا يهاجمون قريتنا ياسيدنا، وعلينا ان نذهب لنجدة الرجال.

ولم يكن بوسعنا الا السماح لهما فورا. ولكن؟ هل سبق ان تدخلت حادثة من هذا القبيل في اجتماع ديني وقور كهذا.

اما الموظف الذي يطلق عليه اسم (والي اورميه) فقد قبع داخل اسوار المدينة ولم يأت بعمل. لقد تحدث مرة عن الامل العام بتحسن الوضع في المستقبل القريب، ذلك لانه استأجر قاتلا محترفا لاغتيال «بدر اسماعيل آغا» وهو الرجل المسؤول عن معظم الغارات وقتذاك. الا ان مسعاه خاب. حتى دور «القاتل الاول» في خدمة الحكومة لا يمكن تمثيله تمثيلا متقنا. انه لسوء تدبير لا مسوغ له في بلاد تفخر بكثير من المواهب الخاصة لهذه الصور بالذات!

لما وجدت القرى والبلدان المجاورة نفسها تستهدف الى النهب اليومي استنجدت بسعادة الوالي. فأمر (الجنود) بالمسير لبسط حمايتهم عليها وساروا فعلا. الا انهم عادوا بعد ساعتين قائلين انهم سمعوا اشاعات عن انتشار الكرد في الطريق وانهم في الحقيقة لم يتصوروا قيامهم بعمل يثير ثائرة العصابات التي ارسلوا لتأديبها اساسا، على انهم انتصفوا لانفسهم بنهب بعض القرويين المسلمين والمسيحيين المساكين الذين قدموا الى المدينة لاجئين ومحتمين.

وجددت (گوختپه) احدى تلك القرى المهددة، رجاءها بارسال حامية. ولم يسع الوالي الا ابداء الاسف لعجزه عن تلبية الطلب «لان الجنود يرفضون السير»، وعرض على المدينة بكل كرم وشهامة، ارسال جنود غير نظاميين من رجال قبيلة «مه ركه ور» الكردية. فقد يفلح في اقناعهم «بالجلوس في بلدتهم». فكان جواب اهل (گوختپه):

- كلا وشكرا، فنحن نفضّل من الفئتين، الغزاة الذين سيخرجون بعد انجاز عملية السرقة على الغزاة الذين سيبقون فترة غير محدودة.

ثم اتخذوا تدابير وقائية بانفسهم، واستضافوا فريقا من مقاتلي «ترگه وه ر» الشجعان الذين اخرجوا من منازلهم قسرا اثر العدوان التركي. وقد سر هؤلاء ان يكسبوا عيشهم من مزاولة صناعة تلائم امزجتهم الا وهي صناعة الحرب والقتال.

اخيرا ارسلت الحكومة العثمانية «مندوبا فوق العادة» لفض نزاعات الحدود ولم يكن غير طاهر باشا والي الموصل الاسبق، ذلك الرجل البشوش الذي يصلح لكل مهمة في الامبراطورية، جاء ونزل ضيفا على القنصل العثماني، وهو (جنتلمان) يمكن ان نعده من انجح رجال (جيلو) الذين فصلنا في امرهم آنفا (وهذا هو الذي طبع بطابع من الفكاهة والنكتة الاوبرا المضحكة المبكية التي شارك في تمثيلها الاشخاص الذين سنأتي الى شرح ادوارهم فيها).

استطاع عبقري (جيلو) هذا، ان يجمع ثروة كبيرة في (كولومبيا البريطانية) من اكتتاب عام قام به لاجل الترفيه عن «يتامى وايتام مقدونيا» (ولعل مقدونيا هي البلاد الوحيدة التي لم يرها هذا المجاهد ولا ينوي زيارتها). ووصل بتجارته الكريهة هذه الى الحد الذي اصبحت معه فهي شرعية الطابع، فقد تحايل على الپاپا نفسه، ونال منه وساماً ولقباً بانتحاله شخصية زعيم قبيلة جبلية كبيرة اهتدى الى الكثلكة على عتبة باب الكرسي الرسولي، وبتعهده لصاحب القداسة ان يهدي كل افراد قبيلته الى المذهب الكاثوليكي. والمرء لا يسعه الا الاقرار بان التحايل على الحبر الاعظم بهذا الشكل يضفي هالة من نصف اعتبار على هذا الفنان العبقري. ويظهر ان الحكومة العثمانية شاركتنا في هذه الفكرة عنه حين شعرت بانه افضل من يمثل السلطان في اورميه فعينته بوظيفة نائب قنصل.

وقدم الى اورميه، القنصل البريطاني العام المقيم في تبريز للتعاون مع الطرفين على فض نزاع الحدود، وفي اثناء ذلك برزت نقطة في منتهى الدقة. فقد كان نائب القنصل العثماني يرغب بطبيعة الحال ان يقصد القنصلية لتقديم احتراماته لزميله الرفيع القدر. لكنه احب ان يتلقى تأكيدا بعدم تنفيذ امر القبض الصادر عليه من «كولومبيا البريطانية» بتهمة النصب والاحتيال داخل القنصلية حين قيامه بالزيارة. فتم ذلك كما اشتهى وهناك شكا بألم وحسرة فداحة المصاريف والنفقات التي يتكبدها في استضافة «طاهر باشا» وكيف انها وصلت به الى شفا الافلاس. لكن الناس الذين تجردوا من الشعور يقولون انه غير محق في شكواه، لان ثروته انما أعطيها لانفاقها على ايتام مقدونيا. وسعادة المندوب «طاهر باشا» مقدوني بالمواطنة لانه الباني. ولما كان عمره يزيد على السبعين فهو على الارجح يتيم الام والاب! وهكذا وجد مقدار من اموال الاكتتاب سبيله الى غاية تشبه الغاية التي دفعت بمحسني «كولومبيا البريطانية» الى المساهمة.

وظهر ان التعليمات التي زود بها الباشا الشيخ هي بمختصر القول:

ان يحاول جهده لتبديد كل ما يمكنه من الوقت بانجاز اقل ما يمكن من عمل. ولما كانت هذه التعليمات تتفق تماما وميوله الخاصة فقد قام بها بعبقرية والتذاذ المغرم، وكان من الصعب ان نتبين ايهما كان الغالب على مزاج القنصل البريطاني؟ استمتاعه بهذه المناورات ام انزعاجه منها؟

يقول الباشا بلطف:

- كل الشعب الكردي رعايا اتراك، ولا جدال في هذا. وهناك نص في المعاهدة ما يؤيد ما اقول.

- لكن. هناك قبائل كردية على الحدود الهندية في «بلوجستان». فهل يريد سعادتك الادعاء بانهم رعايا اتراك ايضا؟

- ولم لا؟ ان شنوا غارة على حدودكم فثقوا ان السلطان سيرسل عليهم حملة تأديبية بأسرع ما يمكن.

أو قد يتقدم الوالي الايراني باحتجاج خفيف اللهجة حول وصول زهاء مائتي مسلح من الكرد «للسلام على (طاهر باشا) ويعقّب قائلاً»:

- ما معنى هذا الغزو المسلح للحدود الايرانية يا سعادة الباشا؟

- ما شاء الله، ماشاء الله! كم يصعب التعامل مع هؤلاء الايرانيين؟ نحن نترك حجاجهم يدخلون بلادنا الى كربلاء زرافات ووحدانا ولا نقول شيئا. وعندما يأتي عدد ضئيل من الناس المسالمين الطيبين للسلام على مندوبي السلطان، تقوم القيامة ولتجدوا هذه الاحتجاجات امامكم؟ ان هذا كما تعلمون مما يخل بعلاقات حسن الجوار.

قد يكون سياقة بقرة استرالية ذكية أمراً لايخلو من صعوبة. على انه لعب اطفال اذا قورن بمحاولة اقناع تركي شيخ بالعمل الايجابي في حين تامره تعليماته بتبديد الوقت.

وهكذا سلكت مسالة تسوية الحدود دروبا من التيه لا نهاية لها. حتى ضاق القنصل البريطاني ذرعا وتركها لتحل نفسها تلقائيا، وقفل الى تبريز عائدا، ولم يكن بوسع الروس ان يتركوا بلادا لهم فيها مصالح واسعة، يدب فيها الانحلال والتمزق بسبب الفوضى التي تعمها. وكانت النتيجة، الاحتلال الفعلي لشمال ايران.

11

أرض الهمّ والعذاب
من اورمية الى وان

الارض بين (اورميه) و (وان) سهلة مستوية نسبة الى حال السفر في كردستان، وهي مأمونة الى حد ما. ان الجبال الشاهقة التي قد ترتفع اكثر من احد عشر الف قدم - تكاد تغطي الصقع كله. وقد اضطررنا الى ارتقاء سنام احد تلك الجبال من سلسلة (چوخ) وهي سلسلة مستديرة الشكل معشبة حتى في الصيف، ذات وديان واسعة خصيبة الا ان معظمها غير مزروع. وكثافة السكان فيها قليلة، والشتاء الطويل والثلج ظاهرتان طبيعيتان في هذا الارتفاع، والسفر في هذا الوقت من السنة مرهق دوما وقد ينطوي على محاذير، وليس من المبهج ان يجد المسافر نفسه هنا لا يقوى على سوق بغاله خطوة واحدة الى امام او خلف ولذلك أضطر اصحاب قافلة (وانا أحدهم) ان يردف كل مسافر امتعته على ظهره ويحملها عدة ساعات في الثلج الكثيف.

و(مجد السلطنة) ذلك المصلح المتحمس للغاية، يملك عقارا كثيرا في هذه الجبال حزوناً ووديانأ. وهذا ما دعاه الى انشاء قرية نموذجية أوحى له بفكرتها السيد الانكليزي الذي استأمنه على املاكه. وينبغي ان يكون معلوما «بان العمل الجيد» هو رأس المال الضروري للمزرعة الايرانية كما كان ضرورياً لمزرعة انكليزية في القرون الوسيط. لكن طبيعة الاحوال قد تقف عائقا دون توفر هذا العامل الأساس. ولهذا ولما وجد الوكيل المسيحي نفسه امام مزرعة مترامية المساحة قليلة السكان، فكر في توطين اللاجئين المسيحيين الذين هجروا موطنهم في (ترگه وه ر). فأقبلوا ورضوا بالشروط التي اقرها نظام المزارعة الكردي في ايران، وهذا النظام يستأهل بعض الشرح.

«اقطاعي من الريف» يملك مساحات كبيرة من الاراضي يقطع اهل القرية منطقة معينة ليقوموا بزراعتها على ان يزودهم بالبذار ويبني لهم دورا (ان كانوا قد نزحوا من منطقة اخرى) والا فلا ضرورة لذلك. ويدفع له القرويون حصة من الغلة تتراوح بين ثلث المحصول ونصفه بدلا من الايجار النقدي للارض، ويدفع زرّاع الكروم عين النسبة، اما اذا اراد الفلاح زراعة البطيخ فعليه ان يطلب من الاقطاعي اذنا خاصا، وسهما خاصا لان هذا المحصول هو من الصنف الذي يتعب الارض ويحتاج الى ماء كثير.

وكثيرا ما يمتلك الاقطاعي الكبير عددا من القرى، فينصب وكيلا له في كل قرية للاشراف على مصالحه وبحسب المقدار الذي يستحقه من الغلة ويتسلم حصته الشرعية. ومن هذه الطريقة في الاشراف يسهل علينا ان نتبين الاسلوب الذي قد يختاره الوكيل غير المنصف ليحتال على سيده ويخونه، ولا يتمالك المرء نفسه من الموافقة على طريقه التعامل الاقطاعي

هذا في بلاد تؤمن ايمانا اعمى بسياسة «اطلاق اللص للقبض على اللص الآخر». ومن حيث جاء في الاخبار ان «احمد بلية» و «حسن طاعون» لم يتم تعيينهما مديري شرطة في بغداد الا لانهما كانا «يفوقان الجميع في الشر وحبك المكائد».

واستفاد المالك والاجير من هذا النظام في مقاطعات (مجد السلطنة). فالاول ينال سهما من ثمار العمل في اراض متروكة لم تنتج شيئا في السابق، والقرويون حصلوا على اراض واستقروا فيها، على ان خطر الغارات لم يزل يتهددهم. ولحل هذه المشكلة انشئت قرية جديدة نموذجية تطبيقا لفكرة هذا الاداري الانكليزي. وهو نموذج ناجح يليق بسمعة مهندس عسكري قدير. في سائر القرى المعادية الاخرى تجد الاكواخ ذات السقوف المستوية متصلة واحدها بالاخر بشكل اعتباطي غير مصمم، فتكون هدفا سهلا للمهاجم ويصعب على اهلها الدفاع عنها. اما القرية النموذجية فكانت ساحة مربعة الشكل تبلغ مساحتها زهاء فدانين انكليزيين يحيط بها جدار من اللبن ارتفاعه اثنا عشر قدما تقريبا وفي كل زاوية من زواياه الاربع برج بارز، وفيه باب جيد متين محصن. وقد بنيت بيوت القرية كلها ملتصقة بالجدار من الداخل فتغدو سقوفها مساند ممتازة للدفاع عن السور ويتم دعم الدفاع بالابراج الجانبية، اما الساحة الوسطى فتترك بدون بناء (خلا كنيسة القرية) لتكون مأوى جيدا لقطعان الماشية.

اقبل الكرد للاستطلاع وطفقوا يشتمون الانكليزي المتفنن المبدع من الجبل الى الوادي! فقد اصبح بوسع ستة من الرجال المسلحين ببندقيات قديمة الحشوة، ان يصدوا ثلاثين من اشد المقاتلين جرأة. وفي رأينا ان قرية تبنى طبق هذا التصميم لا ينال منها المهاجمون فتيلا.

والمشهور عن المنطقة انها قبلة الاوربيين ومنتجعهم المفضل في الاوقات العادية الا انها مع ذلك كانت موضعاً لاحرج مأزق وقع فيه المؤلف وكان ذلك في صيف العام ١٩٠٩ عندما سادت سهل (اورميه) الفوضى التي نوهنا بها في الفصل السابق. فقد راح بعض القرى المسيحية يحمي نفسه باستئجار جماعات من اللاجئين المنتسبين الى قبيلة (تركه وه ر) المحاربة. وهم كما المعنا، رجال عشقوا القتال وخوض غمراته من اجل القتال فحسب. زد على هذا انهم يريدون ان يثأروا من الكرد الذين يطالبون ستأجريها بثأر يكرهونهم اشد الكره. واتفق ايضا انه قام بعض الكرد من احدى المناطق بالإغارة على قرية «آردشايي» باعتداد نفس وثقة، فاستقبلوا استقبالا حاميا لم يتوقعوه قط، في الحقيقة انهم ساروا الى كمين أعد لهم اعدادا دقيقا ولم ينجوا الا بعد ان تركوا اربعة عشر قتيلا عدا الجرحى وبعض الخيول، وتلك بطبيعة الحال ضربة قاصمة اصابت مكانتهم وعزة نفسهم فعادوا الى منازلهم «بوجه اسود». وفي قلوبهم نار آكلة تحثهم على العمل الكفيل بمحو لطخة عارهم هذا.

وكان واضحا ان جل ما يمكن عمله في هذا الباب هو ابادة اول قافلة مسافرين تخرج من اورميه تعرض لهم. وقد شاء سوء حظ المؤلف ان تكون القافلة قافلته. وكان امر سلب القافلة قد اوكل الى جماعة معينة منهم. فلما وصلنا قرية «اومبي» وصرنا على مسافة يوم واحد من

المدينة وسألنا عن موضع للمبيت وجدنا الجماعة التي خرجت علينا قد عسكرت فوق سطح البيت الذي يلي البيت المخصص لنا مباشرة. ومن الغريب ان قتلة المستقبل لم يكتموا غرضهم عن مستضيفهم وصارحوه بما جاؤا لاجله. ومع ان رجال القرية كانوا موافقين طبعا، الا انهم نصحوا القتلة بالعدول عن فكرتهم قائلين:

- هؤلاء انگليز كما ترون، ،نحن لم نقتل اكثر من امريكي واحد قبل ثلاث سنين والدنيا ما تزال قائمة قاعدة عليه. اننا مازلنا متورطين في هذه المشكلة التافهة[1] فخير لكم ان لا تقدموا على هذا العمل.

وعندما وجدوا ضيوفهم مصرين، ابت عليهم روحهم الرياضية العالية ان يتدخلوا لانذار ضحايا المكيدة، ولما كانت العصابة على ثقة من اللحاق بقافلتنا البطيئة وهي في الطرق، فقد تركونا نباشر رحلة اليوم التالي بسلام، وطفقوا يتعقبوننا على مهلهم.

توقفنا قبيل الظهر لزيارة اغا من صغار الاغوات له قلعة على قارعة الطريق، وجلسنا معه نتناول الغداء تحت شجرة خارج قلعته، والتقت انظارنا بافراد العصابة الخمسة الذين تعقبونا راكبين وبكامل سلاحهم ثم ترجل الجميع على مقربة منا، فدعاهم مضيفنا الآغا الى المشاركة في الطعام فرفضوا لدهشتنا، الا اننا لم نعلق اهمية على رفضهم، وودعنا الآغا واستأنفنا السير، حتى غبنا عن الانظار. وقد أنهِيَ الينا فيما بعد، ان الآغا التفت الى مطاردينا وقد قرأ افكارهم خيرا منا وسألهم.

- الان خبروني ما الذي تضمرونه؟ لماذا لم تأكلوا مع الانگليزي؟ أوعساكم تحقدون عَلَّي انا لامر ما؟

وكان الكرد صريحين معه مثلما كانوا صريحين مع اهل القرية ليلة امس. الا انه خالف وجهة نظرهم بقوله:

- كلا لن تفعلوا هذا، اني لا اهتم اهتماما خاصا لا بهذا الانگليزي ولا بغيره. لكن لو قتل في ارضي فالحكومة ستعتبرني مسؤولا وستطاردني. أوقعوا بقافلة اخرى، فلا فرق لديكم بين هذه وتلك، ولن تثير اية متاعب كما ستثير هذه القافلة.

ولما لم يكن ثم شعور شخصي يستدعي الايقاع بنا بالذات، فقد اقتنع مطاردونا بهذا التدبير، وتغاضوا عنا وواصلنا السير دون عائق، وعندما بلغتنا الحكاية لم يسعنا الا شكر

---

[1] وهو القس«بنجامين لابرى» عضو البعثة التبشيرية «المعمدانية» الامريكية في اورميه. قتله «السيد نورالدين» لضغينة شخصية تخيلها، مع عضو اخر من البعثة. والمعروف عن هذا السيد القاتل انه مصاب بلوثة جنون ولا يمكن قط اعتباره في منزلة العقلاء. وهو بعمله هذا قد يعتبر وليا وقد يعتبر شقيا من الشقاة الخطرين باختلاف وجهات النظر. اذ يظهر (وليس ثم دليل قاطع على هذا) انه عرض على القس السلامة اذا جحد دينه ونطق بالشهادة. فلم يقبل القس.

مضيفنا الآغا على جميله. وزاد أيماننا بعقيدة القضاء والقدر وهي عقيدة لا تنجو النفس من اسارها في هذه الارض ارض «القسمة والنصيب»، ومبدأها يتلخص في «أن كل انسان هو خالد حتى يؤدي دوره كاملا في الحياة ويتم رسالته».

وكان لهذه الحكاية فصل ذيلي ختامي، فما كاد يكون مأساة انقلب الى ما يشبه التمثيلية الهزلية، وهو ليس بالامر العجيب في الشرق، لان الملاك او الشيطان الذي اوكل اليه شؤون الامبراطوريتين العثمانية والايرانية، هو ذو مزاج سوداوي كئيب عندما يزايله المرح، ولطبعه هذا، كان يحرص برحمته الواسعة على تضمين كل ما هو مؤلم مخيف شيئا من روح النكتة والدعابة. وهكذا، فبعد ان افسح مضيفونا الكرماء من اهل قرية (اومبي) وقتا كافيا لتقوم العصابة بتنفيذ حكم القضاء فينا، ابلغوا السلطات في اورميه بان حكم القضاء قد نفذ بنا وان الانكليزي ورفاقه هم الآن في عداد الموتى.

- لقد تم العمل يا صاحب.

هذا ما يقوله لك خادمك في امر او عمل كلفته به قد ينوي تنفيذه وقد لا ينوي بحسب مزاجه حالته النفسية. ولما كانت افكار السادة اهل القرية تدور في هذا الفلك، فقد سارعوا الى القنصل البريطاني الذي كان في اورميه آنذاك وابلغوه ان بعض الرجال الموكول اليه امرهم قد ادركهم الاجل. ورفض هذا الموظف ان يصدق الخبر اولاً فالمرء يحتاج الى رأس مال كبير من الشك للتعامل مع كل الاشاعات في الشرق، وصاحبنا القنصل رجل ذو تجارب في هذا الصدد. الا ان الخبر تعاظم ونما وتواتر وتأيد من جهات عدة وكسيت الحكاية العارية الحاسرة، تفاصيل تناسب المقام. واخيرا تقدم شخص خصب الخيال متفنن في سرد الروايات، ليشهد قائلا انه رأى جثثنا ملقاة في مفازة معينة، لا بل شم رائحتها المنتنة، وذكر اسم الشيخ الذي قص لحية المؤلف المرحوم وزين بها لجام حصانه! ولم تتحمل شكوك القنصل اكثر من هذا الضغط فاستسلم، وهيأ كروانا وأوصى بصنع توابيت لدفن رفاتنا دفنة لائقة. وشاءت الصدف ان يصل قاشا نسطوري الى اورمية قادما من الجبال اثناء ما كانت الاستعدادات تجري على قدم وساق، فاستدعي للمثول امام القنصل في الحال وسئل:

- هل سمعت شيئا عن مقتل مستر ويكرام في ممر (جه رمه) في اليوم الخامس والعشرين من هذا الشهر؟

- أجل سمعت يا «صاحب» لكني ارجح بان النبأ كاذب من أساسه، ففي الثلاثين من هذا الشهر شربت الشاي معه في قدشانس (وهذه قرية تبعد ثلاثين ميلا عن مرسح الجريمة المزعومة).

ما ان ينحرف الطريق الى الشمال الغربي متجها الى (وان) حتى يدخل المسافر بصورة تدريجية، أرض الامة الارمنية تاركا اراضي الآثوريين والنساطرة. اما (كردستان) وهو الاسم

الشائع العام (وان يكن غير رسمي) حيث تعيش امة الكرد، فهي تحتضن كلا الارضين. واي تركي تلقاه يقول لك «ليس هناك ارض تدعى ارمينيا او ارمنستان». لان هذه اللفظة قد مسحت مسحا دقيقا متعمدا من الخرائط والكتب التي تدخل البلاد في عهد السلطان السابق[2] لئلا تدرس هذه التعاليم المغلوطة في مدارس السلطان. وبهذه الروح كانت كتب الكيمياء تمنع احيانا من الدخول لانها تحوي رمزا كيمائيا ينطوي على الخيانة العظمى وهو رمز «H_2O». قد لا يبدو دليل العصيان والثورة واضحا في هذا الرمز لاول وهلة، لكنه سيلوح جليا لاشد العقول تأخرا عندما يعني حرف H_2 ح٢ اي السلطان حميد الثاني. وعندما تضع بين هذا الحرف وحرف (O) الذي يليه، اشارة (=) نحصل على الحل الرهيب التالي.

«حميد٢ = صفر»، وهو ما لا يمكن ادخاله الاراضي العثمانية طبعا.

أذن، فأرمينيا لا وجود لها، على انه يوجد بعض المناطق غالبية سكانها ارمن. وها نحن الان نلج احداها، وبطبيعة الحال هناك عدد معين من قرى متباعدة يدين اهلها بالمذهبين المسيحيين اللذين تجدهما في مناطق تسكنها اغلبية من غيرهم.

وباشقله (باش قلعة) التي نجدها مرسومة على الخارطة، هي مقر ادارة الحكومة في هذا الاقليم. ومعظم سكانها يهود وهم كالعادة صيارفة المنطقة وتجارها. والبلدة مركز دائرة البريد واهمية خدماتها البريدية تكمن في ان البريد يصل اليها من (وان) لتوزيعه على مناطق مترامية البعد عنها مثل (جولامرگ) و (نهري) و (ديزه). على ان البريد لا يبلغ (باشقله) الا اذا اتفق سفر احد الضبطية او الجندرمة الى ناحية قريبة منها فترفق به حقيبة الرسائل شريطة الا ينساها او ان لا تكون ثقيلة يصعب عليه حملها، لذلك قد تقضي الرسائل والبطائق وقتا في الدائرة قبل وصولها الى اصحابها. ونذكر بهذه المناسبة عبارة محافظ اللواء اللطيفة لنا عند زيارتنا له ونحن في طريقنا الى (وان) بعد قضائنا الشتاء في (قدشانس) قال:

- في الواقع يا افندم، ان البطائق والاوراق التي كانت تصلكم في الشتاء حوت صورا لطيفة جدا.

لقد بدت لنا عبارته فجة غير مستساغة. وعلى اية حال فهذا المحافظ كان يشكو شحا في وسائل القراءة. ثم ليس هناك اي ضير في تصفحه تلك الاوراق مادام يبقيها سليمة ولا يعبث بها بل يواصل ارسالها الينا بعد فراغه منها ولم يكن عمله هذا يسبب أي تأخير في مواعيد الوصول، ولذلك لم تجد ما يدعو الى الشكوى من هذه الجهة.

---

[2] في نسخ التوراة التي تدخل البلاد تجد (لفظة ارمينيا) قد رمجت رمجا تاما حيثما وردت. على اننا نشعر ببعض العذر للرقابة حين صادرت عددا من كتب التراتيل بحجة ان ترنيمة «الى الامام يا جندي المسيح» تشبه النشيد الوطني الارمني.

هناك أثر من اهم آثار الايام الغابرة يقوم على مسافة قصيرة من غرب طريق (اورميه - وان) فوق اعلى جبال تلك الانحاء. وهو واد يمتد من ساحل بحيرة (وان) منحدرا الى السهل ومتجها الى نهر دجلة، ممر مفتوح على مدار السنة بين سهل ما بين النهرين: ميسوبوتاميا وبين هضبة ارمينيا، ولا شك انه قد يغدو طريقا خارجيا للتجارة الا ان ذكره قد خمل ولم يعد يعرف عنه الكثير. في حين كان في الماضي ممرا سوقيا على جانب كبير من الاهمية، يوم أتخذت الامبراطورية الرومانية من (نصيبين) قلعة امامية ازاء الحدود الفارسية، ويوم كانت ارمينيا دولة متقلبة الميول تقف بين الرومان والفرس حاجزا. ولم يجد الرومان مفرا من حماية هذا الطريق السوقي فنصب مهندسوهم عليه قلعة من افخم القلاع واروعها مازالت قائمة الى يومنا هذا لم يلحق بها الخراب، وقد يكون (ديوكليتيان) بانيها. فهو الذي حصن هذه الجهة الستراتيجية. ولابد ان الرومان اخلوها عندما تنازل (يوفيان) عن هذه الاقاليم للفرس بعد سلفه ديوكليتيان بخمسين عاما. ومنذ ذلك الحين وهي مهجورة معروضة لمن يرغب في سكناها، وهكذا ظلت قائمة الى اليوم اثرا من اعظم الآثار الرومانية في اي مكان.

انها قلعة جبارة مربعة الشكل صممت على شكل المعسكر الروماني. بمقرها البريتوري Praetorium [3] الذي هو حُصنُها وقد اقيم في وسط الناحية الغربية منها. لقد هدم الجدار الشمالي من الحصن واستخدمت انقاضه في بناء قلعة كردية في القرون الوسطى تحول اليها المقر والسكن. والارجح انها تشتمل على معظم الحصن القديم. والبناء برمته يستحق من الخبير الاثاري دراسة مستفيضة، شريطة ان يدرك واضع اليد الحالي عليها، الفرقَ بين دراسة الاثار وبين الجاسوسية واننا نشك مطلقا في انه سيدرك ذلك.

وتحتل قرية كردية بائسة مدخل هذه القلعة الجبارة، بنيت بيوتها طبعا بالاحجار المقلوعة من الجدران الضخمة، حتى هذه «الاعشاش الحقيرة في القصر» تكاد لا تدري بان هذا الصرح قد آوى رجالا اعظم منهم. واهل هذه القرية يخبرونك بان الغول والسحرة هم الذين بنوا القلعة، وهذا القول لا يثير فيك اي دهشة.

زار المؤلف مرة هذه البقعة برفقة القنصل العسكري البريطاني في (وان) يدفعه الى ذلك امران: هندسة البناء، والحكاية الشائعة التي وصلته عن وجود ركام من الوثائق القديمة بلغة غير معروفة في احدى غرف الحصن. ربما لا تخلو الحكاية من الصحة. او لعل الوثائق ليست على ما نتصور من القدم. على ان صاحب القلعة الحالي انكر بأدب جم معرفته بوجود شيء من هذا القبيل وقال ان ضيفه له سعة اطلاع عجيبة لكنه افهم خلاف الواقع. ثم حول الموضوع الى جهة تهمه وهي بندقية القنصل من طراز «المانلشر»، سلاح جميل يغبط صاحبه عليه في

[3] منصب البريتور الروماني يسمو الى مرتبة القنصل والقائد العسكري لكل حملة رومانية هو في منصب بريتور على الاكثر (المترجم).

اي زمان واي مكان، وموضوع الحديث فيه شيق، فتناولها مضيفنا وتفحصها ولاعبها وهدهدها واخيرا عرض لها ثمنا عادلا وهو عروسه التي زفت اليه قبل ايام. لكن الانكليزي احجم عن الصفقة بشكل لا ينم عن رجولة او شهامة! وحاول مضيفنا بعد خيبته في عقد صفقة البندقية، ان يصيد ارنبا آخر. فاخذ يلمح الى انه سيستعيد ما اغفلته ذاكرته حول الوثائق الاثرية اذا ساعدناه فيما يطلب ثم قص علينا حكاية طويلة محزنة بطلها الاول عدوه التقليدي اللدود الذي شرع في هذه الايام ببناء قلعة جديدة منيعة في البقعة الوحيدة التي لا يريد ان تبنى عليها، فشاركناه في الحزن على مصابه هذا، ولكننا لم نفهم بالضبط الدور الذي يريده منا في هذه المأساة، الى ان اوضح ما غمض علينا بقوله:

- اذا تفضلتهم بالانصات الي يا بگ. اني لا اجهل طرقكم ايها الانكليز ولا بد انكم تحتفظون بقليل من الديناميت، هذا ما يوجد لديكم دائما، فهلا تفضلتهم علي ببضع اصابع منه لاني اريد قتل بعض السمك!

ومكثنا ضيوفا على آلاغا حتى العشاء ثم تناولنا ما وضع امامنا من طعام، وفي صباح اليوم التالي وجدنا لزاما علينا ان نسوم دجاجة يكون لها شرف تأمين طعامنا لتلك الليلة. من المستحسن دائما ان تبتاع دجاجتك صباحا لان فيه توفيرا لوقت الطهي اللازم، ويستحسن اتمامك الصفقة عندما لا تكون في امس الحاجة اليها لوجبة سريعة، ولك عندئذ ان تسوم على رسلك دون ان يقرصك الجوع مستعجلا. وفي هذا الباب وفق (قواس) القنصل الى وسيلة تنم عن حصافة وذكاء. كان القنصل قد جلب معه بندقية صيد وسطانية rook rifle وكان القواس الالباني يجيد الاصابة بهذا النوع من البندقيات. فطلب صاحب الديك الهرم خمسة قروش ثمنا له فدفعنا به قرشين وهو سعر السوق الاعتيادي فأخرج القواس بندقية الصيد واقترح على صاحب الديك رهانا رياضيا بقوله:

- انظر! الديك يبعد عنا حوالي ثمانين ياردا. فلو ارديته باطلاقة واحدة، اتدعنا نبتاعه منك بقرشين؟ اما اذا احتجتُ الى اطلاقة ثانية لقتله فسأدفع خمسة قروش بالتمام. فماذا تقول؟

ان الكردي يتمتع بروح رياضية عالية وميل للدعابة وهي من ابرز صفاته، فبادر صاحب الديك بقبول العرض حالا، ولا سيما لان البندقيات التي يستعملونها تعجز عن رمي المقدوف الى مسافة بعيدة لقدمها، وما عتم القواس ان اصاب الديك اصابة محكمة، واتحفتنا هذه الحيلة الرياضية بعدد طيب من وجبات الطعام طوال الرحالة باسعار متهاودة، الا اننا لم نستطع تكرارها مرتين في القرية الواحدة.

وضع هذا الاقليم تحت ادارة حامية عسكرية قوية بعد ان احتله الترك عقيب الثورة، فنشرت الامن في ربوعه من اقصاه الى ادناه، الا ان ما قاساه الجنود المساكين من قسوة الشتاء يجل

عن الوصف، اذ لم تشيد لهم ثكنات ولم تؤمن لهم الخدمات الطبية. ولا القوت الذي يسد الرمق. فكان عجيبا ان لا يلجأ الجنود الى نهب القرى المجاورة بدافع الجوع ووضعهم المزري، وان شئت الحقيقة فان «نفر مصطفى» (اي الجندي التركي، ويقابل عندنا تومي آتكنز) هو اسهل الجنود ضبطا وفي العادة اكثرهم خنوعا، انه ليس اذكى الجنود لكنه اطوعهم، يمشي ويجوع ويقاتل وتجمد اطرافه ويموت بالعشرات بالهيضة والزحار فلا يعصي بل لا يشعر بالموجدة والحقد على احد مع انه يعرف جيدا ان الموظفين الصغار الاوغاد يجنون ارباحهم من الارزاق التي لا تصله قط. وفي قضية معينة تلقت قطعة عسكرية مؤلفة من فوجين قوامهما الف ومائتا جندي امرا بالتوجه من (وان) الى (ترگه وه ر) في أواخر الخريف (ولعل متعهدي الارزاق احتسبوا الوحدة على اساس الفين من الجنود ليستولوا على فرق الارزاق والتجهيزات على ان هذا، من التفاصيل التي لا يهمنا الخوض فيها) وبقي الفوجان هناك موزعين في القرى المهجورة حتى الربيع. ثم صدر الامر بالعودة الى (وان) لمن يقوى على السير، فلم يزيدوا عن الاربعمائة من اصل الفين ومائتين مع انهم في زمن سلم ولم يطلقوا رصاصة واحدة طوال الاشهر الاربعة التي قضوها. والانكى من هذا ان نصف الاربعمائة الباقين ما كانوا يستطيعون السير. وكل هذا من آثار البرد والجوع والحميات ولاهمال ليس غير.

وتحسنت احوال الجيش في ظل النظام الجديد او انها تحسنت فترة من الوقت فقط. على ان الاوضاع العامة لما قبل الثورة قد تعتبر مبالغة اذا شبهت بالاوبرا الكوميدية لولا عنصر آلالام البشرية التي تضمنتها.

ان الراتب الاسمي اليومي الذي رسم للجندي التركي هو غرش واحد او غرشان. لكنه لا يحظى بهذا المبلغ الجسيم! الا في فترات نادرة، وان يدفع لايدفع نقدا بل على شكل «سند حكومي» والخزينة المحلية لا تصرف لهم هذه السندات لانها عادة غير قابلة التحويل الى نقد الا في منطقة اخرى غير المنطقة التي يعسكر حاملها البائس، كذلك لا يعتبرها البقال او التاجر نقودا او صكوكا صالحة للمبادلة ببضاعة ما. ويستفيد بعض التجار منها فيشترونها من اصحابها بخمس قيمتها الاسمية ويقدمونها الى دوائر الصرف المخصوصة وقد يحصلون على نصف قيمتها الاسمية فيربحون الفرق، والباقي من قيمة الاصل يتسرب الى جيوب الموظفين لان الحكومة تدفع قيمتها كاملة. واكمالا لهذه الصورة التي لا اتصور احدا يقدر على رسمها غير الموظفين العثمانيين القدماء، اقول: ان الحكومة تأبى ان تتسلم ضرائبها من الجنود اوراقا مالية او صكوكا دفعتها على شكل رواتب لهم وتصر ان يدفعوها ذهبا، ولا تقبل عملة فضية الا بخفض كبير في قيمتها الاصلية. زد على هذا ان الجندي الذي يطوع للخدمة خمس سنوات ويبقى (رديفا) اي احتياط لمدة سبع سنوات، لا يسرح بعد اكماله السنوات الخمس، لذلك كانت اللحى البيضاء منظرا لا يثير الدهشة في صفوف الجنود. وقد وجدنا في ١٩٠٥

جنودا يحملون اوسمة منحت لهم في معارك الدفاع عن « پليڤنا »[4] ١٨٧٨ ولم يسرحوا قط منذ ذلك التاريخ.

ولنعد الى (باشقله). انها تبعد مسيرة يومين عن (وان) ويمر الطريق اليها بسلسلة جبال (چوخ) وهي عائق يسهل قطعه في ايام الصيف الا انه بمنتهى الصعوبة في الشتاء، ولا يمكن لوحدات المدفعية اجتيازه في احسن المواسم في حين يمكن شق طريق معبد اليها بقليل من العمل والجهد. والواقع ان نصف الطريق ممهد يصلح للسير بمنعرجات واسعة تستغرق مسافة طويلة من الجزء الجبلي. الا انه كأغلب الطرق في تركيا، لا بداية له ولا نهاية، مهمل لا يطرقه احد، ولو بذل مجهود قليل لرفع الصخور من مبتداه ومنتهاه-وهما العائقان اللذان يحولان دون سير الحيوانات فيه، لكان جم الفائدة. وكلما بحث امر اصلاح هذا الطريق ووصل البحث الى نقطة الشروع فيه، نقل الموظف المهتم بالمشروع او نفد المال المخصص او سحب المرصود لصرفه على مشروع آخر يفضله الوالي عليه. وهكذا ظل غير كامل لا يستفاد منه حتى يومنا هذا. تلك هي صفة من صفات الشعبين العربي والتركي (وهي ليست عامة في كل شعوب الشرق). فبامكان هذين الشعبين خلق ابدع الفكَر والتصاميم والتفرغ الى تنفيذها مدة من الزمن لكن يندر ان يوفقا الى انجازها كما يصعب عليهما الاضطلاع باعباء الترميم والادامة. وتقع صروح فخمة ومنشأت عامة جليلة، ضحية الاهمال ويحيق بها الخراب. وتتلف مراكب وعبارات نهرية كثيرة في سائر انحاء البلاد لافتقارها الى كمية قليلة من الزفت ثمنها قرشان.

كان مضيق من مضائق جبال (چوخ) مشهدا لحادث غريب وقع اثناء مذابح الارمن في العام١٨٩٦ فقد حاول جمع من الارمن جلهم اطفال ونساء النجاة بارواحهم من هذا الطريق في اوائل الربيع وهو الفصل الذي يكثر فيه انهيار كتل الثلوج من السفوح العليا الى الشعاب والمضائق والمنفرجات فتدفنها الى عمق مئات الياردات. فتلجأ الانهار والسيول الى شق مجاريها تحت هذه الطبقات من الجمد وتتسرب مياهها الى الكهوف التي لا يجسر احد على دخولها، لان الماء المجتمع يغمرها ويملأ جوفها فتتساقط سقوفها بلا انقطاع اثناء ما تكون عملية ذوبان الثلج مستمرة، فلما دنا الفارون من احد تلك الكهوف مسرعين في الطريق الجبلي الذي يعلوه، ادركهم مطاردوهم وهموا بالاطباق عليهم فقال زعيمهم:

- السقوط في يد الله ولا الوقوع في ايدي هؤلاء!

وخاضوا الماء الداخل الى الكهف، وما ان استقروا فيه حتى وقع انهيار ثلجي من القمة فانسد مدخل الكهف عليهم ودفنوا تحته، فقال مطاردوهم:

---

[4] Plevna بلدة في جنوب بلغاريا والظاهر ان المؤلفين يشيران الى حروب استقلال البلقان (المترجم).

لقد بحثوا عن حتفهم بظلفهم.

ولبثوا حيث هم ولم يتقدموا خطوة لتعقيب طريدتهم. اما ما حدث لهؤلاء فهو انهم كانوا جميعا في قلب الكهف عند انهيار الثلج الذي اوقف تدفق الماء المثلوج الى داخل الكهف برهة من الزمن. وتمكنوا بعد قليل، من الزحف خلال المجرى القديم الجاف حتى بلغوا النهاية السفلى من الشّعب، ثم خرجوا الى سطح الجبل وقد ابتعدوا كثيرا عن عيون مطارديهم بسبب انحراف الوادي ونَجوا جميعا.

ومما يجدر ذكره هنا ان زاهر (ظاهر) آغا زيرنكي كان احد الاكراد الذين تحدوا الحكومة بايوائه الارمن المطاردين عندما لجأوا الى منطقته في تلك الايام السود، وادركهم الجزارون وهم في حماه وقالوا له: ان امر السلطان قد قضى بقتل كل هؤلاء الارمن الكلاب. فأجاب الاغا بجرأة واعتزاز انه لا يفهم أي أمر من اي سلطان يلزم سيدا ذا كرامة بتسليم ضيوفه ليقتلوا بحد السيف! وكان اللاجئون قد استاقوا معهم عددا قليلا من الماشية والسائمة فسارعوا بتقديمها لمنقذهم، فأبى قبولها وزاد من كرمه فسمح لهم برعيها مع قطعانه حتى يعودوا الى ديارهم وهكذا كان.

ان خير مثل للجنتلمان الكردي لا يدانيه اي جنتلمان في اي بقعة من بقاع الدنيا مطلقا.

وفي متنصّف الطريق الذي يربط (باشقله) بـ (وان) تقع بلدة (خوشاب) التي تفخر بقلعة من القلاع المألوفة عندنا. تتجسم فيها والحق يقال كل احلام «گوستاف دوريه[5] Gustave Dore» وباعطائنا فكرة عنها قد نوفر على القارىء اي محاولة في وصفها وسرد تفاصيلها، فالقسم الرئيس منها ذو طابع سلجوقي لا مراء فيه أكان طرازا او تاريخا، على ان فيها ملامح اوروبية تؤيد رواية محلية حول مهندسها. وهذه الرواية تزعم ان مصممها (افرنجي) ولد في ايطاليا ولا تلقي ضوءً على حياته، أكان مغامرا من المغامرين، أم اسير حرب؟ لكن القصة تسترسل في القول بأن الذي امر ببنائها ليس غير صلاح الدين العظيم، الكردي الاوحد الذي ذكره التاريخ العام بما لم يذكر الا للصفوة القلة، وربما كان الموقع ملكا من املاك اسرته، لكن لما كان قد نشأ في مصر فيصعب القول انه اشغلها شخصيا. من الثابت تاريخيا انه كان يوجد هنا قلعة قبل عهد صلاح الدين وقبل مجيء محمد (ص) فالبناء الذي تجده في المرافق السفلى من القلعة يكاد يصرخ بالحقيقة قائلا ان اصله (اورارتي) أي انها بنيت بسواعد رجال تلك المملكة الغابرة التي كانت عاصمتها «دوسپاس»(وان الحالية) يوم كان (تغلات پلاسر) يحكم في نينوى، تلك المملكة نازعت عظمة آشور نفسها على امتلاك اسيا الصغرى. ومهما يكن، فهذا موضوع حديثٍ لفصل اخر.

وبالقرب من «خوشاب» يجد المرء اثرا قديما ربما كان موضوع تقديس عندما شرع

---

[5] فنان فرنسي (١٨٣٢-١٨٨٣) واحد من انجح واشهر مزيني الكتب بالصور. (المترجم).

(الاورارتيـون) يبنون اسس قلعتـهم تلك. وقد قصدناه فكانت زيارتنا له من ابدع الزيارات التي قمنا بها في بلاد كردستان. هناك جبل مستوحد معزول شامخ القمة يبلغ ارتفاعه احد عشر الف قدم يعرف باسم (بوشه ته داغ) ويشرف على منظر من اروع المناظر الطبيعية في البلاد الممتدة من سلسلة (آرارات) شمالا حتى (شمدينان) جنوبا، وهو سهل المرتقى مع ارتفاعه الشاهق، يمكن الوصول الى قمته على ظهور الخيل بمنتهى الراحة. موضع مثالي لما كان يدعى في اسفار العهد القديم «بالموضع المرتفع».

هنا شيد رجال العهد القديم (كم هم قدماء؟ اننا نخشى التحديد) معبدا على الاسلوب الحقيقي للشعوب السامية، كالمعبد الذي قامت على انقاضه مدينة (اورشليم)، وكزميله الذي مازال قائما في (بعلبك). ويتكون من ساحة للمصلين حيث تقدم الذبائح والقرابين. يليه هيكل خارجي، ثم مذبح داخلي. وهو ساذج البناء بطبيعة الحال. الا ان كل الاقسام الرئيسة متوفرة فيه حتى التفاصيل «كأعمدة الاحتفال» وهما العمودان الموسومان باسمي (بوعز) و (يواقين) في رواق هيكل (سليمان)و يقوم مقامهما هنا دائرة مؤلفة من عشرين عمودا قليلة الارتفاع. والحقيقة انه يصعب كثيرا التكهن بما كان يجول في ذهن البنائين عندما شيدوها. ربما اقيمت لتكون شاهدا على عهد مقطوع بين الله والانسان كالنصب الذي اقامه ابونا يعقوب «في بيت ايل»؟ ومهما يكن من امر، فها هي ذي قائمة شاخصة وحقيقة لا مراء فيها بوجود دين بدائي سامي. ليس ثم طبقة متحجرة كالدماغ الشرقي المنظم الحي يحفظ ملامح القرون الماضية حفظا امينا، وان صعب احيانا استخراج تلك المتحجرات من مكامنها واكثر الصعوبة هو في التأكد من حقيقتها.

ومن (خوشاب) انتقلنا الى (وان) وسلكنا طريقا مريحاً يمّر في واد كان المنطق يقضي ان يكتظ بالسكان، لكنه خال تماما من البشر تصفر في ارجائه الريح فتجعل الحياة صعبة اذ تلفح سنابل القمح بسياطها على ما يقال فتقضى عليه، وقال لنا احد النساطرة:

- كان يوجد في هذا الوادي فيما مضى عدد من القرى الارمنية. وما ان طرد اهلها منها حتى هجمت عليها تلك الرياح ولم يعد الوادي صالحا للحياة، انها انفاس اللعنة التي «صبها» المطرودون على طارديهم.

وهكذا تجد سهل (هاڤاتسور) الخصب بلقعا خاليا، في حين تحتشد القرى على حافاته. وان ظلت المدينة الصغيرة الزاهرة رابضة في النقطة التي يبدأ منها الطريق بارتقاء شعب جبلي ماهد يؤدي الى بساتين (وان) وغياضها بعد قطع اخر سلسلة جبال.

12

في حمأة التذمر والاستياء
وان والشعب الأرمني

دخلنا عاما جديدا اثر مجيئنا من الجنوب الى بلاد لا تسمى (ارمينيا) رسميا، لكن يسكن فيها الشعب الارمني، تاركين وراءنا سهل ما بين النهرين العظيم ومنحدرات سلسلة جبال طوروس الجبارة.

المسافر يرتقي بعد هذا، هضبة شاهقة تناهز ستة الاف قدم ارتفاعاً عن مستوى سطح البحر. وتطرز هذه الهضبة مجموعة فوهات بركانية قمعية من اكبر المجموعات البركانية في العالم. وقمعا (سيپان) و (ارارات)، عظيمان حقا. الا ان فوهة بركان الثاني منهما قد تكسرت واضمحلت. ويقوم (نمرود داغ) لمتدارس ظاهرة الانفجار البركاني، ميدان بحث واسعا لا نظير له في العالم. ولا شك ان مراقد الحمم الخارجة من بركان جبل (اتنا) وهي افخم واعظم البراكين في اوروبا، لا يمكن ترتفع قط الى مستوى مرقد بركاني مساحته عشرون ميلا مربعا من كتلة (الجمد السوداء) التي سالت من صدوع (تندريك داغ).

هذه الجبال كما اوردنا، تجتمع حول بقعة زعمت الاساطير بانها «جنة عدن»، وان الشاعر (ملتون) انما كان يقصد قمم (نيفاتيس) من جبال حكارى بالجبل الذي أنزِل عليه «شيطانه» لصب جام انتقامه من الانسان خليقة الله الجديدة.

وتؤلف احدى كتل الحمم البركانية المتصلبة (وهي حصيلة ثورة بركان نمرود داغ العظيم) السد الذي يحبس ماء بحيرة (وان) الملحية الواسعة، وهي اشبه بحوض من الماء يقارب حجمه حجم بحيرة جنيف، الا انه يحوي من المواد المعدنية العالقة بمياهه ما تبلغ نسبته نسبة زميلته (بحيرة اورميه). وملح بحيرة (وان) ليس ملحا عاديا بل ملح البوراكس، لذلك كانت السباحة فيها مريحة كما ان ماءها لا يقتل الحيوانات.

في مواسم معينة من السنة تقذف البحيرة الى افواه الانهار التي تصب فيها اكداسا من سمك الشبوط النهري حيث يهرع الى المياه العذبة ليلقى فيها بيضه فيُغرف اغترافا بشباك من السلال. وهناك نوع من الافاعي المائية تعيش في السواحل الصخرية منها، وطول الافعى الواحدة بالمتوسط اربع اقدام ولونها ابيض حليبي او هكذا تبدو من عمق معين ورأسها أشبه بالاسفين المثلث المعروف مما يدل على انها سامة، ولو حظيت البحيرة بوسائل نقل كافية وطرق جيدة وحكومة صالحة. لوجدتها مصيفا ومنتجعا للاستشفاء ومركز حمامات طبية. فماؤها ولا ريب شاف لانواع معينة من الامراض الجلدية، وقد عرف المؤلف حالة مستعصية من التقرح الجلدي شفي صاحبها تماما بدوامه السباحة في البحيرة صيفا كاملا وفق برنامج منظم، ولها

تأثير عجيب على شعر الانسان. فقد تحول لون شعر احد الفتيان الانكليز الى لمة اصفى من الذهب، بعد انتهاجه منهاجا مشابها في السباحة وكان من قبل بنيا فاتحا، ولاح هذا التحول وكأنه ثابت الصبغة على الاقل فيما يتعلق بالجزءالذي يعلو قحف الراس، الا ان الشعر النامي الجديد كان باللون الاصلي لسوء الحظ.

هذه البلاد كانت في الزمن الغابر قاعدة لاحدى كبريات الامبراطوريات في العصور القديمة، هي امبراطورية الاورارتيين او الخلديين الذين نازعوا الاشوريين حكم اسيا في الزمن الذي بدا اول المستعمرين بالاستقرار فوق التلال الجرداء التي تكونت منها فيما بعد مدينة (روما)، وكانت (وان) المعروفة آنذاك بـ (دوسپاس)، عاصمة لهم وشيد ملوكهم قصرهم في سفح من الصخور الكلسية، فبدا بارزا مثل فقرات سنام حيوان السوريان saurian الهائل المنقرض، يعلو ثلاثمائة قدم عن مستوى السهل الرسوبي. هذه الصخرة كانت قلعة منيعة لا يمكن اقتحامها، صمدت للاشوريين وهم في اوج عظمتهم ودحرتهم، وانك لترى كتل البناء الهائلة الاجرام مكدسة فوق قمتها وعشرات من الرقم المسمارية على سطوح سفوحها، دليلا على عظمة ملوكها الغابرين. ولم يجد الآثاريون مشبها للكتابات التي تعلو هذه الرقم في اي موضع اخر (الا اذا ثبت وجود صلة لها بلغة الحثيين الغامضة. رغم الاختلاف بين الكتابتين) الا ان النقش الثلاثي الذي خلفه (زركسيس) ابن (داريوس) ساعد لحسن الحظ على حل طلاسم الكتابة المذكورة، وهي على العموم لا تتضمن من المعلومات ما يجعلها ترقى الى اهمية الكتابات الاشورية، وتدور عادة حول هذه العبارة.

«انا (مينوس ابن اشپيونس) اقمت هذا النصب الحجري واستنزلت لعنة (كاودراي) على من يهدمه». ومينوس هذا، وابنه (آرجستيس) كانا اعظم ملكين جلسا على عرش (دوسپاس) سطوة ونفوذا، وتتفق فترة حكمهما (من ٧٨٠ - ٧٦٠ ق. م او في حدود ذلك) مع فترة انحطاط خصمهما بلاد آشور. على ان امبراطورية اورارتو سقطت في العام ٧٣٥ ق.م على يد (تغلات پلاسر)[1] الثاني الاشوري بعد ان دافع اخر ملوكها (ساردوريس)[2] دفاع المستميت عن قلعته المنيعة.

ان هضبة (وان) هي الان موطن الارمن، على انه يشك كثيرا في ان الشعب الارمني يتصل بالسلف الغابر«الخلدي» بصلة ما. لان اساطيرهم تنفي تماما مثل هذه العلاقة ولا تتفق مطلقا مع الفكرة لكن كتابهم المعاصرين يميلون الى الادعاء بان أصلهم ينحدر من الخلديين بعد ان

---

[1] نرجح ان المؤلف يقصد (تغلات بلاسر الرابع) ٧٤٥ - ٧٢٧ ق. م لا الثاني (المترجم).

[2] اي «ساردوري الثاني» راجع كتابنا: مباحث اشورية: تاريخ مااهمله التاريخ. الفصل الثاني نافذة على العلاقات بين مملكتي اورارطو (ارمينيا القديمة وآشور الص ٣٩ - ٨٠ ستوكهولم ١٩٩٦ (المترجم).

توصل آثاريو الغرب الى قراءة تلك الكتابات. ومهما كان نوع الدم الذي يجري في عروقهم فها هنا يوجد شعب ارمني، ومسألة ارمنية، فيها جانب معقد للغاية وهو ان افراد هذه الامة هم اقلية حيثما وجدوا.

الارمن موجودون في كل مكان، وهم اصلب واقوى من (شدراخ) الذي ابى ان يذوب وينصهر مع تراب الحديد الباقي في الاتون المضطرم. انهم يأبون باصرار وعناد ان يذوبوا في جيرانهم. وهم موجودون في اصقاع اخرى بشكل مجتمعات متوقعة على نفسها، وفي ديارهم نفسها حيث المذابح والاضطهادات والتوطين القسري للكرد في قراهم التي اخرجوا منها تحقيقا للتوازن، تناقصوا الى ما يقل عن نصف مجموع سكانها العام.

ولا يجد الارمن كشعب كلمة طيبة تقال عنه الا من القلة. فقد وصفوا بالخيانة والجبن وحب المال ولهذا فهم يثيرون التقزز. وتختلف التهم الملصقة بهم وتتفاوت. على ان الاجماع هو ان تلك التهم لا اساس لها ولا طعم، والظاهر انهم بين الامم اشبه بالدكتور فل Dr. Fell (الدكتور الساقط) بين الاطباء. فالاقوام كافة يكرهونهم دون ان يعرفوا سببا لذلك. حتى المؤلف الذي لا اعتراض له على اللصوص والقتلة وعبدة الشيطان فضلاً عن احتفاظه بمشاعر من عطف على المحتال الناجح، يقر بأن علاقاته مع الارمن كانت اقل حرارة وشدة من علاقاته بالشرقيين الاخرين.

مع هذا كله. فهناك اشياء كثيرة فيهم ترغم كل انسان على الاعجاب بهم. ان فيهم، والحق يقال كثيرا من صفات اليهود الذين يخلفون انطباعا مشابها عند عدد كبير من الناس المعتبرين. فكلاهما مغرم بجمع المال وكلاهما متمسك بدينه العجيب. ،كلاهما يمتاز بقوة الاحتمال والخشونة البالغة حد الصلابة. ولما كان الشعبان مُشرّدين لا يجمع افرادهما بلد واحد فقد اكتسبا صفات متشابهة جدا. فالمال والدسيسة هو كل مايملكونه من سلاح، ولهذا جعلاهما محور المقاومة عندهم. ونحن لا يسعنا الا الاعجاب بتدلههم بحب اوطانهم التي ربطوا بها مذهبهم وكنيستهم، وهم يشعرون بواجبهم السامي تجاه ذلك كما تدل عليه معاهدهم التعليمية. الناس يقولون انهم امة الجبناء، واقل ما يقال عن هذه التهمة انها باطلة من اساسها. ففي مذابح ١٨٩٥ كان رجال مسلحون ينحرون اناسا عزلا ولم يكن ثم امتحان لاي صفة الا امتحان الاحتمال الصابر. في حين كان يستطيع الكثير منهم انقاذ عنقه باشهار اسلامه ولو اسمياً. قد يكون هناك الكثير من الاقوال عن الفظائع التي ارتكبها ثوريوهم (الفدائيون). الا ان الرهبة التي نشرها هذا الرهط القليل جداً في ثلاث ولايات يسكنها الترك والكرد، يكفي وحده لتبرئتهم من وصمة الجبن.

وتاريخهم كشعب وكمذهب من المذاهب المسيحية تاريخ طويل. واننا ننصح القارىء بمراجعة كتاب «ارمينيا» لمؤلفه «لنج» ومن لف لفه في هذا الموضوع. كان الارمن قد أخْضعوا للحكم

العثماني منذ العام ١٣٦٥ بعد ان قوض هؤلاء حكم آخر سلالة ملوك من سلالات مملكتهم المتعاقبة، الا انه بقيت مناطق منعزلة من شعبهم في عدة بقاع لا تخضع للحكم العثماني لا سيما في ايران والهند.

ويعود تاريخ اعتناقهم النصرانية الى العام ٣١٢م عندما تم ذلك بمجهودات مشتركة من ملكهم (ثيريداتس) وقديسهم «گريگور» البهي، ووصمتهم الكنيسة اليونانية بالهرطقة. الا ان «هرطقتهم» في الواقع لم تكن الا اصرارا على استقلالهم بكنيستهم الخاصة التي هي المعُبّر الوحيد عن قوميتهم في ايامنا هذه، وانها لا تقوّم الا على هذه الحقيقة. في الواقع انهم رفضوا قبول قرارات المجمع «الخلقيدوني» بالذات وهو احد المجامع التي يدعوها معظم سكان المعمورة «بالمجامع المسكونية». الا انهم تعمدوا ادخال كلمات معينة في عقيدتهم من تلك التي وصمها المجمع بالهرطقة المونوفيزية الغربية تأكيدا لرفضهم قراراته، اما السبب الحقيقي لخروجهم عليه فهو اقراره بسيادة بطريرك القسطنطينية.

بقى الارمن ردحا طويلا من الزمن وليس عندهم شكوى خاصة من اوضاعهم تحت ظل الحكم العثماني، ولم يكن للترك سبب للخوف منهم لان سلطانهم كان ثابتا مطلقا لا يقوى عليه شيء. ولم يدب الخوف في نفوس الترك منهم الا لما اخذوا يضطهدونهم ويعاملونهم بقسوة واحتقار. زد على هذا فلو ان الحكم التركي كان يشبه اسلوب حياة رجل يعيش من رأس المال لا من الدخل (لان جانبا كبيرا من راس المال مازال باقيا) لعاش الجميع عيشة مريحة حتى تفنى البقية الباقية. ولقد كان الارمن، الشعب المفضل للترك من بين الشعوب الاخرى التي تخضع لهم. ولهذا اطلقوا عليهم لقب «ملتي صادق» أي الامة المخلصة التي لا اصدقاء لها خارج الامبراطورية، ولا طموح سياسي سوى قناعتها ان تكون رعية عثمانية تتمتع معاهدها الدينية بحصانة. وكان التدخل في امر هذه المعاهد اخر ما يفكر به الترك. وانصافا للحاكم المسلم نقول انه اول حاكم متسامح في امور الدين رآه العالم. وكان الارمن «اطفالا »ليس ثم ادعى منهم للراحة في مسائل الادارة. ولذلك ترى الترك يقولون عن انفسهم «نحن الترك لا نعرف كيف نكسب المال بل نعرف كيف نغتنمه فحسب» والترك لا يعرفون هذا ولا كيف يديرون امور البلاد ويحكمونها. كل ما عرفه التركي انحصر في استيلائه على البلاد واعتصار غاية ما يقدر عليه من اموال سكانها الخاضعين. وغريزته غريزة بدوية صرفة. «فالرعية» ليست الا قطعان غنمه وماشيته ومن حقه احتلابها، انه لا يريد قتلها لطيبة في قلبه، ثم من الذي يقتل ماشيته التي تدر عليه الخيرات؟

لكن، اذا ما اظهرت البهيمة مزاجا «استقلاليا» مقلقا، واخذت تبشر بالعقيدة الكافرة التي تتضمن القول بأنها خلقت لامور اخرى خلاف انتاج الحليب والصوف واللحم في مواسمه المعتادة لاجل صاحبها، فيحق للراعي والحالة هذه ان يقول عن رعيته انها وحوش كاسرة، ثم يتخذ الاجراءات الرادعة بحقها.

ومن المسلم به ان البلاد التي فتحها التركي يجب ان تدار وتصرف شؤونها بصورة من الصور، ولكن ندر ان قام بهذا اتراك خلص. فالموظفون الكبار عادة كانوا «اطفالا» نخبة بسببهم «الانكشارية» من آبائهم المسيحيين او بشرائهم. ومن هؤلاء تختار الصفوة، وقد يكونون ايضا من المغامرين الاوروبيين، او المرتدين عن دينهم، او ان يكونوا من الالبانيين (وهم عادة خيرهم). اما صغار الموظفين فجلهم من الارمن، تجدهم يشغلون معظم وظائف الدولة الثانوية والصغيرة، ولا يودع اليهم أي منصب تنفيذي او اداري ذي مسؤولية، بل يقومون فحسب بالاعمال الروتينية التافهة ولا يعترض عليهم حين يستخدمون مناصبهم هذه لملء جيوبهم.

كان ثم عدد كبير من حوادث الاضطهاد، الا انها تتسم بالانعزال والتباعد ويحصل هذا دائما عندما ينازل التركي الارمني، او العكس بالعكس. وينبغي لنا ان لا نلوم الطغيان التركي دائما في هذه القضايا، فلقد علمنا عن اب ارمني حضرته الوفاة، دعا ابنه لابلاغه وصيته الاخيرة التالية:

- أي بني «گريگور»، دونك كلمات ابيك الاخيرة وعليك ان تحترم وصيته وتطيعها بأعظم حرص.

فأجاب الشاب:

- سافعل ذلك يا ابت وعلى رأسي وعيني.

- ابني! اوصيك بان لا تدفع الضريبة الا اذا جُلدتَ.

في مثل هذه الظروف لا يمكن ان نعد جابي الضريبة وحشا اذا ارتأى ان يبدأ عملية جباية الضريبة بالعصا، وهكذا يختصر المجهود والوقت[3].

والواقع هو ان محاولة خداع الحكومة في احدى المعاملات او التحايل عليها او على أي احد كان، هو الروح الرياضية الارمنية الخالصة ويمكن تشبيهها تجريديا باحتراف لعبة كرة القدم. وقد ينجم عن ذلك احيانا (لا دائما) عملية غش لطيفة جدا كما توضحها القضية التالية:

«تقضي القوانين ان تسجل املاك الكنيسة او موقوفات المعاهد الثقافية باسماء وكلاء مؤتمنين، كما وضعت رسما معينا عن كل تسجيل جديد وهذا الرسم هو بدل عن الضريبة التي أُعفيتْ منها هذه المؤسسات الوقفية، وقد استهوت فكرة التخلص من هذه الرسوم كل الارمن، كما كان يوجد اعتبار اخر وهو انهم لا يثقون بعضهم ببعض في ادارة هذه الاوقاف الملية العامة. وخطرت فكرة نيرة لاحد عباقرتهم وهو تسجيل الوقف مجددا باسم وكيل خالد لا يموت، امين لا شك في امانته. الاملاك يجب ان تسجّل باسم القديس الشفيع!

---

[3] صاح قنصل بريطاني بصاحب مظلمة ارمني وقد بلغ به الانزعاج منتهاه «سأقول لك الحقيقة. لو حدث ان تسلمنا الادارة في بلادكم فسوف نعتصر منكم كل «الضرائب المستحقة» فهتف السيد الارمني مرتاعا «كل سنة؟».

وتكررت العملية، وفي احدى المرات كانت المدرسة المطلوب تسجيلها مرتبطة بكنيسة مكرسة للقديسين بطرس وبولص فسجلت باسم الوكيلين هكذا: بطرس بن يونا: مهنته صياد سمك، محل اقامته، في كفر ناحوم من ولاية بيت المقدس (اورشليم)، بولص: (مجهول اسم الاب) صنعته: خَيّام. محل اقامته: طرسوس في اقليم «ولاية ادنه». وسارت الخطة بنجاح تام ردحا من الوقت. ثم سرعان ما احس الموظفون العثمانيون بالحيلة واعترضوا على ضياع رسوم التسجيل. وهنا علينا الاقرار بأن هؤلاء الموظفين لعبوا المباراة بمهارة، فقد ارسلوا اعلاما رسمّياً الى جهة التولية الارمنية جاء فيه: ان السلطات المختصة علمت بالدليل الثابت ان هذين الوكيلين قد وافاهما الاجل، وان المعلومات المستقاة ايدت ان المرحومين (بطرس افندي) و (بولص افندي)[4] توفيا دون ان يتركا وصية، وبدون وارث، فاذا كان الامر كذلك فان القانون يوجب ان تدار تركتاهما من قبل نظارة (وزارة) الاوقاف. وفي هذه الحالة لن يصيب الارمن شيء يذكر من غلة اوقافهم، واستولى الرعب على القائمين بهذه اللعبة. الا ان روح التركي الطيبة برزت في حلبة اللعب، وصرف النظر عن القضية واغلقت. شريطة ان يتم تسجيل متولين قانونيين في المستقبل.. بعد دفع بخشيش محترم للموظفين المباشرين».

الشعب الارمني عموما لم يكن يشكو العسر والضيق الشديد، وقد نجد فيه افرادا يتمتعون بامتيازات خاصة بفضل ادعاء معين ايده له رسميا احد الموظفين المسؤولين، ومن تلك الامتيازات التي ظلت قائمة الى يومنا هذا، امتياز طريف جدا يستحق منا تأملا خاصا.

ان بيت القس الارمني في (آدلجيڤان Adeljivan) على بحيرة (وان)، هو رسميا والى الابد معفو من كل ضريبة، والاسطورة التي تزعمها الاسرة سببا لهذا الامتياز، هو ان جدها الاعلى كان خادما «للامام علي» ابن عم الرسول اثناء حملة من حملاته العسكرية على (مصر) وكما روت الاسطورة!

ان (الامام) علي أحيب في احد المعارك بسهم اخترق كعب رجله وانكسر النصل في الجرح ولم يعثر على الرأس الحديدي ولم ينزع، وبدت على الجريح علائم التسمم وقطع الحكماء كل امل في حياته واصر الخليفة وهو موقن بالموت على النهوض من فراشه لاداء الصلاة كأي مسلم ورع. وكان خادمه النصراني المخلص يقف خلفه اثناء الصلاة وفي سجدة من سجداته التي كان جبينه فيها يلامس الارض، اشتد انحناؤه (ومنها استقامت عادة وهي ان يعتمر المصلي بعمامة او اي غطاء رأس مشابه اثناء الصلاة وان يُلصق الجبين بالارض) وحركة كهذه من شأنها ان تفتح الجرح، وهكذا كان الأمر يحرج الأمام فلمح الارمني رأس الرمح مغروزاً في اللحم فما كان منه وهو السريع الخاطر الا ان ركع وعض على النصل باسنانه وسحبه، فخرج النصل الفولاذي واغمي على (الامام) من فرط الالم. وهرب الخادم لا يلوى ظانا انه

---

[4] يلاحظ القارىء وجه النكتة في هذا: وهو ان بطرس وبولص هما من حواريي السيد المسيح الاثني عشر (المترجم).

تسبب في موت مولاه، الا ان (علياً) افاق من غشيته وطلب الخادم ليجزل له العطاء، وعندما جيء به ومثل امامه، طلب منه ان يتمنى ما يريد. فاختار الارمني الواقعي التفكير اعفاء ابديا عن كل جزية او ضريبة لسائر نسله من الذكور، فأناله الخليفة ما طلب فورا وقطع له خرقة من جبته لتكون شاهدا على الميثاق. واحترم خلفاؤه هذا العهد الذي صدر من سلفهم العظيم واحدا بعد الاخر، ومنح (فرمانات) موثقة لهذا الحق. وقد ظل هذا البيت محتفظا بالخرقة الى يومنا هذا مع سائر الوثائق والفرمانات المؤيدة لها وهي والحق يقال من اندر المجموعات الوثائقية، وتختلف بين البارشمنت (الرق) القرمزي المذهب الذي يستهوي فنه الخبراء ويعود الى عهد (سليمان القانوني ومراد ابي هراوة) وبين الورقة الرقيقة العادية التي تحمل ختم السلطان عبدالحميد الثاني، ومع كل هذه الفرمانات يحتفظ بيت القس بما يزعمون انه خرقة من جبة (الامام)، وهو رأس مال ثمين بحد ذاته لان الماء الذي تنقع فيه يصلح لشفاء معظم الاسقام لسائر الناس على اختلاف اديانهم. ولا شك ان قطعة القماش هذه ذات صفات عجائبية ان كانت اصيلة. فقد زعموا ايضا ان جِدّتها لم تَخْلَق رغم مرور ثلاثة عشر قرنا من النقع المستمر في الماء والتعريض للجفاف. اما عن البرء الذي تحققه فهو صحيح ايضا شريطة ان يكون المريض مؤمنا.

ان الوضع المريح الذي كان مصدر نفع للعثمانيين والارمن، اخذ يتغير تدريجيا وينقلب الى اسوء حال، فالحكومة العثمانية نفسها بدأت تتداعى ويتسرب اليها الفساد وتضاعفت شناعة الحالة بالتقدم الذي تحققه شعوب اوروبا. وراح التركي يعاين امة بعد امة تفلت من قبضته (اليونان ثم البلغار ثم الصرب). فزاد شكا في الشعوب الباقية، حين بدأت الشعوب المستكنة له تتململ وتزداد ادراكا لما تعانيه، وسخطا وزاد الاضطهاد والاستغلال الى حد لا يطاق. ولم تعد صفتا الكسل وطيبة القلب اللتان واكبتا الماضي، بالصفتين النافعتين في تهدئة الخواطر. لكنهما لم تنقرضا تماما على كل حال، وهذا ما تثبته قضية معينة اطلع عليها المؤلف شخصيا.

قبض على (قاشا) آثوري مسكين بتهمة من التهم. وبعد معاناته اشهرا من الحبس في سجن قذر للغاية، احيل الى المحاكمة وبرئت ساحته، الا انه اعيد الى السجن واودع فيه اجلا غير مسمى حتى يدفع مصاريف السجن التي تراكمت عليه بسبب توقيفه غير القانوني! علينا الاقرار بأن هذا عين ما كان يحصل في انكلترا القرن الثامن عشر، ولعل الموظف الانكليزي لم يكن يتصف بالطيبة التي اتصف بها الوالي العثماني لماتشفعتُ للقس السجين امامه فقد اجابني بما يلي:

- القضية يا افندم، قضية صعبة. الا ان ثم حلا وهو ان تأخذه كل نهار احد من السجن لاكمال واجبه الديني اذا اعطيتني عهدا بارساله الى السجن نهار الاثنين!

اما خلفه - والشيء بالشيء يذكر - فقد رأى ان يعالج الامور بتعقل اكثر من هذا، ليبرهن

على احتقاره للاساليب القديمة البالية. فدعا كل من شاء سوء حظه ان يحكم عليه بالموت في ولايته لتسليم نفسه طائعا ليتسنى تنفيذ الحكم به بدون تأخير، وبعد ان نشر امره رسميا. طفق يحصي عدد من يتوقع ان يسلموا انفسهم فوجد ان السادة المحكوم عليهم بالموت او الاشغال الشاقة المؤبدة واكتسبت احكامهم الدرجة القطعية يتراوح عددهم ضمن حدود ولايته بين السبعمائة والثمانمائة وهم من قطاع الطرق والقتلة وبينهم كل الاغوات الكرد ذوي المكانة في الولاية[5]. واحدث البيان حالة من الارتباك والاحراج، اذ قامت صعوبة في القدوم للسلام على الوالي الجديد والترحيب به.

وفيما كانت امور الحكومة تسير من سيء الى اسوء، راح الوعي القومي الارمني يتصاعد ويضطرم في النفوس، وهم يرون كيف استطاعت امم اخرى مستعبدة نيل استقلالها بمساعدة اوروبا بعد ان اثارت الضجة المطلوبة، فبدأ الارمن يطالبون بالاصلاح وبنوع من الحكم الذاتي، وهي مطاليب كان الاصرار عليها شيئا طبيعيا لادراكهم التام بانهم اثقف واذكى كثيرا بل وانضج سياسيا من اسيادهم الترك في الوقت الذي يعاملهم هؤلاء معاملة شعب ادنى منزلة منهم. وكان شعور الترك من الجهة الثانية هو:

«هذا البلاد بلادنا وسنظل نحكمها، وان المساواة التي ينادي بها الارمن مستحيلة تماما، لان الشعوب متفاوتة المستويات. ولما كنا نملك القوة فبوسعنا كبح جماحهم، اما اذا ساويناهم بنا طواعيةً فلن يلبثوا ان يستظهروا علينا في غضون سنوات قليلة». والاصلاح عند التركي لعنة، لانه يعلم في قرارة نفسه (وان يك عاجزا عن التعبير الواضح عما يجول في مخيلته) ان الاصلاح معناه خضوع التركي لرعاياه.

ولم يكن يبدو ان الارمن واصدقاءهم قادرون على فهم المسألة من جانبها هذا، فراحوا يصخبون وينادون بالويل والثبور بسبب الخطوات التي اتخذها الترك تثبيتا لحكمهم المزعزع (وكانت اجراءات قمعية قاسية حقا) الا انها لم تخل من مبررات. هذه الخطوات اشرنا اليها آنفا واطلقنا عليها اسم المذابح الارمنية. ويمكن عرض المسألة بالشكل الآتي: «لو وجدت نفسك في ميدان مصارعة بمواجهة ثور وارتأيت ان تلوح بمنديل احمر، فليس هناك اي معنى في قولنا بان أي حيوان عادي الذكاء سيفهم بأنك لم تخرج المنديل الا لتنظيف انفك من المخاط، وليس بوسعك ان تلوم هذا المخلوق لهياجه من اللون الاحمر» التركي يرى من حقه ان يحكم، الا ان الاساليب الوحيدة التي يعرفها في هذا الباب هي تلك الاساليب التي لم تكن لتثير ضمير احد في القرن السادس عشر، في حين انها تثير الضمير الاوربي الآن. وبناء على

---

[5] لابد وان عدد المجرمين الذين لم تصدر احكام بعد في جرائمهم اكثر من هذا بكثير ولسنا نرتاب في ان الوالي الهمام قد شعر بمثل ما شعر «سيد بيروجيا» (وهي مقاطعة في ايطاليا - المترجم) الذي اضطر الى اصدار عفو عام لئلا تقفر مدينته من السكان.

هذا فان الحكم قد صدر بالشكل الآتي:

«السبيل الوحيدة للتخلص من المسألة الارمنية هي التخلص من الارمن انفسهم».

هذا ما بدا به الوضع بين الفريقين في الفترة ١٩٠٤ - ١٩١ ايام كان المؤلف في (وان)، وكان حزب الاصلاح او الحزب الثوري الارمني يعرف في ذلك الحين باسم(فدائي) وهو الاسم العام الشائع [6] ويقسم داخليا الى جناحين. «ارمني» وهو الجناح المعتدل نوعا ما في آرائه ووسائل نضاله. و«طاشناقي»[7] وهو الجناح الذي يؤمن بالعنف والتطرف.

والاسلوب الذي اتخذته جمعية الطاشناق دستورا، هو بكلمة مختصرة «اثارة المذابح» عن طريق القيام باعمال يعلمون هم بانها تثير ثائرة الترك عليهم، مؤملين بهذا، التدخل الاوروبي السريع اذا كانت المذبحة مريعة» وربما جاز الاعتذار عن جدوى هذه الخطة الشنعاء بحجتين اثنتين، اولاهما: ان الطاشناقيين كانوا في الواقع يعرضون انفسهم بكل استهتار الى هذه الاخطار التي يتعمدونها تعمدا، لتنصب ويلاتها على رؤوس ابناء جلدتهم المنكودي الحظ. وثانيهما: انهم خبروا جدواها ومدى نجاحها الكبير عندما طبقت بعين الاساليب في اليونان وصربيا وبلغاريا.

وكان مقر قيادتهم بلاد القفقاس، تلك البالوعة التي تنصب فيها كل فوضى الامبراطورية الروسية وقاذوراتها. على انه كان عندهم زعماء محليون في (وان). وهي من اهم مراكزهم، وفي غيرها ايضا. والهدف الذي يعملون لاجله هو خلق ارمينيا مستقلة، او ذات حكم ذاتي، وكانوا يعملون بخط مواز لحزب (تركيا الفتاة: جون ترك) لكن باهداف متضادة متعارضة.

وأما بصدد الاساليب التي يتبعونها فنقول من المفروض ان يقوم انصارهم الارمن بمساندتهم طوعا. الا ان عمليات السلب والارهاب كانت تستخدم ايضا بنطاق واسع ولا سيما ضد الاغنياء والتجار الذين لم يكونوا مجرد معارضين معصوبي الاعين للحكم التركي.

قبض مرة على تاجر وخُيِّر بين دفع مائة ليرة او صلم اذنيه. ولما عرض خمسين قالوا له: «في هذه الحالة ستصلم اذن واحدة». فاضطر الى الدفع وأخلي سبيله بعد ان هدد بالموت الفوري ان قام باية محاولة للاتصال بالحكومة واستعدائها.

---

[6] الكلمة فارسية، وقد جاءت من الاصل الذي يعني التضحية. ويقصد به ذلك الذي يضحي بنفسه في سبيل غاية. ويكون فدائيا كل من تطوع في عملية بائسة، وكانت بالاصل تطلق على «الحشاشين» الغلاة من اتباع «شيخ الجبل» ايام الحروب الصليبية والعثمانيون يطلقون على الثوار اسم «العصاة او المتمردين» من قطاع الطرق. ويوجد خلاف هذين الجناحين جمعية ثالثة تدعى (هنتشاق) وتتبع اساليب الطاشناق ايضا، وقد انضمت اليها.

[7] الطاشناق. كلمة ارمنية معناها «البيرق او العلم».

وبهذا الاسلوب اغتيل مطران (اختامار) قرب (وان) اما لانه ابى مساعدة الحركة بالتبرعات الدينية للكنيسة واما كما زعم بعضهم - لانه لم يسلك مسلكا وطنيا حين استعان بالحكومة ضد شعبه المضطهد.

وقد يطبقون احيانا نوعا من العدالة التي تتخطى الاجراءات القانونية. فقد تركوا على أقل تقدير آغا كرديا طاغية مقتولا برصاصهم. وبلغت المعلومات للوالي بان حزب الطاشناق هو الذي اجرى حكم العدالة بهذا الآغا لما اقترفه من جرائم، واذا خطر بالبال ان يتهم احد من رعية القتيل بقتله فان الموظفين الحكوميين سيسمعون انباء مماثلة للحادثة!

ولو ان اساليبهم اقتصرت على هذه العينة من محاكم فامگيريخت[8] Vehmgericht للقرن العشرين لصعب جدا ان يشعر المرء بعطف عليهم.

ومنظمتهم المحلية تتألف من «خلية داخلية» صغيرة لا يزيد عدد اعضائها عن الاثني عشر على الاكثر، يليهم حوالي ستمائة «من الجنود المُحلّفين» المسلحين بمسدسات من طراز (ماوزر) اقسم كل واحد منهم على القتال حتى الموت تحت قيادة الخلية، وان لا يستسلم مهما كانت الظروف، وبعدها يأتي «الانصار» وعددهم غير معلوم (ربما بلغ ثلاثة آلاف) وكانت الاسلحة تهرب لهم وتختزن في مستودعات سرية، على ان تُستَنفَرْ القوى عندما تعلن الثورة ويرفع السلاح. واذا بدات المذبحة التي يعملون لاجل تفجيرها، فيمكن استخدام هذه الاسلحة طبعا لاغراض الدفاع.

والاسلحة كلها خفيفة غير فتاكة. واحسنها من طراز (ماوزر) ومعظمها بنادقيات عسكرية روسية، ويبدو ان الضبط العسكري في القفقاس لا اثر له والجندي الذي يبيع بندقية بقليل من (الفودكا) لا يسئل اسئلة كثيرة. كما كان لديهم ايضا كمية من القنابر يستوردون مواد صنعها من القفقاس ويقوم بصنعها محليا صيدلي ينتمي الى العصابة.

حاول الفدائيون في صيف العام ١٩٠٥ ما يمكن ان يطلق عليه حرب العصابات بنطاق واسع نوعا ما في منطقة (موش) غرب بحيرة (وان). وقالوا انهم زحفوا لحماية الفلاحين من قطاع الطرق، في حين كان الفلاح المسكين يرغب من صميم قلبه ان يبتعد عنه الفريقان. وراح ثلاثمائة طاشناقي يتجولون في المنطقة. كانوا قد قدموا بجماعات صغيرة من روسيا واخذوا يشنون حربا علنية على الحكومة فاضطرت الى تعزيز حاميتها بستة آلاف جندي مهمتهم القضاء التام على مصدر الشغب، الا انها فشلت في القبض عليهم.

---

[8] نوع من النظام الغريب في المانيا وجد في الفترة ١١٥٠-١٥٦٨ ولا سيما في وستفاليا من محاكم غير نظامية تجري مرافعة الامور المدنية فيها نهارا. والمحاكمة الجزائية في تهم القتل والهرطقة والسحر وما اليها ليلا (المترجم).

وللمرء ان يكون رأيه الخاص عن الهدف والاساليب التي يتبعها الفدائيون للوصول اليه. لكن علينا ان نقر بان ما قيل عن شدة مراس الارمن وشجاعتهم الفردية التي لا تقل عن اي تركي، هو قول صائب ثبت بالدليل القاطع.

في احدى الوقائع طَوّقْت جماعةً منهم لا تزيد عن العشرين فدائيا وحدةُ عسكريُة تقدر بسبعمائة من النظاميين والمرتزقة واطبقت عليهم في جبل منعزل لا ماء فيه. وكانت الدلائل تشير الى انهم محاصرون تماما فالجبل اجرد ليس فيه ما يستر جرذا واحدا كما لايمكن شن الحرب ضد العطش. الا ان الارمن لم ينتظروا معركة اليوم التالي بل انحدروا من مواقعهم في تلك الليلة المدلهمة التي لا ينيرها القمر، باسلحتهم من البندقيات والقنابر والمصابيح اليدوية الكهربائية. ويظهر ان قائدهم كان يمتاز بحضور الذهن لان الخطة التي رسمت طبقت بكل دقة فقد تقدموا زوجا زوجا وما ان سمعوا الامر بالوقوف حتى ارسل رقم واحد شعاعا من مصباحه نحو الديدبان وقذفه رقم اثنان بقنبرة فصرعه، فاستيقظ المعسكر على الانفجار الا ان افراد فصيلة الفدائيين اندفعوا الى المعسكر وقد وجهوا انوار مصابيحهم كلها، واخذوا يقذفون قنابرهم تباعا بوجه كل من يعترض سبيلهم. لا شك ان القوات غير النظامية تكره مواجهة الشيطان نفسه بهذا الشكل، فانفرجت صفوفهم واختلط الحابل بالنابل فاخترقهم الفدائيون من النهاية الى النهاية دون ان يفقدوا رجلا واحدا، والفضل يعود الى عملية مزْجيّة من تاكتيك (جدعون العبراني) بخطط فوضوي العصر الحديث.

في حادثة اخرى لم يصب الفدائيون هذا القدر من النجاح، وان استوفوا حقهم كاملا عن كل رجل فقدوه.

فرغ ثمانية عشر فدائيا من مهمتهم وتهيأوا لترك المنطقة لكن الجوع قرص احشاءهم واضطرهم الى التوقف في قرية موالية. وبشكل ما نما خبر وجودهم الى المنطقة المجاورة فتجمع الجنود والمرتزقة للهجوم على الفريسة بينما كان الطعام يهيأ لهم. فلجأ الفدائيون الى ثلاثة كهوف صغيرة احدها في صف الاخر كانت تستخدم لايواء الاغنام فوسعت من الداخل الصخري الهش وسقفت من فوق صخرة رقيقة مسطحة. واستعد الفدائيون بقنابرهم في فم الكهوف ولم يكن لديهم سلاح اخر غيرها (ان وجود ستة آلاف ليرة ذهبية معهم، جعلهم صيدا ثمينا جدا) واحتل قسم من المهاجمين قمة الصخرة التي تعلو الكهوف. بينما استعد القسم الاكبر لهجوم جبهي. ولما بدأ هذا القسم يرتقي السفح. تناول احد الارمن من فريق الكهف الاوسط قنبرة من الكومة المهيأة للقذف ورماها على العدو. ولم يكن تهديفه جيدا لانها اصطدمت بحافة الصخرة وانفلقت، وادى الارتجاج طبعا الى تفجير مستودع القنابر، بعدها لم يُرَ للارمن الستة الذين كانوا في ذلك الكهف اي اثر. وقد عُرضَ على المؤلف بعضَ المسكوكات الذهبية التي كانت مخبأة في احزمتهم وقد الصقتها قوة الانفجار بالصخرة فبدت وكأنها مطروقة بمطرقة فوق سندان، وان كانت الحامية قد ابيدت فان كهفها استحال الى مدفع

جبار، وتلاشى في الفضاء كل مهاجم كان يحتل سقف الكهف. ولم يعثر على اثر لخمسة وثلاثين منه عدا الجرحى وهو ثمن طيب لستة رجال فحسب، وفقد المهاجمون اية رغبة في مواجهة الكهفين الاخرين بعد هذا الاستقبال الذي واجهوه من الاول، وهكذا استطاع بقية الارمن ان ينسحبوا آمنين.

وساعدت الطبيعة الطاشناقيين بقلاع منيعة لا يمكن اقتحامها ولاتعدم خطوط انسحاب آمنة الى الحدود الايرانية فالمنطقة البركانية في (نمرود داغ) وتبعد حوالي ستة اميال عنها، كانت احدى حصونهم وملاجئهم، ومعظم المساحة التي يشغلها هذا الملجأ مغطى بطبقة متغضنة من الحمم البركانية الجامدة المتشابكة الشبيهة بالتيه، لا يسعك العثور على الخبير بمسالكها مهما بذلت من جهد، وفيها ينابيع ذات مياه دافئة بدرجة تناسب الجلوس فيها جلوسا مريحا وكانوا بالفعل يقضون فيها أسابيعَ من شتاء ارمينيا القاسي الذي يشير الى درجات كثيرة تحت الصفر، فقد استنبطوا حيلة عجيبة مكنتهم من التمدد في الماء والنوم حين تبقى رؤوسهم فوق السطح.

واغرب معاقلهم هو هضبة الحمم البركانية الجبارة في (تندوريك) وعن هذا الجبل لا يدري احد هل سالت الحمم من الشقوق الافقية العظمى، او ان البركان كله انفجر بفعل طاقة حرارية اشتد الضغط عليها من الجوف. ومهما كان السبب فالنتيجة التي يراها المرء هي مساحة من الارض مربعة طول ضلعها عشرون ميلا غطيت ببحر من الحمم السوداء تمزقت وتشققت وانداحت الى كل جهة عندما بردت، فهي الان اشبه شيء بكتلة جليد سوداء هائلة الجرم. او بموضع يمكن ان يضيع فيه أي عدد من المخازن ومن الرجال الى ماشاء الله. وهناك معين من الماء لا ينضب في الفجوات والشقوق ويدخل جانب من هذه الكتلة السوداء في الحدود الايرانية فلا يمكن ان تصله دوريات الجندرمة وان سهل تطويق البقعة بحلقة من نار المقذوفات، فلو اجتمعت كل مدفعية الامبراطورية وظلت تقصفها الى يوم يبعثون لما اصابت احدا من شاغلها بخدش الا بمصادفة بحتة، هذا وبامكان حاميتها في الوقت نفسه ان تخرج من اية نقطة فيها لتبيد أية ربيئة منعزلة، انها القلعة مثالية لعصابات الثوار لان الرجال يتنقلون في ارجائها بحرية دون ان يراهم احد في الوقت الذي لا تفوتهم اية حركة يأتيها المهاجمون المعسكرون في المنحدرات المحيطة بها، وكلها مكشوف.

لا شك ان لعبة الطاشناقيين هذه، لعبة رائعة. وهي رائعة بالنسبة الى كل من يستحلي المقامرة بالموت كعقاب في احوال يتضاءل امل الربح فيها الى حد الصفر. الا ان القصة تختلف بالنسبة الى الارمن البسطاء من «الرعية» الذين يودون لو يتركون لشأنهم بعيدا عن الجميع وان يمنحوا فرصة لكسب الرزق الحلال، ويبدو أن ليس هناك من يريد أن يعينهم على حالهم. والحق يقال انه لما تأباه الطبيعة البشرية ان يحبذوا تلك الطريقة الطاشناقية الغريبة التي ترسم خططها لذبحهم وافنائهم لاجل منفعة الابناء والاحفاد، واليك مشكلتهم بسطرين:

يقولون «كان عندنا بالامس طاقم واحد من الاسياد، والله يدري كم صعب علينا احتمالهم! اما اليوم فلدينا طاقمان من الاسياد. والله وحده يدري ايهما اصعب احتمالا»؟

ينحدر الثوار اليهم ويصوبون مسدساتهم الى رؤوسهم طالبين منهم ارزاقا تعينهم على مواصلة الحرب ضد الحكومة، ثم ينسحبون. وتنحدر اليهم قوات الحكومة بدورها (احيانا كانت ترسل بمرتزقتها اليهم) وتؤاخذهم بجريمة «ايواء» العصاة والتعاون معهم ضد الحكومة. ولا يعرف قط كم كانت حصيلة صيف العام ١٩٠٥ من القتلى في منطقة (موش) وحدها، الا ان الواقفين على الامور يقدرونها بخمسة الاف تقريبا.

دخلت ثلة من الفدائيين مدينة (وان) في طريق انسحابها الى الحدود الايرانية، وفيها تم تطبيق الاجراءات التي اتخذوها نموذجا لاسلوب العمل العام عندهم.

دخلوا «مدينة البساتين» ليلا واصطدموا بدورية من الشرطة فنجم عن الاشتباك مقتل شرطي واحد، فاستنُفر كل وحدات الشرطة وهوجم البيت الذي آوى اليه الثوار واحرق بعد اشتباك اخر اعنف من الاول. لكن الثوار نجحوا في الانسحاب منه، وفقد أثرهم في بساتين المدينة المسيجة. واضطر الوالي الى ان يختار بين امرين: ان يصدر امرا باجراء تفتيش دقيق بهدف القبض على اولئك الذين تحدوا سلطة الحكومة باثارة حرب علنية صارخة وتحدوا سلطته، وكان بمكنته اصدار هذا الامر والقبض على العصابة وابادتها. لكنه من الجهة الاخرى سيعجز عن كبح جماح الجندرمة اذا ما بدات في التفتيش الذي سيعقبه حتما قتال شوارع مما سيسفر عن مذبحة لا يعلم كم سيبلغ عدد ضحاياها. وكان بامكانه ايضا ان لا يصدر امر التفتيش ويترك الثوار لشأنهم ينسحبون بهدوء دون ان يلحقهم ضر، لكن ماذا سيقول في هذه الحالة لمولاه السلطان؟ وهل سيطيعه الجندرمه (الذين صرع احد رفاقهم) عندما يأمرهم بالكف عن الارمن الكلاب؟ ظلت كفتا الميزان تتأرجحان مدة اربع وعشرين ساعة وكان الارمن الفزعون اثناءها يتقاطرون على بنايات القنصليات الاجنبية للاحتماء وراء جدرانها حتى غصت بهم على رحبها. ولم يكن سكان الحي التركي باقل هلعا من هؤلاء. الا ان خوفهم كان اقل ظهورا بينهم فكل ارمني بالنسبة اليهم «فدائي». وكل فدائي مملوء الجيوب بالقنابر.

ربما كان الطاشناقيون الاثنا عشر هم الوحيدون الذين لم يكترثوا للنتائج، انهم رابحون في كلتا الحالتين وان ضاعت حياتهم، فهذا ما خاطروا لاجل الوصول اليه تحقيقا لغايتهم المنشودة، ولو سمح لهم بالانسحاب فقد حققوا بذلك نصرا على الحكومة وإن هوجموا فسيموتون وهم يقاتلون متأكدين بانهم انجزوا رفع ذلك «الاعلان التجاري الكبير» اي تحقيق المذبحة المنشودة، الكعبة التي يدورون حولها.

في الواقع انك تحار كيف تعامل الخصم الذي لا يقيم لحياته وزنا، والفضل كله يعود الى

الوالي طاهر باشا (الذي قابلناه فيما بعد واليا على الموصل) فقد قرر ان لا يأمر باقامة مذبحة في اولئك الناس الذين عُيّن لاجل حمايتهم مهما كلف الامر، وافلح في ثني (القومندان العسكري) عن عزمه واقنعه بسحب قطعاته الى ثكناتها مفسحا المجال لانسحاب الطاشناقيين ومخاطراً بمنصبه لانقاذ رعيته من اخوانهم.

بعد هذه الحادثة ساد الهدوء (وان) عاما او اثنين. لكن استيراد الاسلحة وغيرها من المواد الخاصة بالثورة لم ينقطع، وكدست مخازن عتاد واسلحة، وسر كرد الحدود باستمرار عملية التهريب هذه لانها كانت تدر عليهم ارباحا طيبة فليس عليهم الا ان يغضوا الطرف عن الاحمال التي تمر عبر اراضيهم. ولم تكن الحكومة تعرف الكثير مما يجري فاستبد بها القلق، ولاسيما بعد اغتيال الوالي الطاغية الذي خلف طاهر باشا في (وان) على يد الفدائيين. ولما كان مقتله قد وقع في ارض روسية اثناء ماكان القتيل في طريقه الى استانبول، فلم يعقبه شغب او هياج.

كان وكيل الوالي (علي رضا) جالسا في منزله منهمكا في عمله في ليلة من ليالي شباط العام ١٩٠٨ عندما ابلغوه بأن ارمنيا يصر على مقابلته لامر خطير لا يكشفه لغيره. وبعد اخذ ورد ادخل عليه وما ان واجهه حتى ابتدره بدون مقدمات او تمهيدات.

- ايها الباشا الوالي، اعرني سمعك. اسمي (داود) وقد جئت لابلغك باني واحد من اعضاء «الخلية السرية» لجمعية الطاشناق هنا. ولاسباب خاصة بي قررت ان اكشف للحكومة عما اعرفه بالتمام والكمال، فأعطني الان بضعة رجال وسأقودهم في هذه الليلة الى دار اجتماع الخلية، وغدا سأذهب بكم الى مستودعات البندقيات والعتاد.

وبالطبع كان الدافع الى هذه الخيانة السوداء المريعة خلاف نشأ بينه وبين رفاقه. وانتشرت تعليلات واسباب لهذا الخلاف كلها واضح وكلها متناقض، وصارت حديث اهل المدينة خلال الايام القلائل التالية. وكان اقربها احتمالا اظهرها، قالوا: انه ورئيسه (الرجل الثاني في قيادة منظمة وان) أحبا فتاة. على ان اغلب الاشاعات تؤكد بأن (داود) قد علم بشكل ما، ان حكماً بالموت صدر عليه من اعضاء الخلية، فقال «اذن فلانتقمن منهم قبل ان ينالوني».

ان تصرف الوالي في القضية دل على احد امرين لا ثالث لهما: اما انه كان في منتهى الخوف، واما انه كان في منتهى الغباء، لانه لم ينتهز الفرصة، بل اصدر اوامره بابقاء الرجل معتقلا حتى اليوم التالي بقوله «غدا سيدلنا على مستودعات السلاح والذخيرة فان كان صادقا فيما يدعيه، فسنشرع في مداهمة المتمردين». وراحت كل الجهود عبثا في اقناعه بان الاسلحة لا يمكن نقلها من مستودعاتها بفترة قصيرة من الزمن، اما المؤتمرون فلن يواصلوا اجتماعاتهم الليلة في تلك الدار بعد ان يبدأ كبس المستودعات. وهكذا لم يتخذ وكيل الوالي اجراء ما في تلك الليلة. وفي اليوم التالي كان المخبر (داود) عند كلمته، وحصل هياج لم

تعرفه (وان)، واخرجت الاسلحة بالمئات من مختلف الامكنة، ولم يسع مراقب عملية التفتيش الا العجب من بيت طيني البناء جعل مخبأ للسلاح. ان طين (وان) مادة جيدة جدا لاحسن اللبن وهناك قلاع اورارتية بنيت به منذ العام ٨٠ ق.م لما تزل باقية حتى اليوم. ويجعل سمك جدران البيوت التي تشاد به حوالي ثلاث اقدام عادة فيكون من السهولة بمكان حفر تجويف في وسط الجدار سمكه قدم واحدة تخبأ فيه عشرات البندقيات ثم يعاد بناؤه. واذا ما ترك الطين الجديد ليجف فان اي دق او جس لا يكشف التجويف. وهكذا كانت حصيلة ذلك اليوم المشهود كمية من البندقيات تتجاوز الخمسمائة، مع نصف مليون اطلاقة وحوالي ثلاثمائة صندوق من الديناميت[9].

حري بنا ان نقر بان التفتيش جرى بنهاية التأدب واللطف، وعثر على كمية كبيرة من الخراطيش والعتاد في تجويف احد جدران المذبح الداخلي لبيعة من اشهر بيع (وان) فاتخذ كل الاحتياطات لئلا يحصل تشويه في زخارف المذبح، بينما كان هناك كل المبررات للفظاظة في مثل هذا الموقف، ومن امثال ذلك انه وجدت فتاة وحيدة في احد المنازل التي كبسها رجال التفتيش فلم تمس بسوء ولم توجه اليها كلمة واحدة. بل وسمح لها ان تصب على الداخلين والمخبر وابلا من الشتائم والسباب. وكان ثم شيء يدعو الى الاستغراب حقا، وهو ان ترى الجندرمة الترك يطرقون الابواب بكل صبر وادب في حين كانوا يستطيعون كسرها باخامص البندقياتهم.

ولم يفارق الطاشناق «كنوزهم» هذه بدون وقفة عنيفة واحدة على الاقل. فقد هوجمت العربات التي حملت الغنيمة الى القلعة في عرض الشارع بعد خروجها من الحي الارمني مباشرة. ونشبت اثر ذلك معركة في غاية الطرافة، اذ احتمى المقاتلون بالبيوت المطلة على الشارع من جانبيه. وبدأ التراشق بالنار بينما كان «موضوع الرهان» ملقى على ارضية الشارع بين الفريقين. والحق يقال انها كانت مجاملة للاجنبي باختيارهم ميدان معركتهم ارضا تشرف عليها نوافذ القنصلية البريطانية مباشرة! كل ذلك ليستمتع هذا الموظف وضيّفانه باروع مشهد من مشاهد المعركة. والواقع ان اختيار ساحة الحرب هذه لم يكن محض مجاملة او تلطف، فالذي املى انتخابه هو رغبة الفدائيين في ان تكون ميمنتهم محمية بحديقة القنصلية لانها ارض محايدة بدون شك. ودامت المعركة ساعة واحدة سقط خلالها خمسة وعشرون شخصا بين قتيل وبين جريح (اذا اعتبرت كل خدش جرحا) وختمت المعركة برصاصة اصابت كدس الديناميت الذي كان ملقى في الشارع بصورة مكشوفة. ولا يدري احد أكانت

---

[9] بعض الاسلحة اخرج من بيت المؤلف. فقد دخل طاشناقي في خدمته لسبب واحد فقط وهو ليضمن من منزله مستودع سلاح. وكانت فرحة الجنود عظيمة بلقيتهم وقد اعطونا بعض صناديق الديناميت على سبيل الذكرى.

رصاصة طائشة ام مقصودة، المهم ان المفرقعات انفجرت كلها وخرج منها دوي هائل، ولم تحدث من ضرر خلا نقرة واسعة في الشارع، حتى العربة المقلوبة بقربه لم يلحق بها ضرر.

واقسم الطاشناق على الانتقام من (داود). وكان الترك قد جعلوا منه بطلا ومنحوه راتبا كبيرا (ربما لعلمهم ان الحياة لن تمتد به ليتقاضاه مرارا كثيرة) وصرح عدد من الموظفين العثمانيين المسلمين انهم سيقتلون مائة ارمني ثمنا لحياته.

والمعتقد ان زعماء الطاشناق امروا بعد هذا التهديد، ان لا تتخذ اية اجراءات ضده، الا انهم لم يفلحوا ف تهدئة مشاعر اخوانهم. فبعد ستة اسابيع خر (داود) صريعا في الشارع برصاص فتى يدعى (طولامازيان) وتوفي بعد بضعة ايام. وافلت القاتل، وبر الترك بوعدهم فذبحوا حوالي مائة ارمني دفعة واحدة (معظمهم بقالون ابرياء كانوا عائدين من السوق) ذبحهم القرد باشلر (ذوو الرؤوس السود) وهم احط طبقات المدنيين. وبدا ان الجندرمة والاهالي المسلمين سيعاودون الكرة على احياء الارمن في المدينة وان اشنع المذابح ستلي ذلك، وفزع كل فريق الى سلاحه ووقفا وقفة المتحفز وظل التوتر زهاء خمسة اشهر في اسوء حال ولم يجرؤ أرمني واحد على ترك حيه. ولم يكن خوف الترك من اقتحام احيائهم باقل من الارمن، لان مواقع هؤلاء منيعة جدا فبيوت البساتين متينة البنيان لا تؤثر فيها مدفعية الميدان تأثيرا يذكر وهو كل ما تيسر للمهاجمين لان انتشار معظم الارمن في البساتين الواسعة التي تحيط بها جدران الطين يجعل تعقيبهم شبه مستحيل او يكون المهاجمون فريسة سهلة للمدافعين حين يتفرقون في شعابها ومسالكها، هذا اذا خطر ببالهم التخلي عن فكرة اقتحام الاحياء.اضف الى هذا ان الترك ومرتزقتهم كانوا يتهيبون شجاعة الطاشناق ويحترمون بسالتهم ويبالغون في تقدير عددهم.

وبقي الوضع هكذا، وهو مفارقة لا يمكن ان تجد مثالاً لها في غير البلاد التركية: قوة من الثوار المسلحين في مواضع دفاعية اختاروها في جهة من المدينة منازلها متفرقة، والحكومة وقواتها تربض في الجهة المقابلة. بينما تجد الحياة العامة من تجارة واستبضاع تسير سيرها الاعتيادي اليومي تقريبا في سوق (حاج بوغان) الذي يقع في ارض محايدة وسط المنطقتين المتحفزتين (الناس يجب ان يأكلوا والارمن يجب ان يتجروا)، ومما يذكر ان القنصل الآنكليزي اصر على الا يمنع القوت عن الحي الارمني ما داموا يدفعون اثمانه العادلة!

هذا الوضع لا يمكن ان يدوم الى ما لا نهاية حتى في تركيا نفسها، فما ان توفرت قوات كافية من الجندرمة والقوات غير النظامية وبدت المقاومة مستحيلة حتى تم احتلال الحي الارمني فعلا وبوشر ببحث منظم عن الاسلحة والثوار وعثر على كميات كبيرة من النوع الاول فصودرت، وحاول اعضاء «الخلية السرية» الاثنا عشر الفرار من المدينة فتعذر عليهم ذلك وانكشف مخبأهم بعد قليل من البحث، وثبت موقعهم في واحد من الكهاريز (قنوات المجاري) التي يأتي بها ماء الجبال الى المدينة.

هذه الكهاريز هي آبار عميقة اقيمت على مسافات يبعد احدها عن الاخر زهاء خمسين

باردا ويبلغ معدل عمقها ثلاثين قدما ويتصل بعضها ببعض بانفاق، وكثير منها يعود تأريخه الى العصر (الاورارتي). وبعد ان عينت الجندرمة مجثم المطاردين بالضبط في موضع من احد الأنفاق وجدت ان حملهم على الخروج هو من الصعوبة بمكان. وتطوع احد الجنود وقبل ان يربط بحبل ويدلّى وكان عملا خطرا يشبه النزول الى عرين فيه اسود متحفزة. على انه هبط فعلا وتبين ان الطاشناقيين قد اختاروا الكهريز الذي خمنه الجنود فعلا، لان الجندي سقط بين عصابة الفدائيين تماما فأمسكوه وهموا بقتله الا انه قال لهم ناصحا:

- خذوا نصيحتي، انكم تستطيعون قتلي طبعا ولكن اية فائدة ستجنون؟ القائد سيعرف مكانكم ان لم اخرج، وعندئذ سيقضون عليكم خنقا بالدخان كأبناء آوى. لقد انتهت جولتكم وخير لكم ان تستسلموا لي.

الحق يقال ان الموقف لم يكن فيه أمل، ولا شك في ان بقاءك ثماني واربعين ساعة في ظلام دامس وجو رطب جالسا القرفصاء ورجلاك مغمورتان في الماء البارد تنتظر انتهاء حياتك خنقا بالدخان كل هذا له تأثيره الحاسم على بسالة اشجع الخلق واشدهم اقداما. فلم يجد الاثنا عشر بدا رغم قسمهم الغليظ بعدم التسليم، منَ ان يستسلموا لرجل واحد. وكان الجندي جديرا حقا باللذة التي نالها من جراء ارسالهم واحدا اثر الاخر الى فوق مشدودين بالحبال، حيث رفاقه في انتظارهم. وبعد اخراجهم جميعا سيقوا الى سجن المدينة واودعوا فيه.

وتروى حكايات فظيعة عن التعذيب الذي يحل بالمعتقلين في امثال هذه السجون عندما تلجأ الحكومة الى انتزاع الاعترافات والمعلومات، والحرمان من النوم وسحق رؤوس لأنامل بالمطارق هي من بين الاساليب المتبعة المالوفة، ومع ذلك فلم يجر شيء من هذا القبيل على الرجال خلا واحدا وهو (طرلامازيان) فقد جلد، بينما كان من المعروف بأن المقبوض عليهم يخفون معلومات هامة. وغاية ما شكوا منه خلال فترة اقامتهم في سجن (وان) هو انعدام الراحة والتضييق الشديد عليهم. والحق يقال ان ايداع المرء زنزانة قذرة تعج بالهوام والحشرات قد يكون بعد ساعات قلائل بديلا عادلا للتعذيب ولاسيما اذا شد السجين بسلسلة لا تسمح له بحك جلده.

صدرت الاوامر على ما نظن بارسال (آرام) زعيم الطاشناق المعتقلين الى القسطنطينية تحت حراسة شديدة، لا شك ان مصيره سيكون أليما بوقوعه في قبضة (عبدالحميد) لكن تحولا عجيبا حصل قبل انفاذ الامر به. ولم يكن هذا غير الآنقلاب العثماني للعام ١٩٠٨ الذي نجم عنه اصدار العفو العام عن كل الجرائم السياسية، فألغي كل الاجراءات القانونية وخرج المعتقلون من السجن ليحييهم ابناء جلدتهم تحية الابطال الوطنيين.

وبعد هذا بفترة وجيزة جدا بدأت المشكلة الحقيقية حول علاقات الارمن بالعثمانيين تظهر مرة اخرى بشكل فيه بعض الاختلاف.

كان المبدأ الذي يعمل له حزب (تركيا الفتاة) هو وحدة الامبراطورية العثمانية، حيث تكون حقوق المواطنة واحدة لكل من يقبل الجنسية العثمانية، وهذا يعني «العثمانية» للجميع. وكان

الطاشناقيون ارمن قبل كل شيء. لذلك حافظوا على تشكيلاتهم السياسية رغم كل احتجاج منعللين بضرورتها لهم كما كانت (جمعية الاتحاد والترقي) ضرورية لغيرهم. ومضوا قدما لتحقيق برنامج فوري شديد التطرف، ولا نقول اشتراكي النزعة. يقضي بمصادرة الاراضي الزراعية المملوكة والغاء الهبات والاعانات المالية التي تمنح للكنائس، وفك ارتباطها الحكومي وفصلها فصلا تاما[10] وتقرير حق الاقتراع العام، ومنح المرأة حق الإنتخاب، والغاء التعليم الديني في المدارس. هذه بعض «الالواح الخشبية» التي تتألف منها «ارضية» دعوتهم، ختموها بجعل الشعب وحده صاحب السيادة العليا لا يشركه فيها احد، وانكار سلطة الاب على ابنه. وبمختصر القول اراد هؤلاء تطبيق كل الاصلاحات السياسية والاجتماعية دفعة واحدة في شرق ذاهل مشدوه، حتى تلك التي يقر الاشتراكيون بعدم امكان تطبيقها في المجتمع الغربي الا بصورة تدريجية.

وبلغ بهم التطرف حدا ان عدوا سلطة مدير المدرسة، من السلطات المحرمة وفقا للقواعد والمبادىء الحديثة. وبدت محاولات لتطبيق هذا المبدأ المفيد جدا فمنع احد المبشرين مرة طلابه الارمن من ادخال المسدسات وغيرها من المخطورات العزيزة على قلب اي صبي، الى داخل المدرسة، وساوره الشك في ان امره هذا لم يطبق فقام بتفتيش صناديق الطلبة وفيما كان في وضع الانحناء الذي يستلزمه العمل هاجمه طلابه من الخلف بشدة واخذوا يخزونه بدبابيس القبعات، ومنعه الطاشناقيون من عقاب هؤلاء الطلاب او طردهم. لان العقاب الاول بسبب الاعتداء على «جلال» المبشر يحط من منزلة الاوغاد الصغار بوصفهم من المواطنين الارمن الاحرار، ولان الطرد يجردهم من حقهم الطبيعي في التعلم الجيد، وزادوا على هذا قائلين:

- ان لم نرسل ابناءنا الى مدارسكم فماذا سيؤول اليه امركم؟ ان الاعانات المالية التي يخصصها اصدقاء ارمينيا هي لاجل تعليم اولادنا لا لتكون مورد عيشكم.

في مثل هذا الظروف يصعب جدا ادراة شؤون مدرسة، وهنا لا يسعنا الا ان نذكر عبارة «جون درايدن»[11] «لقد استمتع ابناء بليعال[12] بوقت رائع جدا» الا ان رقاعة هذا الطريق

---

[10] يجدر بنا ان نذكر هنا لفائدة بعض القراء، ان كل المذاهب المسيحية والاسلامية لا تتمتع بشخصيتها الحكمية الا بقرار من الدولة وهي تتلقى من الخزانة العامة الاعانات. والاساقفة يصدر بتعيينهم فرمان من الدولة ويدفع لهم رواتب، وعلى هذا المنوال يتم الاعتراف بالمعاهد والجمعيات الدينية وتمنح حق ممارسة نشاطها والاشراف عليها. ان الافتراض الذي ينطوي عليه سؤال quid Christianiscum regibus: ما للمسيحي وللحكم؟» الا يخدع الشرقي بالشكل الذي يبدو انه يفعل في الغربي.

[11] John Dryden(١٦٣١-١٧٠٠) شاعر انكليزي مشهور.

[12] معناه بالعبرية عديم الفائدة او شرير والمثل المستمد منه «اي اتفاق ممكن بين المسيح وبليعال؟» (المترجم).

الذي لا مخرج له اجبرت حتى الطاشناق على الاخذ بجانب الاعتدال قليلا.

قال «ارام» للوالي بغرور:

نحن نعمل لاولئك الذين سيأتون بعد مائة وخمسين سنة.

فأجابه الوالي التركي الاكثر منه واقعية:

دع هذا لله. وساعدونا نحن الترك على العمل للغير.

(وكان هذا الارمني كمعظم الفدائيين ذا ثقافة عالية جعلته يعتد بنفسه ويرتفع بها الى الحد الذي انكر معه قدرة اية قوة مهما بلغت على خلق روح سامية عظيمة كروحه) فرد على الوالي بقوله:

لا اكتمك اني لا اؤمن بوجود الله.

فأجاب التركي بذكاء عظيم:

ماذا تقول؟ الم يعترف سبحانه وتعالى باهميتك؟

ولم يكن بالغريب ان يفترقا على خلاف بعد هذا الحديث.

وعلى كل. فقد تبين للطاشناق ان تعلق ابناء شعبهم بكنيستهم القديمة، ذلك التعلق الذي صان الامة وامدها بالحياة المستمرة، هو من القوة بحيث الجأهم الى اظهار بعض الاحترام الظاهري له. وبناء عليه وتطبيقا للمبدأ القائل «ما وجب عليك عمله، اتقن عمله». اصبح (آرام) معلما في مدارس الاحد، ولك ان تتخيل منظر هذا الثائر الملحد الذي خطط ونفذ عشرات من حوادث القتل، وكان مسؤولا بصورة غير مباشرة عما لا يحصى من القتول وسفك الدماء، يعلم صغار الفتيات بكل جد ووقار، مباديء التعليم المسيحي، انه لمنظر اقل ما يقال عنه مدهش، ان لم يكن بنّاًء.

ومر الزمن وظهر للعيان فشل (الجون ترك) التام في مجهوداتهم لاعادة خلق بلادهم. كانت العوائق التي تعترضهم صعبة جدا واعباؤهم ثقيلة قاسية، وهم يفتقرون الى الخبرة والتجربة في تمشية وادراة هذا المزيج المجنون من المصالح والمعاملات الذي يطلق عليه اسم «الحكومة العثمانية». والمصيبة هي ان حياة هذا المزيج يجب ان تبقى مستمرة والوحيدون الذين يملكون المقدرة على ذلك، هم عصابة الموظفين الفاسدين المتعفنين الذين كان طردهم وكنسهم من دوائر الدولة اول مهمة لاية حكومة صالحة. فضلا عن هذا، ففي الوقت الذي كان يسهل حكم مجموع رعايا السلطان، الذين دأبوا على اطاعة كل امر تصدره الحكومة في حدود معينة، تجد في كل مكان وبين مختلف شعوب الامبراطورية اقلية ضئيلة عالية الصوت لا يمكن تهدئتها. انهم صنف من البشر لا يسعهم العمل مع الحكومة او مع بعضهم بعضا.

هناك مثلا تعصب الملائين الاعمى ومعارضتهم، ووراءهم كل من يؤثرون عليه من المسلمين،

وهناك الزعماء المنتمون لكل ملة من الملل المسيحية الذين يفسرون مصطلح (ملت) الغامض تفسيرا يبعث على الالم الشديد، ويضجون بطلب الاصلاح العاجل الناجز الذي من شأنه احداث ردة فعل تحفظي في فرنسا وامريكا. والآنكى من هذين عدد لا يحصى من الرجال الذين يفضلون بقاء المياه عكرة لانهم خير من يصطاد فيها. واخيرا (فالجون ترك) اناس نظريون، عبدوا النظريات، عثمانيون يريدون (عثمنة) كل شخص في البلاد بصرف النظر عن دينه. غير مدركين كم ظل مبدا الدين والقومية التوأمان يسيران متكاتفين في هذه الارض التي يريدون حكمها[13]

بهذا الاتجاه في التفكير ابتدءوا بثورة البانية لم يكن اسهل عليهم اجتنابها، فوجدوا جزء هاما من مكانتهم يضيع فيها، واثاروا عليهم سخط كل مسلم متزمت باستهانتم الصريحة ببعض المراسيم الدينية كصوم رمضان، واغاظوا المسيحيين في حين حاولوا فائدتهم باقتراحهم الغاء امتيازات الطوائف والملل كافة واعتبار المسيحيين مواطنين عثمانيين متساوين مع المواطنين الاخرين في الحقوق والواجبات. وكانت النتيجة اغضاب الجميع وكان مثلهم مثل اللص الذي وجد الجلاد يحط من قدره عندما خصص له مشنقة اوطا من مشنقة اخيه اللص الاخر.

ولو اعطى لهؤلاء الاصلاحيين الوقت الكافي، ولو استمر الجيش في مساندتهم لانصلحت الامور وسلكت مسلكا حسنا.

والامثال السائرة الاوروبية لا يوجد منها ما يصلح للتمثل به في تركيا. فهناك لا مجال لتطبيق القول الماثور «يمكنك ان تستخدم الحراب لكل شيء الا الجلوس عليها». ان الوفير من الحراب يفرش للحكومة مقعدا وثيرا جدا، او هكذا في الظاهر. الا انها لم تعط الوقت الكافي لجميع الحراب، اذ قضت على سمعتها حربان فاشلتان متتاليتان، والسمعة لحكومة شرقية هي نسمة الحياة التي لا تستطيع العيش بدونها.

من سوء حظ الترك انهم لا يعرفون في الحكم معنى للمرونة، واساليبهم هي نسخة مطابقة لاساليب كل الحكومات الاوروبية لما قبل خمسة قرون. ففي حين تطورت وجهة النظر الاوروبية في الحكم خلال هذه الفترة، بقيت وجهة النظر التركية كما هي. والمدنية الحديثة التي تريد ان تتغاضى عن كثير من الفضائح والقبائح لا يسعها ان تتعامى عما يرتكبه الترك. لقد شاءت الاقدار ان يملك التركي بلادا تجتذب بطبيعتها، الاهتمام العالمي من الوجهتين الدينية والآثارية. كذلك كانت اقرب المجالات غير المستغلة لنشاط رأس المال الاوروبي. لذلك كان التركي مطمح الابصار. وليس في امكانك وانت مركز الاهتمام وفي البؤرة التي سلطت عليها الأنوار ان تعمل بما تمليه عليه ميولك ومشاعرك كما لو كنت في الظلام بعيدا عن مساقط الضياء. والمشكلة هي ان التركي لا يعرف سبيلا اخر غير سبيل التقاليد التي درج عليها

---

[13] لم يخف هذا عن عين مصطفى كمال «اتاتورك» الثاقبة فقام اول ما قام بثورته الاجتماعية الاصلاحية بقوة وجلد واستمرارية كادت تكون نادرة في تاريخ الشعب التركي.

عندما كان كل شيء يسبح في ظلام. بامكانك ان تمنح الكلب طوقا جديدا، لكنك لا تستطيع ان تعلمه حيلا جديدة. ولن يغير من اساليب الحكومة التركية، تسمية نفسها «بالحكومة الدستورية» فالرشاوى الآن اضخم مما كانت في النظام الزائل (وهو خير وسيلة للتامين على حياتك ضد الاخطار والتقلبات المفاجئة) الا انها في الواقع لم تتقلص او تضيق حدودها. كما اصبح عند الترك سبب اخر ممتاز لرفض نصيحة القناصل الاجانب. فأي مركز ممتاز locus standi سيكون لهم بعد في بلاد دستورية متمدنة كالامبراطورية العثمانية؟ هذه الحقائق تبدو للمقيم الاوروبي، كنتيجتين رئيستين «للنظام الجديد» بعد خمس سنوات. ترى ماذا تستطيع «مدام اوروبا» ان تقول وتعمل للكلب الهرم الضخم الكئيب؟ ذلك الكلب الذي مازال قادرا على العض بحيث يجعلها ترتعد عندما تفكر معالجة امره؟ ذلك الكلب الذي يقول:

- ماتركه اعدائي لي من وِجارٍ يعود لي. وساقوم بادارته كما يحلو لي مادام هو في حيازتي.

ملحوظة:

مما يخفف من عبء الحياة في تركيا هو انك تجد دائما جانبا مضحكا من الامور عند التطبيق كلما بدت في واقعها وحقيقتها مؤلمة وقد اتيحت لنا نحن الاجانب فرصة الاستمتاع بشيء من هذا القبيل في مدينة (وان) بُعيد اعلان الدستور.

ان وضع المراة في العالم الشرقي هو مشكلة كبيرة مهمة في نظر الجميع. وعلى حلها حلا صحيحا يعتمد مستقبل البلاد على الارجح. وقد ظهرت المشكلة في (وان) متسترة بقناع المعركة بين الشباب والشيوخ ومصحوبة بكل ما يتصور من عناصر الفجاجة والسخف.

فقد وصل (الى وان) حمل قافلة فيه على ماقيل مجموعة من القبعات على احدث المودات الباريسية. واجتذبت هذه البضاعة فتيات «وان» ونساءها الشابات فأقبلن على شرائها (وكن قد اجبرن من قبل على التحجب لاسباب عديدة) وقد اثار عملهن هذا سخط امهاتهن المحافظات وجداتهن المغرقات في التعصب واخذن يوبخن بناتهن قائلات:

- لن تجدن ازواجا لو خرجتن سافرات على هذه الشاكلة.

في الواقع ان «بيراموس» الارمني لم يكن اعتراضه على النظر الى وجه «ثسبه»[14]

---

[14] بطل وبطلة قصة حب بابلية: خلاصتها ان ابويهما رفضا تزويجهما. وكانا يتحادثان خلال ثقب في جدار يفصل ما بين داريهما فاتفقا على الهرب. وجاءت ثسبه الى الموعد قبل بيراموس الا انها خافت زئير لبوءة قريبة فهربت فسقط برقعها الذي مزقته اللبوءة بانيابها الملطخة بدم ثور كانت قد افترسته. واعتقد بيراموس عند رؤيته خرق البرقع ان ثسبه قد افترست فطعن نفسه. ولما عادت ثسبه لتجد حبيبها قتيلا انتحرت. وبهذا اصبح تندر المؤلفين على الحادث مفهوما من القارىء ما اظن اني استطيع انهاء تعليقي هنا من دون جلب انتباه القارئ الى مطابقة هذه الحكاية، لحبكة تمثيلية "روميو وجولييت" الشهيرة التي كتبها شكسبير. أهو توارد خواطر صرف؟ أم تعاقب وراثي اخترق حدود الزمان والمكان فبلغ هذا الشاعر العظيم؟(المترجم).

الارمنية المكشوف باكثر من اعتراض ابن عمه الاوروبي. على ان السبب الحقيقي للسخط والاعتراض هو اعمق من هذا، فالزواج كان الى ذلك الحين يدبر تدبيرا بين امهات الجانبين وجداتهم (وهو الاسلوب الصائب) فلا يرى العريس عروسه الا بعد اتمام العقد. فان خرجت الآنسات «سافرات على هذا الشكل» فستثار مشاكل وصعوبات عند الحصول على موافقة الشاب ورضاه بزواج رتبه الكبار. بل قد يصل الامر الى ان يقوم الشبان انفسهم بترتيب هذه الامور مع الشابات مباشرة. وفي هذه الحالة ستهوي سلطة الجدات من حالق ويتزعزع نفوذهن في البيت وتلك الكارثة العظمى التي لا يمكن التفكير بها لحظة واحدة.

لذلك كان الامر اليومي: ازالة العقبة، فصودرت القبعات، الا تصور لنفسك مشاعر العشرات من الاوانس اللآتي استمتعن بلبس القبعة الاوروبية لاول مرة في حياتهن. يجبرن على تركها، ويحكم عليهن لا بارخاء برقع شفاف وطرحة جميلة، بل بوضع حجاب سميك محبوك يغطي كل الوجه كلما كان «حيوان ذكر» على مقربة منهن. وهكذا انتصر القديم المحافظ في هذه الجولة، ولو كان نظام الحكم الجديد ناجحا، فاغلب الظن ان الجيل الصغير من الجنس اللطيف كن سيخضن معركة ضارية، الا ان الاوضاع القديمة ظلت سائدة. لا تسمح لاية فتاة بالكشف عن وجهها في عرض الشارع والا تعرضت لسوء. فرضخن للامر الواقع. على ان المعركة لم تنته بلا شك ولن تعتم ان تتجدد، ولعلها ستكون ذات نتائج طيبة.

13

بلاد پسترجون

قدشانس

معظمنا يعرف اسطورة «پرستر جون» ونحن نذكر منها بصورة خاصة الاسطورة التي وردت عنه في «آريوستو»[1] Ariosto وهي حكاية ملك مسيحي حكم شعبه وهو محاط بشعوب من الكفرة من كل جانب. كان ملكا وقسا في آن واحد يقيم القداس بانتظام، وكانت مملكته تكتنفها جبال عاصية قصية لا يمكن الوصول اليها، ولا تنجاب عنها السحب او تخلو من الاعاصير الهوج، تعذبه الجن وتضايقه بمداهمته يوميا وخطف الطعام من مائدته. كما نقرأ ايضا كيف زاره الفارس الآنكليزي الجوال «آستولفو Astolpho» وطرد عنه جماعات الشياطين بنفخة من قرنه السحري.

قد يبدو قولنا الآتي شيئا غريبا. لكنه مع ذلك هو الحقيقة بعينها، وهي ان كل هذه الحكايات التي اوردها الشاعر الايطالي بوصفها اساطير متداولة الى يومنا هذا انما هي وقائع وحقائق بكل جوانبها الاساسية. (او كانت كذلك الى زمن قريب على الاقل) تتمثل في بطريرك نساطرة كردستان. فهو (الملك الاسقف) للمملكة الجبلية المسيحية. هو طبعا احد رعايا السلطان لكنه مازال ملكا معترفا به كما هو ملك بفضل رتبته الكنسية الحبرية، حتى البراق hippogrif الذي حمل استولفو فان الجبال التي رفعه الى قممها ليست باكثر وعورة من تلك التي تحيط بقرية «قدشانس». اما المغاوير الكرد فهم اقرب شبها للجن التي زاحمت (پرستر جون) وضايقته. كذلك لا يخلو الموقع من الزائرين الآنكليز الذين هم اعضاء بعثة رئيس الاساقفة الى الاثوريين[2]. غير انهم مع الاسف الشديد لا يملكون شبيها لذلك القرن السحري ليطردوا به جن ايامنا هذه.

واذا كانت قوى السحر والجان قد عفت عنها الايام فان لاسم الآنكليز بعض التقدير في القرى التي يسكنونها وهي آمنة من الغزوات والآنتهاكات لئلا يحيق بالغزاة واللصوص اذى سماوي في حين تهتك حرمات الاخريات. ومرة قضى المؤلف ليلة في ضيافة قرية نسطورية تدعى «شواووثا» تقع ضمن هذه المنطقة بالذات وتظهر كنيستها الصغيرة المبنية بالحجر في احد رسومنا. فاستيقظ في الليل على ضجة «هولندية» من اخر طراز. الرجال يتصايحون والنسوة يعولن والماشية تخور والغنم تثغو. في حين دلت طلقة بندقية او طلقتان على شيء

---

[1] Ariosto (١٤٧٤-١٥٣٣) شاعر ايطالي من شعراء الرينيسانس، والمؤلفان على الارجح يقصدان هنا اثره الادبي الموسوم «رولاند الشديد» (المترجم).

[2] انظر المقدمة.

يشبه المعركة، ثم اقبل بعض الرجال على المؤلف لينبئه ان غزاة من الكرد قد اقتحموا القرية وهم الآن يقلبون عاليها سافلها. وكان هذا الواقع، فقد خرج وهو مضطرب الهندام بعض الشيء ليجد نفسه وسط عدد من المغيرين المسلحين يناهزون الخمسة والعشرين، اغلبهم تجمع في البيادر يهددون القرويين ببندقياتهم، بينما راح الاخرون يجمعون الاغنام بكل برود تمهيدا لسوقها امامهم. فبادر المؤلفُ زعيمهم الكلام مقدما نفسه بدقة وتفصيل كاشفا عن جنسيته الانكليزية واخذ يشير صراحة الى انه سيترك القرية فورا الى حاضرة الولاية لمقابلة الوالي والقنصل البريطاني، فاستمهلني لحظة واحدة، واصدر امرا باللغة الكردية لم يفهمه المؤلف، وكانت نتيجته ان ترك رجاله الغنم في حظائرها، ثم استدار نحوي وقال بأدب جم: انه وفتيانه هؤلاء جاءوا مسالمين وهم يرغبون في ان يحلوا ضيوفا على القرية بقية الليلة. فهل يتفضل الافندي (يقصدني) فيتوسط لهم عند رئيس القرية لعله يتكرم عليهم بالمبيت؟ متجاهلا بلباقة حقيقة انك لا تحتل قرية بقوة السلاح في الساعة الثانية بعد نصف الليل تمهيدا لطلب الضيافة فيها.

واشار «الافندي» على الرئيس ان يدع الامور تبدو هكذا لئلا يصيبه اسوء مما جرى. ولانه بطبيعة الحال لا يملك وسيلة لكبح جماح المتقحّمين ان هاج هائجهم، فأعد لهم عشاء سريعا وجلس مع رئيسهم حتى انصرمت ساعات الليل او الفجر الاثمة ان شئت التدقيق، وتنفس الرئيس الصعداء عندما رأى المغيرين يجلون عن القرية عند انبلاج الصبح دون ان يلحق ضرر بالقرية. وستكون القصة مختلفة طبعا لو لم يتفق وجود الانكليزي في تلك الليلة.

قرية «قدشانس» مقر البطريرك النسطوري الاثوري مارشمعون ومركزه الديني، وتقع في موضع طبيعي رائع فوق قمة منبسطة اشبه بمرعى معشوشب وعر بين قمتي جبلين يبرزان من سلاسل شامخة مغطاة بالثلوج الى غربها. هذان الجبلان يتطامنان تدريجا حتى يصلا الى واديين عميقين يحيطان بهضبة على شكل لسان تربض فيه القرية. ثم يلتقيان تحت رأس لسان عند قاعدة اسفين صخري شاهق الارتفاع، يؤلفان نهيرا واحدا تصب فيه روافد اخرى اثناء جريانه حتى يصب ماءه في الزاب بعد مسيرة ساعتين من القرية. وتقول الاساطير النسطورية ان نهر الزاب هو «بيسون» احد انهار الجنة الاربعة. ويُعَنون البطريرك رسائله الرسمية احيانا بعبارة «من قلايتنا على نهر جنة عدن».

و«الكنيسة الشرقية» هو الاسم الرسمي للبيعة التي يسكن حبر احبارها في هذه البقعة الرومانتية الساحرة الصعبة الوصول. هذا اللقب اسنده لها بالاصل اولئك الذين نسميهم «مسيحي الشرق» اي نصارى القسطنطينية وانطاكية، ليميزوا به كنيستهم عن الكنيسة التي تليهم شرقا اي مما يلي الامبراطورية الرومانية، وهي مملكة الساسانيين الفرس.

حققت «كنيسة الشرق» انتشارا واسعا في فترة بلغت بها اوج عظمتها وغزت تلك البلاد التي يصعب جدا على المسيحية اليوم ان تضع قدما واحدة فيها. كان اساقفتها في العام

١٣ منتشرين في رقعة تمتد بين دمشق وبكين وبين بلاد التتر وساحل ملبار بالهند. ومع ان «السريان» في هذا الاقليم الاخير ينتسبون الآن الى مذهب اخر. فانهم ينهضون شاهدا على بعثات اسلافهم التبشيرية المتحمسة في ابان القرن الخامس، وان النصب الاثري في «سنگان» بقلب الصين يثبت وصول هذا الدين «الوديع الفلسفي الممتاز» الى هناك، محييا ذكرى عدد كبير من الكهنة والاساقفة باسمائهم. ولنا ان نقول ان (پرسترجون) الشخصية التاريخية الاكيدة (وهو ما يدعو الى الدهشة) كان احد رجال هذه الكنيسة. فهناك سلالة من ملوك التتر في القرن الحادي عشر كانت تدين بالنصرانية، عرف مؤسسها باسم «آنگخان» الذي انقلب الى «يوخنان» ويوخنان باللغة السريانية هو (جون) باللغة الآنكليزية. ونميل كثيرا الى الزعم بانه كان كاهنا مرسوما.

كان من اثر الاضطهاد والمذابح ولا سيما مذابح تيمورلنگ الهائلة في حدود العام ١٤٠٠، ومن آثار مجهودات تبشير المذاهب الاخرى التي امتازت بمزيد من الثقافة والحماية، ان تقلصت هذه الكنيسة واقتصرت على عدد من القبائل الجبلية المتخلفة حضاريا تسكن في اوعر منطقة من الارض. وعلى قرى مبعثرة يسكنها (الرعايا) الاقنان الذين يعملون لاغوات من الكرد المجاورين لهم. الا ان هذا المذهب ظل يحافظ على استقلاله وطقوسه العتيقة. واتباعه مازال يتخاطب في حياته اليومية بلغة «سيدنا المسيح» ايام كان على هذه الارض، وقد يساورنا بعض الشك في ان اللغة الدراجة هنا ليست باللغة المفهومة في فلسطين خلال القرن الاول الميلادي. وعلى العموم فان قولنا هذا صائب، واللغة الاثورية الحالية هي بلا شبهة لهجة من لهجات اللغة الارامية التي اشرنا اليها.

ولما كانت هذه الكنيسة قد حرصت على كل القديم الذي امحت آثاره فلا غرابة انها جمعت من بين كنائس العالم كله السلطة الدنيوية الى السلطة الكنسية وابقتها حية وانها والحق يقال اكثر قليلا من ظل خفيف او شبح باهت لكنها لم تمت و(مار شمعون) يبسط سلطانه على (قدشانس) وكل الاراضي التي تحيط بها بفرمان من السلطان وكل ساكن فيها يعيش هانئا ناعم البال لا يقلقه دفع اجر أو ضريبة او رسم لاية جهة كانت.. الى وقت قريب. فقد كانت هبة السلطان لسوء الحظ هبة شفوية صدرت منه في الايام الخوالي حين لم تجر العادة ان تطلب من سلطانك توقيع اوراق معينة خشية ان يلعب معك لعبة «اليهودي»[3]. ويسحب كلمته المقطوعة لك. وحين كانت شهادة ذوي اللحى البيض موقعيا تكفي لاثبات الواقعة ولقد ولى ذلك العهد وحل محله الآن نظام حكم جديد يستخدم الاستمارات والاقلام والحبر والكاغد ويتقيد بالشكليات، هذا النظام السياسي الجديد لا يعترف بالحقوق القديمة. وقل العفاء على تقليد لطيف لا ضرر منه وشَيّعْه الى حيث لا عودة فقد نزع من اصحابه لمصلَحة التمدن وصودر توخيا للتناسق والانسجام العام. نزعه وصادره اولئك الذين كانوا شديدي الرغبة في

[3] نرجع ان المقصود هو شيلوك بطل مسرحية «تاجر البندقية» لشاكسبير (المترجم).

الاعتياض عن الاسوار الرومانية التي تحيط بالقسطنطينية بشارع باريسي عريض لعين السبب الذي اسلفناه.

بقي مظهر اخر من مظاهر الحقوق القديمة عند هذه الكنيسة، الى جانب الطاؤوس طير الملوك الذي تراه يخطر متباهيا في الشرفة البطريركية[4] هو قيام قبائل حكاري المسيحية البربرية بتأدية الخراج السلطاني عن طريق البطريرك. وإنه لخراجُ لا ضرائب تدفعها كالاخرى الى محصل ضرائب. ويتم ذلك في بلاد لاتستطيع اية حكومة الادعاء بالوصول اليها. ان دفع الخراج ايضا يستند الى العادة والتقليد فحسب، وليس لتلك القبائل وثائق او مستندات مكتوبة تؤيد هذا الامتياز اذا ما نوزعوا في شأنها (ولن يطول الامر بذلك). هذه العادة نشأت بسبب عجز الحكومة العثمانية او عدم رغبتها في تثبيت سلطانها تثبيتا فعليا في هذه المناطق البدوية، اذ وجدت من الاجدى لها ان تمنح البطريرك امتيازات والقابا وراتبا صغيرا. وان تنيط به واجب تحصيل هذه «الخراج» نظرا للاحترام الذي يكنه له شعبه ولمقدرته على ذلك ازاء عجز الحكومة عنه وهو اعتراف اسمي بالسلطة يمكن ان يقوى عند سنوح الفرصة.

ان الغربيين الذين اعتادوا عملية تصحيح الاوضاع الغربية فيما يتعلق بادارة الكنيسة والدولة، ليدركهم الفزع والاستنكار عندما يعلمون ان منصب الحبر الاعظم (البطريرك) في هذه الكنيسة العتيقة هو منصب وراثي ينحصر في اسرة واحدة، كذلك الامر في كل المناصب الاسقفية الاخرى، ولما كان الاساقفة لا يتزوجون فالمنصب ينتقل من عم الى ابن اخ وهكذا يبقى منحصرا في الاسرة. هذا مع العلم ان القساوسة ورجال الدين الآخرين احرار في الزواج كما يشاؤون.

انها لعادة غريبة جدا. ومع ذلك فقد وُجدت وطبقت في جزء واحد من اوروبا على الاقل الى وقت ليس ببعيد. فقبل نصف قرن كان هذا العرف نفسه يسود بلاد الجبل الاسود (مونتنيگرو). ونعتقد ان (نيقولا) والد الملك الحالي اول ملك منهم رفض ان يسام اسقفا وامتنع عن البقاء في حياة العزوبة عند نصبه شيخا (ملكا) على الجبل الاسود مع ان اسلافه جميعا ساروا على هذا التقليد فسيموا اساقفة وبقوا عزابا. فان كانت هذه العادة قد بقيت في اوروبا الى هذا التاريخ فلا غرابة ان تبقى سائدة في ظرف ومكان مشابهين ولا حاجة ثم تدعو الى الدهشة الكبيرة.

وحقيقة الامر هي ان المنصب البطريركي عند المسيحيين الذين ما زالوا في مرحلة التطور القبلي البدائي هو بدرجة من الاهمية في القبيلة بحيث لا يمكنهم ان يخرجوه من بيت الرئيس. زد على ذلك ان فكرة وراثة الكاهن الاعلى. او قدسية الاسرة فكرتان تأتلفان تماما مع عقلية

---

[4] كان غبطته الى ما قبل فترة وجيزة يحتفظ بمضحك بلاط يدعى (شليمون) وقد وافاه الاجل منذ سنوات، وهو ماكر مسل. الا ان خفة روحه كانت تبدو احيانا مفرطة ومتجاوزة الحد.

الشرق. فالمشيخة عند الكرد (وهي رآسة دينية موروثة) امر جرى عليه التقليد، والكهانة «الهارونية»[5] العليا هي على الاقل سابقة محترمة يمكن الاستشهاد بها وربما كان تفسير البطريرك نفسه للمؤلف يعطي المبررات الوجيهة لتلك العادة، قال البطريرك:

- نحن نعلم بطبيعة الحال عن نظام (ناطر كرسيّه اي حارس الكرسي وهو الاسم السرياني للتقليد) هو نظام مخالف تماما لقوانيننا المسيحية الاولى ولما جرى عليه التطبيق العملي القديم. ولعلك قد تشير علي وانت العليم بشعبنا والظروف التي تكتنفه بايّ طريق اخر نسلكه؟ أإنتخاب حر تشارك فيه القبائل البدوية؟ ان هذا معناه قتال حر نشارك فيه جميعا في كل فرصة، ام ستقترح قيام الحكومة بنصب البطريرك؟ وفي هذه الحالة سنكون سعيدي الحظ لو فزنا براهب ضعيف طاعن السن. لا يؤذي احدا لكنه لا ينفع احدا بشيء. وعلى اغلب الاحتمال ستنصب الحكومة وغدا محتالا سعى وراء منصبه لقاء اجر عن خدمة قذرة قام بها للوالي التركي. كل هذا حتم علينا اللجوء الى النظام الوراثي ونعتقد ان فرصتنا في بطريرك صالح لا تقل عن فرصة الآخرين في ملك صالح.

(الحق يقال كان تعليلا مسكتا لم يجد المؤلف حجة يقرعه بها. لذلك فقد شعر بالامتنان لان غبطته لم يتح له مجالا للتعقيب بل واصل الحديث)

فقال مستطردا:

- وتعلم ايضا ان الطريقة مهما كانت غير اصولية ومخالفة للقانون الكنسي فلا يمكن اكثر ان تكون اكثر من عملية تعيين رئيس وزراء. لقد طبقتم هذا التقليد لثبوت جدواه وصلاحه وهكذا فعلنا.

من آثار وراثة المنصب البطريركي انه قد يرتقي الكرسي فتى او صبي في كثير من الاحيان، وعمر البطريرك الحالي ثلاثة وعشرون عاما فهو ناضج، فاذا علمت انه يقضي اليوم السنة التاسعة من حكمه، فمن الصعب جدا ان يتوقع المرء انه كان يأخذ منصب رئيس الاساقفة مأخذا جديا في صباه مع ان النضوج في الشرق يأتي المرء سريعا، الا انه يشعر بمسؤولية كاملة عن شعبه. ويدرك ادراكا جديا بأنه المرجع الاخير الذي يحق للجميع ان يقصدوه وقت الحاجة، وانه الشخص الذي تجب عليه مساعدتهم بحدود سلطانه. وقد رسم شاعر من هذه البلاد منذ عصور سحيقة صورة شعرية لما يجب ان يتحلى به الملك الصالح فقال:

«انه يصون ارواح المساكين،

«ويجير الفقراء عندما يستغيثون به،

«ويعتبر دماءهم غالية في عينه.

---

[5] نسبة الى هارون اخ موسى الكليم اذ جمع بيته بين وظيفتي الكهانة والحكم في بني اسرائيل ردحا من الزمن على ما جاء في التوراة (المترجم).

وتلك هي الملوكية المنشودة والصالحة للبلاد الآن. وهذا الفتى (ونقولها اكبارا له ولمؤهلاته) حاول باخلاص ان ينهض بهذه الاعباء، وكان من السهل عليه ان يعيش هو وآله في بحبوحة اذا شاء ان يدع امور شعبه حبلها على غاربها، فلم يفعل الا بعكس ذلك واندفع بحماسة مضحيا بالراحة والرفاه. وكثيرا ما وقع في مآزق في سبيل محاولاته حماية «القطيع الذي استأمنه الله عليه» إمّا من شيوخ الكرد، وإما من الاضطهاد الذي يفوقه بشاعة الا وهو اضطهاد صغار موظفي العثمانيين لهم. ان الحاكم الشرقي الذي يحكم لمصلحة شعبه هو ظاهرة نادرة، وشخصية بلغت منتهى السمو والرفعة.

اليك مثلا او اثنين من الاعمال التي وجب على هذا الشاب ان ينهض بها والروح التي رافقت مجهوداته فيها لتكون لك فكرة من نوع الحياة التي يعيشها. لقد وقف المؤلف بنفسه على حادثة تتعلق بزعيم جبلي كبير. قدم الى البطريرك ومعه مرشح غير لائق للكهنوت اراده ان يرسم كاهنا. (ولم يمض على ارتقاء البطريرك منصبه الا اسابيع قليلة) فقوبل طلبه بصمت. والسكوت عن السؤال في الشرق يعني الرفض، فكرر الزعيم الطلب بالحاح فقوبل برفض هادىء فيه اصرار فقال الزعيم الذاهل:

- سيدنا! هذا الرجل هو ابن عمك ومن لحمك ودمك فكيف تأبى سيامته قسا؟

فجاءه جواب بات خال من الخوف والغطرسة

- يا «مالك» الملة كلها من ابناء عمومة البطريرك وكلهم سواء بنظره.

في مناسبة ثانية وجب ان يضطلع بعمل ذي طابع اسقفي بارز الاثر الا انه غير مألوف قط في بلاد الغرب، واعني به اجراء مصالحة وحقن دماء بين قبيلتين احداهما مسلمة والاخرى مسيحية. فقام بانجاز التمهيدات الاولى بين زعيمي القبيلتين. واخيرا تم الاتفاق ان يلتقي بمار شمعون عشرون وجيها من كل قبيلة وسط مجرى نهر معين حتى يبرم الصلح النهائي ويُسوىّ كل نقاط الخلاف في مواجهة شخصية عامة تؤخذ فيها العهود والمواثيق على الصلح من الطرفين. وكان البطريرك يعلم مسبقا بان المندوبين الاربعين سيحضرون بكامل سلاحهم، الا انه لم يتوقع ان يفعلوا مثلما يفعل «فيج ايان فوهر» اذ يأتي «رافعا ذيله». اي ان يأتي كل واحد من الاربعين مصحوبا باربعة او خمسة من الاتباع المسلحين ايضا! ومما زاد في الطين بلة ان كل جانب اختار لنفسه كمينا منيعا حتى لا يؤخذ على حين غرة من الطرف الثاني او يقع ضحية خيانة مدبرة وهذا ما لم يتبينه البطريرك في وقتها.

ان دخولك مستودع بارود دون وقاء وبيدك مشعل هو عمل بسيط جدا اذا قورن بهذا المؤتمر. وكان البطريرك قد عين لكل فريق قرية يفصل بينهما مجرى ماء واضطر الى قضاء يومه وهو يروح ويغدو بين القريتين قاطعا النهر كل مرة، لترتيب التفاصيل الاخيرة. واخيرا تم الاتفاق واصدر البطريرك امره للطرفين قائلا:

- والآن اتركوا بندقياتكم هنا في الظل واخرجوا الى المجرى وتصافحوا.

فعمل الطرفان بما امرهما. لكن لوحظ ان كل واحد منهم نزل الى المجرى ويده اليمنى على قبضة خنجره. وعندما كان يضطر الى افلات القبضة لمصافحة يد الرجل المقابل فانه يسرع الى وضع يده اليسرى عليها. ومجمل القول ان الموقف مر بسلام واجتمع الكل تحت سقف واحد الا ان الخادم الارمني الذي كان يطوف بفناجين القهوة (وهي مراسيم الضيافة الرسمية التي يجب ان يساهم فيها الجميع بالشرب) انتابته رعشة عنيفة فهوت الاقداح على الارض، ومرت لحظة شك في النفوس بين ان تؤخذ الحادثة مأخذ شؤم او تعد تمهيدا لمزحة. ويشاء حسن الحظ ان يقهقة احدهم فيقهقه الجميع وينقذ الموقف.

وفي اثناء احاديث الود التي كان الطرفان يتبادلانها والانبساط العام في ممازحة بعضهم بعضا حول حوادث الثأر الماضية ووقائعها اكتشفوا ان كل فريق جلب معه (مجنونه) المحلي الخاص للاستمتاع بنكاته في ساعات الإنتظار الثقيلة فاقترح احدهم وكان ذا روح رياضية اصيلة، ان تعمل حلقة يوضع في وسطها المجنونان ويحرضان للقتال كالديكة. وحاول مار شمعون جهده ليثنيهم عما اعتزموه لخوفه المعقول من سوء عقباها، اذ ما ان يشتبك الاثنان حتى ينحاز كل طرف الى جانب مجنونه وتعود ذكرى الثأرات وتنكا جراحها ولا يستبعد ان تختم الحفلة بمعركة دموية عنيفة. الا ان الامور اتخذت سبيلا غير منتظر، ولاحظ البطريرك بانشراح (كما لاحظ المجتمعون بخيبة امل كبيرة) ان مجنونيهما اظهرا عقلا ورصانة تفوق مار اظهروه هم، كانا قد اعطيا عصوين غليظتين وقيل لكل منهما ان المجنون الاخر شتمه وشتم اباه. فلما بدابينهما الحديث زيادة في الحماسة، استأنس احدهما بالآخر واستمتع بمجلسه الى الحدّ الذي جعلهما يقضيان سحابة يومها في حديث ودي. ولما افترقا صرحا كل لصاحبه بانه اعقل واطيب معشرا من اي شخص لقيه في حياته.

ويعاون (مار شمعون) في كل اعماله الدنيوية والدينية شخصان لا غير، احدهما ما زال في رفقته وهو شقيقته «سرما». ان السيدة «سرما» سليلة بيت مار شمعون، امرأة عالية الثقافة راجعة العقل، حسنة التعليم للغاية (تتكلم الانكليزية بطلاقة وتقرأ لمشاهير الكتاب الانكليز من امثال «سگوت، وستفنسن، وس. م يونگ. كما تقف على اللاهوت الآنكليكاني) ومع ذلك فقد احتفظت بطابعها الشرقي البحت وظلت متمسكة بشعائر مذهبها تمسكا تاما حتى اعتبرت من الثقات والمراجع في كل الطقوس والصلوات[6] وكانت اخلص الناصحين لاخيها البطريرك الذي تكبره بسنتين في كل شؤون واعباء منصبه. وهي راهبة ناذرة (ربانة) الا ان نذرها لا يتطلب منها حياة العزلة في الدير، فالرهبنة في هذه الربوع قد اتخذت شكلا غريبا

---

[6] اصبح معلوما ان القس كان يقف وهو في نصف القداس ليسألها، هل يمضي في عمله؟ انهم شعب ساذج والطقس الكنسي عندهم معقد للغاية.

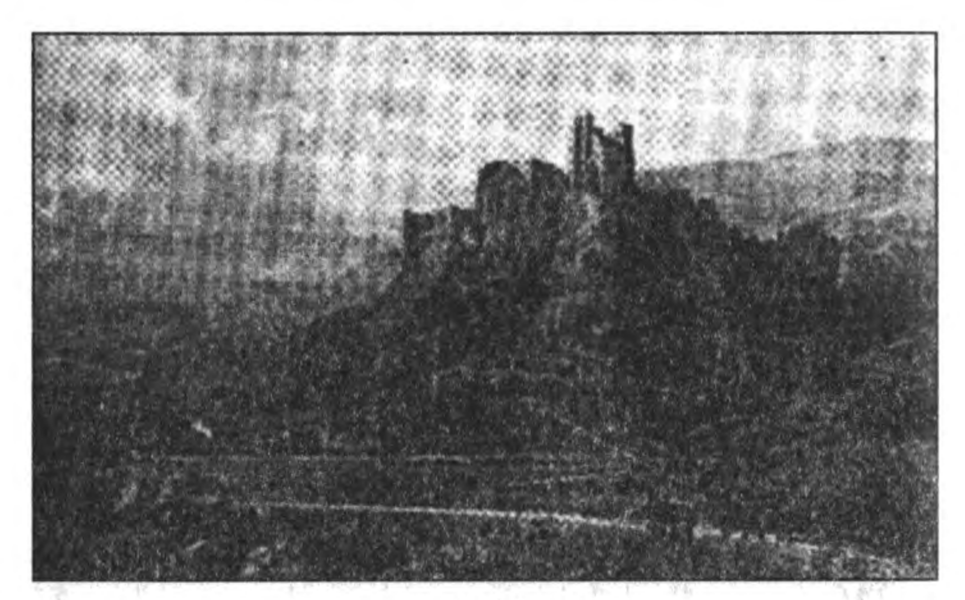
وادي الهركي

الجبل في رأس الوادي هو متن جبل سات. الحقول المدرجة العائدة للقرية الجبلية تبدو

في الزاوية الدنيا من الصورة



رواق في سوق اورمية (رضائية)



خوشاب قله

صخرة الحصن في وان



مضيق اشتازين - جيلو



جبال التخوما والجيلو

من قمة الممر «المدرج» فوق العمادية مباشرة. الجبل في الوسط هو قره داغ الى جنوب التخوما الى اليسار كلياشين القمة العظمى جيلو. وجبل سات يبدو في ابعد الصورة الى اليمين. والسلسلة في الوسط ترتفع من مضيق الزاب



وقفة للبيتوتة

في ملتكه - بروار. البيت هو لرئيس القرية



المدخل الى السوق - اورمية

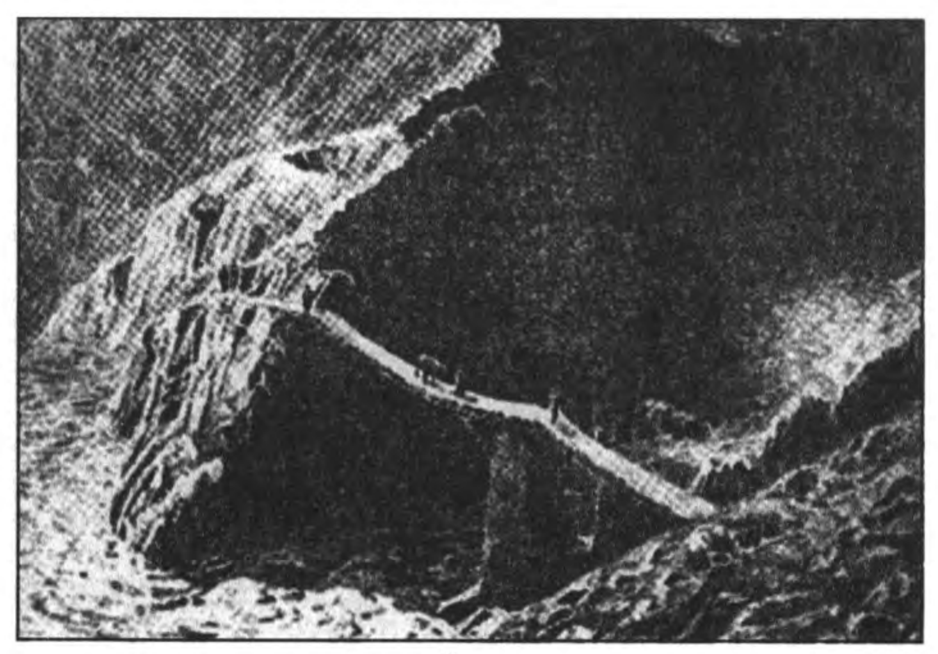


صيادو الدببة في قدشانس

صورة أخذها القس باودن، سابقا من اعضاء بعثة رئيس الاساقفة



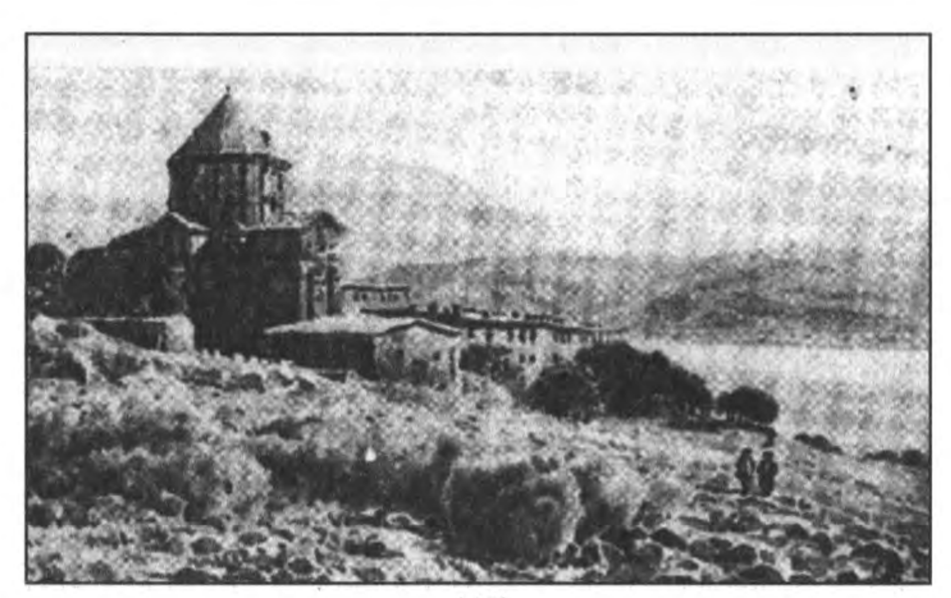
مضيق الزاب - تياري



جسر جبلي
مثال نموذجي - قرب قرية آلوت على الزاب الاسفل

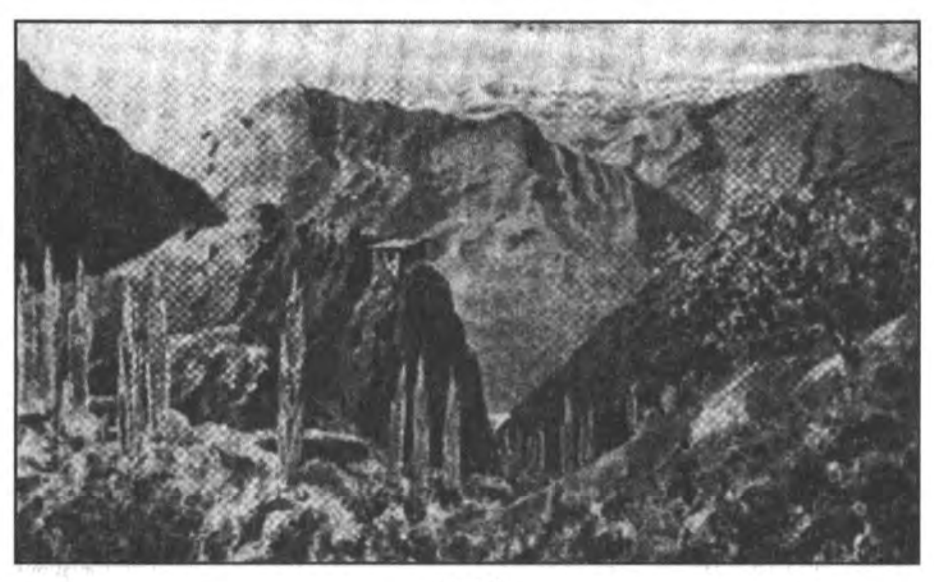


منزل ملك اسماعيل چمبه - تياري
منظر الحادثة التي ورد ذكرها في الكتاب



اختامار

دير ارمني عتيق، يقع في جزيرة ببحيرة وان



جبال قدشانس

من قرية شواووثا. وهو منظر الحادثة التي ورد ذكرها في الكتاب ويرى جزء من الزاب في اسفل الخانق ووراءه يرتفع جبل كوكوبولند. وتقع قدشانس تحت خط الثلج مباشرة على رأس الوادي التالي المقابل

الطريق الى قدشانس

السفح المحدودب الى اليسار يولف ابهام قدمة هضبة قدشانس

كنيسة مار شليطا

يختلف عن الرهبنة المعروفة. ان الديارات ومناسك الراهبات قد بادت كلها فعلا وان ظلت اوقافها ملكا للكنيسة. لكن الرهبان (الربانين) الراهبات (ربانات) ما يزالون اولئك الذين يلبون «الدعوة الى الحياة الدينية البحتة» وهم في منازلهم بين اهلهم وذويهم، على انهم لا يتزوجون ولا يقربون اللحم ويوقفون انفسهم على اعمال البر وخدمة الكنيسة ويعيشون على ما تكسبه ايديهم من عمل، ولا يتبعون نظاما رهبانيا (اخوية) خاصا خلاف ما ذكرناه. واذا تزوجوا فهم يتخلّون عن مطلب سامٍ ليس الا ولا يحنثون بيمين حاسمة قطعوها على انفسهم. اذن فحياتهم هي اشبه بما كان يسمى «حياة التبتل» في اوائل عهود النصرانية قبل ان يتم وضع قوانين الرهبنة. وكل هذا اتى دون قصد او علم من اتباعها الحاليين. واقرب شكل لرهبانيتهم هذه، حياة النساك في افريقيا المسيحية خلال القرن الثالث[7]

ومار شمعون هو «ربان» بحكم منصبه الاسقفي لهذا لا يأكل لحما، وهذا لا يخلق مشكلة في (قدشانس) حيث يستحسن ان يوصى الزائر باتباع القاعدة نفسها حرصا على صحته. فاللحم من المواد التي صعب الحصول عليها، ومن النادران تجد لحما غريضا طيبا[8] وقد ادى تعاقب الاجيال عليها الى استنباط عدد كبير من اصناف الطعام النباتية اللذيذة، وهذا طبعا مقصور على السماط البطريركي الخاص، لا على مائدته العامة الاعتيادية!

اما مستشار البطريرك الثاني فهو رجل انكليزي ذو شمائل واخلاق فريدة وشخصية فذة حقا، انه المرحوم الدكتور وليام براون Dr,William Browne عضو بعثة رئيس اساقفة كانتربري، الذي سلخ خمسة وعشرين عاما من حياته في هذه القرية البعيدة صديقا ومستشارا لهذه لكنيسة ولبطريركين لها متعاقبين. اوقف نفسه بتجرد واخلاص تامين على رعاية البيعة النسطورية واحبارها واقام من نفسه تلك معلما وطبيبا، وفي بعض الاحيان زاجرا مقوما، بروح زاهد من زهاد القرن الخامس شاءت الصدف ان يولد في انكلترا القرن التاسع عشر، عاش كما يعيشون ومات وهو الآن يرقد في وسطهم. وضاعت بموته الفجائي في العام ١٩١٠ ذكريات عديدة لحياة اشبه برواية متعددة الجوانب والالوان، حياة من اعظم الحيوات الحديثة. وهناك حادثة او اثنتين تستحقان الذكر كان الدكتور الراحل قد قصهما على المؤلف، تلقيان

---

[7] انظر بنسون Benson في كتابه «الكيرياني» ص ٥١-٥٧. ان الفضائح التي اوردها لا وجود لها في الكنيسة النسطورية.

[8] هذه النصيحة قد تفيد الرحالة الى القرى التي تلي قدشانس. اذ يكاد الخبز يكون الشيء الوحيد الذي يمكن الحصول عليه. اما اكلات الترف الوحيدة فهي الزبد (اللبن) والعسل، مثلما كانت في ايام اشعيا النبي. وقد يوجد البيض احيانا. وخير للاوروبي المترف الذي يغرم باللحم ان يحمل معه علبا منه. فالحياة في الجبال شاقة لا تسمح الا باقل الضرورات. وذبح شاة لمأدبة من المآدب هو بذخ لا يحدث الا في مناسبات تفوق العادة.

ضوءً على الاوضاع التي كان يعيش فيها وعلى شخصيته بالذات.

في شهري كانون الثاني وشباط من العام ١٩٠ بدأت الأنباء تتسرب عن وقعة «الاسبوع الاسود»[9] في جنوب افريقيا وتدب ببطء الى نجاد كردستان ووهادها، وكان (مستر براون) في غرفته بقرية (قدشانس) عندما ابلغ بقدوم شماسين من شماسة الكنيسة لزيارته كانا صديقين حميمين له، فدخلا عليه وهما شاكيا السلاح متهيئان لرحلة طويلة فابتدرهما دهشا بقوله:

- السلام عليكما يا شماسان، يخيل لي انكما تنويان السفر في هذا الموسم.

فردا عليه بقولهما:

- وعليك افضل السلام يا رابي، هل يمكنك ان ترشدنا الى الطريق المؤدية الى جنوب افريقيا؟

- افريقيا الجنوبية؟ ما الذي يدعوكما الى الذهاب هناك بالله؟

- تعلم يا رابي باننا مدينون لكم ايها الأنكليز بالشيء الكثير. ومما بلغنا من انباء تبين لنا لا تعرفون كيف تحاربون من وراء الصخور. ونحن اهل حكاري ان كنا نتقن شيئا فهو هذا الشكل من الحروب، لذلك هدانا فكرنا الى الذهاب هناك لمساعدتكم.

لا شك ان الشماسين سيكونان نجدة من اعجب النجدات للورد روبرتس Lord Roberts لكن ظهر اثناء تبادل الراي حول القضية. انه لا يمكن الوصول الى افريقيا الجنوبية دون عبور المحيط. وهو عمل اخطر بكثير من القتال في (حرب البوير) بالغ ما بلغ عددهم، وهكذا عاد المتطوعان الى منزليهما خائبين.

ومما هو جدير بالذكر ان دَيْن انكلترا الذي اشارا اليه، هو اساسا خدمة قدمها لقومهما السفير «ستراتفوردكانگ Stratford Canning» في العام ١٨٤٧ بأصراره على اعادة اطفالهم الذين سباهم (بدر خان بگ) امير (بوتان) بتحريض من الترك اثناء القيام بمذبحة شنعاء في الجبال عامذاك. فاعيد بعض من جزم اهلهم بموتهم (جيء ببعضهم من حلب وازمير). وهذا ما خلف انطباعا عميقا في نفوسهم ومشاعر امتنان لم يعف عنها الزمن منذ ذلك الحين.

وبطل قصة (براون) الثانية هو (قاشا) فاضل طاعن في السن عرف باسم (قاشا توما) ذاع صيته في احكام الاصابة بالبندقية فطغى على صيته في التقى والتدين، اقبل لزيارة (مستر

---

[9] احدى وقعات حرب البوير في جنوب افريقيا فيها عقد النصر للمستوطنين وكبدوا الجيش الأنكليزي بقيادة اللورد روبرتس خسائر جسيمة (المترجم).

براون) واخذ يؤكد له مبلغ حبه بالإنكليز ثم سأله عما يتمناه ليحققه له. فأجابه الإنكليزي:

- بالتأكيد يا قاشا، لي امنية اريد منك تحقيقها، اجمع صبيان قريتك وافتح لهم مدرسة وسازودك بالكتب الكافية.

- لا يا رابي فهذا العمل فوق طاقتي. فأقصى ما يمكنني هو قراءة الصلوات. لكن ان كان يوجد شخص تريد التخلص منه وتحب ان ارديه لك برصاصة فيسرني القيام بالعمل!

تعود (مار شمعون) ان يسلك في تفكيره سلوك زعيم قوم اكثر من سلوك بطريرك لكنيسة. وان شئت الدقة فهو في اعماق ضميره لا يفصل بين هذين المنصبين. على ان ناحية البطركية فيه تجتذب خيال الاجانب. فهو بطريرك اطرف واعجب بيعة في العالم، وسنحاول في السطور التالية تقديم صورة لكاتدرائيته الخاصة في (قدشانس) الشبيهة بمعظم هياكل العبادة في الجبال، فهي في منتهى الصغر اشبه ببرج مراقبة حدود منها بالكنيسة المعتادة[10] ان الشرقيين لا يميلون او يهتمون بوضع المقاعد في الكنيسة، وهم اما يقفون او يركعون طوال الصلاة. وفي اثناء المواعظ والوصايا يجلسون على الارض. لذلك فمهما كان المصلى صغيرا فهو يتسع لعدد كبير من المصلين. وكنيسة (مارشليطا) في قدشانس مربعة الشكل طول ضلعها لا يزيد عن ثلاثين قدما، وقد شاهدنا جمعا يناهز الاربعمائة فيها دونما اكتظاظ يزيد عما هو ضروري لاشاعة الدفء في الاجسام قبل بدء نهار شتاء كردستاني. ونذكر بالمناسبة ان قداس عيد الميلاد قد ارجيء مرة واحدة فقط لحين بزوغ الشمس بسبب هبوب اعصار ثلجي عنيف من النوع الذي يطلق عليه التعبير البليغ «الظلام الابيض!» وتعذر معه ان يتلمس اي شخص سبيله خلال الباردات المائتين التي تفصل البيعة عن القرية.

البيعة من الداخل مقسمة الى مصلى ومذبح، والاخير مفصول عن الاول بجدار قوي يرتفع عن مستوى المصلى بثلاث درجات. ويوجد خارج باب المذبح نضدان مبنيان بالحجر والجص لوضع الكتب المقدسة والصليب الذي يقوم بلثمه كل داخل وغاية ما تجده فيها من الزخرف هي الستائر والنذور، وهذه على الاغلب باقات من اعشاب عطرية تتدلى من عوارض خشبية. والنساطرة يفوقون «الإنجيليين»[11] في تزمتهم بخصوص الزخارف. فهم لا يسمحون بالصور ولا بالايقونات ويحرمون ادخالها البيع. حتى الزجاج الملون فهو يثير استنكارا عندهم ان كان

---

[10] تستخدم البيع بمثابة ملاجيء للنساء والاطفال كلما هوجمت القرية. لذلك كانت الاحتياطات تتخذ عند بنائها لتكون صالحة للاستتار، في احيان كثيرة يختار لها مواقع منيعة. مثل بيعة (شواووثه) الصغيرة التي تظهر في صورنا.

[11] يقصد به التحالف الأنجيلي الذي تم في العام ١٨٤٦بلندن بين جميع الكنائس والمعاهد المسيحية بعد عقد مؤتمر للزعماء المسيحيين هناك. وقد اتفق فيه على تسع نقاط مما طرح(المترجم).

فيه صورة او تمثال. وتلك ردة فعل مبعثها تحاشي سماع اي لوم او اتهام بالشِّرْك (أي عبادة الصور) قد يأتيهم من اخوانهم الكرد المسلمين[12]

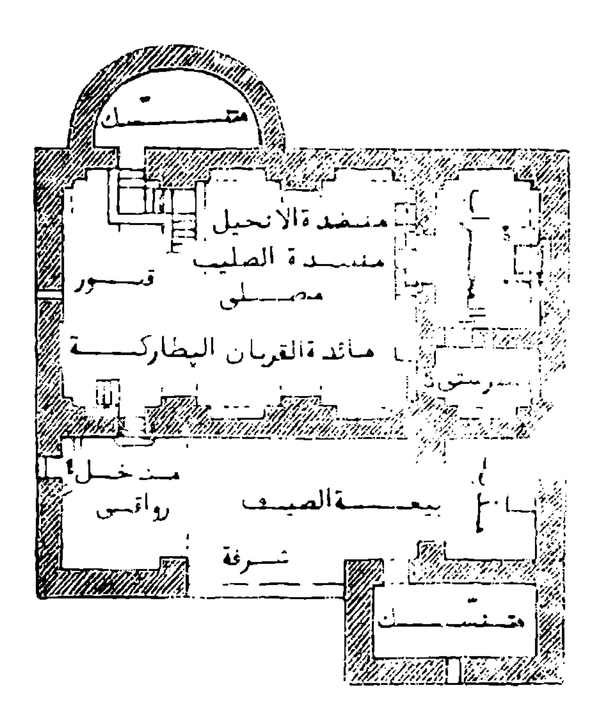
ان صلوات خدمة القداس النسطورية هي اقدم ما يطبق في كل بلاد المسيحية على الاطلاق. فالمراسيم تقام تماما كما كانت تقام في السنة ٤٥م والروايات التاريخية تبتعد به الى زمن اقدم من هذا. وعلى كل فمن الطبيعي ان يكون ثم بعض «التسيب» في بلاد لا تعثر على نصوص طقوسها وصلواتها الا في مخطوطات نادرة ولم تطبع طائفة منها الا مؤخرا. هناك في الواقع، صلوات معينة يسمح لكل شخص فيها ان يجلب (ميمره) الذي هو من نظمه وتأليفه ليرتله في الكنيسة.

وقداس (الاوخارستيا) المسائي (الاسم السرياني لهذا الطقس: قربانه) هو من السهرانات المعتادة في الاعياد الكبيرة، ويقام هنا بشكل قد يوحي بموافقة مذهبية مفيدة على النقطة التي حام الخلاف حولها بين فرقتي الكنيسة الأنكليكانية العليا والسفلى. فكل الذين يقبلون على مراسيم الصلاة الغروبية في الكنيسة النسطورية يأتون وهم صيام، مذهب عتيق كهذا المذهب المنعزل تماما لابد وان يشوبه بعض العقائد والمراسيم الغريبة الخاصة. فضلا عن تلك الطقوس التي تختلف عن المتبع في كل بلاد المسيحية، فكل نسطوري يعلق اهمية كبيرة جدا على مايعرف بينهم بـ «استمرار الخمير» وهم كغيرهم من النصارى يقيمون (الاوخارستيا) بالخبز الخمير[13] ويحفظ مقدار معلوم منه بعد كل «قُرْبانَه» لغرض واحد لا غير وهو لتخمير

---

[12] ويتصل بالبيعة صومعتان خصصتا للنساك. وقد اشغل احداهما ناسك تقي مهيب الطلعة يدعى (ربان يونان) طوال قرن. ولكل ناذر ان يسكن فيها ان شاء.

[13] يجدر بنا ان نذيل البحث بحاشية زيادة في الايضاح، ولفائدة الليتورجيين (رجال الدين المختصين بصلوات القداس) هناك نوعان من الخميرة يوضعان في العجين ويطلق عليها اسم (ملكه: ملك وهو اللقب الذي يخلعه الاسبان على جسد الرب (هو جسد الملك) وتوخذ خميرة من هاتين الخميرتين من الرغيف المعد لاخر القداديس قبل تكريسها وتحفظ للغرض نفسه. اما الخميرة الثانية فهي عبارة عن ملء صاع من الدقيق او من خبز القمح المطحون الى دقيق يتم حفظه في وعاء خاص ويوضع على المذبح. والرواية المتعلقة بهذا التقليد تقول. عندما وزع السيد المسيح الخبز والخمر على تلاميذه في أول «قربانه» في علّية صهيون. أعطى للقديس يوحنا نصيباً مضاعفاً. فأكل القديس نصف ما عطاه من الخبز وأحتفظ بالباقي ثم أنه غمسه في دم المسيح الذي سال عند صلبه في (قلفاري)، ثم قسمه بعد القيامة الى اثنى عشر جزء وأعطى لكل تلميذ جزء من هذه الأجزاء عندما خرجوا ليبشروا. فعملية خلط أجزاء منه بالعجين المكرس في كل اوخارستيا (اي قداس) من شأنها ان يربط الخبز المستعمل بالخبز الذي استخدم اول مرة في تأريخ المسيحية. ويقولون أن هذا (الملْكَه) هو ضروري اما بمزجه الخبز المطحون المأخوذ من (القربانه) أو بخلطه مع دقيق القمح المطحون (لم يكن الشارح واضحاً عند شرحه لنا هذه النقطة) والمأثور انه يحوي دقائق من الخبز الاول، أو أنه كان ذا صلة به على الأقل.



قدشانس: بيعة مار شليطا

العجين الذي سيخبز القداس التالي، لا لتناوله ولا لاجل العبادة، وعملية خبز القربان كما هو عادة عند الشرقيين يقوم بها الكاهن نفسه داخل الكنيسة في موضع خاص قريب من المذبح، فما يلبث العجين المخمر المدخر الممزوج به ان يخمره ويجعله بحالة «الاتصال» مع الفضلة التي استعملت في كل القداديس السابقة التي تتسلسل حتى تتصل باول تقدمة مسيحية وهي «العشاء السري في علية اورشليم». هذا الافتراض لا يمكن اثباته ولا انكاره من الناحية التاريخية، اما العملية نفسها فنرى انها مما لا يمكن الاعتراض عليه من الناحية الدينية على اقل تقدير، في حين ليس ثم من يحسدهم على ملكيتهم هذه.

ان حياة «قدشانس» الحقة تدور حول «ديواخانة» البطريرك. ففي هذا الاجتماع الوقور الذي ينعقد يوميا بعد الظهر، يحضر من يريد ولكل حاضر ان يتحدث علانية في اية قضية يرغب بحثها، وتوزع هناك لفائف التبغ وتدار فناجين القهوة. وليس ثم اجتماع يفضل هذا الاجتماع في روعته وطرافته. فمعظم الحاضرين جبليون يبدو لك وكأنهم نزلوا توا من المنحوتات الآشورية بسراويلهم الكردية الفضفاضة وسترهم الضيقة من الصنع المحلي، واحزمتهم العريضة جدا الملفوفة حول خواصرهم عدة لفات وقلانس اللباد التي كانت غطاء رؤوسهم منذ عهد بعيد لايمكن تحديده. وخلف هذه القلانس تنوس جدائل شعرهم وتلك هي طريقتهم التقليدية في تصفيفه مسترسلا . ويبرز بين هذا الجمع اسقف او كاهن كالسيف المهنّد بثيابه السوداء من

خلال هذا المزيج المتعدد الالوان من الثياب لرجال قبيلتي (التخوما والتياري) ويلفت نظرك وجه البطريرك الفتي ذي الو سامة العجيبة (الجمال والوسامة هي من صفات الرجال الموروثة في اسرة مار شمعون) بؤرة تشرئب اليها الابصار. كان لسوء الحظ قد حاد عن تقليد زي آبائه وارتدى ثيابا شبه اوروبية نادرا ما انسجمت مع مظهره الشرقي.

وينتظر من كل زائر لقدشانس ان يحضر هذا الاجتماع ومن المسلم به ان تخلفه عنه وهو موجود في القرية يعد خرقا للاصول وقواعد الآداب المتبعة وعملا من اعمال الخروج عن الطاعة، وبقدر ما فهم المؤلف، ان الفكرة التي تحكم على الشرقي بوجوب سماعه القداس تشبه الفكرة التي تحدوه الى حضور الديوان البطريركي هنا. وهو بمشاركته في «القربانه» كأنما يشارك في «ديواخانه» ذلك السلطان الذي لا ينوي البتة ان يشق عليه عصا الطاعة بشكل علني.

والحديث في الديوان يتناول كل ما يخطر بالبال من المواضيع وليس هناك اي تحديد. ويدور البحث حول كل عمل من الاعمال. من يكون زعيماً (مالك) للمنطقة الفلانية؟ واي قرية من القرى تحتاج الى قس؟ ماذا يقترح من شروط للاتفاق على فض نزاع حول الرعي؟ هذه المسائل قد يمكن بحثها في جلسة خاصة. لكنها هنا تفسح المجال لاقل الناس مقاما لإسماع رأيه للباقين. فان لم يكن ثم مشكلة تستوجب البحث والمناقشة، انتقل الحديث الى مواضيع اخرى، ومن المستحسن ان يتزود الانكليزي بقدر كبير من المعلومات العامة يستعين بها للرد على مختلف الاسئلة العجيبة التي توضع امام «حكمته»، فقد يسأل مثلا:

لماذا يميل فريق من الضواري الى الفتك اكثر مما يميل الفريق الاخر؟ او يطلب منه رايه في: هل ان الشهب التي تخر من كبد السماء هي السهام التي يطلقها الملائكة (الساروفيم) على الجن لما يصعد هؤلاء الى طبقة السماء الاولى لاستراق السمع؟ وفي احدى المرات طرح كاهن هرم مشكلة وهي: أتصوم الملائكة الصوم الذي قررته الكنيسة لسائر البشر؟ ونوقش الموضوع بعمق ونباهة وبروح علمية مجردة عن الاهواء، فنبذت النظرية القائلة بانهم لا يصومون لانهم لا يأكلون واجمع الكل على الازدراء بها لانها لا تقوم على اساس بوجود النص المقدس «الإنسان يأكل طعام الملائكة» فهو ما يثبت بالدليل القاطع انهم يأكلون شيئا ما! وانبرى احدهم يقول «اذن فهم يأكلون ولا يصومون». لكن هذا بدا غير معقول، فليس بين الملل المعروفة عند المجتمعين من مسلمين ومسيحيين ويهود وعبدة اصنام من لا يصوم، خلا المبشرين الامريكان! وكان ثم شعور عام بان سابقة عدم صيام هؤلاء المبشرين ليست مما يعتد به [14] وأخيراً أرسى المجتمعون على نتيجة معقولة، وهي ان الاحكام التي شرعت للمخلوقات

---

[14] الصوم هو فريضة دينية تفرض على الاثوريين فرضا ولا مناص منها. وقد عرفنا قسا رفض القيام بمراسيم الاكليل(الزفاف) التي تعتبر مراسيم دينية مقدسة طبعا، لانه وجد القريب (الاشبين) قد دخن تبغا صباح ذلك اليوم.=

الواقعة في الخطيئة (كالبشر مثلا) قد لا تطبق على المخلوقات الطاهرة التي لم تقع في الخطيئة (كالملائكة) ووقف الموضوع عند هذا الحد.

وقد يسمع المرء بين الفينة حكاية غريبة يرويها احد الزوار. ومما علق بمخيلتنا من هذا القبيل حكاية تكشف عن صلابة الكردي وشدة احتماله، كان احد الرجال الكرد يقطع ممرا في الجبال على ظهر بغله فانهار عليه سيل ثلجي وحمله معه مسافة الى الهاوية وبالروح الرياضية المرحة التي تبديها الانهيارات الثلجية احيانا، قذفت به الى طرف بعد ان كَسرت له ساقا، الا ان بغله لم يصب بسوء (مما لم يخفف من المه وانزعاجه) فقد كان في موضع غير مطروق والليل على الابواب والصقيع يتساقط ويجمد الجو والحرارة تنزل الى الصفر. ولعب الحظ احدى لعباته العجيبة قبيل الفجر فقد دفع بمستطرق اخر الى حيث سقط المصاب ولم يكن غير شقيقه بالذات! ودونك النموذج المثالي للحب الاخوي، امسك الشقيق بالبغل السليم وعاد به من حيث اتى (لئلا يسرق) تاركا اخاه في الثلج حتى الصباح، على ان المصاب شعر براحة نسبية بعد خلاصه من هذه التجربة القاسية على كل حال.

سمعنا هذه الحادثة في اليوم التالي على اثر مناقشة جرت حول صعوبة قتل بعض الحيوانات، وبعد ان شرحنا بوجه تقريبي عام انه كلما ابتعد الحيوان عن الفصائل والمراتب العليا في سلم الحياة والخليقة. فان القطع والبتْر الذي يحل باعضائه لا يؤثر فيه بقدر ما يؤثر في الحيوانات العليا (البشر) فلما سمع البطريرك بحادثة الكردي تذكر حديث امس وعقب عليه بجفاء:

- كنت دائما أرى الكرد من فصيلة البشر العليا الثمينة وها اني الآن اكتشف السبب.

وقص علينا احدهم حادثة وقعت له مما يدور حول هذا الموضوع، فقد ذهب لتعزية جار كردي

= ولم يوافق على السير فيها واتمامها الا بعد ان جلد الخاطيء كفارة على عمله.

فالدخان يكسر الصيام ويعتبر افطارا وهذه الحقيقة تبدو جلية من فصل ختامي طريف لحادثة اعتداء شنعاء على انكليزي افلح في تضليل مطارديه والافلات منهم ولاذ بقرية وقضى فيها ليلة مشوبة بالقلق لئلا يستمر مطاردوه في تعقيبه، وكانت اعصاب كل من في القرية قد بلغت اقصى حدود التوتر عند انبلاج صبح اليوم التالي. وفيما كانت اشعة الشمس الأولى تلمس قمة الجبل المقابل، والظلال تنحسر وتختفي مسرعة من ارجاء الوادي، اذ بكردي يقبل من جهة الاخدود بسرعة شديدة، ولم يساور الشك كل أهل القرية بطبيعة مهمته وأخذوا يتطلعون اليه بقلوب واجفة واعصاب متوترة وهو ينحدر اليهم من السفح راكضاً ليقذف بنفسه على العشب القريب منه ويشعل سيكارة!! كان شهر رمضان وهو يريد الوصول الى بقعة لم تسقط عليها اشعة الشمس بعد ليستمتع باخر سيكارة له قبل أن يبدأ صيام يومه.

فقد قريبا. فدخل الدار ووجد الاسرة كلها جالسة تولول وتبكي حول موقد النار كما يُملي عليهم اصح التقاليد الكردية. انهم ليظلون جالسين هكذا حول الرماد عدة ايام صامتين ساكنين، وقد ينهض احدهم احيانا بصورة فجائية ويطلق صراخا اليما دليل حزنه، وكل معز يريد اظهار عواطفه وفرط الم يتعين عليه ان يرفع من رماد الموقد ملء مجرفة ويحثود على رؤوس الحلقة الثاكلة، فلم يهمل المسيحي هذا الواجب الذي حتمته التقاليد وعلاقة الجيرة، الا انه اسرف فيه وسخا وكان في الرماد جمرات من الفحم لم تَخْبُ ولم يدر بها المعُزّي. وشاء سوء الحظ ان تسقط تلك الجمرات على رقبة احد النائحين فاستوى قائما على رجليه وهو يصرخ ويصيح «احترقت! احترقت!» وراح يمزق ثيابه ويلقيها عن جسمه فلم يلتفت اليه احد لانه كان مسلكا طبيعيا من مقتضيات مناسبة الحزن والعزاء، وتمزيق الثياب من الظواهر الاعتيادية فيها. الا ان الصبي المسكين كان يشعر بالام حقيقية (وان لم تكن ذات خطورة) ولم يستطع ذووه ان يفهموا بأن «عذابه جَسَديّ وليس نفسيا».

يتمتع مار شمعون بمركز رفيع جدا عند الكرد. باعتباره الرئيس الاعلى المعترف به لكل القبائل المسيحية من التيارى الى التخوما، ولانه ايضا ولي العرش الجليل العتيق الذي يحترمه كل مسلمي الكرد في سائر الاقليم. على ان هذا التوقير وتلك المهابة لا يمنعانهم من الاغارة على قرى رعاياه. كما انها والحق يقال لم تصن دائما بيت البطريرك من النهب فلما هاجم « بدر خان بك» امير بوتان القويّ تلك القبائل المسيحية في العام ١٨٤٥، بُذلتْ محاولات خاصة «لقطع رأس هذا النسل من الافاعي». ولم تسلم قدشانس من النهب وهتكَت حرمة بيعتها واتلفت كميات كبيرة من الوثائق والمدونات التي لا تقيم بثمن، ومزق (فرمان) زعموا انه صادر من الرسول (ص) نفسه فيه يمنح الامان لهذه الطائفة. وهو لاشك وثيقة مزيفة، لانها تدين العمل الذي اقدم عليه من وقعت في حوزتهم وليس بالامكان الآن اقامة الدليل على صدورها من النبي ووجود ختمه عليها، لكن الاساطير المتناقلة تزعم انه تتلمذ على ناسك من هذه الطائفة واخذ منه ما عرفه عن المسيحية، فلعل القصة من هذه الجهة صحيحة، واكثر الاحتمال ان كتاب الامان هذا، صدر من الخليفة (عمر) الذي استخلف عندما كانت جيوش المسلمين تجتاح بلاد الفرس. وقد جاء في اخبار التاريخ انه منح امانا مشابها لبطريرك نسطوري ايام خلافته.

وعلى اية حال، فمن المعلوم ان كل كردي في منطقة حكاري (وهو الاسم العام للمناطق الجبلية في جنوبي كردستان) يكن احتراما عظيما لمار شمعون ويعتبره زعيما اسميا لرعاياه. ويعده رجلا ذا قداسة موروثة بأكثر ما يكون المسيحي ذا قداسة في نظرهم. وكثيرا ما يعتبر المسلمون المتزمتون لحم الحيوان الذي يذبحه المسيحي مما لا يصح ان يأكله لانه لايمكن الجزم بانه(حلال). ولكن اذا ذبح حيوان بيد احد افراد اسرة مار شمعون فلن يتردد اشد المسلمين تحرجا من اكله، وهو حلال له، ولا سيما اذا نحر بسكين معينة هي من جملة موروثات تلك الاسرة.

هناك مخلفات غريبة كثيرة بقيت في هذا البيت منذ قديم الزمان، فهو بيت شبه ملكي قديم وهو بيت بطريركي اكثر قدما، ولنكتف هنا بما اوردنا فهنالك احداث عديدة اكثر روائية وطرافة مما سردناه عن هذا «الشاب» الذي اسندت اليه العناية الصمدانية منصبا شاقا فراح ينهض به مخلصا مجاهدا بمعونة اخته، مستهدفا المحافظة على اولئك الذين وضعوا بعهدته. وانقاذهم من الاخطار المحدقة بهم. وجعلهم ورثة جديرين بماضيهم المجيد.

تذييل

ننتهز الفرصة في ختام هذا الفصل، للاسترسال في بعض الحديث عن حياة طوائف من حيوانات وطيور جبال حكاري. ان الموضوع بحد ذاته طريف فيه اهمية، وان كان كل شخص يحترم نفسه في هذه البلاد لا يخرج الا وهو مسلح، وهذا ما يحول دون ان تكون البلاد فردوسا للصيادين.

يوجد الوعل باعداد لا بأس بها في القسم الجنوبي من الجبال وهي الاكثر وعورة. ويمكن تعقيب (الايل) في سفوح هضبة ارمينيا الا انه قليل العدد. والصنف الاول منهما جميل الرؤوس وقد يبلغ ارتفاعها من اصول القرون الى اخمص القدم اكثر من اربع اقدام.

والدببة كثيرة الى الحد الذي تغدو فيه مصدر ازعاج في ايام الربيع لانها تلحق الضرر بقطعان الماشية وهي من النوع البني المعروف وقد تكون احيانا رمادية اللون. وتفخر منطقة (جيلو) بنوع ينعتونه «بالابيض» على ان الفروة الوحيدة التي رآها المؤلف لهذا النوع كانت تميل الى اللون الرمادي او الترابي الفاتح. وهو نوع يختلف بدون ريب عن اللون المحلي السند.

والدببة لا تصاد الا عند الضرورة الملجئة اعني للتخلص من مضايقاتها، واحيانا تصاد للتسلية والرياضة ويتم قنصها بخروج كل من يستطيع مسك اي شيء من اهل القرية يطلق منه النار دون ان ينفجر في يده. ويثيرون ضجة وجلبة حتى ينفر الدب من مكمنه. فيشتد اطلاق النار حتى لكأنهم يخوضون معركة عشائرية، وعندما يؤتى بالفروة فانك تجدها احيانا مثل شبكة صيد السمك لكثرة ما بها من ثقوب كان يوجد في (قدشانس) صياد غلبت عليه الروح الرياضية دأب على طريقة في صيد الدب تدخل السرور حتى في قلب الامبراطور ماكسمليان[15]، وهو في ذلك لا يستخدم من الاسلحة غير خنجر وعصا قصيرة طولها حوالي ثمانية انجات حادة النهايتين فيعقب الدب الى وجاره ويتقدم منه الى مسافة لا تزيد عن ذراع ان امكن ويقوم باثارته، ويبدو انه في الامكان الوقوف بلا حراك امام الدب الذي اعتاد فتح شدقيه للحظة تكفي هذا الصياد لوضع العصا المدببة النهايتين بين فكيه ليظلا مفتوحين (هذا ما يقول وصيف البطريرك الشيخ، فيحاول الدب بطبيعة الحال استعمال مخالبه لازاحة هذا الشيء المزعج من فمه وبذلك يكشف عن

---

15 يقصد مكسمليان امبراطور المكسيك الذي ضرب المثل به لكثرة همومه قتله الثوار الجمهوريون بقيادة خواريز ١٨٦٧ (المترجم).

نفسه لحظة تكفي لطعنة خنجر واحدة. انها والحق يقال طريقة رياضية لا شك فيها تكسب الصياد كثيرا من الفراء وكثيرا من الحرمة (قُدُس) المحلية وهذا الاخير مما يستأهله بالتأكيد.

وكما يحدث دوما، كان ذلك اليوم الذي لا بد منه، ولم تجر عملية الصيد بالشكل الاعتيادي، ولم يدر احد ما وقع بالضبط لان الصياد كان وحيدا كشأنه دائما ولم يعد ليقص قصة فشله.

وهؤلاء الجبليون ككل الشعوب نصف المتحضرة يعتبرون الدب نصف بشر، او هو اقرب الى البشر من اي حيوان آخر. ويتفقون بانه يفهم لغة البشر الى جانب مسائل اخرى لا تخفاه. وقد وقف المؤلف بنفسه على حادثة جرت لصبية نزلت الى بستان في عصر يوم صيف لغرض صممت عليه وهو قطف بعض الفاكهة لاتعود الى اسرتها وعندما شخصت بانظارها الى اعلى الشجرة في ضوء الغسق المعتم، لمحت كعبي قدمين فوقها فنادت «ذلك الصبي» الذي تخيلت وجوده على الشجرة ان يناولها شيئا من الفاكهة فلم تحظ منه بجواب فقالت مهددة:

«اذن ساذهب الى ابراهيم واقول له انك تسرق ثماره وسيأتي بالعصا والبندقية». وما ان نطلقت بهذه العبارة الا وهبط دب نصف بالغ من اعلى الشجرة واستقر على الارض بالقرب منها، وتبين لها ان كعبي القدمين اللذين رأتهما هما مخلباه لا قدما صبي، (الشبه بين طبعات اقدام الدب على الثلج وطبعات اقدام البشر قريب جدا). كان يصعب كثيرا الجزم: ايهما كان اكثر خوفا من الاخر لانهما هربا سوية كل واحد الى جهة. وبطبيعة الحال لم يعد ثم ما يقنع الصبية بان الدب لم يفهم قولها وانه لم يهرب الا بسبب التهديد الذي وجهته اليه.

وتكثر الخنازير الوحشية في الجبال الاقل ارتفاعا ولا سيما تلك التي تكسوها الغابات، ولكن يجب ان يدرك الصياد ان هوايته ستكون قاصرة على التمرين ليس الا لان «شواء الخنزير على السفود» امر لا يمكن التفكير فيه هنا. ان بعض القبائل المسيحية قد تصطاده وتأكله (وان لم تتعود تربية الخنازير الداجنة) وفي بعض الاحيان يلعبون لعبات قاسية مع جيرانهم الاكراد المسلمين، فيدعونهم الى مأدبة ويضعون امامهم لحم الخنزير والكرد ليسوا باولئك المتزمتين في فروض دينهم حيثما الجأتهم الظروف، الا انهم يستنكفون عن اكل لحم هذا الحيوان لو عرفوا الحقيقة. فاذا انطلت الحيلة عليهم ووقعوا في المصيدة اراحوا ضمائرهم بقولهم:

- المسيحيون هم الاثمون. اما نحن فقد اكلنا عشاء طيباً.

والواقع ان رجال قبائل (التخوما) هم وحدهم يمارسون هذه الدعابات، وجماعة (التياري) لا يتعففون عن الكيل للعدو ضربات اكبر من هذه او اصغر الا انهم لايأكلون لحم الخنزير او الارنب. وهم لا يدركون ان هذا المبدأ ليس غريبا عن هذا الشعب المختار، شعب قبيلتهم! عبرت سيدة من سكان الوادي للمؤلف عن اشمئزازها لسماعها بان المسيحيين سيدعون الى الخدمة العسكرية بقولها:

- كيف يسعني ان ارى اولادي يجلسون ليأكلوا لحم الخنزير مع المسلمين؟

ولم يكن بوسع احد من البشر ان يقنعها بان اولادها لن يتعرضوا لهذا العمل الشنيع مهما كانت الظروف!

والذئاب كثيرة جدا، وقطعانها قد تكون خطرا حقيقيا على الاهالي في بعض الاحيان ولا سيما في مواسم الشتاء القاسية. والمعروف ان الفرادى من المسافرين يُفتَرسون. وكلب الرعاة الكردي هو وحش مفترس شديد البأس الا انه ليس ذكيا كـ(الكولي) الاسكتلندي. ولقد عرفنا حادثة عن مجموعة من الذئاب دفعها الجوع طبعا الى دخول ضواحي (وان) فعلا. ثم ارسلت ذئبة عجوزا اربية بمثابة طُعم للكلاب فجرّت خلفها عددا من كلاب الشارع السائبة واوقعتها في كمين محكم. كان والحق يقال نجاحا منقطع النظير وفازت الذئاب بوجبة طعام جيدة. وآضت الليالي في ذلك الحي هادئة خالية من نباح الكلاب فترة من الزمن. وفي الشتاء نفسه (١٩٠٥-١٩٠٦) وكان شديد البرد بنوع خاص اغارت مجموعة من الذئاب على قرية ارمنية يدفعها الجوع وظلت تحتلها ساعة وبعض الساعة لاذ خلالها كل الاهالي بدورهم خوفا من غائلة الغزاة. وتم قتل كل كلب فيها بينما نظفت المزابل تنظيفا لم تره القرية من قبل. ولو تسنى لها الدخول الى حظائر الماشية او الدور لحصلت مأساة دموية، محزنة، وانسحب العدو بعد برهة مخلفا آثار انقلاب غريب مؤقت.

وما يزال يوجد ثم بقية من الفهود لكنها نادرة، وقد وجدنا عند احدهم شبلا صاده بنفسه ولم يأت به من خارج البلاد، والببر وابن عرس يكادان ينقرضان. اما آكل القاذورات (الغول) وهو في الواقع نوع من الضباع. فموجود في سهل الموصل الى جنب زميله الثعلب الماكر السيء الصيت، اما الاسد الذي كان موجودا بكثرة في وادي الرافدين كما تدل عليه منحوتات الآشوريين، فهو في حكم المنقرض. وان كان بعض العرب الطاعنين في السن يحنون الى الايام العزيزة الماضية حين كان يطلب من الفتى اثبات رجولته بقتل اسد وتقديمه هدية لعروس المستقبل.

واذا انقرض الاسد في هذه الربوع. فيبدو ان الحيوان الضخم الذي يزامله في المنحوتات الآشورية ويظهر كطريدة من طرائد ملك نينوى، لم ينقرض تماما، ونقصد به الثور الوحشي الذي يرى في كثير من منحوتات المتحف البريطاني، ونحن لم نر هذا الحيوان حيا رأي العين. وانما عرض علينا مرة رأس لهذا الصنف كان معلقا على حائط في بيت سيد من كرد العمادية وكان تحنيطه مما يرثى له. تبينا فيه قرنين طويلين رفيعين. لونهما ابيض بالاصل شأن كل الماشية الوحشية في اي مكان، وهو ظاهرة نادرة في الحيوانات الداجنة، وقلنا لمستضيفنا ان لثوره هذا قرنين دقيقين بشكل غير مألوف فاجاب:

- انه ليس ثورا عاديا يا افندم، بل هو من البقر الوحشي الذي يعيش في الجبال، ويندر وجوده في هذه الايام.

ويؤسفنا القول ان هذا الرأس قد تلف تماما بعد سبع سنوات من معاينتنا له وهي ولا شك خسارة كبيرة. على ان ثم دلائل تثبت بان هذا الحيوان لم ينقرض تماما.

والطيور ليست كثيرة، وما يعيش في كردستان هو في الغالب من النوع الذي يطلب للمنظر والاستمتاع المعنوي، ويكثر وجود الصقر الذهبي، وترى الصقر الاسحم احيانا. والحدأة والرخم مألوفة. ويقدم (حجى لقلق) الى البلاد بعد حجه الى مكة كل ربيع بانتظام. وطائر العقعق كثير جدا ويشاهد في اسراب بالعشرينات وهو عدد يدحض اي وهم او خرافة تنسج حول هذا الطائر. والعقاعق من خيرة ما تجد من الزبالين، ان الاجزاء التي تبدو من جسمها (سوداء في ابناء عمومتها الانكليزية) تظهر هنا بعد الفحص ذات لون ازرق براق غامق واخضر، فيكون منظرها جميلا فعلا.

والقبق الازرق وهو (ابورزيق) هو ازرق فعلا في هذه البلاد. ولا يقتصر على بضع ريشات زرقاء في جناحيه كما هو عندنا. بل انه يكرم جامعَتْينا العظيمتين فيبدو بالرداء الازرق وهو زي (كمبردج) وباجنحة (اوكسفورد) الزرقاء ولهذا يكون منظرا بديعا وان بزه (القاوند) الذي هو صنف اكبر حجما من سائر الفصيلة فجسمه ازرق تماما ولمعانه يخطف الابصار. هذه على اقل تقدير الحلة التي تكسو (قاوند) الزاب. ففي الجزء الاسفل من دجلة تجد لونه الازرق فاتحا لكنه لامع. وينشر جناحين اسودين يميلان الى الحمرة الخفيفة.

والهدهد يقبل صيفا، وهو كما تعرفه جار مرح جذاب. ولون ريشه كستنائي فاتح وجناحاه وعفرته يكسوها الريش الابيض والاسود. ويسميه الكرد «طائر سليمان» ويقصون الاسطورة المعروفة عن تاجه. لكن رواية الارمن مختلفة: يقولون ان اباءهم ذكروا لهم بان الهدهد كان بالاصل فتاة رائعة الجمال الا انها شديدة الغرور لا تكشف برقعها بالشكل الذي تمليه الحشمة واللياقة وانما كانت تبقيه مطويا فوق رأسها حتى يراها الشباب. فمسخت الى الهدهد، وراحت وهي في جسدها الطيري تزاول عملها بهذا الغنج والدلال كما دأبت عليه في الماضي ببرقعها الذي بقي مطويا فوق رأسها على شكل عفرة.

من كل الطيور ذوات الريش ليس هناك اجمل وازهى لونا من آكل النحل، والقطا الذهبي. والاجنحة السود والجسم الاشقر هما الميزتان اللتان تميزان الاخير. الا اننا لم نستطع التحقق من عدد الالوان التي توجد في ريش آكل النحل الصغير السريع الطيران. فالاصفر الذهبي والاحمر والاخضر والازرق كلها تتمثل فيه. وان سربا منها يطير في اشعة الشمس هو منظر رائع والحق يقال، وان كان يضايق مربي النحل. ولو ان هذا الطائر صرف اهتمامه الى الذباب وغيره من الحشرات لما بخل عليه المرء بأي مديح. ومع هذا فالمرء يغتفر لها ظلمها لفرط جمالها.

14

الشق الأعظم

عشائر النساطرة

في حكاري

قد تكون (قدشانس) بقعة فريدة من نوعها في العالم، الا ان المرء لا يلبث بعد الاتجاه منها جنوبا، ان يجد نفسه في ارض عجيبة للغاية وان كان لا يعدم اشباها لها حتى في العالم الحديث المنتظم، او امثالا متساوية العدد في تاريخ اية امة من الامم الغابرة. تلك هي بلاد العشائر النسطورية (التياري والتخوما والديز والباز) واقاليم جبلية منعزلة قليلة.

ومن نافلة القول ان هذه الحالة المنعة في البداوة تقع في تضاريس طبيعية وعرة صعبة التقحم، وطبيعة حكاري هي على درجة كبيرة من الغرابة والوحشة بحيث تستحق معا وصفا خاصا. ان جبالها في الحقيقة هي جزء من سلسلة طوروس العظيمة التي تمتد كالقوس من ساحل البحر الابيض المتوسط حتى جنوبي مدينة بغداد تقريبا. وفي منطقة حكاري بالذات، يشق هذه السلسلة حوض نهر الزاب الاعلى الذي ينبع من شمالها ويجري مسافة في هضبة ارمينيا ويمضي في طريقه بعزم واصرار غريب مخترقا تلك الجبال حتى يصل سهل ما بين النهرين جنوب الموصل ليصب في نهر دجلة. ان الشق الذي يحدثه هذا النهر في الجبال هو واحد من الشقوق العظمى في الكرة الارضية ومن شاهد غور «يوسيمايت Yosemite» وغور كولورادو العظيم[1] (Great Canyon (Colorado لايسعه الا ان يشبهه بهما. وفي متنصف مجراه تنهض قمتا «سپادوريك» و «كوكه بلنده» ملكتا القفر احداهما مقابل الاخرى. ولا يقل ارتفاع كل منهما عن اربع عشرة الف قدم، وتبعد الواحدة عن الاخرى من الرأس الى الرأس ما لايزيد عن اثنى عشر ميلا. الا ان مستوى النهر بينهما لا يزيد ارتفاعه عن سطح البحر باكثر من اربعة آلاف قدم. لذلك يكون عمق الشق الكلي ما يزيد عن تسعة آلاف قدم[2].

وفي اعتقادنا ان هذا العناد الذي يبديه النهر نجم عن ظهور الغضن الهائل في سطح الارض الذي يسميه البشر «جبال طوروس» في زمن متأخر على ظهور الهضبة الواقعة الى شماله. وعليه ولما كانت تلك الآنهار قد اتخذت قبلها مجاري متجهة الى الجنوب فانها راحت تثقب السد الذي قام فجأة امامها، ثقبا بطيئا في الوقت الذي اخذت مستويات مجاريها تعلو. او

---

[1] يوسيمات واد عميق يجري فيه نهر مرسيد احد روافد سان جواكيم. ترتفع جدرانه الى حدود الاربعة الاف قدم. وغور كولورادو الاعظم هو مضيق يقطعه نهر كولورارد في الهضبة العالية لشمال اريزونا ويبلغ اعمق جزء فيه اعتبارا من القمة حوالي ميل واحد (المترجم).

[2] وهو بذلك يكون اعمق غور في العالم (المترجم).

لعل الزاب وجد له منفذا واسعا في الجبال فمنحه الفرصة التي يريدها. ومهما كانت الاسباب فالنتيجة هي ان مجموعة من الوديان والشعاب على مستوى عظيم من الفخامة والروعة برزت للعين تحف بها جدران شاهقة تكاد تكون عمودية وهي حروف تنحدر من قمم الثلج الخالد الشامخة الى السهل الذي تنمو فيه اشجار التين والعنب والزيتون، ووهاد جانبية لا تقل ضخامة وروعة عن الشق الرئيس. والشق ضيق شديد الآنحدار من جانبيه. بحيث يعظم خطر الآنهيارات الثلجية بمستوى النهر نسبة للمسافرين في الربيع، وتراهم يسيرون بالمئات في سفرات قد تمتد الواحدة يوما كاملا على الاغلب. ان العبور في هذا الظروف لهو من الصعوبة بمكان، فالثلج المنبسط المنداح على ارض تبلغ زاوية انحدارها اربعين درجة والمنتهي بانحدار مفاجيء الى السيل الدفاق الفائض، قد يكون خطرا على اي كروان يقطعها. والروايات كثيرة عن حوادث النجاة العجيبة من الموت المحتوم الذي يتعرض له الجبليون في هذا الطريق.

داهم احد الرجال الذين نعرفهم انهيار ثلجي فجرفه من حالق مع الكتلة التي دفعها. ولم يكن الخطر عليه كبيرا في اثناء الآنهيار والسقوط. الا انه كان من حضور الذهن بحيث تذكر حالا ان الخطر الحقيقي لا يبدأ الا عند تجمع الجزء العلوي من الآنهيار الثلجي العظيم بعد تراكمه في القاع فيحصر الجزء الخلفي الذي يستمر مقتربا بشدة كقطار سكة حديد ذي شعاع امامي. ويشاء حسن الصدف ان يكون في وضع الوقوف عندما بطلت حركة الآنهيار وما ان شعر بتراكم الثلج حوله حتى بادر الى عمل حفرة شبيهة بصومعة صغيرة بطريق تحريك جسمه حركة سريعة دائبة وبهذا سلم ولم يسحقه الآنهيار، الا انه دفن مسمرا لان ساقيه وقدميه غاصتا في الثلج. وظل حيا على هذه الحال ثلاثة ايام. ذلك لان الانسان ينال كفايته من الهواء الذي يتخلل ذرات الثلج الى عمق كبير وان انضغط الثلج. ثم وجده اصحابه الذين انتشروا يبحثون عن جثته وبينما كانوا يسبرون الثلج باعقاب عصيهم غاصت عصا في الصومعة التي كان فيها بمحض صدفة فتعلق بها وتشبث فاخرج ميتا اكثر منه حيا.

ونزلت بعضو بعثة تبشير امريكية حادثة مماثلة في احد تلك الوديان. فقد قام هو ومرافقوه بمحاولة رعناء لعبور سفح تراكم فوقه ثلج جديد وكان سطح السفح املس صخريا وعمق الثلج المتراكم عليه حوالي ستة انجات، فسببوا انهيارا بطبيعة الحال، وجرف الجميع واخذهم معه الى عمق الفي قدم. والمعجزة في هذا انه لم يهلك منهم احد ونجوا جميعا.

وفي موضع مخصوص من هذه المنطقة يحصل الإنهيار الثلجي سنويا بسبب شكل المضيق الغريب، فالثلج الساقط شتاءً على الجبل يتمركز كله في واد واحد على هيئة قمع او مدخنة ويقوم هذا الوادي بافراغه بالزاب. فيصير هذا الإنهيار الثلجي بمثابة سد يحجز ماء الزاب عدة ساعات ويتيح بذلك فرصة «لحصاد» كميات كبيرة من الاسماك الضخمة في قاعه الجاف مما يلي السد من الجهة الاخرى. وبطبيعة الحال يكون انكسار السد الثلجي مصحوبا بضغط شديد جدا ودوي هائل. وتبعد منطقة الامان مسافة لا بأس بها من منطلق المجرى الاعتيادي!

قد يضيق معدل سعة مجرى النهر في الجبال الى خمسين ياردة لا اكثر وتشتد سرعته للغاية. ومع هذا فلا يندر ان تنصب جسور فوقه وقد شاهد المؤلف في احدى المناسبات ان الإنهيار الثلجي تعدى النهر نفسه وخرج عنه ودار دورة في تضاعيف حَرْفٍ صخري على الجانب الثاني ودفن بيتا بني على ما يظهر في بقعة توخى صاحبها ان تكون بمأمن من هذه الحوادث، واهلك سبعة اشخاص، الا ان الثامن وكان شيخا طاعن السن، وجد حيا بعد ستة ايام من دفنه تحت الثلج لسقوط احدى العوارض الخشبية من السقف في المكان الذي اختاره فجأة فصانت رأسه.

لا شك ان الحياة صعبة في بلاد هذه طبيعتها، فكل زراعتها يتم على الحروف الصخرية والسفوح. وهم يبنون حقولهم بناءً وفقما شرحناه لذلك كانت عرضة للتدمير والآنهيارات الثلجية. فاذا خلصت تلك الحقول من هذه الآفة وتوفر لها الماء الكافي فهي خصبة، ومن الضروري ان يوفر لها الماء صيفا وهذا يتم بتحويل قنوات ري اليها من المجرى الرئيس، وتنقر هذه السواقي احيانا في السفوح الصخرية ويحافظ عليها بالترميم والعناية المستمرين. والدخن (الذرة) والرز هما عمدة الغلة. واولهما طعام للانسان والحيوان لان سيقانه الطويلة تصلح علفا. وحباته غنية جدا بالمواد الغذائية كما اعلمتنا التجارب الا انه ليس لذيذا، واذا قدم لك مضيفك خبزه فهو دليل على انه لا يملك دقيق قمح وانه في عسر وضيق، وليس في ذلك من معرة «فخير لك ان تأكل خبز ذرة وتحمل بندقية في مثل هذه الظروف من ان تكون الرعية العزلاء تحت نير الحكم العثماني».

الطرق المعبدة غير معروفة في تلك الأنحاء بطبيعة الحال، وليس هناك شيء يسمى بالمركبة ذات العجلات في كل حكاري من اقصاها الى ادناها. انك تعبر الممرات الجبلية وتعتلي الوديان وتسير على امتداد السفوح وترتقي صاعدا القمم والانوف البارزة من الحروف او تدور حولها بمسالك تعرف باسم «استه نگى»، والاسته نگه ممر ضيق مرصوف بحجارة لا تبقى في مواضعها الا بسبب من ثقلها واستنادها على فروع الاشجار التي تنبت في الشقوقة الصخرية وتنتشر فوق المجرى الدناق.

والبغال تدب على هذه الطرق بيسر وسهولة لانها خلقت لذلك. ولا تجد الاغنام والماعز صعوبة في سلوكها ايضا. وبعض القرى يتمتع بسعادة الحصانة من اهتمام الغزاة، لان الممرات المؤدية اليها لا تشجّع ذوات الاربع على السير فيها. وكل ما تجده من حيوانات في امثال تلك القرى المنيعة إمّا ولدت فيها وإمّا حملت على ظهور الرجال وليدةً وجيء بها، اما الخيل فمن المعروف الثابت انها لا تقوى على السير في هذه (الاسته نگات) ابدا.

ولم يفكر احد بمحاولة ترويض الخيول على السير فيها غير الآنكليزي المخبول! مرة حاولها المؤلف، ومرة حاولها القنصل العسكري في (وان)، ولم تُمْتَطَ الخيل في كلتا التجربتين بطبيعة الحال، بل كان يقود الحصان رجلان ينظران في شأنه: واحد يمسك بزمامه من الامام والاخر

يسير خلفه ليمسك به ان زلت قائمته في احدى الحنايا الحادة الزلقة، وفي هذا ضمان لنجاة الحيوان من السقوط في النهر او الهاوية اذا عثر، حيث يقوم احد السائسين بمسك رأسه ولَي رقبته الى الاسفل ليمنعه من الخبط بالارجل او الحركة في محاولة منه للنهوض (وهي المحاولة التي تؤدي به الى الكارثة) وفي اثناء ذلك يجتمع عليه كل الرجال ليقضوا على كل حركة يأتيها. ثم تعطى الاشارة «امستعدون انتم؟ هيا ارفعوا!» فلا يرى الحصان الذاهل نفسه الا وهو مرتفع في الهواء كالطفل، فيمد اقدامه ويستوي واقفا. وهكذا افلحت الخيول في سلوك هذه السبل، الا انها خلفت (احذيتها) وراءها[3].

والجسور التي تقام على النهر، هي من المظاهر الطريفة في حياة المنطقة، فيها يتجلى تفكير آلي لا يخلو من الابداع والمهارة، وان كان السير فوقها يتطلب انتباها وحضور ذهن متأت عن طريقة بنائها، وهي اساسا مستوية، وتقام القناطر (الدعامات) في مواضع مناسبة وتمد فوق الدعامات جذوع طويلة من خشب الزان من كل ضفة بمثابة سناد لها. وتثقل نهاياتها بالاحجار وقد يبلغ طول المسافة بين النهايات البارزة اربعين قدما. وبعدها يوضع جذعان طويلان من خشب الزان جنبا الى جنب بين نهايات التقوية المتقاربة ثم تفرش ارضية الجسر باغصان متشابكة يابسة ويكمل بناء الجسر.

ولما كان الخشب عظيم المرونة قابلا للالتواء. فان كيان الجسر كله يهتز اهتزازا شديدا عند السير فوقه وان بقي على استقامته الافقية، وفي كثير من الاحيان تميل احدى حافتيه ميلانا شديدا. ولا غرو فممر سعته ثلاث اقدام فقط دون اي حاجز من جهتيه اضيق من ان يعتبر جسرا، والقاعدة السائدة تشير عليك ان لا تنظر الى اعماق النهر عند العبور لئلا تفقد توازنك وانت ترى المياه صاخبة متلاطمة تحتك من ارتفاع كبير، فيرتخي عزمك وتتهول المنظر. اما نحن فنضحك بخلاف ذلك ونشير عليك بان تنظر الى اسفل وتنعم النظر في المجرى من خلال الاغصان اليابسة المفروشة على ارضية الجسر لانها مملوءة بالثقوب وغير ذلك من الفخاخ والمصائد والعثرات، وان زلقت رجلك فاقرأ على نفسك السلام. ولايتردد حتى سكان المنطقة انفسهم في ان يسلموا قيادهم الى يد خبير يمسك بهم اثناء العبور. بل قد لا يتورعون عن الزحف فوق هذه الجسور على اربع! ويختلف سلوك الحيوانات في العبور باختلاف امزجتها قدر ما يختلف سلوك البشر. وقد شاهد المؤلف حصانا نشأ وترعرع في السهول فاجتاز احد هذه الجسور كأنما ولد عليها دون ان يحتاج الى رجل يسير خلفه. وشاهد بغلا ينكص على عقيبه ويحرن حتى استلزم جره جرا بالسلاسل والحبال بصورة مخجلة.

وقد يتوقع المرء ان «الجحش» النافع، هو خير الحيوانات المتيسرة في هذه البلاد ومما يمكن الآنتفاع به هنا. لكن هناك تحاملا عاما ضده واستصغارا لشأنه، ولا يذكر اسمه بتاتا وانما

---

[3] كناية عن هروب الخائف الوجل أو ربما يقُصد حدواتها (المترجم).

يلقب بـ «ابي آذان» لانه «عَيْبَه» عند العشيرة! ولفظة (عيْبه: عيب) تحتاج الى بعض الشرح. الكلمة معناها (الخزي) لكن الآنكليزي لا يلبث ان يجد معناها اوسع جدا من ذلك فهو ينداح ليشمل كل شيء تحت السماء يريده ولا يريده ابن البلاد لسبب من الاسباب. وعلى كل فالجحش المسكين هو «عيبه» ولا يقتنيه جبلي قط. ومرة تجرأ نسطوري من عشيرة التياري على ان يتخذ له جحشا. الا انه ضاق ذرعا بحياته من فرط ما تعرض له من سخرية العشيرة كلها. فلم ير بدا من قذف حيوانه المنكود الى مياه الزاب من احد الجسور التي وصفناها. وارتاح من الهزء والتقريع[4]

والبغل حيوان محترم ان اسعدك الحظ بواحد. الا ان الاتيكيت يقضي عليك ان تكلم هذا الحيوان الشريف باللغة الكردية التي هي لغة كل الجبليين، اما الثور فباعتباره من حيوانات التوراة (الكتاب المقدس) فعليك مخاطبته بالسريانية وهي لغة مسيحية جيدة!

هذا هو مبلغ التحامل على الجحش بل واكثر، فعندما يتلى الإنجيل في «احد الشعانين» يعمد الكاهن الذي يقرأه مترجما الى اللهجة الدارجة، الى استبدال كلمة الجحش الواردة في نص الانجيل السرياني الاصلي (پشتا) بكلمة مهر أو حصان خشية المس بالمشاعر. ومرة اراد كاهن مسكين ان يبقي النص الانجيلي ولم يستبدل كلمة «جحش» بغيرها. فهرع جماعة الابرشية المتألمين بقضهم وقضيضهم يشكون امره الى البطريرك لتحريفه المخجل في الكتاب المقدس!

وتحاملهم لا يقتصر على الجحش وحده فاغلبيتهم تعاف لحم الخنزير والارنب ومن يتناولهما يقع تحت طائلة «التحريم الكنسى (اللاوى)» واما بالنسبة الى اكل لحوم الحيوانات الاخرى فاننا نتذكر المحادثة التالية مع شماس وخادم مخلص وهو كلام لا يحتاج الى تعليق. سألني بقوله:

- اصحيح يا سيدي القس ما يقال بان الفرنسيين يأكلون الضفادع؟

- اجل صحيح يا شماس، ويقال ان طعمها لذيذ.

- لو اقدم رجل من التخوما على هذا العمل لقتلناه.

وقد يستنتج مما اوردناه انه لا يوجد قانون في البلاد. وهذا ليس بالواقع لان العرف القبلي هو السائد وترتب على هذا ان حكاري اضحت مثالا لمتانة الاخلاق وارومة لصلاحها، وفي مقدمة هذا الخلق الاعتزاز بالنفس المتأتي من الشعور الطبيعي بالتفوق على رجل السهل، وهذه الصفة الاخيرة هي من اظهر الخصال فيهم. قال رجل من رجال القبائل المسيحية يوما:

- ان اعظم شعب في العالم كله هو الشعب الانكليزي، ثم يليه التياري (لا شك انها قبيلة المتكلم!) ثم يليهما بمسافة كبيرة، الشعب الروسى، وليس هناك شعوب غير هذه الثلاثة.

---

[4] لم يعد هذا الحيوان موضع احتقار في كردستان اليوم (المترجم).

هذا الشعور الغريزي بالتفوق ورط المؤلف في مأزق. فقد ارسل في العام ١٩٠٤ يستقدم نخبة من هؤلاء الجبليين البرابرة الى مقره الديني في (وان) ليتلقوا على يده تلك الارشادات والنصائح التي «تلين اخلاقهم وتزيل ما فيهم من طباع العنف والبداوة. فجاءوا وانزلوا امتعتهم وأكلوا وجبة طعام، ليسرعوا الى الشارع. وما ان احتواهم حتى راحوا يعتدون ضربا على كل ارمني صادفوه! مبررين عملهم هذا بقولهم «ان اولئك الكلاب يا رابي تطاولوا علينا بالضحك من جدائل شعرنا الطويل» على ان السبب الحقيقي كما استخلصته منهم فيما بعد هو انهم «كلما استعجلوا في افهام تلك المخلوقات المنحطة بحقيقة مركزها المنحط، كلما كان في ذلك الخير والراحة للجميع!»

وفي اليوم التالي وردت شكوى من البعثة التبشيرية الامريكية في المدينة، خلاصتها: «ان افراد العشيرة، امسكوا بمدير مدرسة التبشير وتناوبوه بالضرب امام تلاميذه الذين لم يجروا على التدخل لانقاذه من ايدي المعتدين خوفا!» (او لعلهم كانوا مستمتعين بمنظر ضرب مديرهم؟)

والسرقة بصورتها الحقيقية، تكاد تكون غير معروفة في الجبال. بالطبع هناك عدد كبير من الاموال المشاعة للجميع ولك ان تأخذ منها عندما تكون في حاجة اليها، كالمرعى مثلا. الا ان النشل والاختلاس هما من النوادر ويعاقب الفاعل عقابا في منتهى الصرامة. وقد ذكر عن والد (روماني) الخصال بشكل خرج عن الحد، انه قبل بحكم الموت الصادر على ابنه عندما اقدم على عملية سرقة فثلم شرف ابيه والحق به العار.

وجدير بنا ان نذكر هنا ان عقوبة الموت ما فرضت في هذه الحالة الا لعدم وجود بديل لها في بلاد لا يوجد بها سجن في حين كان يجب معالجة الواقعة بشكل من الاشكال، فلم يجدوا مخرجا الا رميه بالرصاص. الا ان البطريرك حال دون تنفيذ العقوبة واستبدل حكم هذا الجبلي الحقير بالنفي من الوادي كله.

ويأمل المرء ان يفهم القارىء الآنكليزي ان السرقة والسطو ليسا شيئا واحدا كما هو معلوم في حكاري، فلكل «جنتلمان» مهذب ان يخرج في غارة سطو، وتكون الاسلاب ملكا شرعيا له كما تكون مغامرته مصدر فخر وموضع اعجاب به. وان شئت الواقع فقانونهم هذا هو نسخة طبق الاصل من قانون «الجنتلمان» الآخر «ايفان دو ماكومبج: Evan Dhu Maccombich «ذلك الذي يسرق بقرة من ارملة فقيرة، انما هو لص. الا ان الذي يسطو على قطيع بقر لآل (ساسناج)، انما هو من اصحاب المواشي الاسياد!»

ولقد اعتاد رجال التياري الخيرون منذ اجيال واجيال تقليد ابطال رواية اخرى من روايات «سكوت»[5] فهم يخرجون من الاسلاب العشْر ويؤدونه دائما الى بيعة العذراء مريم (مارت

---

[5] الروائي الاسكتلندي سر والتر سكوت (١٧٧١-١٨٣٢). وقد اقتبس المؤلفان معظم ما اورداه هنا من عبارات وابيات شعرية من رواياته التي تصور حياة القرون الوسطى في اسكتلندا كذلك تشبهاً بشخصيات تلك القصص (المترجم).

مريام). ففي (وادي والتو Walto) يؤدون عشرا من كل قطيع يسلبونه من الجنوب وان عرف شيء عن الحقيقة أنمي الخبر الى كاهن اعترافهم فالذي يعلمونه انهم يجعلون العشر سبُعًا!»».
أسفا على تلكم الايام الخوالي التي مرت دون عودة، فمع حرص رجال التياري على هذه الخصلة وتمسكهم بها، فان غنائم غاراتهم لم تعد كما كانت قبلا. وهنالك حادثة نذكرها الآن ومرجعنا فيها هو غبطة البطريرك حصلت عندما انتاب الغزاة بعض الحيرة حول كيفية التصرف بالغنيمة، وابطال الحادثة من رجال وادي ديزه كانوا قد سطوا على بقرة لاحد جيرانهم الكرد، وراحوا يمنون النفس بمأدبة في عيد الميلاد من لحمها. فأبدى بعض ذوي الفطنة منهم شكه في صلاح البقرة لهذه الغاية الدينية وفي طهارتها لان مالكها مسلم[6] وهنا نهض كاهن (ديزه) الفاضل مهتبلا فرصته عند عرض المشكلة الدينية امامه، فصلى على البقرة حتى اتم (تطهيرها)، فشرفوه بدعوة الى المأدبة التي مثلت فيها البقرة دور «الطبق الرئيس من الطعام» Piece de resistance

عرضنا في فصل سابق جملة من القواعد التي تحكم سلوك الرجل الجنتلمان في مسألة الثأر. ونزيد هنا بأن الحالة الوحيدة التي يتجاوز فيها عن هذه القواعد هي «اعلان الجهاد» فالمفروض بك عند ذهابك الى الحرب باسم الله والدين، ان تقدم على كل عمل من اعمال العنف والوحشية تشاؤه، وان لا تتعفف عن ذلك عادة. ثم ابطل العمل بالقواعد الادبية القديمة نتيجة لمذابح الارمن في العام ١٨٩٥ وبات هتك اعراض النساء المنظم والمخطط جزء من التدابير التركية، والظاهر انها كانت بموجب امر صريح صدر من السلطان عبدالحميد. واذا سمح الخليفة مرة بهذه الاعمال فمن البديهي ان طبقة الدهماء من الكرد لا تعود بعدها الى التمسك بقواعد الآباء الجميلة بمحض اختيارها في الغارات الاعتيادية.

وبصورة عامة تؤخذ الثأرات ببساطة قلب متناهية وبروح رياضية طيبة وبأقل من الحقد والموجدة، لقد عرف المؤلف رجلين شت ما بينهما ثأر اشتهر امره، فالتقيا وجها لوجه في دار بعثة التبشير البريطانية حيث تراعى شروط الهدنة بدقة طبعا. فراح احدهما يباسط الاخر ويمازحه بالفكاهات ونوادر الملح وهما يتناولان الشاي مع رسل الدين الانكليز، وفي الحروب لم يكن ما يدعى بفخاخ البجع او ما يجري مجراها بالامور التي تخفى عن المحاربين. وقد جن التياري فرحا ذات يوم عندما حققوا نصرا على خصم لهم اذ نكص اعداؤهم عن معقل كان يحميه بضعة عشر نفرا ما بين رجل وصبي حين وجدوا انفسهم بغتة امام فوهة مدفع ضخم ما كانوا يتوقعون قط ان التياري يملكون مثله. وحقيقة هذا المدفع لم تكن غير خدعة، فهو لا اكثر ولا اقل من سلة بسيطة من السلال التي تستعمل محليا لتربية النحل (محضن النحل

---

[6] التياري لا يأكلون لحم البقرة قط. لا لانهم يعتقدون بنجاستها الدينية، لكنهم يحرمون حتى لمس لحمها متعللين بقولهم «ان اباءنا لم يفعلوا ذلك من قبلنا».

المحلي هو سلة ضيقة مستديرة طويلة تشبه كثيرا مصيدة سمكة الحنكليس القديمة) زيفوها بمهارة وعمدوا الى طلائها بطين اسود!

استبد الفرح بابطال هذه المأثرة الحربية للنصر الذي حققوه. حتى انهم راحوا يفكرون جديا بصنع مدفع حقيقي فعمدوا الى جذع شجرة من الزان فجوفوه ليقوم بمقام ماسورة مدفع المستقبل وشدوه باحزمة من الحديد بشكل لا يختلف عن صنع بندقية «واير وونـد» الحديثة في «إلسويگ» وان كانت مواد الصنع مما يصعب على شركة «ارمسترونگ لصناعة الاسلحة» الموافقة عليه.

لم يكن القصد من صنع هذه الدمية غير خداع عدوهم وقد نجحوا في ذلك نجاحا باهرا في مناسبة واحدة على الاقل. الا ان رغبتهم في مشاهدة مدفعهم يقوم بدوره عمليا جعلتهم يدفعون ثمنا غاليا. فبشجاعة عجيبة من جهلهم المفرط قاموا بحشوه واطلاقه فانفجر بينهم طبعا الا ان العناية الالهية التي تكلأ صبيان المدرسة شملت هؤلاء الصبيان برحمتها فلم يصب احد منهم بأذى.

قبل بضع سنوات كانت فرص النصر في هذه الحملات الثأرية والمعارك متكافئة تقريبا، ولو انها استمرت على هذا المنوال لما طاوع المؤلف قلبه في المطالبة بالغاء شكل من اشكال الرياضة، قديم في تأريخه عجيب بطرافته، ولما وجد ايضا بين المتصارعين من يرغب في زوالها. صحيح ان القبائل المسيحية تواجه عددا متفوقا الا ان معاقلها المنيعة واحكامها الدفاع عنها عادلت الكفة. ان لهم شهرة في القتال مستفيضة، والكرد انفسهم يقرون بان من يخرج لمقارعة رجال التياري او التخوما فعليه ان يكون بنسبة خمسة الى كل رجل منهم. وكان الطرفان يستخدمان بندقيات قديمة الطراز ذات آثار مشابهة واعني بها بندقيات الحشوة التي يستخدمون لها بارودا ورصاصا مصنوعا محليا. لكن الموازنة اختلت الآن كما أسفلنا في موضع سابق لان الترك سلحوا جانبا من مرتزقتهم الكرد بكميات كثيرة من البندقيات الحديثة. ويقوم الجبليون بصنع بارودهم، فالكبريت متوفر في الجبال وهم يصنعون فحمهم الخاص من الخشب. «والنترات» يمكن جمعها دائما من بعض الكهوف حيث تأوي قطعان الغنم. على ان معلوماتنا في الكيمياء لا تساعدنا على شرح طريقتهم في تركيبه، واما الرصاص فيسهل عليهم عمله، لان المعدن يوجد على شكل كتل وعروق سميكة في بعض الوديان كما كان في وسعهم ان يستخلصوه من الصخور بكميات وافرة لهذه الغاية. اما عن صبه على شكل بندقات فلا يسع المرء الا يعجب حقا من الفوائد التي يتضمنها (كشتبان) الخياطة. فلا احد يتصور طبعا انها تستخدم لشيء اخر غير تسهيل عملية الخياطة اليدوية. لكنها عندما توضع فى قالب طيني يمكن ان يصب فيها الرصاص المستعمل للبندقيات صبا متقنا. وهناك قس هرم نعرفه. يكسب دخلا طيبا من صناعة تحويل البندقيات التي تحشى من الفم الى بندقيات عصرية من نوع «مارتيني» وهو الاسم العام لاي نوع من البندقيات التي

تحشى من المؤخرة. كان حدادا بارعا حقا. وصناعته محل رضا تام من العملاء مع ان مغلاقه «المارتيني» وتركيبه الآلي للمغلاق مما تعترض عليه وزارة الحرب البريطانية رغم اتقانه.

ويأمل بعض الصناع المختصين في تحسين نوعية البارود المحلي. ومن اولى الاسئلة التي وجهت الينا اثناء تجوالنا في مناطق الوديان قولهم:

- رابي! هل تستخدمون فحم خشب البلوط او فحم خشب الجوز في صنع دواء بندقياتكم في انكلترا؟

فسارعنا بالاجابة على البديهة:

- لا هذا ولا ذاك، وانما نستعمل خشب الصفصاف!

هذه القطعة من العلْم اللا كهنوتي لصقت باذهاننا بشكل ما من كتاب قديم اسمه «كتاب المعارف المفيدة». وهكذا تجد ابعد الاشياء عن الفائدة، تبرهن على فائدتها احيانا. فجوابنا هذا رفع من مكانتنا عندهم ماديا لا روحيا.

في هذه الجبال تصدمك عادات بدائية كثيرة. وادعاها الى الدهشة والعجب في عين الاجنبي هو «الحمام العمومي» وتجدها شائعة عند المسلمين والمسيحيين في كردستان على حد سواء. ان مبررات هذه العادة صحيحة معقولة، فارضيات المنازل الطينية عندما يسقط عليها ماء الاستحمام الاسبوعي تصبح مستنقعا غير صحي، اذن فليتم الاستحمام في الخلاء قرب عين ماء او نهر حيث توقد النار لتسخين الماء زيادة في راحة المستحم.

في مبدأ الامر يسلم هذا العمل الاوروبي الى بعض الحيرة، فيبدو له وكأن المجتمع يكرُّبه راجعا فجأة الى القرون السحيقة حين يَعْرِج مُدلفا ليجد نفسه امام مجموعة من الفتيات جمعن ثيابهن كلها في قدر نحاسي كبير لغسلها، وهن منهمكات في مساعدة بعضهن بعضا في غسل اجسامهن، لا يشعرن بأي شيء من الخجل الذي يعتري الرجل الغريب. وبالطبع ليس من الادب ان يبحلق فيهن وهن لا يبالين بحالهن مطلقا ويبقين جالسات في اماكنهن دونما اضطراب حتى يمر الاجنبي وهن مسترسلات في احاديثهن. ان الفضلاء من ذوي العقول الضيقة يصفونهن بانهن ممن فقد الشعور بالحشمة، وهذا القول ليس غير تهمة شائنة. والاقرب جدا للصواب والحقيقة ان يقال ان الشعور بعدم الحشمة هو المفقود كما كان الحال في جنة الفردوس(عدن). وقد مرت بـ «لايارد» تجربة من هذا القبيل عندما استقدم رجالا من الجبال الى الموصل ليعملوا في تنقيباته الاثرية. وقد اقدم على هذا العمل تسهيلا لمشكلته المعقدة فسكان الجبال بكل خرافاتهم الخاصة محصنون ضد خرافات سكان السهول لا يثيرون اية متاعب بخصوص اعمال الحفر في التلال كما اثار عند العرب. وكان من الطبيعي ان يأتي العمال الجبليون بزوجاتهم وبناتهم ليطهين لهم طعامهم وكان من الطبيعي ايضا ان تصحب

هاته النسوة عاداتهن ومن بينها استحمامهن بالشكل الذي تعودنه في بلادهن. ولما راح رب العمل يشرح لهن الفضيحة التي احدثنها في مدينة الموصل الورعة التقية الطاهرة بعملهن هذا، اجبنه ببراءة وسذاجة:

- اذا كان لهم اعتراض علينا يا صاحب، فلا شيء يدعوهم الى التطلع نحونا!

ان حمام السبت عند قبيلة التياري هو تقليد شبه ديني بل فرض واجب، والاسرة تنحدر برمتها الى الماء فيتم الاغتسال على الطريقة «الهوميروسية» الاصيلة. وتنهض السيدات شخصيا باعبائها فتدعك العجائز اجسام الشيوخ وتفرك الفتيات اجسام الفتيان، وعندما يفرغ الذكور من حمامهم يأخذون مكان الآناث.

ولا شك ان التجربة التي عاناها احد القسس الآنكليز الجدد المساكين كانت تجربة مرة اليمة. فقد خطر بباله ان يخرج في نزهة خلوية عصر يوم سبت في وادي التياري، وفيما هو ينعطف الى زاوية وجد امامه فتاة جميلة وقد جلست تستحم عارية بكل براءة، وكان الانكليزي حسن التربية فاشاح بوجهه وغض من طرفه واسرع عنها مستعجلا بقدر ما سمح له الممر الضيق، واتفق ان كانت الفتاة حسنة التربية ايضا ولكن من معهد يختلف عن معهد تربيته بعض الاختلاف! اذ ما تبين لها ان عابر السبيل هو من فصيلة القسس (قاشا) حتى تركت حمامها ولحقت به لتقبيل يده كما يملي عليها الادب وحسن السلوك فولى «القديس انطونيوس»[7] الادبار دون ان يدرك قصدها من ملاحقته واستمرت الآنسة تتعقبه وهي تتوسل بحرارة:

- رابي! رابي! ماهي خطيئتي لتحرمني من تقبيل يدك؟

وقيل.. والعهدة على الراوي ان رجل الله هذا، ستر عينيه بيده اليسرى ومد اليها يمناه باقصى ما تنبسط عضلاتها لكي تلثمها. على ان الاسابيع القلائل التي مرت عليه بعد هذه التجربة ازالت كل رد فعل في نفسه من هذا المشهد.

ما زالت الواجبات التي تمليها قواعد الفروسية القديمة سائدة في الجبال ومنها واجب اقراء الضيف واكرامه، وقد انجز احد اغوات النساطرة واجبا عظيما من هذا القبيل في كانون الثاني من العام ١٩٠٧ ان السلطات الحكومية كمبدأ عام لم تتعود بذل اي مجهود في ارسال قوات عسكرية الى هذه الجبال لان في ذلك خطرا ومشقة لا فائدة فيهما، وعلى كل حال فقد خطر لها ان ترسل سرية من المشاة الى وادي الزاب في دورية تنتهي مهمتها بالوصول الى جولاميرگ. وهي مركز حكومي في شمال الوادي، ربما كان الغرض من هذه الدورية الاثبات بان مثل هذه العملية ممكنة.

---

[7] لعله القديس انطونيوس (٢٥١-٣٥٦) الكبير المصري منشيء حياة الرهبنة والتبتل والأنعزال (المترجم).

كانت السرية ناقصة التدريب وكل افرادها من الكرد فعندما علموا بوجهة سيرهم وهي منطقة لم يطأها من قبلهم جندي واحد، استبد بهم القلق طبعا وركبهم الخوف وهم يقطعون الوادي، وبدأوا يتخيلون كمينا وراء كل صخرة حتى اذا التقوا باربعة رجال من التيارية وهم يهبطون الممر سارعوا بفتح النار عليهم وصرعوهم جميعا.

ونحن لا نعتقد الحادثة قتلا عمديا كما تبدو ظاهريا، وانما هي مجرد حالة من التوتر العصبي الذي يسود الجنود القليلي الاهتمام بالخضوع للضبط. وزادت فعلتهم هذه من خوفهم توقعا للجزاء عما اقترفوه.

وهرعوا راكضين (اذا كان بوسع احد ان يركض في هذه الممرات فلا نعتقد انه سيركض بسرعة) الى منزل اغا مسيحي مشهور من قبيلة التياري يدعى (اسماعيل چمبه) فعبروا الجسر الى بيته وكسروا الجسر خلفهم في سورة من اضطرابهم الذي افقدهم كل فطنة، ولم يقتضيهم عملهم هذا غير عشر دقائق من الوقت وسكين صغيرة. وبادروا الاغا بالاعتراف الصريح بانهم قتلوا رجالا من قبيلته دون مبرر او استفزاز وطلبوا منه ان يجيرهم، فلم تترك له فروسيته مجالا للتردد في قبول الدخالة فورا ووعدهم ان يفعل كل ما في طوقه. «اذا» قدر لنفوذه ان يفلح في شكم رجال قبيلته وكبح مشاعرهم في مثل هذا الظرف.

وتجمع رجال العشيرة حالا لاخذ الثأر وزحفوا على الوادي حيث يقع مسكن (اسماعيل چمبه) فخرج هذا الاغا لمقابلتهم عند الجسر وحاول اقناعهم بان الحادث وقع بمحض الصدفة وليس من قبيل المذبحة العمدية وانه يجب ان ينظر بهذه الحدود، وطال الحديث والجدال، وقال رجال القبيلة انهم لا يهتمون أكانت الحادثة صدفة او عمدا، فقد سقط منهم عدد وسيستوفون حقهم دما بدم. وخابت وسائل الاقناع كلها. اخيرا قال الجبليون للاغا:

- لا فائدة مما تحاول يا اغا، انك بذلت كل ما بوسعك، ويجب علينا نحن ان نأخذ بثأرنا وتلك هي كلمتنا الاخيرة فابتعد عن طريقنا.

وعندها وقف (اسماعيل اغا چمبه) وقفته على رأس الجسر ونطق بالعبارة الآتية:

- ان كانت هذه كلمتكم الاخيرة، فاسمعوا مني كلمتي الاخيرة، هؤلاء الرجال ضيوفي الآن وقد اكلوا خبزي وهم في بيتي وما فعلوا قبل مجيئهم عندي لا يهمني في شيء، لو انهم قتلوا اخي فلن اتردد في حمايتهم الآن، فان تجاسرتم على القتال فانا الذي سادافع عنهم وعليكم ان تقتلوني انا رئيسكم قبل ان تضعوا ايديكم على اي ضيف من ضيوفي.

وهنا لم يسع طلاب الثأر الا ان ينكفؤا على اعقابهم، حتى اذا جن الليل قام (مالك اسماعيل) يعاونه ابنه (شليمون) بمرافقة ضيوفه الى ارض الامان عن طريق جبلي، وبلغ بهم (جولاميرك) سالمين. فكان عملا من اعمال الشهامة يصلح ايراده مثلا على فروسية تلك الايام.

ويشوب هذه الفروسية عرق لا يخلو منه الجبليون عموما، لا يسعنا نعته بغير «الصبيانية» فالمرح المتأتي من القتال لمجرد القتال يجتذبهم بشكل لا يقاوم. وفي ربيع العام ١٩١٢ دبر رجال منطقة «سليبكان» من القبائل المسيحية غارة ناجحة جدا على جيرانهم من كرد (چال) التي تعلو الجبل، لم تكن هذه الغارة غير فصل من فصول قصة ثأر امتدت عدة سنين. على انها خططت وطبقت بمهارة. فتم للمغيرين نهب خمسمائة رأس من الضأن. ليس هناك اية متعة في نهب اغنام العدو وهو غير عالم بمن نهبه!

«سيمي! سيمي! يا بنت الجيران،

اخرجي وانظري كيف يركب (جونستن) للغارة؟»

عند نهبه اسطبل كريتچن Crichton!»

ويحرص لطيف على تطبيق مبادىء الگيارديين Galliards [8] قفلوا راجعين الى القرية المنهوبة ليطلقوا بعض العبارات النارية مع بعض صرخات الاستهزاء، حتى استيقظ الكرد من نومهم وخرجوا عليهم فنشبت معركة بالطبع وصرع فيها ثلاثة او اربعة. اثار هذا العمل سخطنا، ليس للعمل بذاته، فالقتل ثأر والاغنام المنهوبة ربما كانت بمثابة رد لما نهب في السابق منهم ومن يدري؟ لعلهم اصحابها الشرعيون، سخطنا لان احد القتلى الكرد كان من الجندرمة ولان آغا (چال) هو مدير ناحية وكنا نخشى ان يستدعي مقتل الشرطي اخذا وردا وتحقيقا! على ان القضية مرت بسلام ولم يُسأل عن الشرطي ولم يفتقده احد، على اننا وجدنا من الضروري المطالبة بكل الحاح باجراء مصالحة بين الطرفين يكون فيها (مارشمعون) وسيطا. وسألناه ان يستخدم نفوذه البطريركي في هذا الصدد، فوافق غبطته مرحبا اذ كان رأيه مثل رأينا وعقب بقوله:

– حقا يجب على المسيحيين ان يسعوا لاجل احلال السلام الآن. فقد دخلت في ذمتهم ثلاث جثث واربع بندقيات!

ومرحهم القتالي لاجل القتال يتضمن حساسية صبيانية شديدة تستثار لاقل حافز. كان المؤلف قد سافر الى منطقة التخوما بصحبة احد زعماء هذا الاقليم، ونزل عنده ضيفا اثناء مروره بقريته طبعا.

وبعد بضعة اشهر عاد الى القرية نفسها، وقبل ان يدخل مشارفها وجد نفسه وجها لوجه امام زعيم اخر يدعى (يلده) يوازي بنفوذه نفوذ الزعيم الآخر الذي سبق واستضافه، وابتدر المؤلف قائلا:

– اظنك (يا رابي) ستحل عندي ضيفا هذه المرة؟

---

[8] نسبة الى رقص فيه مرح وخفة كان شائعا في القرن الخامس عشر باوروبا (المترجم).

ولما لم تأت موافقة الرابي فورا، راح «الجنتلمان» يشرح الضرورة الملجئة الى هذه الضيافة فقال:

- كما ترى انك نزلت في زيارتك الاولى ضيفا على (گيورگيس) وهذا امر طبيعي لا غبار عليه مادمت جئت معه، اما في هذه المرة فعليك ان تحل عندي ضيفا. فان فعلت ادخلت الى نفسي السرور وان لم تفعل.. فلا مفر لي من قتلك حالا!

فقبلت الدعوة في الحال وكان المضيف خير من عرفت كرما وطيبة.

وتروى قصة مؤلمة عن احد رسل تحريم الخمر وجد نفسه في قرية جبلية اقيمت فيها حفلة عرس. فدعي بكل لطف واحترام للمساهمة في الوليمة والرقص، فقبل الدعوة «لكي يحول دون الافراط في اللهو والقصف. ويعمل لحفظ الادب والوقار». وفي الوقت المناسب نهض صاحب الحفلة وقدم له كأسا من الخمر فرفض بشيء غير قليل من الحدة والجفاء، فثارت ثائرة الجبلي معتبرا هذا الرفض اهانة موجهة لشخصه فسحب مسدسه وصوب فوهته اليه واجبره على شرب الكأس حتى الثمالة، وكانت هذه اولى مصائبه فقد استمرأ المدعوون الاخرون هذه الدعابة فاخذوا يلاحقون الرجل المنكود طوال المساء كموكب طروب من متعهدي الحفلات وكل منهم يحمل بندقية محشوة وقدحا كبيرا مترعا خمراً، ولم يكن ثم مجال لرفض هذه الدعوات اللجوجة. ونخال ان الواجب يقضي علينا باسدال الستار عن الخاتمة المحتومة.

ومما لا مراء فيه ان الصبيان الذين يحملون البندقيات قد يكونون خطرين عندما تجرح مشاعرهم او عندما يشعرون بالخوف لاي سبب كان، فنراهم في هذه الاحوال ينقلبون على اخلص اصدقائهم، ان الدكتور (براون) الذي قضى معهم خمسة وعشرين عاما لم ير هؤلاء ينقلبون ضده اشرارا الا مرة واحدة، وكانوا اصدقاءنا الطيبين رجال التخوما، الا ان اللوم في الحقيقة لا يقع عليهم.

كان ثم رجل ماكر من الكاثوليك الجبليين يرغب في التخلص من نفوذ الدكتور براون، ولم يتحر الدقة في الاساليب التي يسلكها او يهتم بالنتائج التي قد تسفر عنها سواء أبالنسبة الى الاجنبي، او الى ابناء جلدته، فبعد ان تأكد ان الدكتور براون يهم برحلة الى التخوما وبعد ان اكتشف بعض التفاصيل عن خططه كتب رسالة الى المنطقة جاء فيها «كونوا على حذر، فهذا الإنگليزي قادم اليكم مع مرافق ونيته الاساسية هي القضاء على دينكم، فاحذروا منه عند وصوله فانه سيفعل كذا.. وكذا.. وهي امور تبدو بريئة المظهر لكنها ستكون لكم دليل اثبات باني انبأتكم بالحقيقة. ولكم عند ذلك ان تتصرفوا بالشكل الذي يلائمكم».

وصل الانگليزي مع رفيقه. وقام بالاعمال التي ذكرها لهم صاحب الرسالة فثارت الزوبعة واحتجز الرجلان عدة ايام في منزل احد رؤساء القرية سجينين، وتفاقمت الامور وحزبت ووصلت الى الحد الذي الجأ اهل الراي الى الجلوس والمداولة بمحضر الاسيرين حول مصيريهما

هل يقتلونهما ؟ فنجم عن ذلك نزاع وجردت الخناجر ، عندئذ تدخل الاسير الدكتور براون وهو عالم طبعا بالمحور الذي يدور حوله الحديث لانه يجيد السريانية كأحد ابنائها ، واننا لواثقون بانه لم يتدخل الا بعد تأكده من تأزم الموقف وتطوره الى فضيحة عراك بين مسيحيين قد يؤدي الى قتال دام. فراح وهو الاسير بين ايديهم يؤنبهم تأنيباً ابوياً على الخطيئة التي وقعوا فيها ويتكلم بما فيه مصلحتم عموما ، ثم «اصدر اوامره الجازمة» بان يغمد المتخاصمان خنجريهما ويقبل احدهما الآخر ، وبعد ذلك يستمران في النقاش! فاطاعا الامر وهما خجلان وتعانقا وتصالحا كما يفعل الاطفال! بأمر صدر من الانكليزي المهددة حياته، بهذا بات من المستحيل عليها ان يستمرا في مناقشة مسألة قتله وهكذا انتهت القضية!

الشجاعة والبرود وحضور النكتة. هي الزم ما يجب ان يتحلى به الاوروبي المتجول في كردستان، وبهذه الصفات يكون آمنا كأنه يعيش في لندن، ومن لا يتحلى بهذه الصفات لا يعدم الوقوع في مآزق وورطات. كما حصل لذلك الفرنسي المسكين الذي قدم الى البلاد لدراسة (الفلكلور: الادب الشعبي) الكردي دون ان يتزود بجواز سفر من «رودريك دهو Roderick Dhu » ولم يعمل بالنصيحة التي بذلت له وهو ان يتزود بمرافق نسطوري من بيت البطريرك يضمن له الحماية ويشرح عنه طبيعة عمله المعقد للكرد مسلمين ومسيحيين، بل اتخذ له «ارمنيا » لا يعرف شيئا عن طبيعة البلاد ، دخل معه ارض التخوما وهي اشرس بلاد القبائل المسيحية في كل حكاري وكان الوقت بعد تمام الحصاد والرجال عاطلون لا يعرفون كيف يقتلون الوقت، فلم يسعهم الا تنظيم قتال «ودي! » كان قد بلغ ذروته بين قريتين مسيحيتين عند وصول هذا الباحث الفرنسي فاستوقف وسأله الرجال المسلحون عن وجهته وماذا يريد ومن اين جاء؟ ولو انه صارحهم بالحقيقة واعلمهم بأنه شخص محايد لا علاقة له بالقتال لما اصابه ضر مثله مثل الكنعانيين عندما كان سيسرا [9] Sisera في معركته مع بعض القبائل الاسرائيلية. الا ان الارمني المأفون الاخرق شعر بالخوف وعانى مشقة كبيرة في شرح الغرض قاصدا افهام الرجال بأن سيده انما جاء لمصلحة طرف معين من الاطراف المتنازعة وانه صديق حميم لزعيم هذا الطرف. وشاءت الصدف كما اتضح بعد زمن طويل، ان الرجال الذين استوقفوه كانوا أكابر زعماء الطرف الآخر، فصدقوا بما زعمه الارمني عن صاحبه دون سؤاله وقرروا ان يعاملوه معاملة جاسوس مدسوس، ولحسن حظه اجلوا تنفيذ حكمهم به حتى ابلغوا (المار شمعون) بامره فامرهم باخلاء سبيله واعادة امتعته التي كانت قد صودرت منه طبعا. كما امرهم بان يحرس حتى يخرج من المنطقة، فاطاعوا الامر الا انهم احتفظوا بآلة تصوير من نوع «كوداك» كغنيمة حرب وساروا به حتى اخر حدودهم، ولم يكن مما يخالف طبيعة البشر ان يصوروا له خطورة الرحلة، وانهم لا يستطيعون ابدا ان يتركوا رجلا مثله جليل القدر يسافر

[9] قائد جيش يابين ملك صور الكنعاني. شجعت دبورة (باراق) على محاربته بعد ان اذاق اليهود هزائم كبيرة فجرت الموقعة على جبل طابور وانهزم سيسرا فلاقته زوجه وقتلته وهو نائم (المترجم).

دون حاشية كبيرة وحرس قوي واجرة ضخمة لكل فرد من البطانة تدفع.. مقدما! وهكذا سيق المسافر بهذا الحرس الى حدود المنطقة المسيحية، وشاءت الصدف ان يلتقوا بكرد من (چال) فسالوهم:

- ماذا عندكم ايها الاخوان؟

فأجابهم التخوما:

- واحد من الافرنج يزعم انه يرغب في دراسة عاداتكم واخلاقكم.

فقال الكرد:

- اذن فسلموه لنا فهذه هي فرصته الكبيرة.

فسلم لهم، سرقه المسيحيون اولا، ثم اعطوه للكرد ليبتزوه. ولم يكن ثم بطريرك في هذه المرة يستنجد به، ولما بلغ به هؤلاء الى العمادية، كان في حالة يرثى لها، الواقع انه لم يصب باذى جسماني خلا انه اهين في كرامته. أما عن مقتنياته فلم يبقوا له شيئا خلا الثياب التي تكسو جسمه وهي ليست بالكثيرة، ولعل الحظ كان حليفه لخروجه من المغامرة بهذا القدر.

والعمادية هي اقرب مركز حكومي لمنطقتي التياري والتخوما، وبذكرها علينا ان نسجل مغامرة ذاك (القاشا) المسن (توما) الذي اشرنا اليه في الفصل السابق. كان سيادته قد قصد العمادية برفقة شماس لشأن من شؤونه الخاصة فالقي القبض عليهما لا لجريمة معينة اتهما بها بل توقعا لظهور سبب ما يبرر عملية القبض عليهما اذا ما أبقيا في الحبس مدة طويلة، او ربما تطبيقا لمبدأ مسؤولية العشيرة بكامل افرادها عن اعمال كل فرد منها، حيث ان رجال التياري كانوا في ذلك الزمن يقومون ببعض الغارات.

وبسبب التجارب التي مرت على الحكومة عن التياري وصعوبة القاء القبض عليهم والاحتفاظ بهم فقد وضع حارس دائمي داخل الزنزانة مع الموقوفين ونصب حارس اخر خارجها، لم تؤخذ من القاشا مبراته وتركت ليستعين بها على طعامه ومن الواضح ان باب الزنزانة لا يبقى مقفلا على الدوام وانما يفتح في فترات. وفي احدى المناسبات سلم المفتاح الى القاشا ليمسكه عن الحارس لحظة فأسرع يقيس مسنناته بابهامه وهي طريقة القياس المألوفة لكل شيء في البلاد. وتبين تماما شكل المفتاح (والمفاتيح هناك لا تصنع من المعدن بل هي مجرد قطعة خشبية مسننة).

ولم يطل الامر بالحارس الداخلي حتى الف النوم في الزنزانة على شكل غفوات متقطعة. وانتهز القس والشماس هذه الغفوات لحز قطعة خشبية من السقف ونحتها، معتمدين على الذاكرة في نقش التفاصيل والقياسات التي حفظها القس، وفي فجر احد الايام اوقظ الحارس بخشونة ليجد سجينيه فوق حنجرته، واوثقا كتافه وكمما فمه بكل هدوء ثم حلت اللحظة الحاسمة عندما وضع القس المفتاح في القفل للمرة الاولى، وهنا اثبت الحداد كفاءته العظيمة

فقد كان مفتاحا متقنا. وما هي الا لحظة حتى كان للحارس الداخلي الموثق زميل اخر وهو الحارس الخارجي الذي لم يزد حرصه في المراقبة على حرص الآخر، وهكذا تركا حتى يكتشف امرهما وهرب القس وشماسه مسرعين الى جبالهما ومعهما بندقيتان جديدتان من نوع (مارتيني) وهي احدث بندقية حكومية تعويضا عن فترة بقائهما في بيت الحكومة.

انهم من جهة قبليون متوحشون بكل فضائل رجل القبيلة ورذائله. وهم من جهة اخرى صبيان جذابون مولعون بالاذى، هؤلاءهم جبليو كردستان! على ان هناك سمات اخرى في اخلاقهم تظهرهم رجالا قادرين على العمل الجدي المخلص، وقد يرد هذا الجد والاخلاص غالبا الى تعلقهم بكنيستهم التاريخية القديمة واستعدادهم للتفاني في سبيلها. وقد عرف المؤلف قضية من هذا النوع في قرية (ربات) في (تال)، فقد قتل بعض الكرد أخا لرئيس من رؤساء القرية، ولابد وان الجريمة كانت فظيعة شنعاء بحيث ثارت لها ضمائر الكرد انفسهم، فاعلن اغواتهم المحليون وجوب دفع دية لذوي القتيل. وفعلا سلم مبلغ قدره ستون ليرة ذهبية نقدا بناء على قرار مجلس تحكيمهم. فقبل اخ القتيل المال كدليل على انه صرف النظر عن ثأره. الا انه صرح قائلا بانه لن يأخذ تعويضا عن مقتل اخيه، وسلم المبلغ كله وهو ما لم ير مثله ولا يحلم ان يقع في المستقبل، لمتولي كنيسة القرية التي كانت في امس الحاجة الى ترميم، وبعطيته هذه أثار النخوة في اهل القرية جميعا فهدم بناء الكنيسة كله واعيد تشييده وساهم كل رجل وامراة وصبي في نقل الحجر من الجبال. واشرفوا على حرق الجص في الكور وساهموا في كل اعمال البناء الاخرى. وكادت المنطقة تخلو من الاشجار كما ضحوا بالكثير من اشجار الجوز الثمينة حول القرية وقدموها طعمة لنيران الكور، ومما يجدر ذكره هنا ان اشجار الجوز فضلا عن قيمتها فهي مصدر الترف الوحيد المسموح به لهؤلاء الناس في ايام الصوم الكبير الطويل الشديد الوطأة. ومعنى هذه الهدية هو انهم سيقتاتون بخبز الذرة والماء فقط في فترات صيام عديدة قادمة، لذلك علينا ان نفهم بان من اعطى شجرة جوز اعطى ما تزيد قيمته عن صك بمبلغ كبير محول الى مصرف، ولم يأخذ اي واحد منهم فلسا لقاء اتعابه، خلا بعض نفر من عمال البناء قدموا من منطقة اخرى للاشراف على العمل وهندسته وتقديم الارشادات[10] ولما كان لهذه النقابة الخاصة من البنائين اسرار في توازن البناء يصبو المهندس المعماري الحديث الى امتلاك ناصيتها عبثا، فقد كانت نتيجة المجهودات، بناية فخمة فريدة تعلوها قبة، وتتحدى كل افة او عارض طبيعي طوال القرون العديدة الاتية، اللهم الا الهدم العمدي الكافر. وكل هذا يقوم شاهدا على مدى تعلق هؤلاء القرويين بكنيستهم.

صحيح ان هذا التعلق المجرد، قد يتخذ اشكالا شاذة واهواء متقلبة في بعض الاحيان:

---

[10] رجال الباز بناؤن بالوراثة. وهم يهاجرون جماعة واحدة الى الموصل شتاء ليقوموا باعمال البناء هناك.

دب القلق في احدى المناطق بمجهودات تبشيرية لطائفة من المعلمين الكاثوليك الذين كانوا يحاولون ابعاد النساطرة عن ولائهم القديم، وهذا ما ينسجم مع مبادئهم طبعا، فنجحوا في كسب عدد منهم الى معسكرهم، ونفذ صبر شماس غيور على البيعة القديمة بهذا الزيغ والانحراف عن الايمان الحقيقي فأفضى الى المؤلف بخطة بارعة تقضي برش النفط على جدران الكنيسة الكاثوليكية الصغيرة واشعال النار فيها اثناء الصلاة وبهذا يتم التخلص من الكنيسة واتباعها دفعة واحدة! فهب كاهنه يزجره وقد تملكه فزع طبيعي لا تَعَمّل فيه من اقتراحه هذا، وحمله على تلاوة الوصية السادسة من الوصايا العشر. وغيرها من النصوص المقدسة الانجيلية المناسبة لموضوع البحث. فوعد وعدا قاطعا بان يحترم هذا التحيز الغربي من كاهنه، وصدق في وعده. لكنه اسرع يبرهن على ان لعبة الاقتباس من النصوص هي لعبة يجيدها اكثر من واحد حين قال:

- ماتقوله يا ابي صحيح بلا شك، لكنك تعلم جيدا بأن هؤلاء الپاپاويين لا يقلون وثنية عن عبدة الاصنام. وقد جاء في الكتاب المقدس ان الملك الصالح «يوشيا» اباح لشعبه احراق عظام عباد الصنم!

هناك قضية اغرب من هذه تتعلق بنكد طالع قرية يهودية كثرت آثامها وخطاياها تقع في اراضي (برواري) قريبة من اقليم التياري وعلى مسافة دانية من منطلق غاراتهم. ان القرى اليهودية نادرة في هذه الاصقاع ومعظم سكانها من سلالات «القبائل العشر» التي اسكنها (سرجون الآشوري) هناك.

فان كان ادعاؤهم هذا صحيحا فان نكد حظهم مضاعف، لقد اغار عليهم التياري ثلاث مرات متوالية في يوم «الجمعة العظيمة» من كل سنة. لا لان التياري يطلبونهم ثأرا بل اظهارا لمدى الاحترام الذي يكنونه لذلك اليوم ليس الا كان مجرد تفكيرهم بالقيام بعمل يتضح منه اشمئزازهم لجريمة ومشاركتهم بذلك شعور (كلوفيس Clovis [11] الملك تمام المشاركة مع عدم التثبت من التواريخ طبعا.

هذه الحادثة منتزعة من حوادث القرون الوسطى. على ان الناس الذين فعلوها هم من القرون الوسطى ايضا، بل حتى الشعوب المسيحية الاكثر منهم حضارة لاتتردد في الاعتداء على اليهود بهذا الشكل. ولست اشك مطلقا في ان رجال التياري انشدوا بعزيمة صادقة ونية خالصة الترتيلة الخاصة بقداس العيد الكبير الذي يبدأ «ويل لامة اليهود».

وليس بالغريب ابدا ان تبقى هذه المعتقدات الغريبة والعادات والخرافات سائدة في هذا الركن من قارة اسيا بشكل يزيد عما بلغته في اجزاء اخرى.

---

[11] ملك الفرانك (٤٦٦-٥١١) عرف بتعصبه للمسيحية واتخاذها ذريعة للفتح والهجوم على اقرانه وتوسيع رقعة ملكه (المترجم).

وعلم قراءة الغيب (اذا وضعنا نصب اعيننا حادثة مشهورة جدا) ليس يبدو هنا موهبة يشترك فيها العموم كما هو الامر في سكتلندا، والا لكان الشرقي اكثر حذرا في كلامه حول هذا الموضوع مع الاجنبي. مع هذا فقد طرق سمعنا تفاصيل عن بعض اعمال التنبوء بالغيب. واشهرها حادثة ذلك العراف الذي دأب رجال قبيلته على استشارته في كل ما هو خطير، فتنبأ لهم مرة عن الكارثة التي تزمع ان تصيبهم في غارة معينة قرروا القيام بها. وصدقت نبوءته بالحرف الواحد اذ قال:

- ستكون عاقبة خروجكم الى المسلمين الآن، هزيمة من امامهم، وستفرون بسبعة سبل. وانت نفسك ايها الرئيس ستنجو بحياتك وستنقذك شجرة صفصاف، وسيكون الموت من نصيبي.

وتحققت النبوءة بالحرف الواحد، فقد هزم المسيحيون في المعركة وتفرقوا وقتل العراف برصاصة طائشة في حين كان الكرد يحرصون على نجاته، وهرب الرئيس فطورد، ونجا بالقاء نفسه في مياه الزاب فحدره التيار ولم تكتب له السلامة الا بتشبثه بفرع شجرة صفصاف.

هناك نبوءة اخرى، بل هي رؤيا تتلعق بالمؤلف شخصيا. كان ذلك في اواخر خريف ١٩٠٧ وقد خرجت انا والمرحوم الاسقف (كوللنز) اسقف جبل طارق من (وان) نقصد (قدشانس) بزيارة. وكان وصولنا متوقعا هناك في وقت معين الا ان ما طرأ على الجو من انقلاب فظيع، افقدهم الامل بوصولنا فضلا عن اقامتهم صلاة ابتهال خاصة كي نعود الى (وان) بسلام.

وفي تلك الاثناء اقبل (نْويًا) خادم القس (دبليو. اج. براون) وشماسه، مندفعا وعليه امارات اللهفة والتأثر وقال له:

- انهم قادمون يا أبت، قادمون بالتأكيد، فقد رأيتهم ليلة امس في الحلم، وسيصلون قريتنا في هذا اليوم بالذات. الا انني رأيتهم مقبلين من أعلى الوادي لا من اسفله كما كتب لك (مستر ويگرام). وقد رأيت الاسقف معتمرا بقبعة سوداء، أما (مستر ويگرام) فكانت قبعته بيضاء.

وبعد ثلاث ساعات بالضبط وصل الرسول المستطلع الذي بعثنا به لينبيء بقرب وصولنا، وقبل نهاية النهار بلغت قافلتنا (قدشانس) بالطريق الذي وصفه الشماس الخادم. وكنا قد آثرناه على الطريق الآخر بعد ان تأكد لنا استحالة السير فيه. وكان الاسقف معتمرا بطاقية من فراء الاستراخان الاسود، والمؤلف معتمراً بخوذة شمس بيضاء، ووجه الغرابة في الامر هو ان الشك لا يمكن ان يتطرق في وجود سبق علم للشماس بنيتنا لان ذلك مستحيل في الواقع، والتفسير الوحيد لهذه الظاهرة العجيبة هو انتقال الافكار (التخاطر).

ان لكل شعب خرافاته واعتقاداته في تعليل سر الخليقة ولغز الولادة. كأسلافنا واعتقادهم بما يدعونه (البديل). وعند النساطرة ان الخطر الذي يتهدد المولودين حديثا، مصدره حيزبون ليلية مخيفة يسمونها «خواره» فهذه تتسلل ليلا الى منزل الوليد لتحاول سرقته وخنقه. لذلك

تراهم يقومون بحراسة الطفل ليل نهار توقعا لمجيئها. وتكون الرقابة شديدة في ايام حياته الاولى (وتجري مراسيم العماد في اليوم الثامن لولادته عادة) ومن الضروري ان لا تخلو غرفته من راس بصل ومشط. فرائحة البصل تسبب للروح الشريرة عطاسا وتجردها من قوتها. اما مشط الصوف (ولانه من الحديد) فله قوة حماية ذاتية اذ تشتبك فيه جدائل شعرها الطويلة فتضطر الى الفرار مذعورة[12] وقد حدثنا شيخ طاعن السن من بيت البطريرك كيف انه تسلم مرة نوبته في حراسة طفل عزيز، بلغ به الاهمال حدا انه خرج من الغرفة لتدخين سيكارة. فاذا به يشاهد «خواره» مخيفة تقبل من بعيد. ثم تتقمص هيئة وعل ذي قرون في منتهى الطول (لم يصف لنا محدثنا شكلها الاول وهذا مما يؤسف له) ثم تقتحم الغرفة، فاندفع الحارس النادم على تماهله ليلحق بها. فوجد الطفل نائما بهدوء (لا شك انه التأثير الفعال لقوى المشط والبصلة) وانتهت المسألة بسلام، الا ان الشيخ ما زال حتى يومنا هذا يذكر الحادثة متعوذا مرتعبا.

والشفاء بقوة الايمان حقيقة واقعة هنا كما في سائر اقاليم كردستان حسبما نوهنا آنفا. ويؤم الناس الكنائس التي ذاع صيتها بقابليات الشفاء العجيبة نتيجة لتواتر انباء نجاحها في هذه الصنعة. والمريض فيها لابد يمر ببعض التجارب الصارمة المعينة كشرط اساسي لشفائه ونجاحه في هذه التجارب هو الدليل على استجابة طلبه وبرئه. ومن تلك البيع بيعة مار عبد يشوع في (تال) التي كانت في الماضي صومعة ناسك ذي شهرة محلية عظيمة وتقع في كهف بأعلى سفح جبل يشق على المرء الوصول اليه، واشتهرت بانها مقصد الازواج الذين يشكون العقم. وطريقة الاستشفاء تتم بان يمر الشخص العقيم بعد اداء صلاة معينة. من «طريق مار عبد يشوع» وهو نفق طبيعي في بطن الصخور، يشبه الى حد ما «ابرة القديس ويلفريد St. Wilfrid في ريبون Ripon»[13].

والمرور السهل من هذا الثقب، لهو دليل على استجابة الدعاء، الا ان الفشل في ذلك لا يعني ان طلب الشخص غير مستجاب (كما في مثيله الانكليزي)، بل هو اشارة الى ان القديس يريد أجوراً! وانه يجب ان يتعهد بها المرء حتى يجيبه الى مطلبه. والواقع هو ان نحيل الجسم يستطيع عادة ان يمر من الثقب بسهولة اما مكتمل الرجولة فلا يتمكن من ذلك الا اذا اتخذ وضعا معينا، فان لم يسعده الحظ بالعثور على الزاوية الصحيحة، فانه سيلقى مشقة وعنتا، والشرط هو ان يقوم وحده بالعمل ولا يسمح له بالاستعانة باحد من الواقفين. وقد

---

[12] فليتذكر القارىء ان المشط واحد من الرموز الغامضة المحفورة على جدار معبد اليزيدية (الشيخ آدي).

[13] رئيس اساقفة يورك وريبون (٦٣٤-٧٠٩) عرف بحذقه في العمارة والبناء. ولابد ان المؤلفين هنا يشيران الى موضع في دير ريبون الذي بناه (المترجم).

حاول شيخ من شيوخ الكرد القيام بالتجربة لانه كان يريد ابنا ذكرا (على حد علم المؤلف) فحشر نفسه في الثقب فعصي ولم يستطع الخروج او الدخول، فانتابه خوف شديد كاد يفقده عقله، وسرعان ما اهتدى الى فكرة تقديم نذر للقديس عساه يسمح له بالخروج. وابتدأ بنذور صغيرة فلم تقبل منه فأخذ يزيد في الثمن حتى بلغ به الامر ان عرض على القديس كل غنمه ونصف ما يملك من بندقيات لكن القديس العنيد بقي معرضا عنه، ثم قيل له ان الرشاوى الكبيرة لا تفيد شيئا وعليه ان يتعهد للقديس بما هو في حاجة اليه لا اكثر ولا اقل، وقيل له ان «صاحب القداسة» يبدو احيانا غريب النزوات متقلب الاطوار، وكان على الزعيم الكردي ان يبذل مجهودا عقليا جبارا ليحزر ما يحتاجه قديس يسكن الجنة الآن وقد كان زاهدا متقشفا على الارض، وبعد لأي وقع على النذر المنشود (او وقع جسمه على وضع مناسب للانسلال!) فأفرج عنه بعد ان تعهد بدفع خمسة واربعين غرشا لاغير! ومما يسر ذكره هو انه دفع المبلغ بكامله وكوفيء بالابن الذكر المنشود! فزاده هذا احتراما لاماكن العبادة المسيحية زيادة كبيرة.

لهذا الهيكل سمعة عالية بين كل المذاهب الاسلامية والمسيحية على حد سواء. وفي المرة الوحيدة التي استهدف لغارة بعض الكرد ثارت ثائرة رجال القبيلة التي ينتمي اليها المغيرون وقبض عليهم حالا وقتلوا جميعا واعيد المنهوب.

ويعالج الجنون عند رجال قبيلة التياري علاجا غريبا (ويصرح جيرانهم ان القبيلة كلها من صنف المجانين ويدعمون هذا القول بحكايات مختلفة عنهم من الخير ان لا يرددها المرء بمحضر منهم)[14] فعندما لا تعود تجدي الزيارات الى البيع الشهيرة، يدفن المريض حيا ويهيأ للدفن كأنه جثة ميت بالضبط، ثم يحمل الى المقبرة على نعش، ويشيع بالصلوات الدينية والمراسيم الكنسيّة التامة المتبعة في مثل هذه المناسبات، ويقبر وتترك له فتحة صغيرة للتنفس. وبعد اربع وعشرين ساعة ينبش القبر ويخرج بكل رعاية. وكثيرا ما تخلف الصدمة العصبية أثرها وتأتي بنتائج طيبة لكن ليس دائما.

ومما هو جدير بالاشارة ايضا ان اخر مرة جرت فيها هذه التجربة احدثت اثرا سيئا واثارت شعورا غير مستحب على مدى علم المؤلف، فقد ظل الشك قائما في شفاء المجنون الذي جرت عليه العملية. دفن حسب الاصول وجاء اصدقاؤه لاخراجه في الوقت المعين. وما ان رفعت الاحجار حتى هب واقفا وهو يصرخ.

- لقد قمت من بين الاموات! لقد قمت، هذا هو يوم القيامة!

ثم اجال نظره فيما حوله باشمئزاز. وتطلع باحتقار الى الرجال الذين اجتمعوا لمعاونته في الخروج وقال لهم:

---

[14] انظر الحاشية العامة في نهاية الفصل.

- من كان يتوقع رؤيتكم في يوم القيامة يوم الوعد الحق؟

وظل الناس يتسـاءلون حائرين. اما زال الرجل مجنونا؟ واصدقاؤه يميلون الى هذا الرأي. الا ان هناك شعورا يقض عليهم مضاجعهم متأتيا من كونه «ما يزال يميز الصقور من الدراج عندما تهب الريح جنوبا»!

وان كان رجال التياري يدفنون قبل ان يحين اجلهم في بعض الاحيان على هذه الصورة. فثم عادة اخرى كانت شائعة عندهم لكنها انقرضت قبل عدة اجيال، فيها يستغنون عن اجراءات الدفن برمتها. فهم ككل الشعوب المتمدنة وفي كل الظروف المناخية، اعتادوا ابعاد الشيوخ عن طريق الشباب عندما يفقد اولئك كل لذة في الحياة. وطريقة التياري هي ان يتخلصوا منهم بالقائهم في هاوية معدة لهذا الغرض بين مهاوي بلادهم الكثيرة. ويعزى الغاء هذه العادة- كما تروي الحكاية- الى رجل معين حمل والده للتخلص منه بالطريقة (الشريفة) التي ذكرناها، وتعب وهو يرتقي الجبل، فوضع حمله ليرتاح قليلا في ظل شجرة معينة وفيما هو جالس سمع أباه يضحك. فسأله:

- والآن، ما الذي يضحكك؟

اجاب الرجل الهرم

- آه. اني استذكر ليس الا، خطر ببالي الآن كيف اني حملت ابي الطاعن في السن الى هذا المكان بالذات، ووضعته هنا لاستريح عند هذه الشجرة كما فعلت انت، فبدا لي الامر جديرا بالضحك. ان ابنك الصغير (يعقوب) سيفعل بك مثلما تفعل بي تماما عندما يحين دورك!

وهذا ما حمل الابن على ان يفكر في الامور بشكل جديد. وكان عليه ان يقر بانه لا يود ان يحمله ابنه الصغير بهذا الشكل ويقذف به الى الهاوية ولعل اباه الآن لا يريد ان تُطَبق عليه هذه العادة؟ وهكذا ادى به التفكير الى العودة بابيه الى القرية لمواجهة السخط العام لنبذه العمل وفق تقليد درج عليه اباؤه من قبله، فكان هذا ايذانا بانقراض العادة.

لا شك ان افاضل الانكليز سيصابون بذعر وارتعاد حين يفاجأون بنبأ انتشار هذه العادة بين افراد مجتمع مسيحي (وان كان مسيحيا بالاسم). فلا شك اذن انهم يجهلون الحقيقة التاريخية حول ممارسة اسلافنا انفسهم ما يشبه هذه العادة عندما كانوا في مرحلة تطور تاريخي مساوية لمرحلة هؤلاء. ان الطبيعة البشرية هي هي انى توجهتَ. ونحن نعتقد ان عادة قتل الطاعنين في السن (اعني الافواه التي يجب ان تملأ بالطعام ولا فائدة منها) لم تنقرض من بلاد (السويد) المسيحية حتى القرن الخامس عشر. فـ «هراوات» الاسرة المستعملة في قتلهم كانت عادة تحفظ في الكنائس[15]

[15] انظر «تايلر» في «انثروبولوجيا» الفصل ١٦

حاشية

من اطرف ما روي للتنكيت على حساب هؤلاء رجال كوثام [16] هي الحادثة التي قصها مار شمعون على المؤلف. وغبطته والحق يقال قاص بارع، قال: اتفق في احد ايام الصيف ان غيوما حجبت قرص الشمس. وكانت ظاهرة غير مألوفة في تلك الانحاء التي يسكنها التياري مما دعا الى عقد اجتماع حظير لبحث التدابير التي ينبغي اتخاذها لمعالجة الامر. فقر الرأي ان كوكب النهار قد تعرض له الكهف الواقع على حافة شعبهم الجبار فاختفى فيه وان لم يستخرج حالا فستقع كارثة عظيمة. وبناء على ذلك تألف وفد ليبذل اقصى ما في وسعه في استنقاذ الشمس. وانحنى اول رجل بلغ فم الكهف واخذ ينظر في ظلمته فلاحت له بؤرتان تشعان ضياء فنادى رفاقه قائلا:

- كل شيء على مايرام! فها هنا الشمس ومعها القمر ايضا. سأزحف اليهما واخلصهما.

وزحف مقتربا من مصدر النور. لكنه وجد لسوء حظه ان الضياء يشع من عيني فهد رابض. واسرع الحيوان البارع يقط رأسه بضربة مخلب واحدة. ولما طالت غيبته عن رفاقه ولم يجب عن اسئلتهم، سحبوه الى الخارج من قدميه، فوجدوه بدون رأس، وصاح الرئيس مستغربا:

- امر غريب! غريب جدا. اليس لبعضكم علم هل جاء يوخنان مع رأسه عند خروجنا معا أم تركه في منزله؟

ولم يسع أي واحد منهم ان يؤكد هذه النقطة. لذلك نزلوا جميعا الى القرية للسؤال من زوجه، وقالوا لها:

- يا سنجي زوج يوخنان. اخبرينا الآن. هل ترك زوجك رأسه هنا عندما صعد الجبل صباح هذا اليوم؟ لاننا لم نشاهده فوق جسمه الآن.

فدلفت (سنجي) الى البيت تبحث عن الرأس، ثم خرجت بعد قليل لتقول لهم:

- ليس في المنزل مطلقا.

فقال الرئيس:

- اذن فلا بد وانه سقط منه اثناء صعوده الجبل، وسيجده الاولاد ويجلبونه معهم عندما يأتون بقطعان الماعز الى القرية عند غروب الشمس!

---

[16] تعبير يشير الى حماقة ارتكبها سكان قرية كوثام في نوتنكهامشير. تقول الحكاية ان رجال القرية هددتهم زيارة نواها الملك جون لقريتهم ولاجل التخلص من النفقات والمصاريف التي تستتبعها هذه الزيارة اتفقوا فيما بينهم على التظاهر بالحمق والجنون. ولما جاءهم رسول الملك وجدهم يقومون باعمال لا تمت الى صحة العقل بصلة فقطع بجنونهم وانبأ ملكه بالحال، فحاد عن طريقهم ولم يدخل قريتهم (المترجم).

15

فضوليون في ارض العفاريت

العمادية وبوتان

فيما يلي مناطق التخوما و «سه له بيكان» جنوبا، يتمد وادي العمادية الطويل الوعر الذي يعرف بوادي «سپنه»، وتفصله عن تلك البقاع سفوح جبال صخرية شاهقة، والى جانبه شرقا يسكن شيخا (بارزان) و (نهري) كما قدمنا. اما الجانب الغربي فيتقاسمه عدد من صغار اغوات الكرد وهم طبعا من صنف «العشائر» كجيرانهم يسكنون القسم الرئيس من وادي سپنه وسلسلة جبال «گاره» التي تؤلف حاجزاً اماميا تفصل الوادي عن كل من سهل الموصل ووادي (برواري) الذي يمتد بموازاته الى الشمال، ورؤساء هذه العشائر، «شيوخ صغار» اكبرهم «مير (امير) برواري واغا چال». ليس بينهم من يزيد عدد اتباعه عن بضع مئات على الاغلب، على ان واحداً او اخر قد يبرز منهم زعيما لحلف في بعض الاحيان، وصناعتهم الدائمة هي الخروج على القانون واعمال العنف المألوفة. وليس في ارض (گاره) جنتلمان معروف الا وهو محترف هذه الصنعة الرفيعة الموموقة. وان وجد من تختلف صنعته عما ذكرنا فلم يصل خبره الى علمنا طوال مكوثنا هناك وهو ثلاث سنوات. ووضع كهذا لا يؤثر في الواقع على راحة اي شخص حتى علاقاته الطيبة مع موظفي الحكومة، فهذا بالاحرى طابع الجنتلمانية الاكثر بروزاً

وتسكن شخصيات اعظم من هؤلاء الى الشرق منهم والى الغرب وهم (شيخ بارزان) واغا (سندي گلي) المدعو (عبدي). وعندما يختلف هذان الشيخان مع الحكومة فلا تعود القضية قضية خروج على القانون او مجرد عصيان، بل حرباً كاملة الابعاد. ولا يتسنى للحكومة مهما حاولت ان تخضد شوكتهم. ولعبدي اغا شيخ (سندي گلي) الكفة الراجحة، فهو يملك معقلا ممتازاً، لم تبلغه عساكر الحكومة قط، وهي قوة تكفل له التعادل مع المكانة الدينية التي يتمتع بها جاره. ومعقله هذا هضبة مدحاة شاهقة، هضبة (تنينه) العظيمة الممتدة فوق الجبال والمكسوة بالغابات الكثيرة المياه، ومراعيها واسعة جداً تكفي قطعان القبيلة طوال فصل الصيف. ولم يسمح لاي اجنبي بزيارة القمة. كما لايمكن ان يبلغها المرء حسبما يقال الا بطرق ثلاث سهلة محروسة حراسة شديدة. ما ان تبلغ القبيلة الهضبة حتى تكون في موضع يمكنها به ان تهزأ بأية قوة حكومية تجرد عليها من المنطقة، وان قوة كبيرة تحشد لغرض القاء الحصار عليها يتعذر تأمين القوت لها، في حين يكون من السهل جدا ان يتغلب هؤلاء على وحدات صغيرة من الجيش قد ترابط في الممرات ورؤوس الطرق. لا شك ان جيشا مصمما على هدفه لا يتعذر عليه اقتحام هذا المعقل ولكن بعد ان تلحق به خسارة فادحة للغاية، ونقطة الضعف الوحيدة في هذا المعقل تكمن على ما يبدو في الحقيقة التالية:

لا يمكن لانسان او حيوان ان يعيش في هذه القمة ايام الشتاء، والقبيلة نفسها تنزل الى السهل حالما تهب رياح الخريف ويتساقط اول الثلج. وفي هذا تكمن فرصة الحكومة ان كانت تهتم حقا باشاعة النظام وسيادة القانون.

وانك لتجد عددا كبيرا من القرى في انحاء المنطقة التي يقطنها المسيحيون تكاد كلها تكون نسطورية. الا النهاية الغربية فهناك عدد كبير من القرى التي يسكنها اليعاقبة، وكلها من «الرعية» او مرتبطة اقطاعياً بالشيوخ الكرد الذين يعيشون معهم وحالتهم لا تزيد عن حالة الاقنان، والعمادية البلدة الرئيسة في تلك المنطقة هي مركز حكومي كامل الجهاز، ففيها قائمقام وضابط جندرمة وقاضي منطقة. الا ان (سعادة القائمقام) اذكى من ان يصدر اي امر قد لايسر جيرانه.

هكذا ترك هؤلاء الاغوات الثانويين احرارا يفعلون ما يطيب لهم. وكانت النتيجة حكماً فاسدا سيئاً لا يتصور. ان زعيماً مهاب الجانب كشيخ بارزان لا يتسامح على اقل تقدير بوجود حكم مطلق اخر. كذلك يدرك ان قتل النحل ليس خير الطرق للحصول على العسل باستمرار، الا ان صغار الشيوخ لهم احقادهم وثأراتهم المتبادلة، وان الماشية المتطفلة على احدهم يجب ان يؤمن لها مورد للرزق كيفما كان، يضاف الى هذا ان الضمائر ميتة، بل حتى الشعور بالمصلحة الشخصية الناضج الذي قد يعمل احيانا على الضمير ويكون بديلا عنه.

والتظلم من الاغا الى الحكومة وطلب الانتصاف من اعماله السيئة هو مضيعة للوقت، ومن يجرأ على عمل كهذا، يلقّنه الشيخ الاقطاعي درسا فيه انذار للاخرين وتحذير لئلا يصدر منهم عمل مماثل.

ولو تناولنا بالوصف اعمال اثنين من هؤلاء الشيوخ الصغار، فلعلنا سنعين القاريء الجاهل باساليب موظفي الحكومة العثمانية في المناطق النائية، على تفهم حقيقة الحكم التركي. ولنبدأ (برشيد) مير البرواري. كان هذا يظهر كثيرا من التودد والاحترام اللفظي الكاذب للحكومة حتى انه وافق على ان يبتاع من السلطة حقوق جباية الضرائب من القرى المسيحية سنة بعد سنة، هذا الحق يمارسه عادة، الموظفون المحليون (اما وانه مخالف لصراحة القانون فهذا لايهم قط)، فيدفع بوصفه (متعهدا) مبلغا مقطوعا للخزينة، ويقوم بتحصيل ما يتيسر له من السكان ضمن حدود المنطقة المخصصة له. و(رشيد) هذا يدفع خمس ليرات عن كل قرية الى الخزينة. ولعله يدفع ايضا خمس ليرات اخرى بخشيشا ليضمن عدم قيام منافس له في الميدان. او ليكون متأكدا من ان ذوي الشأن سيجدون عيبا او قصورا في اي عطاء اخر[1] ثم ليؤمن اعتصار حوالي مائتي ليرة من كل قرية مسكينة!

---

[1] ان الرجاء الذي تقدم به الينا ابناء البلاد الذين كانوا يرافقوننا تدلك عليه سمعة (رشيد البرواري) الشخصية، فقد طلبوا منا ان نحتفظ لهم بنقودهم اثناء مرورنا في منطقته. فظلنا المصون لا تأثير له هناك!

ومن المحتمل ان ما يجبيه المتعهد قد لا يزيد كثيرا عن ضعف المبلغ الحقيقي او المخمن للضريبة. ومع هذا فلا يسع المرء الا ان يتمنى لو اتخذت حكومات الارياف نظام جباية اجدى من هذا. فعندما يكمل تحصيل الضريبة على هذا الاسلوب السقيم في ثلاثين قرية فان هذا يعني خسارة مادية فادحة للخزينة الخاوية على مدار السنة. وانك لتكلم التركي حتى يخرج الزبد من شدقيك وتلهث تعبا لتثبت له ان طريقته ليست غير سرقة وسرقة رقيعة ايضا، وانه قد يحصل بنظام جباية جيد على عَشْرة اضعاف ما يدخله بعشْر المجهود. فيجيبك بأدب وبكل صراحة، انك واهم. وجهلك بالبلاد مغتفر لك لانك اجنبي اما ما يقوله عنك او يفكر به في غيابك، فلعلك تستطيع تخمينه.

وفي ميدان الثأر يقع كل ماهو ليس في حسبانك، فللمير رشيد البرواري ثأر قائم مع رجال التياري يعود تاريخه الى عشرين عاما مضت. ويقال ان اصله يعود الى حادثة قتل غادرة وقعت في بيت القاتل الذي امن القتيل، تأججت نار الاحقاد في صيف العام ١٩٠٨ وكان للكرد بعض العذر في ذلك لان بعض الرؤوس الحارة من التياري (بدافع سخطهم من رفض الكرد اجراء مصالحة معهم كانوا هم قد اقترحوها عليهم) قاموا بغارة على اراضي البرواري وقتلوا اخا لرشيد فما كان من رشيد الا وانتزع الرصاصة من جسم فقيده وبعث برسالة الى اغا وادي ليزان وهي الجهة التي اقبل منها الغزاة، يقول فيها انه يحتفظ بالرصاصة التي قتلت اخاه ليدفنها في اغا ليزان، وهو جزاء وفاق والحق يقال، الا انه اشتط وتعدى الحد المناسب وضرب عرض الحائط بكل قواعد الثأر حينما اعلن «جهادا ضد المسيحيين» في امر لا يمكن اعتباره اكثر من مجرد ثأر قبلي.

ومهما يكن فقد انضم اليه كل العشائر الكردية المجاورة وانضوت تحت لوائه. وامكنه حشد ثمانية آلاف مقاتل مسلح ببندقيات حديثة، يقابلهم الف وخمسمائة مقاتل مسلحين ببندقيات الحشوة القديمة وهذا كل ما كان في وسع وادي ليزان الصغير تحشيده، ولقد قيل الشيء الكثير عن سمعة التياري في القتال بحيث لم يجرأ مقاتلو (رشيد) على القيام بهجوم جبهي رغم تفوقهم، وعمدوا الى عملية التفاف طويلة عبر الجبال للوصول الى راس وادي (ليزان) الذي هو احد فروع الزاب وكان المسيحيون يقومون على حمايته، فزحف المغيرون وهم ينهبون ما يصادفهم في الطريق، بينما وقفت العشائر المسيحية فوق الجبال تشاهد منازلها والنار تلتهمها واحدا بعد الاخر.

لم يكن ثم ما يستحق النهب لان الماشية والنساء اجليت الى الشمال، على ان قواعد الحرب وآدابها خرقت تماما. فقطعت الاشجار من منابتها واحرقت القرى واضرمت النار في الزروع النابتة وكسرت السواقي لاتلاف المزروعات في الحقول الاخرى. وتقدم الفاتحون لتنفيذ التهديد القديم وهو «انهم سيرقصون في بيعة مار جرجس في عيد مارجرجس» وبعدها يحملون السيف والنار الى وادي التياري الرئيس الذي لم يكن له بالثأر اي شأن او علاقة.

هذه الكارثة الاخيرة امكن تفاديها بعمل واحد من اعمال البسالة. كان موقع البيعة المقصودة في قاعدة الوادي بالقرب من الجسر المنصوب فوق الزاب وهو نقطة العبور الوحيدة الى المنطقة الواسعة المهددة. فقد تبين لاحد الاغوات المدافعين ان قبضة يد من الشجعان الفدائيين قد تستطيع ان تقذف بنفسها الى داخل بيت يشرف على الجسر والبيعة معا وتنقذ اخوانهم بتضحية انفسهم. وطلب متطوعين لمرافقته في عملية قطع خط تقدم المغيرين، باحتلالهم تلك النقطة. كان يريد رجالا باعوا انفسهم للموت. لان «الجهاد» لا يعرف الحلول النصفية. فنال ما ابتغى وتألفت عصبة الفدائيين. هنا لعل القاريء يسمح لنا ببعض فخر متأت من كون احد اعضاء هذا «الامل اليائس» تلميذا للمؤلف في «مدرسته الاكليريكية» واسمه (سيپو). ووصل الفدائيون المركز المعين واستعدوا للدفاع، وتمثلت اخر استعدادات (سيپو) في اخراج كتب دراسته من المنزل (تشاء الصدف ان يكون الموقعُ المنتخب منزلَه الخاص)، واخفاها في حفرة بين الصخور. وكان هذا اول دليل على شدة تعلقه بها اثناء حياته. وحكم الفدائيون وسائل دفاعهم، ولما لم يكونوا بمواجهة القسم الاكبر من قوات العدو فقد استطاعوا فعلا الحاق الهزيمة بتجريدة منهم وكبدوها خسائر جسيمة اثناء تراجعها. وعاد (سيپو) ببندقية جديدة وكان قد دخل المعركة ببارودة قديمة الطراز. وهي غنيمة عادلة من خصمه المرحوم! وأهم من هذا هو محافظتهم على الجسر سليما. ومع ان الوادي الصغير احرق من طرف الى طرف، الا ان الوادي الكبير سلم من التدمير، وامكن التياري ان يحضروا قداس الاحد التالي في بيعة مار جرجس التي لم تنتهك.

حرب علنية كهذه قد تثير اهتمام اية حكومة حتى الحكومة العثمانية، كما تستدعي الاستفسارات والقاء الاسئلة، وانصافا للموظفين نقول انهم كانوا يودون لو تنوسي الامر برمته وتركت القضية. لكن السفارة الانكليزية وقناصلها لم يتركوهم في سلام. ولم يكن هناك مفر من التسليم بارسال مندوب الى موضع ما قريب من المنطقة مخول بموجب تعليمات واوامر لاجراء بعض «التحقيقات» في الموضوع. وكلمة «تحقيقات» من الناحية اللغوية تعني تحري الحقائق او الاستجواب القضائي، اما من الناحية العملية فمعناها ارسال موظف اوصي مقدما باضاعة الوقت، وبان لا يفعل شيئا بمنتهى الاتقان! وفي اثناء ذلك تقول الحكومة المركزية للاجنبي المتدخل:

- عليك ان تسمح لنا بمدة معقولة وبفرصة للعمل.

ثم تستبدل هذه الجملة بعد بضعة اشهر بالجملة التالية:

- حسن، ان القضية وقعت منذ زمن بعيد، وليس بمقدورنا ان نفتح ابوابها الآن!

وفي هذه القضية بالذات، وصل الموظف المنتدب الى العمادية واصدر لرشيد البرواري تكليفا بالحضور امامه وتقديم تفسير لمسلكه. فارسل (رشيد) خمس ليرات الى الآمر المبلّغ مع

نبأ مرض الم به اضطره الى ملازمة الفراش، طالبا من السيد المبلغ ان يجدد الدعوة فيما بعد، وهذا العمل ارضى الجميع.

ذلكم نموذج من الاجراءات التي كانت تملأ القنصل يأسا. فمن الصعب جدا ان يستحصل من الحكومة المركزية امرا تأديبيا او قرارا يتضمن اصلاح ذات البين. حتى لو استحصل امرا كهذا. فاي فائدة ترجى منه حين لا يوجد اي احتمال في تنفيذه؟ كل «صاحب امارة» غبي في خدمة الحكومة العثمانية يدري ما هو معنى «الامر المطاط» فهو امر انتزع من الحكومة قسرا نتيجة ضغط اجنبي، القصد منه اهمال تنفيذه. ان هؤلاء الموظفين يعرفون جيدا متى تريد السلطة اتخاذ الاجراءات الجدية فيطلقون لها العنان فورا، ويعرفون جيدا متى لا يعني الامر شيئا فلا يعملون شيئا. وليس بوسع النفوذ الاجنبي ان يزرع قنصلا في كل مكان يحتمل ان يقع فيه ظلم، وليس هناك دولة اجنبية تستطيع ان تنصب قنصلاً في كل مديرية ناحية، وان امكن ذلك فأي جدوى فيه؟ اذا ارادت تركيا الاخذ باسباب الاصلاح حقا فعليها ان تستعين بموظفي تنفيذ اجانب وبمستشارين اجانب، او عليها ان تمارس الشدة، اعني ان تشنق الموظف الذي لا يطيع الاوامر، او الاغا الذي يهدد الامن والنظام ويكفي ستة رجال اكفاء ليعيدوا الامن والاطمئنان الى البلاد وليجعلوها مثل حديقة «هايد پارك» على مدار السنة، اذ لو يتبين للمشاغبين ومثيرى الفتن ان هناك احتمالا بنسبة واحد الى عشرين بوقوعهم تحت طائلة الحكومة، لما رأيتهم يقدمون على غارة قط.

ومنافس (رشيد) الاوحد في بررواري هو اغا «چال»[2]. رجل كبير السن ومدير ناحية حكومي في منطقته، يعتنق مذهبا صوفيا، وكلتا الصفتين تضفيان على شخصه طابع الاحترام. نصب مديرا في المنطقة للمحافظة على النظام. والوظيفة بحد ذاتها تأتي في آخر سلم الوظائف الادارية، اما بخصوص مذهبه فالصوفية اناس مسالمون غيبيون كما يؤثر عنهم، وان المرء ليلذ له ان يحادث اولئك الفلاسفة الدينيين حقا. لكن صاحبنا هذا كان ابرع القتلة واشدهم مكرا في المنطقة كلها، والحق يقال انها لشهرة لايستهان بها في صنعة كهذه الصنعة لها شيخ محلي كبير. ولعل هذه الصفة ليست ابرز ما في هذا الاغا، لانه الرجل الوحيد الذي يحتفظ بقطيع مدجن من اليهود على مدى معرفة المؤلف وقرية (چال) يسكنها عدد كبير منهم وهم اقنان خُلّص للاغا، يستخدمهم لكل الغايات وكل النوايا نساجي المال هؤلاء! ولقد عرض على المؤلف التمتع بحقوق كاملة في واحد منهم بمبلغ لا يزيد عن خمس ليرات. ولو ان هذه الصفقة عقدت في مناطق اكثر مدنية لكانت فعلا من انجح الصفقات التجارية التي لا تعنُّ الا نادرا. (وانصافا للبائع نقول انه لم يدرك ان مثل هذه الصفقات لا تعقد في مكان

---

[2] «چال» باللغة التركية معناها (حرامي) وعادة يكون قاطع طريق. لكن الكلمة المستعملة هنا ليست اشتقاقا من الاصل التركي، وان كانت تناسب واقع الحال مناسبة عجيبة.

آخر). يهودي؟ ملك خالص لك، يضع كل ذكائه المالي تحت تصرفك، لتستخدمه في مصلحتك فقط. الحق يقال انه اثمن ملك يطمح اليه المرء.

هناك رؤساء اخرون يحتفظون بيهود «مدجنين» على هذه الشاكلة لكن ليس بالنطاق الواسع الذي تجده عند اغا (چال) الحكيم. وبطبيعة الحال ينتظر منك ان تحمي (ملكك) العبراني هذا وتدفع عنه الاذى او الاضطهاد مثلما كان ملك انكلترا يدفعه عنهم عندما كان يملك حق حيازة كل يهود انكلترا ويحرص على ان لا يتخلف مدينوهم عن دفع مابذمتهم. الا ان اغوات الكرد لا ينهضون دوما باعباء الواجب. وعلم المؤلف عن اسرائيلي مملوك لاحد الاغوات على هذه الطريقة، أنْ قام اغا ثان هو خصم لسيده بالسطو عليه وتجريده من كل فلس وكل خرقة يملكها. فشكا (ابراهيم المسكين) الامر لسيده، واخذ يثير النخوة فيه قائلا: انه (لعيب) عليه ان يترك ملكه يسرق بهذا الشكل. ولم يسع مولاه الا ان يتفق معه على صحة ما يقول، الا ان الانتصاف له بقوة السلاح وهو الاسلوب الواضح، مستحيل لان السارق اقوى منه بكثير. قال العبراني البائس متوسلا:

- لقد اسود وجهك يا مولاي!

فأجابه الاغا:

- نعم، لا شك في ذلك. لكني مع هذا لا استطيع الاغارة عليه.

وفجأة قفزت الى خاطره فكرة نيرة فقال:

- اعرني سمعك يا ابراهيم. لقد وجدت الحل ما قولك اذا ذهبت انا بنفسي ونهبت اليهودي العائد له؟

تلك هي طريقة تفكير اغوات الكرد، وليفهم من هذا ايضا مدى الخطر الكبير الذي تتعرض له (رعيتهم) المسيحيون المساكين عندما يختصم زعيمان فيما بينهما، ففي هذه الظروف يكفي الاغا ان يغزو قرى خصمه المسيحية العزلاء ولا يتعرض للقرى المسلمة المسلحة، حتى ينتصف لشرفه ومكانته، فضلا عما في ذلك من فائدة مادية ومخاطر قليلة. وكلا الجانبين يمارس هذه العادة اللطيفة براحة بال، والذي يقاسي منها هم (الرعية) المساكين.

ان وجود زعامة كردية قوية تحكم بلاد كردستان لهو تقدم عظيم باهر ومهما كانت تلك الزعامة طاغية، فهي خير من حكم منافسين عديدين. لابد ان يكون لهذا الحاكم العام من التبصر والادراك البسيطين ما يؤهله الى الاعتراف بان اضطهاد الرعية لا يفيد فائدة مادية، لئلا تكون قطعان الماشية هذه بدرجة من نكران الجميل لتموت على يده! وقد رويت حكاية عن شقيق «بدرخان بك» المشهور، فبينما كان هذا يفكر في القيام بغارة غارة اخرى، اقبل عليه اخوه في الديوان وقد ارتدى ثياب فلاح مهلهة وبيده مجرفة فصاح اخوه الشيخ:

- ما شاء الله! ما سبب هذا التنكر؟

- الحقيقة يا اخي هي ان مصيرنا هو بالشكل الذي تراني ، هذا ما سنؤول اليه اذا بقيتَ مصرا على لعبتك بذبح المسيحيين فانك لن تبقي على مُزارِع واحد في كل البلاد.

فوقعت الامثولة العملية في الصميم واحدثت اثرها الفوري كما كان يحدث كثيرا في ايام التوراة، وعدل «بدرخان بك» عن الغارة التي خططها له الاتراك.

والتهبت المشاعر في اثناء الحروب البلغارية والايطالية، واخذ المسلمون يتحدثون عن مذبحة تأتي على جميع المسيحيين، وجوبه كردي كان يتوعد بهذا المصير ويتباهى بذلك في احدى القرى المسيحية جوبه برد لايتوقعه اي اوروبي، لكننا رأيناه ذا تأثير شديد الوقع في عدة مناطق، قال له (القاشا) الشيخ:

- طبعا انكم تستطيعون القيام بمذبحة فنحن هنا بين ايديكم، ولكن ماذا سيفعل بكم الملك جورج عند ذلك؟

فأجابه الكردي ساخرا:

- الملك جورج؟ ان ذراعه لا تصل الى كردستان.

- اجل انها لا تصل. لكن يوجد لديه ملايين من (الرعايا) المسلمين في الهند، ولو قتلتمونا، اتظنون بانه لن يتقاضى حياة بحياة؟

فتلعثم الكردي وابى اول الامر ان يصدق بوجود (رعايا) مسلمين تحت حكم اي ملك مسيحي، ولما تأكد من الحقيقة اقر مذعنا باحتمال واهلية قيام الملك جورج بأخذ الثأر من مسلمي الهند مقابل اي عمل يقوم به اخوانهم في الدين ضد مسيحيي كردستان، ان الشرقي جهبذ فيلسوف في ادراكه معنى التضامن وشد الازر!

زد على هذا ان الكردي رجل حي الضمير، فهو نفسه لا يتوقع ان يثوي هادئا في قبره الا اذا وضع مسيحي قطعة من القماش فوقه دليلا على الصفح والغفران، انها وايم الله لعقيدة غريبة خلا انها مقبولة من الطرفين.

دفن بالقرب من العمادية مؤخرا، قاطع طريق مشهور. وفيما كان ثلاثة من قبيلة التياري يمرون بقبره بعد حلول الظلام، سمعوا صوتا مرعباً صادرا من اعماقه. فتقدم اشجعهم من القبر ليجد نعجة مصابة بضيق النفس تربض فوقه، فكان اكتشافا سيء النقيبة لانه هدم القول المأثور هدما تاما.

كان وضع المنطقة عندما جئناها اهدأ من المنطقة التي غادرناها، ذلك لان العشائر المسيحية لا يمكن ان تحافظ على استقلالها وحريتها، الا في اشد المضايق وعورة واصعبها اجتيازا. ففي منطقتي (برواري وسپنه) لا تجد تلك الجبال الصخرية الشاهقة، ووديانها اوسع من تلك، والجبال عادة تغطيها الغابات والاشجار النامية التي هي نوع من انواع البلوط القصير الساق،

وهو لحسن الحظ شجر ثمين بحد ذاته لانه ينتج ثمرة البلوط التي تستخدم استخداما واسعا في صبغ الثياب المحلية. لهذا امنت على نفسها من الآنقراض. وتختلف الالوان المستخلصة حسب الطريقة المستخدمة في عملها من الاصفر الباهت الى البني الغامق، والاصباغ النباتية المحضة هي والحق يقال ممتازة جدا بألوانها، واجمل نقيض لها الاصباغ القاسية الباردة الانيلية التي ينتجها العلم الاوروبي لتدمير وتشويه سجاجيد هذه البلاد الجميلة.

واغلب الجبال كلسي ويكون امتدادها بسلاسل طويلة متجهة شرقا او غربا وهي ذات صدوع شديدة الانحدار جرف صخرية على القمم تليها سفوح مكسوة بالغابات. هذه السفوح تفقد ارتفاعاتها بالتدريج اثناء دنوها من سهل الموصل الا انها تأتي الى نهايتها الفجائية في آخر مرحلة انحدار لها الى السهل اللامتناهي. وتتدفق الآنهار كعادتها وهي حريصة على المخالفة والمشاكسة، وتخرج سالمة من الجبال الى مجراها الجنوبي، على انها تتقبل الروافد من كل واد تمر به.

و تمتد طبقات من الفحم الحجري الجيد في معظم هذه المناطق. وقد رأى المؤلف بام عينه منجما على شكل شق سمكه ست اقدم يستخرج منه الفحم في اربعة مواضع على طول خط طوله ستون ميلاً، وربما امتد دون انقطاع الى اتجاهات اخرى ايضاً، وهو بالطبع مما لايمكن الاتفاع به الآن اقتصادياً، فالاقتصاد السياسي التركي يقول، مادام الفحم الحجري موجوداً هنا، فهو في حزر حريز يمثل منبعاً من منابع الثروة الوطنية. وان انت استخرجته واستهلكته فلا يمكنك الإتيان ببديل له. زد على هذا فامتياز التنقيب والاستخراج او اي عمل من شأنه ان يجيء، لهو من قبيل اللعنة عند العثمانيين ولايمكن السماح به ما استطاعت الحكومة الى ذلك سبيلا.

و الشاخص البارز الرئيس في وادي (سپنه) هو بلدة العمادية.

انها بلدة تربض فوق هضبة منعزلة كبيرة نافرة من سلسلة الجبال التي تمتد خلفها مثل برج يبرز من اسوار قلعة، وتعلو الهضبة سفوح كلسية مستوية ذات انحدار متواصل دائري الشكل حتى لتبدو وكأنها جدار صناعي هائل اذا نظر المرء اليها من بعيد، لابد وانها كانت معقلا منيعا يمتد تأريخه الى ايام الآشوريين كما تشهد به منحوتة مخرومة كثيراً فظيعة التشويه نقشت على وجه صخرة قريبة من المدخل الرئيس.

ان الاسوار التي حبتها بها الطبيعة كانت كافية دائماً لحمايتها، ولا يتطلب من وسائل دفاع لها الا حماية مدخليها الوحيدين. والبلدة الآن هي مجموعة من البيوت الحقيرة لايزيد حجمها عن حجم قرية كبيرة. الا انها بالنسبة الى وادي (سپنه) حاضرة المنطقة الريفية كلها، وهي مقر الحكومة الوحيد في الجوار لذلك اختير مقر «بعثة رئيس الاساقفة الى الاثوريين» في ضواحيها عندما ارتؤي استحداث مركز قريب الى حد ما من جبال التياري والتخوما، وقد سبب هذه الفكرة «خفقات اجنحة ليست غريبة ابداً في برج حمام» تلك المناطق العتيقة

الطراز. فشعر الكرد بالقرف والاشمئزاز وهو امر متوقع. ان قطاع الطرق المحترمين الطيبين القدماء الذين ظلوا اجيالا متعاقبة هكذا، تركزت مصالحهم في دوام الاوضاع التي جعلت صنعتهم مربحة لهم. ما عسى ان يكون شعورهم لما يأتي «افرنجي» شخصه محصن ضد السرقة والنهب؟ زد على هذا ان مجرد وجوده يجعل غاراتهم اكثر احراجا وصعوبة. في السابق إذا دار بعض الاسئلة عن حادثة سطو على اغنام (وهو قليل الوقوع) فمن السهولة بمكان اقناع القائمقام بالا يفعل شيئاً ولا يكتب عن الحادث تقريراً. اما الانگليزي فصلته وثيقة بالقنصلية (وهي من العن المؤسسات)، وصلة تلك القنصلية وثيقة بالوالي، والوالي لا يعطف على الضروريات التي يحتاجها السيد الكردي، مما يجعل وجوب شراء هذا العطف والتغاضي بأغلى الاثمان.

و مما زاد في الطين بلة وجود اسقف كاثوليكي المذهب في المنطقة، هذا ايضاً كان يحتج على مجيء مؤسسة تعمل على وضع عمود فقري لكنيسة هرطوقية يقوم هو تدريجاً بالحاقها بالكنيسة الاصلية الحقيقية (وهو من وجهة نظره الخاصة محق جداً بعمله واحتجاجه). و ينبغي ان نذكر هنا ان اساليب «سيادته» في هذا العمل المبرور «تتسم بطابع الخشونة نوعاً ما، اننا نستدرك قولنا هذا فنقر بأن الحكم على الشرق الحديث بمقاييس القرن العشرين هو من الظلم الصارخ. وان انت اخترت لنفسك العيش في جو القرون الوسطى (ولنقل في احد عقود القرن الثالث عشر) فعليك الا تشكو من تصرفات الناس التي تمليها عليهم روح ذلك القرن، وخير الامور هو أن تنشيء لنفسك اخلاقاً وامزجة ملائمة تأريخياً، لكي يتسنى لك الاستمتاع بطرافة الاشياء التي تعن لك.

والمطران المشار اليه هو من ابناء البلاد وليس اوروبيا ومن الطائفة الكلدانية ولا سبب يدعونا قط للظن بان معلميه الاباء الدومينيكان في الموصل على معرفة باساليب القرون الوسطى التي يتبعها، والارجح انه لايقدم تقريراً دقيقاً لهم، ويخال لنا انه ليس على اتصال مباشر معهم عن طريق المراسلة، وكمبدأ أساسي، هناك امور في البلاد لايمكن ان يفهمها (الافرنجي) مهما حاول، والخير له ان لا يفهمها اراحة لضميره و عقله. وقد يكون رئيس هذا الاسقف وهو البطريرك الكلداني - أعلم من اولئك الاجانب، لانه شرقي، لهذا فهو مدرك فاهم قويّ العقلية، فلا تراه يتعب نفسه بالحذر الذي لا طائل تحته ولا حاجة تدعو اليه.

اذن فمن المستحسن طرد هذا الانگليزي الدخيل. كانت خطوة سيادته الاولى هي الرجاء من الوالي بأن يصدر امرا باخراجه بسبب سوء خلق فيه بلغ مبلغاً حدا بالكرد انفسهم الا يتسامحوا في بقائه. ففشلت هذه المحاولة، وكانت حجة الوالي ان الاخلاق الكردية ليست مما يهمه. وعلى كل فحتى الانگليزي لن يزيد من اخلاقهم الحاضرة سوءاً! ويؤسفنا ان نقول هنا، ان الوالي اصدر قراره وخرج رأسا ليتناول الغداء مع القنصل البريطاني وليشاركه في هذا المزاح القذر.

بعد ان خاب مسعى سيادة الاسقف من هذه الجهة، اتصل بالكرد المحليين وقال لهم.

لو سمحتم لذلك الانكليزي بالسكنى هنا. فسيستعدي عليكم الحكومة كلما شننتم غارة، لايعود بأمكانكم نهب القرى المسيحية بهدوء واطمئنان بعد الآن.

وهذا صحيح بطبيعة الحال، وبكلمة اخرى انه صحيح لان الاجنبي سيعمل كل ما في طوقه توصل الى هذه النتيجة الطبيعية بقدر ما تسمح له امكاناته المحدودة. وليس هذا لمصلحة قرى المسيحية وحدها بل لمصلحة الكرد انفسهم لو فكروا ووافقوا عليها.

واما انها خطة اسقفية، فهي من الغرابة بمكان ولا شك. لكن الشعور العام في الشرق هو لك لا تختار اقل الاساليب اذى في قذف عدوك بالاحجار، وان نصبت له الفخاخ للايقاع به القضاء عليه فلا خطر عليك البتة من ان تتساقط عليك مقذوفات منجنيقك الخاص، وعلى ل فهنالك فقط منطق القرون الوسطى الذي لايرى أي بأس في ان تستخدم الشيطان لينجز ك عملك، وبعدها تحتال عليه حتى لا تدفع اجوره.

وتقدم الاسقف الى الكرد بحجة اخرى، قال: ان الانكليز ينوون الحاق البلاد بامبراطوريتهم ي المستقبل القريب، فطاشت هذه الرصاصة ايضاً بشكل يدعو الى الرثاء. اذ بعد ان راح بعضهم يتساءل عما اذا كانت القصة صحيحة هتفوا قائلين:

- الحمدلله! ولنأمل ان يقوم الانكليز بتحقيق نواياهم هذه بشكل اسرع مما طبعوا عليه حياناً!

ولم يكن هذا بعجيب، فمما لاينكر ان عددا لا يستهان به من رجال القبائل الكردية قد ساقوا ذرعا بالفوضى والتسيب الحكومي. انهم ملوا الفوضى اكثر من مللهم من الترك. وتبين ن الغزوات لا تثمر شيئا مع الزمن الطويل. انها تسلية جملية لكن الخسارة في الجهود فادحة جدا، وليس ثم غارة واحدة نجحت في ادامة رزق عدد كبير من الاتباع واطعامهم الى أبد لآبدين، وممارسة الغزو تستلزم ابقاء عددكبير من الاتباع لهذا الغرض، لذلك ولعجزهم الحالي ن اقامة اي نوع من انواع الحكم الذاتي خلا حكمهم القبلي الاقطاعي. فانك تراهم يرحبون أي تغيير أو تدخل أجنبي، لكن مهما كان الترحيب بالاجنبي كبيرا في مبدأ الامر، فانه- لتثق بذلك، سيكون مكروها ممجوجا (ولو بصورة محترمة ظاهريا) عندما تزول من الافواه حلاوة طعم ذلك الذي فرضه.

وبعض الاغوات الكرد يرحبون بدخول الانكليز لاسباب اخرى شخصية ومنهم «رشيد آغا باره» (غير رشيد البرواري الذي اسفلنا ذكره). ذاع صيته في صناعة قتل الناس حتى نافس فيها آغا چال، وفي ذات يوم اقبل الى زيارتنا، فالقى الرعب في قلوب اهل الدار بالحاشية التي رافقته ووجدها لازمة لمكانته، او ربما كان الدافع اليها سلامته لان الحكومة واعداءه كانوا يتربصون به الدوائر، كل فريق من جانبه.

سألني الخدم:

هل ستستقبله يا ابانا؟ انه قتل خمسة عشر رجلاً بيديه.

بدا لنا كـ(لامبرو Lambro) القرصان «ألين عريكة واعظم دماثة من كل الذين امتهنوا صناعة اغراق السفن وحز الرقاب». وبعد التحيات المعتادة انهى الينا بغرضه الحقيقي فقال متسائلاً: «هل بوسعنا ان نسجله واحداً من الرعايا البريطانيين؟» وشرح قصده بقوله ان اعداءه كثيرون وقد شدوا عليه النكير وباتوا مصدر قلق له بخصوص الجرائم التي زعموا انه ارتكبها. فاذا تكرمنا عليه بهذا الفضل فسيكون تحت حماية القنصلية وهذا ما سيطهر صفحته و يمسح كل غبار عن ماضيه. وكالعادة عرض علينا ردا لهذا الجميل ان يتعهد بكل سرور في ازالة أي عدو لنا من الوجود[3].

فعبرنا عن عميق أسفنا لعجزنا عن القيام بالخدمة التي طلبها واوضحنا له اننا لا نشعر بوجود عدو لنا يبلغ بنا العداء مبلغ الرغبة في قتله. وهو ما لم يلق من محدثنا تصديقا وان يكن تكذيبنا هذا يحف به الادب والاحترام، فعلاقتنا السيئة بجيرتنا لم تكن خافية عنه.

ودفعنا البحث العلمي النزيه الى ان نلقى عليه سؤالا اخر فقلنا:

- نريد ان نسألك حول صحة الزعم الذي يشيعه عنك اعداؤك ايها الاغا. اهناك ظل من الحقيقة حول ما يتعلق بارتكابك خمسة عشرة حادثة قتل، اصحيح هذا؟

فاجاب بكل برود:

- ماذا افعل يا افندم؟ كلهم كانوا اعدائي ماعدا اثنين فقط اولهما كان يهوديا وقعت عيناه على نسائي.

ولم يسعنا التفاهم معه الا اننا افترقنا على احسن ما يكون الاصدقاء.

أما القرى المسيحية فرحبت بالطبع بوجود ما يؤمن لها الحماية من النهب، ورفضت ان تسمع او تصدق اي تكذيب رسمي صادر من اي جهة سياسية حول اشاعة الاسقف بنية مجيء بريطانيا الى البلاد وصرحوا قائلين:

- الان سنكون قادرين على ارسال اغنامنا الى أبعد المراعي.

أن ارسال اغنامهم الى المراعي البعيدة لا يعني عادة الا دعوة صريحة لسارقي الغنم لا نراهم يترددون في قبولها.

والشخص الذي كانت حالته تدعو الى اعظم الرثاء هو القائمقام. فقد كان عليه أن يكظم ما يشعر به من الأشمئزاز أزاء مثير هذه الازعاجات، و أن يخفيه تحت قناع بريء من التأدب.

---

[3] كان المؤلف يقص هذه الحكاية في احد الاجتماعات في انكلترا بعد عودته. فسمع سيد في الحفل يقول مستنكراً «أفٍ أفٍ أفٍ لماذا لم يَعْهَد له بالمهمة؟».

كما كان عليه أن يتحمل منتقدا لا يستطيع الخلاص منه او التقليل من خطره، والأنكى من هذا كله ان جيرانه الكرد الذين رغبوا في طرد الاجنبي، كانوا واثقين ان القائمقام قادر على ذلك لو اراد، لكنه ارتش.

ولايسع المرء الا ان يدخر شيئاً من العطف لرجل مسكين وجد نفسه وقد خسر شهرته عند اصدقائه لانه يعجز عن القيام بما يود لو صلم اذنيه ثمنا لتحقيقه ان استطاع اليه سبيلا. و تقاطرت عليه العرائض بأستمرار تطالب بنفي الاجنبي، ولما حاول في ساعة ضعف ان يشتري السلم بأصدار مثل هذا الامر، لم يكتف الرجل الانكليزي غير الواقعي بالعصيان على الامر، بل عمد الى الاتصال بقنصله، فسبب للقائمقام توبيخا من الوالي. و تذكيراً بوجود «المعاهدات» والامتيازات الاجنبية السارية المفعول، لكن كيف يفهم الكرد هذا و بأية وسيلة؟

لما وجد «الجيران» ان القائمقام لن يتحرك ولن يقدم على شيء، قرروا ان يتحركوا هم ويأخذوا منه المبادأة. واتفقت شركة منهم وعرضت ·فعلاً جائزة قدرها الف ليرة تدفع لاي شخص يهديء اعصابهم المتوترة بازاحة الاجنبي ازاحة ابدية تامة، وازالته عن وجه الارض. وتقدم مختلف السادة يعلنون رغبتهم في القيام بهذا العمل كما اكد لنا المخبرون المحليون، وربما تكلمت مخاوفهم؟ مثلما حدث من قبل لضباط انكليز! على ان الشركة أبت تسليم الجائزة حتى يتم العمل، وانقطعت المفاوضات عند هذه النقطة تاركة الانكليزي في احسن حال من طيب المزاج بعد ان علم بمقدار الثمن الغالي الذي وضع لرأسه مما يليق بمركزه، ولو وضع له سعر منخفض لكانت والحق يقال ضربة اليمة لاعتداده الطبيعي بنفسه، لكن الف جنيه استرليني ترفع صاحبها الى الحلقة الارستقراطية وتجعله زميلاً لـ«كلود دوفال[4] claud duval» وند كيلي [5] Ned kelly) وذلك الرجل «چارلس ستيورات [6] Charles stuart» والجنرال الزنجي «Nigger general» الذي كاد يخرب ڤرجيني[7] Virginny

وفي تلك الاثناء شعر القنصل في الموصل بقلق طبيعي لهذه المقترحات المتعلقة بأحد ممن هم في حمايته فأتصل بصديق وهو «عبدي آغا» زعيم «سندي گلي» الذي نوهنا بذكره من قبل،

---

[4] كلود دوفال (١٦٤٣-١٦٧٠) قاطع طريق شهير ولد في فرنسا ومارس عمله في انكلترا، وعرف بو قانعه مع النساء وفرط جسارته. قبض عليه وهو سكران وشنق (المترجم).

[5] ند كيلي (١٨٥٥-١٨٨٠) اشهر قاطع طريق وخارج على القانون في استراليا. وضعت الحكومة ثمناً لرأسه هو واخوه الا انه قبض عليه بعد ان حوصر الفندق الذي نزل فيه مع عصابته ثم اعدم الحياة (المترجم).

[6] جارلس ستيوارت زعيم عصابة امريكي عمل في الغرب وقد قتل في معركة له مع رجال القانون (المترجم).

[7] لعل المقصود به (نات تورنر) الذي قاد جمهرة من العبيد في ولاية فرجينيا للثورة ضد البيض واقتضى لاخضاعه واستسلامه في ١٨٣١، تجنيد ٣ رجل. (المترجم)

وكان صديقاً حميماً لكل الانكليز بسبب شفاء ابنته من مرض الم بها، بفضل معالجتها في المستشفى الانكليزي بالموصل، واقترح عليه القنصل ما يلي:

- اصغ الي يا صديقي. انت تعلم ان اهالي العمادية هؤلاء، راحوا يتكلمون كلاماً سيئاً ويكتبون العرائض. و بما انك تتمتع بنفوذ عندهم فهلا امكنك ان تلح عليهم من طرف خفي بأنهم يضربون رؤوسهم في جدار من الصخر؟ وليس بخاف عنك اننا لا نريد اثارة اية متاعب مهما كلف الامر، ساكون مضطرا الى اتخاذ اجراءات صارمة اذا غالوا واشتطوا.

فاجابه الاغا الممنون:

- أمرك يا بگ على الرأس والعين.

واليك نص «التلميح من طرف خفي» الذي قام به الاغا!

«يا اهالي العمادية، ايها الكلاب. لقد طرق سمعي انكم تنبحون في وجوه اصدقائي الانكليز، فأعلموا الآن هذا»:

«ان لم تسكنوا وتتركوا هذه الاعمال حالا والى الاخير. فسأنهب كل كروان لكم يخرج متوجها الى الموصل»

طلب هذا الانكليزي من الحكومة في استانبول اصدار (فرمان) يسمح ببناء دار للبعثة. وكان الطلب يسلك سبيل البطء و التراخي المعهود الذي هو طابع الحكم العثماني، وعندها وقعت حادثة غريبة: فقد ترك القنصل البريطاني اتون الموصل الذي تتلظى به المدينة ايام الصيف وجاء العمادية، ونزل في دار المؤلف في الموقع الذي اختير ارضا لدار البعثة المنوي اقامته. وفي اثناء وجوده ظهرت في المنطقة غجرية صربية عجوز لا تتكلم حرفاً من الكردية بل تتفاهم بالاشارات فقط مع الاهالي، وكان (قواس) القنصل من مواطني «الجبل الاسود» وهو يتكلم لغتها وعن طريقه صرنا نتفاهم واياها، فادعت بأنها عرافة حاذقة وعرضت ان تكشف لنا عن مبلغ حذقها تحديا واثباتا لمقدرتها لا غير، فسمح لها بذلك فطلبت شيئاً مما يلبسه القنصل فأعطيت قطعة من رباط عنقٍ قديم، فقطعته اجزاء صغيرة ونثرتها فوق سطح ماء وبعد ان درست العلامات اصدرت حكمها ونطقت بنبؤتها التالية:

- لقد جئت هنا لاقامة دار كبيرة في هذه البقعة من الارض، وانت تلقى معارضة كبيرة في بنائها، لكن طبْ نفساً ولا تخش شيئاً، فقذ زالت الصعوبات وسيبنى المنزل وتسكن فيه».

وبعد حوالي ستة اسابيع بلغتنا الانباء بصدور الفرمان.

وعرض للمؤلف حادث تنبؤ بالغيب ثان في البلدة نفسها. فقد اتفق ان فقد صبي صغير السن وبعد بحث عقيم عنه لجأ الابوان الى (قاشا) طاعن في السن عرف ببراعته في السحر (الخرشوتا) على اختلاف انواعه، وطريقته تتلخص في ان يأخذ حصاة من مجرى ماء

ويسحقها حتى تصير ترابا وهو يتلو ادعية معينة. ثم يكتب قائمة طويلة بأسماء مواقع و امكنة على قطع من الورق. ويلقى بها وبتراب الحصاة في قدر ماء يؤخذ من ساقية جارية. ثم يتلو ادعية وصلوات ويختمها بالجمجمة السحرية التالية «اعط جواباً مضبوطاً» ثم يلتقط اقرب ورقة طافية على الحافة. وبدا الموضع المدون في الورقة غير معقول مطلقاً، لانه ممر يقع بين جبلين شاهقين يصعب جداً الوصول اليه، ومع هذا فقد ارتقاه الابوان للبحث عن المفقود كما اشارت النبوءة. ولم يطل بهما الامر حتى وجداً جثته. وكان الصبي قد ارتقى الجبل من قمة الى قمة اطاعة للقانون الغامض الذي يسري على جملة من هذه الاحداث، فتاه وادركه الموت من فرط التعب.

ليس في هذه البقعة من الارض بلدة خير من العمادية لاستقاء المعلومات الغريبة عن طرق الحياة في هذه الاصقاع النائية، لاسيما اذا اضفت ممارسة الطب على عملك التعليمي كما فعلنا هناك، فقد مارسنا صناعة الطب لانها مهمة انسانية من جهة ولانه لاشيء اقوى مفعولا من وصف جرعة دواء تستأصل بها روح العداء والنفرة. وكانت تردنا حالات من المرض عجيبة ويطلب منا معالجتها كما سنأتي الى ايضاحه بعد قليل، ولعل العلاج الذي كنا نصفه لها قد يعتبر من وجهة نظر الطبيب المرخص اغرب من تلك الامراض واعجب[8].

فمثلاً اقبل علينا مجنون البلدة يسأل على يدنا الشفاء، وكان مدركا تمام الادراك بأنه مصاب في عقله. كما كان يدري السبب في مرضه. فقد زعم ان خصما لدودا له دس في مرقه مخ جحش منذ مدة، فأكله دون ان يدري، فاصيب بلوثة جنونه هذه.

فكرنا وهدانا فكرنا الى معالجة الوهم بالوهم، وكانت خطتنا ان نوثق كتاف صاحبنا ونضجعه ثم نحدث جرحاً صغيراً في بطنه. وبعدها نعرض عليه قطعة من اللحم بوصفها مخ الجحش الذي استخرجناه من بطنه، فقد علمنا عن حالات شفاء عديدة مماثلة جرت في امكنة اخرى، ونخص منها بالذكر تلك الفتاة الموصلية التي ادخل في روعها انها بلعت «سام ابرص» وانه يأكل احشاءها من الداخل، وعزمت عزماً صادقاً على الموت بهذا الشيء! الا انها شفيت شفاء تاما بعد ان اعطيت مخدراً. ثم عرض عليها، بعد افاقتها جرح صغير في موضع من جسمها تم (سام ابرص) في زجاجة كحولية. الا ان مريضنا هنا رفض اجراء العملية، فكانت خير نتيجة نحصل عليها. لان تنفيذ مشروع كهذا هو من قبيل اللعب بالنار.

وذات مرة، قدم كردي الى زميل لنا انكليزي ورجا منه ان يخلع له ضرسه، فقام الافرنجي بعمله خير قيام لخبرته السابقة في هذه الصناعة، وكان امتنان الكردي لا يحد وقدم لخالع سنه (مجيديين) اجوراً فرفضها معتذراً بأن المعالجة مجانية فزاد عجب الكردي، ولما كان جنتلمانا

---

[8] ليس في هذه البلاد الجبلية شيء يشبه ما يعرف عندنا بهيئة المحلفين التي تحقق في نتائج معالجة الاطباء، على اننا لم نقتل احدا من مرضانا على مدى علمنا.

حقيقـياً يأبى ان يحرز شيئاً بلا مقـابل، فقد كان عرضه الثاني على فـرط غرابته نابعا عن روح طيبة خالصة، قال:

- انظر يا افندم، انت نـصراني، اليس كذلك؟ فـاصغ الي سيكون لي سبعون حورية عندما ادخل الجنة، والموضع الذي تذهبون اليـه انتم خال من الحوريات. فما قـولك لو اعطيـتك جانباً من حصتي؟ حوريتين مثلا؟

وقد حسبنا فوجدنا ان سعر السـوق الحالي للحوريات هو مجيـدي واحد (يعادل ثلاثة شلنات وستة بنسات). فاذا اضفنا اليه الربح المركب للمبلغ خلال عشرين سنة فالثمن لاشك رخيص.

ولعل اغرب مريض بائس لقيناه هو رجل معدم جاءنا به وفد من اهالي قريتـه وطلبوا منا ان نشـفيـه من داء العين الشـريرة ووصـفوا اعـراض المرض فـقالوا: ان وقـعت عـينه على وعـاء فـيـه حليب فـسـد الحليب، وان نظر الى شاة، افـتـرسـهـا ذئب. وان تطلع الى طفل، سـقط في نار مسعرة، وابدوا كـثيـراً من العطف عليه، مدركين تماما ان هذا من سوء حظه ونكد طالعه لاخطأ منه. الا انه كان مع هذا مصدر قلق كبير لجيرانه. وقالوا ان لهم كبـير أمل في ان يتحقق شفاؤه على يد الانكليـز و بفضل علومـهم، وكـان علينا الاقـرار آسفين بأن قـانون الادوية الصـيـدليـة البريطانية لا يحوي علاجا لهذا الداء. ومع اننا كنا نملك عـدداً كبيراً من الرقى والتـعاويذ ضد العين الشريرة «كدعاء جبرائيل رئيس الملائكة ضد بنت الاثم المهلكة» وفيه من القوة ما يكفل دفع تلك البنت الشريرة وطردها الى القـفـر حيث « لا يصـبح ديك ولا تدب قـدم حيـوان هناك حيث تهيم على و جهها في البيـداء تطلب الراحة وليس ثم راحة» و غيـرها من الرقـى، فقد ارتاينا اخيراً ان ليس من اللائق استخدام هذه الرقي، واضطر الوفد الى العودة من حيث أتى خائباً[9].

وفي احدى سفراتنا طُلب منا اجراء عـملية جراحـية بالتـهديد، كنّا قد توقفنا عند عين مـاء واذا بجمـاعة من الكرد الشـاكي السـلاح طبعاً، يقبلون من الجـهة المقابلة ويسألون خادمنا عمن نكون وما عملنا، ولما سمعوا اننا انكليز تقدم منا زعيـمهم و مد الينا ذراعا مشلولة وقال:

- يجب عليكم ان تبرؤا ذراعي هذه.

فاجبناه:

- هذا ما لا قبل لنا به، ونشير عليك ان تذهب بها الى المستشفى في الموصل.

- كل ما اعلمه هو ان الواجب يقضي عليكم بمعالجتها فقد كنتم السبب فيها.

---

[9] عند النـاطرة «كتب علاج» ومجموعات اخرى من الرقى و التعاويذ المماثلة، كثيرا ما تعود اصولها الى ازمان سحيقة لا يمكن تصديقها. وقد ترجم المؤلف مرة بعض النماذج المختارة منها و عرضها على صديق عالم بالآثاريات الآشورية فوجدها تطابق تماما تلك الرقى والتعاويذ التي وجدت مدونة في اقدم الرقم الطينية البابلية. ان جانباً من المعتقدات القديمة عاش في هذه الارض متحدياً كل التغييرات التي حصلت خلال (٧) سنة حتى بلغت القرن العشرين.

- نحن؟ اننا لم نرك من قبل!

- طيب. ان لم تكونوا انتم، فقنصلكم، هو الذي فعلها، و كلكم انگليز فلا فرق. لقد فعلها عندما كان يطلق علينا النار (علمنا فيما بعد ان صاحبنا هذا كان احد افراد العصابة التي هاجمت القنصل قبل عدة سنوات في هذه الأنحاء [10] وان معركة حامية نشبت على الأثر ذلك، وان هذا الرجل يحمل ذكرى لها من رصاصة قطعت وتر عضلة ذراعه اليمنى، وان القنصل اصاب شهرة (قدس) عظيمة من جراء ذلك فلم يكتف بدحر المعتدين بل قتل قائدهم (مرزا اغا)، وهو رجل اشتهر بأن جسمه محصن من الرصاص و الفولاذ. وشهرات كهذه مألوفة في البلاد كما كانت شائعة في جبال سكتلندا في القرن السابع عشر. الا ان اصحاب هذه الحصانة رغم التسهيلات المحلية لا ينالونها بقطعهم عهداً مباشراً مع الشيطان كما فعل «كليفر هاوس Claverhouse» و «دالزيل Dalziel». بل كانت من مواهب الطبيعة منذ الولادة. ومرزا اغا موضوع بحثنا بذل في الواقع اقصى ما في طوقه ليظهر اثر المناعة، فقد اصيب في هذه الموقعة بثلاثة جراح كل واحد منها كان يكفي لقتل أغلب الرجال: اثنان في رأسه وواحد في جسمه. الا انه لم يمت الا بعد خمسة ايام من المعركة.

و اتضح لنا ان رفيقه هذا لم يكن - كما توقعنا مبدئياً - يطلب ثأرا من اي انگليزي تدفعه الريح في طريقه بسبب العطل الذي اصاب ذراعه. فبعد ان عبر عن المشاعر اللائقة به، والقى علينا دروساً في استمرار العنعنات القبلية مما وجب علينا نحن تلاميذ التأريخ ان نشكره، مضى لطيته ولم تقع عليه انظارنا بعد.

واخذت علاقاتنا تتحسن مع جيراننا باطراد، اذ من الصعب ان تضمر السوء لشخص يقدم لك ملحا انكليزيا (كينين) جيدا. و هكذا توثقت عرى الصداقة بيننا وبين الاهالي. و غدت صداقاتهم تلك على اهميتها، مصدر بعض المضايقة والحراجة فماذا بوسع المرء ان يفعل عندما تطلب منك امرأة كردي التشفع لزوجها عند رئيسه الاغا. حين ترى كل الجيران المسيحيين و اصدقاء الشخص نفسه يؤكدون لك ان المطلوب شفاعتك عنه انسان صالح طيب. و يكتمون عنك انه ممن يقتلون بين آن واخر؟ واجمل شيء وانسبه لك في الحادثة التالية: ان يلقي طالبا الزواج بنفسيهما في الطريق تحت سنابك حصانك قائلين انك تستطيع ان تمر بجوادك فوقهما و

---

[10] هذه الحادثة جرت للقنصل الأنگليزي الكابتن ماونسل من سلاح المدفعية الملكي الذي كان نائب قنصل في وان (١٩٠١ او ١٩٠٢) ان «المبعوثين» الأنگليز لا يحملون سلاحاً في العادة وقد يكون في حملهم فائدة لو لم يكونوا متأكدين من إصابة المهاجم بجراح. اذ سياتيهم فيما بعد للتطبب وستنشا علاقة صداقة، لكن قتله سينشيء ثاراً دموياً. وان اخطاته الرصاصة فهذا اسوء الامرين. لذلك وجد من السلامة ان يسافر اعزل فعدم حمل السلاح خير من حمل بندقية انكليزية ثمينة.

لكنهما لن يتحركا حتى تعدهما بان تجبر خاطرهما وتنيلهما مطلوبهما؟

عقد (جودت) خطبة بنته (آمنة) على جاره (توفيق) تسديداً لدين عليه للخطيب[11] «وجودت» هذا كردي من «گارد» وهو لهذا قاطع طريق كأي رجل بلاد «الزاسيا Alsatia» السعيدة.

على ان البنت (امنة) تمردت وهربت مستجيرة برجل كبير السن من وجهاء العمادية يدعى «عبدالعزيز» استفاضت شهرته وعد ذلك العم الذي يحدب على كل اهل الجوار، وهو في الحقيقة من اعظم سكنة القصبة دهاء. وفكر عبدالعزيز البعيد النظر بأن تحالفاً مع اسرة الآنسة قد يكون امرا ذا قيمة، فأسرع وعقد لها على احد ابناء اخوته وابلغ اهلها بأنها «مفقودة ولا اعرف مكانها». ثم ما لبثت (آمنة) بأعتبارها انثى، ان غيرت رأيها ولان جانبها بعد ان بلغها ان خطيبها المهجور توفيق قد انفق ما يزيد عن عشرين ليرة للفوز بها، فارسلت اليه رسالة عاجلة بصورة ما ترجوه ان يأتي لانقاذها من نتائج اعمالها ان كان يحبها حقا. وعندها اقبل كل من (جودت وتوفيق) والقيا بنفسيهما (وقعا) على المؤلف و القنصل مؤكدين انهما لا يجدان معيناً لهما الا الله ونحن، وطلبا الآنصاف.

ولم يرسخ في ذاكرتنا من حوادث المفاوضات والتوسطات التي اسهمنا فيها قضية كقضية (عبدالرحمن) الكردي والصعاب التي عانيناها في سبيل ايداعه السجن ثم المشاق التي تكبدناها في اخراجه. بلغت (بعبدالرحمن) هذا الجرأة في ان يتصدى للرسول الذي يأتينا بالرسائل فسرقه وسلبه كل ما يحمل باستثناء الرسائل (وهو لطف منه ولاشك).

ثم ترك الرسول يشق ثلج الشتاء شقا ليصل الى منزلنا وليس على جسمه غير الغلاف!

كان العمل مما لا يصح السكوت عنه او المرور به مرالكرام فطالبنا بالقاء القبض على السارق وحبسه، وكان المجنى عليه يعرفه وتعلل القائممقام اولاً بعجزه التام عن عمل اي شيء في هذا السبيل. ثم رأي ان واجباته لاتلزمه بتحقيق هذا الطلب. الا ان طلبا قدم الى والي الموصل تمخض بأمر حازم، وسرعان ما وجد (عبدالرحمن) نفسه حبيسا في سجن العمادية، ونصحنا احد خدمنا بقوله:

- فليكن سجنه هنا يا رابي لا في الموصل. ان حبسه في الموصل ليس بعقوبة ابدا فهناك يقدمون الخبز للمسجونين يومياً تقريباً.

---

[11] لا يترك للمرأة عادة مجال اختيار بعلها، وقد استشرنا مرة في قضية معقدة: فيها كانت الفتاة قد عقد ابوها خطبتها على احدهم وعقدت لها امها على اخر، فاقترحنا بلطف ان تعطى الفتاة صوتاً عل «الاقل فقال مطران برواري: واي شأن لها في الموضوع يا رابي؟ الواحد احسن من الاخر. وكان هذا المطران وسيطاً في الفصل بين النزاع!

وفي العمادية التي هي اقل درجة في الحضارة من الموصل، لا مانع من ان يأتيك اصدقاؤك بطعام الى السجن، وان شاؤا حرمانك من هذا العطف فلن تأكل شيئا، وكان (عبدالرحمن) يتمتع بصداقة كثيرين فلم يكن وضعه في السجن سيئا. وبعد ان قضى حوالي اسبوع بلغتنا رسالة من القائممقام يسأل فيها هل نتكرم عليه بالجواب عن موقفنا من السجين؟ وهل ارتوت انفسنا من خمرة الثأر؟ وهل انطفأت سورة غضبنا؟ ان كان الامر كذلك فلنخبره حتى يطلق سراح ضحيتنا، فأجبناه ان المسألة ليست مسألة انتقام شخصي بل هو مسألة امن جلالة السلطان، واذا كان (عبدالرحمن) قد انهى مدة محكوميته (كذا) فلا مانع لدينا طبعا من اطلاق سراحه. فأجاب القائممقام اللطيف للغاية والمنزعج قليلا، بما يفهم منه ما يأتي:

- كلا لم يحصل شيء من هذا القبيل. وان حكمتكم ترزح تحت ثقل سوء الفهم. فأما عن راحة السلطان و امنه فجلالته لا يملك شيئاً من ذلك. واما العقوبة فهو لم يقدم الرجل للمحاكمة بعد.

والواقع انه تكبد عناء كبيراً في ايضاحه لاقرباء ضحيتنا وهم عشيرة كردية فيها بعض الشراسة، بانه ليس مسؤولاً عن بقاء قريبهم في السجن، وانما هو الانكليزي الذي اصر على بقائه.

فقلنا:

- اذن فاطلقه مع اطيب التمنيات، فعشرة ايام في هذا الجحر الذي تسميه سجنا اكثر من الكفاية والجزاء لتهوره الطفيف الذي اقدم عليه.

فأجابنا بهذه الرسالة «عليكم في هذه الحالة ان تتكرموا بالقدوم الى البلدة للتوقيع على الاوراق الخاصة بالافراج عنه ان سمحتم». و اضاف ان الاوراق مهيأة تنتظرنا ولا تحتاج الى غير توقيع، وان رجالا لهم حكمتنا سيدركون بأن هذا العمل ضروري، فبلاد متمدنة دستورية كتركيا يجب ان تحافظ على شكليات القانون.

ومع اعتقادنا بانه لا يحتاج الى اجراءات رسمية طويلة للافراج عن شخص لم تجر محاكمته. فقد ضحينا بعمل يوم كامل وركبنا الى المركز الحكومي، وبعد التحيات المعتادة طلبنا من القائممقام الاوراق لتوقيعها.

- آه الاوراق؟ ستكتب حالاً

ثم اردف يقول ما خلاصته انه ليس ضروريا في الواقع ان نذيلها بتوقيعنا، او ان تكتب اصلا، لكن لما كنا قد جئنا فهل نسيء فهم النية الحسنة اذا ذكر لنا القائممقام بانه بدأ مؤخرا يشكو آلاما في معدته، وسيكون شاكراً لو وصفنا له دواء؟ لقد قدر المخادع وضعنا تقديراً صائباً وادرك اننا لن نتعب انفسنا في المجيء اليه بسبب سوء الهضم الذي يشكو منه، لكن لو علمنا ان ضحيتنا يتجرع الآلام وان قدومنا وحده سينجيه فلن نتردد في ذلك، ان إحكامه

نسج الخدعة اشاع السرور في انفسنا بحيث كان الانتقام الوحيد منه هو ان نصف له شر دواء في حوزتنا، واخيراً كتبت الوثيقة ووقعت و ختمت ونفذت وعدنا الى مقرنا وكلنا ثقة بأن المسألة انتهت.

لكن تقديرنا كان خاطئاً، فقد اخبرنا الشرطي الذي لحق بنا بعد قليل لاخذ الدواء، بأنه تعذر اطلاق سراح اسيرنا للسبب الوجيه التالي: ان سعادته راح يتفحص القضية فوجد المعتقل بريئاً. ولو كان مجرماً لانتهى كل شيء على ما يرام، لكنه يرى ان القضية هي قضية خطأ في التشخيص.

وقرر ابقاء «عبدالرحمن» المسكين في السجن حتى يتسنى للمجني عليه الساعي القدوم والشهادة على هويته، ولو كان وصول الساعي الى المركز سيتم حال تبليغه بالامر (وهو اخر من يتوقع ان يفعل ذلك) لهان الامر ولن يزيد تأخر السجين عن اسبوعين، وسيكون بالامكان الافراج عنه في حالة البراءة بزعم انه لم يفعل شيئاً، او في حالة الحكم او ثبوت التهمة، لانه يكون قد قضى اضعاف مدة العقوبة.

وبوصول المسألة الى هذا الحد قررنا الانسحاب التام من هذه اللعبة وبعثنا برسالة الى القائممقام نعلمه فيها باننا سنباشر رحلة تمتد ستة اسابيع وانه لن يسمع عنا شيئاً حتى نهايتها، وبامكانه ابقاء سجيننا او سجينه الى ماشاء الله.واختار الحل الاسهل بطبيعة الحال، وخرج (عبدالرحمن) وقت بلوغنا قمة الجبل، ولم يحمل لنا اية ضغينة. اذ وجدنا رسالة منه عند عودتنا يعتذر فيها عن عمله ويقول انه ما كان سيتعرض للساعي لو عرف انه من خاصتنا، وانه سيجلب لنا رأس اول وعل يصطاده في ذلك الصيف كهدية صلح. وبر بوعده حقا واصبحنا اصدقاء خلصاء.

«وارواح» الجبال والسهول تمسك المسالك على المسافر في هذه البلاد كما هو منتظر، وسهل (الموصل) يجوبه صنف مفزغ مخيف من الوطاويط مصاصّة الدماء وتسمى «هبله باشي» او ما يقابل Vampire عندنا. وهي مسوخ نصفها بشر و نصفها تيوس تخطف المسافرين من الممرات الجبلية وتمتص دماءها[12] وهناك قبر لواحد من هذه العفاريت في قرية ارادن التي تقع على سفوح الجبال السفلى. يفقس منه بين آن واخر ذباب الخيل وهو قتال يصيب الملدوغين بالجنون وداء الكلب، ومما يخفف من وطأة هذا، ان السم والترياق يوجدان دائماً جنباً الى جنب، فثم عين كبريتية قريبة من القبر ذات قوة على شفاء المصابين بهذه اللدغة.

والايمان بوجود الوطاويط المصاصة، كان لفترة ما من التأريخ عقيدةً تسود العالم في الواقع. وهذه كانت اخوف ما يخافه القواس المونتيكري الذي اتينا الى ذكره سابقاً. فقد اتفق

---

[12] «وسترقص فيها المردة» كانت هذه آخر عبارة نطق بها اشعياء النبي مصوراً بها خراب بابل. ولاشك ان ما ذكره يشابه ما وصفناه للوطاويط المصاصة.

له بالفعل ان تعرف على واحد منها[13] وهنالك صنف اخر من الارواح في هذه البلاد اكثر إلفاتاً للنظر وادعى الى الاهتمام، هو نوع من الجنيات الصغيرات التي تغشى حظائر الغنم حيث يضطر معظم الرعاة الى السهر بمفردهم وتغدو حالاتهم العقلية مهيأة لتقبل كل الاخيلة الغريبة التي تعن لهم. وفي واحدة من تلكم الحالات كان الجني يأتي ويجلس بمواجهة الراعي بصمت تام امام النار الموقدة و يأخذ بتقليد كل حركة يأتيها الراعي، فضاق الراعي ذرعا بالجني وانهارت اعصابه طلب النصح من احد العقلاء. فأشار عليه بخطة تفصح عن طرافة القصة وقرب عهدها، وعمد الى تنفيذها فوضع قدراً من الماء بجانب مجلسه عند النار، وقدراً من النفط بالقرب من مجلس الجني. فما ان اقبل معذبه واتخذ مكانه قبالته حتى بدأ الراعي يأخذ من القدر ماء ويبلل به ثيابه وراح الجني يقلده بالنفط دون ان يدرك الفرق بين السائلين، وبعد فترة اخرج الراعي جمرة من النار ملتهبة ووضعها على ثيابه المبللة فانطفأت وخمدت طبعاً بفعل الماء وفعل الجني فعله فوجد النار تشتعل فيه فهب من مجلسه وهرب لا يلوي وهو يصرخ الما، اذ شعر كيانه «المادي تماماً!» بحرقة النار، فاجتمعت ارواح الجبل والنهر قاطبة على صراخه ودب الخوف في قلب الراعي لئلا يكون قد آثار عليه مملكة الجان، لكن الجني المحروق كان منصفاً فقد صرح بانه هو السبب فيما جرى وترك الراعي ولم يعد يتعرض له.

ومن بين كل المآثر التي تنوقلت منذ اقدم العصور في هذه البلاد أدينية كانت او اسطورية او تأريخية، ليس ما يوازي مأثرة «قربان نوح» استفاضة و شهرة. وعلينا هنا ان نعلم بان الشعب الارمني هو الوحيد الذي يعتبر قمة «ارارات» (تعرف محليا بأسم أگري داغ) هي الموضع الذي ارسي عليه (فلك نوح) وقد وردت في التوراة بتعبير «جبال ارارات» او (اورارتو). واللفظة تطلق على كل سلسلة جبال حكاري، وفيها هضبة ذات اهمية ثانوية تعرف بأسم جبل جودي (جودي داغ). والهضبة تعد بقعة الرسو الحقيقية عند كل الاقوام التي تسكن تلك البقاع، ويجب علينا ان نقر بأن لهذا الزعم مبرراته، فجودي هو اول جبل يرتفع فوق مستوى السهل العظيم، فان كانت كل ارض ما بين النهرين قد غمرت بالمياه (وهي كل العالم المعمور في نظر السكان) واذا كان الطوفان العظيم قد شملها، فان هذا الجبل هو النقطة الاولى التي قد تجنح اليها اية سفينة جرفها التيار.

ومهما كانت الوقائع، فان القصة لا يعود تأليفها الى ما قبل (٣٠٠) ميلادية. وهذا التأريخ كأنه يوم أمس بالنسبة لهذه البلاد الا ان الاسطورة التي استندت اليها كانت في التأريخ الذي قدرناه لها من الاساطير الموغلة في القدم ولا يعرف لها مبدأ. وهي الآن متأصلة الجذور في خيال المجتمع، لذلك ظل قربان نوح حيا، ويتم احياء ذكرى رسو فلكه بزيارة او حج

---

[13] من التحقيق الذي اجراه «مستر برام ستوكر Mr. Bram Stoker» ان ملك الوطاويط المصاصة هو دراكيولا Dra-cula.

سنة اثر سنة في الموضع المعين وهو بقعة في اخدود في القمة. و من الغريب ان اليوم المرسوم للزيارة يوافق الاول من شهر ايلول اي الرابع عشر من ايلول حسب تقويمنا الغربي (لا ٢٧ من ايار وهو اليوم المذكور في سفر التكوين) في هذا اليوم يتقاطر الناس من كل دين و مذهب وقومية تاركين احقادهم جانبا لتغفو غفوة على شرف المناسبة، فيحيوا ذكرى حدث هو اقدم من أي دين او مذهب يعتنقون.

تجد المسلمين شيعة وسنة، ومسيحيين من كل مذهب، وصابئة ويهودا ويزيدية منبوذين من الاديان الاخرى، كل جماعة منهم تقود نعجة او كبشا لتنحره قربانا. ثم يسود «سلام الله» ليوم واحد فقط حتى في بلاد كردستان الثائرة. و يتصاعد الدخان من مئات الاضاحي مرة اخرى في المذبح العتيق جداً. انك لتجد الناس في اسفل الجبل يشيرون الى «قبر نوح» و «كرمة نوح» وهما موضعان قريبان من قرية (جسنه) النسطورية، والجدير بالذكر ان الكرم الآن لا يعصر من عنبه خمر، بل يستخرج منه (عصير) العنب، ربما احياء لذكر الكارثة التي حلت مرة بالبطريرك.

وتزعم الاسطورة اليزيدية الخاصة بهذا الحدث، ان الفلك كاد يغرق اثناء رحلته المائية الى (جودي داغ). ترى ماذا كان سيحصل للبشرية لو غرق؟. لقد اصطدم بجبل سنجار فأحدث فيه هذا الاصطدام صدع خطير[14]وتم تفادي الكارثة بذكاء الحية التي اسرعت فحشرت جسمها في الصدع ولفته وكورته مثل كرة وشدت عضلاتها فسدت الصدع من الداخل و الخارج مثل مسمار (برچيم) وظلت على حالتها هذه حتى خاتمة المطاف. وكان نكران نوح لجميلها فاضحا والحق يقال، فقد عمد بعد هذا الى تضحيتها لله وحرق بقاياها في الحال، ولا شك انها خلفت نسلها الذي هو سلف الخلف الحالي. انها هلكت فانتقمت لنفسها، فمن رمادها خرجت البراغيث. وان وجه الغرابة في هذه الاسطورة اليزيدية، هو خلوها مما يعزى الى الحية عادة، واسناد صفتي الايثار وانكار الذات اليها، وربما جاز لها ان تزعم لنفسها بعض الحقيقة الذي يفسرة الكثرة الهائلة من الحشرات، فالمنطقة القريبة من مصدرها الاصلي تعج بها.

وفي اعتقاد أمريكيٍّ لقيه المؤلف (وكان قد عانى من تلك الحشرات الأمرّين) ان تركيب الضفة الرملية نفسه الذي تقوم عليه الآن بلدة (الجزيرة) قد انتابه بعض التغيير بتعاقب القرون. فهي الان تتألف من ذبان وبراغيث وجراثيم ناقلة للحمى و ذلك بنسب متساوية

---

[14] يجزم الارمن ان هذه الواقعة جرت على قمة جبل (سيپان) القريب من (وان). فبعد ان شعر نوح بوجود الثقب نطق بالتعويذه الآتية «سبان الله، اي حمدا لله» ومن هنا جاء اسم الجبل. ولا بد وانه عليه السلام كان البحار الوحيد المدون اسمه في سجل الملاحة العالمية الذي شعر بالسرور لهذا الحادث.

تقريباً (تقع بلدة الجزيرة في اسفل جبل جودي على ضفة دجلة)، وليس بوسع المرء الا الاقرار بان تجربة تلك الحشرات تحمله على الاتفاق مع الامريكي في الرأي، فبلدة الجزيرة «تعج بالبراغيث اكثر من أية بقعة في كردستان».

كان «لفيرشون Fhairshon» ابن.

وقد تزوج ببنت «نوح».

ومما يدعو الى السرور ان ذكرى هذه الشخصية الخيالية ما زالت حية في البلاد التي خطب منها عروسه وتزوجها، فقد قيل لنا ان ختن (نوح) كان ماردا جبارا هائل الخلقة حتى ان محاولته «افساد عملية الطوفان بشرب مائه» احرزت بعض النجاح المبدئي، ولم يكن بطبيعة الحال قادراً على ولوج الفلك، فجلس القرفصاء ووضعه بين ساقيه وراح يستعمل قدميه بمثابة مجذافين، والاسطورة لا تخبرنا عما حل به بعدئذ. ومن المؤكد انه حمل عروسه الى سكتلندا وهكذا ضاعت اخباره عن اقاربه ورجال عشيرته!

مر بنا الموقت في العمادية بطيئاً حتى تمت الاجراءات العثمانية المتراخية وصدر الفرمان السلطاني و بات كل من «سانبالات Sanbllat و گريشام Gresham» الجارين يأتيان لزيارتنا ويشرحان لنا كيف ان «اولئك الاخرين» هم الذين آثاروا الدم الفاسد في عروقهم، الحق يقال ان واحداً ممن تميز بالعناد عقب قائلاً اثناء القراءة العلنية للنص الرسمي في ديوان القائممقام:

- يا للمسكين (محمد رشاد)! لم يعد لديه ما يفعل الا ما يريده الافرنج.

الا انه كان من الفطانة وبعد النظر ان همس بملاحظته هذه همسا.

واقيمت وليمة بمناسبة ضربة اول معول في الاساس، وبعد ان الْتَهَم المدعوون اكثر من شاة انصرفوا دفعة واحدة، وقد اخذوا كل ما في المنزل من ملاعق واخفوها في عمائمهم، وربما كان هذا دليلا على انهم آكلوا اكلاً جيدا جداً لا آكلاً جيداً فحسب. وهذا العمل في كردستان لا يشير الى اكثر من استطابة المدعوين الوليمة. فوق العادة.

تعليق

ان معظم اقليم بوتان (وهو اقليم يمتد الى الغرب من وادي سبنه) هو مجهول عند الاوروبيين فعلا. فسكانه عشائر كردية تعيش على الفطرة، الى جانب قرى مسيحية متباعدة معظمها نسطوري. والارض وعرة جدا ووادي بوتان هو احد اجمل الوديان في البلاد نفسها. وهناك قصة رواها احد سكان الاقليم تستحق التسجيل هنا لانها تكشف عن تلك البطولة والاخلاص اللذين يتسم بهما هذا الشعب المضطهد. وتتفجران منه بين آن واخر.

كان المؤلف يود زيارة القرى النسطورية في تلك المنطقة وتفاهم على ذلك مع البطريرك. لكن القنصل البريطاني في (وان) اعترض قائلاً:

- اني تحدثت مع الوالي في الموضوع وهو يقول ان سريتين من الجندرمة لا تكفيان لحراستك هناك.

ولهذا صرف النظر عن الزيارة. الا ان «الربان ورده» الذي نوهنا بذكره في الفصول السابقة تطوع للذهاب الى المنطقة وحيداً لاستطلاع شؤون القرى ليرى ما يمكن عمله فيها. تطوع وهو يدرك طبعاً بان سفرته ستكون على مسؤوليته الخاصة ولن يسأل عنه احد ان قتل كما قد يسأل عن انكليزي، فلن يكلف اي انسان نفسه بالاهتمام بحادثة مقتل واحد من الرعية مثله، لانها اتفه من ان تذكر. وخرج وعاد سالماً، وفي اثناء تجواله ذاك. زار قرية (شرناخ) وحل ضيفاً كالعادة في بيت الآغا. واصيب بدهشة كبيرة للحفاوة التي كان يلقاها، وهي مما لايلقاه أي زائر مسيحي في هذه الظروف.

وفيما كان يتناول عشاءه اقبل احد الخدم الكرد ليقول:

- سيدي القس، ان السيدة ترغب في محادثتك بعد فروغك من الاكل.

فسأل الشماس وقد استولت عليه دهشة حقيقية.

- أية سيدة؟

اذ لم يسبق لسيدة مسلمة في بيت مسلم ان طلبت رؤية ضيف مسيحي. وهو لم يبلغ حتى مرتبة الطبيب الافرنجي. وقال الكردي:

- السيدة مولاتنا المسيحية.

فسار شماسنا بذهول تام خلف الكردي الى حيث غرفة المرأة الخصوصية. ونهضت لاستقباله قائلة.

- اخيراً استجاب الله دعائي، فبعد ستين سنة من الاسرأرى امامي كاهنا مسيحياً قبل موتي.

كانت قصتها كما يلي: نهبت وهي صبية من بيتها بين ما غنم من احدى الغارات (كالفتاة الصغيرة التي كانت في خدمة النعمان) فكانت من حصة آغا القرية جد الآغا الحالي. وظل تأريخ اسرها محفوراً في ذهنها بسبب حادثة تتذكرها جيدا هي قيامها بخبز ارغفة للكرد الذين كانوا يتهيأون لغارة كبيرة، غارة بدرخان بك في ١٨٤٥ التي استمر الناس هنا يؤرخون بها حوادثهم التالية. فظلت اسيرة منذ ذلك الحين، امة في بيت الاغا و كانت النصرانية الوحيدة في منزله و بدأت حياتها الجديدة خادمة في اسفل درك من السلم، واكثرهم كدا و عناء. الا ان مكانتها ارتفعت بقوة خلقها ونزاهتها الى ان غدت صاحبة الكلمة الاولى في بيت الاغا، ومدبرة شؤون مزارعة و املاكه. صارت كما اعترف به الكرد انفسهم، «نعمة على الدار و بركة فيها» منذ ان وضعت قدميها على ارضها. وقد بقيت رغم كل ذلك نصرانية في عزلتها الموحشة ودأبت على صلاتها اليومية وصيام الجمعة والبطالة في ايام الاحاد على مسمع و مراى من اهل البيت الذين يعيشون عيشة جماعية. (ادلى الكرد انفسهم بهذه المعلومات عنها).

تقدمت هذه العجوز الى الشماس برجاء واحد. بعد ان اتضح لها انه ليس كاهنا وغير مسموح له باعطائها القربان الذي كانت تمني نفسها بتناوله من يده. طلبت منه ان يعطيها «خبز البركة» الذي

ظلت تتذكره من ايام صباها وتعلم ان رجال الدين يحملون منه، هذا الخبز (البرشامه) هو مبارك الا انه لم يحل به سر الاوخارستيا وكثيراً ما يتزود النساطرة بمقدار منه في سفراتهم، فكان في وسع الشماس تلبية طلبها هذا. وقالت له انها ستبقى محافظة على هذه القطعة لتكون زادها الاخير عندما تتحرر روحها عن جسدها.

الحق يقال ان المرء قد يتعب بحثا عن اعمال القداسة قبل ان يجد عملا انبل من ايمان هذه المرأة النسطورية المجهولة الاسم.

16

قبور الامبراطوريات الميتة

من الموصل الى البغداد

الطريق من العمادية الى الموصل سهلة نوعاً ما، اذا ما قيست بالطرق الاخرى. وتقل المصاعب بتطامن السلاسل الجبلية المتعاقبة تطامنا مطرداً كلما تقدمنا نحو سهل الرافدين. كنا قد وقتنا رحلتنا توقيتا دقيقاً، اذ ان الدفء اخذ يعم الاراضي السهلة الآن، كما توخينا ان يكمل القمر بدرا حال خروجنا من منطقة الجبال ليتسنى لنا السير ليلا على ضوئه في سهل الموصل. ويصعب احتمال السفر نهارا في الصيف عندما يسجل المحرار مائة وعشرين درجة في الظل، اما سفر الليل فهو مريح ويزيد ضوء القمر في سهولته وان كان النعاس يضايق المرء احياناً، وفي هذا المجال حقق المؤلف عملاً خارقاً ما كان يظنه قادراً عليه. ألا وهو النوم على السرج والحصان منطلق به. الا ان الغفوات لا تكون طويلة الامد ومع هذا فقد اكمل رؤية حلم تام لم يقطعه سقوطه عن صهوة الحصان فوق التراب.

الحر في النهار لا يطاق، وهنا خطر حقيقي من ظاهرة طبيعية تدعي (السام) وهو على ما يبدو ريح اعصارية شبيهة بتلك الرياح الشيطانية التي تثير عواصف ترابية وهي مألوفة في تلك المناطق على مدار السنة. الا انها تكون مصحوبة بهواء ساخن للغاية تأتي معه رائحة ابخرة الكبريت الممتزجة به، فاذا لفح احد من المسافرين افقده وعيه حالا وان لم يُسعَف قضى نحبه بدقائق معدودات واسود وجهه وبدأ التفسخ يعمل في جثته فوراً. فلا عجب ان اطلق ابناء البلاد اسم (السام) على هذه الريح، اي الريح السامة.

وانها لتهب على هواها و بمطلق مشيئتها حتى ليمكن تشبيهها بالاعاصير الامريكية، وان لم تكن بخطورتها بسبب سرعة الاخيرة وقوتها. على انها قد تقتنص رجلاً واحداً من بين جماعة. أو تقتلع فارسا من صهوة حصانه ملقية الاثنين على الارض دون ان تصيبهما باذى.

قص القنصل البريطاني على المؤلف كيف انه كان مرة يلتفت الى الوراء ليكلم (قواسه) الذي كان راكباً على قيد خطوات منه، فشعر فجأة بعصف ساخن يلفح وجهه وملأت منخريه رائحة الكبريت، في حين سقط (القواس) عن سرجه فاقد الوعي كأنما اصيب بطلقة. الا أن الضربة كانت خطرة جداً، ولو كان المصاب بمفرده لقضى نحبه حتما.

والظاهر هو ان هذه الريح لم تبحث بحثاً علميا. ولم تقارن بظاهرة اخرى، ولنقل مثلا ظاهرة ريح سندي Scinde حيث الجو والاحوال الطبيعية واحدة، وليس بغريب ان يعزوها ابناء البلاد هنا الى عمل الجن الخبيث. وقد نميل الى التعليل بأن لفحة مفاجئة من اعصار ساخن صغير الحجم مشبع ببخار الكبريت يفقد المرء توازنه، وعلى الاثر يحدث ضربة حر في الضحية المسكينة التي تعاني الحالة الاولى فيتألب العاملان على اهلاكها، او لعل هذا (السام) هو

اخر تراث للبراكين الخامدة، بقي حتى عصرنا. اذ ان دوامات كبريتية مماثلة اقل عنفا بكثير من هذه تجدها تهيم على وجهها ووفق هواها فوق سطح البحر على مقربة من ساحل الريفُيرا ردحا من الزمن بعد الهزة الارضية التي وقعت في (سان ريمو San Remo) العام ١٨٨٧

ونزلنا ضيوفاً على القنصلية الانكليزية في الموصل مرة اخرى، بينما كان العمل يسير في بناء الكلك الذي سيقلنا الى بغداد فوق مياه دجلة، ولعل (الكلك) هو من اقدم وسائل النقل النهرية التي عرفها العالم، وهو يبني على الطريقة الآتية: يصنع اطار له من جذوع خشبية خفيفة شبيهة باقطاب لعبة قفز الزانة. وتشد بعضها الى بعض بحبال وامراس شدا محكما وقد تكون بأي حجم تريده، والمتوسط منها، يتسع لجماعة صغيرة، ويبلغ طول ضلعه اثني عشر ياردا، و يؤتى بعدد من القرب المنفوخة المسلوخة سلخا كاملا ويحكم سد فتحاتها وتربط تحت ذلك الاطار الخشبي. ويحتاج الكلك المتوسط الى مائة قربة تقريباً ويقوم الكلكچي بنفخها بفمه بوساطة قصبة تدس في فتحة ما بين الساقين. وتستخدم سيقان الجراب كنهايات تشده بالاطار. ثم يفرش السطح بالواح سميكة من جذوع شجر الجوز او الزان ترصف جنباً الى جنب. وبهذا يكمل بناء الطوف من الناحية التكنية. واما نحن فقد اضفنا اليه بعض مستكملات الراحة اذ ثبتنا في بقعة من ارضيته الواحا مصقولة مستوية بالمسامير واقمنا فوقها كوخا غطينا جوانبه وسقفناه بالحصير المصنوع من القصب حول هيكل خشبي خفيف، هذا الكوخ كان يتسمع لفراش ويصلح ليكون غرفة جلوس اثناء النهار.

ويطفو هذا النوع بسهولة تامة منزلقا على سطح الماء. وكان طوفنا يحمل ستة من الرجال ومقدارا لا بأس به من الامتعة ويتم (تشغيله) بتركه يسير مع التيار السريع الذي تميز به دجلة. و عندما يبلغ الكلك نهاية الرحلة يباع خشبه للخشابين بالسعر الرائج وتطوى القرب ويتم حزمها وشدها معا على ظهر بغل وتعاد الى نقطة الشروع برّاً اذ ليس هناك طريقة لاعادة الكلك نهرا بالتجذيف ضد التيار. ويستخدم مَردّيان بدائيا الصنعة لتوجيه الدفة وابقاء الطوف في وسط المجرى.

لعل السفر بالكلك هو اكثر السفرات راحة، ان لم يكن المسافر في عجلة من امره. وليس بين معشرالرحالة الأُصَلاء من يختار لنفسه هذه الوسيلة. فانت تنزلق على سطح الماء بلا توقف وبلا عجل (الا اذا اضطرتك ريح قوية للجنوح الى الضفة فترة من الزمن) ولا شك ان النهر سيبلغ بك قصدك اخيرا. اما عن مواعيد الوصول ففيها غموض لطيف، وفي امكاننا القول بأن اسرع سفرة من الموصل الى بغداد عملناها استغرقت يومين ونصف اليوم، واطولها دامت اسبوعين.

وعليك بطبيعة الحال ان تتزود بمؤونة وارزاق من الموصل قبل البدء. ولم يجد المؤلف خيراً من البريموس الاعتيادي للطبخ والتسخين. ولم تكن موانيء التزود بالاقوات كثيرة في الطريق الا انك لا تعدم رؤيتها.

سفرة مثل هذه يمكن ان تنُصح بها وانت واثق من صدق النصيحة لكل من يرغب في الاستجمام والراحة او النقاهة. انك لتستلقي على سريرك تحت فيء كوخ القصب ترقب الضفاف وهي تنساب من امام عينيك الوسنانتين، وان اشتد بك القيظ القى خادمك شيئاً من الماء فوق العشب فتتبرد. هل ترغب في بعض الفاكهة؟ مر خادمك فيطلق صرخة ذات لحن كئيب فيأتي جوابها من الضفة، ثم ترى فلاحا عاريا يقذف بنفسه من الضفة الى الماء فوق جراب منفوخ يدفع امامه بطيخة كبيرة جناها من احدى المزارع الممتدة على طول النهر فتطفو وهي كامنة حتى يبلغ بها الكلك. هل تهفو نفسك الى السباحة؟ انك لتنضو عنك ثيابك وتغطس في الماء من احد جوانب الكلك معتليا جرابا يبقيك طافيا على سطحه او محتضنا وسادة ان شئت، فتسبح، ما شاءت لك السباحة او تنطلق الى الامام والكلك يتابعك. انك في بلاد «أكَلَة الجلجلان Lotus» وفي رحلة بالطوف. لكن يحسن بك ان تتزود ببعض الكتب للمطالعة.

ان المؤلف ليتفق تماما ورأي مطران كلداني أغضبه ان يجد احد الاباء الدومينكان يأبى ان يصوم ايام الصوم الكبير اثناء رحلة كهذه «معتذراً بمانع السفر» فقال سيادة المطران مستنكراً:

– غفرانك اللهم! اما كان الاجدر به ايضا ان يطلب اعفاءه من الصيام في الجنة؟

ومما ينبغي ذكره. انه لا يوجد في هذا القسم من النهر كثير من المناظر التي تستلفت النظر، فان كنت من طلاب جمال الطبيعة فعليك بالذهاب الى اعالي دجلة، وابدأ سفرتك من (ديار بكر) منحدرا الى الموصل مخترقا تلك المضايق الفخمة فستجد عظمة وروعة تثير عواطفك[1] انك لتصادف شلالات ومساقط مياه عديدة شديدة كثيراً ما حطمت الاكلاك، اما بلاد ما بين النهرين فلا تعرض عليك جبالا، على انك ترى منظرا جميلاً لاتستطيع ان تسميه مضيقا اذا ماقورن بمضيق التياري، حيث يخترق النهر جبل «مگدول» فيترك على الضفة مقطعا جميلا ذا لون احمر داكن مخططا بعروق من الجير الرمادي يمتد مسافة تقدر ببضعة اميال، وتقوم هنا قلعة جميلة قديمة تشبه الى حد كبير واحدة من قلاع الراين، وتعرف باسم «قلعة البنت». بعد هذا بقليل تمر بعين كبريتية (وهي ليست من النوادر في البلاد). فيكثر استيقاظك على اثر رائحة كريهة جداً تفسد عليك اغفاءتك الهادئة وانت في وسط النهر.

بعد هذا يتحد الزاب بدجلة منحدرا من ضواحي المدينة التي كنا قد حللنا فيها زائرين في مناسبة من مناسبة سياحتنا في البلاد، واحتفظنا بصورة لها.

---

[1] تلك هي المضائق التي اجبرت (كزينفون) على اتخاذ طريق الجبال في رجعة العشرة الاف (انظر الأناباسيس). كان بامكان هذا القائد ان يتخذ الضفة اليسرى من النهر خطا للسير حتى الجزيرة، لكنه كان يعلم ان الوديان هناك ستضيق الى درجة يصعب معها ان تجتازها وحداته العسكرية.

تلك هي «كركوك» وهي بلدة ينم اسمها المستحدث على انها واحدة من آثار الحكام السلوقيين، فهو نتيجة ادغام لفظي لثلاثة الفاظ «كركا-دبيت-سلوق: اي قلعة بيت سلوقس» الا ان المدينة نفسها هي اقدم بكثير من عهود حكم خلفاء الاسكندر المقدوني على ممالكه، لانها تقوم فوق تل من اكبر واعتق التلول. والسائح يرتفع قدراً بزيارته المسجد الذي يضم قبري (شدراخ) و (عبد نغو). ويقول له الدليل ان قبر ثالثهم (ميشخ) موجود هنا الا ان موضع قبره لايعرف اليوم مع الاسف!

على ان المسجد الذي يبدو في الصورة، ليس مسجد هذين القبرين. وانما هو «التكية» التي تسكن فيها اشهر شخصية في كركوك اليوم. وهوشيخ كردي ذو صلاح وتقى و غيرة شديدة على الاسلام حتى ان «السلطان عبدالحميد» كان يراسله بجفرة خاصة. كما اعتاد ان يطلب منه الدعاء تلغرافيا كلمّا يعن له امر اسود و يفكر في الاقدام عليه!

وضفاف النهر مرتفعة عادة او على الاقل هكذا تبدو في الخريف. ولاشك ان النهر يكون مرتفع المياه حتى الشفة في موسم الربيع وهو اوان ذوبان الثلوج من الجبال، ويكون تياره سريعاً، واهم ما يجلب الانتباه من مناظر الشاطئ هو الة السقي البدائية «السّقّايَة». وسيلة لا يمكن ان يكون قد طرأ عليها تغيير يذكر منذ ايام «ابراهيم الخليل». وتتألف من حفرة على الشاطيء تصلها بالنهر ساقية ينساب منها الماء حتى تمتليء لانها تحفر تحت مستوى النهر، ويدلى اليها بدلاء من الجلد يتم سحبها بحبل ينزلق على بكرة شدت نهايته بثور يذهب غدوة ورواحا في طريق منحدر ممهد فيصعد الدلو وينزل بالسحب والارخاء و يكون الحيوان القوة المحركة في العملية.

بعد انقضاء يومين او ثلاثة من السفرة يمر النهر ببقعة ذات بال، هي قلعة شرقاط التي كانت يوماً ما «آشور» عاصمة الامبراطورية الآشورية المقدسة. واليوم ينقب فيها علماء المان من «معهد الابحاث الآثارية الشرقية الالماني» ويفحصونها فحصا دقيقاً. والموقع اذا شوهد عن بعد لا يستوقف النظر فهو لا يعدو مجموعة من التلال الرملية الكبيرة ترتفع في احدى النقاط لتنتهي ببقايا «زقورة» منثلمة. وفي ايام الربيع تكسو الازهار ذلك السهل الا انها تذوى وتتلاشى تماما قبل حلول الخريف بوقت طويل، ويغدو اللون العام الغالب ما يشبه لون الكاغد الاسمر الباهت، ولا ترى من الخضراء الا الحديثة البائسة المنظر الممتدة الى جانب منزل اعضاء بعثة التنقيب.

وقام السادة اللطفاء الكرماء باستقبال المؤلف استقبالا حارا للغاية. واتاحوا له الفرصة لمشاهدة تلك المثابرة والدأب الالمانيين يعملان في مطلب من اشق المطالب التي تقتضي تناسقاً تاما في المجهودات، ومما لا ينكر ان طريقتهم في التنقيب بلغت الغاية في الاحكام، وانها توحي بالادراك للامحدود: لديك مجموعة من التلال الممتدة فوق مساحة تزيد عن خمسة وعشرين فدانا يبلغ ارتفاعا حوالي ثمانين قدما، فماذا تصنع؟ انهم مدوا سكة حديد صغيرة

منها وانتهوا بها الى الصحراء وبدأوا عملا يشبه كثيراً امرارك كل تراب هذه تلال من خلال غربال دقيق، ثم نقله بالّسكة الحديد الى خارج منطقة التنقيب. وما ان يصلوا في تنقيبهم الى ارضية مرصوفة حتى يسرعوا بتنظيفها تنظيفاً تاما وازالة الاتربة عنها، ثم يُحتَفظ بكل ما يستأهل الحفظ ويرمم ما يستحق الترميم وفق تصميم متقن دقيق ومخططات يظهر فيها الوضع الذي وجدوا به الاثر. ثم تزال هذه الطبقة ويواصل الحفر ورفع الاتربة الى الطبقة الثانية و هكذا يستمر العمل حتى يبلغوا الارض البكر.

الظاهر ان «آشور» كانت مدينة مقدسة دينية قبل ان يشق الآشوريون عصا الطاعة على البابليين و يبدأوا ببناء «نينوى» وثم دلائل واضحة تشير الى ان (الحثيين) كانوا هنا قبلهم. وهذه من الحقائق الجديدة على المؤلف الذي كان يجهل ان سلطان هؤلاء قد امتد شرقا وجنوباً. وبوقوع الحاضرة بأيدي الآشوريين بادروا الى اتخاذها مدينة مقدسة عظيمة. وَوَجَد كلُ ملك من ملوكهم جاء اسمه في المدونات الغابرة، بأن الواجب يقضي عليه بترك اثر له فيها يدل على عهده، ولم يتخلف عن ذلك احد حتى اخر ملوكهم «سن شاريشكون» الذي لم يحكم غير بضعة اسابيع فقد بادر الى اقامة بعض الانصاب هنا قبل ان يقتحم الماديون «نينوى» فيقضى نحبه حرقا في قصره. هنالك مجموعة من المعابد لاتقل عن سبعة. تجد في كل معبد منها خطوط الاساس الاصلي متبعة بكل دقة، وتظهر لك واضحة فوق الارض في القلعة التي اقيمت عليها. وهذه القلعة اورثت المنقبين متاعب لاتحصى. فقد كان من الضروري هدمها لتحقيق اهم جزء من عملية التنقيب كلها. وكان تحقيق ذلك ما يقرب من المستحيل، فالبناية الحقيرة المتهدمة ظهرت في المكاتبات الرسمية قلعة حديثة كاملة المرافق ذات اهمية ستراتيجية عظيمة. ولم تمنح الاجازة بهدمها الا بعد التعهد باقامتها مجددا عقب انتهاء التنقيب، على ان تقام كما كانت، ولما حسبت تكاليف الانشاء باقل من مائة ليرة فبامكان المرء ان يتصور لنفسه حالة تلك القلعة.

والمعبد الآشوري يتبع التصميم (الساميِّ) الاعتيادي ولهذا يشبه التصميم العام لهيكل سليمان في اورشليم، والهيكل الاكبر منه في بعلبك، اعني انه يتألف من هيكل داخلي (محراب) لا يدخل اليه احد في العادة. كما ان المذبح المقام امامه يشابه «قدس الاقداس» في هيكل اورشليم. وفي ظاهر المعبد مجموعة من باحات متداخلة غير منتظمة ربما متدرجة في القدسية واحدتها اعلى من الاخرى، تحتوي احداها المذبح الاكبر لتقديم القرابين و حوضا للتطهير. والمرتقى الى المذبح كمرتقى اورشليم على شكل منحدر «انك تدخل مذبحي على درج» او لعلها لتسهيل اصعاد الحيوان المنذور حتى المذبح، والبناء كله مقام باللبن غير المفخور وبالحجر، بل وبالاجر المشوي الذي لم يكن يستعمل الا للزخرفة. واحكم بناء الحوض بفرش ارضيته بطبقة من الزفت الذي مازال ظاهراً في قاعه، ومع انه لم يستخلص من المعبد منحوتات كتلك التي استخلصت من قصور (نينوى) و (خرسباط) فقد عثر على عدد كبير

من اللقى (الانتيكات) الصغيرة الحجم. وأبدعها طرا حلية على هيئة شعاع برقٍ من الذهب الخالص طولها يناهز متراً واحداً، لاشك انها نذر قدمه رجل كبير المقام، ولم يعثر على كتابة فيه تلقي ضوء على ذلك، وقد أثار اكتشافه ضجة بين الموظفين الترك وسارعوا بارسال تقرير الى حكومتهم المتمثلة بالمندوب العثماني المشرف على التنقيبات، و ذاعت الحكايات عن اكتشاف «كنز كبير يحوي قدراً عظيماً من الذهب» وهذا بالطبع ما كان ينصرف اليه وهم الناس هناك في طبيعة العمل الذي يقوم به اولئك «الافرنج». فأرسل الى موقع التنقيب فوجان عسكريان احدهما من الموصل والآخر من بغداد، لتسيلم الكنز وايصاله حالا الى اقرب المراكز الحكومية، ولم تقم اية صعوبة في تسلّم هده اللقية المكتشفة لان الالمان ملزمون بمقتضى الاتفاق ان يسلموا كل ما يعثرون عليه الى متحف استانبول. ولم يكن في نيتهم نقض هذا الاتفاق، وليس للمرء الا ان يتصور المصروفات التي تكبدتها الحكومة لتحريك الف ومائتي جندي في مسيرة امدها عشرة ايام، وكم تزيد المصروفات على القيمة المادية لقضيب نحيف من الذهب طوله حوالي ثمانية وثلاثين انجاً.

والحي الملكي يتألف هنا كما هو متبع في كل المدن الآشورية من هيكل الاله آشور وقصر الملك وهما متلاصقان ويقعان على حافة تل كبير ويشرفان على السهل حيث يقوم « معبد الصيف» الذي تنقل اليه اصنام الالهة المعبودة بموكب مهيب كل سنة، عندما يشتد القيظ على تلك الارباب وهي في مساكنها الاعتيادية. ومعبد الصيف هذا اشبه برواق او ببستان مسور. واغلب الظن انه مبني بالحجر وهو ظاهرة نادرة في تلك البلاد.

والكشف الاعظم الذي يلي المعبد الكبير هو ما اطلق عليه المنقبون اسم «پومپي الشرق». ويقصدون بها المدينة الاولى، وتأريخها يناهز تأريخ القصر الملكي اي في حدود الالف الاولى قبل الميلاد، وان كانت قد شيدت قبل سقوط الامبراطورية بوقت بعيد. ومما يدهش له المرء وجود التشابه العظيم بين مشتملات البيوت بتفاصيلها وتصاميمها وبين منازل مدينة الموصل الآن. وكيف ظل الطراز الهندسي المعماري متبعاً منذ تلك الحقبة من الزمن حتى يومنا هذا. وربما كانت ازقة المدينة المنقرضة احسن تبليطا واتقن تصريفا من مثيلاتها في الموصل. هذا هو الفرق الوحيد تقريباً. وعلينا الاقرار بأن بعض التقدم قد طرأ على طريقة دفن الموتى. فأهالي الموصل الكرام هم قليلو الاهتمام باجساد موتاهم ولديم مقابرهم، الا ان اسلافهم في آشور كانوا يضجعون اجساد الموتى تحت ارضيات غرف الجلوس، وكثيراً ما عثر على التوابيت الشبيهة بالجرار مدفونة على عمق ستة انجات فقط من بلاطات الغرفة، وقد يتبادر الى الذهن انهم كانوا يغلقون هذه الغرفة من البيت ويهجرونها. ولكن الامر يبقى كما هو حتى لو فعلوا!

بعد ان ودعنا مضيفينا الكرماء سار بنا التيار مجتازاً بعض الشلالات الخفيفة بسلام. ان

سلوك الاكلاك في هذه المواضع قد يجفل له ضعيف الاعصاب بعض الشيء على ان سلامته والحق يقال تعود بالدرجة الاولى الى غرابة تركيبه فلانه يتألف فحسب من عشرات القرب المنفصلة بعضها عن بعض والمشدودة الى اطار مخلع غير محكم فهو يتلوى ويرعص ويحرن ويهبط ويرتفع بشكل يحير الاجنبي الذي يعلوه. الا انه يخرج دائماً من المحنة وينزلق على صفحة الماء بيسر في الاخير. ومهما يكن فالمرء لا يسعه الا ان يجفل اذ يستيقظ بسبب ما يبدو له هزة ارضية معقدة عجيبة.

وصادفنا في رحلتنا عددا من الاكلاك فهي كثيرة حتى في هذه المناطق القليلة السكان وربما كان عددها اكثر من هذا عندما سارت وحدات جيش «العشرة آلاف» بمحاذاة الضفة الشرقية لهذا النهر. و مما يدعو الى العجب هو ان اليونان خافوا استخدامها عندما فكروا في وسيلة لعبور النهر باثقالهم سيما وانهم لم يكونوا ليعدموا رجلاً واحداً على الاقل له خبرة بها، على انهم آثروا الا يجربوا شيئا لم يجربوه من قبل وفضلوا نبذ كل غنائمهم الحربية ليسلكوا طريق الجبال المحفوف بالمخاطر.

وبلغنا (تكريت) واجتزناها، وهي بلدة اثرية موغلة في القدم، ذات اهمية في التأريخ الكنسي لانها كانت معقلا من معاقل اليعاقبة المنيعة بوجه الكنيسة النسطورية المسيطرة. وهي ايضا تقع عند حدود التغيير الجغرافي الذي نم عنه استبدال الملاح (الكلكچي) بآخر، فبشرعة الاخوة القديمة كان النهر مقسماً الى ثلاثة اجزاء وكل رجل محظور عليه ان يتخطى حدود قسمه من ديار بكر الى الموصل، ومن الموصل الى تكريت ومن تكريت الى بغداد ولهذا الحكْمُ علاقة ما بتغيير في الوضع دقيق لا ندري كيفيته ولا سببه، على ان هناك حقيقة لا سبيل الى نكرانها وهي ان البقر بعد هذه النقطة تراها تمتاز بحدبة لا تجدها في اي صنف اخر منه، وان وسيلة نقل اخرى غير الكلك تظهر لك على صفحة النهر وهي القُفّة.

ان القفة هي اقدم واعرق تاريخا من الكلك. فشكلها يعود الى ايام الطوفان ان لم يكن قبله، والواح الطوفان البابلية تصور «شامش-نا - پشتم» وهو الشخصية التي تقابل (نوح) التوراه، يبحر بقفة هائلة الجرم قطرها مائة واربعون «كيوبيتا»[2]. وهذا المركب لا يعدو هيكلا منسوجا من سعف النخل على هيئة سلة دائرية الشكل الا انها «مطليّة بالقار من الداخل والخارج» بدلاً من اكسائها جلود الحيوان، وحجمها يختلف ويتفاوت تفاوتا كبيرا فمنها ما لا يتجاوز قطره المتر الواحد (سلة ثياب عندنا) ومنها ما يبلغ قطره عشرين حتى خمسا وعشرين قد مًا بحسب ضخامة سعف النخل الذي يبني به هيكلها، ولا تنقلب في الماء، ويمكن تحميلها باثقال كثيرة ولكن يصعب توجيهها دون سابق تمرين والمستجد يدور ويدور على نفسه في

[2] الكيوبيت مقياس طولي روماني ويوناني يتراوح بين ١٨و٢١ انجا (المترجم).

دائرة صغيرة القطر[3].

ولا ترى اثرا للقفف شمال سامراء مطلقا، وسامراء تقع جنوب تكريت على مسافة اربع عشرة ساعة، ومصدر القار (الزفت) بالقرب من المدينة السفلى، وسامراء مدينة تأريخية لا جدال فيها مع انها لا تظهر في حوادث تأريخ الغرب الا بوصفها ميدان معركة قتل فيها الامبراطور (يوليان) وهي تلي كربلاء في القداسة عند الشيعة لانها تحوي قبري اثنين من احفاد الرسول العربي يحج اليهما الناس، فضلا عن قبوركثير من رفاقهما الذين سقطوا معهما قتلى في معركة الخندق وهناك مسجد فخم مقام فوق الضريحين.

وللاثاري مطلب في سامراء ذو اهمية عظيمة، وهو زيارة اثر يفوق كل اثار التاريخين الاسلامي والروماني هناك، ونقصد به «الزقورة» الوحيدة او برج المعبد البابلي الذي لم يلحق به كرور القرون خرابا، فقد شاء حسن الحظ ان هذا الهرم بمرتقاه الحلزوني حتى القمة ظل قائماً بعد ان انقطعت ممارسة العبادة في الهيكل تحته ثم اصبح بيت نار زردشتي وتقلبت عليه صروف الحدثان وترك الموقع قرونا متعاقبة ليغدو في عهد الاسلام منارة للمسجد الجامع الذي بناه (المعتصم) تحت قدميها، وقد تقوض المسجد الا من بقايا جدار مربع الشكل. اننا ندين للعباسيين بفضل كبير فقد كانوا بدرجة من العظمة ان احترموا الاثر الذي خلفته لهم الايام الغابرة ولم يمسوه باذى، فبقي على حالة الى يومنا هذا ببنائه الآجري الذي يكاد يكون سليما، ولعله اقدم برج في العالم وليس ثم ما ينافسه لان موقع سامراء كان احد اولى مدن بابل المقدسة، ونعتقد ان المنقبين الالمان كانوا قد قرروا فحص هذا الموقع بعد انتهائهم من التنقيب في قلعة (شرقاط) الذي شارف الختام وقد علمنا ان مسحاً مبدئياً او ربما حفرا تجريبيا قليلا قد جرى وكانت نتائجه مشجعة ومبشرة باكتشافات هامة قَيّمَة والمرء لا يسعه الا الامل بأن وجود المزار الديني لن يقف حائلا في وجه مشروعهم.

وكانت اخر مرحلة من رحلتنا تمتاز بالبطء لان تيار الماء بات رفيقا متثاقلاً باقترابنا من دلتا النهرين، وفي هذه الدلتا انتصبت عاصمة البلاد منذ بدء التأريخ وان غيرت موضعها

---

[3] يبدو ان (هيرودوتس) خلط بين الكلك والقفة في مذكراته. اذ ان هاتين الواسطتين النهريتين كانتا موجودتين في عهده كما تشهد بذلك المنحوتات، فتراه يتكلم عن «طوف دائري مصفح بالجلود ومزفت بالقار» مصنوع من اطارات خشبية، ثم يضيف قائلا «وبعد نهاية الرحلة يباع الخشب وتحمل الجلود الى مصدرها الاصلي (ارمينيا) على ظهور الحمير التي جيء بها على الطوف نفسه» كل هذه التفاصيل صحيحة بالنسبة الى ايهما، باستثناء الحمار الرحالة. فالحمار المجرب لا يتردد في ركوب القفة والجلوس فيها مسافة من النهر او فترة كافية لعبوره الى الضفة الاخرى. الا انه لا يجلب (على الاقل في ايامنا هذه) من ديار بكر الى بغداد. ومهما يكن من امر فنحن لا نرى سببا يحول دون استقدامه على هذه الشاكلة.

واسمها مرة بعد اخرى، وظهرت لنا بساتين النخيل على الشاطئين بدلا من بساتين البطيخ ووقعت انظارنا على اسراب من البجع المائي (پيليكان) و يطلق عليه محليا لقب «نعاج الماء» وهو يتجمع على الضفاف الرملية مختلطاً بالنوع الوحيد الميسور هنا من اللقالق وهو يقف في حلته «الكويكرية»[4] وقفة رزانة ووقار وفوقه وتحته يختال ابناء عمومة له بالوانهم المعدنية. على انه يبقى محافظاً على كسوته السوداء والبيضاء في النواحي القريبة من بغداد.

اخيرا ظهرت من بعيد «اسوار بغداد المرصعة بالذهب!» وطلب منا ان نترك الكلك الى القفة لصعوبة مسروره تحت جسر القوارب.

بغداد، معناها الحضارة مرة اخرى! انها المدينة التي تفخر بالفنادق والحوانيت الاوروبية والثياب الاوروبية. فضلا عن كونها نهاية الخط الحديدي في الوقت الحاضر حيث تصل اليها القطارات بعد فترة من الوقت، وهي كذلك مرفأ للسفن البخارية لكونها اعلى نقطة من النهر تصلها مراكب شركة «بيت لنج» فتربطها بالبصرة ومن ثم بالبحر.

قد نرى القطار يبلغ بغداد بعد سنوات قلائل، الا ان المهندسين القائمين بمد السكة يكتمون الموعد ويحفظونه سراً مغلقاً ولا يسمحون لاحد بالدنو من مواقع عملهم دون امر من الحاكم العام (الوالي). وقد يخيل للمرء ان هذا التكتم يخفي تحته سببا وجيهاً، على اننا لا ندري ما هو الضرر الذي يلحقه اي متفرج على العوارض الحديدية.

تعتبر بغداد مدينة شرقية قلبا وقالبا وقد تبدو كذلك للسائح الذي يدخل بلا ما بين النهرين كما دخلت. لكن الذي يأتيها من داخلية البلاد يجد فيها مسحة من تركيا الحديثة، نصف اصلاح، وبلا تحسن في الوضع. فالشارع الذي يقطع المدينة طولا ليقف بالقرب من جدار حديقة القنصلية البريطانية وهو نموذج لتركيا الحديثة التي باشرت بمشاريع ضخمة دون تفكير او وزن للمصاعب التي تواجهها في الطريق، بل دون تقديرلقوتها وكفاياتها في التغلب على تلك العقبات. وفي قضية هذا الشارع كان الوالي شديد اللهفة لاقامة الاصلاحات المنشودة فاقترح ان يشق هذا الشارع. ولما بلغ به الى «حديقة دار القنصلية ولزم ان يخترقها، قرر المضي في الهدم دون ان يأخذ اذنا او يفاتح القنصلية، ولم يفكر في ان الطريق سيكون احسن استقامة و هندسة وغير مؤثر على التصميم الاصلي لو اتخذ مسلكا اخر وكان سيجد من المراجع البريطانية استعدادا للتعاون بل مساعدة فعلية، فاحتج القنصل. الا ان العمال ابلغوا بالاستمرار في تنفيذ الامر ولم يتراجعوا عن الجدار الذي كانوا ينوون هدمه الا بوقوف احد الحرس القنصلي (سپوي) فوقه حارساً، فكانت اعادة تمثيل مصغرة لتمثيلية الحارس البريطاني الذي كان يحرس نصب (يينا Jena) في باريس عندما اراد الجنرال (بلوخر) نسفه

---

[4] الكويكر هم اعضاء مذهب ديني متزمت ظهر في انكلترا القرن السابع عشر كانوا يرتدون زيا يميزهم عن غيرهم وهو البذلة السوداء والياقة البيضاء تقشفا وزهدا (المترجم).

وازالة ذلك الاسم المخزي، ان هدم جدار شيء تافه، لكن قتل حارس امر جلل.

انه لما يدعو الى الحزن ومما يوحي بان النفس تقمصها شيطان سوء، ان تجد العقلاء من الناس يحاولون تحقيق اهداف سامية جداً بوسائل مثل هذه، وسائل لا تلبث ان يحيق بها الفشل فيعجز اخلص اصدقائهم عن انقاذ اهدافهم تلك او بذل المساعدة لهم. وهذه آفة تركيا منذ قيام الثورة فيها، آيتها جهل مطبق بأن «العبارات والالفاظ لا تنظف زريبة الخنازير»!

و بغداد هي نقطة انطلاق ضرورية للحج الى (بابل)، وهناك تسهيلات لتلك الزيارة، منها ان الموضع يقع على جانب من الطريق المؤدي الى كربلاء التي يسافر اليها الحجيج الجعفرية يوميا بالعشرات. لذلك كان الحصول على العربات من الامور السهلة. وباستبدال الحيوانات في الطريق والشروع في الرحلة في اخر ساعات العصر يصل المسافر الى بابل صباح اليوم التالي في موعد الفطور.

العربات ساذجة الصنع فيها كثير من النوابض وتجرها اربعة بغال او خيل تربط بها من امام. ومقاعدها ليست غير الواح خشبية ضيقة غير مريحة، وينصح الاوروبي باجتناب الجلوس فوقها، هناك حبل طويل يمتد في فضاء العربة من طرف الى طرف ويمكنك ان تعمل منه ما يشبه الارجوحة بوضع مطرح وفراش سفري عليه وهذا افضل من الجلوس بكثير اذ يتيح للمرء ان يستلقي مرتاحا طوال الليل. أما ان يدركه النوم، فمسألة فيها نظر، والطريق مجرد ممر مرصوف او مبلط والخيل تجري خببا و هذبا على هواها بلا تنظيم او تناسق. لذلك كانت المركبة تميل ذات اليمين وذات الشمال وتقفز وتتعثر وتلعب لعبة «القَدَح والكرة» و تنط محتوياتها من الامتعة في فضائها وتتناثر، وجاءت الراحة المنشودة بوقفة الاستراحة ما بين العاشرة ليلا والثانية صباحاً.

وان عز النوم على الاوروبي فان ابن البلاد هو من طينة اعلى، فمعاون سائق عربتنا قضى معظم الرحلة مكورا مثل الكرة تحت قدمي استاذه في مقصورة السائق الامامية، وعلا شخيره بلا انقطاع وهو في خطر دائم من السقوط تحت العجلات. ينام في ظروف قد تبقي «الصبي السمين»[5] ساهراً يقظا. وهو لا يستيقظ الا عند الوقفات، وربما كانت يقظته غير تامة آنذاك. الحق يقال انه ينهض وينزل ويرفع الرسن عن زوج الحيوان ويعضها في رقاب الزوج الثاني، الا ان عمله بدا لي آليا صرفا كأنه يؤديه وهو نائم، كاولئك الذين يمشون وهم نيام، وما ان يفرغ من عمله حتى يتكور في محله ويتعالى شخيره ثانية.

ومررنا مع انبلاج الفجر بفتحة ذلك السور العظيم الذي الهب خيال «هيرودوتس». وهو مازال ممتدا ككثبان من التراب على طول خط البناء العظيم وقد بني كما انبانا ابو التأريخ، بالاجر المفخور الملتحم بالقار والمخروم بالقصب كل ثلاثين صفا». وربما كان هذا القول صحيحاً

---

[5] شخصية من شخصيات جارلس ديكنز في رواية «اوراق مستر بيكويك» (المترجم).

بوجـود الدليل الحـالي لدينا، لكن المظهـر المنكشف امـامنا يؤيد بما لايقـبل الشك انه بني بالطوب (اللبن) كمعظم بيوت مدينة بابل.

واستقبلنا الالمان مثل زملائهم في آشور احسن استقبال واطلعونا على ما اكتشفوه في اعظم مدن العالم القديم بنفس الدقة والاساليب العلمية التي اتبعها رفاقهم في التنقيبات الآشورية.

هناك ثلاث تلال عظيـمة. او بعبارة اخرى ثلاث مجموعات من التـلال تغطي خرائب بابل. وهي ما يطلق عليه (بابل) و (القصـر) و (عمران) وتجري التنقيبات الآن في تل القصر (التل الاوسط) وما كشف عنه الآن لا يتعدى اسس وارضيات بنايات، وفي كثير من الاحوال لا شيء غير «ارحام» وتجاويف رفعت منها كل آجرة. فقد اتخذت هذه المدينة الخربة منجما للاجر قرونا عديدة، وبغداد وعدة بلدان اخرى بنيت وعمرت بفضل الآجر الذي نقل منها. و مما يجلب الاسى حقا ان كل آجرة كشفها الالمان الآن، ستجد طريقها الى تلك المدن بعد سنوات قليلة من ختام عمل المنقبين، ومهما بالغ هؤلاء في دفنها فستنبش، لان الآجر الحسن الحرق له قيمته في مدينة كبغداد، وعسى ان يتعزى المرء اذ يعلم بأن رسوماً ومخططات دقيقة لما كشف من ابنية ستكون متيسرة للباحثين.

لقد تم الكشف عن كل البنايات التي يحـويها التل الاوسط، وهي تبـدو للسـائح او الزائر المستطرق على هيئة معقدة متداخلة متشابكة لا اول لها ولا اخر يضيع المرء في عرصاتها باسهل ما يمكن وان تكن واضحة المعالم للخبير من الادلاء، ويكاد ما كشف منها يعود الى عصر (نبوخذنصر).

ولا تجد من آثار ابنية (نبوبولاصر) فوق سطح الارض غير بناية واحدة ولم يعثر على شيء آخر تحتها رغم التنقيب الدقيق جداً.

ويستغرب المرء مبدئياً اذ يجد المدينة التي كانت تعد قديمة التأريخ قِدَمَ (ابراهيم الخليل) فهي لا تحوي من الآثار ما هو أبعد تأريخا من عهد ذلك الرجل الذي دخَل التأريخ في اواخر عصور المدينة، فكان للدولة الكلدانية كما كان لويس الرابع عشر لفرنسا. على ان هناك تفسيرا تاريخيا لهذه الظاهرة. وهو ان (سنحاريب) الآشوري قام بدكها دكا ومسحها من وجه الارض في حدود العصر الذي كان قد بديء ببناء مدينة روما. وكانت نيته تقضي بان لا يعيش فيها بشر، وهو عقاب فرضه عليها لقيامها بعدة ثورات ضده تزعمها (مردوخ بالادان) الكلداني الذي ظهر سفراؤه ظهورا خاطفا في كتاب سفر (الملوك) من التوراة، ان الرهبة التي شعر بها العالم بأسره لتدمير اقدم واقدس المدن التي وجدت على ارضه ينعكس في كلمات اشعياء النبي اذ هتف «بابل سقطت! سقطت! سقطت! وكل صور آلهتها المنحوتة كسرها وسحقها على الارض».

لاغرابة في ان هذا الملك المظفر اخفق في تحقيق امنيته، فالناس لا يسعهم ان يتركوا «باب

الألهة» وام الحضارة والثقافة بلقعا طوال اربعة آلاف سنة مخربة. اذ ما لبث (اسرحدون) خلف (سنحاريب) ان اجاز تعميرها. الا ان بنائيها لم يحاولوا اقامة صروح فخمة، لهذا لم يكن فيها صرح قديم او معبد مقدس عندما اتخذها (نبوخذ نصر) عاصمة لامبراطوريته الكلدانية الجديدة. ووجب عليه ان يقيم ابنيته الفخمة من الاسس وفق تصاميم جديدة.

واية تصاميم كانت؟ الحق ان المرء لا يسعه الا ان يصدق كلمات الفخر والاعجاب التي نطق بها النبي «أليست هذه بابل العظيمة التي شيدتها؟» عندما يقع نظره على خرائبها اليوم، ليس ثم آجرة واحدة الا واسم (نبوخذ نصر) منقوش عليها. ان شارع الآلهة Via Sacra بروما الخالدة وهي في اوج عزها لا يمكن ان يضاهى بشارع المواكب في بابل. شارع عرضه ثمانون قدماً من قدمة رصيف الى قدمة رصيف. وفيه رصيفان للمارة من الجانبين عرض الواحد منهما عشرون قدماً، وهو مبلط الى آخره بالواح رخامية مربعة طول ضلعها يارد واحد وثخن البلاطة نصف يارد مرصوفة جنبا الى جنب ومثبتة بطبقات من زفت وآجر، وما زالت حواشي الطريق ظاهرة للعيان فقد امتدت على جانبيه في صفين متقابلين تماثيل ثيران وسباع. ويقوم باب (عشتار) في متنصف الطريق الذي يبدأ من معبد مردوخ الاكبر الى الجنوب حتى تل بابل الى الشمال، وهو بمثابة العمود الفقري للمدينة كلها. ويمر بالقصر الملكي تحت جدرانه تماماً.

هنا مجموعة ابنية ازيحت عنها الاتربة تتألف من جناح تلو جناح من غرف صغيرة. وكل جناح يحوي منها عادة اربعا او ستا. وقد يغلب على الظن انها كانت دوائر موظفي القصر الكثيرين، كذلك توجد صفوف طويلة من الحجرات المعقودة، بقي من بعضها الذي كان يستخدم غرفاً للمؤونة اقواس السقف والباب في مواضعها لتشهد على ان بنائي بابل كانوا على معرفة تامة بمبادئ هندسة العقادة، واهم ما في القصر هو قاعة الاستقبال (وهي على اغلب الاحتمالات مشهد حادثة بيلشاصر) وكانت الموضع الوحيد الذي شاءت الصدف ان تُبقي على جدرانه فوق الارض. وهي والحق يقال قاعة من اعظم القاعات، طولها يبلغ مائتي قدم وعرضها ثمانون وهي بهذا تنافس عدة كاتدرائيات ضخمة من جهة اتساع صحنها، وفي امكان المرء ان يستدل على موضع العرش الذي يقوم بمواجهة المدخل. ومن اعجب العجائب ان يتجاسر البناؤون الكلدان على بناء عقادة فوق هذا الصحن الرحيب. ومع هذا فان عدم وجود اعمدة ما في الداخل (وهو مما لا يستغنى عنه لدعم السقوف الخشبية) والسمك غير الاعتيادي للجدران المتقابلين اقنع المنقبين الالمان بأن هؤلاء البنائين عقدوا سقف القاعة فعلا، وهو ليس بالعمل الهين حتى في ايامنا هذه، وان لم ينكص البناؤون الساسانيون عن احتذاء حذوهم كما يشاهد في (طاق كسرى) الموجود الآن في موقع مدينة (قطيسفون)، هذا الطاق يرى في مجموعة لوحاتنا وهو مازال قائماً بالقرب من بغداد. ربما كان نسخة من قاعة (نبوخذ نصر) التي وصفناها.

والى شمال القصر يمتد الخندق الجاف العميق الذي يحد المدينة والحي الملكي وكان يقطعه

شارع المواكب بجسر على الارجح، لا اثر له الآن، والمنقبون الالمان يعتبرون هذا الخندق او جزءً منه على الاقل هو «جب السباع» التي كان يحتفظ بها الملك البابلي. فهنالك شواهد مماثلة على وجود شيء من هذا القبيل في مواضع اخرى.

ولاشك ان ابرز ما في المدينة من ابنية، هو معابد (بل مردوخ) و(عشتار) وغيرها من الآلهة، وقد تم التنقيب فيها بمنتهى الدقة ومخططها يبدو في عين الغربي تصميماً غريباً، فليس فيه باحات او ارصفة خارجية ولعلها زالت، لانك تجد بيوت افقر وارذل احياء المدينة لاصقة بجدران اقدس المعابد.

ويتحدث (هيرودوتس) عن «باحات طول ضلع الواحد منها ستاديان[6] Stadia الا ان المرء لايستطيع ان يوفق بين هذا القول وبين واقع ما يرى، اما تصميمها فلا يختلف عن طراز هندسة البيوت الشائعة يومذاك، اذ تتألف من مجموعات غرف صغيرة بعض الشيء حول صحن صغير. والهيكل وهو عادة الهيكل المتأخر ليس أكثر من غرفة داخلية في نهاية الصحن وفيه ممر سري من خلفه يصله بغرف الكهنة الخاصة، التي يصعب على المرء ان ينفي عدم استخدامها لتلك النبوآت المصحوبة بظواهر عجائبية، واغرب ما لاحظناه ان المواد البنائية الثمينة كانت تغدق بلا حساب على البنايات المدنية كالآجر والمينا والجص الابيض (النورة) والحجر المهندم المصقول بينما ترى معابد الالهة مشيدة بالطوب البسيط غير المشوي من دون استثناء.

وهذا القول يسري ايضاً على محل تقديم القرابين الذي بني فوق رقعة من الارض المبلطة دون ان يُجَعل له باب حتى لكأنه جزء من الشارع العام. وليس في الابنية كلها حجر واحد الا الكتل التي تثبت على الابواب الكبيرة، وهذه تدفن في الارض دفناً حتى تختفي عن الآنظار[7].

لاشك بان ثم سببا كان يدعو الى بناء المعابد باللبن فقط، وليس الاقتصاد في النفقات بالسبب الوجيه وعلينا ان نبعد ذلك من دائرة تعاليلنا، ونحن نرجح ان التحفظ الديني هو الدافع الاساسي. كان الناس يقيمون معابدهم كما يقيمون بيوتهم باللبن المجفف اجيالا عديدة قبل ان يتعلموا شَيَّ اللبن، وبعد اهتدائهم الى هذه الطريقة، ظلوا يعتبرون المادة القديمة هي المادة الوحيدة الصالحة للاغراض الدينية، فاستمر البناء بها كالسابق واصبحت تقليداً. ولهذا السبب بقي مذبح التقدمات اليهودي قرونا عدة يبنى بصخور غير منحوتة وبشكل ساذج مع تقدم فن البناء، لان مذابح القرابين الاولى لآبائهم الاقدمين كانت تبنى بصورة خشنة باحجار

---

[6] هو مقياس طولي يوناني يبلغ حوالي (٢ ٢) يارد. (المترجم).

[7] تحت هذه الاعتاب يوجد عادة غرفة صغيرة تكفي لوضع منحوتة مصغرة لـ(حارس العتبة) فقط. وليس هناك باب الا وتوجد فيه هذه الغرفة الصغيرة مع تمثالها.

غير منحوتة ولا مهندمة. والحقيقة الواضحة ان سذاجة بناء هذه المعابد ورخص مواد بنائها مما كان له الفضل الاكبر في نجاتها من يد العبث والتخريب. بينما لم يبق اثر للبنايات الأُخَر، اذ ليس ثم فائدة ما في نقل اللبن غير المشوي الى اي موضع. لقد وجدت الجدران بعد رفع الاتربة عنها أعلى من كل جدران القصر المتبقية الا انه يخشى ان لا تبقى طويلا بسبب تعرضها لمياه المطر، والبناء باللبن اطول بناء عمراً اذا وُقيَ المطر.

ليس في المعابد التي رأيناها ما يمكن ان يوصف بالجمال، انها مهيبة المنظر وهذا امر لا يجادل فيه اثنان، لان السعة والتناسق يحدثان هذا الاثر في النفس حتماً، على انها كانت رائعة في نظر العالم القديم، فقد تم بناؤها عندما كانت بلاد اليونان تتلمس سبيلها الى «البارثنون» Parthenon[8] الذي لا يباريه بناء في الروعة والجمال، انها تقف بين الابنية كما تقف الفيلة بين سائر الحيوانات: ذكرى لعصر سحيق من التطور المتدرج. الا ان منظرها ليذهل الشعوب الصغيرة.

ومما هو جدير بالملاحظة، ان تلك المدنّية «الصغرى» اسهمت بآثار في هذه القبور الغابرة، فقد سقطت بابل على ايدي الفرس وزوال مجدها. لكن عندما هزم الفرس امام الاسكندر اليوناني ودالت دولتهم، فان اخر ملك عظيم من ملوك الشرق كان في الوقت نفسه اول ملك من ملوك العصر الحديث في محاولته تحقيق حلم راوده في وحدة الشرق القديم والغرب الجديد بامبراطورية متحدة عظيمة، وكان مجرد حلم مات بموت صاحبه. (وان كانت تدب فيه الحياة بين آونة واخرى) وسيموت من دونه أناس شرفاء في المستقبل كما يموت الآن. لقد فكر (الاسكندر) في ان يزرع ازهار الثقافة الاغريقية في عاصمته الشرقية الجديدة وعزم على ان تكون (بابل) نفسها، وقدر لتثيليات (اسخيلوس وسوفوكليس)[9] ان تمثل في هذه المدينة التي اعاد بناءها، هذه الرغبة حملته على بناء مرسح مدرّج يوناني (امفاثيتر) على احسن طراز واحدثه واستعمل اللبن البابلي غير المفخور! انه لشاهد عجيب على احلامه العظيمة، وانه لبناء متطفل دخيل عجيب هذا الذي يقوم الان في ضواحي بابل، مأثرة لكل زمن وعصر لاول مجهود غربي يبذل لهضم الشرق وتثقيفه. الشرق الذي فتحه وصعب فهمه.

هكذا تقف بابل فخر الشعوب وفاتنة الكلدان، وامتيازهم الفائق، تقف الآن عارية ساعة من الزمن، ولاتلبث بعدها ان تختفي مرة اخرى وربما ستزال اخيراً لتكون مادة انشاء بيوت حديثة.

---

[8] معهد الالهة مينرفا في اثينا، بناه النحات اليوناني الشهير (فيدياس) في اواخر القرن الخامس ق.م (المترجم).

[9] اشهر مؤلفي التمثيليات الاغريق وشعرائها اولهما (٥٢٥ - ٤٥٦ ق.م) ابدع في فنّ المأساة ومن اشهرها بروميثيوس واغاممنون والفرس الخ.. وثانيهما (٤٩٦ - ٤٠٥ ق.م) وصلنا من تمثيليات: اوديب ملكاً، انتيكون، اليكترا.. الخ (المترجم).

والآن لنرسل الطرف الى الارض التي كانت حديقة العالم في وقت ما ، وهي الآن بين مستنقع وبين صحراء بلقع. ان تلك المياه التي علمها الرجال كيف تنبت من الارض ثمراً، كانت عامل الخراب عندما تركت على رسلها بلا ضابط ولا رقيب. ولسنا ندري هل ان الخطة التي وضعها المهندس الآنكليزي[10] ستجعل الارض بستاناً مرة اخرى لو قدر لها ان تطبق؟ انها لكفيلة بتحقيق ذلك طبعاً. شريطة ان تنفذ باخلاص ودقة. فليس هناك من قوة على وجه البسيطة تستطيع تجريد هذه البقاع من خصوبتها وغنى تربتها. وستبقى المياه كافية لاروائها ما دام الثلج يسقط على جبال حكاري وارارات ويمد دجلة والفرات بمائهما. واذا قام بادارة العمل الرجال الذين صمموا خططه وان اكملوه فسيعود بخير عميم على دلتا ما بين النهرين يوازي الخير الذي عاد على سد النيل المصري في دلتاه او سد اسوان في مصر العليا، لكن السد بقي بعد بنائه عاجزاً عن اية فائدة لان حكام البلاد لايثقون بايداع العمل الى البنائين الذين انجزوه، انهم يخشون المكانة التي سيبلغونها في تلك البلاد وهم يحاولون انقاذها، أسيقبل حكام ما بين النهرين الاخذ بنصيحة الاجنبي لينقذوا البلاد ؟ ام سيرددون ما ظلت تلوكه السنتهم احقابا:

- اننا لا نستطيع المحافظة على سلطاننا الا بالطاعة، الا فلتعبث يد الخراب بالارض وبالشعب ايضاً، فهذه البلاد ملكنا وسنحكمها حتى النهاية مهما كانت الظروف.

قال واحد ممن عرف العثمانيين معرفة سبق فيها وأوعى:

- ان شئت ان تحزر ما ينوي التركي عمله في مسألة ما، ففكر اولا بما ستفعله انت لو كنت مكانه واستبعده. ثم فكر بما يجب عليك عمله واستبعده، ثم فكر فيما تملي عليه مصلحته الظاهرة للعيان واستبعده. وهكذا يمكنك ان تنحي جانباً كل هذه الاحتمالات بتمام اطمئنان فان هذا على الاقل سيضيق من دائرة الاحتمالات الممكنة!

على انه يجب ان لا نفقد الامل، ولعل نبوءة النخيل الذي هو شعار بابل الجميل للخصب والحياة ستبعث مرة أخرى في الخنادق التي يشقها المنقبون هنا ويزرع العمال الوطنيون نبتها مما يقذفونه فيها من النوى بعد اكلهم التمر الذي يوزع عليهم كوجبات طعام.

[10] لاشك ان المؤلفين يقصدان السر وبليام ويلكوكس Sir William Wilcocks مهندس الري الآنكليزي الشهير وأحد عباقرة كل زمان ومكان. كان هذا الشخص مسؤولاً عن احياء الاراضي المصرية. وقد انتدبته الحكومة العثمانية في ١٩٠٩ لوضع تقرير لاصلاح اراضي الديوانية والحلة نظراً لما اصابها من خراب بسبب تغير مجرى الفرات (طبع التقرير مع خرائطه بالعربية في ١٩٢٧) فأعاد المهندس النهر الى مجراه القديم ببناء سد تم افتتاحه في ١٩١٣ وما زالت اقتراحات ويلكوكس دستورا للعمل، وميداناً فسيحاً للتجارب المثمرة في العراق الحديث (المترجم).

17

أصغر حلفائنا *

سبعة اعوام انقضت على كتابة الفصل الاخير، وتأجل الامل الذي انهينا به آخر سطوره الى زمن لا يمكن التكهن به مع الاسف، لقد اجتاحت الشرق الادنى الآسيوي جائحة من تلك التي جعلتها احداث تاريخه الغابر، احدى الظواهر الاعتيادية جداً. والجائحة التي سنتكلم عنها هي ضربة جانبية للكارثة الكبرى التي حلت بالعالم اجمع ولم تكن مآسيها وتخريباتها بأقل مما احدثته غزوة جنگيز خان وتيمور لنگ، لقد هلك جزء كبير ممن اتينا الى ذكره في فصولنا السالفة. بل ان قبائل وطوائف برمتها كادت تمحى من وجه الارض. ولذلك وجدنا من الضروري ان نختم كتابنا هذا بقصة النكبة التي انصبت على رؤوسهم لاثارة الاهتمام مجددا في الرأي العام الآنكليزي بمستقبل البقية المهشمة من اولئك الذين مازالت معاهداتهم معنا تفرض علينا حمايتهم وصونهم.

كان موضوع القبائل الآثورية المسيحية من اهم المواضيع التي تناولناها بالبحث، ولاسيما العشائر الجبلية القاطنة في جبال حكاري وهي اشد العشائر مراسا وغلاظة واستقلالا بين اتباع هذه الكنيسة القليلة الاشياع، ومن المناسب ان نمنحهم للمرة الثانية الاولوية في «هوامش تأريخ الحرب العظمى» التي نحن في سبيل المساهمة فيها الآن، فقد نهض هؤلاء باهمّ دور في هذه الزاوية المنسية من المرسح التي جرت فوقه الفاجعة المشؤومة، لابل افضل دور واجدره بالتقدير. وصلت مار شمعون انباء الحرب وهو في (قدشانس) وكان قد آب لتوه من (وان) حيث بحث امور الحكم مع الوالي وكان الحديث رائقاً مشبعاً بروح المودة، وحمل بطريق العودة أحمالا من الوعود حول تعويضهم والانتصاف لهم، وعود كان على البطريرك قبولها بامتنان عظيم مع إسقاط كثير منها كما املت عليه تجاربه الماضية الناضجة في تقويم ثمنها الحقيقي. وكان ابعد عن الاطمئنان بسبب الانباء الخطيرة التي وصلته، اذ لم يكن خافياً على احد شكل العدالة التي ادخرها الترك لرعاياهم كلما غفلت الدول الاوروبية او تحولت انظارها عنهم الى جهة اخرى.

ولم يطل الامر به حتى رأى مصداقاً لهواجسه في نهب القرى الارمنية المنعزلة وتجديد الغارات الثأرية التي نادرا ما تخمد، بين البگزاده الكرد والعشائر في (ميرگه ور وترگه ور) على الحدود الايرانية. وبدأ اللغط يدور في تركيا علنا عن مذبحة عامة للمسيحيين. وعندما وقع المتوقع ودخلت تركيا الحرب في تشرين الثاني. مهدت لذلك بنهب كل قرى المسيحيين القريبة من (باشقله) بمرافقة صريحة من السلطات العثمانية المحلية.

---

* «اضفنا هذا الفصل والفصل الذي يليه الى الطبعة الاولى من هذا الكتاب كما هو واضح»

على ان صفحات معارك هذه الحرب بدأت في ايران المحايدة، وهي بلاد يجب ان تكون حدودها محرمة (نظرياً) على الجانبين المتحاربين. لكن مقاليد السلطة الفعلية في اورميه الايرانية بالاسم، كانت بيد القنصل الروسي المقيم. ولم يكن الاتراك ملومين كلياً في اعتبارها ارضا عدوة. ولذلك زحفت على المدينة قوة مختلطة تركية من الجيش النظامي والمرتزقة الكرد من الجبال تذبح في مسيرتها من صادفته من الارمن التاعسين وتدفع امامها الآثوريين المدافعين من قرى (ترگه ور) و (ميرگه ور). كانت هذه القوة عظيمة الثقة بالنصر بحيث ما ان صارت على قيد ميل او ميلين من المدينة، حتى القت جانباً، احتياطي ارزاقها من الخبز الذي جاءت به معتمدة على وعد قادتها بنهب الاسواق يوم الغد. والحق يقال ان الامور بدت هكذا، لان دفاع اورميه لم يكن يعتمد الا على سور طيني متهدم، وحاميتها القوية الوحيدة (دعك من الاحتياطي الاثوري) هي حرس القنصل الروسي. على ان القنصل كان يختزن بدورة مستودعاً كبيراً من السلاح والذخيرة. فسلح به تلك القبائل. ثم وصلت نجدة روسية من تبريز في آخر لحظة. وكان الهجوم الكبير الذي جرى في صبيحة اليوم التالي هجوماً دموياً حاسماً للمعركة. فقد صد وانكفأ المهاجمون هاربين يلوذون بالجبال وتفرق المرتزقة السيؤ التدريب، ومني هؤلاء باندحار ثان قرب (صاوبلاغ) وهذا ما جعل وضع اورميه مأموناً بصورة مؤقتة على الاقل.

الا ان القواد الروس لم يكونوا مطمئنين، فهجوم (انور پاشا) على (تركستان الروسية) اخذ الآن يؤتي أكُلَه وحقق تقدماً وأخذ الروس يسحبون وحداتهم المعسكرة في آذربيجان لايقاف الزحف على (باطوم) واخبروا المبشرين الامريكان بان اقصى ما يمكن ان يعدوهم به هو انهم لن ينسحبوا الا بعد فترة انذار كافية، حتى هذا الوعد المتسم بالحذر، ظهر وهما وخدعة. ففي صبيحة اليوم التالي وردت اوامر جازمة من القيادة تقضي بالجلاء الفوري عن المدينة، وخرجت القوة الروسية برمتها حالا تجر في اعقابها حوالي عشرة آلاف من السكان المسيحيين وهم يحملون ما استطاعوا حمله من مؤونة قليلة جمعوها في اللحظات المعدودات الاخيرة التي تيسرت لهم، فانقذوا ارواحهم بهروبهم، ووجد معظمهم في (تفليس) تلك الحماية البائسة، الا ان المشاق التي لاقوها في الجلاء وفترة بعدهم الطويلة عن الوطن، اذاقتهم المر والعلقم.

ان مصير من آثر البقاء في المدينة دل على ان النازحين كانوا مصيبين جداً في قرارهم. تركت (اورمية) مرة اخرى للحكم الايراني المتفسخ المنهار، اما الشخص الذي ارسل ليمارس عليها السلطة المطلقة فلم يكن غير صاحبنا «مجد السلطنة» الذي ورد ذكره في الفصول السابقة، كان في ذلك الزمن يعتبر واحداً من اولئك الاشراف الايرانيين المثقفين المتنورين ومن احرار الفكر، وقد ادت ميوله المتجددة الى اذلاله ونفيه. وهو مدين للتجار الآنكليز بسلامة ممتلكاته وضياعه، لكن يبدو ان الدرس الوحيد الذي استفاده من نكبته هو حكمة اللجوء الى طريق الظلم. وها هو يعود اليوم، متعصباً في منتهى الرجعية والتحامل.

كان اقطاب الحكم في ايران يكرهون السيطرة التركية قدر ما يكرهون السلطة الروسية. وكان عليهم من جهة، ان يقروا ببعض الجميل لجيرانهم النصارى للدور البارز الذي انجزه هؤلاء في صد الهجوم الاخير عن اورميه. ويظهر مع هذا، انهم قَلّبوا الامر من شتى وجوهه في اذهانهم وخرجوا بأن وجود النصارى من شأنه ان يغري العدو بهجوم آخر، وكما انهم كذلك ساعدوا الروس المكروهين ايضاً، فاضطهادهم قد يكون خير علاج لتهدئة خواطر الترك عليهم.

وهكذا تم ذبح بضع مئات من هؤلاء التاعسين خلال موسم الشتاء، اذ كانوا يؤخذون جماعات جماعات باعداد تتراوح بين الخمسين أو الستين الى احدى القرى القريبة ليقتلوا هناك بلا رحمة. كان بين هذه الجوقات فئة تبلغ السبعين جمعت من قرى (گه وه ر) المسيحية. اجبرهم الترك على ان يكونوا بمثابة مقدمة استطلاع في غزوتهم الاخيرة. فزل لسانهم وباحوا بهذه الحقيقة لآسريهم عندما ارتد الجيش التركي الغازي. فأخذوهم الى (گه وه ر) وسلموهم الى المرتزقة من الجيش التركي (وربما كانوا هم الاشخاص الذين اجبروهم على القيام بمهمة الاستطلاع) فذبحوهم بالخناجر وحطموا جماجمهم بالهراوات ولم يسلم منهم احد، (انظر الفصل الحادي عشر) وفي هذه المذابح قتل (مار دنخا) اسقف (مه رگه وه ر) الذي اضحكتنا مفارقاته وغرائب اعماله. لن ننسى الاشادة ببطولة هذا الرجل الشيخ ساعة موته، فقد افقدته جراحه الكثيرة القدرة على الوقوف، فقضى آخر ساعاته في السجن وهو يتنقل زحفاً هنا وهناك مهدئاً من قلق ارواح اخوته التاعسين ومشجعاً ومانحاً المغفرة الاخيرة (الحل من الذنوب) لكل سابق الى الموت.

وأقبل الربيع. معه أقبلت الرحمة والتوقف عن الارهاب، فقد تحطم هجوم (انور پاشا) على تركستان وسحق سحقاً تاماً في (سره هميش) وانتشرت طلائع القوات الروسية جنوباً، وعادت الى احتلال (اورميه).

هذه الازمة لم تتطور في الجبال بسرعة تطورها في السهول لوجود القبائل المسيحية المسلحة، وكان الترك انفسهم يحاذرون ويتلهفون الى إرجاء الازمة زمناً، بل لم يكن هناك سبب اكيد يدعو الى الشك في صدق نيتهم على اجتنابها جملة وتفصيلاً. هذه القبضة من الجبليين الاشداء المستكنين خلف صخورهم الصماء، هم اصعب على الابادة والفناء من عشرة اضعاف عددهم من الارمن الفلاحين المساكين، ومن مربي الماشية الودعاء المنتشرين في القرى والمدن، فليس عندهم مايسوى سلبه الا النزر التافه «لكمات شديدة لا تأتي بغير نصف بنس»! كما وان القوات اللازمة لاخضاعهم لا يمكن الاستغناء عنها في اماكن اخرى. اضف الى هذا انهم لو استطاعوا اغراءهم بالمداهنة والملق المرائي لفازوا بملك مفيد لهم فيما بعد، يقوم شاهداً حيادياً مستقلاً على حسن سلوك هؤلاء الترك. فهذه المذابح الارمنية بدأت اليوم بدايتها الحقيقية والاتراك مصممون بكل ما طبعوا عليه من عناد على المضي فيها الى أقصى الحدود، وهم لايخشون بعد الآن احتجاجاً من اوروبا (ربما قد يجئ من امريكا) ووجود

المبشرين الامريكان في البلاد يحول دون اخفاء الحقائق، ومن بعد النظر والفطانة ان تهيأ صيغة اعتذار مقبولة تتضمن حجة وجيهة نوعاً ما، كأن يقولوا ان ما اشيع عن قيام محرقات بشرية قد بولغ فيه كثيراً وان الاجراءات التأديبية المتخذة لم تكن تزيد عما حتمته الضرورة لقمع ثورة كاد يذر قرنها. حجة كهذه يزيد في تعزيزها وتقويتها وتأييدها حقيقةُ وجود طائفة مسيحية اخرى تعيش في البقاع نفسها وفي الاحوال التي يعيشها الاخرون، فظلت مخلصة موالية لاسيادها ولم تجد في اجراءات الترك ما يهدد كيانها او ينذرها بشرٍ. ومن الناحية العسكرية يكون من المفيد ايضاً التصافي مع هؤلاء الجبليين وكسب ولائهم فلو غزا الروس ارمينيا التركية فان هذه القوة الصغيرة ستكون عقبة شديدة الوطأة لجناح المهاجمين، كما قد تكون مصدر مضايقة جدية للمدافعين.

لذلك راح الترك يتقدمون بعروض سخية لما سموه «بولاء القبائل الآثورية». وما فضل الآثوريون تسميته بالتحالف تمسكاً منهم باستقلالهم التقليدي والاسمي عملاً باعتزاز كبير. وطلبوا ان تخصص الحكومة لبطريركهم واساقفتهم وزعمائهم رواتب وان يسلحوا ويمنحوا الحرية الكاملة في التعليم، وشعر عدد كبير من زعمائهم بالميل الشديد الى التمسك بهذه المطالب واتخاذ ما بدأ في الظاهر وبوجه الاحداث، آمن السبل.

لكن سعة هذه المواعيد (اليونانية) هو نفسه الذي أثار ريبة الاغلبية منهم، فقد كانوا يدركون جيدا ان الوعود التركية ليس الا «هواء ساخناً». والرواتب والاسلحة شيئان لا يمكن التفكير في الحصول عليهما، وشكوا حتى في «الحصانة» التي تقوم على رأس كل هذه الوعود السخية، فها ان «الجهاد» قد اعلن، وهم نصارى في بلاد اسلامية. أفيستطيع الاتراك ضمان سلامتهم من اعتداء جيرانهم الذين لم يكونوا في راحة او هدنة معهم حتى في اهدأ فترة من تاريخ البلاد؟ ولاسيما بعد اعلان (الجهاد) الذي يبشر بالمزيد من الحرية والشرعية لشن الغارات؟ أواثقون هم بأن الترك لن يهاجموهم ولن يحرضوا الكرد على مهاجمتهم حالما يتخلصون من المشاكل التي تشغلهم عنهم؟ لقد رأوا بأم اعينهم المصير آل اليه الارمن واليعاقبة اخوانهم في الدين، وهو المصير الذي حل بمواطنيهم انفسهم من سكان القرى الجبلية في المناطق الشرقية. كل ليلة كانت تتمخض بانباء مذبحة جديدة تبلغ البطريرك، (لم يجرأ أحد الآن على السفر والتنقل نهارا). كل يوم كانت تتسرب اليه اخبار مقتلة في واحدة من قراهم النائية المنعزلة. وفي احدى الليالي جاءه خمسة رسل كل واحد منهم يحمل اليه نبأ مذبحة من قرية وكانوا يختمون بلاغهم بالعبارة الواحدة «ولم ينج احد غيري» أفليس من الاسلم لهم ان يضعوا ثقتهم بسلاحهم ويأملوا مساعدة من روسيا؟ او ان يتوقعوا بالاقل من الامل، مساعدة بريطانيا؟ هاتان الدولتان اللتان كانتا تطلبان صداقتهم دوماً، وكانوا يشعرون نحوهما بانعطاف.

على ان الخطر العظيم الذي يتهددهم واضح، فهم بين فكّي الذئب، ومن يجسر على لومهم

ان اختاروا السلامة؟ هم على ثقة بان الروس والاكليز لن يعتبوا عليهم مهما فعلوا، ومنطقتهم كمنطقة جيرانهم اليزيدية (ومثل عدد كبير من الطوائف الاكثر مدنية الأقرب اليهم من الشيخ آدي) انه لاسلم لك ان تأثم بحق رجل طيب كثير التسامح من ان تأثم بحق ابليس خبيث لن يغفر لك قط.

كانت ميادين الحرب بعيدة عنهم ولذلك لم يجدوا ضرورة ملجئة الى اتخاذ قرار عاجل. وظلت القبائل طوال الشتاء حائرة مؤرجحة لا تقر على قرار، لكن انتقال البطريرك من (قدشانس) الواقعة على حدود البلاد والقريبة من حامية (جُولَميرك) التركية وانسحابه الى الداخل في مجاهل الزاب وجباله الوعرة الصخرية في (ديزه) بدا وكأنه رفض للعروض التركية ينذر بسوء العقبى، لكن بأية شروط يمكن ان يستمر في مفاوضاته مع حكومة استهلت مذابحها الارمنية الاخيرة بعملية اختطاف غادرة لزعمائهم ثم ذبحهم قاطبةً؟

ثم رجحت كفة الحرب في العام ١٩١٥ لصالح الروس ومني الهجوم التركي على (تركستان) بهزيمة تامة، وبدأ غزو الروس لارمينيا التركية وبلغ جيش روسي مدينة (وان) وقام بفك الحصار عن الارمن في المدينة، وتقدمت وحدة منه الى (باشقله) وارسلت دعوة رسمية الى القبائل الآثورية تعرض عليها الآنضمام الى الحلفاء فقبلت الدعوة فوراً. ويظهر أن النقطة التي كانت سبب ترجيح كفة الحلفاء هي ذات طابع ديني. ذلك الطابع الذي كان الاتراك مسؤولين عنه من البداية الى النهاية باعلانهم (الجهاد) فقد شعر الآثوريون بانهم مدعوون الآن ليسهموا بدورهم الى الجانب المسيحي! فما ان وردتهم الدعوة حتى لبوها مطرحين جانبا كل المخاطر التي تكتنفها.

لاشك انه لايمكن الاصرار على ان هذا السبب هو الوحيد، فهم كما بينا في فصولنا السالفة، شعب محارب ذو شهوة حيوانية غلابة لما نطلق عليه باللهجة الزقاقية «العراك لوجه الله». ويغلب على الظن ايضاً انهم اذا اتخذوا قرارهم هذا فلان كل جيرانهم الذين تقف بينهم ثارات وذحول طويلة الأمر قد انحازو الى الجانب الآخر. وسرعان ما تناقلت الافواه نشيد الحرب الذي نظمه (شماشا ايريم) في سائر القرى. وان بعض ابياته الحماسية لتستأهل الاثبات هنا، ليطلع القارئ على مدى الحمية التي رافقت دخولهم الحرب.

ايها الاخوان! انهضوا واحملوا السلاح! فالترك يغيرون عليكم

استعدوا، فقد اقبل الصبح، لننهض ونزحف على الاعداء

اتركوا قطعانكم وحقولكم. واحملوا بندقياتكم الصادقة

ولنتقدم الى ساحة الوغى باسم مار شمعون

***

يا رجال العشيرة من شعبنا، كونوا معا جنبا الى جنب:

«التخوما» مع «التياري». و (الباز) مع (الجيلو) كلكم صامدون

مثل حزمة من الاخوة، متحدين ايادي وقلوباً

ولنتقدم الى ساحة الوغى باسم مار شمعون

يا شباب الامة يا قبائل نُسجت حول اعمالها القصص

يا رجال مغاوير الحرب، اولئك هم اباؤنا الملوك القدماء

يكتسحون البطاح ويقتحمون قنن الجبال

فلنتقدم الى ساحة الوغى باسم مار شمعون

***

نينوى المقدسة[1] انها تشير الى اولادها

الا تعلمون ان اسوارها القديمة ستكون اكليلا للظافر

هناك فقط ايها الآثوريون ستثبت اصول شعبنا العريقة

فلنتقدم الى ساحة الوغى باسم مار شمعون

ووضعت شجاعتهم على المحك فوراً. فما ان اعلنوا عن نواياهم هذه، حتى عاد الروس ينسحبون شمالاً تاركين حلفاءهم الجدد يقاتلون وحدهم، وتم حشد جموع كبيرة ضدهم في الحال، وما مرت اسابيع قلائل، حتى وجدوا انفسهم يقاتلون قتالاً مريراً. فقد زحف عليهم جيش قوي نظامي من الموصل تسانده مدفعية جبلية ويدعمه (مير رشيد آغا البرواري) الطاغية الذي اسلفنا ذكره، بحلف من المرتزقة الكرد وكان خط زحف هذه القوات عليهم من الغرب باتجاه (ليزان) و (تياري السفلى). وهاجمهم كرد (اتروش) غير النظاميين بمساندة الجيش النظامي الزاحف من (جوله ميرگ) متجها الى (الجمبه) و (تياري العليا). وزحف آغا چال الذي عرفناه في فصل سابق بقواته على (سلبيكان) و (تخوما). وهاجم (سيتو آغا الاورامـاري) مناطق (الجيلو) و (الباز) وبهذا حقق العدو تفوقه الساحق عليهم في كل الجهات، وكان تسليحهم اسوء بكثير من تسليح اعدائهم، فاسلحتهم النارية هي من الطراز المهجور الذي بطل استعماله باستثناء القليل من البندقيات الروسية والذخيرة التي زودهم بها الجيش الروسي.

---

[1] هذه ليست الصفة التي تخلع على نينوى عادة في الكتاب المقدس. الا ان لمسة من الغيرة القومية تبدل وجهة النظر. ان الشاعر التيرتيوسي الآثوري الذي نظم هذه القصيدة هو لاجئ (سيرابي) الى (وان). (المؤلفان) استعمل المؤلفان لفظة Tyrtaeus ونرجح ان المقصود بالنسبة هو الشاعر الاغريقي (تيرتيوس) من القرن السابع ق.م الذي اشتهر بشجاعته واشعاره الحماسية (المترجم).

ومع هذا، فقد كان الاخفاق النتيجة العامة لهذا الهجوم المشترك الكبير. لقد نهبت (قدشانس) واحرقت، وتم احتلال وادي ليزان، والاستيلاء على القرى الواقعة في واديي (سپنه) و (برواري) الا ان هذه المناطق كلها كانت منعزلة ومفتوحة ولم تعتبر من الاماكن التي يمكن الدفاع عنها مطلقاً، اما الهجوم على (جيلو وسلپيكان وچمبه) فقد صد وتكبد المهاجمون خسائر جسيمة. وبعد اسبوع من القتال تبين ان الآثوريين لم يخسروا إلا تخوماً من منطقتهم عن يمين او غرب ضفة الزاب، وظلوا محافظين على كل مواقعهم الستراتيجية المنيعة على الجانب الشرقي من النهر سليمةً. كانت هذه الجولة الاولى في الواقع، على ان الفشل ظلّ حليف الترك طوال موسم واحد. وبقى المدافعون يأملون بان العمليات الحربية الروسية في أرمينيا قد تكون عاملاً في انجادهم.

ثم ارتكب الاتراك عملاً وحشياً. كان (هرمز) اكبر اخوة (مارشمعون) وهو شاب لا يتعدى الثلاثة والعشرين يتلقى علومه في استانبول بناء على دعوة الحكومة التركية لمدة سنتين. فما ان دخلت تركيا الحرب حتى القت القبض عليه واودعته السجن، دون ان يكون مسؤولاً بصفة شخصية عن أية حادثة من الحوادث التي وقعت فيما بعد، ثم انها أرسلته مخفوراً الى الموصل ليستخدم في أقذر عملية تهديد.لم يكن (طاهر باشا) الكهل الطيب واليا على الموصل في ذلك الحين. فحسن الحظ الذي واكبه واستحقه، عجل بالحاقه بآبائه قبل اكثر من اثني عشر شهراً. وكان خلفه (حيدر بك) وغداً نذلاً وآلة طيعة بيد انذال أعلى منصبا منه. فأرسل هذا الرجل رسالة لمار شمعون جاء فيها:

«اخوك في قبضتي، وان لم تستسلم فسيموت»

كان الاخوان في سن مقاربة، وقد ربطت بينهما منذ نعومة اظفارهما اوثق امراس المحبة والتعاطف. وانه لمن العبث ان نجد عبارات مناسبة لوصف المحنة العظمى التي عصفت بكيان مار شمعون والعذاب الشديد الذي كابده. الا ان اختياره لم يختلف عن «قوزمان الطيب»[2]. فقد اجاب الوالي بقوله:

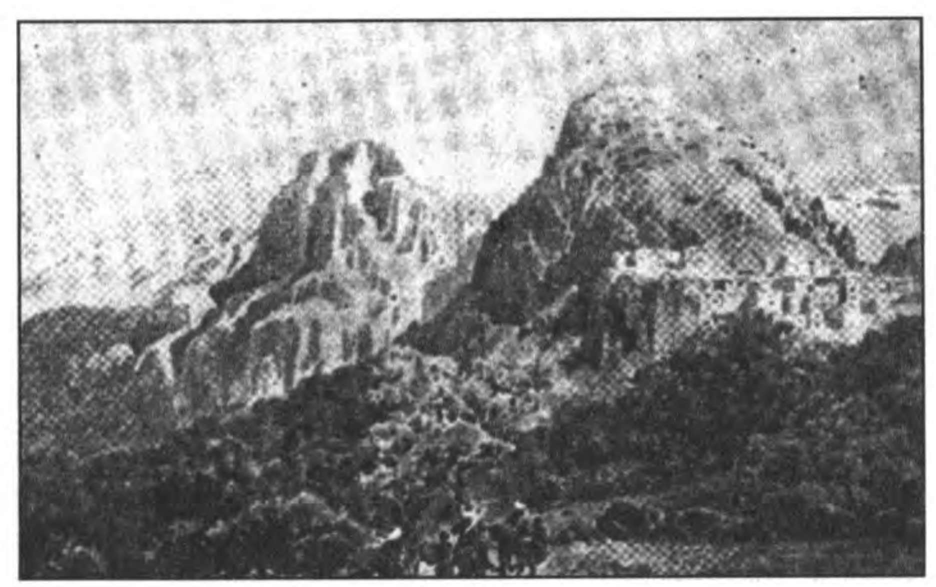
«لقد عهد الي بأمر ملتي وهي كثيرة العدد، فكيف أخون الامانة في سبيل انقاذ شخص واحد وان كان الشخص اخي؟»

وبوصول جوابه هذا تم تنفيذ حكم الموت بأخيه (هرمز)

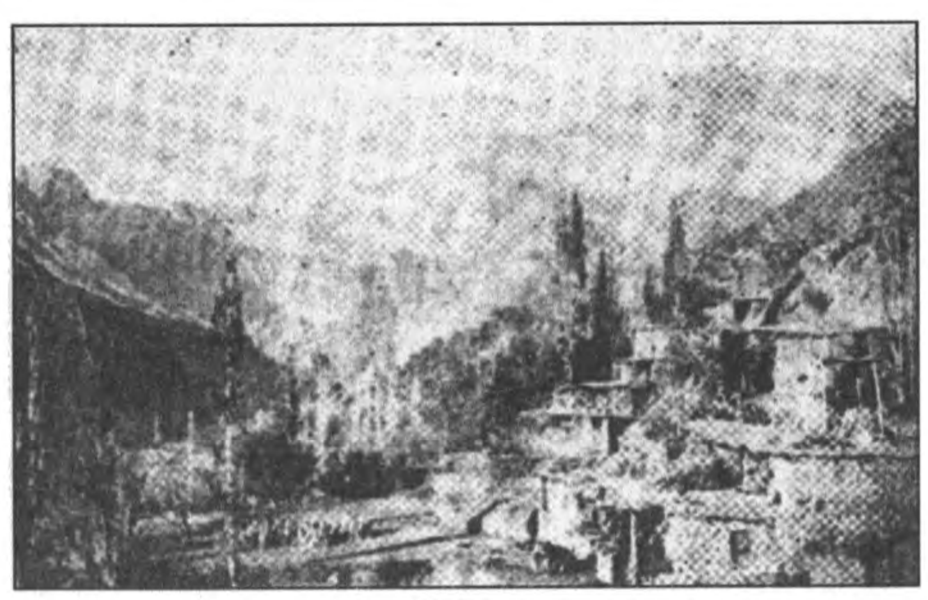
قام (مار شمعون) بمحاولتين للحصول على معونة من الروس اثناء فترة الهدوء التي عقبت الهجوم الاول وقد دامت خمسة أسابيع أو ستة، وفي المحاولة الثانية ظهر ان نجدات كانت قد ارسلت في وقت ما لا يعرف تاريخه بالضبط الا انها لم تصل قط، وكانت الاشاعات قد

---

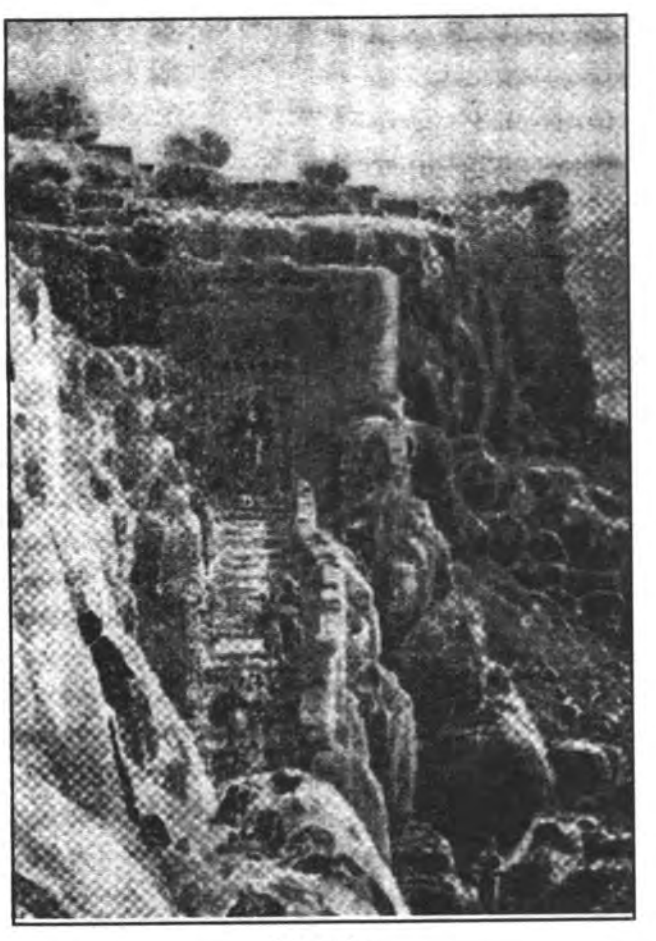
[2] خيل لنا المقصود هو القائد الكاستيلي قوزمان من قواد الاسبان في القرن الثالث عشر الذي اشتهر بشجاعته (المؤلفان). نقول والي الموصل اذ ذاك كان سليمان نظيف لاحيدر (المترجم).



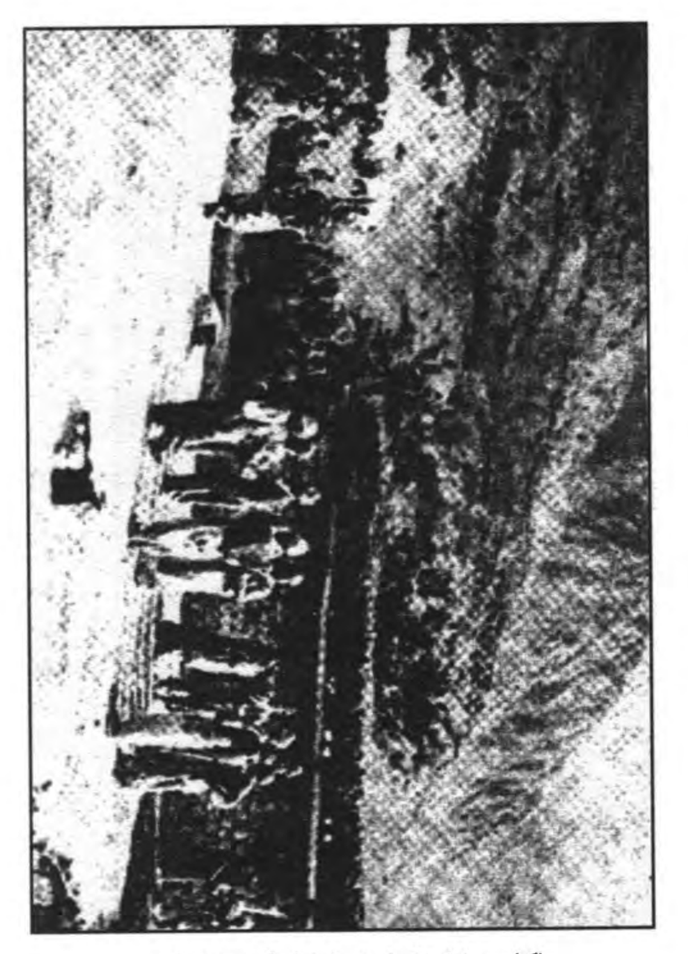
چال
بيت قاطع الطريق الرسمي (مدير الناحية)
مضيق عميق يلي القرية مباشرة



قرية زاويشه



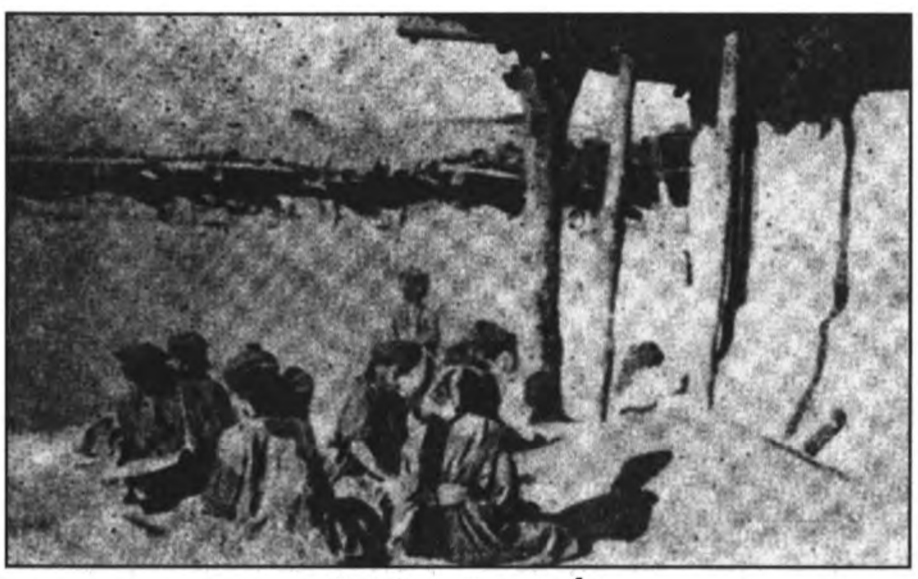
مدخل العمادية



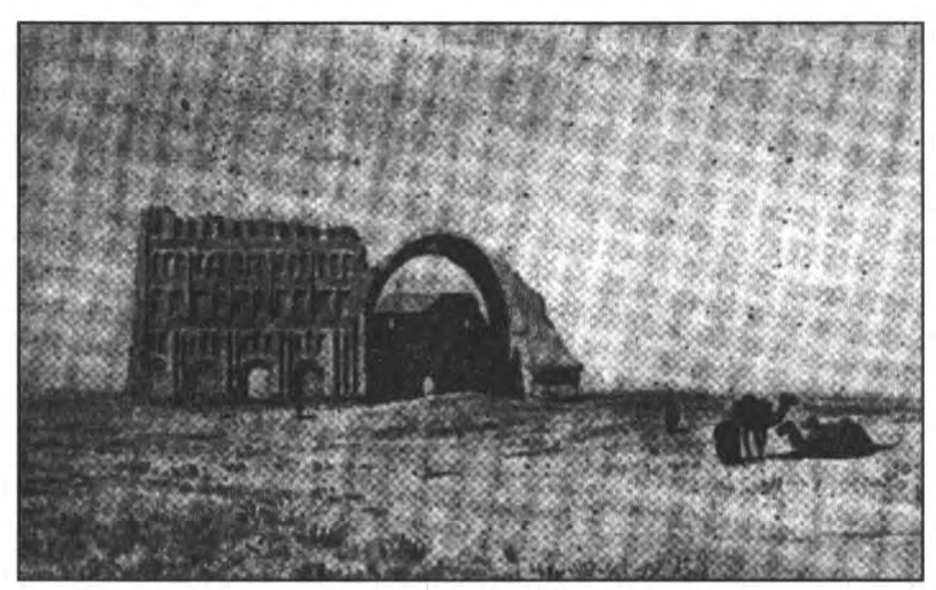
اكراد يتحادثون فيما بينهم فوق اسطح بيوت بيادي



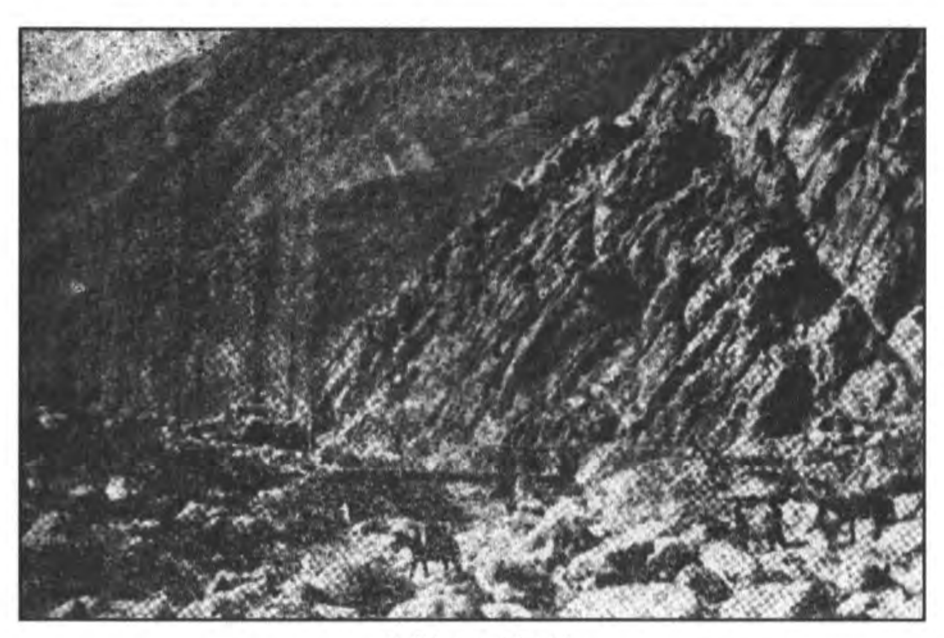
مجموعة من الجبليين الآثوريين
سطح البيت في قرية ملتكه - بروار، في الامام «البلايي» المفتوحة



نساء آثوريات يشتغلن في سطح احد البيوت
العمل هو تنظيف القمح من الاحجار الصغيرة والقش



طاق كسرى (تختي خسرو)
خرائب قصر كسرى في موقع سلوقية - قطسيفون
يظن انه منسوخ عن قاعة استقبال نبوخذ نصر في بابل



الانتقال في تخوما السفلى

انتشرت قبل سنين بان الروس نجحوا في كسب ولاء عدد كبير من زعماء الكرد الكبار. وكان من المنتظر ان ينقلب هؤلاء على الترك حال نشوب الحرب. ولايدري احد مبلغ هذه الشائعة من الصحة بصورة اكيدة، ولم يعرف عنها شئ. وربما كان للروس ما يبرر ظنهم بان نجاحهم في اسيا الصغرى كلما ازداد واطرد سيجعل هؤلاء الاغوات ذوي الخيانتين اكثر استعداداً لنكران صفقتهم الثانية التي عقدوها مع العثمانيين ووجدوها خير الصفقتين، وعلى أية حال فان كتيبة من القوزاق قوامها اربعمائة فارس كانت تندفع في تلك الايام من (اورميه) الى اورامار. فاستقبلها (سيتو آغا) مرحباً وارفق بها اثنين من ابنائه لحراستها في رحلتها، الا انه اوقعها في كمين هيأه بمساعدة شيخ (شمدينان). فأبيدت حتى آخر رجل في مضيق (بالنده).

وشرع بالهجوم الثاني على القبائل المسيحية في أواسط شهر آب. واستعمل المهاجمون اراضي البارزانيين في هذه المرة وهي تقع جنوب (التخوما) وتؤلف حلقة وصل بين الهجمات المتتالية من (اورامار) الى الشرق ومن برواري الى الغرب. لم يعد صديقنا الكريم (الشيخ عبدالسلام) زعيماً لهم مع الاسف الشديد، فقد كانت الحكومة دائماً تنظر بعين الحقد والكره الى تسامح الشيخ الملقب (بشيخ النصارى). فاحتال عليه الوالي النذل (سليمان نظيف) واغراه بالقدوم الى الموصل وهناك قتله غدراً. ولسنا ندري أكان في مقدورة مقاومة الضغط الذي مارسته الحكومة على قبيلته لو كان حياً؟ أكان سيفلح في منع عشيرته من المساهمة في الجهاد، وهو مسلم وتابع تركي عرف بشدة احتقاره للروس؟ ام كان سيبقى على الحياد؟ ولعله كان سيبرهن على شهامته وفروسيته الاصيلة فلا يظهر عداء وربما كان نفوذه سيخفف من حقد هذا الصراع وفظاعته؟

ونجح الهجوم الثاني، فالحدود الجنوبية كانت اسهل اقتحاماً. وعاث المنتصررون فساداً في مناطق التخوما والباز والجيلو والتياري من اقصاها الى ادناها واحرقت البيوت والمعابد وخربت الحقول وقطعت الاشجار وكسرت السواقي. وآضت الوديان غير صالحة للسكن عدة سنين. وفي هذا التدمير نهبت بيعة (مار زيا) في جيلو وهي الكنيسة الشهيرة جدا، اعتدُي على حرمتها لاول مرة في تاريخها مع وجود ذلك الطلسم الذي طالما حفظهما من النهب وصانها من الاعتداء صكّ الحماية والامان الذي زعموا انه منحة الرسول العربي بالذات، لكن اهلها انتقموا لها. فقد قاد الغارة عليها زعيم شاب شرس جداً هو الابن البكر لسمكو آغا زعيم الشكاك. وكان يفخر كما فخر (براون المتعصب Fanatic Brooke) بانه لن يستريح حتى يشهد بأم عينه خراب كل بيعة في البلاد. ففيما كان واقفاً ببابها يستمتع بعملية تدمير تلك المجموعة الاثرية العجيبة من النذور والتقدمات، اطلقت عليه رصاصة من مسافة بعيدة جداً فأصابته في جمجمته فخر فتيلا على عتبتها.

ولم تذهب ريحهم رغم الهزيمة التي لحقت بهم ورغم طردهم خارج وديانهم، ولم تفل عزيمتهم، فقد انسحبوا الى (اليائيلا) وهي مراع هضابية في لحف الجبال بارتفاع عشرة آلاف قدم عن

مستوى سطح البحر، اعتادوا ارتيادها واتخاذها مسارح لقطعانهم وماشيتهم اثناء الصيف وكانوا يمكثون فيها طوال الموسم مع الماشية، اتفق ان كان الوقت صيفاً فسيقت الماشية كالعادة لذلك كانت هذه (اليائيلا) مجهزة بالازراق الكافية، وماؤها كثير من جراء الثلوج الذائبة.

لايمكن الوصول الى هذه المعاقل الا بمسالك شديدة الانحدار صعبة المرتقى قليلة، لذلك صد كل محاولات المهاجمين بكل سهولة. وكانت جماعات مغيرة من الآثوريين تنحدر منها بين آونة وأخرى الى الوديان لتعود محملة بمؤونة قليلة من القمح تم اخفاؤها في مخازن سرية داخل القرى. وكان الملح هو المادة الرئيسة التي افتقدوها طوال بقائهم هناك بحيث يمكن اعتباره مشكلتهم الكبرى فالملح في الشرق مادة لا يستغنى عنها، وبطريركهم الذي لايتناول اللحم بوصفة ربانا، اضطر الى الاقتصار على الحليب والقمح المقلي.

ان كانت اليائيلا منيعة لا تقتحم، ففيها نقطة ضعف واحدة وهي انها لا تصلح لسكنى أي مخلوق في أيام الشتاء على الاطلاق وها هو ذا الخريف قد اقبل ومن المحتمل ان يسقط الثلج فوق هذه المرتفعات في تشرين الاول، وعلى حد المثل الامريكي المعبر. فان الآثوريين (وضعوا في قالب الحذاء). ولم يفعل اعداؤهم الذين يعرفون نقطة ضعفهم هذه شيئاً غير احاطتهم بطوق حديدي في الاسفل منتظرين نزولهم ليكروا عليهم ويذبحوهم.

في هذا الوضع اليائس قرر مار شمعون ان يقوم بمحاولة اخيرة لنيل المعونة من الروس. فانطلق بنفسه يرافقه احد الزعماء الكبار (وهو مالك خوشابا آغا ليزان) مع مرافقين آخرين، تاركا (يائيلا شينه)[3] الواقعة في رأس ممري «تال وتخوما» شاقا طريقه عبر الجبال الى سهل (اورميه) وكان سائر المناطق المؤدية اليه تعج كلها بالاعداء لكن هذه الجماعة الصغيرة استطاعت بمعونة الدليلين الخبيرين وباتخاذها الليل ستارا، تحقيق الغاية الجريئة بنجاح تام وبلغت طلائع الجيش الروسي قرب (سلماس).

الا ان الخيبة كانت في انتظارهم، فقد اوضح القواد الروس المحليون تعذر ايصال أية معونة. ولم يقدموا للبطريرك شيئاً خلاف النصيحة الذليلة اليائسة وهي ان من الخير له بقاؤه عندهم آمناً ما دام افلح في النجاة، فلا يضحى بنفسه بمحاولته العودة دون فائدة، فرفض مار شمعون باباء ان يستريح ولو ليلة واحدة وولى وجهه شطر الجبال ليشارك اخوانه سوء المصير.

الموقف الآن خطير للغاية لكن الاثوريين كانوا مصممين على ان لا يهلكوا بدون قتال مرير آخر، انهم سيخرقون الحصار ويشقون طريقهم بالنار الى سهل اورميه. وكانت المحاولة تبدو فاشلة حتى بالنسبة للجيش الذي لا يواجه عدوا وهؤلاء رجال القبائل، سلاحهم سيء

---

[3] هذه اليائيلا تقع في وسط الجبال التي تظهر في الصورة المقابلة وتكون في أقصى اليسار من الصورة بمواجهة سفوح (قره داغ).

وتنظيمهم اسوء، اضف الى هذا ان انسحابهم كان يتضمن اصطحاب غير المحاربين منهم كالنساء والصغار، وهم يعدون زهاء خمسة وعشرين الفاً، دعك من قطعان الغنم والماشية. ومن أم تلك الاصقاع يدرك ولا شك ان طريقهم يمر بمسلك من اصعب المسالك واكثرها وعورة في اية منطقة جبلية من قارة آسيا. ونادراً ما كانت تلك المسالك تتسع لمرور أكثر من شخصين معاً. انها لمسيرة انتحارية اوحى بها اليأس لان البقاء معناه الموت المحتم. ولان الاستسلام معناه الذبح كالانعام. ان لم يكن من الموت بد فليموتوا والسلاح في ايديهم. اضف الى هذا إنّ لديهم زعماء عرفوا كيف يعتصرون من أضأل الفرص خيرها واحسنها، وكانت خطتهم تتسم بطابع الشدة واليأس القاتل.

كان معظم القوات التي تحاصرهم يعسكر في جبهة الشرق فتسد عليهم كل السبل المؤدية الى اورميه رأساً وتضع اليد على كان ارزاقهم ومدار عيشهم من حقول «گه وه ر» الخصبة حيث نظم (نوري بگ) قبل فترة وجيزة مذبحة همجية غير مسبوقة في قرى السهل المسيحية العزلاء. ولهذا كان عليهم ان يخترقوا الطوق من الغرب حيث لا يحلم احد بانتظارهم. وتم سيرهم في رتلين لئلا يدب الخلل بين صفوفهم اثناء السير، او ربما بعد حساب مضمر «كحساب يعقوب في التوراة» وهو ان وقع رتل واحد في يد العدو وضاع فقد تتاح للثاني فرصة النجاة، وكان عليهم عبور الزاب بجسور متداعية قريباً من الفتحات الجانبية في وديان «الديز والتال»[4]وفي الجانب القصى من (جوله ميرك) وكان عليهم ان يسيروا يوما كاملاً للوصول الى «ألباق» القريبة من (باشقله) ثم الممر الذي يفضي بهم الى سهل (سلماس).

وبتحد صارخ لكل القواعد ووجوه الاحتمالات العسكرية حققت هذه الخطة الجريئة نجاحاً تاماً. ان كان الآثوريون يفتقرون الى الضبط والنظام، فان هؤلاء الذين كان واجبهم تعقيبهم ومطاردتهم حالما علموا باخلاء البائيلات، ظلوا قابعين في مواضعهم يحتربون ويتنازعون على قسمة الاغنام التي تركها العدو، اما الوحدات المنعزلة منهم التي حاولت التصدي للانسحاب فقد فوجئت بهجمات قوية وهزمت بسهولة.

وكان (البطريرك) يرافق رتل (تال) وقد اقترنت مسيرته بواقعة عاطفية جداً، قدر ماهي روائية، ادى السير بالرتل الى قمة جبل شاهق قريب من (جوله ميرگ)[5] لابد وانه شاهق لانه اتاح للبطريرك آخر فرصة لالقاء نظرته الاخيرة على التلعة المخضوضرة التي تقع فيها قريته الخاصة (قدشانس). وفيما هو واقف يرسل الطرف اليها افلتت من بين شفتيه حسرة طبيعية وقال:

- متى سيتاح لي ان اشرب من عين (قدشانس)؟

---

[4] ان مضيق تال المشرف على الزاب من جهة اليسار هو قريب من النهاية القصوى للمجرى.

[5] لابد وانه مر في سلسلة الجبال البعيدة التي تبدو بمواجهة الصورة المقابلة.

والتقطت كلماته تلك، الآذان المرهفة الشبيهة بآذان الثلاثة الشجعان الذين تبعوا ابن (جس Jesse) وانفصل رهط صغير من المحاربين المخلصين عن الجماعة السائرة دون ان يقولوا كلمة واحدة لزعيمهم واقتحموا الموانع التي وضعها العدو لوقف تقدمهم، وعادوا بشربة ماء لبطريركهم من عين (قدشانس).

اتحد رتلا (ديز) و (تال) في «قطرانس»، ووصلت تلك الطائفة ملتحمةً الى (ألباق) كما هو مرسوم، وهناك اشتبكوا في اخر معركة لهم، فقد اجتازت ثلة من الكرد نهر الزاب من (گه وره) بجسر من جسوره العليا ونصبت لهم كميناً على السبيل الذي كانوا سيسلكونه، الا ان «خوشابا الليزاني» حقق النصر عليها بوحدة آثورية صغيرة من رجاله وفتح الطريق ليتدفق الرتل الموحد بالاخير الى سهل (سلماس).

لم يكن القادمون جيشاً مهزوماً مشتتا. ليس على الاقل - اكثر تشتتا من الجيش الصربي الذي كان ينسحب متقهقراً في هذا التاريخ تقريبا مرغما على ترك بلاده امام هجمات الجيوش النمساوية البلغارية. لقد صمد الآثوريون امام عدو متفوق للغاية مادامت المقاومة ممكنة، وعندما اجبروا على الانسحاب بمواجهة مصاعب هائلة، انسحبوا ولم يكتفوا بانقاذ اطفالهم ونسائهم وانما حافظوا على قسم كبير من اغنامهم وماشيتهم. لاشك انهم تكبدوا خسائر كبيرة في قتالهم ومما لاريب فيه ان كثيراً من الصغار والنساء لاقوا حتوفهم في فواجع عملية التقهقر، الا ان عزيمتهم لم تهن. وها ان القدر يدخر لهم دوراً آخر ليبرهنوا على شدة مراسهم.

واضاف اقتحامهم الحدود الايرانية مشكلة اخرى الى مشاكلهم الشاذة المعقدة. فايران دولة محايدة بالاسم الا انها لا تستطيع تأكيد هذا الحياد وفرضه بالقوة، والطرفان المتحاربان ما زالا يعلنان احترامهما لحيادها هذا وهما يتجاهلانه في كل عمل يقومان به.

كان (اقليم آذربيجان) اقطاعا ممنوحاً لولي العهد (وهو ولي عهد شاه ايران الفعلي) وكان والي اورميه «وكيلاً» له ومرؤوسا. ويتألف مجلس شورى هذا الوالي من وجهاء المسلمين في المدينة. الا ان النظام الرديْ الشائن الذي حكمت به هذه الطبقة العلياء طوال الشتاء خر صريعاً تحت اقدام الروس عند عودتهم في الربيع. وأُبقيَ الوالي في منصبه لانه الوالي المعين رسمياً (ولو بالاسم) لكن الاوامر التي سُمح له باصدارها لا تتعدى ماكان يضعه القنصل الروسي منها في فمه، فاذا خطر للقنصل ان يستشير احدا قبل اصدار امر فلا رأي فيه لاشراف المسلمين، وانما الرأي هو رأي المسيحيين المحليين المحتقرين الذين لا يتمتعون بمركز اجتماعي في نظر الحكومة. لاشك وان هذا الوضع لم يكن محتملاً ابداً في مدينة ملأى بالمسلمين المتمسكين بدينهم. وهذا لايقدره بالضبط الا من خبر درجة احتقار المسلمين المتعصبين الشديد لكل الاتباع المسيحيين الذين يخضعون لهم، ومبلغ الفخر والمباهاة اللذين اعتاد الشرقي الذليل التظاهر بهما احتفاء بتحريره من ربقة العبودية! هؤلاء قد يهزأون بالاخرين ويتشفون بهم سراً لكنهم لا يجرأون على السخرية بحديثي النعمة في محضر من

الجنود الروس، واذا كان العسكري الروسي وقحاً جريئاً فالايراني على العموم مؤدب خنوع تعوزه الجرأة والاقدام.

واكمالا تعاظمت بلواهم بمجئ هذا القطيع من الجبليين الانذال، الذين لا يحتقرونهم لانهم مسيحيون بل لانهم همج. فهم يخافون من قوتهم البدنية خوفهم من الموت، انهم رجال فقدوا كل ما لديهم في الحياة. اناس تعودوا منذ نعومة اظفارهم على اعتبار السلب والنهب وسفك الدماء من اعمالهم اليومية المعتادة، وهو من شائع القول عنهم في اورميه، وهاهم الآن يدخلون المدينة بسلاحهم فاذا بهم تحت رحمتهم.

وعلى حد قول الدكتور (مكداول Dr. Macdowell) طبيب المستشفى الاميركي في اورميه كان الواقع خلاف هذا. فالقادمون الجدد «تصرفوا تصرفاً جيداً يفوق بمراحل ما كان يتوقع منهم اي انسان بحدود المعقول» حقاً انهم بدأوا ينهبون ويغتصبون ليس في منطقة (سلماس) التي اتخذها البطريرك مقراً، بل في ضواحي اورميه حيث لا توجد يد ضابطة او سلطة رادعة. ومن المسلم به ايضاً ان الايرانيين الذين شكوا منهم، كانوا هم انفسهم يبحثون عن المتاعب بالحاح وعناد، فهؤلاء رجال جائعون، شاكو السلاح تراهم عرضة للهياج والخصام كلما وجدوا انفسهم ضحايا صفقات خاسرة وحيل تجارية دنيئة. وبعد ان نجوا بفضل سلاحهم العزيز لابد وان يكونوا كثيري الشك في النوايا عندما يطلب منهم النزول عن بندقياتهم ثمناً لطعام تافه، والانكى من هذا كله ما لاقود من معاملة قبيحة. التقى (إجلال الملك) الوالي الايراني في اورمية صدفة بجماعة من الاثوريين وهو يدلف في عطفة حادة من منعطفات طريق صخري قرب النهاية الشمالية للبحيرة، وتعرف البقعة باسم «ركن خطف اللحية» فاطلق عليهم حرسه بدافع من الفزع الشديد ليس الا، ظانا انهم ينصبون له كميناً.

ومع ان حوادث كثيرة كهذه كانت تسوى حالا ولما كان في منطقتي اورمية وسلماس عدد كبير من القرى المهجورة فلم يصعب على القبائل الآثورية ان تجد لها بيوتاً وتستقر فيها تدريجياً. ولم يكن ليغيب عن اذهانهم في اثناء ذلك بان الحرب ما زالت قائمة وانهم لاول مرة في تأريخهم يتزودون بكميات كافية من البندقيات الحديثة والذخيرة من المستودعات الروسية، ولعل مما يجدر ذكره انهم ولعوا ولعاً شديداً بتفجير القنابل، فهذه تحدث انفجارات فخمة رائعة عندما تطلق من افواه المدافع في الوديان والمضائق الجبلية ذات الصدى، وعينت (سرما) اخت البطريرك (وهي الشخص الوحيد غير المحارب الذي يتمتع بسلطة عظيمة) امينا لمستودع الذخيرة وبعد ان عاشت اشهرا في منزل اكتظ بصناديق العتاد، ادركها العجب حين سمعت اثنين من رجال قبيلتها المستهترين يلومانها «على فزعها الموجب للاسف، لانها حظرت عليهما التدخين عندما دخلا المنزل لطلب بارود منها»!

ودب فيهم نشاط عظيم بعد ان قاموا بسلسلة «من عمليات رد الزيارة» لاعدائهم الذين تعاظمت شوكتهم مؤخرا، فاحتلوا معقل (سيتو آغا) في اورامار ونهبوه، واستعادوا بهذا

النصر المؤزر كثيراً من اسلاب (جيلو)، وسقطت بيدهم (چال) اثر غارة احكم تدبيرها (داود) شقيق البطريرك. وتمخضت غارة صاعقة، على مخيم الهركية الصيفي بغنائم ثمينة من قطعان الماشية والضأن، وقد تضمنت هذه الغارات من عناصر الفروسية ما يزيد عن فروسية المغيرين على القرى المسيحية في خريف العام ١٩١٥، فمثلاً وقع ابن (اغا چال) عند سقوط قلعة ابيه اسيراً بيدهم فأطلق سراحه حالاً بكلمة شرف منه تتضمن قيامه بتدبير عملية تبادل الاسرى وهو عهد لا ينقضه الكردي متى اعطى كلمته وتلك احدى صفاتهم الرفيعة، ولا ينثني عن التمسك به بكل اخلاص «ما يلبث العشب ان ينمو فوق الدم المسفوح في قتال شريف»، اما اذا كانت هذه العادات الرفيعة قد انتهكت مرات، فلنا امل وطيد بحلول السلام النهائي في كردستان.

كان لهذه «النزهات» على أقل تقدير، تأثيرها في عدول عدد كبير من الكرد عن التطوع في قوات الحكومة العثمانية واقلاقهم الروس وعرقلة تقدمهم الى (ارضروم) وكافأ الروس الاثوريين عن هذه الخدمات بتوزيع الاوسمة على محاربيهم بمنتهى السخاء، فنزلت منزلة كبيرة في نفوسهم وتقلدوها فخورين، وبعث (القيصر) لمار شمعون برسالة تهنئة شخصية، وخرج الغراندوق (نيقولا) الى استقباله عند زيارته تفليس واحتفى به كثيراً.

وظلت الامور تسير سيراً طيباً بالآثوريين حتى خريف العام ١٩١٧، وهنا تلبد الجو مرة اخرى بالغيوم وأنذر الموقف بانهيار روسي عسكري، ولم تكن المعدات الحربية قد بلغت قط من الوفرة التي بلغتها في هذه الفترة بالذات في شرقي آسيا فقد اخذت المستودعات الانكليزية والامريكية والفرنسية تصب معداتها صبا في هذه البقعة لتسليح الجيوش الروسية، لكن الرجال الذين أرسلت لهم هذه المعدات كانوا قد فقدوا روح القتال فعافوها. وارسلت بعثة حليفة على جناح السرعة الى القفقاس لتحاول لم شعث ما يمكن لمه تعويضاً وسداً لمسد حليفهم المنهوك.

ظلت روح القتال مستولية على نفوس الآثوريين. وكان هناك بعض الثوار الارمن الذين شكلوا وحدات عنيدة صامدة الى الشمال وبين اولئك وهؤلاء تمتد منطقة اسماعيل آغا (سمكو) زعيم الشكاك الكرد، ان ضابط ارتباط حليفاً ادرك حالا اهمية شد هذه القوى بعضها الى بعض في خط دفاعي متلاحم الحلقات.

كان سمكو هو ذلك الآغا الذي ابدي لهفته في استبدال بندقية القنصل الآنكليزي من طراز (مانلشر) بزوجه الجديدة، ومواقعه في (قتور) ذات اهمية ستراتيجية كبيرة، ولديه من لفرسان المغاوير ما يبلغ الالفين. وكان قبل عامين قد ساهم في الهجوم المختلط على لآثوريين. على ان الاعتقاد السائد عنه انه لم يكن ممن يدققون في اختيار الحليف ان ثبت له جود فائدة. وهو من جهة ثانية شديد الكره للايرانيين لان أخاه الاكبر الذي سبقه في لشيخية هو عين «جعفر» الذي اغتيل غدراً في (تبريز) بتدبير من الشاه السابق يوم كان

ولياً للعهد كما اسلفنا.

كانت الخطة عموما جيدة الحبك وفوائدها واضحة لكن فيها ثغرة واحدة وهي ان الحلقة التي ستربط الخط الدفاعي، هي (كردية) مما جعل الزعيم الارمني (همپارتسونيان) يتردد كثيراً في الانضمام للحلف، ولما سمع (مار شمعون) بالاقتراح شارك الارمني مخاوفه وتردده دونما تحفظ، ولكن الضباط الانكليز في تلكم الايام كانوا يميلون الى الافتراض بان «الكرد مخلصون بصرف النظر عن صفة من يعملون معه» والمعتقد انهم وجدوا هذه النظرية بعد اربع سنوات من اداراتهم الحكم في بلاد ما بين النهرين عسيرة التطبيق وان الكرد لم يحبوهم ويطمئنوا اليهم قط.

ورغم النفرة المتأصلة وعدم الميل الى التحالف فقد سمح زعماء الارمن والآثوريين لانفسهم بالرضوخ الى الاقناع المجهد ونالت الخطة الرضى وقبلها (سمكو) متحمساً لها وحلف بالقرآن ان يبقى امينا على العهد المقطوع لزملائه النصارى مصرحاً بشذوذ غير مسبوق بانه يعتبر البطريرك الآثوري «الزعيم الديني الاكبر لكردستان».

ولم يمر طويل زمن على هذا الحلف المتناقض حتى دخل امتحانا عسيراً. كان قد اعتمد على بعض المساعدة الروسية وتقرر ان يعهد الى مائتين وخمسين ضابطاً روسياً بتنظيم هذه القوات المختلطة، لكن الضباط لم يرسلوا. واخذت القوة الباقية من الجيش الروسي في المنطقة تذوب شيئاً فشيئاً حتى اضمحلت، لم تعد روسيا ولا ما يشبه منها جداراً منهارا يمكن دعمه ببعض المساند قبل ان ينقض ويهوى، فالاجر الذي استعمل في بنائه قد تفتت وانحل الى الطين الذي صنع منه.

عندما حل شباط ١٩١٨ لم تحن الساعة الحرجة في الحرب على الجبهة الغربية الا انها كانت على وشك ذلك. ان انهيار روسيا في الشرق اقنع كل المترددين بان المانيا ربحت الحرب فعلا مع حليفاتها. واشيع ان القائد المحنك المظفر (فون ماكنزن) هو في طريقه لتسلم القيادة فيما بين النهرين، واشتدت عزمات (إجلال المُلْك) واصدر بياناً طناناً رناناً يأمر فيه الآثوريين بالقاء اسلحتهم.

وكتب مار شمعون احتجاجاً لـ (موختي شمس) والي تبريز، قال فيه ان اتباعه ليسوا الا لاجئين وانهم لايحملون سلاحاً الا حماية لانفسهم من الاعتداء، الا ان هناك حقائق يعرفها الايرانيون حق المعرفة طوال سنتين او اكثر، وهم لايريدون عنها مثل هذا الاعتذار، بل يريدون حجة واحدة فقط لمهاجمة ضيوفهم الثقلاء المكروهين.

كان الانفجار المحتوم متوقعاً منذ اسابيع عديدة. ثم قدحت الشرارة ولم يعرف احد سببها المباشر، ونشبت المعركة فجأة في اورميه وظلت تستعر في احشائها يومين كاملين على صورة حرب شوارع. واندحر الايرانيون اندحارا تاما واضحى الآثوريون سادة الموقف في المدينة.

ان هزيمة الايرانيين في ميدان حرب اعتيادية الجأتهم فوراً الى الخديعة وتمكنوا من استمالة سمكو آغا فدبر أمر اغتيال مارشمعون وكان تكراراً مطابقاً للعملية التي وقع شقيق سمكو ضحيتها بتدبير من ولي العهد في العام ١٩١

ولم يعرف احد كيف نجا (داود) فقد اصيب بجرح الا ان الارمن الاصدقاء اختطفوه وخبأوه في احد البيوت حتى انتهى البحث عنه، وفي وسط الفوضى التي عقبت الحادثة لم يقتل احد من الجماعة المرافقة غير شخص واحد ونجح الباقون في الفرار. ودفن مار شمعون في كنيسة كونيشهر الارمنية التي وقع فيها الحادث. لاشك ان الكنيسة هي خير مكان لدفن رفات شهيد في تلكم العصور الوسطى التي يعيش فيها (بنيامين مار شمعون).

ليس في الامكان ان يصور المرء الهياج الوحشي الذي نجم من اولئك القبليين البرابرة عندما بلغهم نبأ مقتل بطريركهم المحبوب. بل ربما يكاد لايستطيع ان يصوره الاقل منهم بداوة، ففي اوّل لفحة نارية من هياجهم اعملوا ايديهم ذبحاً بكرد (اورميه) الا ان زعماءهم تدخلوا حالاً فأوقفوا المأساة، وأختير (بولص) وهو اخ صغير للقتيل خلفاً له على الكرسي البطريركي وجردت حملة قوية بقيادة (داود) و (خوشابا) للانتقام وأخذ الثأر.

وانضم الى زحف هذين زعيم ثالث. من بين كل الاشخاص السيئ السيرة الذين «حققوا جليل الاعمال» خلال الحرب، من الصعب أن نجد قريناً (لبطرس البازي). ذلك العيار المحتال صاحب مشروع (ميتم مقدونيا) المزيف الذي اتينا الى ذكر طرف من سوابقه في فصل سابق، لكن هذا بثمار حيلته ايام الشباب ان يفوز بمنصب هام في (اورميه) ليس باقل من وظيفة القنصل العثماني، وما ان نشبت الحرب حتى تسنى له ان يظهر بمظهر الزعيم، وهكذا خرج من ثمع النصاب الذرب اللسان، زعيماً طبيعياً لمقاتلين ثائرين، عدت اعماله العسكرية من بين الوقائع الحربية الباهرة في المراحل الاخيرة من الحرب وفي تأريخها، ويؤسفنا القول انه ارتد عن خط سيره فيما بعد مثل بعض من هم على شاكلته، ومع هذا فمما لا يمكن نكرانه ان رئيس اللصوص هذا كان لاعباً ماهراً اثناء وجود الكرة في الساحة.

وهزم الزعماء الثلاثة جيش (له شگر) سمكو هزيمة نكراء واستولوا على حصنه في (چاره) الا انه فر ناجيا بجلده، واخذ منذ ذلك الحين يحصد ثمار جريرته حتى من حلفاء ضحيته، وعثروا في بيته على أصل الرسالة التي تسلمها من (موختي شمس) وفيها يزينّ له قتل البطريرك.

الا ان قيام الاثوريين بتدمير صديقهم الغادر لم يقلل من عدد اعدائهم، اذ كانوا مهددين من كل صوب، من الاتراك والكرد والايرانيين، وكان عليهم في اورميه ان يسيطروا على مجتمع يمور بالعداء لهم ويزيدهم عدداً بكثير، في حين لم يتعدّ زحف البريطانيين من بغداد بلدةَ (تكريت) التي تبعد زهاء مائتين وخمسين ميلاً جنوب اورميه. كما ضاع كل امل لهم

بالروس. وكانت ذخائرهم كافية، الا ان المعدات والاسلحة الكثيرة التي ارسلت من الحلفاء لتسليح روسيا وقعت بكاملها غنيمة في يد العدو فآضت الجيوش التركية في شرقي آسيا مجهزة بما لم يجهز أي جيش تركي في تلك المنطقة من قبل.

وعلى أية حال فقد بقي بعض الوحدات المسلحة الارمنية متفرقاً منقسماً على نفسه بالضغائن والاحقاد المريرة، وكان ثم فرصة للاعتماد على احدى هذه القطعات التي يقودها محارب مقدام اسمه (انترانيك) يبلغ تعدادها خمسة آلاف مقاتل، وكان ثم فرصة لربط حلقة دفاعية مؤثرة، فبادر (بطرس البازي) الى الاتصال (بانترانيك) ورسمت خطة لتحقيق هذه الغاية.

ولو قدر لهذه الخطة النجاح (وكان نجاحها محتملاً على ضوء الاحداث التي تلت) لظلت قبضة الاثوريين محكمة على (اورميه) الى يوم الهدنة، الا ان الترك كانوا يسيطرون على الخطوط الداخلية، ولسوء حظ الاثوريين كان (علي احسان باشا) قائد الجيش التركي من الضباط الكفوئين، فما كان منه الا وقذف بنفسه الى طريق (بطرس) واندفع شمالاً وصدّ محاولته لخرق الجبهة وكان (بطرس) تاكتيكيا أكثر منه (ستراتيجياً) لذلك لم يجدد هجومه مع الاسف في حين كان عناده وقوة استمراريته سيكفلان له النصر المؤزر، وتمكن (علي احسان) في آخر لحظة ان ان يحمل على (انترانيك) ويهزمه بعد قتال مرير دام يوماً كاملا في شوارع (خوي).

ومع هذا فقد بقي الآثوريون جبهة حرب قوية امام اعدائهم، وظلوا عدة اشهر بقيادة (بطرس) يصدون كل الهجمات التركية في معركة تلو اخرى شمال اورمية وجنوبها وقيل انهم خاضوا مالايقل عن أربع عشرة معركة خلال تلك الفترة وتمكنوا في معركة بالقرب من (اشنو) من اسر (٣٥٠) جندياً تركياً نظامياً والاستيلاء على خمسة مدافع رشاشة ومدفعي ميدان فاطلقوا سراح هؤلاء جميعاً بشهامة لا تصدق بعد ان اخذوا كلمة شرف منهم ان لا يقاتلوهم.

سألنا ذلك الفتى المحارب الذي اتينا الى ذكر مأثرته البطولية وفَتكْته البِكْر

- ماذا فعلتم بأسراكم من الكرد المرتزقة يا سيپو؟

فأجاب (سيپو) بجد وصرامة:

- لم نأخذ بعد مقتل مار شمعون اسيراً منهم.

كانت انسانيتهم اكثر مما توقع المرء منهم، منذ ان ادركوا المصير الذي لقيه ابناء جلدتهم في القرى المنعزلة التي اضطروا الى تركها ومنها استنتجوا اي مصير كانت ينتظرهم هم بالذات لو لم يستميتوا في القتال ويحكموا الدفاع.

انتقل (علي احسان) الى الجنوب ليتسلم القيادة في الموصل وليذوق طعم الهزيمة على يد

(الجنرال مارشال) في آخر معركة من معارك الحرب العظمى، وحل محله في الغرب (جودت بك) والي (وان) الاسبق وهو الابن الوحش للشيخ الدمث (طاهر باشا)، وعديل (انور باشا) والرجل الذي اصبح اسمه مقروناً بالنذالة والعار الابدي للمذابح البربرية الارمنية في (وان) ونذكر من حوادث تلك المذابح حادثة واحدة أجبر فيها سكان قرية كاملة يربو عددهم على السبعمائة وفيهم النساء والاطفال ان يحفروا خندقاً عميقاً ليكون لهم قبراً جماعياً يقع مباشرة تحت جدار طيني مرتفع، ولما اكملوا الحفر انزلوا الى الخندق وهدم عليهم جدار الطين فدفن كل حي فيهم تحت انقاضه. وهناك حادثة اخرى عن قرية دافع رجالها عن انفسهم الى اخر طلقة حتى تم تطويقهم ولم يستسلموا الا بعد شروط عادلة اقسم الترك على احترامها بأغلظ الايمان، وما ان وضعوا ايديهم على المستسلمين حتى ذبح كل ذكر منهم فوراً.

ثم بدأت رحمة الترك الوحشية تطبق على خناق الاثوريين، فهؤلاء اخذ عتادهم يتناقص تناقصاً مطرداً وتضعف قوتهم الكفاحية كما كادت ذخيرتهم تنفد والنهاية باتت على قاب قوسين، لكن بارقة من الامل لاحت في الافق مرة اخرى عندما خيل لهم انها انطفأت، اذ ظهرت في سماء اورميه طائرة في ١٨ تموز ١٩١٨ فظنها الجميع طائرة تركية واستقبلوها بنار حامية، ثم خطر لاحدهم فجأة بان الدائرة ذات الالوان الثلاثة ليست الشعار التركي، فاستقبلت بعد هبوطها على الارض استقبالاً لا نظير له، حتى ان سائقها النقيب (پننگتون) من القوة الجوية الملكية الذي حلّق من (ميانه) جنوبا فوق ارض مجهولة مسافة مائة وخمسين ميلا ونجا من رصاص اصدقائه، كاد يصاب بالاختناق لما عاناه من الضم والعناق! ووثق الكل على الطريقة الشرقية بأن خلاصهم قد تحقق وبات مفروغاً منه.

ولم يكن النقيب پننگتون في الواقع غير مستطلع متقدم جداً لرتل تافه العدد يتألف من سرية رشاشات ورعيل خيالة تابعة لكتيبة الهوسار الرابعة عشرة، وهذا الرتل لم يتقدم وراء قرية (سيان كله) التي تبعد مائة ميل جنوب (اورميه). الا ان الطيار كان يحمل رسالة الامل باسم فهذه السرية كانت تنقل اول دفعة من المال والعتاد والضباط، ولو افلح الآثوريون في الاتصال بها فقد تمكنهم الميرة والعتاد من الصمود في وجه العدو.

لكن كيف يمكن تحقيق هذا الاتصال؟ اورميه مهددة الآن بجيش تركي قوامه فرقتان: الفرقة السادسة في الجنوب والفرقة الخامسة في الشمال. تساندهما قوات كبيرة من المرتزقة الايرانيين والكرد غير النظاميين. وتم الاتفاق على ان يقود (بطرس) فرقة من جيشه في اورميه بتمشيط الطريق وتنظيفه حتى (سيان كله). وان تبقى فرقة (سلماس) داخل المدينة حتى عودته، وهي خطة اوحى بها اليأس ايضاً، والحقيقة هي ان الآثوريين لم يتسن المحافظة على كيانهم حتى الآن الا باقتناص الفرص اليائسة المتتالية، وفي هذه الوقعة لم يكن نجاحهم كاملاً.

تقدم (بطرس) من ناحية الجنوب ودحر الفرقة السادسة التركية ببراعته وجسارته في موقعة

(صاوبلاغ) وطاردها عبر الجبال حتى راوندوز الا ان الفرقة الخامسة علمت بخروجه من اورميه فانتهزت الفرصة للقيام بهجوم شديد على الفرقة المتخلفة من جيشه هناك وحاول الآثوريون ان يثبتوا على خط دفاعي بامتداد نهر (نازلو) الا ان الجيش التركي اخترقه فتسابق الآثوريون المنهزمون الى اورميه تسودهم الفوضى، وخيم الفزع على المدينة التاعسة التي اصبحت ملجأ لآلاف اللاجئين الناجين من المذابح السابقة تحت حماية القوات الآثورية، فقرر كل المسيحيين من آثوريين وارمن رجالا واطفالا ونساء، النزوح عن المدينة فورا وكان الحصاد قد كمل، واقواتهم موفورة ولديهم ما يكفي من حيوانات النقل والعربات وفي فترة قصيرة من الوقت، بدأ رتل السكان النازحين يزحف جنوباً وقد خيم الرعب واليأس على القلوب. فهناك.. في مكان ما بالاتجاه الذي يسيرون فيه، يكمن املهم الاخير الضئيل في الخلاص. انهم لم يصغوا الى امر، واويتقيدوا بنّظام بل هرعوا مهطعين وراء (بطرس). كان هذا الفرار مأساة وكارثة ربما فاقت بفظاعتها ذلك التقهقر الدامي (للقالموق التتر) الذي أجاد في وصفه يراع (دي كوينسي De Quincey) كانت الارزاق متوفرة ولو امن النازحون من التعرض المسلح لنجحوا في الوصول الى غايتهم دون عناء او خسارة كبيرة جداً، الا ان اعداءهم اندفعوا في اعقابهم كالذئاب وهي تعقّب قطيعاً من الضأن، ولاحت لهم مطالع الكارثة قبل مغادرتهم المدينة، اذ انطلق اشرار السوق وعياروها بعد ان تحرروا من خوف اسيادهم النازحين وبأمر من «مجد السلطنة» يقطعون رقاب المتخلفين والمتعثرين ما ان يخرجوا من منازلهم للحاق بالرتل النازح، ومما زاد في الطين بلة ان هذا الرتل البطيء الحركة الطويل، غدا فريسة سهلة بسبب ما اثقل نفسه بالجموع الخائرة الروح الذين لا تجمعهم رابطة ولا يؤلف بينهم نظام وهم عبء لاشك فيه على المحاربين. والواقع ان الجبليين منهم لم يعانوا قدر ما عاناه سكان المدينة فهم اصلب عوداً وتمرساً في الهجوم والإنسحاب. حتى لقد قيل ان قبائل التياري بلغت نهاية رحلتها دون ان تفقد امرأة واحدة ومعها من الغنم ما يربو على العدد الذي اخرجته من المدينة! وهو قول مقبول وان نم عن قسوة في الحكم، على ان الوضع بصورة عامة كان في المنتهى من الفظاعة والأبعث على الالم: ذبح الرجال بالمئات، وعريت النسوة واعتدي على اعراضهن، ونهبت الفتيات وسبين الى البيوت الخاصة، اما العدد الكبير الذي عجز منهن عن اللحاق بالرتل فقد لوحظ انهن كن يعمدن الى التمرغ في الاوحال والقاذورات لكي تخطئهن العيون ويخلصن من الاعتداء الذي هو مصيرهن المحتوم، ولا نبالغ في القول ان عدد الذين هلكوا في تلك الايام الرهيبة لا يقل عن خمسة عشر الف وهو ربع مجموع الرتل العام.

وترك البريطانيون (سيان كله) بعد ان تأخر (بطرس) عن موعده اسبوعاً. فقد كان لديهم تعليمات جازمة بان لا يبقوا في موضع متقدم شديد الخطورة. الا انهم لم يبتعدوا مسافة كبيرة، فبعد ان وثقوا بانهم في حماية الجيش المتقدم اسرعوا بالعودة لتسليم التجهيزات والعتاد، ووقعت هذه القبضة من الرجال الجيدي التنظيم والسلاح مثل وقوع الصاعقة وسط

لجموع التي كانت تلاحقها فتفرقت امامها ايدي سبأ جاهلة ان المهاجمين فئة قليلة. ومتوهمة نها طلائع قوة كبيرة، ومرة هجم سبعة رجال بقيادة النقيبين (سافج) و (سكوت اولسن) سناد رشاشة (لويس) على مئات من رجال العصابات المرتزقة الذين كانوا يحاصرون جموعة من اللاجئين وهزموهم شر هزيمة. وهي مأثرة لو وقعت في عصر الملك آرثر لاكسبتهم شأناً تاريخيا فوق المائدة المستديرة[6]

وجب عليهم ان يخوضوا قتالا مريراً ثلاثة ايام لاكمال عملية الانقاذ، لان اللاجئين كانوا متفرقين في اعداد وارهاط متباعدة. ولم تكن الوحدات الكردية والايرانية تنوي ترك يستها. الا ان خلاص اللاجئين من «شاطيء الأعراف» هذا تحقق اخيراً. واعيد تنظيم الرتل ي (سيان كله) وتقدم في سيره بطريق اسهل الى جنوب (همدان) بحوالي مائتي ميل وراح ' ثوريون يسلبون وينهبون كل ما صادفوه في طريقهم نهباً جماعياً شاملا، لكن ما وجه غرابة في هذا؟ انهم جائعون تماماً ولهم ملء الحق في ان يعتبروا (ايران) بلادا عدوة. ومما .كر في هذا الصدد ان اعداءهم انفسهم يقرون لهم بالعفة والترفع عن الاعتداء على اية امرأة بالقول ولا بالفعل في حين مازالت ذكرى اغتصاب نسائهم والاعتداء على اعراضهن طريّة ي اذهانهم.

وفي اوائل ايلول، بلغوا (بعقوبة) الواقعة على نهر ديالى بالقرب من بغداد ووضُعوا في خيمات واسعة كانت قد هيئت لهم، وكانوا فيها مستقرين عندما طلبت تركيا الهدنة من نلفاء بعد وصولهم باسابيع قليلة، هلك ما لايقل عن ثلثي هذا الشعب في كوارث السنوات 'ربع التي مرت، الا ان مثلهم كان مثل (هيو پرسي Sir Hugh Percy) الذي انقذ الطير ضعه في صدره، وكان لهم ملء الحق في ان يفخروا بالدور الجريء الذي قاموا به.

اما مصير جيرانهم الارمن فهو معروف بالتمام والكمال وليس فيه زيادة لمستزيد، وانه لمما سف له هذا الاهمال الذي قوبل به وعدم اعطاء الامر ما يستحق من الاهتمام، وهو مما فعنا الى طرقه هنا كذلك.

كنا قد أتينا الى وصف بعض الفظائع التي ارتكبت بحق ملة الاثوريين الصغيرة الشقية، ي ضمنت لها مواقعها المنيعة وقلوب اهلها الجريئة تجنيبهم أسوء مصير. والآن عليك ان ضاعف هذه الفظائع عشرين مرة ليتكون عندك مجموع ما اصاب الاغلبية الساحقة من شعب الارمني، وعليك بعد هذا ان تضاعف الناتج مرتين تسويةً للفرق المتأتي من عجز ىلاء الذي جردهم من قابلية الدفاع عن النفس. ومع هذا كله ستبقى اذهاننا عاجزة عن ستيعاب ابعاد المذابح التي فاقت بشاعتها واتساع رقعتها اية كارثة اصابت آسيا منذ

للملك آرثر الآنكليزي وفرسانه المعروفين بفرسان المائدة المستديرة شهرة وذيوع لا نرى معه الافاضة (المترجم).

اجتياح جحافل التتر بلاد الشرق الاوسط «حيث انتشر القتل والنهب بلا حساب ولا رادع واشتد العذاب وتقطيع الاوصال والتمثيل بالاحياء مما لم يسمع بمثله وأعينك من التفاصيل، وحصل ما لا يسعني ذكره وعليك ان ترسم لنفسك ما وقع»[7]

لكن، كلا. فمذابح التتر تمت غالبيتها في سورة القتال وزخم المعارك الدموية او في اعقابها بدافع الهياج وفورة الدم على اية حال، الا ان مذابح الارمن جرت بتخطيط عمدي وبحق رعايا لم يبدوا مقاومة، واستمرت بشكل متواصل شهورا وسنوات تدفق منها التعصب الاعمى والشهوة البربرية الى الدم تدفقاً غزيراً وكانت الجريمة مقصودة رسمها رجال الادارة الاتراك بحساب دقيق وببرودة دم بعيدة عن حرارة العاطفة، ان قسوة (عبدالحميد) لم تصل برقاعتها وفظاظتها قسوة هؤلاء الساسة الجدد السيئي التربية الذين تسلموا مقاليد الحكم. هؤلاء جماعة الاتحاد والترقي.

ان رسائل «طلعت باشا» ما زالت برهاناً باقياً تشهد كيف كان يدفع جراءه وكلابه الى اقامة المجازر. وكيف انه عزل واذل اولئك الذين رفضوا تنفيذ هذه المهام الشنعاء عندما اجبروا على ادائها. لا بل انصبت نقمته حتى على اولئك الذين خففوا من حدة الارهاب قليلاً بعد ان تقززت منه نفوسهم، وكيف كان يصر اصراراً جازماً متواصلاً على ان لايستثنى الاطفال من عمليات الابادة، كل هذا دون ان يبدر من بقية «الثلاثي» (انور وجمال» اي احتجاج منهما. لم يقلا عنه قسوة وغلظة، بل ايداه في كل ما عمل.

لا ينكر ان بعض الترك حاولوا الاحتجاج على ما يقع، غير ان معظم الشعب التركي شارك في هذه الجرائم مشاركة فعلية فلم يرفع عالم ديني واحد صوت استنكار. كما لم يلق الآمرون بها اية صعوبة في تحشيد العدد الكافي من السفاحين والجلادين الذين قبلوا المهمة برغبة وحماسة. ان الجريمة لهي جريمة العثمانيين وجريمة خلافة استانبول. والمجرمون ما زالوا يستمعون بنجاح جريمتهم وحصانتها.

كاد منهاج المذبحة يكون واحداً في سائر المناطق، فهو يبدأ بالقاء القبض على الاعيان والزعماء المحليين الارمن (نواب مجلس المبعوثان وما اشبه) بتكتّم وسرية تامين، ويجري قتلهم قبل ان تصل شكوكهم الغامضة حد القلق الجدي. وبعد هذا يتم تجريد المجندين للخدمة العسكرية من السلاح وينقلون الى وحدات الشغل (وهم نخبة الشعب الارمني وزهرته) ويرسلون الى تعبيد الطرق وما اليها من الاشغال في مناطق بعيدة قليلة السكان فتذوي اجسامهم وتنحل، من فرط الاجهاد والجوع والعري والتعرض لعناصر الطبيعة، او يرديهم رصاص حراسهم صرعى على سبيل التلهي والاستمتاع. وبعد هذا يلقي القبض على وجهاء القوم والشخصيات البارزة في المدن كالاطباء والمدرسين والتجار والصناع والفنانين، ويؤلف

[7] راجع كتاب الفخري عن حصار بغداد.

منهم رتل واحد او جملة ارتال لتساق في الظاهر من مدنهم الى مواضع اخرى. ثم تدبر الحكومة عصابات مسلحة تخرج عليهم في الطريق او يقوم حراسهم انفسهم بالعمل المدبر، فتنقطع اخبارهم وتذهب ريحهم ولا يعرف شيء عنهم الا انهم لم يصلوا الى مناطق تهجيرهم. ثم يتم اقتحام المدن والقرى ويقوم فيها النهب والسلب على قدم وساق فلا يبقون فيها شيئاً، ويذبح الذكور وتسبى النساء والبنات وتجد الجميلات سبيلهن الى «دار الحريم». وتعد مبررات العملية سلفاً (ان اعوزت الحجة) وهي ان يصدر بيان يزعمون فيه ان عددا من البندقيات قد أخفي في القرية ويجب تسليمه، وهم يلجأون كثيراً الى التعذيب لانتزاع اقرار بما لا يملكه الضحايا من مال، او بما يخفونه.

بعد ان يفرغوا من «المذابح الحمراء» تبدأ «المذابح البيضاء» وضحايا هذا اللون هم الاطفال والنساء، او بالاحرى كل من بقي حياً من المذبحة الاولى. فيجري تنظيمهم بقوافل وارتال ويساقون الى الموت فعلاً، تراهم يسيرون باقدام مقروحة مجرحة وبطون طاوية خمص، يلتحفون السماء ويفترشون الارض، تحتث خطاهم الغلاظة والقسوة وتمتد المسيرة بهم اياماً واسابيع، مسيرة لا نهاية لها ولا راحة فيها حتى تسقط البقية الباقية ارهاقا لتموت، وان فَضُل منهم من يقوى على اجتياز جبال طوروس، فان الصحراء الجرداء الخالية من الماء والزاد تنتظرهم، وهنا يقوم (طلعت) مصرحاً بكل وقاحة ونفس شيطانية انه «يعمل على توطينهم في بلاد مابين النهرين»!

والواقع ان كان الاغتيال يحمد فهو يحمد في اغتيال هذا الغول البشري. ومن العار على اوروبا ان تترك مغتالا يؤدي عنها العمل المبرور!

قلنا ان بعض الترك احتجوا على هذا الاجرام، فما لبثوا ان طردوا من وظائفهم، وكان والي حلب ومتصرف (ماردين) من هؤلاء المغضوب عليهم. وقدم الاهالي المسلمون في بعض المدن عرائض يشجبون فيها المذابح ويطلبون وضع حد لها. واورفه.. حتى اورفة المسلمة ارسلت عريضة استنكار لهذه الاعمال، اما (ديار بكر) فقد ظلت امينة على تقليدها القبيح. ففيها لم يلق الارمن اي مجال للعطف، اذ ألف وجهاء المدينة لجنة سموها «بلجنة دراسة القضية لارمنية» وكانت ثمرة دراساتهم احياء لمشروع (كاريبه) المعروف باسم «نوياد»[8] السيئ لصيت. ان الثياب التي نزعت عن اجسام الضحايا قبل «قذفها من السفينة الى الماء» بيعت علنا في الاسواق، بقلة حياء تشمئز منها النفوس. وكان بائعيها الجلادون والقتلة، ولم يوضع

---

[8] جان باتيست كاريبه Carrier (١٧٥٦- ١٧٩٤) احد اعضاء الكونفانسيون في الثورة الفرنسية عرف بقسوته المتناهية في تنفيذ عمليات القتل بالجملة عن طريق اغراق المحكومين جماعات وقد قطع رأسه فيما بعد. اشتهرت عمليته هذه باسم Noyades بعد ان مارسها في مدينة (نانت) (المترجم).

السيف في الرقاب في الموصل، ولا ندري سبب ذلك بالضبط، ربما كان هذا دليلاً على فشل العثمانيين في تدريب الجزارة.

كان (جودت بگ) والي (وان) من اغلظ القتلة كبداً، واساليبه المحكمة الدقيقة في قرى ولايته دعت الى استخدامه كخبير مجرب في مناطق اخرى تميزت فيها الاعمال بالبطء والتراخي في التنفيذ، الا ان عمله في (وان) نفسها لم يكن متقناً كما يجب، والفضل في هذا يعود الى قربها من الحدود. وقد شاءت الصدف ان يكون «ارام الطاشناقي»[9] يوم قُضي على القادة المحليين ذبحاً، بعيداً عن المدينة فاتخذ الارمن استعداداتهم للدفاع في الوقت المناسب اذ كان هذا بمثابة انذار لهم.

ان (وان) مدينة واسعة متباعدة البيوت، والارمن يؤلفون النصف الاكبر من سكانها، وقد اكسبتهم المذابح السالفة والآنذارات المتكررة بالمذابح خبرة وحذراً، فتكتلوا بحكم الغريزة وتجمعوا في حيهم الخاص حي البساتين وحصنوا مواضعهم بالمتاريس والموانع. وبعثوا بنداء الى سكان المدينة المسلمين بينوا فيه انهم لا يضمرون لهم سوء، وانهم مضطرون الى القتال ان كان لا بد من القتال.

ولعل فتورهم الذي ابدوه هو الذي حمل (جودت بگ) على التريث والعدول عن الهجوم العام لاقتحام الحي المستحكم وان كان تحت تصرفه قوات عسكرية نظامية، على انه حصلت اشتباكات كثيرة في محلات متفرقة، وشب الحريق في معظم المدينة، وكان اعتماد (جودت بگ) على الحصار واجاعة الضحايا للتعجيل باستسلامهم، حتى انه كف عن ذبح قلة من القرويين بقيت من المذابح السالفة ودفع بهم احياء الى استحكامات ابناء جلدتهم ليساعدوهم في استهلاك الاقوات التي بقيت لديهم. وبعد اربعة اسابيع من هذا الحصار كادت خطة (جودت بگ) تكلل بالنجاح، وفجأة وجد الارمن اليائسون من الحياة اعداءهم يتهيأون للانسحاب، فقد بلغهم ان الروس المتقدمين من (سره هميش) لم يبق بينهم وبين (وان) الا رمية مدفع، وتم انقاذ المدينة في اليوم التالي.

وعندما انسحب الروس منها بعد فترة وجيزة. هاجر الارمن مع الجيش المنسحب ولجأوا الى روسيا حيث استقروا بالقرب من (تفليس ويريفان). ترى كم نجا من هذه الشدائد؟ كم نجا من الحرب والمجاعة والتيفوس والكفاح المرير؟ العلم عند الله وحده.

ما هو الدافع الى هذه المجازر ليت شعري؟ المؤامرة المزعومة ان هي الا كذبة مفضوحة وتغطية واضحة. لا شك ان الارمن كانوا يرحبون بقدوم الروس، واي شعب في تركيا لم يكن

---

[9] ورد ذكر هذا الرجل في فصل سابق. على قدر ماكان (ارام) هذا ثورياً مغرماً باثارة القلاقل فانه في هذه المناسبة عمل كل ما في وسعه لاجتناب المتاعب والشغب، وحض الارمن على تحمل كل شيء وعدم تزويد الترك بحجج ومبررات لاقامة المذابح القمعية.

يرحب في الخلاص منهم؟ الا ان وجودهم حتى مقدم الروس لم يكن مصدر خطر على مؤخرة الترك، بمقدار ما كان المواطنون في بلجيكا المحتلة غير خطرين على مؤخرة الالمان. وربما كان ثم شيء من الوجاهة في ان يعلل الدافع الى المذابح بالرغبة في السلب ليس غير. فكثير من الارمن اغنياء، والترك الذين افقرتهم الحروب المتتالية كانوا يطمعون في الاستيلاء على ثرواتهم. دون ان يفكروا بان استئصال احذق صناعهم وابرع تجارهم وخير مزارعيهم يزيد من حالة فقرهم هم.كما ان هناك التأثير الديني ولاشك، فمع ان الدخول في دين الاسلام لم يكن ذا جدوى في نجاتهم من الموت الا ان هناك حالات معينة جعلت هذا العمل شرطاً رئيساً للابقاء على حياة بعض الضحايا. اي شئ غير التعصب الديني سبب مشاركة اليعاقبة في مصير الارمن؟ فليس ثم مؤامرة تخشى من اليعاقبة ولا تكتل عندهم ولا طموح قومي كالارمن، كما ان الابقاء عليهم سالمين اثناء مذابح الارمن السالفة لدليل على ان الترك قادرون على حمايتهم عندما يشاؤون، ومع هذا لم يستثنوهم هذه المرة.

على ان رجالا ملحدين مجاهرين بالحادهم (كطلعت وانور وجمال)، لا يمكن ان يجرفهم التعصب الديني. والتعصب القومي والسياسي هو الحافز الاكبر الذي دفعهم الى فعل ما فعلوا فلم يرضهم حتى الابقاء على من جحد دينه من الضحايا، الا ان التخلي عن الدين في هذه البلاد يتضمن بالضرورة التنكر للقومية واهدارها وفي الامبراطورية العثمانية يعني الدين حكم الترك وحدهم. وبابادة الارمن انما يقوم (الجون ترك) بتنفيذ سياسة قومية مرسومة طبقها اسلافهم الاقدمون ايضاً قبل مدة لا تزيد عن جيل واحد، فسار عليها الجون ترك وكانوا ينتظرون فرصتهم هذه فتنطلق ايديهم بانشغال اوروبا عنهم بمشاكلها.

بقي علينا ان نذكر هنا نجاة اليزيدية من المذبحة، ففي هذه المجازر الدموية لا يسع المرء الا ن يعجب لبقائهم في زاوية الاهمال، وربما كان السبب في ذلك ان (ملك طاؤوس) الذي رأى لفرحه ان كل الايدي مشغولة بما فيها نعمد الى تخصيص اوقات فراغه لها وهو ما لم يتعودوه - للانشغال باموره الخاصة.

18

ثمرة البحر الميت

ان حكاية الادارة البريطانية في بلاد ما بين النهرين (والعراق كما تسمى اليوم)، هي الحكاية المألوفة للعمل الجليل الذي يقوم به رجال اكفاء، موقعياً. فتقوم في سبيل هذا العمل عراقيل اسبابها ومصادرها ضعف رجال السياسة في بريطانيا وترددهم في اتخاذ القرارات الحازمة، يضاف الى ذلك نشاط الصحف صاحبة الاهتمام الاول بما وصفه خبير عتيق وهو الملك جورج الثالث بانه «السياسة الحزبية، هذا العمل القذر الملعون». والحكاية التي تستحق ان تروى هي اطول من امكان ايرادها هنا في نهاية كتاب عني بجزء واحد فقط من هذه البلاد. وفي هذه الحالة ايضاً يجب علينا ان نقصر كلامنا على ما لايتعدى حدود مداركنا الشخصية واقصد بذلك مآل العشائر الاثورية المعذبة وما جرى لها بعد وصول سفينتهم الى «المرفأ الذي قدر لهم ان يبلغوه، اي الحماية الآنكليزية». ولن نتصدى الى الامور العامة الا بقدر ما يتصل بهؤلاء الناس.

تركناهم مستقرين في معسكر لجوءٍ ضخم واسع الجنبات في مدينة (بعقوبه) القريبة من بغداد، حيث باتوا منظرا يستوقف النظرَ في بلاد ما بين النهرين. واعتبروا متاعبهم منتهية. حتى ان احدهم حضره شيطان الشعر فنظم باللغة الانكليزية قصيدة بالمناسبة وقدمها الى الضابط الآمر المشرف على المعسكر، وقد كان الاجدر به نظمها بالسريانية:

يسرنا الاعراب عن شكرنا وامتناننا العظيمين،
لكل اصدقائنا، وبخاصة اصدقائنا الانكليز،
فنحن في حماية اعظم ملوك العالم قاطبة
وهو لنا مثل ظل الصخرة في هذه الصحارى البيد

كل السادة من موظفي المقر
جنودا ونواب عرفاء وعرفاء وضباطاً،
وكل الممرضات والاطباء بقنانيِّهم رقم واحد واثنين وثلاثة
انقذونا من التيفوئيد والملاريا

كانت الفكرة التي تخالج نفوسهم، ان يرحلوا الى بلادهم حالاً ليكونوا هناك تحت الحماية البريطانية، وان يمنحوا تعويضات كاملة، كذلك ان يعطوا مجالاً للثأر الكامل عن كل ما قاسوا من محن وتكبدوا من خسائر، ولا عجب فهم حلفاء الجانب المنتصر في الحرب، وبطبيعة الحال ليس هناك حد لقوة حماتهم البريطانيين ولا لثروتهم. ويعجز ساسة اوروبا التام عن

تثبيت دعائم السلم، ومن ثم فهناك حقيقة اخرى وهي ان الحكومة البريطانية لم تستقر على رأي فيما تريد عمله وما تتمكن من عمله بالبلاد العراقية جميعاً[1] وبهذه القضية الصغيرة الجانبية نسبياً امور اوسع كثيراً من الافق العقلي لهؤلاء. ان مطلبهم البسيط الغامض هو «فلنكن بلادنا تحت الحماية البريطانية» وكل ما كانت الحكومة البريطانية تستطيع الوعد به هو «حكم صالح» وفي اثناء اقامة هذه الحكومة ليس لهم الا الانتظار، وانك لتجعل من المرء مستعطياً بكل رذائل الاستعطاء بابقائك اياه عاطلاً عن العمل، وليس الآثوريون بمن شذ عن هذه القاعدة، اذ ما لبثوا ان مدوا أكف الاستجداء. ولم يتعففوا عن اخذ كل ما يعطى لهم يقولوا هل من مزيد؟ ورفضوا القيام حتى باعمال المعسكر الضرورية الا بأجر وعاد ميلهم الى المشاكسة وحبك الفتن والمكائد يظهر فيهم وتلك آفتهم الكبرى ولعنتهم الازلية.

شيء مفيد واحد كانوا اهلا له، وهو الحرب والقتال. لذلك جُندّ من رجالهم فوجان من المشاة سرية خيالة انيط امرها بضباط بريطانيين مختارين، ضباط برهنوا اكثر من مرة على انهم قادرون على تخريج خير الجنود من مادة اسوء بكثير من مادة مقاتلين جبليين، ونما بين الضباط وبين جنودهم المستجدين ذلك التعلق والاحترام الذي كان مقدراً ان ينشأ عادة في مثال هذه المناسبات، قال احد هؤلاء الضباط للمؤلف:

- أترى ذلك الفتى هناك؟ التوى كاحله اثناء عملية هبوط، الا انه حضر التدريب صباح اليوم التالي وقد انتشر فوق رجله ورم فظيع. ولما منعته عن السير انفجر باكيا. وذهب الى مجبر فشقها له من مواضع عدة مستخدما مشرطاً مثلوماً ثم دعكها بمسحوق البارود. فخرج من لدنه رأساً وعاد الى ساحة العرض راجياً السماح له بالسير مع الفوج.

الواقع انه قام بعض المصاعب، فقد كان في النية تشكيل فوجين: فوج من الجبليين وفوج من اورميه. وبناء على نصيحة خاطئة قدمها اصدقاء اجانب للاخيرين منهم طالبوا بشروط خدمة مستحيلة عملاً، في حين اعلن الفريق الاول الجبلي استعداده للذهاب الى أي مكان يطة ان يقوده ضباط بريطانيون، فشكل الفوجان من الجبليين، وعندئذ قام (بطرس اغا) ي راح الآن يلقب نفسه بالقائد العام للجيش الآثوري يطلب كحق من حقوقه، ان تنضوي قيادته كل وحدة يتم تشكيلها، وأن يلحق به ضباط انكليز مساعدين حسبما يرتأيه. ولما ن طلبه المتواضع جدا! بدأ يحيك الدسائس لاحباط مشروع التجنيد حتى بات اخراجه ف من المعسكر امرا ضروريا، واقترح ان تكون بغداد (او الهند) محل اقامته في ستقبل، وتم تشكيل القوة على اية حال. وكانت الحروب الصغيرة التي دعت الضرورة الى

---

[1] ض هذا التأخير يعزى الى اتفاقية (سايكس بيكو) التي تركت ولاية الموصل ضمن منطقة النفوذ الفرنسية. الا ان فرنسيين لم يتمكنوا من تطبيق هذه الاتفاقية وظلوا مدة من الزمن لا يوافقون على الغائها وهذا ما غل ايدي انكليز.

شنها على الكرد في صيف العام ١٩١٩ مما اتاح الفرصة لهؤلاء الجبليين للوصول الى اقرب نقطة من مفهوم الجنة عندهم. فرصة لم تكن لتتاح قط بالنسبة الى بعضهم، فقد تزودوا ببندقيات جيدة وقادة كفوئين، وبمجال حقيقي لتوجيه لطمة لاعدائهم.

واطنب الخبراء المجربون في مدح قابلياتهم الحربية ومقدرتهم على السير، وان اقروا بأن فيهم بعض اللاابالية احياناً، اذ قال قائد الحملة العام عنهم مرة.

- هؤلاء الآثوريون، اراهم يدخلون المعركة بسرعة غير معهودة في المستجدين.

قالها على اثر قيامهم باطلاق النار اثناء تقدمهم صعداً الى جبل امروا بتنظيفه من العدو، فأجاب احد الضباط المساعدين الذين بلوهم وعرفوهم:

- آه، ان الامر على خلاف ذلك ياسيدي، واراهنك على ماتشاء بانهم يطلقون نارهم على احد الخنازير!

على ان هذا الضابط ظلمهم قليلاً اذ لم يكن صيدهم خنزيراً بل دبا، جندلوه ثم بدأوا بتنظيف الجبل واتموا الواجب وسأل احد الضباط الآنكليز آمر سرية (سوبادار) من الگورگه الذين كانوا معهم في المخيم:

- كيف وجدتم الآثوريين في ساحة القتال؟

فأجابه السوبادار قائلاً:

-لماذا لم تزوونا بنعال جبلية كما زودتموهم؟ اذن لانجزنا مثلما انجزوا.

وعندما يعتذر الگورگا عن عجزه نسبة الى ما قام به الجندي المستجد، فلا يمكن لاحد ان يؤآخذ ذلك الجندي المستجّد بضعف القابلية[2].

وعلينا الاقرار بان جماعة منهم وجدت مرة ان حياة الحرب العصرية بطيئة جداً فاقترفت

---

[2] اليك حادثة غريبة وقعت في هذه الحرب: بعد اقتحام هؤلاء الجبليين المقاتلين قرية كردية ونهبها، اقبل نفر منهم الى ضابطهم ليبلغوه بأنهم استولوا على اثمن غنيمة يمكن ان يحلموا بها، ثم وضعوا امام القائد الذاهل مخطوطة هائلة الجرم تتضمن صلوات وادعية دينية وهي نسخة من كتاب طقسهم الكنسي المسمى (خدرا) ويحوي مجموعة مختلفة منوعة من الادعية والنوافل التي تتلى ايام الاحاد والمناسبات والاوقات لحلقة (خدرا) السنة، نموذج مكبر جداً لكتاب «الفرائض والنوافل» الاعتيادي، ثم انهم طلبوا بغلا من سرية النقلية لحمل هذه الغنيمة المقدسة في طليعة الرتل المتقدم، ولاعطاء القارئ فكرة عن حجم الكتاب نقول، انه لايقل عن حمل بغل كامل، والشيء بالشيء يذكر ان زميله الذي لم يكن معه وهو المجلد الموسوم «كزه: كنز» ويحتوي على صلوات القديسين وكان نصف حمل حيوان، وقد ظل هذا الكتاب الى نهاية الحملة علماً وشعاراً للوحدة التي ينتمي اليها هؤلاء. واقيم عليه حرس (شرف) كل ليلة ثم قدم بالاخير هبة للبطريرك وهو الآن يستخدمه.

الجريمة النكراء، جريمة الفرار من الجيش اثناء الخدمة الفعلية، الا ان الاعتذار الذي بعثوا به مكتوباً بخليط من السريانية والآنكليزية كان يكفي للاعتذارو التغاضي عن زلتهم. افتتحوا رسالتهم بما يأتي:

«الى الميجر (نايت Knight) قائدنا المحترم الاغر:

بعد تقديم المزيد من السلامات وآيات الود والاخلاص: يا أبانا العزيز، ليكن معلوماً لديك اننا لم نهرب لاننا لا نريد ان نحارب لا بل نحن نود كثيراً ان نفعل ذلك، واننا ولله الحمد نقوم بهذا العمل منذ عشرة أيام، ويؤسفنا ان نبلغك بالخسارة التالية وهي جندي متطوع واحد، لكننا قتلنا اكثر من هذا، والآن يا أبانا العزيز، اذا وعدتنا ان تتولى انت بالذات عقابنا فسوف نعود، الا اننا نخشى ان نساق الى سجن الموصل».

ووعد الميجر بان يتولى عقابهم بنفسه عند عودتهم، وقد فعل ذلك، على انه سوى الامور بعدئذ بشكل ما اراح ضميره فقدم تقريراً يتضمن وجود غياب في وحدته بسبب المرض وهو مما لا يعتبر جريمة في اثناء الخدمة الفعلية.

وكان هدف هذه الحرب تنظيف ما عرف بمنطقة (سپنه) واخراج قوات الكرد منها. اتفق ان احتلت القوات الانكليزية دار البعثة التبشيرية الانكليكانية وهي البناية التي تم تشييدها في (ببيادي)، فهؤلاء اعداء المؤلف القدماء الذين تنبأوا بالنبوءة الواضحة المدلول «لو بنى منزل البعثة فسنرى الجنود الانكليز فيه قبل ان يدب الشيب في لحانا» هؤلاء بلغ بهم السرور من تحقق نبؤتهم ومن الشهرة التي اصابوها بسبب تحققها، بحيث تناسوا العداوة التي نشأت عن ذلك للمؤلف واستقبلوه كما يستقبل صديق طال افتقاده[3].

قال رجال الحكم والادارة ان مشكلة الآثوريين بات حلها ممكنا وفي الحال، فما اسهل ان يوطنوا في المنطقة التي ساهموا في تطهيرها وفتحها، وانهم سيكونون فيها بمثابة حرس حدود نموذجيين لدولة (العراق) المقبلة. وارسلت هذه المقترحات الى الحكومة البريطانية، الا انها لم تحظ بجواب. ولم يكن المسؤولون عن ادارة دفة الامور في لندن يسمحون للمسؤولين المحليين ان يعملوا بحرية او ان يتقدموا بمشروع آخر. لا لانهم لا يوافقون على اقتراحاتهم (والرفض هو على الاقل العمل الايجابي الوحيد) بل لانهم اساساً لايريدون ان يعملوا شيئاً. بل لا يتمكنون

---

[3] كانت الحكومة العثمانية في اثناء الحرب تميل كل الميل الى شنق المؤلف «لانه بنى بيتاً ليكون بمثابة قلعة عسكرية للانكليز» ولم ينقذه من هذا المصير غير خطأ ارتكبه موظف. ذلك الخطأ الذي وصفه «السرت.أ. ولسن» وصفا قاسيا حين قال «انه واحد من تلك الاخطاء الروتينية التي لا مفر من الوقوع فيها حتى في ادق الادارات تنظيماً». اذ كان اسمه ضمن قائمة الاسرى المدنيين قد كتب خلافاً لما دون في قائمة المجرمين، ونحن نأمل ان يكون هذا التبرير اللاحق موضع رضى ارتياح من القضاة كما كان موضع رضى المجرم وارتياحه.

من عمل شيء. وهكذا مر الزمن، الى ان اقتضت الظروف المحلية ان تجعل سحب الجيش البريطاني امرا لا مفر منه، لاسيما تعذر ابقاء القطعات معلقة في رؤوس الجبال الى ان يقرر المسؤولون في بريطانيا مادا ينبغي عمله وهم مستلقون على مقاعدهم الوثيرة، وقد تبين صعوبة الوصول الى مشروع مجد.

بعد هذا بزمن قصير حلت الوحدات الاثورية بسبب الاختلال في ضبط الجنود وكان القرار خاطئاً، واعيد الرجال الذين حيل بينهم وبين البطالة مدة - الى بعقوبة حيث سياسة الاستجداء العامة تمتص كل ما في هؤلاء القوم من خصال طيبة ومتانة خلقية، وببقاء هؤلاء مشدودين الى عجلة البريطانيين طوال هذه المدة وفي احوال غير مريحة اطلاقاً اخذ النفار والسخط المتبادل يزدادان فيما بين مجموعاتهم ازدياداً مطرداً، في هذه الاثناء حرمهم الموت من قائدهم الروحي «پولس مار شمعون» بطريركهم الاخير فقد عاجله داء الصدر المتفاقم بسبب المشاق التي عاناها وجو (بعقوبه) المشبع بالغبار، وجاءت فكرة نقله الى الجو الجاف في (دير شيخ متى) قرب الموصل متأخرة، اذ لم يلبث هناك الا قليلا وشجعه تحسن طفيف طرأ على صحته على العودة للعيش مع ابناء طائفته فمات هناك، وفي الوقت نفسه كانت السلطات في كل من انكلترا وما بين النهرين ترغب في التخلص من القوم بأسرع ما يمكن، كما يحدث كثيراً عند ادراك المرء انه اضاع فرصة كبيرة لتحقيق عمل من الاعمال. في هذا الموقف الذي آلوا اليه ولم يكن لديهم قائد روحي، وكلهم في شوق الى التخلص من الكابوس الجاثم على صدورهم، برز (بطرس اغا) في الطليعة وفي جعبته مشروع جديد، قال: هناك منطقة في الشمال يحتلها الجيش الاكليزي جيدة الخصوبة تمتد من سهل (گه وه ر) حتى بليدة (آشنو) التي كانت اغلبية سكانها من النصارى يوماً ما، وهي الآن مهجورة خالية من السكان تقريباً، والى شرقها يمتد سهل اورمية ومن الغرب تحدها جبال حكاري، اقترح (اغا بطرس) ان يقود كل الآثوريين بعد تزويدهم بالسلاح الكافي لاحتلال منطقة (گه وره - آشنو) هذه، ليكونوا تحت حكمه في حالة من الاستقلال الفعلي، ولم يكن لديه مانع من عودة اهالي اورميه الراغبين في العودة الى ديارهم بعد ان تفتح منطقة حكاري للجبليين، وكانت الخطة تقضي ان يتقدم المحاربون اولا لاكمال احتلال المنطقة ثم يتبعهم النساء والاطفال ومن اليهم من العجزة.

لم تكن الخطة مستحيلة بل ممكنة شريطة ان تتحد قلوبهم ويسودهم الوئام وهو امر صعب المنال لا اشق منه عليهم، بشرط ان يتحلى (بطرس) بالعقلية السياسية التي تؤهله لتحقيق هذا المطلب الدقيق، ولو نجحت الخطة فان بريطانيا ستجد دويلة تعتمد على الآنكليز في بقعة حيوية لها، كما ستزيح عن عاتق دافع الضريبة الانگليزي عبء اعالة اللاجئين. واسرعت السلطات البريطانية لاعلان قبولها بالخطة وبشرت به ادارتهم فيما بين النهرين وحضوا الاثوريين على قبولها وبثوا لها بينهم الدعاية الواسعة، فرضى بها هؤلاء تحت هذا الضغط. وعلى مضض لانهم كانوا يخشون خلوها من الجدية والاصرار وامكان اي من الجانبين العدول

بمطلق رأيه، حقاً ان دويلة آثورية (غير محددة المعالم!) تحت الحماية البريطانية، لما يصبون اليه - لكن كل فرد منهم كان يريد ان يجعل موطنه موقعاً لتلك الدولة! كذلك كان يخشى ايضاً بأن (آغا بطرس)[4] لم ينل لمشروعه هذا التحبيذ والاسناد الواسع الا بوعده الجميع كلا على حدة بانالته ما يريد اذا انضم الى رئيس عشيرته الاصلي.

ولم يوافق بيت البطريرك وبعض العشائر الجبلية على هذا المشروع لشكهم المتأصل في نوايا (بطرس) ومشاريعه، الا ان هذه المعارضة لم تفل من عزم صاحب المشروع، فبيت البطريرك ترك بدون زعيم بعد وفاة عميده، (وسرما خانم) وهي خير العقول المفكرة في هذا البيت بدأت سفرتها الى انكلترا لتبسط قضية الطائفة الآثورية امام الحكومة البريطانية فسقطت من الحساب لمغادرتها المخيم وسفرها الى الموصل واهمل شأنها وكان المقدر ان الفريق المتردد في الموافقة على المشروع سيبادر باللحاق بالرتل عندما يجد نفسه وحيداً، فقامت الاستعدادات على قدم وساق لتصفية (مخيم بعقوبة) ونقل سكانه الى (مندان) شمال شرقي الموصل ليكون قاعدة للحركة.

وكان سوء الحظ ينتظر مشروعهم فالوقت الذي هو اهم عامل في نجاحه كان يحتم عليهم ان ينقلوا آلافا عديدة الى الاراضي العليا فوراً وهناك يقومون بتوفير المأوى والقوت لانفسهم قبل هجوم الشتاء، فاذا بهم يصطدمون باسباب تأخير متوالية متلاحقة، حصل اولا تغيير في السلطة المركزية المحتلة، اذ لم يكتف بعزل (سر ارنولد ولسن) من منصب وكيل المندوب السامي بل طرد فعلا من خدمة الملك، فقد وجد السياسيون في الوطن من المناسب ان يجعلوا كبش فداء من هذا الرجل الطيب جداً في مركز عمله، لان السياسة التي صادقوا على خطوطها كانت تزيد نفقاتٍ وتكاليفَ عما قدروه لها، امتلأوا سخطاً عليه لانه لم يطبق في بلاد ما بين النهرين سياسة التقشف الشديدة التي عجزوا هم انفسهم عن تطبيقها في انكلترا. وما عتم السر (پرسي كوكس) المندوب السامي الجديد ان ظهر في الميدان. الا ان هذا التغيير

---

[4] قال القاضي «براكستون Braxton» موجها كلامه الى هيئة المحلفين: «ساندي ماكفرسن! انك ولد مخلص جداً، غير انك تستحق الشنق». وهذا الحكم يذكرنا باخلاق الوغد المخادع (بطرس)، ان هذا الرجل محارب مقدام، وهو لو وجد في ظروف اخرى، كان أهلاً لارفع المناصب، الا انه القى بحظه في مواضع طورت من طبيعته ذلك الانحراف العقلي الذي منعه من بلوغ درجة من الفروسية ترتفع عن درجة «المحتال على رزقه». ولقد اعترف للمؤلف بصراحة يحمد عليها، بانه قرأ الطبعة الاولى من هذا الكتاب وما ذكر عنه فيه هو حقيقي لا جدال فيه، الا انه بات الآن شخصاً اخر يختلف عما كانه في الماضي، ومن الواضح ان هذا (الصقر) تعلم منذ ذلك الحين ان يطير في اطلاب فريسة ارفع. ولكن ليس هناك مندوحة من وضعه في صنف «الجوارح»، مما يؤسف له ان يكون كثير من الناس الطيبين اوغادا!!!

سبب تأخير في المشروع. ولم يملك الرجل الجديد قوة اصدار قرارات عاجلة في مسألة كانت من المسائل الهامة بالنسبة لسلفه ربما بناء على تعليمات تلقاها من الحكومة، وعلى كل فقد صادق (السر پرسي) اخيراً على السياسة المرسومة بخطوطها العامة. وبدئ بنقل الآثوريين الى (مندان). ووصلت عملية التسفير ذروتها عندما اندلعت ثورة (١٩٢) فأوقفت العمل تماما، اذ كانت الحاجة ماسة الى كل المقاتلين ووسائل النقل. وهكذا وضعت المسألة الآثورية على الرف.

ان قصة الثورة نفسها ليس لها علاقة ببحثنا وان استخدم المحاربون الاثوريون لقمعها، وبدأ الرجال يتساءلون أية لوثة من الجنون استولت على رجال الحكم فجعلتهم يحلون قوة عسكرية ذات معدن جيد لا يتطرق الشك في اخلاصها؟ في الواقع ان جانبا من القتال كان يتسم بصفة الدفاع عن النفس لاغير فقد ترك مخيم (بعقوبه) ليحمي نفسه ويعنى بحاله بعد التأكد من مقدرة الآثوريين على القيام بالمهمة. لكن اولي الامر نسوا تماماً بانهم مجردون من السلاح! ولهذا بقي المخيم الآثوري شطراً من الزمن معرضاً لخطر اكيد ولا سيما عندما جئ بعربات قطار محملة بالعتاد والبندقيات ووضعت على قيد اميال قليلة من المخيم لتزويد اللاجئين، فأخرجت عن الخط لكن القوة التي شكلت في المخيم تمكنت باسلحتها التافهة انقاذ القطار ومحتوياته[5] ومنذ ذلك الحين بات المخيم واهله في مأمن من الغارات، وقع بعض الاصطدامات قريباً منه. وعلى أثر واحد من هذه الاشتباكات فخر المحاربون امام ضابطهم بتكبيد العرب عدداً كبيراً من الضحايا فقال هذا الضابط:

- اوه، هذا ما لايسعني تصديقه فانا اعرف كم طاش من الطلقات، ولا حاجة بكم ان تخبروني بأنكم اصبتم هذا القدر.

فلم يقل الجبليون الحانقون شيئاً، لكنهم جاؤوه بعد الاشتباك الثاني ووضعوا امام الضابط الآنكليزي المرتاع عددا من الآذان البشرية اليمنى! وقالوا:

- انظر يا صاحب. انك الآن لا تستطيع القول باننا لم نصب هؤلاء الاشخاص على الاقل!

ولم يحرم من لذة الحرب اولئك الذين تم نقلهم (الى مندان قبل نشوب الثورة واصبحوا خارج منطقتها. فقد نالوا حصتهم من عشيرة كردية هي عشيرة (السورچي) التي انتهزت فرصة الاضطراب العام والفوضى وفقدان هيبة الحكومة فراحت تعيث في المناطق الكردية فساداً وهاجمت كل قرى عقرة الكردية فتصدى لها الآثوريون وتمتعوا بدحر المغيرين وقذفهم في مياه الزاب واعادوا الامن والنظام الى تلك البقعة.

---

[5] عندما قام الاثوريون بالهجوم ارتأى احد الضباط الموجودين في القطار ان يبتعد عن ميدان المعركة بحيث لا يمكنه مشاهدة اية صفحة من صفحاتها «لئلا يرى فيها اشياء، قد يكون من واجبه ان يقدم بها تقريراً».

في اثناء ذلك جرى بعض المحاولات في مخيم بعقوبة لشق هذه الطائفة المتناحرة فيما بينهما شقاً اخر. قلنا ان (مار شمعون پولس) البطريرك توفى وان اكثر من نصف اللاجئين كان قد سفر الى معسكر (بطرس) في مندان ليكون تحت قيادته. فانتهزت البقية الباقية في (بعقوبة) الفرصة لانتخاب ورسامة «ايشاي ابن داود» بطريركها وهو ابن اخ البطريركين المتوفين (بولس وبنيامين)، وكان هذا البطريرك الجديد صبياً في الثانية عشرة من عمره، والواقع ان هذا هو الوارث الشرعي لعمه الراحل بمقتضى شريعة (ناطر كرسيه) التي اشرنا اليها آنفا، الا ان الانتخاب هو من شؤون الطائفة حسب العرف القبلي المتبع عندهم ولا يمكن ان يكون من شأن الاقلية. وعد الجماعة الذين حضروا الآنتخاب انفسهم البقية المخلصة الذين اقاموا على عهدهم لزعيم كل القبائل، في حين لحقت الاغلبية بالزعيم الجديد الذي لاينتمي الى الاسرة المقدسة. وقيل ايضاً (وهذا ليس بالمؤكد تماماً) ان هؤلاء المنشقين المندانيين كانوا على علم بموضوع الانتخاب وقد اعلنوا رضاهم به، الا ان الخطوة مع ذلك لم تكن اصولية، وستكون تلك الاجراءات جالبة النحس وسوء الطالع، وقال الجانب الآخر الاكثر حصافة وبعد نظر ان قرارا من هذا القبيل ما كان ليتخذ لو ان (سرما خانم) كانت موجودة[6] فقد انشقت الطائفة على نفسها، في حين ان وحدتها هي الدعامة الضرورية الكبرى، ونزلت مكانة البطريرك الى مجرد زعيم لحزب، وانا الذي اطلقت الكلام حرا في انتقاد هذه العادات العتيقة الشاذة كوراثة الكرسي البطريركي وكحصر السلطة الزمنية بصاحب المنصب وغيرها من التقاليد التي يراها ذوو التجارب والخبرات بانها عاشت زمنا يزيد عن لياقتها وفائدتها، اراني الآن حائراً مثلهم في التفتيش عن البديل الصالح لها، ومهما يكن من امر فقد وقعت الواقعة ولات حين مناص وما فات فات ولاسبيل لنقضه. ان ضابط التعويضات البريطاني اظهر معارضته للانتخاب (في حين لم يكن منعه من ضمن واجباته) بأن اصدر امرد بمنع سائر الضباط البريطانيين من حضور مراسيم التنصيب.

واخذت نار الثورة العراقية تخبو شيئاً فشيئاً، ولم يتم اخمادها حتى انقضى فصل الصيف، ولما اعيد وضع مسألة الاثوريين على طاولة البحث هز العارفون بالبلاد رؤوسهم مبدين شكهم في امكان نقل هذه الجموع من الناس في هذا الوقت من السنة، فقد حل تشرين الاول وهو اول سقوط الثلج على الجبال، كما كان ثم نذير بشتاء مبكر. فلم يكترث احد لهذه النذر

---

6 قضت سرما خانم عدة اشهر في انكلترا من سنتي ١٩١٩ و ١٩٢ وحلت ضيفة على (اخوات بيت عنيا) اللاتي كن مهتمات بامور بني جلدتها منذ زمن بعيد، وكان غرضها من الزيارة وضع احوال طائفتها ومطاليبهم امام الحكومة البريطانية وساسة اوروبا ان تسنى لها ذلك، وقد حظيت على الاقل بمقابلة مجاملة من اعضاء الوزارة البريطانية، ومع انها لم تفلح في انتزاع وعود قاطعة من رجال لا يعرفون هم انفسهم ماذا يريدون، فانها خلفت انطباعاً عميقاً بشخصيتها البارزة في نفوس اولئك الذين اعتادوا ان يجدوا الأثوريين مجرد برابرة مزعجين.

وحشدت القوة الآثورية التي اخذت على عاتقها تطهير الاراضي في منطقة عقرة تحت قيادة (بطرس اغا) وتهيأت للتقدم وكانت تبلغ زهاء خمسة آلاف من الجبليين والاورميين، وبدت مهيبة المنظر وهي تسير تحت اعلام فيها صلبان، ووزع بطرس اغا الرتب العسكرية الرفيعة بسخاء وكان (القائد العام) كريماً بذلك على الاقل، فنصب (مشيرا) ليعمل مساعداً له ووضع على كتافتي قميصه الخاكي شارة الرتبة وهي عصوان متقاطعان، وكان ثم عشرات من امراء الالوية والعمداء والعقداء، واذا كانت الرتب كثيرة فالخبرة نادرة عزيزة المنال بصرف النظر عن المخاطرة الجسيمة التي تنطوي على ارسال قوة عسكرية في تاريخ متأخر كشهر تشرين. كان الموضوع يسوده عدم اكتراث وتهور عجيبين. المسؤولون عن حكم البلاد يريدون التخلص من هؤلاء البشر ومن مشكلتهم في آن واحد وبأسرع ما يمكن، وقد منوا انفسهم بانهم سينفضون ايديهم من القضية فور ان يصل هؤلاء الحدود او على اقل تقدير لا تعود الحكومة البريطانية منشغلة بمسألتهم في حالة فشلهم، لقد جهزوا ببندقيات جيدة وعتاد وفير وأسندوا ببعض المدافع الجبلية واعطوا عدداً كبيراً من بغال الحمل كما زودوا بمؤن وارزاق وفيرة وتجهيزات طيبة كاملة، لكن هؤلاء فضلّوا ترك كل هذه الميرة وراءهم فتركوا يفعلون ما بدا لهم، والمشاورون الذين ضموا اليهم ليحموهم من حماقاتهم وجهلهم ويجنبوهم المزالق لم يضغطوا عليهم ولم يلحوا، وتحركت القوة وليس معها اكثر من لفاف طبي واحد ولا قوت يكفيها لاكثر من اسبوع واحد، ومن غير تأمين خطوط مواصلات سليمة مع القاعدة، وبعبارة اخرى فان اولئك الذين خرجوا لاحتلال ارض وإعمارها والاستقرار فيها - نظريا تركوا يرحلون بمعدات غزو ليس الا

ان الملازمين الثلاثة الذين عينوا لمرافقة القوة بصفة مستشارين لاغير، تقدموا ببعض المقترحات والنصائح والحوا بصورة خاصة على نقل المدافع بالبغال. فقيل لهم ان المدافع يمكن نقلها على عجلاتها ولن يتطلب الامر اكثر من جرها الى قمة جبل عقرة وبعدها سيكون سبيلها سهلا ممهدا رجل يقف في عقرة ويتوهم ان السفح الوعر الذي يعلو البلدة هو العائق الوحيد بينه وبين سهل (گه وه ر) لهو اجهل الناس بالارض الذي يرسل اليها مرؤوسيه.

لاشك ان (بطرس) هو الملوم، كما وان الآثوري الذي يقصد محلا لا يقول لك ان الطريق صعب، ويتحدى الحقائق ببساطة متناهية. والرجال الذين ينطلقون على شكل جماعة غزو صغيرة وليس معهم غير بندقياتهم وما عليهم من ثياب، لا يمكن ان يتصوروا بان الجيش السائر يعجز عن الكر والفر والمناورة ككتيبة الخيالة مثلاً، وهؤلاء الذين قادوا «حملة العودة الى الوطن» تلك، كان المفروض فيهم ان يعرفوا شيئاً عن اصعب احوال تلك البقاع وهي مشكلة النقل والمواصلات، حيث لاتفيد اية وسائط آلية، الا انهم لم يجبروا الاثوريين بالقوة على الاستفادة من معلوماتهم.

وعبروا الحدود، ثم عبروا الزاب الذي كان فائضاً على اثر مطر غزير، ولقوا بعض الصعوبة

ي وجه مقاومة الكرد الزيباريين فدحروا في الاشتباك، وادهش (بطرس) الضباط الآنكليز اصراره على اطلاق مدفعيته الضئيلة باتجاه الصخور الجبلية كيفما اتفق ونصحوه بقولهم:

اليس من الافضل ان تنتظر هدفا صالحاً تطلق عليه؟ ان كان هدفك الصخور فلن تصيبها اذى.

فأجاب (بطرس) يقول:

- الصوت يخيف القبائل!

ومضى يبدد عتاده القليل.

واقتحموا قرية (بارزان) واحرقوها بعد ان تركها سكانها ولاذوا بالجبال يترصدون الحملة كانت الغنيمة الوحيدة التي وضعوا ايديهم عليها كتاب صلاة عليه ختم ابرشية كندية (سانت ;ك. نورث باتلفورد سسكاتچوان St. Luke, North Battleford, Saskatchewan لايسمح خذه) ولو كان لهذا الكتيب لسان لانبأنا بمغامرة عجيبة.

كل هذا استغرق وقتاً ملياً، فشحت المؤن، والمعلوم انه اذا كانت البطون ممتلئة قل السلب، ان جاعت فليس ثم رادع او كابح لجماح هذه القوة، لتبقى محافظة على النظام وضمن حدود واجب، واخذ المطر المثلوج القاسي يحدث اثره المطرد في تردي صحة ومعنويات سكان سهول الاورميين (هذا المطر مألوف في فصل الخريف في تلك الآنحاء) ولم يكن هؤلاء قد تادوا مسيرات واسفارا شاقة، ووهت قوى كثير منهم ومات اكثر من مائة في الطريق. فطس عدد كبير من الحيوانات، بينما ترك مئات منهم اسلحتهم، وقفلوا راجعين الى خيمات الآنكليز. ولا بأس من ايراد تعليق الضباط الآنكليز المرافقين للحملة، انه تعليق مختصر عنيف حتى عند تجريده من بعض العبارات التي لا يصح اقتباسها وهو يرقى الى رتبة اتهام الاثوري «بانه اكبر لص على وجه البسيطة، الا انه على الاقل يضع رأسه امام دقيته» في الواقع ان الجناح الاورمي الذي يتألف من نصف القوة فقد كل معنوياته وعاد راده من حيث اتوا قبل ان يتموا قطع نصف الطريق الجبلي، ولو انهم واجهوا العدو في أية مركة لكانوا كالخرف امام الجزار.

وفي تلك الاثناء وردت انباء من جبليي «التياري والتخوما». مع ان هاتين القبيلتين ختلفان خلقاً وخصالاً عن سكان السهول، فان ما قدمت ايديهما لفشل الحملة لا يقل عما مله الآخرون، كان هؤلاء القبليون يؤلفون الرتل الايسر او الرتل الغربي وعندما انسحب يباريون الى الغرب لاحقوهم واستمروا في مطاردتهم حتى فقدوا اتصالهم برفاقهم رتل رميه وها هم الآن في جبالهم احرار. لا ضابط يكبحهم ولا رادع يردعهم وسلاحهم جيد فماذا يدون اكثر من هذا؟ ما كان منهم الا ان ولوا وجوههم شطر وطنهم وشطر اعدائهم للاخذ أرهم منهم، ما الذي يهمهم من أمر اهل اورمية والاستقرار في ايران بعد الفرص التي

تواجههم لاخذ الثأر والسلب والنهب؟ وهكذا انطلقوا يغيرون ما طاب لهم، يرون في كل كردي خصماً ومطلوب ثأر، وفي كل قرية غنيمة شرعية خالصة. وبهذه الروح عاثوا في (نيروه ريكان) فسادا واحرقوها دون ان يقيموا وزناً لواقع ان هاتين المنطقتين هما من اخلص بلاد كردستان للحكم البريطاني واكثرها هدوء وانتظاماً، ثم ارسلوا امرا لاغا (چال) لقطع خط الرجعة على الزيباريين المنهزمين، فبرز هذا حليفاً للاثوريين وفعل ما امروه، الا ان الغدر المتعمد والتسيب الطبيعي الذي ساد هذه القوة دفع التياري والتخوما الى الاحاطة بجناحه واقتحام قريته، فتصاعد الدخان والسنة النيران من (چال) ايضاً، ولو القى المتتبع نظرة واحدة على الخريطة لوجد ان مسلكهم الهمجي هذا اعادهم الى الزاب والى منطقة برواري بالضبط.

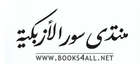
انقلب «مير رشيد»[7] الآن من اكبر قاطع طريق في المنطقة الى ممثل للسلطة البريطانية. ولعله عانى تغييراً نفسياً مثل صاحبنا بطرس آغا، فعمد الى جمع قواته وراح يحرس بها جسور الزاب باسم الملك جورج الخامس! في الوقت الذي اخذ حاكم دهوك السياسي الساخط جداً يعجل في جمع قوة من الشرطة ويخرج من القصبة نحو منطقة الاضطراب فتوقفت اعمال الجبليين الوحشية الطائشة كما يفعل اطفال المدرسة الذين خرقوا كل الحدود وتوقعوا شر التبعات، مع شعورهم بان الغنيمة تسوى تحمل العقاب. اطاعوا اوامر سيدهم الغاضب ورجعوا الى السهول والسلطة البريطانية وعاد رجال اورميه من حيث اتوا بعد ان وجدوا انهم لايستطيعون شيئاً وحدهم، ولما تبين (بطرس) انه فقد كل جيشه لم ير بدا من يحذو حذو الاخرين هو واركان حربه الشخصي. وعاد ليقدم تقرير الوصول مقراً بفشله في تحقيق ما انتواه وبأنه متأكد من رضى الحكومة لان «الاثر المعنوي الذي خلفته الحملة في الكرد كان جيدا للغاية»[8]

لكن الحكومة لم تكن مغتبطة في الواقع، فقد فشلت الحملة كلها. وضاع المال المنفق عليها هباء رظلت المشكلة التي رغبوا في حلها كما هي قائمة، والكرد الذين كان هدؤهم ورضاهم من اهم ما يحرص عليه الحكام، باتوا الآن ولهم ملء الحق في ان يحنقوا ويشكوا، اذ كيف

---

[7] لقد تم اصلاح ذات البين مع (رشيد البرواري) في الخريف الماضي، الا ان قلعته المنيعة في «ديرشيش» دكت دكا «حتى انك لا تتصور ان موقعها كان هناك» على حد وصف الاثوريين الفرحين.

[8] نزل افراد من ابطال هذه الملحمة «الاوديسي» ضيوفاً على سجن الموصل ردحا من الوقت بسبب ما نجم عنها وظلوا فيه حتى عيد الفصح التالي. ثم رفعت عريضة استرحام بحقهم «او بالاحرى من كان منهم على المذهب القديم» وقد جاء فيها «الرجاء اخلاء سبيل هؤلاء بمناسبة عيد الفصح، فقد حافظوا على فريضة الصيام الكبير في السجن، ولا بأس من ابقاء البروتستانت منهم فقد استمروا في تناول طعام السجن الطيب ولم يكترثوا للامر». ولسوء حظهم ان «كالليو» الجالس على كرسي الحكم لم يرق قلبه لعريضتهم الوديعة الرقيقة. على انهم اطلقوا بعد فترة قصيرة. بات سجن الموصل في عهد الادارة الآنكليزية كريها تعافه النفس اذ لم يعد بامكانك الجلوس فيه مرتاحاً لترسل بطلب طعامك وتبغك مثلما كان الحال في عهد الترك، بل وجب عليك ان تستبدل ثيابك العادية بحلة قشيبة المنظر، «كالسيد في باب بلاد Bab Ballad وان تشتغل في تعبيد الطرق، وان تلبس «الطاقية» المكروهة جدا في الموصل. فضلا عن انه لم يعد بامكانك استئجار بديل ليحل محللك عندما تسأم السجن يكون تفكه للاسرى واحدوثة لهم.



نظر منهم ان يصدقوا بأن هذه الاعمال العدوانية لم تكن برغبة من الحكومة وعلمها، ومن
طريف ان المسؤولين عن التدابير الفاشلة تماماً، كانوا اشد الساخطين على المنفذين واعدوا
ابا عادلا للجبليين، الا ان السلطة السياسية ابت ان تتخذ بحقهم اجراءات رادعة ولعلهم
تأوا ذلك لانهم شعروا بان المسؤولية لا تقع على التياري وحدهم. واعيد تنظيم معسكر
دان ودارت دفة العمل فيه ثانية وراحت السلطة التي نفد صبرها تفكر فيما يمكن عمله لحل
شكلة الصعبة بحد ذاتها والتي زادت الآن تعقيدا وسوءً زيادةً لم تبلغها من قبل بما طرأ
يها من ملابسات. والامر واضح، وهو ان السلطة لاتستطيع ابدا ان تقدم على عمل الا
ئ الربيع. وهكذا استقر اللاجئون والانكليز في معسكر (مندان) احدهما حانق على الاخر
ن ان يحل شيء من المشاكل، وايجاد الحل امر عزيز المنال.

واهتدت الحكومة الى مشروع «الاسكان بالترشيح» اي توطين الاثوريين في القرى التي
سغرت) قبل زمن اما بسبب الحرب او بانقراض اهاليها في اواخر سني الامبراطورية
نثمانية، وهذا بالطبع يختلف عن مشروع الاحتلال الذي كان قد اختط لهم وخابوا في
قيقه بعد اعطائهم الفرصة، كما يختلف ايضاً عن مشروع اعادتهم الى ديارهم (بالنسبة الى
لبيتهم)، هذا وانهم كانوا يكرهون دوماً ان يوطنوا الى جانب جيران مسلمين او عند ملاكين
سلمين.

ولم يكن سلوكهم مع هؤلاء الجيران والحق يقال مسلكاً حميداً. فقد وضع قرويون منهم في
مى ملاكين عرفوا بالطيبة وحسن السمعة (الجنتلمان الكردي هو جنتلمان كامل بحق
نقيق)، هؤلاء الملاكون قبلوا ان يدفعوا لهم سلفاً زراعية كبيرة شريطة ان يتعهد الفلاحون
دد المستأجرون ان يدفعوا من المحصول بالنسبة المتعارف عليها، ثم وفي آخر لحظة اصر
ستأجرون (بروح عصرية حقة!) ان يدفع لهم الملاكون قروضاً اخرى.

قال الملاك الطيب انه لن يتخذ اية اجراءات ضدهم، فقد جعلها كلمة شرف بينه وبين نفسه
لا يرفع شكوى الى القضاء ضد اي مستأجر مهما كان دينه وانه لم يفعل ذلك حتى الآن
بتدره الحاكم السياسي قائلا:

- ولن تفعل ذلك ايضاً ايها الاغا، فالحكومة لها شرفها كذلك وسيطبق هؤلاء شروط العقد
ي تعتبر الحكومة نفسها طرفا فيه وتتحمل مسؤوليته.

ولا يتمالك المرء في مناسبة ثانية الا ان يعترف بأن النصارى يبحثون احياناً عن المتاعب
فسهم، ليس من آداب الجيرة ان تقتل خنزيراً او تقطعه اشلاء وتلقى اوصاله في عين الماء
حيدة وتنثر بعض الاشلاء حواليها حين تكون عين الماء هي التي يمتار منها جيرانك المسلمون

واخذ التأجير يعقب التأجير. وبدا وكأن سياسة الحكومة تقضي ببقاء اولئك الذين ضاق احدهم بالآخر ذرعاً وهما مشدودان بعضهما الى بعضٍ برباط البطالة، وعرضت الحكومة البريطانية استعداداً لتخصيص مبلغ نصف مليون باون بالضبط لحل المشكلة الآثورية برمتها، الا انها لا تسمح للسلطات الآنكليزية في العراق بالمضي في خطتها التي اعدتها، ويظهر انها تظن بانك ما ان تقوم باسكان الناس في ارض حتى يبدأوا في اعمالهم الزراعية في اي موسم كان، وقال احد الموظفين الساخطين على هذا القرار:

- اني لاحاول تجربة ما عمله النبي (يوشع)، جاهدا في توطين هذه القبائل في ارض الميعاد، على ان هناك نقطة تجعلني مختلفاً مع هذا النبي. فانا لا استطيع ايقاف الشمس في مدارها والصيف كما ترى على الابواب [9].

واخيراً صدر الامر بتطبيق المشروع، وبوشر بالاستعدادات لنقل اللاجئين عشيرةً عشيرةً، الى القرى المتآخمة للحدود الشمالية العراقية او القرى القريبة منها. ولم تكن الحدود الدولية قد ثبتت بعد والشيء الوحيد الذي اتضح موقعياً لجميع المعنيين بالامر، هو ان الخط المقترح في معاهدة (سيڤر) غير المنفذة لايمكن ان يؤخذ اساساً، وهذا ما اضاف عامل تعقيد اخر الى المشكلة. هناك شخص واحد كان يبذل اقصى ما في طوقه «لنشر الفوضى والاضطراب في سائر هذا المشهد التمثيلي الطريف» هو (بطرس اغا) » عندما جرى التحقيق حول مهزلة تشرين الثاني ١٩٢ خرج هذا الرجل الجليل بأرخص ما يستحق من عقاب، فقد برئت ساحته من كل شيء واتهم بعدم الكفاءة وسوء الادارة العظيم فحسب، اذ لم يظهر انه كان ينوي استخدام التياري والتخوما في شن الغارات عندما كلفهم باشغال خط السير الذي سهل عليهم القيام بغاراتهم النكراء! ولذلك لم يودع السجن مع الاخرين، فراح يستغل حريته هذه للتآمر على كل خطة ترمي الى توطين ابناء جلدته الذين لاسلطان له عليهم.

وكان حلمه الجديد (ولا ندري كم كان هو نفسه يؤمن باحلامه فهي معضلة مستعصية الحل لنا) هو خلق (آشور مستقلة!) من شقة ارض رفيعة تمتد بين حدود العراق وتركيا، من اورمية في ايران حتى الاسكندرونة على البحر الابيض المتوسط، وان تكون تحت الحماية الفرنسية! عرض هذا في اللحظة التي كان الفرنسيون قد قرروا ان احتفاظهم بمقاطعة (كيليكيا) هو عبء يفوق طاقتهم، وظل (بطرس) يحث ابناء جلدته ان يرفضوا اية خطة بريطانية لتوطينهم، لانه سيأتيهم محملاً بما يفوق الحصر من البندقيات والضباط الفرنسيين (النابليونيين) ليقودهم الى بلادهم ظافرين، وكان وكلاءه يرددون هذه النغمة باسمه في معسكر (مندان)، اما الاقتراح باخراج الرجل من البلاد فلم يكن يقابل بأي تجاوب، خاصة وان مجهوده كان منصباً على احسن نقطة من مشروع الحكومة واعني بها تشكيل وحدات الآثوريين العسكرية، ان محاولة تجنيد العرب لم تلق فيما بين النهرين تشجيعاً لذلك اقترح العسكريون اعادة

---

[9] في التوراة، ان قائد الاسرائيليين يوشع ابن نون طلب من آلهه ان يوقف مسار الشمس في مدراها لتكامل قواته بما نتج لهم الكوكب من ساعات النور فتح مدينة اربحا في فلسطين. فأجابه الله الى سؤله (المترجم).

تأليف تلك القوة التي حلوها من قبل واستخدام احسن العناصر المقاتلة في العراق للدفاع عنه، وقرر ان تكون قوة كبيرة وان يتم تجنيد اكبر عدد ممكن منهم وان يقوم بتدريبها وقيادتها ضباط انكليز[10] فنشر (بطرس) في المخيم وربما بتوسط اتباعه - كلمة مؤداها ان من يعتبر (بطرس) قائدا له لايتطوع في هذه القوة. الا ان الحكومة لم تسمح للقائمين بالتجنيد بالعمل على ايقاف هذه الدعاية المناهضة للحكومة، وتحدث بعضهم عن الاستفادة الكبيرة من هؤلاء المجندين فتم اخذ (٦٠) شخص تقريباً، وعندما تم التخلص نهائياً من (بطرس) ارتفع الرقم الى (٢)، ولم يتوقف المسؤولون عن تجنيد عدد اكبر من هذا لمصلحة الطائفة الآثورية نفسها.

ومضى العجلة تدور، اذا كانت تدور ببطء فبكثير من الضجة والطقطقة والمتاعب للضباط السياسيين الذين كان يقع على عواتقهم اسكان زهاء عشرة آلاف لاجئ. هذا العمل البسيط القى عبئا جديداً فوق حمل ثقيل بحد ذاته حتى لكأنك تلقي حزمة حطب فوق الكومة، واتخذت التدابير مع كرد (برواري) لاعادة المسيحيين الى تلك المنطقة والى (آشيتا) وما يليها، وعللت المسألة بانه ان لم تدخل هذه المنطقة ضمن الحدود العراقية فهي لم تكن ضمن الحدود التركية بصورة ثابتة في الماضي، وكان سلوك الكرد طيباً جداً فوق ما هو متوقع، ونظروا الى جيرانهم المسيحيين القدماء كجزء من آثار الاضطراب والاختلال في نصاب الامور ورأوا وان من حق هؤلاء استعادة ما فقدوه. والمرء لا يسعه الا ان يتذكر بهذا الوضع ذينكما الزوجين اللذين يعيشان عيشة (الكلب والقطة) كل في مجتمع الاخر الا انهما يحنان دائماً للمناكدات والمضايقات المألوفة ويتلهفان اليها بعد زوالها، لذلك اعترفوا بحق عودة المسيحيين الى اراضيهم الاولى واعترفوا لهم ايضاً بحقهم في نصف الغلة من الزرع النابت في الاراضي التي زرعها الكرد بعد ان تركها اصحابها المسيحيون، ووجدت احياناً بعض المشاكل تستدعي الحل الا انها كانت نادرة بشكل يدعو الى العجب.

ومن تلك القضايا، ان عشيرة من الكرد الرحل لا تدين بطاعة او بولاء لاحد، طمحت الى محاولة تجربة الحياة المستقرة فاتخذت مجموعة نائية من القرى الصغيرة تعرف باسم منطقة (آلامون) وهي بعيدة جداً عن اقرب مجتمع، ولم يظهر هؤلاء اية رغبة في اخلاء ما ضبطوه،

---

[10] اقترح تجنيد بضعة سرايا من الطائفة اليزيدية، وقيل انهم سيخدمون الضباط الأنكليز بكثير من الاخلاص، لكن لم يوضع هذا القول موضع التطبيق حتى كتابة السطور التي تقرأها، واليزيدية مادة خام عسكرية جيدة، وديارهم في جبل سنجار، تقع على خط تقدم لا تكتنفه المصاعب بالنسبة للعدو، على ان الصعوبة الوحيدة هي في النطق والتفهم للايعازات العسكرية البريطانية المستخدمة في ليفي الموصل تلك التي حفظها الشرقيون بسرعة مع جهلهم الأنكليزية. فعند هؤلاء، اي ايعاز يشبه او يقارب لفظة (شيطان) هو كفر. ولا يمكن توجيه الايعاز التالي (انتبه Attention). وكان قد رسم ان تكون سراياهم قائمة بذاتها كما هي سرايا الآثوريين.

او تُرِكْ اهلها الشرعيين يعودون اليها. واستدعى هذا العناد زيارة من معاون الحاكم السياسي وحديث طويل متشعب لتسوية الامر لكن التوتر والحدة وصلت بالكرد حداً انهم بدأوا يداعبون فكرة قتل هذا الاكليزي المتطفل في الحال، الا ان معاون الضابط السياسي هذا الذي ادرك تماماً موضوع النقاش، حل المشكلة بالذهاب الى سريره والنوم في وسطهم بكل هدوء وتركهم يبحثون الموضوع على رسلهم. وعندما استيقظ صباحاً وجد الكرد قد توصلوا الى اوسط الحلول ووافقوا على تسليم ثلاث من اصل القرى الاربع المنازع عليها والاحتفاظ بالرابعة لانفسهم فتمت الموافقة وسوي الامر، انك تنظر الى مغارة جبلية فتتوهم استحالة اختراقها فاذا دنوت منها وجدت دائما منفذاً فيها، وهكذا راحت قافلة اثر قافلة تخرج من معسكر (مندان) قد تبلغ الالف عداً، ليتم توزيعها من محطة التوزيع في دهوك الى الامكنة التي رسمت لها بعد سماع كثير من التذمر والشكوى، وكل فرد رجلا أكان ام امرأة ام طفلا يتسلم من الحكومة منحة قدرها مائة وعشرون روبية في دهوك، وتجد احيانا من لا تتوقع ان يطلب تلك المنحة، فمثلا تقدمت امرأة بجرأة وهي تحمل طفلاً لم يكن من جماعة معسكر مندان عندما تركته قبل يومين، خرجت من خطّ القافلة السائرة وغابت قليلا لتعود حاملة طفلها الوليد وتردفه فوق صرة الثياب على ظهرها لتستأنف مسيرة اليوم، وها هي الآن تطلب المنحة المخصصة من الحكومة لوليدها الجديد، هذا الوليد (ذكرا كان ام انثى) لاحق له بالمنحة قانونا لانه لم يسجل في القائمة التي غادرت معسكر (مندان). الا ان القاعدة طرأ عليها توسع في التطبيق.

كان رجال القبائل مسلحين طبعاً لاجل الدفاع عن انفسهم وقد خصص لهم عدد محدود من البندقيات والمسألة في الواقع بمنتهى الخطورة والدقة بسبب الحوادث الاخيرة إذ يجب عليك ان تقدر الكمية الكافية من البندقيات للدفاع دون الوصول الى حد الاغراء على شن الغارات ضد الجيران، ان الخطر حقيقي وليس من ضروب الخيال كما يتضح لك من طلب بندقيتين تقدمت به (تبريز) وهي سيدة «امازونية»[11] قادت اتباعها بنفسها في كل المعارك التي خاضوها، فسئلت:

- لماذا طلبت بندقيتين؟

- واحدة لاقتل بها (اغا چال) التركي والاخرى لاقتل الرجل الذي قتل اخي وهو الآن في خدمتكم!

ومع وجود هذه الدعابات الخاطفة فان العمل كان مرهقاً، فلا نهاية ثم للشكوى والتذمر من افواج الحشود المتعاقبة، انك لتحاول اقناعهم بان من الافضل لهم ان يأخذوا ما يمكن الحصول

---

[11] الامازونات هن نساء محاربات تقول اساطير الاغريق انهن كن يسكن ساحل البحر الاسود (المترجم).

عليه عندما لا يمكن ادراك كل ما يريدون، فيضيع صوتك حتى لا يسعك الا ان تنظر الى (موسى الكليم) نظرة اعجاب. فهنا ليس عندنا اكثر من واحد بالمائة من الجموع التي قادها هذا النبي في التيه اربعين سنة كاملة ومع هذا لم يفقد صوابه الا مرة واحدة على ما جاء في الاخبار، وعندما فقده لم يفعل اكثر من ضربه صخرة بدلا من ضرب معذبيه ومقلقي راحته.

وتم المشروع كيفما كان ووضع الناس في مكان يتيح لهم فرصاً للعيش بالعمل المثمر والحظ المؤاتي، وكمكافأة للمؤلف الذي ساهم بقسط ضئيل في هذا العمل وجد نفسه يوضع لا في صف (موسى او يوشع) بل في صف شخصية من شخصيات التوراة اقل شأنا بكثير. فقد صرح احد الاصدقاء الثرثارين انه كان يتمنى دائماً ان يتعرف الى ذلك «المصري الذي احدث ضجة وقاد الى القفر اربعة الاف قاتل سفاك» وها انه يفعل مثله اخيراً.

كانت المرحلة الاخيرة هي اسكان اسرة البطريرك في البعثة الدينية الانكليكانية في (ببيادي). وهذه الدار هي من املاك رئيس اساقفة كانتربري، فرممت وهيئت لتكون مسكناً لاعضاء الاسرة، في آخر مرحلة من تجوال هؤلاء البشر تجدهم في عزلة نائية مذعنين بشكل مؤسف لملاحقة وضغط (بطرس) ورهطه. لذلك كان استئنافهم اعمالهم في وضع آمن مستقر ومواصلة جهودهم لخير ابناء وطنهم مما يشرح الصدر ويثلج القلب، واخذ مبدأ الولاء القديم لهم يتبلور ثانية ما بين رعاياهم. وربما سيتخذ شكلا جديدا ويعودون يلتفون حول العرش الكنسي الذي يمثلونه. ان تنحية (اغا بطرس) النهائية[12] واخراجه من البلاد والتدابير الناجعة التي تمت مع الكرد الجيران من شأنها ان تساعد على الوصول الى هذه الغاية، ويظهر البطريرك الصبي علائم تقدم في الخط الصحيح بتأثير من عمته والوصية عليه، ان الدلائل التي تشير الى ان الآنسانية الطفلة لم تزايله نهائياً بسبب المنصب، هي كما يراها الانكليز علائم صحة على الاقل، كما ان الموظفين الزائرين وجدوا في البطريرك الصغير مايوحى بالرؤى السارة في قصور اساقفة انكلترا.

هكذا اسكن الجبليون في بقعة من الارض يعيشون فيها دونما حل او ترحال وان كان يجب عليهم محاربة الجوع والامراض المتوطنة والخصوم المجاورين، واستقرارهم هذا انما يمدهم بعامل ارتكاز يلم حوله شعث اللاجئين المبعثرين، الا ان المسألة كانت مختلفة بالنسبة الى الاثوريين

---

[12] زينت صفاقة (بطرس) له ان يقوم بعملية ابتزاز للمندوب السامي في بلاد النهرين فادعى بان له حقاً في ثمانية وثلاثين الف روبية زعم انه صرفها من جيبه الخاص على الحملة حتى (گه وه ر) وطلب تسديدها له وهدد في حالة عدم دفعها ان يشكو اعمال (السر پرسي كوكس) بحق شعبه امام عصبة الامم والجمهورية الفرنسية والپاپا. ولدهشته قيل له ان يذهب الى ثلاثتهم والى الشيطان ان شاء وان لا يتردد عن فعل ذلك فور مغادرته المكتب. إن الارتباط بالپاپا ليس بدرجة من الوضوح عند بطرس كارتباطه بالحاكم السامي.

الاورميين لانه يصعب على السلطات البريطانية تأمين الحماية لهم في حالة عودتهم الى ايران، كذلك يصعب على الحكومة الايرانية حمايتهم وهم في ديارهم هناك.

ان (سمكو) هو السلطة القوية والوحيدة في منطقة اورميه، والشعور المناوئ لعودة المسيحيين اقوى في ايران منه في كردستان. فالحرب في كردستان لم تكن غير سلسلة واسعة من الثأرات لم تنقطع ابداً منذ الازل. أما في ايران فهي ثورة او انتفاضة ناجحة غير مسبوقة لشعب تابع اقل من الشعب الاخر مكانة وهو امر يصعب الصفح عنه، ولهذا كان الكرد في كردستان مستعدين لتسليم اراضي النصارى المنتزعة منهم بكل طيبة قلب حتى بعد ان احتلوها وبذورها، أما في ايران فالايرانيون يحرثون عقار القرى الاثورية ويبنون البيوت في الكروم، فهم على حذر ويقظة لمواجهة اية خسارة وعلى استعدادا لبذل اي مجهود يضمن لهم ازالة كل اثر لهؤلاء.

وصرحت السلطات البريطانية بانها لا تستطيع با اعادة اهل اورمية، وانها ستمنح كما منحت الاخرين اعانة مالية لكل فرد وستقدم اراضيَ لكل اسرة ضمن الحدود العراقية ان رغبت في البقاء، اما اذا اختاروا العودة الى ايران فستكون عودتهم كرعايا بريطانيين على مسؤوليتهم الخاصة. ان هذا الكلام قاس فظ. ولكن ماذا يمكن ان يقال خلافه؟

ومع هذا كله. فالحنين الى اراضيهم كان بدرجة من الشدة بحيث عجز الكثير منهم عن مقاومته ودفعه. «ان الارض التي ولدتنا يخف حملها على عظامنا». وآثر بضعة الاف منهم قد يناهزون عشرة الاف، العودة الى اراضيهم واستقر عدد كبير منهم في مدن العراق ووجدوا اعمالاً يرتزقون منها، لكنك تكاد لا تجد واحداً منهم قبل ارضاً زراعية في العراق مما كانت تمنحه حكومة الاحتلال، ليس هناك عمل اشق من عملية اعانة الناس والحق يقال، كانت هناك اولا المصاعب التي تكتنف اعادة اي فرد منهم الى الوطن عبر الحدود، ثم ذللت هذه العقبة وعاد بضعة آلاف ودخلوا بمثابة لاجئين الى المدن كهمدان وتبريز (حيث سبقهم عدد من مواطنيهم) ليبقوا ويعيشوا قدر ما امكن حتى يفتح القدر لهم باباً للعودة الى بلادهم، ولا يسع المرء الا ان يقر بأسف عميق ان نتيجة انضمام هؤلاء الناس الى الحلفاء في الحرب ادى الى القضاء التام على المجتمع المسيحي ذلك المجتمع الذي ينحدر تاريخه الى زمن (المجوس) الذين جاءوا ليسجدوا امام يسوع الطفل في مذود بيت لحم. ولم تكن حياة اخوانهم الجبليين باكثر ضماناً من حياتهم وان تخلصوا من براثن الجوع والمرض والحرب، واذا كانت الديمقراطية البريطانية قد خاضت غمار الحرب لتضمن حريات الاقليات العنصرية. فليس من اللائق بها تثبيت دعائم السلاح على حساب حلفائها. بمقابل تسليمهم لاعدائهم الالداء، بل ان تتيح لهم العمل لاجل دعم تلك الديمقراطية فتلك هي الطريقة الوحيدة المثلى للقيام بأية خدمة. الا ان ذلك لم يتم الوصول الى حل له حتى كتابة هذه السطور.

اذن فتوطين الاثـوريين كان عملا مهلهـلا مرقعاً (مثـل عملية التوطين التي جرت لهم في ما بين النهرين) وككل اعـمال السلم الاخرى: قطعـة من العمل انـتهت بعـمليـة رتقٍ اعـتبـاطيـة لاجدوى منها، لان الديمقراطيـة التي تريد ان تجعل حياة البشـر اكثر آمنا واستقرارا هي الآن مرهقة جدا حتى انها تعجز عن تقرير ما تريده حقاً.

والمسألة في الواقع ليست اكثر من مهزلة يرثى لها. لم يتم تصحيحها الا بالعمل الرائع الذي انجزه في العراق ضباط عسكريون، سينالون كما يبدو عين الجزاء المخصص لاولئك الذين خدموا الحكومة البريطانية اجل خدمة!

كانت تركيا في العام ١٩١٨ راغبة في قبول أية شروط تعرضها انكلترا دون اعتراض، مع عبارة «الحمد لله!» لان تلك الشروط ليست باكثر قسوة! قال لي تركي كبير المقام كان في الأناضول سجيناً مع المؤلف عند الترك:

– نحن لانهتم حتى بمن يحكمنا، اذ لا يمكن ان يتصور الفرد منا حكومة اسوء من حكومتنا، وكل ما نريد هو ان يتولى الانكليز امورنا.

ثم كان البطء والتأخير، ثم التأخير ثم التأخير، لان ساستنا لايعرفون ماذا يريدون، حتى استطاع التركي تجميع قواه، ليظهر نفسه مرة اخرى وكالعادة أبا طيباً لكنه غير متمدن وغير قابل للتمدن عاجز تماماً عن فهم «حقوق الرعاية» عاجز تماماً عن تبين اي خطأ في اسلوب تعوده اثناء معالجته وَهْماً بوجود خيانة ما، باتخاذه وسائل القمع وذبح كل انسان والاعتداء على كلّ امرأة، كان هناك بعض العذر لبقائه في اوروبا قبل الحرب عندما كان طرده يعني اندلاع حرب جديدة. والآن وبعد وقوع تلك الحرب ارتوىء الابقاء عليه ليكون نطفة للمتاعب المقبلة بفضل اولئك الساسة الذين «اعلنوا الحرب لازالة الحرب» فعلى رأس هؤلاء يقع كل اوضار مذابح المستقبل التي لابد من قيامها هنا، رغم انف الدرس العظيم الذي تقدموا به الى العالم وهو ان المذابح يمكن ان تقام فعلا ولا ينال مرتكبوها عقاباً اذا كان الذباحون اقوياء شرسين بما فيه الكفاية[13].

كان من اهداف الحرب «تهيئة جو أمن في العالم لتطور الديمقراطية ونموها» فهل برهنت الديمقراطية على جدارة او كفاءة في اثناء تصديها لحلول المشاكل العالمية؟ ان ضعفها الرئيس متأت من عدم ثقتها بوكلائها وموظفيها، ومما لاشك فيه انه ليس ثم شعب كالشعب

---

[13] لم يمر على هذه المقولة اكثر من عشرة اعوام لتتحقق ببشاعةٍ وبروده دمٍ متمثلة في مذبحة قرية سميّل في ١١ - ١٣ آب ١٩٣٣ على يد حكومة عراقية (قومية). وبتخطيط عسكريّ تمّ فيه قتل ٧ ٣ من العزّل، فضلاً عن عددٍ مماثل من المستسلمين الرجال في جبل بيخير [راجع ستافورد: ماساة الآثوريين ط. لندن ١٩٣٥] [المترجم].

الآنكليزي فيه اداريون كفؤون، والمؤلف الذي اسعده الحظ بالعيش مع بعضهم ومراقبة اعمالهم عن كثب لا يتمنى الا ان يأتي ذلك اليوم الذي يتمكن من فرصة ليقص ما شاهد منهم على انكلترا لتعرف من أية طينة جبل اولئك الرجال الذين خدموها بكل اخلاص في بلاد مابين النهرين المحتقرة! ولان واحداً بالمائة فقط منهم لايظهر بمظهر (الصاحب) الحقيقي فيسقط من حالق بعامل الاغراء وهو غير مدرب على الصمود امامه، تقوم الديمقراطية في بلاد الديمقراطية بعرقلة اعمال تسعة وتسعين رجلا متذرعة بحجة سقوط الواحد![14] ولاتدع المسؤول المباشر العارف بكيفية التصرف بحكمة في الازمات حر اليد، وتطلب منه الرجوع الى اولئك الذين لا يدرون، وليس منتظراً منهم ان يدروا.

اما النقطة الثانية، فهي ان الديمقراطية التي يمثلها قادتها في انكلترا، تكيل الوعود جزافا وتقطع على نفسها مواثيق لاتلبث ان تخلفها « .اقسامها يسهل نطق بها و وعودها يسهل اخلافها » وقد غاب عنها ان العزم والحزم يأتيان في الشرق بالمرتبة الاولى، والحاكم الذي يتحلى بهاتين الصفتين محترم دائماً وان كان فيه قسوة لا يمكن ان يتصف بها اي انگليزي وليكن فوق الحزم عادلاً، فستراه معبوداً. لكن كيف يمكن ان يكون حازماً عندما لا يتركه رؤساؤه حرا في اتخاذ القرارات ويظلون يمطرونه بالاوامر من (داوننگ ستريت)؟

ذلكم هو سلوك الحكومة البريطانية. والفشل الذي منيت به تلك السياسة ليس فشل الموظفين المغتربين بل فشل ساسة لندن، وهو الذي يجابه باسوء شكل من الصدود والنفار من الترك والكرد والعرب والارمن والاثوريين، قليل من الناس من يعرف اكثر من المؤلف كم يمكن ان يكون هؤلاء الناس مصدر قلق وازعاج، على انهم مع هذا، يحترمون ويخدمون الحكومة النظيفة التي تعرف ما تريد.

نحن لم نشن حربا على سكان وادي الرافدين، والمفروض اننا جئنا لتحريرهم من ربقة الترك. وبعد ان انجزنا هذا العمل فليس من الآنصاف والخلق في شيء ان نمهد الطريق فيها لمجيء طاغية اخر يسيطر على قومياتها المختلفة ويعبث فيها فساداً ويدمر كل ركن فيها ذلك هو عهد مقدس لاولئك الذين رحبوا بنا ترحيب المنقذ ووقفوا الى جانبنا في السراء والضراء. حسن، اننا طردنا روحاً شريرة واحدة، فان تركنا المنزل بهذه الحال فستحل فيه سبعة ارواح اخرى اعظم خطراً من الترك وسيكون الوضع في العراق اسوء بكثير من وضعه الاول.

جرجيس فتح الله

تمت هذه الترجمة في

٢٥ من شهر ايار ١٩٦٦

---

[14] يقصد المؤلفان وكيل الحاكم المدني العام الكولونيل تي اي ولسن. [المترجم].

فهرست الأعلام

- ت -

- ث -

- ج چ -

- غ -

- ف - ڤ -

- ق -

- ك - گ -

- ل -

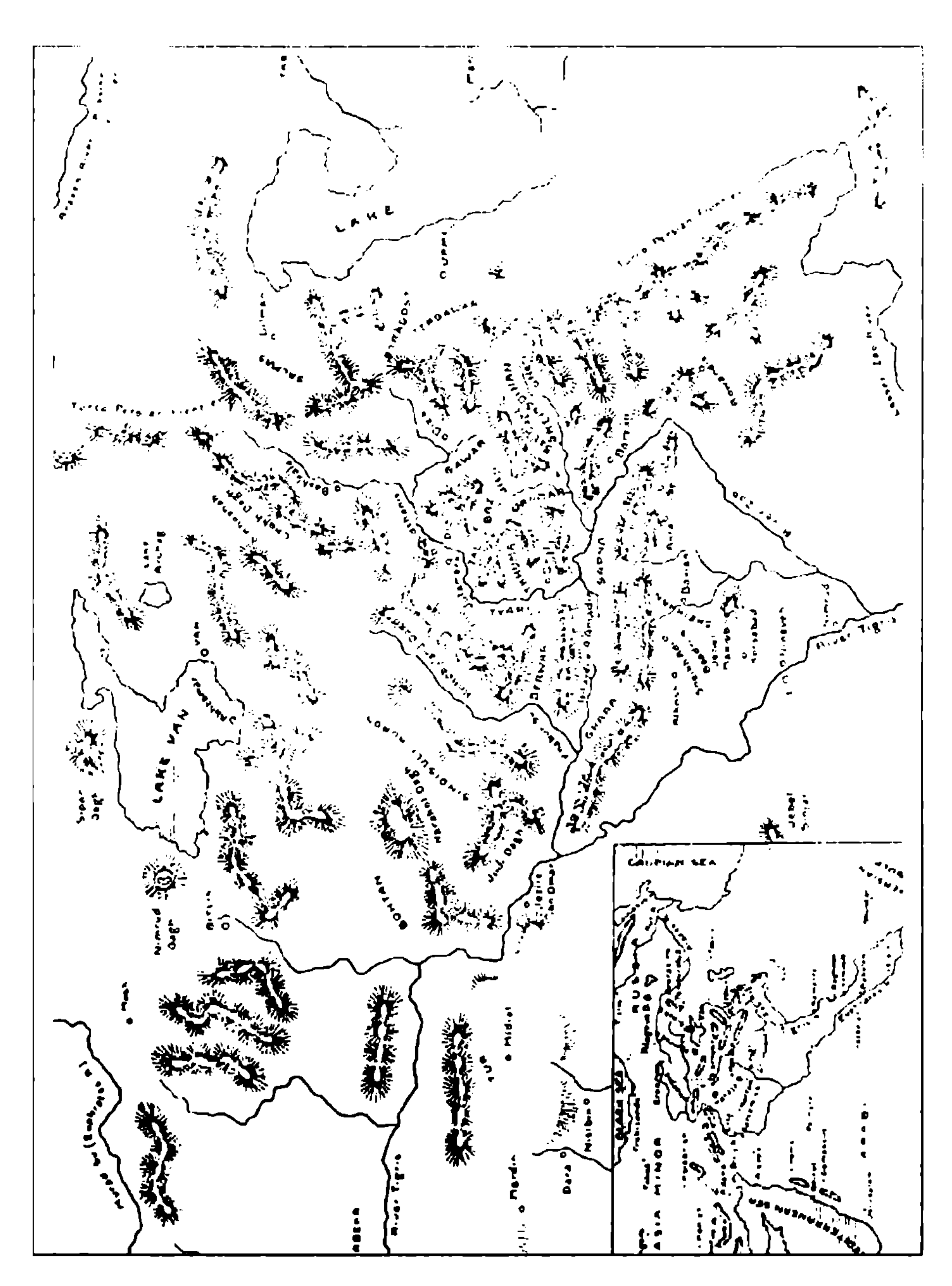
- م -

- ن -

- هـ -

الفهرست

العنوان



خارطة كردستان الشرقية (الصغرى خارطة ما بين النهرين)
الرسم ملحق بكتاب مهد البشرية للقس ويكرام وادگار ويكرام


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

The Cradle of Mankind

Life in Eastern Kurdistan

By

W. A. Wigram, (D. D)

Edgar T. A. Wigram

Translated and Commented on

By

Georgis Fat - Hullah

المؤلفان: هما اخوان من اسكتلندا وأحدهما كاهن انكليكاني ينتمي الى كنيسة انكلترا. ألّف قبل هذا كتابا معروفا باسم «تاريخ البيعة الآثورية» وكان قد عين في العام ١٨٩٧ – ١٨٩٨ عضو البعثة التي أرسلها رئيس أساقفة كانتربري الى آثوريي حكاري لتعليمهم وتمدينهم دون المساس بطقوسهم الدينية أو العمل على تحويلهم عن مذهبهم بناء على طلب بطريركهم في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد جاب هذا المؤلف بلاد كردستان الشمالية الشرقية وأمّ مدنها الكبيرة وظل فيها أكثر من عشر سنوات وغادر البلاد العراقية في العام ١٩٢١ لآخر مرة. وكانت السلطات العثمانية قد قبضت عليه أثناء الحرب العظمى الأولى بتهمة التجسس الا أنه نجا بمحض الصدفة. أما شقيقه «ادگار ويگرام» فهو مؤلف ورسام. له كتاب (شمال أسپانيا). أمّ البلاد مع اخيه ومكث حوالي ستة أشهر وتعاونا على اخراج هذا الكتاب الذي نضعه في يد القارىء.

(ان كل الصور والرسوم والمخططات التي تجدها في هذا الكتاب هي من عمله).

مطبعة

اربيل - كردستان

Aras Press

Kurdistan - Erbil

